عالم القرون الوسطى
في أعين المسلمين

المجلد الثاني

١- كتاب الشرق

٢- كتاب إفريقية السوداء

د.عبدالله إبراهيم

عالم القرون الوسطى
في أعين المسلمين

فهرس المجلد الثاني

مدخل: صورة الشرق في أعين المسلمين: بانوراما أثنوغرافية

مدخل: صورة الإفريقيين السود في أعين المسلمين

كتاب الشرق

مدخل

صورة الشرق في أعين المسلمين: بانوراما أثنوغرافية

ترتسم صورة خاصة للشرق في أعين المسلمين ، إنها صورة تقوم في معظم تفاصيلها على المعرفة، وهي مختلفة كثيرا عن الصورة التي ورثوها عن الأدبيات الجغرافية والطبية والفكرية اليونانية عن إفريقية، والصورة المشوّشة عن أهل الشمال التي تشكّلت في ظروف متوترة من المنازعات العسكرية والسياسية والعقائدية،يظهر الشرق جذابا ومتنوعا وغير مستسلم لأحكام مسبقة، يمكن القول -مع قليل من التحرّز- بأن صورة الشرق، باستثناء الأقاصي البعيدة والجزر النائية ،مقبولة وشبه خالية من التحامل والتشويه،ومن المعروف بأن الهند والصين يشكّلان قلب الشرق في القرون الوسطى،ولكن تجاورهما من الشمال ممالك، وتنحصر بينهما على ضفاف البحار المحيطة بهما أخرى، وتترامى في المحيط الهندي جزر لاتحصى شكّلت على الدوام مناطق مأهولة .وقد جاور المسلمون كثيرا من بلاد الشرق ،وأدخلوا أجزاء منها في دار الإسلام، وا رتحلوا إليها للتجارة والزيارة والمهمات الرسمية،وعرفوا جيدا الطرق البحرية والبرية المؤدية إليها،وكل هذا جعل الشرق، وبخاصة الكتلة الأساسية فيه،وهي الهند والصين، معروفة ،وهذه المعرفة لعبت دورا بالغ الأهمية في تشكيل صورة الشرق في المخيال الإسلامي، وهي صورة غير مسيئة، فالشعوب تتخفف من الأحكام المشوهة كلما اتصلت فيما بينها بروابط طبيعية،وتكاد الهند والصين تستأثران بموقع استثنائي بين كل الصور التي شكلها المسلمون عن الشعوب خارج دار الإسلام .ومع التاكيد أن الصورة لن تصبح قريبة من الحقيقة بدون أن تتضمن عناصر متعددة، وأحيانا متناقضة،لكن صورة الشرق تغلّبت فيها بوضوح ظاهر الأوصاف المُرضية، والأحكام غير المتحاملة، وبرز فيها إعجاب لايخفى في موضوعات تخص الحكمة والعدالة والتنظيم الاجتماعي والسياسي،ولكن التحفّظ على المنظومة العقائدية التي تمثلها الديانات الشرقية في الهند والصين وغيرهما ظلّت قائمة .

١ . الهند : مملكة الحكمة والعدالة

تظهر الهند في أعين المسلمين مملكة للحكمة والعدالة،ولا يبدو أن أحدا يضارعها في ذلك،ويستند هذا الحكم إلى معاينة يصعب التشكيك فيها ونقضها، وتكاد تصبح حقيقة . والأمر المثير للانتباه هو الربط المحكم بين حكمة مصدرها السماء وعدالة منبعها الأرض. ولم يتشكك رحالة ومؤرخون كبار كالمسعودي ،وأبي عبدالله بن إسحاق ، واليعقوبي،وابن بطوطة، وأبي دلف ، وآخرين مثل الرحالة التجار البحريّين كالرام هرمزي ، وابن وهب، وسليمان التاجر ، في ذلك. وعلى الرغم من هذا فينبغي إثارة قضية مهمة لها صلة مباشرة بالصور المتشكلة للشعوب فيما بينها، فمعلوم أن الموجّه العقائدي يلعب دورا أساسيا في تركيب صورة الآخر، ويحتكر الفضائل للأنا وحدها،ولكن الرحالة والمؤرخين والجغرافيين المسلمين تخطّوا هذا السياج المحكم في مرات لا تحصى إلى درجة يمكن القول بسبب ذلك إنه سياج مشكوك في فاعليته المعرفية، فقد طالما أثنوا على أقوام لسمات اختصوا بها، وفي هذا السياق نذكّر بالتقريظ الذي خصّوا به الشجاعة المميزة للأقوام الشمالية،والتجارب الحية والمثيرة التي دونها أسامة بن منقذ في كتاب "الاعتبار" تتنزل شاهدا لاشك فيه ضمن هذا المجال،والتنظيم العبادي الذي أثار إعجاب المسلمين في روما والقسطنطينية والحواضر المسيحية الأخرى، وهو ما أشار إليه ياقوت والمسعودي وابن بطوطة وابن جبير والطرطوشي لايمكن إغفاله .ينتزع التنظيم والشجاعة إعجاب المسلمين حيثما ظهرا، وبسببهما يتم في بعض الأحيان التغاضي عن المهيمن الأساسي في توجيه الأحكام: الدين. والغالب أنه في القضايا الدنيوية، بما فيها أنظمة العبادة(وليس مضامينها) كان المسلمون قد اتصفوا بنزاهة ملفتة للنظر، وموضوع الحكمة والعدالة الهنديتين يندرج في هذا السياق . من الصحيح أنهم يتحفّظون على القيم الوثنية،ويحتجون عليها علنا أو سرّا ، ولكن بالنسبة لموضوعات خاصة بالعدل والمهارة والشجاعة والصدق فقد اتصفوا بالقدرة الواضحة على تفهم معمّق لذلك.

يستثير أمر المُلك اهتمام المسعودي، ففيه إصلاح للرعية، والتشدّد في الشروط التي

ينبغي توافرها فيه يحقق مبدأ العدالة، فالمُلك ليس تملّكا عاديا، إنما هو إشاعة أخلاقيات اجتماعية سوية في الحقوق والواجبات، وفساد المالك الأول يشرع الأبواب أمام فساد الآخرين. لايمكن وقف فساد يشرعه سلوك في منأى عن الرقابة ، حتى لو كانت الرقابة رمزية، وعليه ينبغي التدقيق في آلية تولّي الملك منصبه، ودوره في متابعة شأن رعيته، ومع أن شرط الاحتجاب الملوكي حفاظا على الهيبة ظل سلوكا شائعا إلى وقت متأخر ، فإن المسعودي يلفت الاهتمام إلى الدور الذي يتعهده الملك،وعليه ينبغي اختيار من يكون قادراً على الوفاء بشروط هذه المهمة "والهند لا تملّك الملكَ عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوّامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية؛ لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها، واستخفافا بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياس(١) .

ويعمّق سليمان التاجر الفكرة المذكورة، حينما يعززها بملاحظاته المباشرة في جزيرة سرنديب(=سيلان/سيرلانكة) إذ يصار التركيز على البعد الاعتباري لمقام الملك بعد وفاته، والطقس الخاص بذلك جدير بأن يُعرض كاملا كما شاهده(= وقد نسب المسعودي الأمر إليه لكنه في الحقيقة أخذه عن سلفه التاجر) حيث تصبح جثة الملك التي تجر في الطرقات أمام الناس مثار عظة واعتبار للجميع. " ورأيت في بلاد سرنديب أن الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة مُعدَّة لهذا المعنى، وشعره ينجرّ على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: " أيها الناس، هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده" . وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيئ له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار، ويذرّ رماده في الرياح، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم؛ لغرض يذكرونه، ونهج يتيممونه في المستقبل من الزمان، والمُلك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم،

وكذلك بيت الوزراء ،والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل[٢].

لايمكن حجب القيم الأخلاقية الكبرى عن الأنظار،وقد استأثر العدل والحكمة باهتمام الرحالة، وبوصفهم غرباء -وبتعبير ابن بطوطة سعداء -فإن مظاهر العدالة تسترعي انتباههم، وقد انتبه أبو عبدالله بن إسحاق إلى أن أحد الملوك- ويقال له الجُرْزة – العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحداً يأخذه من عَدلهم، وبلاده واسعة. والعرب يرحلون إليه في تجاراتهم فيبرُّهم ويشتري منهم، ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري، عليها تمثال صورة الملك، وزنها مثقال فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك ،ويحفظ متاعنا ،فيقول : " ليس في بلادي لصٌّ اخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه مني ،وأنا الضامن لكم [٣].

ويذهب اليعقوبي إلى أنهم أهل حكمة ومعرفة وعقول مجاوزين بها مقدار غيرهم من الأمم، ويقدم سلسلة متكاملة من الأدلّة على ذلك :والهند أصحاب حكمة ونظر، وهم يفوقون الناس في كل حكمة ،فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب" السند هند "الذي منه اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدّم ،ولهم فيه الكتاب الذي يسمى "سسرد" فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها ،وكتاب "شرك" وكتاب "ندان "في علامات أربعمائة وأربعة أدواء، ومعرفتها بغير علاج ،وكتاب "سند هشان" وتفسيره "صورة النجح "وكتاب" فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة" وكتاب" أسماء العقاقير" كل عقار بأسماء عشرة، ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم، منها كتاب" طوفا في علم حدود المنطق" وكتاب"ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم" ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها[٤] .

لكنّ الدمشقي يفصّل في ذلك ، ويأتي بالدليل: والهنود عند سائر الأمم معدن الحكمة الحسية ومعدن الرياضة والعقول الحكمية والآراء الفاضلة والنتائج الغريبة. ومن ذلك

براعتهم في الشطرنج الذي هو كشاف لمن تدبر حركات قطعة وتفكر في صورة وضعه عن سر من أسرار القضاء والقدر وذلك أن الواضع له حكم فيما قدره وقرره وأمضاه وقضاه وسبق به علمه، وجرى بوضعه قدره ،ولم يشاركه في اختراعه له مشارك إن وضعه على ما هو عليه. فالشطرنج مثال حكمي، ووضع علمي يجلب به الرأي ،ويزداد به العقل، ويلهي عن الهم ،ويكشف مستور الأخلاق، ويحكي صورة الحرب، ويبين مقدار حلاوة الظفر بالخصم والنصر على العدو ومقدار مرارة القهر والخذلان ،ولا يوصل إلى قضاء الحوائج بسبب من الأسباب للفقير الخالي اليدين مثله [٥].

ويضرب المسعودي مثلا بأحد ملوك الصين المدعو "توتال" على العدالة التي فوائدها مشتركة بين الرعية والملك : وقد استقامت له الأمور، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل وحصن، وشرف، وتوج، ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً ليبني فيه هيكلا، فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر تخترقه المياه فخطّ الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان؛ فشيد الهيكل، وجعل على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته ،وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوي النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل، فرتب لهم سياسة شرعية، وفرائض عقلية، وجعلها لهم رِباطاً، ورتب لهم قِصَاصاً في الأنفس والأعضاء، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان، وتصح بها الأنساب، وجعلها مراتب؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها، ومنها نوافل يتنفلون بها، وأوجب عليهم صلواتٍ لخالقهم تقرباً لمعبودهم: منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة، ورسم لهم أعياداً،

وجعل على الزُّناة منهم حدا، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة، وأن لا يستبحن النكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كنّ عليه تكف الجزية عنهن، وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك عبيداً وجُنْدا، وما يكون من أولادهن إناثاً، فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن. وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن، وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير، وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه، وكثر النسل، فكانت حياته نحوا من مائة وخمسين سنة، وهلك، فجزعوا عليه جزعا شديداً، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورَصَّعوه بأنواع الجواهر، وبنوا له هيكلا عظيما، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب(٦).

٢ .الصين: بلاد المهارة والتنظيم والأمن

بأسلوب يماثل الإعجاب بالعدالة والحكمة الهنديتين احتفى الرحالة والجغرافيون بالمهارات الصينية التي عبرت عن نفسها بالتنظيم الشامل لكل شؤون الحياة، وكانت ملاحظاتهم قد شملت كل ما يتصل بذلك، وبخاصة التنظيم الدقيق في إدارة البلاد، وترتيب شؤون الحياة. وقد لاحظ سليمان التاجر–وهو شاهد عيان مدقق– التنظيم الصيني، وأثار اعجابه، فبسببه يعاد تنظيم العلاقة بين الملوك والرعية على نحو جديد ،وقال:في كل مدينة شيء يدعى الدّرا ، وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط ماد على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك . ومن أراد سفرا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصى، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد

الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأما كتاب الخصّى فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح(=نقاط تفتيش مسلحة) ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد عليها فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعا، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، علم كيف ذهب، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده[٧].

وكان سليمان التاجر قد ذكر نظام التعليم في الصين: فإذا ولد ذكر كتب اسمه عند السلطان ،فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم يؤخذ منه جزية ،وأجرى عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا ونجري عليه شيخا . وفي كل مدينة كتّاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون، ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم ،والفقير والغني من أهل الصين، والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة[٨] .

وقد اتصف الصينيون بالمهارات الصناعية كالنسيج والخزف والتصوير ، وكان ذلك مثار اهتمام الرحالة، إذ أورد المسعودي أنهم من أحذق خلق الله كفا بنقش وصنعة وكل عمل لا يتقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه؛ فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا أجاز صانعه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج أحد فيه عيبا طرحه ولم يجزه[٩].

وذهل ابن بطوطة وهو يرى في أقصى الشمال الشرقي للصين الدرجة العالية من الإتقان في كل شيء، فقد دخل إحدى المدن التي يسكنها عامة الناس ، فأعجب بأسواقها الحسان، وبها الحذاق بالصنائع.ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقا يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعة أبدع إلصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق، وتكون هذه الأطباق عشرة واحدا في جوف آخر، لرقتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ،ويصنعون غطاء يغطي

جميعها ،ويصنعون من هذا القصب صحافا ، ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ، ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها، ولا يحول ،وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها.

ولكن الأمر الأكثر عجبا لابن بطوطة هو الآتي،قال :وأهل الصين أعظم الأمم إحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها ؛وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في إحكامه من الروم ولا سواهم، فإن لهم فيه اقتدارا عظيما ،ومن عجيب ما شاهدتُ لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ،ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي، ونحن على زي العراقيين، فلما عدت من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط، فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه .وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا، و يصورون صورنا، ونحن لم نشعر بذلك ،وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم، وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد، وبحث عنه، فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذه(١٠) ولم يغب عن المعاينة أمر الوعي الصحي الذي لحظه بجوانبه الجسدية والاجتماعية.

وأهل الصين مهما وصفناهم من أمرهم يبولون من قيام، وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة ،فيقف على رجله إذا أراد البول، ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها(=ترسّب الحجر)، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفو بما فيها إلا مع القيام لذلك . والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم، أعني

الرجال، امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويه كما يستعمل العرب، وقولهم إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حالة التي خلق عليها، وأنه يفسد الحاسة المعروفة، فرؤوسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفى عليها ، فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل.. ولا يزوج أحد منهم قريبا ولا ذا نسب ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها.. ويدعون أن ذلك أنجب للولد(١١).

وينبغي أن نختم هذه الملاحظات بالطريقة التي يتظلّم بها الصينيون أمام ملوكهم، وهي ممالفت انتباه سليمان التاجر الذي روى أن الملك يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسي، وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لينجون إذا زل الملك في شي مما يأمر به وأخطأ رده، وليس يعبأون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ ردّه، فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب في الكتاب: كتبه فلان بن فلان، فإن كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط(١٢) .

ويؤكد ابن بطوطة على تنظيم الجوانب الاقتصادية في الصين، فيقول: وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا ، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت، وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا ،فأخذ عوضها جددا، ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها؛ لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يأخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد.

وجميع أهل الصين والخطا إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون

الطفل، تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ،ويشعلون النار فيه فيقدّ كالفحم، وهوأشد حرارة من نار الفحم، وإذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه ، وطبخوا به ثانية، ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى. ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارة سواه[١٣].

ويتوسع في كشف الحياة الاجتماعية، وبخاصة المالية ، فيقول :وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معّين أو في الفندق، فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف ، فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيئا منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه، وإن أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه ،وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه ،فإن أراد التسرّي اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وأنفق عليهما .والجواري رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه إن اختاروه ،وكذلك إن أراد التزوج تزوج، وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه .ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنها أرض فساد وحسن فائت.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر؛ فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة، فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه، فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عليها، وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه، وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ،وإن لم يفعل طلبه بهم، و هكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين في خان بالق ،وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إليه المسافر من

الأزواد وخصوصا الدجاج والإوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم[١٤].

٣ .عمران ومعتقدات

وقد أبدى أبو دلف إعجابا بالعمران الصيني،فقال: ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم ، فسرنا فيه ثلاثة أيام في ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب ثم انتهينا إلى وادي المقام فاستؤذن لنا منه، وتقدمنا الرسل فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك، ثم عبرنا الوادي وسرنا يوما تاما فأشرفنا على مدينة سندابل، وهي قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعا وعرضه تسعين ذراعا ،وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرق على ستين جزءا كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب ،تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض، ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك ،ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد، فكل شارع فيه نهران، وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم . ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس، وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلا، ومن قَتل منهم شيئا من الحيوان قُتل، وهي دار مملكة الهند والترك معا. ودخلتُ على ملكهم فوجدته فائقا في فنه كاملا في رأيه [١٥].

وتتصل بهذه القضايا مجتمعة قضية المعتقدات الدينية في الصين، التي يشرح أبعادها المسعودي بطريقة واضحة: فأمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم

شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع . .وحروبهم على عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود دارٌ، والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز، ودينهم دين مَنْ سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعا .

وإن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زُلْفَى، وإن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه، وإن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه. وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم، وهو رأي الهند في العالم والجاهل. . ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فتغيرت أحوالهم وبحثوا، وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى ما نصب لهم من الشرائع المقدمة (١٦).

٤ .التبت السعيدة

وتستأثر التبت برعاية المسعودي الذي يهتم بتفاصيل تخص أصل أهل التبت، وطباعهم،وعطورهم المميزة .وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر، وفيهم بعض التبابعة .. ولهم حضر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك، وهم معظمون في سائر أجناس الترك؛ لأن الملك كان منهم في قديم الزمان، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم. ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسمائها ومائها وجبلها، ولا يزال الإنسان أبدا ضاحكا بها فرحا مسرورا، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار. ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها، وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب

والأحداث عام، وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمعاقرة وأنواع إيقاع الرقص، حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب، ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض، والتتيّم فيهم عام، وكذلك يظهر في سائر بلادهم(١٧) .

ولو صح كلام المسعودي يكون أهل التبت أنموذجا للمجتمع السعيد .وهو يرجع أصولهم إلى اليمن السعيد ! يقول: وقد كانوا في قديم الزمان يسمون ملوكهم تبعا اتباعا لاسم تبع ملك اليمن، ثم إن الدهر ضرب ضرباته، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان، وفي بلادهم الأرض التي بها ظباء المسك التبتي الذي يفضل على الصيني بجهتين: إحداهما أن ظباء التبت ترعى سنبل الطيب وأنواع الأفاويه، وظباء الصين ترعى الحشيش دون ما ذكرنا من أنواع حشائش الطيب التي ترعاه التبتية، والجهة الأخرى أن أهل التبت لا يتعرضون لإخراج المسك من نوافجه ويتركونه على ما هو به، وأهل الصين يخرجونه من النوافج ويلحقونه الغش بالدم وغيره من أنواع الغش، وأن الصيني أيضا يقطع به ما وصفنا من مسافة البحار وكثرة الأنداء واختلاف الأهوية، وإن عدم من أهل الصين الغش في مسكهم وأودع براني الزجاج وأحكم عفاصها ووكاؤها، وأورد إلى بلاد الإسلام من عمان وفارس والعراق وغيرها من الأمصار، كان كالتبتي، وأجود المسك وأطيبه ما خرج من الظباء بعد بلوغه النهاية في النضج، وذلك أنه لا فرق بين غزلاننا هذه وبين غزلان المسك في الصورة والشكل واللون والقرن، وإنما تتبين تلك بأنياب لها كأنياب الفيلة، لكل ظبي نابان خارجان من الفكين قائمان منتصبان أبيضان نحو الشبر وأقل وأكثر، فتنصب لها في بلاد التبت والصين الحبائل والأشراك والشِّباك فيصطادونها، وربما رموها بالسهام فيصرعونها فيقطعون عنها نوافجها والدم في سررها حار لم ينضج وطري لم يدرك، فيكون لريحته سهوكة، فيبقى زمانا حتى تزول منه تلك الرائحة السهكة الكريهة، ويستحيل بمواد من الهواء فيصير مسكا، وسبيل ذلك سبيل الثمار إذا أبينت عن الأشجار وقطعَت قبل استحكام نضجها في شجرها واستحكام

موادها فيه.

وخير المسك ما نضج في وعائه، وأدرك في سرته، واستحكم في حيوانه، وتمام مواده، وذلك أن الطبيعة تدفع مواد الدم إلى السرة، فإذا استحكم مون الدم فيها ونضج آذاه ذلك وحكَّه فيفرغ حينئذ إلى أحد الصخور والأحجار الحارة من حر الشمس فيحتك بها مستلذا بذلك فينفجر حينئذ ويسيل على تلك الأحجار كانفجار الخراج والدمل إذا نضج ما فيه عند ترادف المواد عليه، فيجد لخروجه لذة، فإذا فرغ ما في نافجته اندمل حينئذ، ثم اندفعت إليه مواد من الدم، ويجتمع ثانية ككونها بدءاً، فتخرج رجال التبت يقصدون مراعيها بين تلك الأحجار والجبال، فيجدون الدم قد جف على تلك الصخور والأحجار، وقد أحكمته المواد، وأنضجته الطبيعة في حيوانه، وجففته الشمس، وأثر فيه الهواء، فيأخذونه، فذلك أفضل المسك، فيودعونه نوافج معهم قد أخذوها من غزلان قد اصطادوها مستعدة معهم؛ فذلك الذي تستعمله ملوكهم ويتهادونه بينهم، ويحمله التجار في النادر من بلادهم، والتبت ذو مدن كثيرة، فيضاف مسك كل ناحية (١٨).

٥. حظر الخمر

وليس مسألة الحكم والتنظيم هي وحدها التي تلفت انتباه الرحالة والجغرافيين، بل قضية الحكمة والعقل، فبسبب توقير العقل، وتقديس الحكمة منع الهنود الخمر، لأنها توهن السيطرة على أفعال البشر، ولهذا تمنع من شرب الشراب، ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري(١٩).

لقد لاحظ أبو عبالله محمد بن إسحاق في رحلته إلى قُمار(=كمبوديا) الطريقة الرادعة

التي يعاقب بها الملك الزناة والمخمورين في مملكته ، قال: دخلتُ مدينته وأقمت عنده بها سنتين فلم أر ملكا أغيَر ولا أشدّ في الأشربة منه فإنّه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فإنه بلغني أنه يشرب، وهو ملك سرنديب، ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها، ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ويَعافُون الخلّ من الأشربة، فخلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمضونه حتّى يصير بمنزلة الخلّ. ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأ ون به، ويزدَرُونه ويقولون: هذا رجل ليس له قدر في بلاده، وليس ذلك منهم ديانة.

وذكر بعضهم ،قال :"كنتُ ببلاد قمار فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة، لا يكلّم العرب، ومَن دخل بلاده فأهدى له شيئا كافأه بأضعاف ما أهدى له، يكافئ بالجزء مائة جزء. ولم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قُمار. والهند يقولون إن أصل كتب الهند من قُمار. ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن من شرب من قوّاده وجيشه يُحَمّي مائة حلقة من حديد بالنار ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب ،فربَّما أتلفت نفسه .وهو ملك شديد الغيرة ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرة وعقوبة منه؛ ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند. وأصل العبّاد من بلاد قمار ،يقال إن فيها مائة ألف عابد، ولملك قمار ثمانون قاضيا، لو ورّد عليهم وَلد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون ذكرا لهم جمال وهيئة يصلحون للملك[٢٠] وقد لاحظ سليمان التاجر عدم وجو الخمر في الصين: وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها[٢١] ويضيف :وأهل الصين أهل ملاهٍ، وأهل الهند يعيبون الملاهي، ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفة، ويقولون: أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكا يقاتلونهم، فيقولون: كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران[٢٢] ,وقد لاحظ ابن بطوطة ذلك عند الهنود

من البراهمة الذين :ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعايب ،وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين، ومَن شربها من مسلم حُد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح(٢٣).

٦. البغاء المدنّس والمقدّس

لم يقتصر الأمر على ماذكرنا، فالرحالة عيون مفتوحة على الظواهر الاجتماعية والثقافية والدينية ،ويلتفت التاجر سليمان إلى ظاهرة البغاء ، ويقول :إذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده فإن فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعا . ويعلّق السيرافي على كلام سليمان التاجر قائلا :إنه ذكر هذه المعلومات، ولكنه يضيف إليها أمرا آخر، وهو طرق عقاب الزناة واللصوص والقتلة،فيقول :إن سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم في القتل، أن تُشدّ يدا من يريدون قتله شدا وثيقا، ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعا من ورائه ويتقبّض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه، ويستغني عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها ،وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها، وتختلف وركاه، ويتداخل بعضه في بعض ،ويضيق نفسه، ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله .

لا يكتفي السيرافي بالتوضيح الخاص بالعقاب إنما يقدم معلومة فريدة تبين طريقة تنظيم الحياة الجنسية في تلك البلاد، ويتعلّق الأمر بالبغاء، فيقرر أن :فيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها، ومن رسمهم

فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع منزلها وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيطا فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك، ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني ،وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلسا، وإن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها ، فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات(٢٤) .

ديوان الزواني الذي ينهض بمهمة تنظيم البغاء في الصين يكشف عن اهتمام في معرفة الحالة الاجتماعية في أدق تفاصيلها .وطبقا لمعلومات السيرافي يكون البغاء قد نظّم في تلك الأصقاع ، واستحدث له ديوان يشرف عليه، والبغايا يشهرن رغبتهن في العمل مقابل رسوم معروفة، ويزودن بوثيقة لممارسة المهنة، ويحملن في أعانقهن ختما ملكيا يجيز لهنّ الدعارة،دون أن يتعرّض لهنّ أحد ،ويترتب عليهنّ في هذه الحالة الامتناع عن الزواج .ويسمح لهن بالتزيّن الدال عليهنّ، والاتصال بالوافدين من الغرباء والراغبين بهنّ من أهل البلاد .

وقد عرف ضرب آخر من البغاء، هوالبغاء المقدس في الهند الذي يمارس كطقس تعبدي في المعابد،وتحت ستار الدين ، فمن شرائعهم التي يتقرّبون بها إلى الرب : أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة ،ويقيم فيه بقّالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون، وذلك عندهم مما يثابون عليه . وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البدّ، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرا وولد لها جارية جميلة أتت بها البدّ، وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه سترا ، وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة ،وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل (٢٥) .

لم يكتف الرحالة بملاحظات خاصة بطبيعة الحياة الجنسية في الهند والصين والبلاد المجاورة لهما، فقد لفت اهتمام بعضهم أمر النساء والمنشطات الجنسية. وجرّب ابن بطوطة الحياة الجنسية هناك ، ومما ذكره عن قبيلة (المالوة) الهندية في مدينة(مره) أن لنسائهم الجمال الفائق،وهن مشهورات بطيب الخلوة، ووفور الحظ من اللذة، وكذلك نساء المرهتة ونساء جزيرة ذيبة المهل [٢٦] وفي جزر تلك البلاد نوع من السمك به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ،ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك ، وقال" كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن ،فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك [٢٧].وعلى الرغم من كل هذا فلا نعدم إشارات إلى شيوع اللواط الذي يأخذ كالبغاء طابعا دينيا أحيانا ،فقد لاحظ التاجر سليمان ، بأن أهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة[٢٨] ، وتعامل المرأة الحائض في الهند والصين معاملة مختلفة فالهنود، طبقا لملاحظات سليمان التاجر لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززا منهن ٠ والصينيون يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن .

وقد أشار البيروني إلى ظاهرة البغاء: ويظن الناس بالزناء أنه مباح عندهم ، كما شرط" اصبهبذ كابل" أيام فتحها ،وإسلامه أن لا يأكل لحم بقر ولايتلوط ,وليس الأمر عندهم كما يُظن؛ ولكنهم لايشدّدون في العقوبة عليه , والآفة فيه من جهة ملوكهم ,فإن اللواتي تكنّ في بيوت الأصنام هنّ للغناء والرقص واللعب لايرضى منهن " برهمن" ولا سادن بغير ذلك , ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحا وتوسعة على العباد ,وغرضهم فيهن بيت المال ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إليه من الحدود الضرائب ,هكذا كان عمل عضد الدولة ، وأضاف إليه حماية الرعية عن عزاب الجند [٢٩].

٧ .حرق الأجساد

لعلّ طقوس حرق الأجساد هي من أشهر مالفت اهتمام الرحالة المسلمين ليس في الهند والصين وإنما في روسيا وبعض الأقوام الشمالية،ولايقتصر ذلك على النساء أو العامة ، إنما قد

يكون من نصيب الملوك كما يظهر ذلك في مملكة بلهرا في الهند، حيث يقوم الملوك بحرق أنفسهم بالنار لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم . وفي ملوكهم مَنْ إذا قعد للملك طُبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل منهم فيأخذ منه شيئا يسيرا فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عنه حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر . وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أججّت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ثم يعدو، وبين يديه الصنوج دائرا في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلا من الريحان يملؤه جمرا، ويصب عليه السندروس (=مادة صمغية) وهو مع النار كالنفط، ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتعثر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار فيثب فيها فيصير رمادا .

فذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار، إنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم، ثم زج بنفسه في النار[٣٠] .

ويكشف لنا المشهد الآتي الذي ينقله شاهد عيان للرام هرمزي عن القدرة الهائلة في تحمل العذاب ، وهو لايقل فظاعة عن سابقه ،قال :وحدثني من أثق لقوله إنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين . ،حفر كل واحد منهما بئرا(= في جسده) وملأها ، بعد أن قام فيها على رجله سرجينا(=وقف بنفسه على وضع بَعر الجمال فيها)، وجعلا فيه نارا، ووسَّطا بينهما نَردا وجعلا يلعبان بهما، ويمضغان التانبول ويغنّيان، والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت إلى قلوبهما فطفيا، ولم يظهر منهما تألم ولا تغير . وقال إنه لا يعلم هل

حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبنا إلى اليوم الثاني وماتا فيه(٣١).

ويعلل المسعودي ذلك عند الهنود ، فيقول :والهند تعذِّب أنفسها . . بأنواع العذاب من دون الأمم، وقد تيقنتْ أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلا، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق وقد أُجّجت له النار العظيمة وعليها منْ قد وَكل بإيقادها، ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس؛ فيسير وهامته تحترق ، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل. . . . فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى إلى تلك النار ، وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا – ويدعى الجريء عندهم – فيضعه في لبته.

ويزعم المسعودي أنه كان شاهدا على مشهد الحرق ، وهو المشهد ذاته الذي ورد في رحلة السيرافي، ويقول: وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلثمائة. . فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته، يدعون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجري، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت؛ فيموت بموته، ويحيا بحياته(٣٢).

ويرجع اليعقوبي أصل حرق الجساد في الصين إلى تعلّق الرعية بالملك " توتال"، ويقول بأن أهل الصين يقولون إنهم وجدوا مكتوبا على أبواب مدنهم أنه لم يملكهم ملك قط مثله ورضوا به رضا لم يرضوا مثله بأحد قط ،وهو الذي سنّ لهم كل سنّة هم عليها في أديانهم

وأفعالهم وصناعاتهم وشرائعهم وأحكامهم، وكان ملكه ثمانيا وسبعين سنة. فلما مات أقاموا يبكون عليه زمانا طويلا، ويحملونه على أسرّة الذهب وعجل الفضة ،ثم جمعوا له العود والعنبر والصندل وسائر الطيب، وألهبوه بالنار وطرحوه فيها ،وجعل خاصته يلقون أنفسهم في تلك النار أسفا عليه ووفاء له ،وصار هذا سنة فيهم وجعلوا صورته على دنانيرهم (٣٣).

أما الدمشقي فيقدّم القيمة الاعتبارية للحرق قائلا: ومن شأن البركة أيضا أنهم يتولون حرق جثث ملوكهم وعظامهم ويدخرون رمادهم في موضع حريز ،فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم اثنان بيد كل واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد، ويذرون منه على وجوههم وأبدانهم شيئا فشيئا إشارة إلى أن هذا مصيرك أيها الملك ففكر فيه ولا تظلم ولا تفعل فيه إلا الخير(٣٤)،ويضيف الدمشقي : في كرورا صنم مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها ،فمنهم من يمشي على ركبه زحفا أبدا من مكانه حتى يصل إليه، ومنهم من يلقي نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ثم يقوم ويفعل ذلك أبدا حتى يصل أو يموت في طريقه ، ومنهم من يضفر شعره قرونا ملفوفة بالمشاق والقطن، ويسقيها بما أمكن من السليط والسمن والدهن، ويأخذ بيده خنجرا ماضيا، ثم يقصد بيت النار ومعه جماعة من أصحابه ومحبيه ،ومن السدنة يزفونه إلى النار ، فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ثم يمد يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستا بالخنجر، ويدخل يده إلى كبده ويخرجها ويقطع منها قطعة يعطيها لأخص أصحابه ويلقى نفسه في النار فتحرقه النار، ثم إذا صار رمادا أخذوا رماده وذروه في نهر الكنج أو جعلوه في ماء من نهر الكنج وذروه على أجسامهم يتبركون بذلك ،والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ . .يرون أنهم في سجن ضيق في حال حياتهم وأنهم إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى أجساد غير أجسادهم فتنشأ فيها كما نشأت من قبل وتكون أسعد مما كانت، ويرون أن الموت هو الحياة ؛فلذلك هان عليهم القتل(٣٥).

ويعلل البيروني ذلك: فأما الهند فيرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطّر

وتكفّن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر" كنك" وتلقى فيه ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد " سكر" المحترقة فأنقذهم من جهنم وحصّلهم في الجنة، وباقي رماده يطرح في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصّص، ولايحرق من الأطفال ما قصر سنّه من ثلاث، ثم يغتسل من يتولّى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميت، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الإلقاء في الصحراء أو في الماء الجاري؛وأما حقّ الحي في جسده فلايميل فيه إلى الإحراق إلاّ الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي ملّ حياته وتبرّم بجسده من مرض عياء، وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف، ثم لايفعله مع ذلك ذو فضيلة وإنما يؤثره" بيش" أو " شودر" في الأوقات المرجوة الفاضلة طلبا لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولايجوز ذلك بالنص لـ"برهمن" أو " كتشر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف أو يستأجر من يغرقه في نهر " كنك" ويتولّى إمساكه حتى يموت(٣٦).

لكنّ ابن بطوطة ، وقد خبر بعمق التقاليد الهندية ، يعرض بتفصيل ممزوج بالدهشة تلك الطقوس: ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأمجري (= في إقليم ماديا– براديش)وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا الطريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم، وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ،ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر ،وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن .وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن مَن أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ،ونُسبوا إلى الوفاء ،ومَن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ،ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها.

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ،كأنهن يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيتْ كل واحدة منهن بفرس فركبته ،وهي متزينة متعطِّرة وفي يمناها

جوزة نارجيل تلعب بها، وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار، وكل إنسان من الكفار يقول لها :أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ،وهي تقول :نعم ،وتضحك إليهم .وركبتُ مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة ،وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس؛ فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها، ولما وصلن إلى تلك القباب ، نزلن إلى الصهريج ،وانغمسن فيه ،وجردن ما عليهم من ثياب وحلي فتصدقن به، وتيت كل واحدة منهن بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها ،وبعضه على رأسها وكتفيها ،والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ، وصبّ عليها "روغن كنجُت" وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق، ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة، وقد حُجبتْ النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إليها، فرأيتُ إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم : "مارا ميترساني أزاطش مَن ميدانم أواطش است رها كُني مارا" وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام" أبالنار تخوفوني ،وأنا أعلم أنها نار محرقة؟" ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار، ورمت بنفسها فيها، وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها، وجعل الآخرون تلك الخشب من فوقها لئلا تتحرك، وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج . ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أن أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي، وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك(= النهر المقدس عند الهندوس) وهو الذي إليه يحجون، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين. وهم يقولون: إنه من الجنة،وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه، يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء

من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساي(= كريشنا)، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم ،،ثم يغرق نفسه فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورموا برماده في البحر المذكور [٣٧].

ويؤكد ابن بطوطة على أن أهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود ، والمشهد الذي حضره ابن بطولة له مايناظره عند ابن فضلان الذي مرّ بتجربة مشابهة في بلاد الشمال ، حين شاهد طقوس الحرق في البلاد الروسية .

٨ . أكلة لحوم البشر

يتردّد على ألسنة بعض الرحالة أمر أكلة لحوم البشر، ولكن المرويات لاتأخذ شكلا موثقا ، فالرام هرمزي يورد رواية عن أكل البشر في سفالة الزنج، على السواحل الجنوبية الشرقية من إفريقية، فقد حكى له مَنْ سمع بعض الربانية يقول: إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس، وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلط؛ لأن الماء والريح يحدرانه(= يدفعانه) فلا يقدر الربان على ضبطه ويغلبهم فيقع إليهم . وبين قنبله وبين هذا الموضع الذي فيه الزنج الذين يأكلون الناس نحو ألف وخمسمائة فرسخ[٣٨] هذا في إفريقية أما في الشرق فتتناثر الأخبار الخاصة ، وقد أورد التاجر سليمان ذلك في أخبار جزيرتين من جزر المحيط الهندي :أهلهما يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، فرج أحدهم مثل الذراع، يعني ذكره، عراة ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مرّ بهم، وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفذ ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء،وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر[٣٩] .

وأهل جزيرة ملجان جوار سرنديب يقومون بذلك، إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا، وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير[٤٠]. لكن الرام هرمزي نفسه يورد حكاية يمكن أن تندرج في باب العجائب عن عملاق في جريرة الزابج (= أندنوسيا) كان

يقـوم بذلك ، لكن الحكاية تكشف أن ذلك لم يكن حكرا عليـه، وعلى الرغم من الطابع العـجـيب للحكاية سنوردها لأنهـا تكشف عن جـانب من الصـورة التي شكلهـا الرحـالة والجغرافيون عن جزء من بلاد الهند، فيما يخص قضية أكل لحوم البشر.

قال الرام هرمزي :وسمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش خرج من البصرة قِبَل الزابج أو ما قاربه .. فتخلص ووقع إلى جزيرة قال: فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواريت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي، فلما أصبحت رأيت غنما قد أقبلت نحو مائتي رأس في قدر العجاجيل(= العجول) يسوقها رجل لم أر مثله عظيم الخلقة طويل عريض بشع المنظر ومعه عصاه يسوق بها الغنم . فقعد على ساحل البحر ساعة، والغنم ترعى بين ذلك الشجر، ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار، ثم قام فرمى بنفسه في الماء ،واغتسل ،وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه ،قد جعلها في وسطه كالميزر، ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ،ومصه إلى أن شرب ما فيه، ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة، ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم يكذب فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني ،فأومى إليَّ بيده أن أنزل، فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا .

وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب، فلما نتفه أخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به رأسه وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ،ولم يبق إلا عظامه . فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني ؛فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد،وأوردهم خليجا في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربت، وقد أيقنت بالموت، ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولا وعرضا وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلتُ معها وإذا في وسط ذلك الموضع مثل الغزالة(= ربما يقصد خيمة) في ارتفاع نحو

عشرين ذراعا على خشب وثيق، والغزالة شبيه بالبيت، فما عمل شيئا دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فدق رأسها بحجر، ثم أجج نارا وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار، فأكل كل ما في جوف الشاة نيا، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدد كبير، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخها ،وهي تصيح ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك ،ثم صعد فأخذ شيئا كان يشربه ،ثم نام فجعل يغط (=يشخر)كما يغط الثور ،

فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلا إلى موضع النار، وتتبعت ما بقي من اللحم ،فأكلت ما يمسك رمقي وخفت أن تنفر الغنم فينتبه؛ فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة ،وبقيت مطروحا إلى الغد ، فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم، ويوحي إليّ بكلام لا أفهمه، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني، وقد صار عليّ شعر عظيم ، وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسه، وكان ذلك سبب تأخير أكلي، ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام، يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله، ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين، فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئا من الغنم، وإن اقتصرت (= قلّت) الطيور أكل شاة ، وصرت أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب، وأخدمه ،وأدبر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهران ،وصلح جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور، وفهمت أنه عزم على أكلي ، وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمرا ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل، وكنت أرى في تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقه ما قد عمل، والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار ،

فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام، فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من أغصانها إلى الأرض ،ومضيت على وجهي أطلب الصحراء ،قد كنت قد أشرفت عليها من تلك الشجرة. فلم أزل أمشي إلى الصباح ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة

الساق ومعي خشبة قد أعددتها وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه، فإما أن أدافع عن نفسي وإما أن يقتلني فالموت لا بد منه ، فمكثت يومي في الشجرة فلم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها ونزلت، فمشيت ليلتي إلى الصباح ؛فوجدت نفسي في صحراء وفيها أشجار متفرقة، فمشيت وما أرى أحدا إلا الطيور ووحوشا لا أعرفها وحيات ،ورأيت ماء عذبا فأقمت بمكاني، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب، والطيور تطوف بالغوطة فعاينت طيرا منها فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال، ولم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى ،فشددت نفسي فلما فرغ من أكله شرب ماء وتحلق في الهواء، فأشرفنا على البحر فاستسلمت للموت على أي حال كان لا محالة، فانحط على جبل في الجزيرة فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف فجعلت أجر نفسي خوفا منه، ونزلت من الجبل فتعلقت بشجرة ،وأخفيت شخصي فيها، فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس، فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان فما مشيت قليلا حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكلموني كلاما لم أعرفه فحملوني إلى القرية، فأدخلوني إلى منزل وحبسوني مع ثمانية أنفس، فسألوني عن خبري فحدثتهم ،وسألتهم فخبروني أنهم أهل مركب فلان، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج فوقع عليهم الخب فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلا فوقعوا إلى هذه الجزيرة فأخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت ، فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح؛ فجعلت أتأسى بالقوم، وإن كنت أؤكل فقد كان عليّ الموت ،وبعضنا يتأسى ببعض ،

فلما كان من الغد جاؤنا بسمسم أو بشيء يشبهه وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا، فقالوا :هذا طعامنا منذ وقعنا هاهنا فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا ،ثم جاءوا فنظروا إلينا وأخذوا أحسننا حالا في جسده، فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض فأخرجوه إلى وسط المنزل، ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ،ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا، ونحن نرى ،ثم شووه وأكلوه ،وطبخوا بعضه وأكلوا

بعضه نيا مملوحا ثم شربوا شرابا وسكروا فناموا، فقلت لهم قوموا فنقتل هؤلاء فإنهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله ،وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة، فاختلف رأينا بقية يومنا، وأظللنا الليل وأصبحنا ،فجاؤونا بما نأكل على الرسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة ،فلما كان في اليوم الخامس جاؤونا فأخذوا منا واحدا ففعلوا به مثل الأول فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم،وأخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم .

فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل وقد كنا ميزنا بالنهار (=عرفنا المكان خلال النهار) فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة أو ثمانية خوفا من القوم، فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب، وأخذنا نمشي الساحل الساحل يومنا ،ثم أمنَا القوم فكنا الآن نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيط ،وهي كثيرة الموز زمانا طويلا، إلى أن وقعنا في غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب، فعزمنا على المقام بها أبدا إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة وبقينا أربعة . فبينما نحن في بعض الأيام نمشي، وإذا بقارب خلق(= عتيق) قد قذف به الموج ،وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب في الطين والموج يضربه وهو مطروح ،فاحتلنا في رميهم إلى البحر، وغسلنا القارب، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغري(= الصلصال) وأصلحنا فيه دقلا من الشجر وسوينا حبالا من خوص النارجيل وشراعا ليفا ،وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء ،وبعضنا يدري سفر البحر، وسرنا نحن خمسة عشر يوما، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف .وخبّرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زوادا، وخرج كل واحد منا يقصد بلدا. فرجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته، وقد مات أكثر أهله، ووجد لوالده وِلْدا فأنكروه . وقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسرا وحاله حسن فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك[٤١] .

٩. السحر

ولم تكن الحكمة الهندية التي وقفنا عليها خالية من بعض المظاهر السحرية التي سيكون لابن بطوطة فضلا في عرض مثال دال عليها. والممارسة السحرية كانت شائعة،وقد لحظها الرحالة، وعلى العموم كانت من الممارسات المعروفة في ذلك الوقت، قال ابن بطوطة: رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (= نرور)مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة .وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا ،وكانوا يعجبون في شأن دخوله .وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير، وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه، فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه، وذكروا أنه كذلك فعله بالناس .ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة.

وهذه المرويات تشحذ ذهن ابن بطوطة ،فيورد نبذا منها تكشف عن وجود تلك الظاهرة: ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ،وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم به الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة ،ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما، وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركِّبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو شهر؛ فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة ،والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ،ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون ،والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها، ومنهم

من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته .وتقول العامة : إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر الميت وجد دون قلب ،ويقولون أُكل قلبه وأكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار .

ولما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط ،والسلطان ببلاد التِّلنك(= مملكة هندية عاصمتها وارانكل) نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم ،فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم، فكان عندي منهم خمسمائة نفس ،فعمّرت لهم سقائف في دارين ،وأسكنتهم بها .وكنت أعطيهم نفقة في خمسة أيام ،فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم ،وقالوا: إنها كفتار ،وقد أكلتْ قلب صبي كان إلى جانبها وأتوا بالصبي ميتا ،فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب السلطان فأمر باختبارها؛ وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعُلم أنها كفتار. ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار، فأمر بإحراقها بالنار ،وأتى أهل البلد رجالا ونساء ،فأخذوا رمادها ،وزعموا أنه مَن تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار.

بعث إلي السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم، فأمرني بالجلوس ،فجلست ،فقال لهما :إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا : نعم، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الارض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا ،فعجبت منه وأدركني الوهم فوقعت إلى الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت ،وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه ،فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه ،وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا .فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل ،ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمر تهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ، فانصرفت عنه وأصابني الخفقان ،ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني[٤٢].

١٠.غرائب

والسحر الهندي هوالذي سيقودنا إلى الغرائب التي شاهدها الرحالة أو سمعوا بها، وكثير منها– وقد اكتفينا بأمثلة– تتردد في المخيلة كجزء من مرويات عن عالم غريب وبعيد . تتمدد الغرائب في كتب الجغرافيا والرحلات ، وبخاصة إذا تعلّق الأمر بأقوام في أقاصي الشرق أو الشمال أو الجنوب .وقد أورد القزويني عن ابن الفقيه قوله عن أندنوسيا أن بها سكانا شبه آدميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه ،ولهم كلام لا يفهم ،وبها أشجار، وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة. وبها نوع من النسانيس له أجنحة كأجنحة الخنافس من أصل الأذن إلى الذنب. وفيها وعول كالبقر الوحشية ألوانها حمر منقطة بالبياض وأذنابها كأذناب الظباء ولحومها حامضة [٤٣]. أما سليمان التاجر فيورد أخبارا عجيبة عن بعض سكان الجزر في المحيط الهندي ، فثمة جزيرة يقال له ملجان فيما بين سرنديب وكَله ،وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر فيها قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير، وهم في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيه بالغياض والآجام. وذكروا أن في ناحية البحر سمكا صغيرا طيارا يطير على وجه الماء يسمى جراد اليم.

وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود. إلى البحر. وذكروا : أن في البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار حجرا، قال: يتخذ منه كحل لبعض علل العين[٤٤]. ولايقتصر الأمر على أهل الجزر النائية فقد يشمل ذلك أهل البلاد البرية، ، فبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في

وقت حاجته [٤٥] .ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمون الجوكية أصحاب مخارق وشعبذة وتخييلات، وطائفة يسمون بوكية أصحاب رياضات وتجريد يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر ولا يمشون حيث مشوا، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبدا إلا وهم أزواج صاحب ومصحوب، ومن خلتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طبا منه وإخراجا للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي، وفي رقبة المصحوب جرس معلق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البُد(=معبد التماثيل المقدسة) ثم يحرك الجرس تحريكا مخصوصا فيتبادر إليه من سبق من سامعيه ويغرف له كشلي، ويناوله إياه فيأتي به إلى صاحبه فيضعه بين يديه ثم يتأخر عنه المصحوب، فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر، فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ثم يقوم ويترك الباقي فيأتي الدافع له فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله[٤٦].

وفي رحلته من البنغال إلى جزيرة جاوة مرّ ابن بطوطة في بلاد البرهنكار، وهي جزر أنداماان التابعة لبورما،فشاهد قوما أفواههم كأفواه الكلاب، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر ،وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير، ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب، وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر [٤٧] أما بلاد يأجوج ومأجوج التي حيّرت الجميع، ولم يصل إليها _فيما يروى–سوى سلاّم الترجمان ، كما تورد رحلته إليها بعض المدونات الجغرافية ، فإن ابن بطوطة لم يستطع الوصول إليها، وقد ذكر أنها تقع وراء مدينة كانتون الصينية، حيث لاتوجد بعد ذلك مدينة،وبين كانتون وسد يأجوج ومأجوج ستون يوما، يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم ،ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها .ولم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور ولا من رأى من رآه [٤٨] أما ابو زيد البلخي فيذهب إلى أنهم صنف بين الصين والترك الغالب عليهم خفش العيون وفطس

الأنوف وقصر القامة جنوبهم الصين وشمالهم الترك ،ومغاربهم مشارق قشمير وتبت، فلا يدرى ما في مشارقهم، وهم أسوأ الناس عيشا، وأخبثهم طعما ،وأخرقهم خرقة، وأقلهم تمييزا وفطنة كما يزعمون[٤٩].

خاتمة

لاحظنا كيف أن الرحالة والجغرافيين الذين اهتموا بالشرق قد ركزوا اهتمامهم على البشر دون غيره أما الأشياء الأخرى كالطبيعة والحيوانات والنبات فقد جاءت ثانوية، تركّز الاهتمام على النسيج الاجتماعي من مُلك وعدالة ومهارات وعادات وتقاليد وغير ذلك بما يمكن القول: إن صورة الشرق ممثلة بالهند والصين والبلاد المجاورة لهما قد تشكّلت استنادا إلى معطيات إنسانية متنوعة وشاملة ، ولو فحصنا الصورة التي رُكّبت للشرق في أعين المسلمين لوجدنا صورة شاملة لكل جوانب الحياة ، وفي مقدمة ذلك الجانب البشري الذي يؤلف لبّ الجغرافيا الإسلامية، ويتنزّل في صلب اهتمام الرحالة، والواقع إنهم تميزوا بتفهّم لاينكر لتقاليد الشعوب الشرقية، ومع أن كثيرا من عاداتها مختلفة عمّا هو معروف في دار الإسلام من عادات، فضلا عن اختلاف المنظومة العقائدية إلاّ أن الرحالة والجغرافيين ، باستثناء ملاحظات عابرة ، وردت أحيانا في سياق المثير والعجيب، قدموا وصفا مفصلا يكاد يخلو من الأحكام الانتقاصية التي ظهرت في رؤيتهم لبعض الأقوام الشمالية والإفريقية، وكان بارتولد المتخصص في دراسة المشرقيّات الإسلامية في آسيا الوسطى قد ذهب إلى أنه من العسير العثور على مصنفّات تاريخية تعنى بتلك المناطق قبل الوجود الإسلامي فيها(٥٠) .فتاريخ تلك الأصقاع صاغ جزءا كبيرا منه المسلمون من جغرافيين ورحالة ومؤرخين.ولعل الشرق كان في كثير من بلاده اتصف بأنه يتضمن باستمرار مَنْ له صلة بعالم المسلمين، وخاصة من التجار الذين كانوا يجوبون بلاد الشرق،إلى درجة تزايد نفوذهم ، وأصبحت لهم في الصين مستوطنة خاصة بهم، أما الشواطيء الهندية الطويلة والمتعرجة، والجزر المرمية في المحيط الهندي فقد كانت أماكن مألوفة للمسلمين منذ القرن الثاني الهجري (=الثامن الميلادي) فالشرق لم يكن في صورته العامة في منأى عن تصور المسلمين، ولم يندهشوا باكتشافه كما حصل بشأن المناطق الأخرى.والحق أن الشرق بالبلاد التي وقفنا عليها كان منذ وقت مبكر مزيجا من أقوام وعقائد متداخلة ومختلفة، ولم يكن

العنصر الإسلامي ولا العرق العربي غريبا عنه، وتقدم لنا رحلة ابن بطوطة براهين لاتنتهي على وجود المسلمين والعرب من العراق ومصر والمغرب في أعماق الهند والصين،وهم يتولون مهاما دينية كالوعظ والحديث والفقه والقضاء، ويمخر هذه البلاد التجار القادمون من دار الإسلام، التي ينظر إليها بوصفها رمزا للقوة والعدالة.

هوامش المدخل

١ .المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد(القاهرة ،

المكتبة التجارية ، ١٩٦٤)١ :٨٣

٢ . السيرافي،رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي(أبوظبي، المجمّع الثقافي،١٩٩٩)ص٤٥

٣ . ابن رسته، كتاب الأعلاق النفيسة(ليدن ، بريل، ١٨٩٣)ص١٣٥

٤ . اليعقوبي ،تاريخ اليعقوبي (بيروت ، دار صادر،١٩٦٠) ١ : ٩٤

٥ . الدمشقي ،نخبة الدهر في عجائب البر والبحر(بغداد، مكتبة المثنى) ص٢٧٠

٦ . مروج الذهب ١ :١٣٥

٧ . رحلة السيرافي ص٤٣

٨ .م.ن.ص٤٠و٤٥

٩ . مروج الذهب ١ : ١٤٦

١٠ .ابن بطوطة ، رحلة ابن بطوطة،تحقيق عبدالهادي التازي(المغرب، أكاديمية المملكة المغربية،١٩٩٧)٤ : ١٣٢

١١ . رحلة السيرافي ص٧٧

١٢ .م.ن.ص٤٠

١٣ . رحلة ابن بطوطة ٤ : ١٢٩

١٤ .م.ن . ٤ : ١٣٤

١٥ . ياقوت الحموي ،معجم البلدان (بيروت ، دار صادر) :٤٤٤

١٦ . مروج الذهب ١ : ١٣٦-١٣٧

١٧ .م.ن. ١ : ١٥٧

١٨ .م.ن. ١ : ١٥٨-١٥٩

١٩. م.ن. ١ :٨٤

٢٠. الأعلاق النفيسة ،ص١٢٣

٢١. رحلة السيرافي ،ص٣٣

٢٢. م.ن. ص ٤٧

٢٣. رحلة ابن بطوطة ٤ : ٢٧

٢٤. رحلة السيرافي، ص٥٧

٢٥. م.ن. ص٨٤

٢٦. رحلة ابن بطوطة ٤ : ١٧

٢٧. م.ن. ٤ : ٥٧

٢٨. رحلة السيرافي،ص ٤٩

٢٩. البيروني، في تحقيق ماللهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذولة (حيدر آباد ،م طبعة دائرة المعارف العثمانية،١٩٥٨) ص ٤٧١-٤٧٢

٣٠. رحلة السيرافي، ص٧٨

٣١. الرام هرمزي ، عجائب الهند :برّه وبحره وجزايره (تحقيق فان دي ليث، ليدن ، بريل) ص١٣٣

٣٢. مروج الذهب ١ : ٢٠٩

٣٣. تاريخ اليعقوبي ١ : ١٨١

٣٤. نحبة الدهر في عجائب البر والبحر،ص١٧٢

٣٥. م.ن. ص١٧٤

٣٦. في تحقيق ماللهند، ص٤٨١

٣٧. رحلة ابن بطوطة ٤ : ١٠٠-١٠١

٣٨. عجائب الهند ،ص١٤٣

٣٩. رحلة السيرافي،ص ٢١-٢٢

٤٠ .م.ن.ص٣٠

٤١ . عجائب الهند،ص١٤٥–١٥٠

٤٢ . رحلة ابن بطوطة ٤ : ٢٠–٢١

٤٣ . القـزويني، عـجـائب المخلوقـات وغـرائب الموجـودات(بيـروت ، دار الآفـاق الجديدة)ص٤١٠

٤٤ . رحلة السيرافي،ص ٣٠–٣١

٤٥ .م.ن.ص٨٤

٤٦ . . نحبة الدهر في عجائب البر والبحر،ص١٧٢

٤٧ . رحلة ابن بطوطة ٤ : ١٠٧–١٠٨

٤٨ .م.ن. ٤ : ١٣٩

٤٩ . البلخي،المسالك والممالك(ليدن ، بريل) ص١٦٤

٥٠ . فاسيلي بارتولد، تركستان من الفتح العربي إلى الغزو المغولي، ترجمة صلاح الدين عثمان هاشم(الكويت، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب،١٩٨١)ص٥٩

ملحق: ابن بطّوطة: رحّالة استثنائي من القرون الوسطى

يعتبر ابن بطوطة شيخ الرحالة المسلمين،وقد كان له فضل لاينكر في رسم صور الآخر في الشمال والشرق والجنوب،وقد رغبنا أن نفرده هنا بكلمة خاصة به؛لأن رحلته إلى الهند والصين والجزر المتاخمة لهما تعتبر وثيقة ثمينة في معرفة الأحوال البشرية في عصره.

تنبثق رحلة ابن بطوطة بوصفها نصا متعدد المستويات من أعماق الماضي لتذكّر بالقوة الهائلة للإنسان، إنسان القرون الوسطى – ممثلا بابن بطوطة – الذي بمقدار ما يتصف بالجَلد والمطاولة في التعايش والارتحال، فهو يتميز بأنه مصاب بداء لا شفاء منه : السفر الدائم والمصحوب بحنين أبدي إلى المجهول والغامض،والتعلّق المبطّن بحب الاكتشاف.

لم يستطع ابن بطوطة أبداً التخلّص من هذه النوازع المتقاطعة ، اتجاهه إلى الشرق في رحلة تقرب من ربع قرن كان يقوده باستمرار إلى حنين جارف صوب الغرب . في النهاية انتصر الحنين الأخّاذ ،حينما قارب رحّالتنا الخمسين ، في هذه السن لايمكن تخطّي الحقائق الكبرى: الشوق المفعم بالحنين،والتأمل المصحوب باليأس، وبداية انطفاء الجسد، وذبول الأحلام الكبيرة.

عاد ابن بطوطة إلى مسقط رأسه حيث تنفس الصعداء، وألقى عصا التّسيار ،ولكن الدّاء الأبدي ،داء الارتحال دفعه لخوض مغامرتين أخريين ، أقلّ تطوافاً من رحلته المشرقيّة : أولاهما إلى الأندلس، والأخرى إلى إفريقية .ولولا الاستدعاء الذي وصله لتوغّل بعيدا في قلب القارة السوداء ،إلى مابعد الخط الوهمي الذي رسمه الرحّالة العرب قبله ،إلى المنطقة المحرّمة التي كانت تسمّى : سفالة الزنج . في حدود علمنا لم يجرؤ أحدٌ على تجاوز ذلك قبله. وما يؤسف له أنه كان يُنظر آنذاك إلى الشعوب التي تعيش ما وراء تلك التخوم على أنها كالبهائم ، وهي لا تعرف دينا ، كما يقرر قدامى الجغرافيّين.

مخر ابن بطوطة العالم القديم ، ومن المؤكد أن رحلاته التي تنطلق من مركز لتعود إليه تعتبر طبقا لأوثق المصادر أوسع الرحلات في القرون الوسطى . فمن المغرب إلى الأقاصي

الشرقية لأسيا ، ثم العودة والانطلاق إلى الأندلس ، والعودة ثم الاتجاه إلى إفريقية ، ثلاث دوائر كبرى غطت الأماكن الحيوية في العالم القديم ، إلى ذلك فقد زار أقاليم دار الإسلام جميعها،وانطلق باتجاه القسطنطينية ، واقترب من كنيستها الكبرى : معقل المسيحية في تلك الحقبة ، ويمّم ناحية البلاد الروسية، وتوغّل فيها، لكنه لم يبالغ في تقدمه ووصفها ببلاد الظلام، وزار شرق أوربا،وترك وصفا أخّاذا لتلك البلاد.

ما تتصف به رحلاته أنها تأخذ أشكالا متعددة ،وفي جملتها تكون أشبه بالدوائر المتقاطعة ، ولهذا كثيرا ما يمر ببلاد سبق له أن زارها . والواقع أن رحلته إلى الشرق تشبه نافورة مياه ضخمة تتضمن سيلا من النافورات الصغيرة .لم يشعر بأنه يكرر نفسه ، في كل مرة يكتشف شيئا جديدا مذهلا ومثيرا للدهشة .

كانت رحلاته –بالتأكيد– أشمل وأوسع من رحلات سلفه الذي نال شهرة كبيرة : "ماركو بولو" الذي سبقه إلى أصقاع الشرق بحوالي ستين عاما.وكما قال "بوكهارت" في وقت مبكر من القرن التاسع عشر فإن ابن بطوطة أعظم رحالة دوّن ملاحظاته عن العصر الوسيط، وفضّله "كراتشكوفسكي" على" ماركو بولو" حينما قرر بأن إحساسه العميق بالبعد الحضاري للشرق كان أعمق بكثير مما لدى سلفه الطلياني، وفي وقت كان فيه "ماركو بولو" قد شُغل بالمتاجرة التي استأثرت على ما سواها باهتمامه ، فإن رحّالتنا شغل بكل شيء ، و تعتبر رحلته حسب المعايير السائدة في ثقافة القرون الوسطى رحلة في طلب العلم بالمعنى الواسع للكلمة ، فقد كان يتتبع الأولياء والفقهاء حيثما كانوا ، فما إن يطرق سمعه اسم أحدهم إلا ويغير مساره إليه من أجل اللقاء به ، ومع أنه تزهّد مرة، ووزع ثروته الكبيرة على الفقراء ، لكنه بالإجمال كان يعيش حياة متجددة وحيوية ،ينعشها بالزواج في كل بلد يزوره تقريبا. وكان يُشغل بمتع الحياة الطبيعية ،ولا يتردد في البحث عن المنشطات الجسدية والذهنية، ولا في وصف أنواع النساء، حيثما حلّ وارتحل .

لم تحل عقيدته وثقافته دون الاندماج في المجتمعات التي عاشرها، على العكس تماما، كان ابن بطوطة قادرا على التعايش والتفاعل بصورة يندر مثيلها في ذلك الوقت . وفي عصر

كانت العقائد فيه هي التي تحدد الانتماءات الشعورية، وكانت الشعوب تنتج صورا مشوّهة لبعضها بحسب الثقافات الدينية السائدة التي تركّب صوراً تطهرية للذات ،وصوراً مستكرهة للآخر، كان ابن بطوطة قد تخطّى ذلك بممارسة حياة بين أقوام مغايرين له في أشياء كثيرة .

ينبغي علينا أن نأخذ بالاعتبار أنه قد اخترق ثلاثة عوالم من عوالم القرون الوسطى دون أن يحجم عن طقوسه الدينية والحياتية والفكرية والاجتماعية ،وهي: دار الإسلام التي لمس تضاريسها كاملة من الغرب إلى الشرق، ومن الجنوب إلى الشمال،وتجوّل فيها ذهابا وعودة ، ودار الحرب التي بلغ أبعد نقطة فيها، وهي شرق الأقصى للصين، بما في ذلك الهند وكل البلاد المجاورة لها من الشرق ،وفي البحر عبر سيلان وأندنوسيا وجنوب شرق آسيا، ثم دار الصلح (= العهد) وهي البلاد المزدوجة الانتماء ،والمهجّنة من العالمين المذكورين،والتي لها ولاء مشترك للاثنين. وحيثما أقامّ كان يتوافق مع النسيج الثقافي العام،ولا يمكن القول أن عقيدته قد منعته من الاندماج ، أو حالت دون ذلك ،فقد اتصف بقدرة واضحة على التكيّف، وتخطّي الحبسة الثقافية-العقائدية المهيمنة آنذاك.

كان يتعلّم، ويعمل، ويتزوج، ويواصل ترحاله الدائم، ويشارك في الحياة ، ولا يتوجّس من الآخر كما نجد ذلك عند بعض الرحّالة والجغرافيين المسلمين الآخرين مثل : الإصطخري، وابن خرداذبه ،والمسعودي . إنه يشبه إلى حد ما ابن فضلان والبيروني ، فهؤلاء الثلاثة قد عرفوا الآخر مباشرة. ولم يعتمد على المرويات الشفهية التي تختزل الشعوب الأخرى إلى كتل خامدة وضالّة ووثنية وعاصية. كتل صمّاء لا تاريخ لها ،ولا هويات، كما كان شائعا في القرون الوسطى إذ تتبادل الشعوب الصور الإكراهية المبنية على تصورات عقائدية ضيقة. كان ابن بطوطة سفيرا يخفق قلبه بالحب،وعقله بهاجس التعايش ، وكان الاختلاف ينعش مخيلته وذاكرته على حدٍّ سواء.

إن المعاشرة تكشف عمق التماثل في الهوية البشرية ،وهي تحترم في الوقت نفسه الخصوصيات الثقافية، فالتعدد والمغايرة والاختلاف يفضي إلى التنوع والخصب. ولم يخش

ابن بطوطة أبداً من الآخر. وبسبب كل هذا جاءت رحلته نصا ثقافيا غنيا متعدد المستويات – كما قلنا– فهي مدونة شديدة الثراء في كشف العالم القديم، تتضمن معلومات تاريخية وجغرافية ودينية غزيرة ، ويمكن اعتبارها دون تحفّظ إحدى المصادر المهمة عن أحوال العالم في القرن الرابع عشر الميلادي (= الثامن الهجري)من وجهة نظرنا، نعتبرها أهم وثيقة أثنوغرافية عن تلك الحقبة .

لقد صدق ابن جُزي مدّون الرحلة ،حينما وصف ابن بطوطة بأنه (السائح الثقة الصدوق، جوّاب الأرض، ومخترق الأقاليم بالطول والعرض) وأنه (طاف الأرض معتبراً ،وطوى الأمصار مختبراً، وباحث فرق الأمم، وسَبر سِيَر العرب والعجم) وهو الذي (طوى المشارق إلى مطلع بدرها بالمغرب) .

إنه ذلك الرحالة العظيم الذي كان يسابق الشمس في إشراقها ،وهي تزيح عن العالم غطاء الظلام، فلا غرابة أن يُسمّى (شمس الدين)،وهو يستكشف بإصراره العجيب بلاداً متعددة الأعراق والأديان والثقافات ، ثم يستعيد كل ذلك في رحلة مبهرة وعميقة ،تصلح مثالا ممتازا للتآلف البشري، ومدونة كبيرة تؤرخ للرغبة الدائمة في البحث والتعلّم.

مدوّنة النصوص

حرصنا في كتاب الشرق أن نرتّب مادة شاملة ومتنوعة تحيط بالأبعاد التاريخية والبشرية والاقتصادية والدينية لشعوب هذه المناطق، وجاءت أولا النصوص التاريخية، وتلك الخاصة بالبشر وطبائعهم لكشف أحوال تلك البلاد، وذلك قبل أن ندرج الرحلات التي تبيّن خصب الملاحظات التي خلفها الرحالة المسلمون،وهم يجوبون البحار والبراري،وصولا إلى أقصى الحدود الشرقية للصين.وسوف تبرهن النصوص على طبيعة الصورة التي تشكلت لبلاد الشرق، وبخاصة الهند والصين في أعين المسلمين. فقد فتحت الحدود بين دار الإسلام وهذه الأصقاع، ومنذ وقت مبكر لعب طريق الحرير دورا بالغ الأهمية في توثيق العلاقات الاقتصادية بين الطرفين، كما أن موانئ المحيط الهندي المحاذية لشواطئ شبه الجزيرة الهندية، وجنوب شرق آسيا، وشرق الصين، فضلا عن الجزر المتناثرة في ذلك المحيط، قد سهلت التواصل بأفضل أشكاله.وفي بدايات القرن الثاني الهجري مخر البحارة العرب هذا المحيط، وفي القرن الثالث تركوا رحلات مدوّنة تثبت معرفة مبكرة في تلك الأقاصي.ومن المؤكد أن العلاقة بالشرق كانت أوثق من غيرها، تؤكد ذلك المدونات الغزيرة التي ظلت مثار عناية الرحالة والجغرافيين طوال القرون الوسطى.

(45)

أخبار الهند

المسعودي(توفي ٣٤٦هجري=٩٥٧ ميلادي)

من كتاب (مروج الذهب)

(ذكر جماعة من أهل العلم و النظر والبحث الذين وصلوا الغاية بتأمل شأن هذا العالم وبدئه أن الهند كانت في قديم الزمان الفرقة التي فيها الصلاح و الحكمة ,فإنه لما تجيّلت الأجيال، وتحزّبت الأحزاب، حاولت الهند أن تضم المملكة، و تستولي على الحوزة، و تكون الرياسة فيهم، فقال كبراؤهم: نحن كنا أهل البدء، و فينا التناهي، و لنا الغاية و الصدر و الانتهاء، و منّا سرى الأب إلى الأرض، فلا ندع أحدا شاققنا و لا عاندنا و أراد بنا الإغماض إلا أتينا عليه و أبدناه أو يرجع إلى طاعتنا، فأزمعت على ذلك، و نصبت لها ملكا، و هو البرهمن الأكبر، و الملك الأعظم، والإمام فيها المقدم، و ظهرت في أيامه الحكمة، و تقدّمت العلماء، و استخرجوا الحديد من المعادن، و ضربت في أيامه السيوف والخناجر، و كثير من أنواع المقاتل، و شيّد الهياكل، ورصعها بالجواهر المشرقة المنيرة، و صور فيها الأفلاك و البروج الاثنى عشر و الكواكب، و بيّن بالصورة كيفية العالم، و أرى بالصورة أيضا أفعال الكواكب في هذا العالم و أحداثها للأشخاص الحيوانية: من الناطقة و غيرها، و بيّن حال المدبّر الأعظم الذي هو الشمس، و أثبت في كتابه براهين جميع ذلك، و قرّب إلى عقول العوام فهم ذلك، وغرس في نفوس الخواص دراية ما هو أعلى من ذلك، و أشار إلى المبدأ الأول المعطي سائر الموجودات وجودها الفائض عليها بجوده، و انقاد له الهند، وأخصبت بلادها، و أراهم وجه مصالح الدنيا، و جمع الحكماء، فأحدثوا في أيامه كتاب" السند هند" و تفسيره" دهر الدهور"، و منه فرعت الكتب ككتاب" الأرجيهد" و "المجسطي" و فرع من "الأرجيهد" الأركند، و من" المجسطى" كتاب بطليموس، ثم عمل منهما بعد ذلك الزيجات، و أحدثوا التسعة الأحرف المحيطة بالحساب الهندي.

وكـان أول من تكلـم في أوج الشـمس ،و ذكـر أنه يقـيم في كل برج ثلاثة آلاف سنة و ويقطع الفلك في سـتة و ثلاثين ألف سنة . و الأوج الآن على رأي البـرهمن في وقتنا هذا – وهو سنة اثنتين و ثلاثين و ثلثـمـائة – في برج الثـور، و أنه إذا انتـقل إلى البـروج الجنوبيـة انتقلت العمارة، فصار العامر خرابا، و الخارب عامرا، و الشـمال جنوبا، و الجنوب شمالا، و رتب في بيت الذهب حسـاب الدور الأول و التـاريخ الأقـدم الذي عليـه عـملت الهند في تواريخ البدءة، و ظهورها في أرض الهند دون سائر الممالك.

و من الهند منْ يذكر أن ابتداء العالم في كل سبعين ألف سنة "هازروان"، و أن العالـم إذا قطع هذه المدة عاد الكون، فظهر النسل، و مرحت البهائم، و تغلغل الماء، و دب الحيوان، و وبقل العشب، و خرق النسيم الهواء. فأما أكثر أهل الهند فإنهم قالوا بكرور منصوبات على دوائر تبتدىء القوى متلاشية شبيهة الشخص، موجودة القوة، منتصبة الذات، وحدوا لذلك أجلا ضربوه، و وقتا نصبوه، و جعلوا الدائرة العظمى و الحادثة الكبرى، و سموا ذلك بعمر العالم، وجعلوا المسافة بين البدء و الانتهاء مدة ست و ثلاثين ألف سنة مكررة في اثني عشر ألف عام، وهذا عندهم "الهازروان" الضابط لقوى الأشياء و المدبر لها، و أن الدوائر تقبض و تبسط جميع المعاني التي تستودعها، و أن الأعمار تطول في أول الكر لانفساخ الدوائر، وتمكن القوى من المجال، و تقصر الأعمار في آخر الكر لضيق الدوائر، و وكثرة ما يعرض فيها من الأكدار الباترة للأعمار، و ذلك أن قوى الأجسام و صفوها في أول الكر تظهر و تسرح، و أن الصفو سابق الكدر، والصافي يبادر الثفل، و الأعمار تطول بحسب صفاء المزاج، و تكامل القوى المدبرة لعناصرأخلاط الكائنات الفاسدات المستحيلات البائدات، وأن آخر الكر الأعظم وغاية البدء الأكبر تظهر الصورة متشوهة، والنفوس ضعيفة، والأمزجة مختلطة، وتتناقض القوى، وتبيد المواسك، وترد المواد في الدوائر منعكسة مزدحمة، فلا يحظى ذوو الأعصار بتمام الأعمار.

وللهند فيما ذكرناه علل وبراهين في المبادىء الأول، وفيما بسطناه من تفريعهم في الدوائر والهازروانات، ورموز وأسرار في النفوس في اتصالها بما علا من العوالم وكيفية بدئها

من أعلى إلى أسفل، وغير ذلك مما رتب لهم البرهمن في بدء الزمان. وكان ملك البرهمن إلى أن هلك ثلاثمائة سنة وستين سنة، وولْده يعرفون بالبراهمة إلى وقتنا، والهند تعظمهم، وهم أعلى أجناسهم وأشرفهم، ولا يغتذون بشيء من الحيوان، وفي رقاب الرجال والنساء منهم خيوط صفر يتقلدون بها كحمائل السيوف، فرقا بينهم وبين غيرهم من أنواع الهند.

وقد كان اجتمع منهم في قديم الزمان في ملك البرهمن سبعة من حكمائهم المنظور إليهم في بيت الذهب ،فقال بعضهم لبعض: اجلسوا حتى نتناظر؛ فننظر ما قصة العالم؟ وما سره؟ ومن أين أقبلنا؟ وإلى أين نمر؟ وهل خروجنا من عدم إلى وجود حكمة أو ضد ذلك؟ وهل خالقنا المخترع لنا والمنشيء لأجسامنا يجتلب بخلقنا منفعة، أم هل يدفع بفنائنا عن هذه الدار عن نفسه مضرة، أم هل يدخل عليه من الحاجة والنقص ما يدخل علينا، أم هل هو غنى من كل وجه فما وجه إفنائه إيانا وإعدامنا بعد وجودنا وآلامنا وملاذنا؟

فقال الحكيم المنظور إليه منهم: أترى أحدا من الناس أدرك الأشياء الحاضرة والغائبة على حقيقة الإدراك؛ فظفر بالبغية واستراح إلى الثقة؟

قال الحكيم الثاني: لو تناهت حكمة الباريء عز وجل في أحد العقول كان ذلك نقصا من حكمته، وكان الغرض غير مدرك، وكان التقصير مانعا من الإدراك.

قال الحكيم الثالث: الواجب علينا أن نبتديء بمعرفة أنفسنا التي هي أقرب الأشياء منا ونحن أولى بها وهي أولى بنا، من قبل أن نتفرغ إلى علم ما بعد منا. قال الحكيم الرابع: لقد ساء وقوع من وقع موقعا احتاج فيه إلى معرفة نفسه، قال الحكيم الخامس: من ههنا وجب الاتصال بالعلماء الممدودين بالحكمة.

قال الحكيم السادس: الواجب على المرء المحب لسعادة نفسه أن لا يغفل عن ذلك، لا سيما إذا كان المقام في هذه الدنيا ممتنعا، والخروج منها واجبا.

قال الحكيم السابع: أنا لا أدري ما تقولون، غير أني أخرجت إلى هذه الدنيا مضطرا، وعشت فيها حائرا، وأخرج منها مكرها.

فاختلف الهند ممن سلف وخلف في آراء هؤلاء السبعة، وكل قد اقتدى بهم، ويمّم

مذهبهم، ثم تفرعوا بعد ذلك في مذاهبهم، وتنازعوا في آرائهم، والذي وقع عليه الحصر من طوائفهم سبعون فرقة.

قال المسعودي: وقد رأيت أبا القاسم البلخيّ ذكر في كتاب "عيون المسائل والجوابات" وكذلك الحسن بن موسى النوبختيّ في كتابه المترجم بكتاب "الآراء والديانات" مذاهب الهند وآراءهم، والعلة التي من أجلها أحرقوا أنفسهم في النيران، وقطعوا أجسامهم بأنواع العذاب، فما تعرضا لشيء مما ذكرنا، ولا يمّما نحو ما وصفنا. وقد تنوزع في البرهمن: فمنهم من زعم أنه آدم عليه السلام، وأنه رسول الله عز وجل إلى الهند، ومنهم من يقول: إنه كان ملكا على حسب ما ذكرنا، وهذا أشهر.

ولما هلك البرهمن جزعت عليه الهند جزعاً شديدا، وفزعت إلى نصب ملك عليها من أكبر ولده؛ فكان ولي عهده الموصى له من ولده ابنه "الباهبود"، فسار فيهم سيرة أبيه، وأحسن النظر إليهم، وزاد في بناء الهياكل، وقدم الحكماء، وزاد في مراتبهم، وحثهم على تعليم الناس الحكمة، وبعثهم على طلبها، فكان ملكه إلى أن هلك مائة سنة. وفي أيامه عمل النّرد، وأحدث اللعب بها، وجعل ذلك مثالا للمكاسب، وأنها لا تنال بالكيس، ولا بالحيل في هذه الدنيا، وأن الرزق لا يتأتى فيها بالحذق.

وقد ذُكر أن أردشير بن بابك أول من صنع النرد، ولعب بها، ورأى تقلب الدنيا بأهلها، واختلاف أمورها، وجعل بيوتها اثني عشر بيتاً بعدد الشهور، وجعل كلابها ثلاثين كلبا بعدد أيام الشهر، وجعل الفصين مثلا للقدر، وتقلبه بأهل الدنيا، وأن الإنسان يلعب بها فيبلغ بإسعاد القدر إياه في مراده باللعب بها ما يريد، وأن الحازم الفطن لا يتأتى له ما تأتى لغيره، إلا إذا أسعده القدر، وأن الأرزاق والحظوظ في هذه الدنيا لا تنال إلا بالجدود.

ثم ملك "زامان" بعد الباهبود، فكان ملكه نحواً من خمسين ومائة سنة، ولزامان سير وأخبار وحروب مع ملوك فارس وملوك الصين ... ثم ملك فور، وهو الذي واقعه الإسكندر، فقتله مبارزة، وكان ملك فور إلى أن هلك أربعين ومائة سنة. ثم ملك بعده دبشليم، وهو الواضع لكتاب "كليلة ودمنة" الذي ينسب إلى "ابن المقفع"، وقد صنف "سهل

بن هرون" الكاتب لأمير المؤمنين المأمون كتابا ترجمه "ثعلة وعفرة" يعارض به كتاب "كليلة ودمنة" في أبوابه وأمثاله، يزيد عليه في حسن نظمه، وكان ملكه مائة وعشرين سنة، وقيل غير ذلك.

ثم ملك بعده" بلهيت"، وصنعت في أيامه الشطرنج؛ فقضى بلعبها على النرد، وبيّن الظفر الذي يناله الحازم، والبلية التي تلحق الجاهل، وحسب حسابها، ورتب لذلك كتابا للهند يعرف بـ"طرق جنكا" يتداولونه بينهم، ولعب بالشطرنج مع حكمائه، وجعلها مصورة تماثيل مشكلة على صور الناطقين، وغيرهم من الحيوان مما ليس بناطق، وجعلهم درجات ومراتب، ومثّل الشاه بالمدبّر الرئيس، وكذلك ما يليه من القطع، وأقام ذلك مثالا للأجساد العلوية التي هي الأجسام السماوية من السبعة والاثنى عشر، وأفرد كل قطعة منها بكوكب، وجعلها ضابطة للمملكة، وإذا كان عدو من أعدائه، فوقعت منه حيلة في الحروب نظروا من أين يؤتون، في عاجل وآجل.

وللهند في لعب الشطرنج سرّ يسرّونه في تضاعيف حسابها، ويتغلغلون بذلك إلى ما علا من الأفلاك، وما إليه منتهى العلة الأولى...وما تقتضيه سائر المؤثرات العلوية في هذا العالم؛ لارتباط نفوس الناطقين بها، ولليونانيين والروم وغيرهم من الأمم في الشطرنج كلام ونوع من اللعب بها. وقد ذكر ذلك الشطرنجيون في كتبهم، ممن تقدم منهم إلى" الصولي" و"العدلي"، وإليهما كان انتهاء اللعب بالشطرنج في هذا العصر.

وكان مُلك بلهيت ملك الهند إلى أن هلك ثمانين سنة، وفي بعض النسخ أنه ملك ثلاثين ومائة سنة. ثم ملك بعده "كورش"، فأحدث للهند آراء في الديانات، على حسب ما رأى من صلاح الوقت، وما يحتمله من التكليف أهل العصر، وخرج عن مذاهب من سلف، وكان في مملكته وعصره "سندباد"، دوّن له كتاب" الوزراء السبعة والمعلم والغلام وامرأة الملك"، وهو الكتاب المترجم بـ"السندباد"، وعُمل في خزانة هذا الملك الكتاب الأعظم في معرفة العلل والأدواء والعلاجات، وشكلت الحشائش، وصورت، وكان مدة ملك الهند هذا إلى أن مات عشرين ومائة سنة. ولما هلك هذا الملك اختلفت الهند في آرائها،

فتحزّبت الأحزاب، وتجيّلت الاجيال، وانفرد كل رئيس بناحية، فملك على أرض السند ملك، وملك على أرض القنوج ملك، وتملك على أرض قشمير ملك، وتملك على مدينة المانكير - وهي الحوزة الكبرى - ملك يسمى بـ"البلهري"، وهذا أول ملك سمي من ملوكهم بالبلهري؛ فصارت سمةً لمن طرأ بعده من الملوك لهذه الحوزة إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة.

وأرض الهند أرض واسعة في البر والبحر والجبال، وملكهم متصل بملك الزابج (= أندنوسيا)، وهي دار مملكة المهراج ملك الجزائر، وهذه المملكة قدر بين مملكة الهند والصين، وتضاف إلى الهند، والهند متصلة مما يلي الجبال بأرض خراسان والسند إلى أرض التبت، وبين هذه الممالك تباين وحروب، ولغاتهم مختلفة وآراؤهم غير متفقة، والأكثر منهم يقول بالتناسخ، وتنقّل الأرواح ... والهند في عقولهم وسياساتهم وحكمتهم وألوانهم وصفاتهم وصحة أمزجتهم وصفاء أذهانهم ودقة نظرهم بخلاف سائر السودان من الزّنج والدمادم وسائر الأجناس.

وقد ذكر جالينوس في الأسود عشر خصال اجتمعت فيه، ولم توجد في غيره : تفلفل الشعر، وخفة الحاجبين، وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحديد الأسنان، ونتن الجلد، وسواد الحدق، وتشقق اليدين والرجلين، وطول الذكر، وكثرة الطرب، قال جالينوس: وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله.

وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان، وغلبة الفرح عليهم، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب أموراً قد ذكرناها فيما سلف من كتبنا. ولقد كان طاوس اليماني صاحب عبدالله بن عباس لا يأكل من ذبيحة الزنجي، ويقول: إنه عبد مشّوه الخلقة.

وبلغنا أن أبا العباس الراضي بالله ابن المقتدر بالله كان لا يتناول شيئاً من أسود، ويقول: إنه عبد مشوه خلقه، فلست أدري أقلّد طاوسا في مذهبه أم لضرب من الآراء والنحل. وقد صنف عمرو بن بحر الجاحظ كتابا في فخر السودان ومناظرتهم مع البيضان.

والهند لا تملّك الملك عليها حتى يبلغ من عمره أربعين سنة، ولا تكاد ملوكهم تظهر لعوامهم إلا في كل برهة من الزمان معلومة، ويكون ظهورها للنظر في أمور الرعية؛ لأن في نظر العوام عندها إلى ملوكها خرقا لهيبتها، واستخفافا بحقها، والرياسات عند هؤلاء لا تجوز إلا بالتخير، ووضع الأشياء مواضعها من مراتب السياسة.

قال المسعودي: ورأيت في بلاد سرنديب(=سيلان) - وهي جزيرة من جزائر البحر - أن الملك من ملوكهم إذا مات صيّر على عجلة قريبة من الأرض صغيرة البكرة معدة لهذا المعنى، وشعره ينجر على الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس، هذا ملككم بالأمس قد ملككم وجاز فيكم حكمه، وقد صار أمره إلى ما ترون من ترك الدنيا، وقبض روحه ملك الموت، والحي القديم الذي لا يموت، فلا تغتروا بالحياة بعده، وتقول كلاما هذا معناه من الترهيب والتزهيد في هذا العالم، ويطاف به كذلك في جميع شوارع المدينة، ثم يفصل أربع قطع، وقد هيء له الصندل والكافور وسائر أنواع الطيب، فيحرق بالنار، ويذرّ رماده في الرياح، وكذا فعل أكثر أهل الهند بملوكهم وخواصهم؛ لغرض يذكرونه، ونهج يتيممونه في المستقبل من الزمان، والملك مقصور على أهل بيت لا ينتقل عنهم إلى غيرهم، وكذلك بيت الوزراء والقضاة وسائر أهل المراتب لا تغير ولا تبدل.

والهند تمنع من شرب الشراب، ويعنفون شاربه، لا على طريق التدين، ولكن تنزهاً عن أن يوردوا على عقولهم ما يغشيها، ويزيلها عما وضعت له فيهم، وإذا صح عندهم عن ملك من ملوكهم شربه استحق الخلع عن ملكه؛ إذ كان لا يتأتى له التدبير والسياسة مع الاختلاط، وربما يسمعون السماع والملاهي، ولهم ضروب من الآلات مطربة تفعل في الناس أفعالا مرتبة من ضحك وبكاء وربما يسقون الجواري فيطربن بحضرتهم، فتطرب الرجال لطرب الجواري

وأعظم ملوك الهند في وقتنا هذا البلهري صاحب مدينة المانكير، وأكثر ملوك الهند تتوجه في صلواتها نحوه، وتصلي لرسله إذا وردوا عليهم، وتلى مملكة البلهري ممالك كثيرة

للهند، ومنهم ملوك في الجبال لا بحر لهم مثل الراي صاحب القشمير وملك الطافن وغير ذلك من ملوكهم – أغنى ملوك الهند – ومنهم من بمملكه بر وبحر ؛ فأما البلهري فإن بين ديار ملكه وبين البحر مسيرة ثمانين فرسخا سندية، والفرسخ ثمانية أميال، وله جيوش وفيلة لا تدرك كثرتها، وأكثر جيوشه رجّالة؛ لأن دار ملكه بين الجبال، ويساويه من ملوك الهند ممن لا بحر له بؤورة صاحب مدينة القنوج، وهذا الاسم سمة لكل ملك يلي هذه المملكة، وله جيوش مرتبة على الشمال والجنوب والصّبا والدّبور؛ لأنه في كل وجه من هذه الوجوه يلقى ملكا محاربا له ٠)

ويقودنا هاجس البحث عن المعرفة إلى الانتقال صوب ماتفتخر به الهند، إنها روح التهذيب الصارمة والتربية والطاعة الممزوجة بالتعاليم الدينية الهندية التي خبرها المسعودي،والتي تقوم على تعذيب الجسد تمجيدا للروح.

(46)

التهذيب الهندي

المسعودي: من كتاب (مروج الذهب)

(والهند تعذّب أنفسها .. بأنواع العذاب من دون الأمم، وقد تيقنت أن ما ينالها من النعيم في المستقبل مؤجلا لا يكون بغير ما أسلفته من تعذيب أنفسها في هذه الدار معجلا، ومنهم من يصير إلى باب الملك يستأذن في إحراقه نفسه، فيدور في الأسواق وقد أُجّجت له النار العظيمة وعليها منْ قد وَكل بإيقادها، ثم يسير في الأسواق وقدامه الطبول والصنوج، وعلى بدنه أنواع من خرق الحرير قد مزقها على نفسه، وحوله أهله وقرابته، وعلى رأسه إكليل من الريحان، وقد قشر جلده عن رأسه، وعليها الجمر وعليها الكبريت والسندروس؛ فيسير وهامته تحترق ، وروائح دماغه تفوح وهو يمضغ ورق التنبول وحب الفوفل. والتنبول في بلادهم ورق ينبت كأصغر ما يكون من ورق الأترج يمضغ هذا الورق بالنورة المبلولة مع الفوفل، وهو الذي غلب على أهل مكة وغيرهم من بقية أهل الحجاز

واليمن في هذا الوقت مضغه بدلا من الطين، ويكون عند الصنادلة للورم وغير ذلك، وهذا إذا مضغ على ما ذكرنا بالورق والنورة شد اللثة، وقوى عمود الأسنان، وطيب النكهة، وأزال الرطوبة المؤذية، وشهى الطعام، وبعث على الباه، وحمر الأسنان حتى تكون كأحمر ما يكون من حب الرمان، وأحدث في النفس طربا وأريحية، وقوى البدن، وأثار من النكهة روائح طيبة خمرة، والهند خواصها وعوامها تستقبح من أسنانه بيض، وتجتنب من لا يمضغ ما وصفنا، فإذا طاف هذا المعذب لنفسه بالنار في الأسواق وانتهى إلى تلك النار وهو غير مكترث ولا متغير في مشيته ولا متهيب في خطوته، ففيهم من إذا أشرف على النار وقد صارت جمرا كالتل العظيم يتناول بيده خنجرا – ويدعى الجريء عندهم – فيضعه في لبته.

وقد حضرت ببلاد صيمور من بلاد الهند من أرض اللار من مملكة البلهرا، وذلك في سنة أربع وثلثمائة، والملك يومئذ على صيمور المعروف بحاج، وبها يومئذ من المسلمين نحو من عشرة آلاف قاطنين بياسرة وسيرافيين وعمانيين وبصريين وبغداديين وغيرهم من سائر الأمصار ممن قد تأهل وقطن في تلك البلاد، وفيهم خلق من وجوه التجار مثل موسى بن إسحاق الصندالوني ،وعلى الهزمة يومئذ أبو سعيد معروف بن زكريا، وتفسير الهزمة يراد به رئاسة المسلمين يتولاها رجل منهم عظم من رؤسائهم تكون أحكامهم مصروفة إليه، ومعنى قولنا البياسرة يراد به من ولدوا من المسلمين بأرض الهند، يدعون بهذا الاسم، واحدهم بيسر، وجمعهم بياسرة، فرأيت بعض فتيانهم وقد طاف على ما وصفنا في أسواقهم، فلما دنا من النار أخذ الخنجر فوضعه على فؤاده فشقه، ثم أدخل يده الشمال فقبض على كبده فجذب منها قطعة وهو يتكلم فقطعها بالخنجر، فدفعها إلى بعض إخوانه تهاونا بالموت ولذة بالنقلة، ثم هوى بنفسه في النار، وإذا مات الملك من ملوكهم أو قتل نفسه حرق خلق من الناس أنفسهم لموته، يدعون هؤلاء البلانجرية، واحدهم بلانجري، وتفسير ذلك المصادق لمن يموت؛ فيموت بموته، ويحيا بحياته.)

ويعتبر البيروني أهم المختصّين في الهنديات، فقد أقام هنالك طويلا ، وعرف عن كثب

البلاد الهندية، وترك أهم مصنف أثنوغرافي عن الهند في القرون الوسطى ، وهو الكتاب الشامل والعميق(في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة) الذي كشف فيه القيمة الروحية للحضارة الهندية، وقدّم وصفا تفصيليا لكل جوانب الحياة، إلى درجة يمكن القول فيها بدون أي نوع من التردد إن كتاب البيروني يمثل موسوعة لايمكن تخطّيها لكل مهتم بالهند. وقد نشر الكتاب عدة مرات،وهذا حال دون اقتباس نصوص كثيرة منه ؛ لتوفره .وعلى الرغم من هذا فقد اخترنا المقطع القصير الآتي منه، لأنه يفسّر ظاهرة حرق الأجساد التي أشار إليها المسعودي قبل قليل ، وسيشير إليها غيره كما سنرى.

(47)

حرق الأجساد

أبو الريحان البيروني(٤٤٠ هجرية =١٠٤٨ ميلادية)

كتاب (في تحقيق ما للهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)

(كانت أجساد الموتى فيما مضى من الأزمنة الأولى تدفع إلى السماء بأن تلقى في الصحارى مكشوفة لها، ويخرج المرضى إليها وإلى الجبال ويتركون فيها،فإن ماتوا كانوا كما قلنا ،وإن بلوا رجعوا بأنفسهم إلى منازلهم ، ثم جاء بعد ذلك من تولّى وضع السنن وأمر بدفعها إلى الريح، فأقبلوا على بناء بيوت لها مسقّفة بحيطان مشبّكة يهب الريح منها عليها على مثال الحال في نواويس المجوس، ومكثوا على ذلك برهة إلى أن رسم لهم "نارين" دفْعها إلى النار ، فمنذ ذلك الوقت يحرقونها فلايبقى منها شيء من وضر أو عفونة أو رائحة إلاّ ويتلاشى بسرعة ولايكاد يُتذكّر.

والصقالبة في زماننا يحرقون الموتى، ويتخيّل من جهة اليونانيين أنهم كانوا فيهم بين الإحراق والدفن، قال " سقراط" في كتاب " فادن" لمّا سأله " أقريطن" على أي نوع يقبره،فقال : كيفما شئتم إن أنتم قدّرتم عليّ ولم أفرّ منكم،ثم قال لمن حوله :تكفّلوا بي عند أقريطن ضد الكفالة التي تكفّل هو بي عند القضاة، فإنه تكفّل على أن أقيم وأنتم

فتكفّلوا على أن لاأقيم بعد الموت، بل أذهب ليهون على أقريطن إذا رأى جسدي، وهو يحرق أو يدفن فلايجزع، ولايقول: إن سقراط يخرج أو يحرق أو يدفن، وأنت يا أقريطن فاطمئن في دفن جسدي، وافعل ذلك كما تحب ، ولاسيما بموجب النواميس.

وقال "جالينوس" في تفسيره لعهود " بقراط" : إن من المشهور من أمر" أسقليبوس" أنه وقع إلى الملائكة في عمود من نار كما يقال في " ديونوسس" و" إيرقلس" وسائر من عُني بنفع الناس واجتهد. ويقال إن الله فعل بهم ذلك كيما يفنى منهم الجزء الميت الأرضيّ بالنار ثم يجتذب بعد ذلك جزأهم الذي لايقبل الموت، ويرفع أنفسهم إلى السماء. وهذه إشارة إلى الإحراق وكأنه لم يكن إلاّ للكبار؛وكذلك يقول الهند إن في الإنسان نقطة بها الإنسان إنسان، وهي التي تتخلص عند انحلال الأمشاج بالإحراق وتبدّدها،ورأوا في هذا الرجوع أن بعضه يكون بشعاع الشمس تتعلّق به الروح وتصعد ,وأن بعضه يكون بلهيب النار ورفعها إياها كما كان يدعو بعضهم أن يجعل الله طريقه إليه على خط مستقيم لأنه أقرب المسافات، ولايوجد إلى العلو إلاّ النار أو الشعاع.

وكان الأتراك الغزّية ذهبوا إلى مايشبهه في الغريق فإنهم يضعون جيفته على سرير في الشطّ ويعلقون حبلا من قائمته ويلقون طرفه في الماء ليُصعد به روحه للبعث، ثم قوّى عقيدة الهند في ذلك قول " باسديو" في علامة المتخلّص من الرباط: إن موته يكون في "اوتراين" في النصف الأبيض من الشهر فيما من سُرج مُسرجة، أي فيما بين الاجتماع والاستقبال في أحد فصلي الشتاء والربيع، وإلى ذلك ذهب "ماني" قي قوله:إن أهل الملل يعيّروننا بأننا نسجد للشمس والقمر ونقيمهما كالوثن، لأنهم لم يعرفوا حقيقتهما ، وأنهما مجازنا وباب خروجنا إلى عالم كوننا كما شهد بذلك عيسى، زعم، قالوا وقد أمر البدّ بإرسال جثث الموتى في الماء الجاري، فلذلك يطرحها الشمّنية أصحابه في النهار؛ فأما الهند فيرون من حق جثة الميت على الورثة أن تغسل وتعطّر وتكفّن ثم تحرق بما أمكن من صندل أو حطب، وتحمل بعض عظامه المحترقة إلى نهر" كنك" وتلقى فيه ليجري عليها كما جرى على عظام أولاد " سكر" المحترقة فأنقذهم من جهنم وحصّلهم في الجنة، وباقي رماده

يطرح في بعض الأودية الجارية، ويقبر موضع احتراقه ببناء شبه ميل عليه مجصّص، ولايحرق من الأطفال ما قصر سنّه من ثلاث، ثم يغتسل من يتولّى ذلك مع ثيابه يومين بسبب جنابة الميت، ومن عجز عن الإحراق مال به إلى الإلقاء في الصحراء أو في الماء الجاري؛وأما حقّ الحي في جسده فلايميل فيه إلى الإحراق إلاّ الأرملة التي تؤثر اتباع زوجها أو الذي ملّ حياته وتبرّم بجسده من مرض عياء، وزمانة لازمة أو شيخوخة وضعف، ثم لايفعله مع ذلك ذو فضيلة وإنما يؤثره" بيش" أو " شودر" في الأوقات المرجوة الفاضلة طلبا لحال أفضل مما هو عليه عند العود، ولايجوز ذلك بالنص لـ"برهمن" أو " كتشر" ولأجل هذا يقتل نفسه من يقتلها منهم في أوقات الكسوف أو يستأجر من يغرقه في نهر " كنك" ويتولّى امساكه حتى يموت.

وعلى ملتقى نهري "جمن " و"كنك" شجرة عظيمة تعرف ببرياك من جنس الشجر التي تسمّى "بَرُ" وخاصيتها أنه يبرز من فروعها نوعان من الأغصان أحدهما إلى فوق كما لسائر الأشجار، والآخر إلى أسفل على هيئة العروق غير مورق، فإن دخل الأرض صار للغصن بمنزلة العماد، وهيّيء ذلك لها لفرط انبساط فروعها، وعند هذه الشجرة المذكورة يقتل أولئك أنفسهم بأن يصعدوها ويرموا بأنفسهم إلى ماء" كنك" .

وحكى يونس النحوي ان قوما في جاهلية اليونانييّن أنا أسمّيهم ، زعم، عبدة الشيطان كانوا يضربون أعضاءهم بأسيافهم ويلقون أنفسهم في النيران، ولم يكونوا يألمون بها. وكما حكينا عن الهند فكذلك قال " سقراط " بالسويّة: لاينبغي لأحد أن يقتل نفسه قبل أن يسبّب الألهة له اضطرارا ما وقهرا كالذي حضرنا الآن، وقال أيضا: إنّا معشر الناس كالذين في حبس ما، وإنه لاينبغي أن نهرب ، وأن نحلّ أنفسنا منه ؛فإن الألهة تهتمّ بنا لأنا معشر الناس خدماء لهم.)

نظر المسلمون إلى الهند كمستودع للحكمة، وكما ظهر لنا مع المسعودي ، قبل قليل، فإن الثقافة العربية تفاعلت مع الثقافة الهندية بأسلوب حي ورفيع، على أن المسعودي كعادته يمزج بين الخلفيات التاريخية والخصائص الثقافية ،ليقدّم معرفة شاملة حول هذه

البلاد .لكنّ بلاد الهند ، مستودع الأسرار الروحية للثقافات الآسيوية القديمة تظل بحاجة لمزيد من الاستقصاء، وهو أمر سنعمل على تحقيقه في هذا الكتاب، وقد رأينا أن نبدأ بوصف مباشر يعود لأبي عبدالله بن إسحاق الذي طاف الهند وماجاورها من البلاد والجزر.

(48)
صفة بلاد الهند، وذكر جزر قُمار (= كمبوديا)،وبلاد الزابج (= أندنوسيا) حسب رحلة أبي عبدالله بن إسحاق
(ارتحل في القرن٣ الهجري= أواخر القرن٩ الميلادي)
الواردة في كتاب ابن رستة(عاش بين أواخر القرن٣ثم القرن ٤ الهجري= أواخر القرن٩ثم القرن١٠ الميلادي) من كتاب (الأعلاق النفيسة)

صفة بلاد الهند

(ذكر أبو عبد الله محمّد بن إسحاق أن عامّة ملوك الهند يرون الزنا مُباحا ما خلا ملك قُمار، فإنّي دخلتُ مدينته وأقمت عنده بها سنتين فلم أر ملكا أغيَر ولا أشدّ في الأشربة منه فإنّه يعاقب على الزنا والشرب بالقتل، وليس أحد من ملوك الهند ممن خالطته وبايعته يسرف في شرب الشراب ما خلا ملك البهل، فإنه بلغني أنه يشرب وهو ملك سرنديب ينقل الخمر إليه من بلاد العرب فيشربها، ورأيت تجار الهند وسائرهم لا يشربون الشراب قليله ولا كثيره ويَعافُون الخلّ من الأشربة فخلُّهم من ماء الأرزّ المطبوخ يُحمضونه حتّى يصير بمنزلة الخلّ. ومن رأوا من أهل الإسلام يشرب الشراب فهو عندهم خسيس لا يعبأون به، ويزدَرُونه ويقولون: هذا رجل ليس له قدر في بلاده، وليس ذلك منهم ديانة. وذكر بعضهم،قال "كنتُ ببلاد قمار فأخبروني أن الملك بها جبّار شديد العقوبة، لا يكلّم العرب، ومَن دخل بلاده فأهدى له شيئا كافأه بأضعاف ما أهدي له، يكافيء بالجزء مائة جزء" .

ولم أر من الملوك فيما عاملته أحسن مكافأة من ملك قُمار. والهند يقولون إن أصل كتب

الهند من قُمار. ومن عقوبة هذا الملك على الشرب أن من شرب من قوّاده وجيشه يُحَمّي مائة حلقة من حديد بالنار ثم يوضع ذلك كلُّه على يد ذلك الرجل الشارب ،فربَّما أتلفت نفسه .وهو ملك شديد الغيرة ليس في ملوك الهند أشدُّ غيرة وعقوبة منه؛ ومن عقوبته قطع اليدين والرجلين والأنف والشفتين والأذنين ولا يلتفت إلى الغرامة كسائر ملوك الهند. وأصل العبّاد من بلاد قمار ،يقال إن فيها مائة ألف عابد، وللملك قمار ثمانون قاضيا، لو ورّد عليهم وَلد الملك لأنصفوا منه وأقعدوه مقعد الخصم، وله ثمانون ذكرا لهم جمال وهيئة يصلحون للملك . ويليه بلاد الأرمن ولهم جمال ويزوّجون أولادهم الذكورة صغارا ويزعمون أن ذلك خير وأصدُّ عن الزناء، وملك قمار مع غيرته يقول لأصحابه إذا خرجتم إلى الحرب فلا يصحبنكم النساء فدخل ذلك على أنه قد أباح لهم ما لأعدائهم.

قال ورأيت ملك قمار، ورأيت العابدي وهو ملك رتيلا، وملكا يليه يقال له العارطي وملكا يقال له الصّيلمان هذا أكبر من هذين وأكثر جيشا. يقولون إن جيشه نحو سبعين ألفا ،وله فيلة قليلة إلاّ أن الهند يقولون إن فيلة الصيلمان أجرأ على القتال من جميع فيلة أهل الهند. ورأيت له فيلا يقال له النمران، ما رأيت لأحد من الملوك ببلاد الهند فيلا مثله أبيض منقَّط بسواد، ولا أجرأ على القتال والدماء منه، وذلك أنهم يوقدون النار العظيمة ويحملون الفيلة عليها فإذا اجترأ عليها واقتحمها فإنه جريء على القتال والدماء وما جَبُنَ عن النار لم يصلح للقتال ولا للركوب ،بل ينقل عليه المتاع كما ينقل على الإبل. ورأيت هذا الملك الذي يقال له العابدي، وليس في بلاده فيلة يشتري الفيلة ولا يشتري ما ارتفاعه خمس أذرع ويبتاع كلُّ ذراع تزيد على خمس أذرع بألف دينار إلى تسع أذرع، ولم أر منها شيئا يزيد على تسع غير أنه بلغني أن ببلاد الأغباب بلادا تدعى أورفسين، وملكتهم امرأة يقال لها الرابية، ويكون بمملكتها في موضع يدعى بَراز لها فيلة تكون عشرة أذرع إلى إحدى عشرة ذراعا، فهذا ما بلغني من ارتفاع فيلة بلاد الهند.

وهؤلاء الملوك جميعا يرون الزنا مباحا غير أن من أحصن منهم بامرأة فعرض لها عارض وزنَيا ، قتل الرجل والمرأة ،وبعده ملك من ملوك الهند يقال له بَلْهَرَا، ومعنى بلهرا أنه مَلك

ملوك الهند ،وهو في بلاده يقال له الكمكم ،اسم هنديّ وبلاده بلاد الساج، ومنها يجلب. وهو ملك واسع المملكة كثير الجيش ومن حوله من الملوك يصلّون له. ومن ورد من رسله على هؤلاء الملوك الذين حوله صلّوا له إعظاما لصاحبه. ويلي هذا الملك ملوك، أحدهم يقال له ملك الطافن، وهو قليل المملكة كثير المال عامر البلاد، وأهل مملكته سمر ولهم بياض وجمال مستفيض، وفي رقيق بلادهم جمال ليس يشركه في ذلك أحد من الملوك ممن يليه. وبعده ملك يقال به نجابه، وهو شريف فيهم ،وبلهرا الملك يتزوّج فيهم ،وهم السلوقيون ولا يتزوّجون إلاّ فيهم لشرفهم، وهذه الكلاب السلوقيّة يقال إنها وقعت من بلادهم ،ولهم الصندل الأحمر في بلادهم وغياضهم.

ويلي هؤلاء ملك يقال له الجُرْزة، العدل في مملكته مستفيض لو طرح الذهبُ في وسط الطريق ما خافوا عليه أحداً يأخذه من عَدلهم ،وبلاده واسعة. والعرب يرحلون إليه في تجاراتهم فيبرُّهم ويشتري منهم ومعاملاتهم لهم بالذهب القطع والدراهم التي يقال لها الطاطري، عليها تمثال صورة الملك، وزنها مثقال فإذا بايعوهم قالوا للملك ابعث معنا من يخرجنا من بلادك ،ويحفظ متاعنا ،فيقول: " ليس في بلادي لصٌّ اخرجوا فإن حدث بأموالكم حدث فخذوه مني ،وأنا الضامن لكم "وهو ملك له جسم كبير، وليس حوله ملك أشجع منه في الحرب كثير المكيدة وهو يقاتل بلهرا وملك الطافن ونجابه.

والملتان البلد الذي ينشقُّ له نهر مهران وهو نهر مثل دجلة وأكبر، وبالملتان قوم يزعمون أنهم من ولد أسامة بن لُؤيّ ،يقال لهم بنو منبّه ،وهم الملوك على الهند فيها ،وهم يَدْعون لأمير المؤمنين، وهي تلي المنصورة من السند، وبالملتان صنم له دَخل مال عظيم مُلك بني منبّه هؤلاء، وأموالهم من دخل هذا الصنم ،ودخله فيما أخبرني به من أثق بقوله ممن دخل البلاد وأقام بها لا يحصى كثرة ،وربّما غزا ملوك الهند بني منبّه فيخرجون إلى الملتان في جيش عظيم فيقاتلونهم فتغلبهم بنو منبّه ليسارهم وقوّتهم وكثرة أموالهم. وهذا الصنم أخبر عنه من أتاهم ونظر إليهم أن طوله أرجح من عشرين ذراعا على صورة رجل ،وله بيت عليه سقف عظيم لا يدرى من بناه. ويقال إنه بُني منذ ألفي سنة .والهند يقولون إن هذا

الصنم نزل من السماء وأُمرنا بعبادته ،وله سدنة يقومون عليه ،وله نفقات من دخل الصنم سوى ما يجري على سَدَنَته، يطعمون ويُسقون ويكسون. والهند كلُّها ترى الحجَّ إليه، وإذا مات الرجل مُوسراً أوصى له بشطر ماله أو بماله أجمع. يتقرَّب إلى ذلك الصنم ويحجُّون إليه من مسيرة سنة وأكثر ويحلقون رؤوسهم عنده ويطوفون سبعا على اليسار تقرُّبا إليه وتضرُّعا ويتمرَّغون بين يديه ويخشعون ،وله أربعة أوجه حيث ما دار استقبله وجهه ويقولون هذا إله يُعبد له إقبال ولا إدبار حيثما رأيته استقبلك بوجهه، وإذا طافوا حوله سجدوا له عند كلّ وجه يستقبله ،فمنهم من يقلع عينه فيضعها في كُمّه ،فيقول أيُّها البُدُّ قد تقرَّبت إليك بها فأطل عُمُري وارزقني وافعل بي كذا وكذا.

وفيما أخبرني من رأى منهم من يحمل قطعتي صندل أحمر على عاتقه كلُّ واحدة حمل رجل من مسيرة سنة فيضع على قدر فرسخ من مخرجه واحدةً ويتقدَّم بأخرى فيضعها ويرجع إلى الأخرى فيحملها فيتقدَّم بها، فلا يزال يقدّم واحدة ويؤخر أخرى مسيرة سنة حتّى يصير بهما إلى هذا الصنم الذي بالملتان، ومنهم من يستأذن الصنم ويقول إئذن لي في الموت ،فيعمد إلى خشبة طويلة فيحدّد رأسها وينصبها في الأرض ثم يصعد إلى فوقها فيُدخل رأس الخشبة الحادة في بطنه حتى يخرج من ظهره فيموت ،ويزعم أنه قد تقرَّب إلى الصنم، ومنهم من يأتي بالمال العظيم فيطرحه بين يدي الصنم ويقول يا إلهه وسيّده أقبل هذا معونة من مالي. ولهذا الصنم وغيره من الأصنام سدنة لا يأتون النساء ولا يأكلون اللحم ولا يذبحون الذبائح ولا يلبسون الثياب الدنسة، ويتطيّبون إذا صاروا إلى الأصنام، وليس يدخل عليها غيرهم ممن يطيبها بيده وينالها بكفّه ،فإذا دخل عليها برك على ركبتيه وجمع كفَّيه وبسطهما وسأله أن ينظر إليه ويرحمه ويبكي ويتضرع إليه ويدعو، وله مطبخ يطبخ فيه الأرزُّ الأبيض الجيّد ،ويُعمل له أطعمة من السمك والحشيش وتجوَّد وتطيَّب ثم يُعمد إلى ورق مَوز عندهم عريض مقدار ما يُلَفّ فيه الرجل والرجلان فيُبسط بين يدي الصنم ثم يصبُّ الأرزُّ عليه بقدر نصف قامة رجل ،ويعمد أفضل هؤلاء القوم رجلا في نفسه فيأخذ ورقة مَوز فيروّح فور الأرزّ وحرارته في وجه الصنم، فيقول إنه قد أكل وإنه لا

يطعم بكفّه وراحته وقبل أن يطعم يدار حول البيت الذي فيه الصنم بالصنوج والزمر والطبول وربَّما دارت حوله مائة جارية لهنّ أقدار فيقلن نحن نُرقصه ونترضّاه ،ثم يطعم ويرى الطعام لا ينقص فيغلقون عليه الباب ثم يفتحونه، وينقل ذلك الطعام من بين يديه يقولون قد تصدَّق به فلا يبقى صنف مار ببيت ذلك الصنم إلاّ انتفع بذلك الأرزّ حتّى الطير والكلاب، ولا يمنعون منه أحدا، ويقولون هذه صدقته في كلّ يوم، وربَّما غسل بدن الصنم باللب،ن وربَّما غسل بالسمن، فيغسل به بعد ذلك مرضاهم ويستشفون به ٠

ومن ورائه ملوك حتى ينتهي إلى بلاد الزابج، فالملك الكبير يقال له المَهَراج وتفسير المهراج ملك الملوك ،وليس يعدُّ في ملوك الهند أعظم منه لأنه في جزائر ولا يعلم أكثر خيرا منه ولا أقوى وأكثر دخلا ويقال إن دخل قمار الديوك يبلغ له في كلّ يوم خمسين منّا ذهبا وذلك إن عاَقَر ديك مع ديك غيره له أخذ الديك الغالب فيفتديه صاحبه بمثقال ذهب أو أقلَّ أو اكثر، وهذا في مملكته كثير٠

وتليه جزيرة يقال لها سلاهوا يقع فيها العنبر الكثير الذي ليس في البحر أجود منه وبها يكون الكبّاية من الأفواه٠ ويليه جزيرة يقال لها هرلج ،وإنَّما تسمَّى الجزيرة باسم قائدها وليس هذا اسمها، وهرلج هذا صاحب جيش المهراج، وله جزيرة يقال لها طواران منها الكافور وإنَّما ظهر بهذه الجزيرة كافور منذ سنة ٢٢٠ للهجرة، ويتحالف أهل بلاد مهراج بالنار وبلد بالهند يقال له فَنْصور مستفيض فيه إذا خاصم الرجلُ الرجلَ عند السلطان أن يقول أنا حاصل النار، يقال للمدَّعي عليه في الدَّيْن أو الزنا بالمحصنة أو السَرِقة وما يجب فيه القتل فيأتون السلطان فيأمر فيأخذ وزن رطل أو أكثر حديد فيحمى بالنار ثم يعمدون إلى ورق يكون عندهم يُشبه ورق الغار في الغلظ والمثانة فيوضع على كّفه منها سبع ورقات بعضها فوق بعض ثم توضع تلك الحديدة فوقها بكلبتين فيمضي به سبع مرّات ذاهبا وجائياً قدر مائة خطوة ،فإن أحرق يده والورق جميعا ألزم الذنب فإن كان عليه القتل قتل ،وإن كان عليه الغرم غرم وإن لم يكن له مال كان عبدا للسلطان يبيعه وإن لم تحرقه النار قيل للمدِّعي عليه إنك مبطل قد أخذ خصمك النار فيلزم ما كان يدّعي عليه، وجملة أحكام الهند أن من ذَبَح بقرةً ذُبح بها)٠

تبدو العدالة الهندية في مشاهدات ومرويات أبي عبدالله محمد بن إسحاق مثالية إلى أبعد درجة، وكنا رأينا المسعودي يعزز هذا التصور من قبل ، الأمر الذي لانجد نقضا له،ولكن التنوع الهندي يلزمنا وقوفا من نمط آخر ، الدعامة التاريخية التي تستند إليها، وهو أمر سيتكفّل اليعقوبي به.

(49)

أخبار ملوك الهند

اليعقوبي(توفي ٢٨٤هجري= ٨٩٧ميلادي)من كتاب(تاريخ اليعقوبي)

(قال أهل العلم : إن أول ملوك الهند الذي اجتمعت عليه كلمتهم برهمن الملك الذي في زمانه كان البدء الأول ،وهو أول من تكلم في النجوم وأخذ عنه علمها، والكتاب الأول الذي تسميه الهند" السند هند" وتفسيره" دهر الدهور" ومنه اختصر "الأرجيهد" و"المجسطي ثم اختصروا من الأرجيهد الأركند، ومن المجسطي كتاب بطليموس ،ثم عملوا من ذلك المختصرات والزيجات وما أشبهها من الحساب، ووضع التسعة الأحرف الهندية التي يخرج منها جميع الحساب والتي لا تدرك معرفتها وهي ١ ٢ ٣ ٤ ٥ ٦ ٧ ٨ ٩ ...

وجعلوا الدنيا سبعة أقاليم ،فالإقليم الأول الهند وحده مما يلي المشرق البحر ،وناحية الصين إلى الديبل مما يلي أرض العراق إلى خليج البحر مما يلي أرض الهند إلى أرض الحجاز. والإقليم الثاني الحجاز حده هذا الخليج إلى عدن إلى أرض الحبشة مما يلي أرض مصر إلى الثعلبية مما يلي أرض العراق . والإقليم الثالث مصر حده مما يلي أرض الحبشة إلى أرض الحجاز إلى البحر الأخضر مما يلي الجنوب إلى المغرب إلى الخليج الذي يلي الروم إلى نصيبين مما يلي أرض العراق. والإقليم الرابع وهو العراق حده مما يلي الهند الديبل ومما يلي الحجاز الثعلبية ومما يلي ارض مصر والروم نصيبين ومما يلي أرض خراسان نهر بلخ . والإقليم الخامس الروم حده ممايلي أرض مصر الخليج ،ومما يلي المغرب البحر، ومما يلي الترك يأجوج ومأجوج ومما يلي أرض العراق نصيبين . والإقليم السادس يأجوج ومأجوج حده مما يلي أرض المغرب الترك ومما يلي الخزر البحر، ومفاوز بينه وبين بحور الشمال ومما يلي المشرق

أرض نصيبين ومما يلي خراسان نهر بلخ . والإقليم السابع الصين حده مما يلي المغرب يأجوج ومأجوج، ومما يلي المشرق البحر ومما يلي الهند أرض قشمير ومما يلي خراسان نهر بلخ ، وقالوا كل إقليم من هذه الأقاليم يسع مائة فرسخ في مثلها.

وذكروا أن قطر الأرض ألفان ومائة فرسخ، ومدها ستة آلاف وثلاثمائة فرسخ ،وأنهم قدّروا هذا الفرسخ على ستة عشر ألف ذراع . . . وكل مدينة كانت في مقادير طول نهارها في هذا القدر فهي متوسطة الإقليم الذي هي فيه، وما كان فيما بين هذه الاقدار فهي من الإقليم الذي هي إليه أقرب في مقدار الساعات، فصار وسط الإقليم الأول على ميسرة نحو من ثلاثين ليلة من خط الاستواء بأرض اليمن مدينة سبأ، وما والاها إلى المشرق والمغرب ،وذلك فيما دون عدن أبين بقدر عشرة أيام،ووسط الإقليم الثاني مكة وما والاها من المشرق والمغرب ،ووسط الاقليم الثالث الإسكندرية وما والاها من ناحية الكوفة والبصرة من المشرق والمغرب، ووسط الإقليم الرابع أصفهان وما والاها مما هو في مثل عرضها من المشرق إلى المغرب ،ووسط الإقليم الخامس في أداني أرض مرو وما والاها مما هو في مثل عرضها من المشرق إلى المغرب، ووسط الإقليم السادس برذعة وما والاها مما هو في مثل عرضها ما بين المشرق إلى المغرب، ووسط الإقليم السابع بجبال الترك وما والاها مما هو في مثل عرضها مما بين المشرق والمغرب.

وقالت الهند إن الله عز وجل خلق الكواكب في أول دقيقة من الحمل ،وهو أول يوم من الدنيا، ثم سيرها من ذلك الموضع في أسرع من طرفة العين فجعل لكل كوكب منها سيرا معلوما حتى يوافي جميعها في عدة أيام السند هند إلى ذلك الموضع الذي خلقت فيه كما كانت كهيئتها الأولى ،ثم يقضي الله تبارك وتعالى ما أحب. . .

ثم اضطرب أمر الملك بالهند فأقام زمانا طويلا وهو ممالك مفترقة في البلاد لكل طائفة مملكه حتى غزتهم الملوك ،فخافوا أن يدخل عليهم الوهن، وكانوا أهل حكمة ومعرفة وعقول مجاوزين بها مقدار غيرهم من الأمم فاجتمعوا على تمليك رجل واحد فملكوا زارح، وكان عظيم الشأن جليل القدر فعظم ملكه وجلّ سلطانه حتى سار إلى أرض بابل ثم

تجاوزها إلى ملوك بني إسرائيل، وهو الذي غزا بني إسرائيل بعد أن مات سليمان بن داود بعشرين سنة ،وملك إسرائيل يومئذ رحبعم بن سليمان ،فضجت بنو إسرائيل إلى الله تعالى فسلط الله على زارح وجيشه الموت فانصرف إلى بلاده.

ومن ملوكهم فور، وهو الذي غزا بلاده الإسكندر لما قتل ملك الفرس وغلب على أرض العراق وما والاها مما كان فيه مملكة داريوش ،وذلك أنه كتب إليه يأمره بالدخول في طاعته وكتب إليه فور أنه يزحف إليه بالجيوش فبدر الإسكندر فصار إلى بلاده، وخرج إليه فور فحاربه وأخرج فور الفيلة ،وكان العلو على الإسكندر، فكانت لا يقف لها شيء .فعمل الإسكندر تماثيل من نحاس ثم حشاها بالنفط والكبريت وأشعل النار في داخلها ثم صيرها على عجل وألبسها السلاح ثم قدمها أمام الصفوف، فلما تلاقوا دفعتها الرجال إلى الفيلة فلما قربت حملت عليها الفيلة بخراطيمها فكانت تلف الخراطيم على ذلك النحاس وهو يلهب فتشتوي وتنصرف منهزمة؛ فتفل كراديس الهند وتهلكهم ،ثم دعا الإسكندر فور ملك الهند إلى أن يبارزه فبرز له فقتله الإسكندر مبارزة بعدله ،واستباح عسكره.

ومن ملوكهم كيهن وكان رجلا حكيما ذكيا أديبا، فملّكه الإسكندر بعد فور على جميع أرض الهند، وكان كيهن قد استعمل الفكر فكان أول من قال بالتوهم، وإن الطبيعة تنصرف إلى ما تتوهمه فما توهمت أنه ينفعها نفعها ،وإن كان ضارا. وكان كيهن يأكل البيش، وهو السم القاتل ثم يتوهم أن على قلبه أحمال ثلج فلا يضره ذلك البيش ،حتى احترقت رطوبته، وكان من أصح خلق الله ذهنا وأحفظه وأذكاه .

ومن ملوكهم دبشليم وهو الذي وُضع في عصره كتاب "كليلة ودمنة "وكان الذي وضعه بيدبا حكيم من حكمائهم وجعله أمثالا يعتبر بها ويتفهمها ذوو العقول ويتأدبون بها، فكان أول باب منها باب السلطان الذي سعى إليه البغاة بخاصته وأصحابه المقدمين عنده ،وكيف ينبغي أن يستعمل الأناة والتثبيت و لا يعجل بقول السعاية وهو باب الأسد والثور. الباب الثاني باب الفحص عن الأمور وكيف تكون العواقب فيها، وما يؤدي إليه البغي والتهور والكيد من سوء العاقبة، وهو باب الفحص عن خبر دمنة. الباب الثالث باب

الأعداء والتحرز منهم والحيلة لهم، والكلام الذي يكسب العداوة وما يجب من مداراة الأعداء وانتهاز الفرصة فيهم عند إمكان الأمر، والتضرع لهم حتى يمكن الانتقام منهم،وهو باب البوم والغربان .الباب الرابع باب المشاورة للعلماء والاستعانة بأهل الحزم والأمانة وإفشاء الأمور إلى أهل العقل، وهو باب بلاذ .الباب الخامس باب المعروف وإلى من ينبغي أن يصطنع وكيف يفسده سوء الشكر إذا وضع غير موضعه ،وحمله من لا يستحقه، وكيف يعرف موضعه عند أهله الذين يشكرونه، وهو باب السلحفاة والببر والقرد والنجار .الباب السادس باب الظفر بالأمر وإضاعته بعد إمكانه والعجز عن حفظه بعد القدرة عليه، وهو باب القرد والغيلم. الباب السابع باب المداراة ومصانعة أهل الشأن، واحتراز مودتهم واستمالة أهل الانحراف حتى يتخلص من السوء ،وهو باب السنور والجرذ. الباب الثامن باب معرفة السلطان بأعوانه وأقربائه وأهل دخلته واستصلاحه من نالته جفوته منهم واجتلاب ردئه والاستعانة على أموره بأهل العفاف والمودة ،وتفقد أحوال أعوانه وحاشيته ،ومكافأة المحسن ومعاقبة المسيء على الإساءة، وهو باب الأسد وابن آوى. الباب التاسع باب الإخوان والمتصادقين على صحة موداتهم ومقدار الإخوان وعظم النفع بهم ومعاونتهم على أمور الشدة والرخاء ،وهو باب الحمامة المطوقة. الباب العاشر باب طلب نفع الناس بضر النفس، والتفكر في العاقبة، وهو باب اللبؤة والإسوار

وقال بعض علماء الهند إن أهل بلاد الهند تواتر عليهم الموت حتى ذهب علماؤهم وضعف الملك، وإنه لما ملك هشران طلب من يحيي له شرائع دين آبائه، فأتاه قفلان وكان داهية فقال له: إن الناس جزء من الحيوان، وإن الحيوان جزء من النامي، وإن النامي من الطبائع الأربع التي هي النار والهواء والأرض والماء، وإن النامي ينقسم على ثلاثة أقسام: أحدهما النبات ،وله النمو فقط. والثاني ما يكون في البحر من الأصداف، وما أشبهها، وله نمو وحس. والثالث الحيوان البري ،وله نمو وحس وحركة، وان الحيوان أقل وأحقر من أن يدبرهم الخالق وإنما يدبرهم ويصرفهم الفلك . فقال له الملك: أرني صورة ما تقول وبرهانه،فوضع النرد، وقال: اتفق الناس على أن دور الزمان سنة، ومعناها اثنا عشر شهرا،

ومعناها البروج الاثنا عشر، وعلى أن أيام الشهر ثلاثون يوما ومعناها لكل برج ثلاثون درجة، وعلى أن الأيام سبعة، ومعناها الكواكب السبعة السيارة، ثم جعل تشبيها لذلك فوضع عرصة شبيهة بالسنة ،وصير فيها أربعة وعشرين بيتا عدد ساعات الليل والنهار في كل ناحية اثنا عشر بيتا تشبيها بشهور السنة والبروج، وصير لها ثلاثين كلبا تشبيها بأيام الشهر ،ودرج البروج وصير الفصين تشبيها بالليل والنهار ،وفي كل فص ست جهات لأنه عدد تام له نصف وثلث وسدس في كل فص إذا سقط من أعلاه وأسفله سبع نقط تحت الست واحدة وتحت الخمس اثنتان وتحت الأربع ثلاث تشبيها بعدد الأيام والكواكب السبعة السيارة :وهي الشمس والقمر وزحل والمشتري والمريخ وعطارد والزهرة ،ثم جعلها محنة بين رجلين وأعطى كل واحد فصّا، وقال: مَن أعطيته هذه السبع النقط من أعلاها أكثر من صاحبه بدأ فاجتمع له الفصّان فضرب، وما ظهر من الفصّين تغلب الكلاب عليه، وجعل ذلك تمثيلا للحظ الذي يناله العاجز بما جرى له الفلك والحرمان الذي يبتلى به الحازم على حسب ما يجري له الفلك ،فلما ظهر ذلك قبله الملك وفشا في أهل المملكة، وصار أهل الهند تجري أمورها بما تدبره الكواكب السبعة السيارة .

وملك بلهيت، وقد غلب على أهل المملكة هذا الدين، وكان له عقل ومعرفة، فلما رأى ما عليه مملكته ساءه ذلك وبلغ منه ،ثم سأل هل بقي رجل على دين البرهمية؟ فدُلّ على رجل له عقل ودين، فأرسل إليه، فلما أتاه أكرمه ورفع درجته ،ثم ذكر له ما قد فشا في أهل مملكته، فقال: أيها الملك أنا أقيم برهانا أضطر به، ويعرف به فضل الحازم ،وموضع تقصير العاجز، وأجعلها صورة بين اثنين ليبيّن فضل الحازم على العاجز والمجتهد على المقصر والمحتاط على المضيع والعالم على الجاهل ،فوضع الشطرنج، وتفسيرها بالفارسية" هشت رنج" وهشت ثمانية ورنج صفح ،وصيّرها ثمانية في ثمانية فصارت أربعة وستين بيتا، وصيّرها اثنين وثلاثين كلبا مقسومة بين لونين كل لون ستة عشر كلبا، وقسم الستة عشر على ست صور: فالشاه صورة ،والفرز صورة، والفيلان صورة، والرخان صورة، والفرسان صورة، والبيادق صورة، فاشتق ذلك من زوج الزوج وهو أحسن ما يكون من الحساب لأن الأربعة والستين إذا

قسمتها كان لها نصف وهو اثنان وثلاثون وهي عدة جميع الكلاب، وإذا نصّفت الاثنين والثلاثين كان لها نصف وهو ستة عشر وهو ما لكل واحد من الكلاب،وإذا نصّفت الستة عشر كان لها نصف، وهو ثمانية وهي عدة بيادق كل واحد فإذا نصّفت الثمانية كان لها نصف، وهو أربعة وهو الرخان والفرسان من كل واحد ،فإذا نصّفت الأربعة كان لها نصف وهو اثنان فقد انقسمت أزواجا، ولم يبق في القسم بعد الأزواج إلا الواحد الذي يقسمها كلها آحادا ،وهو ليس بعدد ولا معدود ولا زوج ولا فرد لأن أول أعداد الفرد ثلاثة . ثم قال الحكيم ليس شيء أجلّ من الحرب؛ لأنه يبين فيها فضل التدبير، وفضل الرأي، وفضل الحزم، وفضل الاحتياط ،وفضل التعبية وفضل المكيدة، وفضل الاحتراس، وفضل النجدة، وفضل البأس، وفضل القوة، وفضل الجَلد، وفضل الشجاعة ،فمن عدم منه شيء من هذا عرف موضع تقصيره ؛لأن خطأها لا يستقال، والعجز فيها متلف للمهج والجهل مبيح للحمى ،وترك الحزم ذهاب المُلك، وضعف الرأي جلب للعطب، والتقصير سبب للهزيمة، وقلة العلم بالتعبية داعية الانكشاف، وقلة المعرفة بالمكيدة تهور إلى الهلكة ،وترك الاحتراس نهزة للعدو وجعلها على مثال الحرب، فإن أصاب ظفر وان أخطأ هلك .

فلما رأى الملك صحة البرهان ،وتبيّن فضل حكمة الحكيم ،وعلم أن قد أصاب وأحسن التمثيل، وأبان عمّا قد عمي عنه جمع أهل مملكته ،فعرّفهم ما كشف الله عنهم من الغم ،وأمرهم أن يقيموا ويتأملوا، وقال لهم: قد علمنا أن ليس في العالم حي ناطق مفكّر ضاحك عاقل إلا الإنسان ،فالإنسان عليه مدار جميع ما في العالم ؛لأن الفلك بجميع ما فيه خلقه الخالق للإنسان ليعرف به ما يحتاج إليه من زمانه وأوقاته، وكذلك ذلل له جميع ما في الأرض ،وكل ما خلق الله مما في قعر البحر وجو السماء ورؤوس الجبال، فلما ملك الإنسان جميع ما خلق، قسّم ذلك الإنسان ثلاثة أقسام :فأكل ثلاثا، وسخّر ثلاثا ،وقتل ثلاثا. فأكل الطير والسمك وما شاء من النعم والإبل. وسخّر البقر والحمير والدواب. وقتل السباع والحيات والهوام. ثم جعل فيه الآيات يعلم بها، ويعقل بها ،ويدرك بها، ويفهم. ففضل الناس بعضهم بعضا بالعلم والعقل والفهم .

وقد زعم علماء من علماء الهند أنه لما ملكت حوسر بنت بلهيت خرج عليها خارجي ، وكانت جارية عاقلة ،فوجهت ابنا لها، وكان لها أربعة أولاد، فقتلَ ذلك الخارجي ابنها فعظُم ذلك على أهل مملكتها ،وأشفقوا من إخبارها فاجتمعوا على حكيم من حكمائهم،يقال له قفلان، وكان ذا حكمة وفطنة ورأي، فذكروا ذلك له فقال: أنظروني ثلاثا، ففعلوا ذلك، وخلا مفكرا، ثم قال لتلميذ له :أحضرني نجارا وخشبا من لونين مختلفين أبيض وأسود، فأحضر نجارا فارها وخشبا من لونين مختلفين أبيض وأسود، فصوّر صورة الشطرنج، وأمر النجار فَنَجَرها ،ثم قال له: أحضر ني جلدا مدبوغا، فأمره أن يخط فيه أربعة وستين بيتا ففعل ذلك ،فنصب ناحية ثم تجاولا حتى فهماها وأحكماها ،ثم قال لتلميذه هذه حرب بلا ذهاب أنفس .

ثم حضره أهل المملكة فأخرجها لهم ،فلما رأوها علموا أنها حكمة لا يهتدى لها أحد، وجعل يجاول تلميذه فيقع شاه مات وشاه غلب .فأُخبرت الملكة بخبر قفلان، فأحضرته وأمرته أن يريها حكمته، فأحضر تلميذه ومعه الشطرنج ،فنصبها بينه وبينه فلعبا فغلب أحدهما صاحبه، فقال :شاه مات، فانتبهت، وعلمت ما أراده، وقالت لقفلان :أقتل ابني، قال: أنت قلت، فقالت لحاجبها: أدخل الناس يعزوني ،فلما فرغت أحضرت قفلان ،وقالت له: سل حاجتك ،فقال أسأل أن أُعطى قمحا،بعدد بيوت الشطرنج ،أُعطى في البيت الأول حبة، وفي الثاني اثنتين، ثم يضعف ذلك لي في البيت الثالث على الثاني، ثم على هذا الحساب إلى آخرها . قالت: وما مقدار هذا؟! ثم أمرت بالحنطة أن تحضر فلم يقيم لذلك شيء حتى نفدت قموح البلد ثم قوِّم القمح بالمال حتى فني المال، فلما كثُر ذلك، قال :لا حاجة لي به إن قليل الدنيا يكفيني . ثم سألته عن عدد الحَبّ الذي سأل ،فقال لها :يكون ذلك عددا ،وهذا ما في الشطرنج من العدد السطر الأول مائتان وخمسة وخمسون، الثاني اثنان وثلاثون ألفا وسبعمائة وثمانية وستون، الثالث ثمانية آلاف ألف وثلاثمائة وثمانية وثمانون ألفا وستمائة وثمانية، الرابع ألفا ألف ألف ومائة وسبعة وأربعون ألف ألف وأربعمائة وثلاثة وثمانون ألفا وستمائة وثمانية وأربعون، الخامس خمسمائة وتسعة

وأربعون ألف ألف ألف وسبعمائة وخمسة وخمسون ألف ألف وثماني مائة ألف وثلاثة عشر ألفا وثماني مائة وثمانية وثمانون، السادس مائة وأربعون ألف ألف ألف وسبعمائة وسبعة وثلاثون ألف ألف ألف وأربعمائة وثمانية وثمانون ألف ألف وثلاثمائة وخمسة وخمسون ألفا وثلاثمائة وثمانية وعشرون، السابع ستة وثلاثون ألف ألف ألف ألف ألف وثمانية وعشرون ألف ألف ألف ألف وسبعمائة وسبعة وتسعون ألف ألف ألف وثمانية عشر ألف ألف وتسعمائة وثلاثة وستون ألفا وتسعمائة وثمانية وستون ، الثامن تسعة آلاف ألف ألف ألف ألف ألف ومائتان وثلاثة وعشرون ألف ألف ألف ألف ألف وثلاثمائة واثنان وسبعون ألف ألف ألف ألف وستة وثلاثون ألف ألف ألف وثماني مائة وأربعة وخمسون ألف ألف وسبعمائة وخمسة وسبعون ألفا وثماني مائة وثمانية ،يكون جميع ذلك في الشطرنج الثمانية ثمانية عشر ألف ألف ألف ألف ألف ألف وأربعمائة وستة وأربعين ألف ألف ألف ألف وسبعمائة وأربعة وأربعين ألف ألف ألف ألف وثلاثة وسبعين ألف ألف ألف وسبعمائة وتسعة آلاف ألف وخمسمائة وواحدا وخمسين ألفا وستمائة وخمسة عشر.

ومنهم كوش الملك الذي كان في زمان سندباد الحكيم وكوش هذا وضع كتاب "مكر النساء" .والهند أصحاب حكمة ونظر وهم يفوقون الناس في كل حكمة ،فقولهم في النجوم أصح الأقاويل، وكتابهم فيه كتاب" السند هند "الذي منه اشتق كل علم من العلوم مما تكلم فيه اليونانيون والفرس وغيرهم، وقولهم في الطب المقدم ،ولهم فيه الكتاب الذي يسمى "سسرد" فيه علامات الأدواء ومعرفة علاجها وأدويتها ،وكتاب "شرك" وكتاب "ندان "في علامات أربعمائة وأربعة أدواء ومعرفتها بغير علاج ،وكتاب "سند هشان" وتفسيره "صورة النجح "وكتاب" فيما اختلفت فيه الهند والروم من الحار والبارد وقوى الأدوية وتفصيل السنة" وكتاب" أسماء العقاقير" كل عقار بأسماء عشرة، ولهم غير ذلك من الكتب في الطب، ولهم في المنطق والفلسفة كتب كثيرة في أصول العلم، منها كتاب" طوفا في علم حدود المنطق" وكتاب"ما تفاوت فيه فلاسفة الهند والروم" ولهم كتب كثيرة يطول ذكرها ويبعد عرضها.

ودين أهل الهند البرهمية، وفيهم عبدة الأصنام ،ولهم ممالك مختلفة وملوك متفرقة لسعة البلد في طوله وعرضه .فأول ملوكهم مما يتاخم البلاد التي هي اليوم دار الإسلام دانق، وهو ملك عظيم القدر واسع المملكة كثير العدة، ثم من بعده رههي وهو أعظم قدرا وأعز بلادا، وهو على بحر من البحور، وفي بلده الذهب وما أشبهه، ثم مملكة بلهري ،ثم الكمكم ومن عندهم يأتي الساج، ولهم اتساع في البلاد ،ثم مملكة الطافن وهم قوم بيض الوجوه ،ثم مملكة كنباية،ومملكة الطرسول، ومملكة المرشة، ومملكة المايد . وهذه الممالك تتاخم الصين، وهم يحاربون الصين ،ثم مملكة سرنديب ،ثم مملكة قمار وهي مملكة جليلة القدر عظيمة الأمر يتقدم لملكهم الملوك ،ثم مملكة الديبل ،ثم الفاربط، ثم مملكة الصيلمان. ولهم بعض ممالك يليها النساء .)

إن التمايز بين الهند والصين قائم في تصورات المسلمين، وبالنسبة للثقافة العربية، فإن الصين رمز للبعد، إنها ذلك المكان القصي النائي الذي لم يتم اكتشافه بعد بصورة جيدة كما حصل للهند بفضل أبي الريحان البيروني ،وقد اقترب المسعودي كثيرا من الصين ، إنه بروحية الرحّالة-المؤرخ- الجغرافي أفضل من يعرّف هنا بتاريخ تلك البلاد .وكما سنرى فهو لايكتب تاريخا سرديا للأحداث فقط، وإنما يتوغل في التاريخ العرقي والاجتماعي والديني والثقافي، ونصوصه دائما مملوءة بالملاحظات القيّمة .

(50)

أخبار الصين

المسعودي: من كتاب (مروج الذهب)

(قد تنازع الناس في أنساب أهل الصين وبدئهم : فذكر كثير منهم أن ولد عابور بن سوبيل بن يافث بن نوح لما قسم فالغ بن عابر بن إرفخشذ بن سام بن نوح الأرضَ بين ولد نوح ساروا يسرةً في الشرق، فسار قوم منهم من ولد أرعو على سَمْت الشمال، وانتشروا في الأرض فصاروا عدة ممالك : منهم الدَّيلم، والجيل، والطيلسان، والتتر، وفرغان، فأهل جبل القبق من أنواع اللكز ثم اللان والخزر والأبخاز والسرير وكشك، وسائر تلك الأمم المنتشرة في

ذلك الصقع، إلى بلاد طواربزندة إلى بحر مانطش ونيطش وبحر الخزر إلى برغر ومن اتصل بهم من الأمم، وعبر ولد عابور نهر بلخ، ويَمم بلاد الصين الأكثر منهم، وتفرقوا عدة ممالك في تلك البلاد وانتشروا في تلك الديار، فمنهم الجيل، وهم سكان جيلان، والأشروسنة والصغد، وهم بين بخارى وسمرقند، ،ثم الفراغنة والشاش وأستيجاب وأهل بلاد الفاراب، فبنوا المدن والضياع، وانفرد منهم أناس غير هؤلاء فسكنوا البوادي : فمنهم الترك والخزلج والطغرغر، ومنهم أصحاب مدينة كوشان، وهي مملكة بين خراسان وبلاد الصين.

وليس في أجناس الترك وأنواعهم في وقتنا هذا – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – أشد منهم بأسا، ولا أكثر منهم شوكة، ولا أضبط ملكا، وملكهم أيرخان، ومذهبهم مذهب المانية، وليس في الترك من يعتقد هذا المذهب غيرهم، ومن الترك الكيماكية والبرسخانية والبدية والجعرية، وأشدهم بأسا الغزية، وأحسنهم صورة وأطولهم قامة، وأصبحهم وجوها: الخزلجية، وهم أهل بلاد فرغانة والشاش وما يلي ذلك الصقع، وفيهم كان المُلْكُ، ومنهم خاقان الخواقين، وكان يجمع ملكه سائر ممالك الترك، وتنقاد إليه ملوكها. ومن هؤلاء الخواقين كان فراسياب التركي الغالب على بلاد فارس، ومنهم سانة. ولخاقان الترك في وقتنا هذا تنقاد ملوك الترك كلهم منذ خربت المدينة المعروفة بعمات، وهي في مفاوز سمرقند...

ولحق فريق من ولد عابور بتخوم الهند، فأثرت فيهم تلك البقاع فصارت ألوانهم بخلاف ألوان الترك، ولحقوا بألوان الهند، ولهم حَضَرٌ وبَوادٍ، وسكن فريق منهم ببلاد التبت، وملكوا عليهم ملكا وكان ينقاد إلى ملك خاقان، فلما زال ملك خاقان.. سَمَّى أهل التبت ملكهم بخاقان تشبيها بمن تقدم من ملوك الترك وهو خاقان الخواقين. وسار الجمهور من ولد عابور على ساحل البحر حتى انتهوا إلى أقاصيه من بلاد الصين، فتفرقوا في تلك البقاع والبلاد، وقطنوا الديار، وكَوَّروا الكُوَرَ، ومصَّروا الأمصار ومَدَّنوا المدن، واتخذوا لمملكتهم مدينة عظيمة، وسمَّوْها انموا، وبينها وبين ساحل البحر الحبشي – وهو بحر الصين – مسافة ثلاثة أشهر مدن، وعمائر متصلة.

وكـان أول ملك تملك عليـهـم في هـذه الديار وهي انموا "نسطرطاس" بن باعـور بن مـدتج بن عابور بن يافث بن نـوح، فكان ملكه ثلثمائة سنة ونيفاً، وفرّق أهله في تلك الديار، وشَقَّق الأنهـار، وقـتل السـبـاع، وغـرس الأشـجـار، وأطعم الثـمـار. وهلك، فـملك ولد له يقـال له "عوون" فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب الأحمر جزعا عليه، وتعظيما له، وأجلسه على سرير من الذهب الأحمر مُرَصَّع بالجواهر وجعل مجلسه دونه، وأقبل يسجد لأبيه وهو في جوف تلك الصورة، هو وأهل مملكته، في طرفي النهار إجلالا له، وعاش بعد أبيه مائتي سنة وخمسين سنة، وهلك. فملك ولد له يقال له "عيثدون" فجعل جسد أبيه مخزوناً في تمثال من الذهب الأحمر، وجعله دون مرتبة جدّه على سرير من الذهب، وَرَصَّعَهُ بأنواع الجواهر ،وكان يسجد له، ويبدأ بجدّه الأول ثم بأبيه، وأهل مملكته يسجدون له وأحسن السياسة للرعية، وسَوَّاهم في جميع أمورهم، وشملهم بالعدل، فكثر النسل وأخصبت الأرض، فكان ملكه إلى أن هلك نحواً من مائتي سنة، ثم ملك بعده ولده "عيثنان" فجعل أباه في تمثال من الذهب الأحمر وجرى فيه على ما سلف من أفعالهم من السجود والتعظيم، وطال ملكه، واتصلت بلاده ببلاد الترك من بني عمه، فعاش أربعمائة سنة، واتخذ في أيامه كثيراً من المهن مما لطف في الدور من الصنائع.

وملك بعده ولده "حراتان" فأحدث الفلك وحمل فيها الرجال، وحمل لطائف بلاد الصين، وصيرها نحو بلاد السند والهند إلى إقليم بابل وإلى سائر الممالك ؛مما قرب منها وبَعُدَ في البحر، وأهدى الهدايا العجيبة والرغائب النفيسة إلى الملوك، وأمرهم أن يجلبوا إليه ما في كل بلد من الطرائف والتحف من المآكل والمشارب والملابس وسائر الفُرُش، وأن يعرفوا سياسة كل ملك وكل أمة وشريعتها ونَهْجها الذي هي عليه، وأن يرغِّبوا الناس فيما في بلدانهم من الجواهر والطيب والآلات؛ فتفرقت المراكب في البلاد، ووردوا الممالك لما أمروا به، فلم يردوا على أهل مملكة إلا وأعجبوا بهم، واستطرفوا ما أوردوه من أرضهم، فبنت الملوك المطيفة بالبحار المراكب، وجهزت نحوهم السفن، وحملوا إليهم ما ليس عندهم، وكاتبوا ملكهم، وكافأوه على ما كان من هداياه إليهم، فعمرت بلاد الصين،

واستقامت له الأمور، فكان عمره نحواً من مائتي سنة، فهلك، فجزع عليه أهل مملكته، وأقاموا النياحة عليه شهرا.

ثم فزعوا إلى الأكبر من أولاده فصيروه عليهم ملكاً، فجعل جسد أبيه في تمثال من الذهب، وسلك طريقَ مَنْ كان قبله في فعلهم مقتديا بمن مضى من آبائه، وكان اسم هذا الملك "توتال" فاستقامت له الأمور، وأحدث من السنن المحمودة ما لم يحدثه أحد ممن سلف من ملوكهم، وزعم أن الملك لا يثبت إلا بالعدل فإن العدل ميزان الرب، وإن من العدل الزيادة في الإحسان مع الزيادة في العمل وحصن، وشرف، وتوج، ورتب الناس في رتبهم ووقفهم على طرائقهم، وخرج يرتاد موضعاً ليبني فيه هيكلا، فوافى موضعاً عامراً بالنبات حسن الاعتمام بالزهر تخترقه المياه فخطَّ الهيكل هناك، وجلبت له أنواع الأحجار المختلفة الألوان؛ فشيد الهيكل، وجعل على علوه قبة، وجعل لها مخارج للهواء متساوية، ونصب فيها بيوتاً لمن أراد التفرد بالعبادة؛ فلما فرغ منها نصب في أعلاها تلك التماثيل التي فيها أجسام من سلف من آبائه، وأمر بتعظيمها، وجمع الخواص من أهل مملكته وأخبرهم أن من رأيه ضم الناس إلى ديانة يرجعون إليها لجمع الشمل وتساوي النظام، فإنه متى عدم الملك الشريعة لم يؤمن عليه الخلل، ودخول الفساد والزلل، فرتب لهم سياسة شرعية، وفرائض عقلية، وجعلها لهم رِباطاً، ورتب لهم قِصَاصاً في الأنفس والأعضاء، ومستحلات مناكح يستباح بها النسوان، وتصح بها الأنساب، وجعلها مراتب؛ فمنها لوازم موجبة يَحْرَجُون من تركها، ومنها نوافل يتنفلون بها، وأوجب عليهم صلوات لخالقهم تقرباً لمعبودهم: منها إيماء لا ركوع فيها ولا سجود في أوقات من الليل والنهار معلومة، ومنها بركوع وسجود في أوقات من السنة والشهور محدودة، ورسم لهم أعياداً، وجعل على الزُّنَاة منهم حدا، وعلى من أراد من نسائهم البغاء جزية مفروضة، وأن لا يستبحن النكاح في وقت من الأوقات، وإن أقلعن عما كن عليه تكف الجزية عنهن، وما يكون من أولادهن ذكوراً يكون للملك عبيداً وجُنْدا، وما يكون من أولادهن إناثاً، فلأمهاتهن، ويلحقن بصنعتهن.

وأمرهم بقرابين للهياكل ودخن، وأبخرة للكواكب، وجعل لكل كوكب منها وقتاً يتقرب إليه فيه بدخن معلوم من أنواع الطيب والعقاقير، وأحكم لهم جميع الأمور، فاستقامت أيامه، وكثر النسل، فكانت حياته نحوا من مائة وخمسين سنة، وهلك، فجزعوا عليه جزعا شديداً، فجعلوه في تمثال من الذهب الأحمر ورَصَّعوه بأنواع الجواهر، وبنوا له هيكلا عظيما، وجعلوا سقفه سبعة ألوان من الجوهر على أنواع الكواكب السبعة من النيرين والخمسة بألوانها وأشكالها، وجعلوا يوم وفاته صلوات وعيدا يجتمعون فيه عند ذلك الهيكل، وصوروا صورته على أبواب المدينة وعلى الدنانير والفلوس وعلى الثياب، وأكثر أموالهم الفلوس الصفر والنحاس، فاستقرت هذه المدينة بدار ملك الصين، وهي مدينة انموا، وبينها وبين البحر نحو من ثلاثة أشهر.. ولهم مدينة عظيمة نحوا ما يلي من أرضهم مغرب الشمس، يقال لها مد، وتلي بلاد التبت، والحرب بين بلاد التبت وأهل المد سِجَالٌ.

فلم تزل الملوك ممن طرأ بعد هذا الملك أمورهم منتظمة وأحوالهم مستقيمة، والخصب والعدل لهم شامل، والجور في بلادهم معدوم، يقتدون بما نصبه لهم من الشرع مَنْ قدمنا ذكرهم، وحروبهم على عدوهم قائمة، وثغورهم مشحونة، والرزق على الجنود دارٌّ، والتجار يختلفون إليهم في البر والبحر من كل بلد بأنواع الجهاز، ودينهم دين مَنْ سلف، وهي ملة تدعى السمنية، عباداتهم نحو من عبادات قريش قبل مجيء الإسلام: يعبدون الصور، ويتوجهون نحوها بالصلوات، واللبيب منهم يقصد بصلاته الخالق، ويقيم التماثيل من الأصنام والصور مقام قِبْلَة، والجاهل منهم ومَنْ لا علم له يشرك الأصنام بإلهية الخالق، ويعتقدهما جميعا.

وأن عبادتهم الأصنام تقربهم إلى الله زُلْفَى، وأن منزلتهم في العبادة تنقص عن عبادة البارىء لجلالته وعظمته وسلطانه، وأن عبادتهم لهذه الأصنام طاعة له ووسيلة إليه. وهذا الدين كان بدء ظهوره في خواصهم من الهند لمجاورتهم إياهم، وهو رأي الهند في العالم والجاهل على حسب ما ذكرنا في أهل الصين. ولهم آراء ونحل حدثت عن مذاهب الثنوية وأهل الدهر، فتغيرت أحوالهم وبحثوا، وتناظروا، إلا أنهم ينقادون في جميع أحكامهم إلى

ما نصب لهم من الشرائع المقدمة، ومن حيث إن مُلْكهم متصل بملك الطغرغر – على حسب ما تقدم – صاروا على آرائهم من اعتقادهم مذاهب المانية والقول بالنور والظلمة، وقد كانوا جاهلية سبيلُهم في الاعتقاد سبيلُ الترك إلى أن وقع لهم شيطان من شياطين المانية، فزخرف لهم كلاماً يريهم فيه تضاد ما في هذا العالم وتباينه: من موت وحياة، وصحة وسقم، وضياء وظلام، وغنى وفقر، واجتماع وافتراق، واتصال وانفصال، وشروق وغروب، ووجود وعدم، وليل ونهار، وغير ذلك من سائر المتضادات .

وذكر لهم أنواع الآلام المعترضة لأجناس الحيوان من الناطقين وغيرهم مما ليس بناطق من البهائم، وما يعرض للأطفال والبُلْه والمجانين، وأن الباريء جل وعز غني عن إيلامهم، وأراهم أن هناك ضداً شديداً دخل على الخير الفاضل في فعله، وهو الله عز وجل، فاجتذب بما وصفنا وغيره من الشبه عقولهم، فدانوا بما وصفنا، فإن كان ملك الصين ينتمي لمذهب ذبح الحيوان كانت الحرب بينه وبين صاحب الترك أيرخان سجالا، وإذا كان ملك الصين متنافى المذهب كان الأمر بينهم في الملك مشاعاً، وملوك الصين ذوو آراء ونحل، إلا أنهم مع اختلاف أديانهم غير خارجين عن قضية العقل والحق في نصب القضاة والحكام، وانقياد الخواص والعوام إلى ذلك.

وأهل الصين شعوب وقبائل، كقبائل العرب وأفخاذها وتشعبها في أنسابها، ولهم مراعاة لذلك، وحفظ له، وينسب الرجل منهم إلى خمسين أبا إلى أن يتصل بعابور، وأكثر من ذلك وأقل، ولا يتزوج أهل كل فخذ من فخذهم .مثال ذلك أن يكون الرجل من مضر فيتزوج في ربيعة، أو من ربيعة فيتزوج في مضر، أو من كهلان فيتزوج في حمير، أو من حمير فيتزوج من كهلان، ويزعمون أن في ذلك صحة النسل وقوام البنية، وأنه أصح للبقاء، وأتم للعمر...

فلم تزل أمور الصين مستقيمة في العدل على حسب ما جرى به الأمر فيما سلف من ملوكهم إلى سنة أربع وستين ومائتين، فإنه حدث في الملك أمر زال به النظام، وانقضت به الأحكام والشرائع ومنع من الجهاد إلى وقتنا هذا، وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، وهو أن

نابغاً نبغ فيهم من غير بيت الملك كان في بعض مدائن الصين، يقال له يانشو، وكان شريراً يطلب الفتنة، ويجتمع إليه أهل الدعارة والشر، فلحق الملك وأرباب التدبير غفلة عنه؛ لخمول ذكره، وأنه ممن لا يبالي به، فاشتد أمره، ونما ذكره، وكثر عتوه، وقويت شوكته، وقطع أهل الشر المسافات نحوه، وعظم جيشه، فسار من موضعه، وشن الغارات على العمائر حتى نزل مدينة خانقوا(= كانتون)، وهي مدينة عظيمة على نهر عظيم أكبر من دجلة يصب إلى بحر الصين، وبين هذه المدينة وبين البحر مسيرة ستة أيام أو سبع، تدخل هذا النهر سفن التجار الواردة من بلاد البصرة وسيراف وعمان ومدن الهند وجزائر الزابج والصنف وغيرها من الممالك بالأمتعة والجهاز، وتقرب إلى مدينة خانقوا، وفيها خلائق من الناس مسلمون ونصارى ويهود ومجوس، وغير ذلك من أهل الصين؛ فقصد هذا العدو إلى هذه المدينة فحاصرها، وأتته جيوش الملك فهزمها، واستباح ما فيها، فكثرت جنوده، وافتتح مدينة خانقوا عنوة، وقتل من أهلها خلقا لا يحصون كثرةً، وأحصى من المسلمين والنصارى واليهود والمجوس ممن قتل وغرق خوف السيف فكان مائتي ألف، وإنما أحصي ما ذكرناه من هذا العدد؛ لأن ملوك الصين تحصي من في مملكتها من رعيتها، وكذا من جاورها من الأمم؛ ليصير ذمة لها في دووابن لها، بكتاب قد وكلوا بإحصاء ذلك لما يراعون من حياطة من شمله ملكهم، وقطع هذا العدو ما كان حول مدينة خانقوا من غابات شجر التوت؛ إذ كان يحتفظ به لما يكون من ورقه، وما يطعم منه لدود القز الذي ينتج منه الحرير، فكان ذهاب الشجر داعيا إلى انقطاع الحرير الصيني وجهازه إلى ديار الإسلام.

وسار يانشو بجيوشه إلى بلد بلد فافتتحه، وانضاف إليه أمم من الناس ممن يطلب الشر والنهب وغيرهم ممن يخاف على نفسه، وقصد مدينة أنموا، وهي دار الملك، فخرج إليه الملك في نحو مائة ألف ممن بقي معه من خواصه، والتقى هو ويانشو، وكانت الحرب بينهم سجالا نحواً من شهر، وصبر الفريقان جميعاً، ثم كانت على الملك فولّى منهزما، وأمعن الخارجي في طلبه، فانحاز الملك إلى مدينة في أطراف أرضه، واستولى الخارجي على الحوزة، واحتوى على ديار الملك، وملك خزائن الملوك السالفة، وما أعدوه للنوائب، وشن

الغارات في سائر العمارات، وافتتح المدن، وعلم أن لا قوام له بالملك؛ إذ كان ليس من أهله، فأمعن في خراب البلاد واستباحة الأموال، وسفك الدماء، وكاتب ملك الصين من المدينة التي انحاز إليها، المتاخمة لبلاد التبت، وهي مدينة مد المتقدم ذكرها، ملك الترك ابن خاقان، فاستنجده، وأعلمه ما نزل به، وأعلمه ما يلزم الملوك من الواجبات إذا استنجدها إخوانها من الملوك، وأن ذلك من فرائض الملك وواجباته، فأنجده ابن خاقان بولد له بنحو من أربعمائة ألف فارس وراجل، وقد استفحل أمر يانشو، فالتقى الفريقان جميعا، فكانت الحرب بينهم سجالا نحوا من سنة، وتفانى من الفريقين خلق كثير، ففُقد يانشو، فقيل: إنه قتل، وقيل: إنه أُحرق، وأُسر ولده والخواص من أصحابه.

وسار ملك الصين إلى دار المملكة وعاد إلى ملكه والعامة تسميه يعبور، وتفسير ذلك ابن السماء، تعظيما له، وهو الاسم الأخص لملوك الصين، والذي يخاطبون به جميعا جحان، ولا يخاطبون بيعبور، وتغلب كل صاحب ناحية من عمله على ناحيته، كتغلب ملوك الطوائف حين قتل الإسكندر بن فيلبوس المقدوني دارا ملك فارس، وكنحو ما نحن بسبيله في هذا الوقت – وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة – فرَضي ملك الصين منهم بالطاعة له، ومكاتبته بالملك، ولم يتأت له المسير إلى سائر أعماله، ولا محاربة من تغلب على بلاده، وقنع بما وصفنا، وامتنع من ذكرنا من حمل الأموال إليه فتاركهم مسالما لهم، وعدا كل فريق منهم على ما يليه على حسب قوته وتمكنه؛ فعدم انتظام الملك واستقامته على حسب ما سلف من ملوكهم. وقد كان لمن سلف من ملوكهم سير وسياسات للملك، وانقياد للعدل، على حسب ما توجبه قضية العقل...

تبيّن لنا كيف أن المسعودي يحتفي بالعدالة الصينية، ويورد أخبارا تؤكدها،وكما اتضح فالصينيون على وعي بفلسفة العدالة،وبأهمية بعدها الاجتماعي في إدامة الملك. ومادمنا نتحرك في أفق التاريخ بمعناه الواسع، وبكل أبعاده الفكرية والأخلاقية فسيكون من المفيد أن نردف النص السابق بآخر لليعقوبي، ولكن ما يجدر ذكره هو أن المسعودي وغيره يقدمون تاريخا للأفكار مختلفا عن التاريخ الخطي التقليدي. إنهم كما رأينا فيما يخص الهند

والصين انهمكوا في عرض القيم الكبرى في إطار شامل من التصوير التاريخي،ولم يهملوا أبعادها على حساب التوثيق التاريخي المباشر الذي كان شائعا في المدونات التاريخية طوال ذلك العصر.

(51)

ملوك الصـــين

اليعقوبي: من كتاب (تاريخ اليعقوبي)

ذكرت الرواة وأهل العلم ومن صار إلى بلاد الصين ،فأقام بها الدهر الطويل حتى فهم أمرهم، وقرأ كتبهم ،وعرف أخبار المتقدمين منهم ،ورأوه في كتبهم، وسمعه من أخبارهم، ومكتوب على أبواب مدنهم وبيوت أصنامهم ومنقور في الحجارة قد أجري فيه الذهب :أن أول من ملك الصين صاين بن باعور بن يرج بن عامور بن يافث بن نوح بن لمك ،فإنه كان عمل فلكا حاكى به فلك نوح، فركب فيه ومعه جماعة من ولده وأهله حتى قطع البحر ،فصار إلى موضع استحسنه ،وأقام به فسمي ذلك الموضع الصين باسمه ،فكثر ولده وتناسلت ذريته فكانت ذريته على دين قومه واتصل ملكه ثلاثمائة سنة .

ومنهم عرون الذي شيد البنيان وعمل الصنعة واتخذ الهياكل المذهبة وعمل فيها صورة أبيه وجعلها في صدر الهيكل، فكان إذا دخل سجد لتلك الصورة تعظيما لصورة أبيه وكان لصاين اسم تفسيره بالعربية ابن السماء، فمن ذلك الزمان صارت الأوثان تعبد في بلاد الصين ،وكان ملك عرون مائة وأربعين سنة . ومنهم عير الذي سار في بلاد الصين طولا وعرضا، وبنى المدن العظام وشيد القباب من الجزلان والنحاس المذهب ،وعمل صورة أبيه من ذهب مكلل بالجوهر والرصاص والنحاس المزوق، فاتخذها أهل مملكته جميعا في مدنهم وبلدانهم ،وقالوا ينبغي للرعية أن تعمل صورة ملك قد ملكها من السماء وعدل فيها، واتصل ملك عير مائة وثلاثين سنة .

ومنهم عينان الذي سام أهل مملكته سوء العذاب ونفاهم إلى جزائر البحر، فكانوا يصيرون من تلك الجزائر إلى مواضع فيها الثمار ليأكلوا منها فيجدون بها الوحوش. ولم يزالوا كذلك

حتى أنسوا بالوحوش وأنست بهم، وكانوا ينزون عليها، وربما نزت تلك على نسائهم فتأتي بينهم الخلق المشوهة. وباد القرن الأول وأتى قرن بعد قرن فذهبت عنهم لغاتهم وصاروا يتكلمون ما لا يفهم. ففي الجزائر التي تجتاز منها إلى أرض الصين أمر عظيم من هذا الضرب،وأمم كثيرة ،وكان يسمى عينان اسما تفسيره بالعربية خلقه الشر، وكان ملكه مائة سنة .

ومنهم خرابات الذي ملك وهو حدث السن ثم احتنكت سنه فعلا أمره وحسن تدبيره،ووجه بوفد من قبله إلى أرض بابل وما اتصل بها من بلاد الروم يتعرفون ما فيها من الحكمة والصنعة وحمل معهم من صنعة الصين وما يعمل بها من ثياب الحرير وغيره، وما يؤتى به من تلك البلاد من الآلات وغيرها، وأمرهم أن يحملوا إليه كل صنعة وظريفة من أرض بابل وبلاد الروم، وأن يتعرفوا شرائع دين القوم. فكان ذلك أول ما دخل من متاع الصين إلى أرض العراق وما اتصل بها ،وركب التجار بحر الصين للتجارة؛ وذلك أن الملوك استظرفت ما أتاهم من متاع الصين فعملوا المراكب وحملوا فيها التجارة ،فكان ذلك أول دخول التجار إلى الصين وكان ملك الخرابات ستين سنة .

ومنهم توتال وأهل الصين يقولون إنهم وجدوا مكتوبا على أبواب مدنهم أنه لم يملكهم ملك قط مثله ورضوا به رضا لم يرضوا مثله بأحد قط ،وهو الذي سنّ لهم كل سنّة هم عليها في أديانهم وأفعالهم وصناعاتهم وشرائعهم وأحكامهم، وكان ملكه ثمانيا وسبعين سنة. فلما مات أقاموا يبكون عليه زمانا طويلا، ويحملونه على أسرّة الذهب وعجل الفضة ،ثم جمعوا له العود والعنبر والصندل وسائر الطيب، وألهبوه بالنار وطرحوه فيها ،وجعل خاصته يلقون أنفسهم في تلك النار أسفا عليه ووفاء له ،وصار هذا سنة فيهم وجعلوا صورته على دنانيرهم ،وهم يسمون الدنانير الكونج وعلى أبواب منازلهم الصور .

وبلاد الصين بلاد واسعة فمن أراد الصين في البحر قطع سبعة أبحر كل بحر منها له لون وريح وسمك ونسيم، ليس هو في البحر الذي يليه .فأولها بحر فارس الذي يركب فيه من سيراف وآخره رأس الجمحة، وهو ضيق فيه مغائص اللؤلؤ . والبحر الثاني الذي مبتدؤه من رأس الجمحة يقال له لاروي ،وهو بحر عظيم وفيه جزائر الوقواق وغيرهم من الزنج ،وفي

تلك الجزائر ملوك وإنما يسار في هذا البحر بالنجوم ،وله سمك عظيم ،وفيه عجائب كثيرة، وأمور لا توصف. ثم البحر الثالث الذي يقال له هركند، وفيه جزيرة سرنديب وفيه الجوهر والياقوت وغيره، ولها جزائر فيها ملوك ولهم ملك عليهم ،وفي جزائر هذا البحر الخيزران والقنا . والبحر الرابع يقال له كلاه بار وهو بحر قليل الماء وفيه حيات عظام، وربما ركبت الريح فيه فقطعت المراكب ،وفيه جزائر فيها شجر الكافور. والبحر الخامس يقال له سلاهط وهو بحر عظيم كثير العجائب . والبحر السادس يقال له كردنج وهو كثير الأمطار. والبحر السابع يقال له بحر صنجي ويقال له أيضا كنجلي وهو بحر الصين ،وإنما يسار فيه بريح الجنوب حتى يصيروا إلى بحر عذب عليه المسالح والعمران حتى ينتهوا إلى مدينة خانفو(= خانقوا=كانتون) .

ومن أراد الصين على البر سار في نهر بلخ وقطع بلاد السغد وفرغانة والشاش والتبت، حتى يصير إليها. والملك في حصن له منفرد، وصاحب شرطته خادم، وصاحب خراجه خادم ،وصاحب حرسه خادم ،وصاحب أخباره خادم، وأكثر أعوانه الخدم وهم ثقاته ،وخراجهم من رؤوس الرجال يوجبون على كل رجل بالغ جزية؛ لأنهم لا يدعون رجلا بغير صناعة ،فإذا تعطل عن العمل بعلّة أو هرم أنفقوا عليه من مال الملك . وهم يعظّمون أمواتهم ،ويطول حزنهم عليهم ،وأكثر عقوباتهم القتل، فهم يقتلون على الكذب، ويقتلون على السرقة، ويقتلون على الزنا إلا قوما معروفين .ومن تظلّم من عامل الأعمال فصحت مظلمته قُتل ذلك العامل وإلا قُتل المتظلّم منه إن كان كاذبا مبطلا

وحدود الصين من البر ثلاثة حدود، ومن البحر حد واحد. فالحد الأول الترك والتغزغز ،ولم تزل بينهم حروب متصلة ثم اصطلحوا وتصاهروا . والحد الثاني التبت ،وبين التبت والصين جبل عليه مسالح للصين يحترسون من التبت ومسالح للتبت يحترسون من الصين وهم ما بين حد البلدين . والحد الثالث إلى قوم يقال لهم المانساس لهم مملكة منفردة، وهم في بلاد واسعة ويقال إن سعة بلادهم طول عدة سنين في عرض مثل ذلك لا يعرف أحد من وراءهم، وهم قوم يقاربون أهل الصين.والحد الواحد الذي يلي البحر فمنه يأتي المسلمون

على ما ذكرنا من عدد البحور .

وديانتهم عبادة الأوثان والشمس والقمر، ولهم أعياد لأصنامهم أعظمها عيد في أول السنة يقال له الزارار يخرجون إلى مجمع ويعدون فيه الأطعمة والأشربة ثم يأتون برجل قد حبس نفسه على ذلك الصنم العظيم وعلى جميع شهواته وتمكن من كل ما يريد فتقدم إلى ذلك الصنم وقد صير على أصابع يده شيئا يشعل بالنار ثم يحرق أصابعه بالنار ويسرجها بين يدي ذلك الصنم حتى يحترق ويقع منها ميتا فيقطع فمن نال منه شظية أو خرقة من ثيابه فقد فاز ثم يأتون برجل آخر يريد أن يحبس نفسه للصنم للسنة المجدودة فيقف موضعه ويلبس الثياب ويضرب عليه بالصنوج ثم يفترقون فيأكلون ويشربون ويقيمون أسبوعا وينصرفون. وهذا الشهر الذي هذا العيد فيه تسميه جناح وهو أول يوم من حزيران وللصين حساب أيضا وتسمى الشهور بأسماء مختلفة على حساب قد فهموه فأولها جناح ورداح ورايح ومالح وكسران وبارد ونمرود وكنعان وزاغ وهواه وهرهر وباهر.

ومن المناسب أن نبدأ بدمج العالمين الهندي والصيني، لنراهما معا من منظور البلخي ،إذ هما المكونان الأساسيان للشرق الأقصى طوال القرون الوسطى.و بدون إهمال التمايزات الطبيعية والثقافية بينهما، فكثيرا ما نظر إليهما كوحدة جغرافية وثقافية،وحدة تقبل التنوع الطبيعي المميز لكل منهما.

(52)
أحوال الهند والصين
أبو زيد البلخي(توفي٣٢٢هجري=٩٣٢ميلادي)
من كتاب (صور الأقاليم)

"وأما الهند فصرود (= أرض حارة) وجروم، وأولها قشمير(= كشمير) وهي خمسة وأربعون مصرا ممصّرة، كل مصر تشتمل على حدود ومدن وكل مدينة لها سواد (= ريف) وقرى ومنها جبال وشعاب ومفاوز، وكل ذلك للملك خاصة والناس حراثوه واكرته. قالوا:

وفي الملك للخمارين ستون ألف جارية حانية وموظف عليهم أن يكنسوا الميدان ويرشوه إذا أراد الملك الضرب بالصوالجة، ودينهم البرهمية، وزيهم تطويل الشعر الغالب عليهم البياض لبرد هوائهم، وفيهم علم النجوم والطب والشعبذة والسحر. قالوا :وشرق قشمير ختن وتبت والصين وجنوبها مملكة كور وشمالها بلور لوب ووخان وغربها كابل وغزنه، ولهم الأنهار والعيون والقنى والأبار، وعندهم من أصناف الدواب والطير والألوان من الأطعمة والثمار.

وأما جروم الهند فجزائر وسواحل حتى تتصل بأرض الصين، فمن مدنها الكبار قنوج وقندهار، وسرنديب وسندان ألف وثلاثمائة وسبعون جزيرة عامرة: فيها المدن والقرى غير السواحل، قالوا :وأول شرقي بحر الهند مكران ،وآخره بلاد الصين ،وأول غربيه عدن، وآخره بلاد الزنج، وهم قوم خلاف الزنج والهند يمطرون في الصيف ولا يمطرون في الشتاء، وعامة طعامهم الأرز والذرة، ومشاربهم من مستنقعات يجتمع فيها ماء المطر يسمونها تلاج، وليس عندهم من الفواكه ما لأهل قشمير ،والغالب عليهم السمرة والصفرة، ودينهم البرهمية والسمنية، وملكهم الأعظم يقال له :بلهرا تفسيره ،ملك الملوك. وإن في الجزائر ملوكا لا يطيع بعضهم بعضا. ومشارق الهند الصين وقشمير وشمالهم السند ،وجنوبهم بلاد محرقة مجهولة وبحار ومغاربهم الزنج والرانج واليمن.

وأما تبت فهم صنف بين الترك والهند، زيهم زي أهل الصين لهم فطس الترك، وسمرة الهند، وفيهم الكتابة والحساب والنجوم، وأرضهم أرض باردة مشرقها الصين، وشمالها الترك، ومغربها وخان وراشت ،وهي أعالي خراسان، وجنوبها قشمير، وأعظم مدنها ختن بلدتين غيرين فيه من ألوان الثمار والفواكه وعامة لباسهم وفرشهم القز وهم عبدة الأصنام. وبختن جماعة من ولد الحسين بن علي عليهما السلام ولهم بها مساجد .

وفي كتاب "البلدان والبنيان" مَنْ دخل تبت لم يزل مسرورا ضاحكا حتى يخرج. وأما ياجوج وماجوج فصنف بين الصين والترك الغالب عليهم خفش العيون وفطس الأنوف وقصر القامة جنوبهم الصين وشمالهم الترك ،ومغاربهم مشارق قشمير وتبت، فلا يدرى ما في مشارقهم، وهم أسوأ الناس عيشا، وأخبثهم طعما ،وأخرقهم خرقة، وأقلهم تمييزا وفطنة

كما يزعمون...

وأما الترك فهم عدد كثير وبلادهم واسعة وممالكهم متفرقة وقبائلهم لا تحصى، منهم أهل وبر وأهل مدر جنوبهم تبت وبعض الصين ،ومشرقهم الصين وياجوج وماجوج ،ومغربهم ما وراء النهر من منبعث جيحون إلى مغيضه ،وشمالهم التغزغز وهم صنف منهم ،وأصناف من الناس من أخلاق البهائم والسباع المتوحشة زغرة ،ثم يلي شمال هؤلاء فيافٍ ومجاهيل وأراض باردة لا يعلم ما فيها إلا الله عز وجل.

وحد بلاد الترك ينتهي إلى أحد جوانب بحر الروم وينتهي إلى بحر جرجان(= قزوين) وسمعت أبا عبد الرحمن الأندلسي بمكة حرسها الله يحدث أنها ركضت راكضة من الترك على بعض حدود الأندلس، وسبوا منه ،واستاقوا السوائم ،وأنه تبعهم الطلب فظفروا بواحد منهم ،فقالوا فذاك أول ما رأينا من الترك، وكنا نكلمه ويكلمنا فلا يفهم ولا نفهم، والغالب على الترك البياض والفطس، وفيهم الثنوية والنصارى وعبدة الأوثان والشمس، وأكثر بلادهم باردة.

قالوا: في التغزغز ملك له خيمة من ذهب مركبة كالوطيس يرى تلك من فوق قصره على خمسة فراسخ يعبدها قوم منهم، وبلادهم سهلية قل ما يقع الثلج ،ويشتد الحر في الصيف حتى يسكن أهلها في أسراب، وربما جاءت الحية هاربة من الحر فتساكنهم .ولهم أنواع الفواكه وألوان الثمار. قالوا: وخيزخيز(= القيرغيز) أيضا لهم المزارع والأشجار، وملك خيزخيز خاقان .قالوا :ومن الطراز إلى التغزغز مسيرة شهر ،ومن التغزغز إلى خيزخيز مسيرة شهر، وسائر الترك قبائل وأحياء كلهم يرون الطاعة لملك الصين بالاسم. قالوا: ويجاور الترك الخزر روس وصقلاب وولج واللان والروم ،وأصناف كثيرة من أشباههم. والطريق إليهم في البر من خوارزم إلى بلغار. ومن باب الأبواب، وفي البحر من غابسكين.

وينبغي بعد هذه التوطئة التعريفية أن نورد تفصيلا غنيا للهند والصين والجزر الملحقة بهما ،يقدمه هذه المرة الدمشقي.

(53)

الوصف التفصيلي لبلاد الصين والهند والجزر الملحقة بها
الدمشقي (٧٢٧هجري=١٣٢٧ميلادي)
من كتاب (نخبة الدهرفي عجائب البرّ والبحر)

والغرض أن نبتدىء أبدا بذكر ما هو في الصين الداخل، وأقصى المشرق إلى آخر حده، وذكر ما يليه من مغربه نسقا في عرض بعد عرض، وإقليم بعد إقليم حتى نبلغ أقصى ساحل البحر المحيط المغربي، ثم نعود ونذكر ما في أقصى الشرق مما يلي أقصى المشرق المذكور من شماله وإلى أقصى المغرب من شماله، وكذلك أبدا حتى نصل بالذكر إلى حدود إقليم الظلمة التي هي وراء الأقاليم السبعة ... فمن البلاد التي نبدأ بذكرها، ووصف مدنها الأمصار الكبار، وكورها المشهورة بلاد صين الصين وخمدان وتاجه وتبري، وما هو داخل أبواب صين الصين وجبال بلهرا إلى حدود المعبر الكبير بساحل البحر الهند وجبال جهكة الهنود وبلاد الخيزران .فالأقصى المشرقي من ذلك بلاد صين الصين الواغلة في الجنوب خلف خط الاستواء، وهي مدينة صينية المصر الجامع والقصبة ،وهي على ساحل بحر الصنف والمحيط ،وبها ملك خمدان ومستقر المملكة،وأهلها كفار يعبدون الأصنام ويعظمون صنما منها مصاغا بالذهب يسمونه تموز، ويقولون إنه عرس روحانية الشمس، ويزعمون أن له بيتا بأقصى وسط الأرض ،يعنون بذلك بيت المقدس، وأن على بيت المقدس سبعة أسوار: سور من نار، وسور من ذهب، وسور من رخام، وسور من حجارة، وسور من فضة، وسور من حديد، وسور من نحاس. ويقولون إن في التوراة اسم هذا الصنم تموز وكذبوا ،لعنهم الله بما قالوا إفكا كبيرا ،يعرف اليهود ذلك ،وإن اسمه باسم شهر تموز .

وبساحل صينية مغاص الدر، ومنها يدخل من يدخل إلى المحيط من بحر جزائر السيلي (=كوريا)وراء أرض أصطيفون إلى جزائر الواقواق(= يرجّح أنها اليابان) الواغلة خلفه بالمحيط المظلم ،ومن مصبها على بحر خمدان وتوتيا وبركوه وعرمض وتغرغوه، ولكل مدينة

كورة وسقع وكل هذه خلف خط الاستواء وإلى خمس درج عرضا في الشمال بعد الخط حيث الطول مائة وستون وإلى مائة وست وستين .

ثم يلي ملك صينية شمالا ملك خمدان الأكبر من بلاد صين الصين ،وقصبته العظمى خمدان،وهو على شاطىء نهر خمدان الغربي يحيط بها جزيرة مخالطة بنهر منه يكون سعته ثلاثة أيام في مثلها على ذلك النهر جسور من جهات، يعبر العابر عليها إلى خمدان ولها من المدن الكبار على نهر خمدان إلى ساحل بحر المحيط الزفتي وساحل بحر الصنف خان وخانوا وخلفار وداراب وكولا ورعلوا وصنطا وصقموا وصيرمه، وجميع هؤلاء كفار عباد أصنام صابية .ومعادن الذهب عندهم كثيرة وصورهم ذميمة وخلقهم قردية ولهم من التخميل والصناعات ما لا لغيرهم من أهل صين الصين .

ثم يلي ذلك من الشمال بلاد الصنف ومدينتهم الكبرى مدينة الصنف على ساحل البحر وأهلها مسلمون ونصارى وعباد أصنام ووصلت دعوة المسلمين إليها في زمن عثمان رضي الله عنه. وفيها نزل العلويون الفارون من بني أمية والحجاج ودخلوا البحر الزفتي، واستوطنوا بالجزيرة المعروفة بهم إلى الآن، وجزيرة صبح وجزيرة القلعة المضيئة. ومن مدن الصنف خلبا وثوبا وكروي وسحوتا وسمطار وخليفات، وببلادهم غالب الأفاويه والبهار، ويلي ذلك شمالا بلاد خالفور وهي أوسع بلاد صين الصين، وطولها من حدود بحر الصنف إلى آخر نهر خمدان، ثم إلى أذيال جبال النشادر بأقصى مشرق صين الصين، ومن مدنها ستة فوراب وعباب وسمقطر وطالق وبلقان وسلفار وأهل هذه البلاد أيضا مسلمون ونصارى وعباد أصنام ،والمسلمون أقل عددا، وأقواهم مددا، ولهم العلو عليهم ،والحكم لهم وبلادهم شبيهة ببلاد الهند في المزاج واللون والعيش، وغالب زرعهم الرز والماش،ويجمعون بينهما ويسمون المجموع منهما كشلي يأكلونه بالشيرج .

ثم يلي هذا البلاد شمالا بلاد خانقو وهو متسع حدوده من ساحل بحر مهراج والصنف وإلى سواحل نهر خمدان الغربية، ومن مدن خانقو أربع كبار أمهات، وهي: غابو وغينوا وملكان وقصيان. ومدينة خانقو بساحل نهر خمدان الغربي، وأهلها مسلمون وكفار

ونصارى ومجوس ،وبها معدن الياقوت الأصفر بجبل مطل على خانقو داخل طرفه الشرقي النهر، وعليه حصن منيع فيه الملك الحاكم عليهم ،وبيوت الأموال والفيلة ببلادهم كثيرة .

ويلي بلاد خانقو من جهة الشمال والمشرق بلاد تبري، وهم طائفة بين الخطا والترك والصين في الخلق والأخلاق، ولهم قوة وبأس وصناعة محكمة وهم كفار عباد أصنام جهلة، ولهم أربع مدن كبار ،وهي : قرمزا وحرمزا وتبرما وعلفورا ،وبحد بلادهم من جهة الشمال أذيال جبال بلهرا ،ومن جهة المشرق البحر المحيط المشرقي، وذلك آخر الإقليم الأول .

ويلي بلاد تبري من جهة المغربي بلاد خمدان الأصغر، وهي كثيرة الأنهار والأشجار والطير والمعادن، ومدينتها الكبرى خمدان على بحيرة تسمى بها وأهلها ما بين مسلمين ونصارى ويهود والكفار بها أكثر عددا والمسلمون أشد قوة واستعلاء ولها من المدن ثلاثة جوجو وجماقا وخميروا ثم يليها من مغربها بلاد آخر صين الصين ، وتسمى شين وماشين بالفارسية وقصبتها الكبرى مدينة تاجه يشقها نهر تاجه بها التجار المسلمون ، ودار الملك شين وماشين، ولها من المدن بساحل بحر المهراج الشمالي أربع مدن ، وهي : كله ولاروي ومهراج وبلهور. وتتصل هذه المملكة بأبواب الصين وهي جبال ودربندات وعقبات لا مسلك لأحد فيها إلا بنفسه مع صعوبة ،ولها مجاز عليه باب وحراس بالبدل ،كما على باب الحديد بين التتار وبلاد بركة الآن ، وهي متاخمة لجزرات الهند وآخر بلاد الصين وبلاد بلهرا بحدها ونحو طولها من جهة الشمال،ثم يلي ذلك من الغرب بلاد الجزرات الهندية و فيها بساحل بحر المعبر والمهراج مدن ذوات أسقاع وكور وأعمال كبار ،فمنها مدينة القص ساحلية فرضة لها عمل وسقع ومدن صغار ونحو عشرة آلاف قرية كلها هنود جهلة عباد البدود، ثم يليها مدينة كير ساحلية أيضا لها سقع كبير ثم يلي ذلك مدينة بزانة وسقعها نحو من ألف قرية ساحلية ، ولها خور نحو نصف يمد ويجزر ويأتي من جبال بلهرا ثم مدينة ركله ساحلية ثم مدينة منجرورسه وسقعها مشترك وبه نحو من خمسة عشر ألف قرية ،ولها حصون نحو من سبعين حصنا كلها بجبال بلهرا المتصلة من أبواب الصين إلى آخر بلاد الجزرات .

ويلي سواحل الجزرات سواحل بلاد الار ،وهي مملكة سومنات، وقصبة الار كلها السومنات مدينة ساحلية متسعة بها علماء الهنود وعبادهم ،وبها البد الذي تعبده الهنود، وهي في جهة البحر للقاصد إليها من عدن. والبد عبارة عن صنم من حجر عند طائفة الهنود صورته إحليل إنسان وفرج امرأة مصنوعان من حجر أو من ذهب أو من حديد عند طائفة منهم، يسمون ذلك العلة القريبة في اتحاد نوع الإنسان، فأما الصنم فإنه يكون على كرسي من ذهب وهو مضمخ بالمسك في رأسه إلى الكرسي ومقلد بعقود الياقوت والجوهر، ويكون أمامه أطباق ذهب مملوءة من الأحجار الشريفة الثمينة والكرسي على مقعد مستدير يسع عشرة رجال ثم أسفله درجة طولها ذراع وعرضها ذراعان وهي مستديرة أوسع من المقعد ،كأنها دائرة حوله ثم تحتها درجة ثانية وثالثة إلى تسع درج ،وعلى كل درجة من الأصنام ما قد ملأها على صورة الرجال، وبين الدرج سلالم صغار يطلعون السدنة فيها وينزلون، وفي بعضها أبواب إلى الداخل مصنوعة من الحجارة ومن الخشب المدهونة.

وهذه الأصنام أكثرها تماثيل الملوك وعظماء الهنود ،ولهذا البد في كل يوم ألف قد طعام يطبخ من الكشلي ،ثم يوضع قدام البد سماط، وهي حارة كلها شديدة الحرارة تكشف أغطيتها ويضرب لها نوبة بالطبول والصنوج والمعازف والأبواق من الصدف والقرن والنحاس بأيدي سدنات خادمات أبكار، وتغلق أبوابه على ذلك الطعام بمقدار ما ينقطع بخاره الذي يرتفع منه وهو حار. ويزعمون أن ذلك البخار غذاء أرواح موتاهم اللائذين بالبد بعد موتهم، وأن البد والأصنام لها روحانيات تغتذي بتلك الأبخرة التي للطعام، ثم يفتحون الأبواب ويغرقون الطعام على السدنة والسدنات وعلى الفقراء والضعفاء المرتبين على ذلك السماط.

ومن طوائف المتعبدين والعلماء طائفة يسمون الجوكية أصحاب مخارق وشعبذة وتخييلات، وطائفة يسمون بوكية أصحاب رياضات وتجريد يزيلون بالنورة ما على أبدانهم من الشعر ولا يمشون حيث مشوا، ولا يوجدون حيثما وجدوا أبدا إلا وهم أزواج صاحب ومصحوب، ومن خلتهم أن أحدهما يستمتع بالآخر فيما بين فخذيه طبا منه وإخراجا

للفضلة المؤذية من المني على الوجه الطبيعي، وفي رقبة المصحوب جرس معلق إذا وجد الجوع جاء إلى درب أو سوق أو زقاق أو باب البد ثم يحرك الجرس تحريكا مخصوصا فيتبادر إليه من سبق من سامعيه ويغرف له كشلي، ويناوله إياه فيأتي به إلى صاحبه فيضعه بين يديه ثم يتأخر عنه المصحوب، فيأكل ذلك الصاحب منه ما شاء ثم يتأخر، فيأتي المصحوب فيأكل ما شاء ثم يقوم ويترك الباقي فيأتي الدافع له فيأخذ ما بقي بركة له ولأهله ،ومن شأن البركة أيضا أنهم يتولون حرق جثث ملوكهم وعظامهم ويدخرون رمادهم في موضع حريز ،فإذا ركب ملك الوقت كان في موكبه منهم اثنان بيد كل واحد منهما صحفة من ذهب فيها من ذلك الرماد، ويذرون منه على وجوههم وأبدانهم شيئا فشيئا إشارة إلى أن هذا مصيرك أيها الملك ففكر فيه ولا تظلم ولا تفعل فيه إلا الخير.

ومن طوائفهم أيضا البراعمة عباد النار يزعمون أن إبرهيم عليه السلام رسول الله إليهم، وأن آدم رسول الله بشرا أولا وأنهما جعلا قبلة السجود النار يتوجه المتوجه إليها بالعبادة والسجود والبراعمة من علماء الهنود ،ومن شأنهم أنهم لا يغيرون شيئا من أبدانهم ما هو مخلوق فيهم كالأظفار والشعر النابت فيراهم الرائي كالوحوش. وحكى السمرقندي أن ملك بروص زار الصنم فرأى في عنقه عقدا فوق القيمة فنزعه منه ثم تقلد به فعارضوه السدنة فقال إنه خلعه عليّ فإن أنكرتم كسرته ،وإن صدقتم فقد خلعه عليّ،فصدقوه ظاهرا.

ومدينة كنباية كبيرة خطيرة، وبها جامع حسن للمسلمين، وكنيسة قديمة للنصارى، وبد كبير للهنود، وبيت نار للمجوس. ومدينة بروص، ولها سقع عظيم، ولها نحو من أربعة آلاف قرية، ولها خور طوله يومان يمد ويجزر وتعبر إليه المراكب من البحر ،وبها الفلفل والخيزران كثير .والله أعلم.

وصف البلاد الساحلية الهندية من الشرق إلى الغرب

فأول بلاد الساحل الهندي بعد مدينة بروص بلاد الكنك والكنونات يحدق بها الجبال،، وهي على شرقي الكنج ...ومدينة خورنل وهي حلة للمراكب الهندية والبحرية وتوساري

لها خور عظيم تعبر فيه المراكب من البحر، ومدينة دوق ساحلية وأكانتي ساحلية وسوباره ساحلية ،وساهي ساحلية وتانه ساحلية وتانش ساحلية بها مسجد جامع للمسلمين، ثم فرضة كثيرة التجار والأموال ومدينة هبا جبلية ساحلية ولهذه البلاد نحو من عشرين ألف قرية ونحو ثلاثين حصنا .

ويلي هذه البلاد من غربها بالساحل بلاد بلوان، وفيها من المدن ذنوه ساحلية ومدينة قرثالة وسكبيس ومدينة سندابور ، وهي القصبة وبها بد للهنود وجامع للمسلمين ومدينة هنور ساحلية ،ولها سقع حسن ولهذه البلاد نحو عشرة آلاف قرية عامرة ،ثم يلي ذلك مدينة منيبار وتسمى بلاد الفلفل ،وفيها من المدن الأمهات فاكنور ساحلية كبيرة أهلها هنود وعجم وعرب مسلمون ومدينة صيمور ساحلية بها خور تعبره المراكب أكبر من خور فاكنور وأوسع وهما يمدان ويجزران ومدينة منجرور على نهر يعرف بها يصب في البحر ويمد ويجزر عندها، ولها الفلفل كثير ومدينة هرقلية ساحلية لها سقع كبير ونحو ألف قرية جبلية وساحلية ،ومدينة هيلي ومدينة جرفتان ساحلية وأهلها كلهم كفار، ومدينة دهفتان ومدينة بدفتان ومدينة فندريته ،وغالب أهلها يهود وهنود ومسلمون ونصاراها قليل، ومدينة شنكلي ومعظم أهلها يهود ،ومدينة كولم وهي آخر بلاد الفلفل .

ويلي هذه البلاد بلاد الصوليان وفيها المعبر الصغير والمعبر الكبير وهما ساحلان يحمل إليهما البضائع من البلاد الغربية ،والمعبر الصغير فرضة لمدينة كنكار ومدينة منكله ومدينة الليبور، وبها دار المملكة وبها بد صغير العمارة، ثم المعبر الكبير وعليه من المدن كبرى وكيبر وهي مدينة حسنة وأهلها يخلطون، ومدينة قيرة كبيرة، ومدينة قين ،ومدينة أباطو ودفتن وتندا وقصبتها مدينة فاتني، وقد استولى عليها الخراب وبجبلها المسمى كاورد بركان عظيم يحذف بالنار ليلا ونهارا .

ويلي هذه البلاد بلا كرورا ،وهي آخر ما ينتهي إليه التجار وفيه من المدن كرورا وهي القصبة وجرام الذهب ،وهو بد مقصود من الهند يأتونه من مسيرة سنة بأنواع من التعبدات التي يرونها ،فمنهم من يمشي على ركبه زحفا أبدا من مكانه حتى يصل إليه، ومنهم من

يلقى نفسه من قامته على وجهه إلى الأرض ثم يقوم ويفعل ذلك أبدا حتى يصل أو يموت في طريقه ،ومنهم من يظفر شعره قرونا ملفوفة بالمشاق والقطن ويسقيها بما أمكن من السليط والسمن والدهن ويأخذ بيده خنجرا ماضيا ثم يقصد بيت النار ومعه جماعة من أصحابه ومحبيه ومن السدنة يزفونه إلى النار فإذا قاربها أخذ النار بيده فيشعل قرونه ثم يمد يده إلى جلدة بطنه ويقطعها ستا بالخنجر ويدخل يده إلى كبده ويخرجها ويقطع منها قطعة يعطيها لأخص أصحابه ويلقى نفسه في النار فتحرقه النار ثم إذا صار رمادا أخذوا رماده وذروه في نهر الكنج أو جعلوه في ماء من نهر الكنج وذروه على أجسامهم يتبركون بذلك ،والهنود بجملتهم قائلون بالتناسخ والإسماعيلية كذلك والإلحادية كذلك والقرامطة والنصيرية كذلك يرون أنهم في سجن ضيق في حال حياتهم وأنهم إذا ماتوا صارت أرواحهم إلى أجساد غير أجسادهم فتنشأ فيها كما نشأت من قبل وتكون أسعد مما كانت ويرون أن الموت هو الحياة فلذلك هان عليهم القتل .

في وصف بلاد السند وما يجاورها إلى حدود بلاد فارس

فأما بلاد السند الساحلية فإنها متاخمة من جهة المشرق لآخر بلاد كرورا ،وهي مدينة مالوه وعمل نهاور، ولأهل السند لسان يختصون به عن غير لسان الهند .ومن بلاد السند الساحلية ديبل ،ويقال له ذيبل لها خور يدخل إليها من بحر فارس تعبره المراكب، وبيرون وهي فرضة على خور لها متصل بنهر يأتيها من المشرق من بلاد كابلستان ويصب في البحر ،ومن بلاد السند الجليلة البرية مدينة ملتان ،ويسمى فرج الذهب، وبيت الذهب لكثرة ما أخذ المسلمون منها من الذهب حين فتحت والفرج النقر، وكان بها بد يخدمه سبعة آلاف سادن، وهذا البد صنم كانت السند تزعم أنه مثال أيوب عليه السلام .

وزعم المسعودي أن السند يشتمل على مائة ألف قرية وعشرين ألف قرية ومن مدنها وزو، وتسمى لاهور مقر الملك بها ولهذه من الأعمال والكور الغورية المحمدية والمنصورية مدينة بنيت في صدر الإسلام وتسمى بالهندية تاميران ،وكان موضعها غيضة يحيط بها

خليج من نهر مهران ويشتمل هذه الناحية على نحو من ثلاثين ألف قرية عامرة ومدينة أنري ومدينة منحا نري جميعهم على نهر مهران ومدينة بسمد، لها نهر ينبعث من جبل يلي أعمالها ويصب في مهران، ومدينة الثليمان بناها الإسكندر ومدينة القندهار وحيز جندروز وحيز روز ويشتملان على قرى مجتمعة ويحيط بهذا السقع بلاد المند وحيزهم من مفازة بين السند وبين الهند، وهم أصحاب إبل وغنم يرحلون في طلب الكلأ كالعرب .

ويتاخم هذا بلاد طوران وهو واد بين جبلين طوله ثلاثة أيام كثير الفواكه ،وفيه من المدن قصدار، ويقال بالزاء وهي القصبة ومدينة كيزكنان ومدينة سورجان ومدينة مستنج ومنها يدخل المفازة إلى الملتان ،وأعلم أن جميع بلاد الهند الساحلية في الإقليم الأول وجميع بلادها البرية والجبلية في الإقليم الثاني وكذلك المنيبار ،وأما السند فإنه في الأول وفي الثاني وأول الثالث ،وأما طوران فإن واديها في الإقليم الثالث وكذلك بعض بلاد السند البرية .

ويلي هذا السقع بلاد كرمان ويضاف إليه حيز مكران، ويقال إنه منسوب إلى المكران بن المنذر،والغالب على ناحيته المفاوز، ومن مدنها الساحلية كانان والتيز، وتسمى تيز مكران، ومدينة كيز وكلها مرفأ للسفن، ومن مدنها البرية قندابيل وهي ممبار الهند وكتا البدعه، وحيزها في برية منفردة ،وبنحور وتسمى بترور ودرك وراشك وقنبلي وقرنبوس وتسمى قرنبوز وهاسكان ،وبكل هذه البلاد يصنع الفانيد ويحمل إلى بلاد خراسان والعراق، وتجتمع بأرض السند بين المنصورية وبين حد مكران بطائح من نهر مهران عليها طوائف يعرفون بالزط ،فمن قارب منهم الماء فهم في أخصاص البربر طعامهم السمك وطير الماء، ومن بعد عن الماء أي الشط كان من الأكراد وكان غذاءهم اللبن والجبن وفي غربي مهران ناحية تسمى البدعة يسكنها قوم كفار في آجام وبطائح يجتمعون في مدينة قندابيل .

وأما كرمان فأهل التنسب يقولون إن هذا السقع ينسب إلى كرمان بن فارس وقيل كرمان بن فلوج بن لطي بن يافث، ويحيط بها مائة وثمانون فرسخا لكنه غير متصل العمارة ،وكان يشتمل على خمسمائة وأربعين منبرا يخطب عليها، وأمصاره أربعة وهي بردسير وتسمى كواشير ومدينة أشير وهي طرف المفازة ولها نهر شديد الجرية وهذا كله في الإقليم الثالث

ومدينة بم وكان بها ثلاث جوامع وهي على طرف المفازة بين كرمان وسجستان والسيرجان، وفي بلاد كرمان دون ما ذكرنا من البلاد والأشجار ومدينة الفهرج وهي حد ما بين فارس وكرمان ومدينة زرند ومدينة بيمند. ومدينة روذان وكلها على سيف البرية التي بين كرمان وسجستان وفيه من الأحواز جبال القفص وهي سبعة جبال وجبال البارز يوجد فيها الحديد والفضة وكان يسكنها طوائف من الأكراد لا تحصى كثرة ولا يقبلون لمن ظفروا به عشرة من شدة بأسهم وبها الآن قوم يقال لهم البلوش أشد منهم بأسا وأصعب مراسا ،وبهذا الإقليم ناحية تسمى الأحواز يسكنها عرب ذات إبل وغنم ومراعى يسكنون في أخصاص، وكل هذه الأحواز كانت معمورة بالأكراد ولهذا السقع فرضة على بحر فارس يسمى هرمز، ينزلون بها التجار في أخصاص يصل إليها خور من البحر وهي آخر بلاد كرمان .

في وصف البلاد الهندية المجاورة للصين

وأما الصين الخارج فهو من شمال جبال بلهرا وتبري وتسمى عابور وسابور وبانيهم عابور بن شرميل بن يافث بن نوح نزل بولده وولد ولده في تلك الأرض ،فبنوا المدن وأثاروا الأرض واستخرجوا المعادن وأجروا الأنهار وغرسوا الأشجار،وهم شعوب وقبائل حتى إن الرجل منهم يبلغ بنسبه إلى عابور وهم أحذق الناس بمهن الصناعات وحد بلادهم من المشرق البحر المحيط المشرقي، ومن القبلة جبال البلهرا وبلاد تبري، ومن الغرب بلاد تبت وزرقيا ،ومن الشمال بلاد قرقز ومشرق الخطا.

قال أبو عمر بن عبد البر في كتاب "القصد والأمم إلى معرفة أنساب الأمم "إن وراء الصين أمما منهم أمة إذا طلعت الشمس يأوون إلى مغارات فما يخرجون منها حتى تغرب الشمس،وأمة عور يلتحفون شعورهم، وأمة لا شعور لهم وأكثر ما يأكلون سمك البحر وخشاش الأرض .

ويلي هذه البلاد بلاد خارج الصين ،وفيها من المدن أربع طناج وبها صنم منحوت من جبل متصل بالجبل وعليه قبة عجيبة البناء والارتفاع ومدينة هراجو ومدينة زعرة ولها دار الملك،

وأهل براريها قوم بين الترك والخطا والصين يسمون زرقيا ،يرحلون وينزلون كالعرب والتتار، ثم يليهم من مغربهم أبواب الصين الخارجة وهي جبال خارجة متصلة مسكونة بطوائف من الصين ،وبها من الحصون مائة حصن وليس لهم مدينة ممصورة، ثم يلي ذلك من مغربه بلاد هندستان ومعناه بالعربية بلاد هند ،وهي مملكة خطيرة يركب لملكها فيما بلغنا أربعمائة ألف فارس ويقاد بين يديه ألف فيل وقصبة هذا السقع مدينة دلي، وهي معربة دهلة ولها جانبان أحدها يسكنه الملك وجنده وهم ترك ومسلمون والآخر يسكنه الرعية وهم هنود كفار ،ولها من البلاد الجليلة بيتا ومدينة أوجاهي ومدينة بلاهور ومدينة كابور ومدينة بردان ومدينة أو ومدينة سبسار ومدينة نكبولي، وفي بر هذا السقع من البلاد الهندية البرية مدينة قشمير ،ويقال إنها من بناء كي قاوس أحد ملوك الطبقة الثانية من الفرس ولها ناحيتان خارجة وداخلة فالخارجة تشتمل على نيف وسبعين ألف قرية والداخلة تشتمل على فوق مائة ألف قرية، وهي صرودية أي باردة داخلة في الإقليم الثالث. ومن أمصار الهند البرية الخطيرة مدينة قنوج وكانت مقر ملوك الهند. ذكر المسعودي أن مقدار عملها مائة وعشرون فرسخا سندية ،في مثلها والفرسخ السندي ثمانية أميال تشتمل على مائة ألف وثمانية آلاف قرية وبين الناحيتين جبال شاهقة فيها أبواب الصين .

ثم يلي هذا السقع سقع زابلستان ،وهو سقع عظيم واسع قصبته غزنة وكانت ثغرا تجاه الهند ومقر السلطان محمود بن سبكتكين ،وفي حيز غزنة بوران مملكة واسعة وأردلان مثلها ومدينة خواش ومدينة جروس ومدينة سكاوند ومدينة دسك ومدينة كابل ويسمى كابلستان وبجبالها الإهليلج، وهذه البلاد مجاورة لسجستان الجنوبي منها في الإقليم الثاني وأواخر الأول والشمالي منها في الإقليم الثاني وأوائل الثالث .

وعمل سجستان فإنه يليها من جهة المغرب إقليم كثير الرياح والرمال ،وأهله يصرفون الرياح في تدوير الأرحاء ونقل الرمال من مكان إلى مكان حتى كانت الرياح مسخرة لهم كما سخرت لسليمان عليه السلام ومن أوضاعهم الرحى الدائرة بالرياح إنهم يرفعونها كالمئذنة أو يتخذون قرنا عاليا من قرون الجبال أو تلا كذلك أو برجا من أبرجة الحصون

فيصنعون فوقه بيتا فوق بيت والأعلى منها فيها الرحى تدور وتطحن والأسفل فيه دولاب يديرها الريح المسخرة فإذا دار الدولاب من أسفل دارت الرحى على الدولاب من فوق وبأي ريح هبت دارت تلك الأرحاء ولا يكون إلا حجرا واحدا ، فإذا رفعوا بناء البيتين جعلوا للبيت الأسفل منها أربع مرامى كما في الأصوار لكنها مقلوبة واسعها إلى الفضاء وضيقها إلى داخل مزرابا للهواء حتى يدخل فيها الهواء قويا إلى داخل مثل منفاخ الصائغ ،يكون الواسع إلى فمه والضيق إلى داخل ليكون أقوى لدخول الهواء ،يدخل إلى بيت الطحن من أي مهب هبت الريح فإذا دخل الهواء إلى ذلك البيت من الموضع المصنوع له إلى بيت الطحن وجد له سريسا كسريس الحاكة، التي يسدون عليها الغزل، ولها اثنا عشر ضلعا فما دونها إلى ستة أضلاع وعليها الخام مسمور كهيئة ثوب الفانوس ولكنه مستقيم على الأضلاع كل ضلع له ثوب وله عب يملأه الهواء منه ويدفعه فيملأ الذي بعده ثم يدفعه فيملأ الثالث، ويدور هذا السريس ويدور بدورانه الحجر فيطحن الحب ،وقد يحتاج إلى مثله في الحصون العالية والأماكن التي مياهها قليلة وهواؤها كثير الهبوب .

وأما تصريفهم للرياح في نقل الرمل من مكان إلى مكان فإنهم يقيمون أخشابا طوالا ويربطون عليها بواري أو مثلهن وينصبونها بتعاريج مع مهب الرياح فتهب الريح شمالا أو نكبا فتحمل من الرمل ما تحمله وتصدم به البواري ،ثم إذا امتلأت منه نصبوها منها وإلى حيث أرادوا صرفوه بعد نصب أخشاب وأبواب وبوارى فيمر الريح بذلك المنقول من الرمل إلى حيث أرادوا حمله ونقله بتدريج ولو كان جبلا نقلته الريح بهذا المثال.

ومن مدن سجستان ذوات الأعمال مدينة زرنخ، وهي في مفازة تجري فيها جداول من نهر الهندمند وقلعة الطاق لها سبعة أسوار ومدينة الزالقان وحيز رخاج وحيز أرق وحيز داور وحيز بالش وكل هذه الأحواز كانت ثغورا في وجوه الغور والخلج ومساكنهم جبال لهراة لهم بها حصون منيعة ومروج واسعة وبسجستان من الأفاعي والنواشر القاتلة ما لا تطاق، وقد بث الله في أرضها القنفذ وسلطه الله على الحيات يقتل ويأكل وكذا النمس المسمى العزيرا.

بلاد السند تحتاج إلى الوقوف قليلا عليها كونها تمثل تخوما للهند، وقد حظيت بأهمية لاغبار عليها من لدن المؤرخين والجغرافيين. وابن حوقل الجغرافي المعروف يقدّم لنا تعريفا شاملا بها،وهو تعريف يجاري في بعض جوانبه كتب (المسالك والممالك) فيشغل بالمدن والأنهار والقرى، لكنه لايهمل العادات والتقاليد

(54)

بلاد السند

ابن حوقل(توفي بعد٣٦٧هجري=بعد٩٧٧ميلادي)

من كتاب(صورة الأرض)

(وأما بلاد السند وما يصاقبها للإسلام . .فهي بلاد السند وشيء من بلاد الهند ومكران وطوران والبدهة . وشرقي ذلك كله بحر فارس وغربيها كرمان ومفازة سجستان وأعمالها، وشماليها بلاد الهند وجنوبيها مفازة ما بين مكران والقفص ومن ورائها بحر فارس. وإنما صار بحر فارس يحيط بشرقي هذه البلاد والجنوبي من وراء هذه المفازة من أجل أن البحر يمتد من صيمور على الشرقي إلى تيز مكران، ثم ينعطف على هذه المفازة إلى أن يتقوس على بلاد كرمان وفارس.

والذي يقع من المدن في هذه البلاد فبناحية مكران التيز وكيز وفنزبور ودزك وراسك، وهي مدينة الخروج وبه وبند وقصر قند واصفقه وفهلفهره ومشكى وقنبلي وارمابيل. وبنواحي طوران من المدن مجاك وكيزكانان وسيوي وقصدار. وبنواحي البدهه من المدن قندابيل وهي أم الناحية. وأما نواحي السند وما يقع بها من المدن فالمنصورة اسمها ياميراماان بالسندية، والديبل والنيرون وقالري وانري وباري ومسواهي والفهرج وبانيه ومنجابري وسدوستان والرور والجندرور. وأما مدن الهند فهي: قامهل وكنبايه وسوباره، ولها نواح جليلة وأساول وجناول وسندان وصيمور وبني بتن إلى الجندرور والسندروذ، وهذه مدن الهند التي يملكها الإسلاميون. ولبلد الهند مواطن وأماكن وفجاج وأعماق كفرزان وقيوج في المفاوز،

وأقطارها نائية وبراريها فسيحة لا يصل إليها تاجر من أهلها، ولا يمكن سافرة غيرها أن تردها لانقطاعها ونأيها وكثرة الآفات المعترضة على الطارئين إليها.

ومن كنبايه إلى صيمور هو بلد بلهرا صاحب كتاب الأمثال، ويدعى ملكهم باسم ناحيته كما قالوا غانه، وهو اسم الناحية ويتسمى الملك بها، وكذلك كوغه اسم المملكة واسم من يملكها والغالب على هذه الناحية الكفر، وفيها مسلمون ولا يلي عليهم من قبل بلهرا الذي في زماننا هذا إلا مسلم يستخلفه عليهم، وكذلك العادة وجدتها في كثير من بلدان الأطراف التي يغلب عليها أملاك الكفر كالخزر والسرير واللان وغانه وكوغه. والمسلمون لا يقبلون أن يحكم عليهم إلا مسلم منهم ولا يتولى حدودهم ولا يقيم عليهم شهادة إلا من في دعوتهم، وإن قل عددهم في بعض الممالك قبلوا من أهل الممالك المشار إليه في العفة، فإن جرحه الخصم وزكاه المسلمون أُمضيت شهادته وأُخذ الحق بقوله من المسلمين. وببلاد بلهرا المساجد تجمع فيها الجمعات ويقام بسائرها الصلوات بالأذان في المنار والإعلان بالتكبير والتهليل، وهي مملكة عريضة.

والمنصورة مدينة مقدارها في الطول والعرض نحو ميل في مثله، ويحيط بها خليج من نهر مهران وهي في شبيه بالجزيرة، وأهلها مسلمون ملكها من قريش من ولد هبار بن الأسود وقد تغلب عليها أجداده، وساسوهم سياسة أوجبت رغبة الرعية فيهم وإيثارهم على من سواهم غير أن الخطبة لبني العباس. وهي مدينة جرومية حارة بها نخيل وليس بها عنب ولا تفاح ولا جوز ولا كمثرى، ولهم قصب سكر يعقد منه القند الغزير الكثير، وبأرضهم ثمرة على قدر التفاح تسمى الليمونة حامضة شديدة الحموضة، ولهم فاكهة تشبه الخوخ يسمونها الأنبج تقارب طعم الخوخ، وأسعارهم رخيصة وبها خصب، ونقودهم القندهاريات كل درهم منها خمسة دراهم، ولهم درهم يقال له الطاطري في الدرهم درهم وثمن، ويتعاملون بالدنانير أيضا وزيهم كزي أهل العراق غير أن زي ملوكهم يقارب زي ملوك الهند في الشعور والقراطق.

والملتان مدينة نحو المنصورة في الكبر وتسمى فرج بيت الذهب، وبها الصنم الأعظم للهند

الذي تحج إليه من أقاصي بلدانها وسائر أصقاعها وتعظمه، ويتقرب إلى هذا الصنم في كل سنة بمال عظيم فينفق على بيت الصنم وعلى سدنته والمعتكفين عليه منهم، وسميت الملتان باسم الصنم والصنم اسمه الملتان، ومكان هذا الصنم في قصر مبنى في أعمر موضع بسوق الملتان بين سوق العاجين وصف الصفارين، وفي وسط هذا القصر قبة والصنم فيها ومن حوالي القبة بيوت يسكنها خدم هذا الصنم ومن اعتكف عليه، وليس بالملتان من الهند والسند الذين يعبدون الأوثان غير هؤلاء السدنة الذين يحوزهم هذا القصر مع هذا الصنم، وهذا الصنم صورة على خلقة الإنسان مربع على كرسي من جص وآجر، وقد أُلبس الصنم جلدا يشبه السختيان أحمر فلا يتبين من جسنده شيء إلا عيناه، فمنهم من يزعم أن بدنه خشب ومنهم من يدفع ذلك، غير أنه لا يترك بدنه ينكشف وعيناه جوهرتان، وعلى رأسه إكليل من ذهب مرتفع على ذلك الكرسي وقد مد ذراعيه على ركبتيه، وقد فرق أصابع يديه كمن يحسب أربعة. وعامة ما يحمل إلى هذا الصنم من المال يأخذه القرشي الهباري أمير الملتان، وينفق على السدنة منه كفافهم، وقد قصدهم الهند غير وقت للتغلب على الملتان في انتزاع الصنم منهم، فيظاهرون المتغلبين عليهم القاصدين لهم بكسره وإحراقه فيرجعون عنهم ولولا ذلك لخربوا الملتان. على الملتان حسن وبها منعة وهي خصبة رخيصة الأسعار، غير أن المنصورة أخصب وأعمر منها. وسميت الملتان بفرج بيت الذهب، لأنها فتحت في أول الإسلام وكان بالمسلمين إضافة وقحط، فوجدوا فيها ذهبا كثيرا فاتسعوا فيها بما وجدوه، ولأهلها رغبة في القرآن وعلمه ،والأخذ بالمقارىء السبعة والفقه وطلبة الأدب والعلم، وفيهم جساء وزعارة أخلاق ،وبخارج الملتان على نصف فرسخ منها أبنية كثيرة تعرف بالجندرور، وهي معسكر الأمير ولا يدخل الأمير منها إلى الملتان إلا في يوم الجمعة عند ركوبه الفيل، ويدخل فيصلي الجمعة بأهلها ويعود على الفيل إلى دار إمارته وهو من ولد سامة بن لؤي بن غالب ،وليس في طاعة أحد وخطبته لبني العباس.

وأما بَسمد فمدينة صغيرة وهي الملتان دون الجندرور عن شرقي نهر الملتان، وهو نهر مهران وبين كل واحدة منهما وبين النهر نحو نصف فرسخ، وشربهم من الآبار، وبسمد هذه

خصبة وتكتب بالباء والفاء. ومدينة الرور تقارب الملتان في الكبر وعليها سوران، وهي على شط نهر مهران أيضا وهي من حد المنصورة خصبة رفهة كثيرة التجارة. والديبل من شرقي نهر مهران على البحر، وهي متجر عظيم وتجارتها من وجوه كثيرة وهي فرضة هذه البلاد وغيرها وزروعهم مباخس، وليس لهم كثير شجر ولا نخيل وهو بلد قشف وإنما مقامهم للتجارة.

والنيرون مدينة بين الديبل والمنصورة على نحو نصف الطريق وهي إلى المنصورة أقرب. وهي مقاربة في الحال لمنجابري على غربي مهران، وبها يعبر من جاء من الديبل إلى المنصورة وهي تجاهها. ومدينة مسواهي والفهرج وسدوستان كلها غربي مهران ،وهي متقاربة في أحوالها، وأنري وقالري فمن شرقي مهران أيضا على طريق المنصورة إلى الملتان، وهما بالبعد من شط مهران لهما عمل صالح، وهما متقاربتان في الحال والصلاح. فأما بللري فعلى شط نهر مهران أيضا في غربيه وبقرب الخليج الذي ينفتح من مهران على ظهر المنصورة، وهي ناحية ومدينة مقتصدة صالحة الحال. وبانيه مدينة صغيرة ومنها عمر بن عبد العزيز الهباري القرشي الجواد الكريم المشهور حاله بالعراق في النبل والفضل، وهو جد المتغلبين على المنصورة ونواحيها. وقامهل مدينة من أول حد الهند إلى صيمور، ومن صيمور إلى قامهل فمن بلد الهند ومن قامهل إلى مكران فللبدهة، وما وراء ذلك إلى حد الملتان فجميعه من بلد السند.

والكفار في بلد السند هم البدهة وقوم يعرفون بالميذ، وهم قبائل مفترشة ما بين حدود طوران ومكران والملتان ومدن المنصورة، وهي في غربي مهران وهم أهل إبل والجمل الفالج الذي يرغب فيه أهل خراسان وغيرهم من فارس وأشباهها لنتاج البخاتي البلخية والنوق السمرقندية. ومدينة البدهة التي يتجرون إليها ويقصدونها بحوائجهم قندابيل ،والبدهة كالبادية من البربر، لهم أخصاص وآجام يأوون إليها وبطائح مياه يعيشون بينها. والميذ قوم على شطوط مهران من حد الملتان إلى البحر، ولهم في البرية بين مهران وقامهل مراع ومواطن ينتجعونها لمصيفهم ومشاتيهم وهم عدد كثير. وبقامهل وسندان وصيمور وكنبايه

مساجد جوامع ،وفيها أحكام المسلمين ظاهرة، وهي مدن خصبة واسعة وبها النارجيل ويستعملون منه الشراب فيسكرهم ،وهو كالماء واللبن صفاء وبياضا ورقة يسمى الأطواق ، والخل فيكون في غاية الحموضة ويستعملون المزرنبيذ أهل مصر، ولا والله ما أعرفه ولا أدري ما هو، إلا أني أحسبه يجري مجرى العصيدة الرقيقة. والغالب على زروعهم الأرز ولهم العسل الكثير ولا نخيل لهم. والزاهوق وكلوان رستاقان متجاوران بين كيز وأرمابيل. فأما كلوان ونواحيه فمن مكران، وأما الزاهوق فمن حد المنصورة ولها مباخس كثيرة وزروع واسعة وقرى غزيرة قليلة الثمر كثيرة المواشي والسائمة من كل نوع وجنس.

والطوران واد وقصبته تدعى طوران؛ وهو حصن في وسط الوادي وكان يلي عمله رجل من إخواننا يعرف بأبي القاسم البصري قضاء وإمارة وبندرة، وكان لا يعرف ثلاثة في عشرة بل كان رجلا من أهل القرآن. وقزدار مدينة لها رستاق ومدن والغالب عليها رجل يعرف بمعتز بن أحمد، يخطب لبني العباس ومقامه بمدينة كيزكانان، وهي ناحية خصبة الأسعار، وبها أعناب وفواكه الصرود ورمان حسن وليس بها نخيل.

وبين بانيه وقامهل مفاوز، ومن قامهل إلى كنباية أيضا مفازة ثم يكون حينئذ من كنباية إلى صيمور قرى متصلة وعمارة للهند كثيرة واسعة. وزي المسلمين والكفار بها واحد في في اللباس وإرسال الشعر، ولباسهم الأرز والميازر لشدة الحر ببلدانهم، وكذلك زي أهل الملتان لباسهم الأرز والميازر، ولسان أهل المنصورة والملتان ونواحيها العربية.

ومكران ناحية واسعة عريضة والغالب عليها المفاوز والقحط والضيق، والمتغلب عليها رجل يعرف بعيسى بن معدان سهميا ومقامه بمدينة كيز، وهي مدينة نحو نصف الملتان وبها نخيل كثيرة وهي فرضة مكران، وبتلك النواحي التيز ويعرف بتيز مكران، وأكبر مدينة بمكران الفنجور وبه وبند وقصرقند ودزك وفهلفهره، وكلها مدن متقاربة في الاقتصاد وجميعها جروم، ولهم رستاق يدعى الخروج ومدينته راسك، ورستاق يدعى خرذان وبه فانيذ كثير وقصب سكر ونخيل، وعامة الفانيذ الذي يحمل إلى الآفاق منها إلا شيء يحمل من ناحية ماسكان وبقصدار أيضا فانيذ، وسكان هذه الرساتيق الشراة وتتصل

بنواحي كرمان من ناحية تسمى مشكي، وهي مدينة قد تغلب عليها رجل يعرف بمطهر بن رجاء ويخطب لبني العباس، ولا يذكر غيرهم ولا يطيع أحدا من الملوك الذين يصاقبونه وحدود عمله نحو ثلاث مراحل، وبها نخيل قليلة وفيها شيء من الفواكه الصرودية على أنها من الجروم. وأرمابيل وقنبلي مدينتان كبيرتان وبينهما مقدار مرحلتين، وبين قنبلي والبحر نحو نصف فرسخ وهما بين الديبل ومكران ولهما سعة وفي أهلها يسار ومكنة. وقندابيل مدينة كبيرة وليس بها نخيل وهي في برية مفردة بذاتها وأعمالها وهي ممتار للبدهة. وبين كيزكانان وقندابيل رستاق يعرف بإيل، وفيه مسلمون وكفار وثنيون من البدهة، ولهم غلات وزروع وكروم ومواش واسعة وخصب وإبل وغنم وبقر، وأكثر زروعهم البخوس، وايل اسم رجل تغلب في القديم على هذه الناحية فهي تنسب إليه...

وأما أنهارهم فأعظمها نهر مهران ومخرجه من ظهر جبل يخرج منه بعض أنهار جيحون، وتمده أنهار كثيرة وعيون غزيرة ويظهر على توافره بناحية الملتان، فيجري على حد بسمد ويمر بالرور ثم على المنصورة حتى يقع في البحر شرقي الديبل وهو نهر كبير عذب جدا وفيه التماسيح كتماسيح النيل، وهو كالنيل في الكبر وجريه كجريه بماء الأمطار الصيفية ويرتفع على وجه الأرض ثم ينضب فيزرع عليه حسبما يزرع بأرض مصر. والسندروذ من الملتان على نحو ثلاثة أيام وهو نهر كبير عذب يفرغ إلى مهران قبل بسمد وبعد الملتان. ونهر الجندرور نهر أيضا كبير عذب طيب وعليه مدينة الجندرور ويفرع إلى مهران دون السندروذ إلى نواحي المنصورة. والغالب على أرض مكران البوادي والزروع البخوس لأنها قليلة الأنهار جدا، وفيما بين المنصورة ومكران مياه من مهران كالبطائح عليها طوائف من السند يعرفون بالزط، فمن قارب منهم هذا الماء بهم بأخصاص كأخصاص البربر وطعامهم السمك، وطير الماء في جملة ما يغتذون به ولهم سموك كبار جليلة وليس أغذيتهم من السمك كأغذية أهل الشجر من سمك الورق الذي أكبر ما يكون منه كالإصبع ودونها. ومن بعد من الزط عن الشط في البوادي فهم كالأكراد يتغذون الألبان والأجبان وخز الذرة.

وبلاد التبت التي تقع وسط البر الصيني الشاسع،وتتربع على هضبة مترامية الأطراف،تدرج

عادة ضمن تلك البلاد الشرقية. والمسعودي الشغوف بكل شيء يجهزنا بتعريف مكثّف بها، وكما سنلاحظ فإنه يقدم وصفا مختبريا على غاية من الأهمية للمسك التبتي، ولكنه لاينسى البحث في أصول التبتيين الذين يرجعهم إلى أصول حِميرية.

(55)

وصف بلاد التبت

المسعودي: من كتاب (مروج الذهب)

وبلاد التبت مملكة متميزة من بلاد الصين، والغالب عليهم حِمْيَر، وفيهم بعض التبابعة .. ولهم حضر وبدو، وبواديهم ترك لا تدرك كثرة، ولا يقاومهم أحد من بوادي الأتراك، وهم معظمون في سائر أجناس الترك؛ لأن الملك كان منهم في قديم الزمان، وعند سائر أجناس الترك أن الملك سيعود إليهم. ولبلاد التبت خواص عجيبة في هوائها وسهاها ومائها وجبلها، ولا يزال الإنسان أبدا ضاحكا بها فرحا مسرورا، لا تعرض له الأحزان ولا الغموم ولا الأفكار. ولا تحصى عجائب ثمارها وزهرها ومروجها وهوائها وأنهارها، وهي بلاد تقوى فيها طبيعة الدم على الحيوان الناطق وغيره، ولا يكاد يرى في هذا البلد شيخ حزين ولا عجوز، بل الطرب في الشيوخ والكهول والشباب والأحداث عام، وفي أهلها رقة طبع وبشاشة وأريحية تبعث على كثرة استعمال الملاهي والمعاقرة وأنواع إيقاع الرقص، حتى إن الميت إذا مات لا يكاد يداخل أهله عليه كثير من الحزن مما يلحق غيرهم من سائر الناس عند فقد محبوب أو فوت مطلوب، ولهم تحنن كثير من بعضهم على بعض، والتتيّم فيهم عام، وكذلك يظهر في سائر بلادهم، وهذه البلاد تسمى بمن ثبت فيها ورتب من رجال حمير فقيل تبت لثبوتهم فيها، وقيل: لمعانٍ غير ذلك، والأشهر ما وصفنا، وقد افتخر دعبل بن علي الخزاعي بذلك في قصيدته التي يناقض فيها الكميت ويفخر بقحطان على نزار، فقال:

وهم كتبوا الكتاب بباب مَروٍ　　　وباب الصين كانوا الكاتبينا

وهم سموا السـهام بسمرقند   وهم غرسوا هناك التبتينـا

...وبلاد التبت متاخمة لبلاد الصين وأرضها من إحدى جهاته، ولأرض الهند وخراسان ولمفاوز الترك، ولهم مدن وعمائر كثيرة ذوات منعة وقوة، وقد كانوا في قديم الزمان يسمون ملوكهم تبعا اتباعا لاسم تبع ملك اليمن، ثم إن الدهر ضرب ضرباته، فتغيرت لغاتهم عن الحميرية، وحالت إلى لغة تلك البلاد ممن جاورهم من الأمم فسموا ملوكهم بخاقان. . .

ويقودنا الترحال إلى الجنوب، إلى البحر ، حيث تتناثر الجزر في المحيط الهندي، ومن أكثرها شهرة أندنوسيا.

(56)
جزيرة زابج (= أندنوسيا)
القزويني (توفي ٦٨٢ هجري= ١٢٨٣ ميلادي)
من كتاب (عجائب المخلوقات)

(من جزائر بحر الصين) جزيرة زابج وهي كبيرة في حدود الصين أقصى بلاد الهند يملكها ملك يقال له المهراج.

قال محمد بن زكريا(= الرازي) : للمهراج جباية تقع في كل يوم مائتان من الذهب زنة كل منها ستمائة درهم يتخذ منها لبنا ويطرحه في الماء وخزانته الماء.

وقال ابن الفقيه : بها سكان شبه الآدميين إلا أن أخلاقهم بالوحش أشبه ولهم كلام لا يفهم وبها أشجار وهم يطيرون من شجرة إلى شجرة. وبها نوع من النسانيس له أجنحة كأجنحة الخنافس من أصل الأذن إلى الذنب. وفيها وعول كالبقر الوحشية ألوانها حمر منقطة بالبياض وأذنابها كأذناب الظباء ولحومها حامضة.

قال زكريا بن خاقان(= أحد الملاحين) : بجزيرة الزابج صنف من الببغاء بيض وحمر وصفر يتكلم بأي لغة تكون. وبها خلق على صورة الإنسان يتكلم بكلام لا يفهم يأكل

ويشرب كالإنسان وهم بيض وسود وخضر ولها أجنحة تطير بها،

قال ابن بحر السيرافي(= أحد الملاحين): كنت في بعض جزائر الزابج فرأيت وردا كثيرا أحمر وأصفر وأزرق وغير ذلك فأخذت ملاءة حمراء وجعلت فيها شيئا من الورد الأزرق، فلما أردت حملها رأيت نارا في الملاءة فسألت الناس عنها فقالوا: إن في هذا الورد منافع كثيرة ولا يمكن إخراجه من هذه الغيضة،

قال محمد بن زكريا: من عجائب هذه الجزيرة شجر الكافور وهو عظيم جدا. الشجرة تظل مائة إنسان وأكثر، وينقر أعلى الشجرة فيسيل ماء الكافور عدة جرار، ثم ينقر أسفل من ذلك وسط الشجرة فتنشر منها قطع الكافور وهو صمغ تلك الشجرة فإذا أخذ منها ذلك يبس،

ومن أجل أن تكتمل الصورة عن الأبعاد الاجتماعية للشرق،وبخاصة الهند، نورد نصا للبيروني عن تقاليد الزواج في الهند، ومصير المرأة ، وكل ماله صلة بذلك.

(57)
الزواج الهندي
أبو الريحان البيروني
من كتاب (في تحقيق ماللهند من مقولة مقبولة في العقل أو مرذولة)

النكاح مما لايخلو منه أمة من الأمم لأنه مانع عن التهارج المستقبح في العقل، وقاطع للأسباب التي تهيج الغضب في الحيوان حتى يحمل على الفساد ,ومن تأمل تزاوج الحيوانات واقتصار كل زوج منها بزوجة وانحسام أطماع غيره عنهما؛ استوجب النكاح واحتوى السفاح أنفة للقصور عن رتبة ماهو دونه من الحيوانات ؛ ولكل أمة فيه رسوم وخاصة من ادعى منهم شريعة وأوامر له إلهيّة ,ومن شأن الهند أن يكون التزويج فيهم على صغر السن ولذلك يعقده الأبوان لأبنائهم ,فيقيم البراهمة فيه رسوم القرابين ويبثّ فيهم

وفي غيرهم الصدقات ,وتظهر آلات الأفراح ،ولايسمّى بينهما مهر ,وإنما يكون فيه للمرأة صلة بحسب الهمّة، ونحلة معجّلة لايجوز ارتجاعها إلا أن تهبها المرأة بطيبة من نفسها ، ولايفرق بين الزوجين إلا الموت إذ لا طلاق لهم ,وللرجل أن يتزوج بأكثر من واحدة إلى أربع ,وما فوق الأربع محرمٌ عليه إلا أن تموت إحدى من تحت يده منهن ؛فيتمم العدد بغيرها ولا يتجاوزه ,وأما المرأة إذا مات زوجها فليس لها أن تتزوج ,وهي بين أحد الأمرين – إمّا أن تبقى أرملة طول حياتها وإما أن تحرق نفسها، وهو أفضل حاليها لأنها تبقى في عذاب مدة عمرها .

ومن رسمهم في نساء ملوكهم الإحراق شئن أو أبين احتراسا عن زلة تندر منهن , ولايتركون منهن إلا العجائز أو ذوات الأولاد إذا تكفل الابن بصيانة الأم وحفظها ؛ والقانون في النكاح عندهم أن الاجانب أفضل مما قرب فيه ,فأمّا ماجرى على استقامة إلى أسفل أعني الأولاد وأولاد الأولاد وإلى أعلى من أمّ وجدّة وأمهاتهن فمحرم أصلاً ,وأمّا ما انحرف عن الاستقامة وتفرع إلى الجانبين من أخت وبنت أخت وعمة وخالة وبناتهما فكذلك في التحريم إلا أن يتباعد بالأنسال خمسة أبطن متوالية في الولاد ,فيزول التحريم حينئذ مع بقاء الكراهة ,ومنهم من يرى عدة النساء بحسب الطبقات حتى يكون للـ"برهمن" أربعاً ولـ"كشتر" ثلاثا ولـ"بيش "اثنين ولـ"شودر" واحد ,ويجوز لكل واحد من أهل الطبقات أن يتزوج في طبقته وفيما دونها ولايحل له أن يتزوج من طبقة فوق طبقته ,ويكون الولد منسوبا إلى طبقة الأم دون الأب ، فإن كانت مرأة البرهمن مثلا برهمنا كان الولد كذلك وإن كانت شودرا كان شودرا ,ولكن البراهمة في زماننا وإن حل لهم ذلك لايفعلونه ولايتجاوزون في التزويج غير طبقتهم ؛ وأما الحيض فإن أكثره بالرؤية ستة عشر يوما،وبالتحقيق هو الأربعة الأيام الأولى ، فإذا انقضت الأيام الأربعة واغتسلت طهرت وحلّ إتيانها، وإن لم ينقطع عنها الدم فإن ذلك ليس بحيض وإنما هو مادة للأجنّة ، وواجب على البرهمن إذا أراد إتيان النساء طلبا للولد أن يقيم قربانا للنار يسمى " كربادهن " وإنما لايفعل لأنه يحتاج فيه إلى حضور المرأة والحياء يمنع عن ذلك ,فيؤخر ويجمع إلى الذي

يتلوه في الشهر الرابع من الحبل، ويسمى " سيمنتونن" فإذا وضعت المرأة حملها أقيم قربان ثالث بين الولادة وبين الإرضاع يسمّى " جات كرم" ولايسمّى باسم إلا بعد انقضاء أيام النفاس ,وقربان الاسم يسمى " نام كرم " .

وما دامت المراة نفساء لم تقرب من آنية ،ولم يؤكل في دارها شيء، ولم يوقد ناراً فيها " برهمن " ,وتلك الأيام تكون لبرهمن ثمانية ولكشتر اثني عشر ولبيش خمسة عشر ولشودر ثلاثين ، ومن دونهم فغير معدود ليس له في الرسوم حد محدود ,وأكثر الرضاع ثلاثة أحوال من غير وجوب ,والعقيقة في الثالثة، وثقب الأذن في السابعة ،و الثامنة .

ويظن الناس بالزناء أنه مباح عندهم ، كما شرط" إصبهبذ كابل" أيام فتحها ،وإسلامه أن لايأكل لحم بقر ولايتلوط ,وليس الأمر عندهم كما يُظن؛ ولكنهم لايشدّدون في العقوبة عليه ,والآفة فيه من جهة ملوكهم ,فإن اللواتي تكنً في بيوت الأصنام هنّ للغناء والرقص واللعب لايرضى منهن " برهمن" ولا سادن بغير ذلك ,ولكن ملوكهم جعلوهن زينة للبلاد وفرحا وتوسعة على العباد ,وغرضهم فيهن بيت المال ورجوع ما يخرج منه إلى الجند إليه من الحدود الضرائب ,هكذا كان عمل عضد الدولة ،وأضاف إليه حماية الرعية عن عزاب الجند) .

يخيّل لنا أن النصوص السابقة التي رتّبناها بحيث تضيء الأبعاد التاريخية والجغرافية والثقافية والدينية للهند والصين والمناطق المجاورة لهما، قد أفلحت في كشف الملامح العامة لبلاد متنوعة في كل شيء. لكنّ الأمر الذي يكتسب – من وجهة نظرنا– أهمية بالغة هو تقديم المدونات الارتحالية المشبعة بالمعلومات والتصورات ، والتي قام بها نخبة من الرحالة لأسباب مختلفة كالتجارة والتعلّم وحب الاستطلاع ،وكما كان للرحلات البرية قيمة خاصة بها ، فإن الرحلات البحرية إلى الشرق كانت ظاهرة متميزة في أدب الرحلات، ويحسن أن تكون البداية مع رحلة سليمان التاجر المتقدّمة زمنيا على غيرها، وسنجد بعد قليل أن بلاد الهند والصين كانت مثار رغبة دائمة للرحالة والجغرافيين وغيرهم.

(58)

رحلة التاجر سليمان البحرية إلى بلاد الهند والصين
(ارتحل نحو ٢٣٧هجري= نحو ٨٥١ميلادي)
أورد ها السيرافي في كتاب(رحلة السيرافي) المدوّنة بداية القرن ٤الهجري= ١٠ الميلادي)

البحر الذي بين بلاد الهند والسند :.. وفيه ...غوز وماغوز(= لعله يقصد بلاد يأجوج ومأجوج)، وجبل قاف، وبلاد سرنديب، وفتح أبو حبيش، وهو الرجل الذي عاش من العمر مائتين وخمسين سنة وكان في بعض السنين نزل في الماغوز فرأى أبو حبيش الحكيم السواح فأتى به إلى البحر وروّاه سمكة مثل الشراع، وربما رفع رأسه عن الماء فتراه كالشيء العظيم(= الحوت)، وربما نفخ الماء من فيه فيكون كالمنارة العظيمة، فإذا سكن البحر اجتمع السمك فحواه بذنبه، ثم يفتح فمه فيرى السمك في جوفه يغيض كأنه يغيض في بئر، والمراكب التي تكون في البحر تخافه فهم يضربون بالليل بنواقيس مثل نواقيس النصارى مخافة أن تتكيء على المركب فتغرقه. وفي هذا البحر سمكة اصطدناها يكون طولها عشرين ذراعا فشققنا بطنها فأخرجنا منها أيضا سمكة من جنسها، ثم شققنا بطن الثانية فإذا في بطنها مثلها، وكل هذا حي يضطرب يشبه بعضه بعضا في الصورة.

ولهذا السمك الكبير الذي يدعي الوال(= البال، جنس من الحيتان الضخمة) مع عظم خلقه سمكة تدعى اللشك طولها قدر ذراع فإذا طغت هذه السمكة وبغت وآذت السمك في البحر، سلطت عليها هذه السمكة الصغيرة، فصارت في أصل إذنها ولا تفارقها حتى تقتلها. وتلتزق(= تلتصق) بالمركب فلا تقرب المركب هذه السمكة الكبيرة فرقا من الصغيرة.

وفي هذا البحر أيضا سمكة يحكى وجهها وجه الإنسان تطير فوق الماء، واسم هذا السمك الميج، وسمك آخر من تحت الماء يرصده حتى إذا سقط ابتلعه ويسمى هذا السمك العَنقتُوس والسمك كله يأكل بعضه بعضا.

والبحر الثالث بحر هركند وبينه وبين بحر دلاروي جزائر كثيرة يقال إنها ألف وتسعمائة جزيرة، وهي فرق ما بين هذين البحرين دلاروي وهركند . وهذه الجزائر تملكها امرأة ويقع في هذه الجزائر عنبر عظيم القدر، فتقع القطعة مثل البيت ونحوه، وهذا العنبر ينبت في قعر البحر نباتا، فإذا اشتد هيجان البحر قذفه من قعره مثل الفطر والكمأة.

وهذه الجزائر التي تملكها المرأة، عامرة بنخل النارجيل(= جوز الهند) وبعد ما بين الجزيرة والجزيرة فرسخان وثلاثة وأربعة، وكلها عامرة بالناس والنارجيل، ومالهم الودع وهذه الملكة تذخر الودع في خزائنها، ويقال إن أهل هذه الجزيرة لا يكون أصنع منهم، حتى انهم يعملون القميص مفروغا منه نسجا بالكمين والدخريصين والجيب، ويبنون السفن والبيوت، ويعملون سائر الأعمال على هذا النسق من الصنعة، والودع يأتيهم على وجه الماء، وفيه روح فتؤخذ سعفه من سعف النارجيل فتطرح على وجه الماء فيتعلق فيها الودع وهم يدعونه الكبتَج.

وآخر هذه الجزائر سرنديب في بحر هركند، وهي رأس هذه الجزائر كلها، وهم يدعونها الدبيجات وبسرنديب منها مغاص اللؤلؤ بحرها كله حولها. وفي أرضها جبل يدعى الرهون وعليه هبط آدم عليه السلام، وقدمه في صفا رأس هذا الجبل منغمسة في الحجر: في رأس هذا الجبل قدم واحدة. ويقال إنه عليه السلام خطا خطوة أخرى في البحر، ويقال: إن هذه القدم التي على رأس الجبل نحو من سبعين ذراعا وحول هذا الجبل معدن جوهر الياقوت الأحمر والأصفر والاسمانجوني(= حجر قيل إنه يديم السرور في النفس).

وفي هذه الجزيرة ملكان، وهي جزيرة عظيمة عريضة فيها العود، والذهب والجوهر، وفي بحرها اللؤلؤ والشنك ،وهو هنا البوق الذي ينفخ فيه مما يدخرونه .وفي هذا البحر إذا ركب إلى سرنديب جزائر ليست بالكثيرة، غير أنها واسعة لا تضبط، منها: جزيرة يقال لها الرامني فيها عدة ملوك، وسعتها يقال ثمانمائة أو تسعمائة فرسخا، وفيها معادن الذهب، وفيها معادن تدعى فنصور يكون الكافور الجيد منها. ولهذه الجزائر جزائر تليها منها :جزيرة يقال لها النيان لهم ذهب كثير وأكلهم النارجيل، وبه يتأدمون ويدهنون، وإذا أراد أحد

منهم أن يتزوج لم يزوج إلا بقحف رأس رجل من أعدائهم، فإذا قتل اثنين زوج اثنتين، وكذلك إن قتل خمسين زوج خمسين امرأة بخمسين قحفا، وسبب ذلك أن أعداءهم كثير، فمن أقدم على القتل أكثر كان رغبتهم فيه أوفر .وفي هذه الجزائر أعني الرامني فيلة كثيرة، وفيها البقم(= شجر شديد المرارة) والخيزران. وفيها : قوم يأكلون الناس، وهي تشرع على بحرين هركند وشلاهط. وبعد هذا جزائر تدعى لنجبالوس، وفيها خلق كثير عراة الرجال منهم والنساء، غير أن على عورة المرأة ورقا من ورق الشجر، فإذا مرت بهم المراكب جاؤوا إليها بالقوارب الصغار والكبار وبايعوا أهلها العنبر والنارجيل بالحديد وما يحتاجون إليه من كسوة لأنه لا حر عندهم ولا برد.

ومن وراء هؤلاء جزيرتان بينهما بحر يقال لهما أنداماان وأهلها يأكلون الناس أحياء، وهم سود مفلفلو الشعور مناكير الوجوه والأعين، طوال الأرجل، فرج أحدهم مثل الذراع، يعني ذكره، عراة ليست لهم قوارب، ولو كانت لهم لأكلوا كل من مر بهم، وربما أبطأت المراكب في البحر وتأخر بهم المسير بسبب الريح فينفذ ما في المراكب من الماء فيقربون إلى هؤلاء فيستقون الماء، وربما أصابوا منهم ويفلتون أكثر.

وبعد هذه الجزيرة جبال ليست على الطريق، يقال: إن فيها معادن فضة وليست بمسكونة، وليس كل مركب يريدها يصيبها، وإنما دل عليها جبل منها يقال له الخشنامي، مر به مركب فرأوا الجبل فقصدوا له فلما أصبحوا انحدروا إليه في قارب ليحتطبوا وأوقدوا نارا فانسكبت الفضة فعلموا أنه معدن فاحتملوا ما أرادوا منه، فلما ركبوا اشتد عليهم البحر فرموا بجميع ما أخذوا منه، ثم تجهز الناس بعد ذلك إلى هذا الجبل فلم يعرفوه. ومثل هذا في البحر كثير لا يحصى من جزائر ممنوعة لا يعرفها البحريون، فمنها مالا يقدرون عليه. وربما رؤي في هذا البحر سحاب أبيض يظل المراكب فيشرع منه لسان طويل رقيق حتى يلصق ذلك اللسان بماء البحر، فيغلي له ماء البحر مثل الزوبعة فإذا أدركت الزوبعة المركب ابتلعته، ثم يرتفع ذلك السحاب فيمطر مطرا فيه قذى البحر، فلا أدري أيستقي السحاب من البحر أم كيف هذا ؟ وكل بحر من هذه البحار تهيج فيه ريح تثيره وتهيجه حتى يغلي كغليان

القدور، فيقذف ما فيه إلى الجزائر التي فيه ويكسر المراكب، ويقذف السمك الميت الكبار العظام، وربما قذف الصخور والجبال كما يقذف القوس السهم.

وأما بحر هركند فله ريح غير هذه ما بين المغرب إلى بنات نعش فيغلي لها البحر كغليان القدور ويقذف العنبر الكثير، وكلما كان البحر أغزر وأبعد قعرا كان العنبر أجود، وهذا البحر – أعني هركند – إذا عظمت أمواجه تراه مثل النار يتقد.

وفي هذا البحْر سمك يدعى اللخم وهو سبع يبتلع الناس في أيديهم كل هذه فيقل المتاع، ومن أسباب قلة المتاع حريق ربما وقع بـ(خانقوا) وهو مرفأ السفن، ومجتمع تجارات العرب، وأهل الصين، فيأتي الحريق على المتاع، وذلك أن بيوتهم هناك من خشب ومن قنا مشقق، ومن أسباب ذلك أن تنكسر المراكب الصادرة والواردة أو ينهبوا أو يضطروا إلى المقام الطويل فيبيعوا المتاع في غير بلاد العرب، وربما رمت بهم الريح إلى اليمن أو غيرها فيبيعون المتاع هناك، وربما أطالوا الإقامة لإصلاح مراكبهم وغير ذلك من العلل.

وذكر سليمان التاجر أن في (خانقوا) وهو مجتمع التجار رجلا مسلما يوليه صاحب الصين الحكم بين المسلمين الذين يقصدون إلى تلك الناحية، يتوخى ملك الصين ذلك، وإذا كان في العيد صلى بالمسلمين وخطب ودعا لسلطان المسلمين، وأن التجار العراقيين لا ينكرون من ولايته شيئا في أحكامه وعمله بالحق وبما في كتاب الله عز وجل وأحكام الإسلام.

فأما المواضع التي يردونها ويرقون إليها فذكروا أن أكثر السفن الصينية تحمل من سيراف(= مدينة على الساحل الإيراني من الخليج) وأن المتاع يحمل من البصرة وعمان وغيرها إلى سيراف فيعبأ في السفن الصينية بسيراف؛ وذلك لكثرة الأمواج في هذا البحر، وقلة الماء في مواضع منه. والمسافة بين البصرة وسيراف في الماء مائة وعشرون فرسخا فإذا عُبّي المتاع بسيراف استعذبوا منها الماء، وخطفوا (= أقلعوا) إلى موضع يقال له مسقط ،وهو آخر عمل عمان، والمسافة من سيراف إليه نحو مائتي فرسخ.

وفي شرقي هذا البحر فيما بين سيراف ومسقط من البلاد سيف بني الصفاق وجزيرة ابن

كاوان، وفي غربي هذا البحر جبال عمان وفيها الموضع الذي يسمى الدردور وهو مضيق بين جبلين تسلكه السفن الصغار ، ولا تسلكه السفن الصينية، وفيها الجبلان اللذان يقال لهما كسير وعوير وليس يظهر منهما فوق الماء إلا اليسير، فإذا جاوزنا الجبال صرنا إلى موضع يقال له صحار عمان فيستعذب الماء من مسقط من بئر بها، وهناك جبل فيه غنم من بلاد عمان، فتخطف المراكب منها إلى بلاد الهند وتقصد إلى كولم ملي(= مدينة في المليبار)، والمسافة من مسقط إلى كولم ملي شهر على اعتدال الريح، وفي كولم ملي مسلحة لبلاد كولم ملي تجيء السفن الصينية، وبها ماء عذب من آبار فيؤخذ من السفن الصينية ألف درهم، ومن غيرها من السفن ما بين عشرة دنانير إلى عشرين دينارا.

وبين مسقط وبين كولم ملي وبين هركند نحو من شهر، وبكولم ملي يستعذبون الماء، ثم تخطف المراكب إلى بحر هركند، فإذا جاوزوه صاروا إلى موضع يقال له لنجبالوس ،لا يفهمون لغة العرب ولا ما يعرفه التجار من اللغات، وهم قوم لا يلبسون الثياب، بيض كواسج، وذكروا أنهم لم يروا منهم النساء، وذلك أن رجالهم يخرجون إليهم من الجزيرة في زوارق منقورة من خشبة واحدة، ومعهم النارجيل، وقصب السكر والموز، وشراب النارجيل: وهو شراب أبيض، فإذا شرب ساعة يؤخذ من النارجيل، فهو حلو مثل العسل، فإذا ترك ساعة صار شرابا، وإن بقى أياما صار خلا، فيبيعون ذلك بالحديد، وربما وقع إليهم العنبر اليسير فيبيعونه بقطع الحديد، وإنما يتبايعون بالإشارة يدا بيد إذ كانوا لا يفهمون اللغة، وهم حذاق بالسباحة فربما استلبوا من التجار الحديد ولا يعطونهم شيئا.

ثم تخطف المراكب إلى موضع يقال له كلاه بار المملكة والساحل كل يقال له كلاه بار وهي مملكة الزابج متيامنة عن بلاد الهند يجمعهم ملك، ولباسهم الفوط يلبس السرى والدني منهم الفوطة الواحدة، ويستعذبون هناك الماء من آبار عذبة، وهم يؤثرون ماء الآبار على مياه العيون والمطر.

ومسافة ما بين كولم وهي قريبة من هركند إلى كله بار شهر، ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له بتومة وبها ماء عذب لمن أراده، والمسافة إليها عشرة أيام. ثم تخطف المراكب إلى

موضع يقال له كدرنج عشرة أيام، وفيها ماء عذب لمن أراده، وكذلك جزائر الهند إذا احتفرت فيها الآبار وجد فيها الماء العذب، وبها جبل مشرف، وربما كان فيه الهراب من العبيد واللصوص.

ثم تسير المراكب إلى موضع يقال له صنف مسيرة عشرة أيام، وبها ماء عذب، ومنه يؤتى بالعود الصنفي، وبها ملك، وهم قوم سمر يلبس كل واحد منهم فوطتين، فإذا استعذبوا منها خطفوا إلى موضع يقال له صندرفولات وهي جزيرة في البحر، والمسافة إليها عشرة أيام، وفيها ماء عذب، ثم تخطف المراكب إلى بحر يقال له صنجي(= بحر الصين) ثم إلى أبواب الصين، وهي جبال في البحر بين كل جبلين فرجة تمر فيها المراكب ثم إلى الصين .

فإذا سلم الله من صندر فولات خطف المراكب إلى الصين في شهر إلا أن الجبال التي تمر بها المراكب مسيرة سبعة أيام. فإذا جاوزت السفينة الأبواب ودخلت الخور صارت إلى ماء عذب إلى الموضع التي ترسي إليه من بلاد الصين، وهو يسمى خانقو: مدينة، وسائر الصين فيها الماء العذب من أنهار عذبة وأودية ومسالح وأسواق في كل ناحية.

وفيها مد وجزر مرتين في اليوم والليلة، إلا أن المد يكون فيما يلي البصرة إلى جزيرة بني كاوان إذا توسط القمر السماء ،ويكون الجزر عند طلوع القمر وعند مغيبه، والمد يكون بناحية الصين إلى قريب من جزيرة بني كاوان إذا طلع القمر، فإذا توسط السماء جزر الماء، فإذا غاب كان المد، فإذا كان في مقابلة وسط السماء جزر.

وذكروا: أن فيه جزيرة يقال له ملجان فيما بين سرنديب وكله ،وذلك من بلاد الهند في شرقي البحر قوم من السودان عراة إذا وجدوا الإنسان من غير بلادهم علقوه منكسا وقطعوه وأكلوه نيا، وعدد هؤلاء كثير، وهم في جزيرة واحدة، وليس لهم ملك، وغذاؤهم السمك والموز والنارجيل وقصب السكر، ولهم مواضع يأوون إليها شبيه بالغياض والآجام. وذكروا أن في ناحية البحر سمكا صغيرا طيارا يطير على وجه الماء يسمى جراد الماء. وذكروا أن بناحية البحر سمكا يخرج حتى يصعد على النارجيل فيشرب ما في النارجيل من الماء ثم يعود إلى البحر. وذكروا : أن في البحر حيوانا يشبه السرطان فإذا خرج من البحر صار

حجرا، قال: يتخذ منه كحل لبعض علل العين .

وذكروا أن بقرب الزابج جبلا يسمى جبل النار لا يقدر على الدنو منه، يظهر منه بالنهار دخان، وبالليل لهب نار، ويخرج من أسفله عين باردة عذبة، وعين حارة عذبة. ولباس أهل الصين الصغار والكبار الحرير، وفي الشتاء والصيف، فأما الملوك فالجيد من الحرير، ومن دونهم فعلى قدرهم، وإذا كان الشتاء لبس الرجل السراويلين، والثلاثة، والأربعة، والخمسة، وأكثر من ذلك على قدر ما يمكنهم، وإنما قصدهم أن يدفئوا أسافلهم لكثرة الندى وخوفهم منه، فأما الصيف فيلبسون القميص الواحد من الحرير ونحو ذلك ولا يلبسون العمائم وطعامهم الأرز، وربما طبخوا معه الكوشان فصبوه على الأرز فأكلوه، فأما الملوك منهم فيأكلون خبز الحنطة، واللحم من سائر الحيوان ومن الخنازير وغيرها. ولهم من الفاكهة التفاح، والخوخ، والأترج، والرمان، والسفرجل، والكمثرى، والموز، وقصب السكر، والبطيخ، والتين، والعنب، والقثاء، والخيار، والنبق، والجوز، واللوز، والجلوز، والفستق، والإجاص، والمشمش، والغبيراء، والنارجيل، وليس لهم فيها كثير نخل إلا النخلة في دار أحدهم.

وشرابهم النبيذ المعمول من الأرز، وليس في بلادهم خمر، ولا تحمل إليهم ولا يعرفونها ولا يشربونها ويعمل من الأرز الخل والنبيذ والناطف (= الحلوى)وما أشبه ذلك، وليس لهم نظافة ولا يستنجون بالماء إذا أحدثوا بل يمسحون ذلك بالقراطيس الصينية ويأكلون الميتة وما أشبهها مما يصنعه المجوس فإن دينهم يشبه دين المجوس، ونساءهم يكشفن رؤوسهم ويجعلن فيها الأمشاط فربما كان في رأس المرأة عشرون مشطا من العاج وغير ذلك، والرجال يغطون رؤوسهم بشيء يشبه القلانس، وسنتهم في اللصوص أن يقتل اللص إذا أصيب .

أخبار بلاد الهند والصين وملوكها

أهل الهند والصين مجمعون على أن ملوك الدنيا المعدودين أربعة ،فأول من يعدون من الأربعة: ملك العرب، وهو عندهم إجماع لا اختلاف بينهم فيه أنه ملك أعظم الملوك

وأكثرهم مالا وأبهاهم جمالا ،وأنه ملك الدين الكبير الذي ليس فوقه شيء، . ثم يعدّ ملك الصين نفسه بعد الملك بلهرا ملك العرب، . ثم ملك الروم، ثم بلهرا ملك المخرّمي الآذان. فأما بلهرا هذا فإنه أشرف الهند، وهم له مقرّون بالشرف.

وكل ملك من ملوك الهند متفرد بملكه غير أنهم مقرّون لهذا، فإذا وردت رسله على سائر الملوك صلّوا لرسله تعظيما له، وهو ملك يعطي العطاء كما تفعل العرب، وله الخيل والفيلة الكثيرة والمال الكثير، وماله دراهم تدعى الطاطرية، وزن كل درهم درهم ونصف بسكة الملك، وتاريخه في سنة من مملكة من كان قبله، ليس كسنّة العرب من عصر النبي عليه السلام بل تاريخهم بالملوك، وملوكهم يعمّرون ربما ملك أحدهم خمسين سنة، ويزعم أهل مملكة بلهرا: إنما يطول مدة ملكهم وأعمارهم في الملك لمحبّتهم للعرب، وليس في الملوك أشد حبا للعرب منه، وكذلك أهل مملكته . وبلهرا(= ملك الملوك) إسم لكل ملك منهم ككسرى ونحوه، وليس باسم لازم . وملك بلهرا وأرضه أولها ساحل البحر وهي بلاد تدعى الكمكم متصلة على الأرض إلى الصين وحوله ملوك كثيرة يقاتلونه، غير أنه يظهر عليهم .

فمنهم ملك يدعى ملك الجرز وهو كثير الجيش ليس لأحد من الهند مثل خيله، وهو عدّو العرب غير أنه مقرُ أن ملك العرب أعظم الملوك وليس أحد من الهند أعدى للإسلام منه، وهو على لسان من الأرض وأموالهم كثيرة وإبلهم ومواشيهم كثيرة، ويتبايعون بالفضة التبر، ويقال إن لهم معادن وليس في بلاد الهند آمن من السرقة منها .وإلى جانبه ملك الطافق وهو قليل المملكة ونساؤهم بيض أجمل نساء الهند، وهو ملك موادع لمن حوله لقلّة جيشه، وهو يحب العرب كحب بلهرا .

ويلي هؤلاء ملك يقال له رهمي يقاتله ملك الجرز، وليس له شرف في الملك وهو أيضا يقاتل بلهرا كما يقاتل ملك الجرز، ورهمي هذا أكثر جيشا من ملك بلهرا ومن ملك الجرز ومن الطاقي(= الطافن)، ويقال: إنه إذا خرج إلى القتال يخرج في نحو من خمسين ألف فيل، ولا يخرج إلا في الشتاء لأن الفيلة لا تصبر على العطش، فليس يسعه إلا الخروج في

الشتاء، ويقال : إن قصارى عسكره نحو من عشرة آلاف إلى خمس عشر ألفا . وفي بلاده الثياب التي ليس لأحد مثلها، يدخل الثوب منها في حلقه خاتم دقة وحسنا، وهو من قطن، وقد رأينا بعضها، والذي ينفق في بلاده الودع وهو عين البلاد يعني مالها . وفي بلاده الذهب والفضة والعود والثياب الصمر الذي يتخذ منه المذاب(= المراوح) .

وفي بلاده البُشان المعلم وهو الكركدن (= وحيد القرن)له في مقدم جبهته قرن واحد، وفي قرنه علامة، صورة خلقه كصورة الإنسان في حكايته، القرن كله أسود والصورة بيضاء في وسطه، وهذا الكركدن دون الفيل في الخلقه إلى السواد ما هو، ويشبه الجاموس، قوي ليس كقوته شيء من الحيوان وليس له مفصل في ركبته ولا في يده، وهو من لدن رجله إلى إبطه قطعة واحدة، والفيل يهرب منه، وهو يجتر كما تجتر البقر والإبل، ولحمه حلال قد أكلناه، وهو في هذه المملكة كثير في غياضهم وهو في سائر بلاد الهند، غير أن قرون هذا أجود، فربما كان في القرن صورة رجل وصورة طاووس وصورة سمكة وسائر الصور، وأهل الصين يتخذون منها المناطقة(=الأحزمة) وتبلغ المنطقة ببلاد الصين ألفي دينار وثلاثة آلاف وأكثر على قدر حسن الصورة، وهذا كله يشترى من بلاد دُهرم بالودع وهو عين البلاد .

وبعده ملك داخل ليس له بحر يقال له ملك الكاشبين وهم قوم بيض مخرمو الآذان، ولهم جمال، وهم أصحاب بدوٍ وجبال . وبعده بحر عليه ملك يقال له القيرنج وهو ملك فقير فخور، يقع إليه العنبر الكثير، وله أنياب فيلة وعنده فلفل يؤكل رطبا لقلته .

وبعد هذا ملوك كثيرة لا يعلم عددهم إلا الله تبارك وتعالى، منهم الموجه وهم قوم بيض يشبهون الصين في اللباس، ولهم مسك كثير، وفي بلادهم جبال بيض ليس شيء أطول منها، وهم يقاتلون ملوكا كثيرة حولهم، والمسك الذي يكون في بلادهم جيد بالغ .

ومن ورائهم ملوك المابد مدائنهم كثيرة، وهم إلى حيث الموجه وأكثر من الموجه غير أن المابد أشبه بالصين منهم، ولهم خدم خصيان مثل الصين عمال عليهم، وبلادهم تتصل ببلاد الصين وهم مصالحون لصاحب الصين، غير أنهم لا يسمعون له . وللمابد في كل سنة رسل إلى ملك الصين وهدايا، وكذلك ملك الصين يهدي إليه وبلادهم واسعة وإذا دخلت

رسل المابد بلاد الصين حُفظوا مخافة أن يغلبوا على بلادهم لكثرتهم، وليس بينهم وبين بلاد الصين إلا جبال وعقاب .

ويقال إن لملك الصين من أمهات المدائن أكثر من مائتي مدينة، ولكل مدينة ملك وخصي وتحت كل مدينة مدائن . فمن مدائنهم خانقو وهي مرسى السفن تحتها عشرون مدينة، وإنما تسمى مدينة إذا كان لها الجادم، والجادم مثل البوق ينفخ فيه وهو طويل وغلظه ما يجمع الكفين جميعا، وهو مطلي بدواء الصينيات وطوله ثلاث أو أربع أذرع، ورأسه دقيق بقدر ما يلتقمه الرجل، ويذهب صوته نحوا من ميل، ولكل مدينة أربعة، فعلى كل باب منها من الجادم خمسة تنفخ في أوقات من الليل والنهار، وعلى كل باب مدينة عشرة طبول تضرب معه، وإنما يفعل ذلك لتعلم طاعتهم للملك، وبه يعرفون أوقات الليل والنهار، ولهم علامات ووزن للساعات .

ومعاملاتهم بالفلوس، وخزائنهم كخزائن الملوك، وليس لأحد من الملوك فلوس سواهم، وهي عين البلاد، ولهم الذهب والفضة واللؤلؤ والديباج والحرير، كل ذلك كثير عندهم، غير أن ذلك متاع، والفلوس عين، وتحمل إليهم العاج واللبان وسبائك النحاس، والذبل من البحر وهي جلود ظهور السلاحف، وهذا البُشان الذي وصفنا، هو الكركدن يتخذون من قرونه مناطق، ودوابهم كثيرة، وليس لهم خيل عربية بل غيرها، ولهم حمير وإبل كثيرة لها سنامان، ولهم الغضار الجيد(= الخزف)، ويعمل منه أقداح في رقة القوارير يُرى ضوء الماء فيه، وهو من غضار .

وإذا دخل البحريون من البحر قبض الصينيون متاعهم، وصيّروه في البيوت وضمنوا الدرك إلى ستة أشهر إلى أن يدخل آخر البحريين، ثم يؤخذ من كل عشرة ثلاثة ويسلم الباقي إلى التجار، وما احتاج إليه السلطان أخذه بأغلى الثمن وعجّله، ولم يظلم فيه، ومما يأخذون الكافور المنّ(= وزن رطلين)، بخمسين فكوّجا ، والفكوّج ألف فلس، وهذا الكافور إذا لم يأخذه السلطان يساوي نصف الثمن خارجا .

وإذا مات الرجل من أهل الصين لم يُدفن إلا في اليوم الذي مات في مثله من قابل،

يجعلونه في تابوت، ويخلونه في منازلهم ويجعلون عليه النورة(= الكلس)، فتمص ماءه ويبقى، والملوك يجعلون في الصبر والكافور، ويبكون على موتاهم ثلاث سنين، ومن لم يبك ضُرب بالخشب، كذلك النساء والرجال، ويقولون: إنه لم يحزنك ميتك، ويدفنون في ضريح كضريح العرب، ولا يقطعون عنه الطعام، ويزعمون أنه يأكل ويشرب، وذلك أنهم يضعون عنده الطعام بالليل فيصبحون ولا يجدون منه شيئا، فيقولون قد أكل، ولا يزالون في البكاء والإطعام ما بقي الميت في منزلهم، فيفتقرون على موتاهم، فلا يبقى لهم نقد ولا ضيعة إلا أنفقوه عليه، وقد كانوا قبل هذا يدفنون الملك وما ملك من آلة بيته من ثياب ومناطق، ومناطقهم تبلغ مالا كثيرا، وقد تركوا ذلك الآن، وذلك أنه نبش بعض موتاهم وأخذ ما كان معه . والفقير والغني من أهل الصين والصغير والكبير يتعلم الخط والكتابة . واسم ملوكهم على قدر الجاه وكبر المدائن، فما كان من مدينة صغيرة يسمى ملكها طوسنج، ومعنى طوسنج أقام المدينة، وما كان من مدينة مثل خانقو فاسم ملكها ديفو، والخصي يدعى الطوقام وخصيانهم منهم مسلولون، وقاضي القضاة يقال له لقشي مامكون ونحو هذا من الأسماء مما لا نضبطه . وليس يملك أحد منهم لأقل من أربعين سنة، يقولون: قد حنكته التجارب . والملوك الصغار إذا قعد أحدهم يقعد في مدينته على كرسي في بهو عظيم، وبين يديه كرسي وترفع إليه الكتب التي فيها أحكام الناس، ومن وراء الملك رجل قائم يدعى لينجون إذا زل الملك في شي مما يأمر به وأخطأ رده، وليس يعبأون بالكلام ممن يرفع إليهم دون أن يكتبه في كتاب، وقبل أن يدخل صاحب القصة على الملك ينظر في كتابه رجل قائم بباب الدار ينظر في كتب الناس، فإن كان فيها خطأ ردّه، فليس يكتب إلى الملك إلا كاتب يعرف الحكم ويكتب الكاتب في الكتاب :كتبه فلان بن فلان، فإن كان فيه خطأ رجع إلى الكاتب اللوم فيضرب بالخشب، وليس يقعد الملك للحكم حتى يأكل ويشرب لئلا يغلط، وأرزاق كل ملك من بيت مال مدينته . فأما الملك الأكبر فلا يُرى إلا في كل عشرة أشهر، يقول إذا رآني الناس استخفوا بي، والرئاسات لا تقوم إلا بالتجبر، وذلك أن العامة لا تعرف العدل فينبغي أن يستعمل معهم التجبر لنعظم عندها .

وليس على أرضهم خراج ولكن عليهم جزية على الجماجم من الذكور حسبما يرون من الأحوال، وإن كان بها أحد من العرب أو غيرهم أخذ منه جزية ماله ليحرز ماله . وإذا غلا السعر أخرج السلطان من خزائنه الطعام فباعه بأرخص من سعر السوق، فلا يبقى عندهم غلاء، والذي يدخل بيت المال إنما هو من الجزية التي على رؤوسهم، وأظن أن الذي يدخل بيت مال خانقو في كل يوم خمسون ألف دينار على أنها ليست بأعظم مدائنهم . ويختص الملك من المعادن بالملح، وحشيش يشربونه بالماء الحار، ويباع منه في كل مدينة بمال عظيم، ويقال له الساخ(= الشاي) وهو أكثر ورقا من الرطبة وأطيب قليلا وفيه مرارة فيغلى الماء ويذر عليه، فهو ينفعهم من كل شيء . وجميع ما يدخل بيت المال الجزية والملح وهذا الحشيش .

وفي كل مدينة شيء يدعى الدّرا وهو جرس على رأس ملك تلك المدينة مربوط بخيط ماد على ظهر الطريق للعامة كافة، وبين الملك وبينه نحو من فرسخ، فإذا حرك الخيط الممدود أدنى حركة تحرك الجرس، فمن كانت له ظلامة حرك هذا الخيط فيتحرك الجرس منه على رأس الملك فيؤذن له بالدخول حتى ينهي حاله بنفسه ويشرح ظلامته، وجميع البلاد فيها مثل ذلك . ومن أراد سفرا من بعضها إلى بعض أخذ كتابين من الملك ومن الخصّي، أما كتاب الملك فللطريق باسم الرجل واسم من معه وكم عمره وعمر من معه، ومن أي قبيلة هو، وجميع من ببلاد الصين من أهلها ومن العرب وغيرهم لا بد لهم أن ينتموا إلى شيء يعرفون به، وأما كتاب الخصّي فبالمال وما معه من المتاع، وذلك لأن في طريقهم مسالح(= نقاط تفتيش مسلحة) ينظرون في الكتابين، فإذا ورد عليهم الوارد كتبوا: ورد عليها فلان بن فلان الفلاني في يوم كذا، وشهر كذا وسنة كذا ومعه كذا، لئلا يذهب من مال الرجل ولا من متاعه شيء ضياعا، فمتى ما ذهب منه شيء أو مات، علم كيف ذهب، ورُدّ عليه أو على ورثته من بعده .

وأهل الصين ينصفون في المعاملات والديوان، فإذا كان لرجل على رجل دين كتب عليه كتابا، وكتب الذي عليه الدّين أيضا كتابا، وعلّمه بعلامة بين إصبعيه الوسطى والسبابة، ثم

جُمع الكتابان فطويا جميعا، ثم كتب على فصلهما، ثم فُرق فأعطى الذي عليه الدين كتابه بإقراره، فمتى جحد أحدهما غريمه، قيل له: أحضر كتابك، فإن زعم الذي عليه الدّين أنه لا شيء له ودفع كتابه بخطه وعلامته وذهب كتاب صاحب الحق، قيل للجاحد الذي عليه الحق: أحضر كتابا بأن هذا الحق ليس عليك، فمتى ما بيّن عليك صاحب الحق الذي جحدته فعليك عشرون خشبة على الظهر، وعشرون ألف فكّوج فلوسا، والفكوج ألف فلس يكون ذلك قريبا من ألفي دينار، والعشرون الخشبة فيها موته، فليس يكاد أحد ببلاد الصين يُعطى هذا من نفسه مخافة تلف النفس والمال، ولم نر أحدا أجاب إلى ذلك. وهم يتناصفون بينهم وليس يذهب لأحد حق ولا يتعاملون بشاهد ولا يمين. وإذا أفلس رجل بمال قوم فحبسه الغرماء بأموالهم عند السلطان، أخذ إقراره، فإن لبث في السجن شهرا أخرجه السلطان فنادى عليه: إنّ هذا فلان بن فلان أفلس بمال فلان بن فلان فإن يكن له عند أحد وديعة أو كان له عقار أو رقيق أو ما يحيط بدينه أخرج في كل شهر فضرب خشبات على إسته، لأنه أقام في الحبس يأكل ويشرب وله مال، فهو يُضرب أقر له أحد بمال أو لم يقر له فهو يضرب على كل حال، يقال: ليس لك عمل إلا أخذ حقوق الناس والذهاب بها، ويقال له: احتل حقوق هؤلاء القوم فإن لم يكن له حيلة وصح عند السلطان أنه لا شيء له دُعي الغرماء فأعطوا من بيت مال البغبون وهو الملك الأعظم وإنما سمي البغبون ومعناه ابن السماء، ونحن نسميه المغبون، ثم ينادى: من بايع هذا فعليه القتل، فليس يكاد يذهب لأحد مال، وإن عُلم أن له عند أحد مالا ولم يقر المودع بالمال قتل بالخشب، ولم يقل لصاحب المال شيء فيؤخذ المال ويقسم على الغرماء ولا يبايع بعد ذلك.

ولهم حجر منصوب طوله عشرة أذرع مكتوب فيه نقرا في الحجر ذكر الأدوية والأدواء، داء كذا دواؤه كذا، فإن كان الرجل فقيرا أعطي ثمن الدواء من بيت المال . وليس عليهم خراج في ضياعهم وإنما يؤخذ من الرؤوس على قدر أموالهم وضياعهم، وإذا ولد ذكر كتب اسمه عند السلطان فإذا بلغ ثماني عشرة سنة أخذت منه الجزية، فإذا بلغ ثمانين سنة لم

يؤخذ منه جزية وأجري عليه من بيت المال، ويقولون: أخذنا منه شابا ونجري عليه شيخا . وفي كل مدينة كتاب ومعلم يعلم الفقراء وأولادهم من بيت المال يأكلون، ونساؤهم مكشفات الشعور والرجال يغطون رؤوسهم. وبها قرية يقال لها تايوا في الجبل وهم قصر، وكل قصير ببلاد الصين ينسب إليها . وأهل الصين أهل جمال وطول وبياض نقي مشرب حمرة، وهم أشد الناس سواد شعور، ونساؤهم يجززن شعورهن .

ذكر بلاد الهند

وأما بلاد الهند فإنه إذا ادعى رجل على آخر دعوى يجب فيها القتل، قيل للمدعي: أتحامله النار؟ فيقول: نعم، فتحمى حديدة إحماء شديدا حتى يظهر النار فيها، ثم يقال له: ابسط يدك فتوضع على يده سبع ورقات من ورق شجر لهم، ثم توضع على يده الحديدة فوق الورق ثم يمشي بها مقبلا ومدبرا حتى يلقيها عن يده فيؤتى بكيس من جلود فيدخل يده فيه، ثم يختم بختم السلطان، فإذا كان بعد ثلاث أُتي بأرز غير مقشّر فيقال له افركه، فإن لم يكن في يده أثر فقد فلح ولا قتل عليه، ويغرم الذي ادعى عليه منا من ذهب يقبضه السلطان لنفسه، وربما أغلوا الماء في قدر حديد أو نحاس حتى لا يقدر أحد يدنو منه ثم يطرح فيه خاتم حديد، ويقال أدخل يدك فتناول الخاتم، وقد رأيت من أدخل يده وأخرجها صحيحة، ويغرم المدعي أيضا منّا من ذهب .

وإذا مات الملك ببلاد سرنديب صُير على عجلة قريبا من الأرض وعلق في مؤخرها مستلقيا على قفاه يجر شعر رأسه التراب عن الأرض، وامرأة بيدها مكنسة تحثو التراب على رأسه، وتنادي: أيها الناس هذا ملككم، بالأمس قد ملككم وكان أمره نافذا فيكم، وقد صار إلى ما ترون من ترك الدنيا، وأخذ روحه ملك الموت، فلا تغتروا بالحياة بعده، وكلام نحو هذا ثلاثة أيام، ثم يهيأ له الصندل والكافور والزعفران فيحرق به، ثم يرمى برماده في الريح، والهند كلهم يحرقون موتاهم بالنار . وسرنديب آخر الجزائر وهي من بلاد الهند، وربما أحرق الملك فتدخل نساؤه النار فيحترقن معه، وإن شئن لم يفعلن.

وببلاد الهند من ينسب إلى السياحة في الغياض والجبال وقل ما يعاشر الناس ويأكل أحيانا الحشيش وثمر الغياض، ويجعل في إحليله حلقه حديد لئلا يأتي النساء، ومنهم العريان، ومنهم من ينصب نفسه للشمس مستقبلها عريانا، إلا أن عليه شيئا من جلود النمور، فقد رأيت رجلا منهم كما وصفت، ثم انصرفت وعدت بعد ست عشرة سنة، فرأيته على تلك الحال، فتعجبت كيف لم تسل عينه من حر الشمس . وأهل بيت المملكة في كل مملكة أهل بيت واحد لا يخرج عنهم الملك ولهم ولاة عهود، وكذلك أهل الكتابة والطب أهل بيوتات لا تكون تلك الصناعة إلا فيهم . وليس تنقاد ملوك الهند لملك واحد بل كل واحد ملك بلاده، وبلهرا ملك الملوك بالهند، فأما الصين فليس لهم ولاة عهود .

وأهل الصين أهل ملاهٍ، وأهل الهند يعيبون الملاهي، ولا يتخذونها، ولا يشربون الشراب ولا يأكلون الخلّ لأنه من الشراب، وليس ذلك دين ولكن أنفة، ويقولون : أي ملك شرب الشراب فليس بملك، وذلك أن حولهم ملوكا يقاتلونهم، فيقولون : كيف يدبّر أمر ملكه من هو سكران، وربما اقتتلوا على الملك وذلك قليل، لم أر أحدا غلب أحداً على مملكته إلا قوم تِلْوَ بلاد الفلفل، وإذا غلب ملك على مملكة ولى عليها رجلا من أهل بيت الملك المغلوب، ويكون من تحت يده لا يرضى أهل تلك المملكة إلا بذلك . فأما بلاد الصين فربما جار الملك الذي من تحت يد الملك الأكبر فيذبحونه ويأكلونه، وكل من قتل بالسيف أكل الصينيون لحمه . وأهل الهند والصين إذا أرادوا التزويج تهانأوا بينهم، ثم تهادوا، ثم يشهرون التزويج بالصنوج والطبول، وهديتهم من المال على قدر الإمكان . وإذا أحضر الرجل منهم امرأة فبغت، فعليها وعلى الباغي بها القتل في جميع بلاد الهند، وإن زنى رجل بامرأة اغتصبها نفسها قتل الرجل وحده فإن فجر بامرأة على رضى منها قتلا جميعا .

والسرقة في جميع بلاد الصين والهند في القليل منه والكثير القتل، فأما الهند إذا سرق السارق فلسا فما فوقه أخذت خشبة طويلة فيحدد طرفها ثم يقعد عليها على إسته حتى تخرج من حلقه، وأهل الصين يلوطون بغلمان قد أقيموا لذلك بمنزلة زواني البددة .

وحيطان أهل الصين الخشب، وبناء أهل الهند حجارة وجص وآجر وطين، وكذلك ربما

كان بالصين أيضا، وليس الصين ولا الهند بأصحاب فرش ·ويتزوج الرجل من الصين والهند ما شاء من النساء · وطعام الهند الأرز وطعام الصين الحنطة والأرز، وأهل الهند لا يأكلون الحنطة ولا يختتن الهند ولا الصين ·وأهل الصين يعبدون الأصنام ويصلون لها ويتضرعون إليها ولهم كتب دين · والهند يطولون لحاهم ربما أربت لحية أحدهم ثلاث أذرع، ولا يأخذون شواربهم، وأكثر أهل الصين لا لحى لهم خلقة لأكثرهم · وأهل الهند إذا مات لأحدهم ميت حلق رأسه ولحيته · والهند إذا حبسوا رجلا أو لازموه منعوه الطعام والشراب سبعة أيام وهم يتلازمون ·ولأهل الصين قضاة يحكمون بينهم دون العمال وكذلك أهل الهند ·

والنمور والذئاب ببلاد الصين جميعا، فأما الأسد فليست بكلتا الولايتين · ويقتل قاطع الطريق، وأهل الصين والهند يزعمون أن البددة تكلمهم وإنما يكلمهم عبادهم· والصين والهند يقتلون ما يريدون أكله ولا يذبحونه فيضربون هامته حتى الموت · ولا يغتسل الهند ولا الصين من جنابة، وأهل الصين لا يستنجون إلا بالقراطيس، والهند يغتسلون كل يوم قبل الغذاء ثم يأكلون · والهند لا يأتون النساء في الحيض ويخرجونهن عن منازلهم تقززا منهن ·والصين يأتونهن في الحيض ولا يخرجونهن · وأهل الهند يستاكون ولا يأكل أحدهم حتى يستاك ويغتسل وليس يفعل ذلك أهل الصين ·

وبلاد الهند أوسع من بلاد الصين وهي أضعافها وعدد ملوكهم أكثر، وبلاد الصين أعمر، وليس للصين ولا للهند نخل ولهم سائر الشجر وثمر ليس عندنا، والهند لا عنب لهم، وهو بالصين قليل، وسائر الفواكه عندهم كثيرة والرمان بالهند أكثر ·وليس لأهل الصين علم وإنما أصل ديانتهم من الهند، وهم يزعمون أن الهند وضعوا لهم البددة، وإنهم هم أهل الدين، وكلا البلدين يرجعون إلى التناسخ ويختلفون في فروع دينهم ·

والطب بالهند والفلاسفة ولأهل الصين أيضا طب، وأكثر طبهم الكي ولهم علم بالنجوم وذلك بالهند أكثر، ولا أعلم أحدا من الفريقين مسلما ولا يتكلم بالعربية· وللهند خيل قليل، وهي للصين أكثر، وليس للصين فيلة ولا يتركونها في بلادهم تشاؤما بها· وجنود

ملك الهند كثيرة ولا يرزقون وإنما يدعوهم الملك إلى الجهاد فيخرجون ينفقون من أموالهم ليس على الملك من ذلك شيء، فأما الصين فعطاؤهم كعطاء العرب ٠

وبلاد الصين أنزه وأحسن، وأكثر الهند لا مدائن لها، وأهل الصين في كل موضع لهم مدينة محصنة عظيمة، وبلاد الصين أصح وأقل أمراضا وأطيب هواء لا يكاد يرى بها أعمى ولا أعور ولا من به عاهة، وهكذا كثير ببلاد الهند ٠ وأنهار البلدين جميعا عظام فيها ما هو أعظم من أنهارنا، والأمطار بالبلدين جميعا كثيرة ٠وفي بلاد الهند مفاوز كثيرة والصين كلها عمارة، وأهل الصين أجمل من أهل الهند، وأشبه بالعرب في اللباس والدواب، وهم في هيئتهم في مواكبهم شبيه بالعرب يلبسون الأقبية والمناطق وأهل الهند يلبسون فوطتين، ويتحلون بأسورة الذهب والجوهر الرجال والنساء ٠

ووراء بلاد الصين من الأرض التغزغز وهم من الترك، وخاقان تبت هذا مما يلي بلاد الترك فأما ما يلي البحر فجزائر السيلا(= كوريا) وهم بيض يهادون صاحب الصين، ويزعمون أنهم إن لم يهادوه لم تمطرهم السماء، ولم يبلغها أحد من أصحابنا فيحكى عنهم، ولهم بزاة بيض) ٠

رأينا شمول ملاحظات التاجر سليمان التي غطّت مظاهر الحياة الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والدينية، والحق فإنها ملاحظات نادرة كادت تحيط بكل شيء، ومع أنها كانت تتعاقب بأسلوب السرد التقليدي،ولكن بين حين وآخر يظهر المشاهِد بنفسه ليؤكد صحة مروياته التي تعود إلى منتصف القرن التاسع الميلادي .ومادمنا في السياق نفسه فيحسن أن ندرج رحلة ابن وهب، التي تنصرف فيها العناية إلى بلاد الهند على نحو واضح .

(59)

رحلة ابن وهب إلى بلاد الهند
(ارتحل نحو ٢٦٠هجري =نحو ٨٧٣ميلادي)
كما أوردها السيرافي في (رحلة السيرافي)

قال أبو زيد الحسن السيرافي: إنني نظرت في هذا الكتاب ،يعني الكتاب الأول(=يقصد رحلة سليمان التاجر التي أوردناها في الفقرة السالفة) الذي أمرت بتأمله وإثبات ما وقفت عليه من أمر البحر وملوكه وأحوالهم وما عرفته من أحاديثهم مما لم يدخل فيه، فوجدت تاريخ الكتاب في سنة سبع وثلاثين ومائتين وأمور البحر في ذلك الوقت مستقيمة لكثرة اختلاف التجار إليها من العراق . ووجدت جميع ما حكى في الكتاب على سبيل حق وصدق، إلا ما ذكر فيه من الطعام الذي يقدمه أهل الصين إلى الموتى منهم وإنه إذا وضع بالليل عند الميت أصبحوا فلم يوجد وادعوا أنه يأكله، فقد كان بلغنا هذا حتى ورد علينا من ناحيتهم من وثقنا بخبره فسألناه عن ذلك فأنكره، وقال: هي دعوى لا أصل لها كدعوى أهل الأوثان أنها تكلمهم .

وقد تغير بعد هذا التاريخ أمر الصين (= يفترض أن السيرافي يتحدث الآن في بداية القرن الرابع=العاشر الميلادي،فيكون قد مضى على رحلة التاجر سليمان التي اطلع عليها مدونة في كتاب يعود إلى عام ٢٣٧ أكثر من نصف قرن) خاصة وحدثت فيه حوادث انقطع لها الجهاز إليهم(= توقف الرحلات إلى الصين من دار الإسلام) وخرب البلد، وزالت رسومه وتفرق أمره. وأنا أشرح ما وقفت عليه من السبب في ذلك إن شاء الله: السبب في تغير أمر الصين عما كان عليه من الأحكام والعدل وانقطاع الجهاز إليه من سيراف:

إن نابغا نبغ فيهم من غير بيت الملك يعرف ببابشو وكان مبتدأ أمره الشطاره والفتوة وحمل السلاح والعيث واجتماع السفهاء إليه حتى اشتدت شوكته وكثر عدده واستحكم طمعه، فقصد خانقو من بين مدن الصين، وهي المدينة التي يقصدها تجار العرب، وبينها

وبين البحر مسيرة أيام يسيرة، وهي على واد عظيم وماء عذب، فامتنع أهلها عليه فحاصرهم مدة طويلة، وذلك في سنة أربع وستين ومائتين إلى أن ظفر بها، فوضع السيف في أهلها، فذكر أهل الخبرة بأمورهم: أنه قتل من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس سوى من قتل من أهل الصين مائة وعشرين ألف رجل كانوا تبؤوا بهذه المدينة فصاروا بها تجارا، وإنما عرف مقدار عدد هذه الملل الأربع لتحصيل أهل الصين بعددهم وقطع ما كان فيه من شجر التوت وسائر الأشجار، وذكرنا شجر التوت خصوصا لإعداد أهل الصين ورقه لدود القز حتى يلف الدود، فصار سبباً لانقطاع الحرير خاصة عن بلاد العرب .

ثم قصد بعد تخريب خانقو إلى بلدٍ بلد فأخربه، وعجز ملك الصين عنه إلى أن قارب مدينة الملك وتعرف بخمدان فهرب الملك منه إلى مدينة بمذو متاخمة لبلاد التبت فأقام بها، ودامت أيام هذا النابغ وعظم شأنه، وكان قصده ووكده خراب المدن وقتل أهلها إذ لم يكن من بيت ملك ومن يطمع في اتساق الأمر له، فبلغ من ذلك مبلغا فسد به أمر الصين إلى وقتنا هذا، ولم تزل تلك حال هذا النابغ إلى أن كتب ملك الصين إلى ملك التغزغز من بلاد الترك وبينهم مجاورة ومصاهرة ووجه إليه رسلا يسأله كشف هذا الرجل عنه فأنفذ ملك التغزغز ابنا له إلى هذا النابغ في عدد كثير وجموع وافرة فأزاله بعد حروب متصلة ووقائع عظيمة، فزعم قوم أنه قتل، وزعم آخرون أنه مات، وعاد ملك الصين إلى بلده المعروف بخمدان وقد أخربه عليه وعلى سبيل ضعف في نفسه ونقص في أمواله وهلاك قواده وصناديد رجاله وكفاته، وغلب مع ذلك على كل ناحية متغلب منع من أموالها وتمسك بما في يده منها، فدعت ملك الصين الضرورة لقصور يده إلى قبول العفو منهم بإظهار الطاعة والدعاء له دون السمع والطاعة في الأموال، وما كان من الملوك ينفذ فيه .

فصارت بلاد الصين على سبيل ما جرت عليه أحوال الأكاسرة عند قتل الإسكندر لدارا الكبير وقسمته أرض فارس على ملوك الطوائف، وصار بعضهم يعضد بعضا للمغالبة بغير أذن الملك ولا أمره، فإذا أناخ القوي منهم على الضعيف تغلب على بلاده واجتاح ما فيه وأكل ناسه كلهم، وذلك مباح لهم في شريعتهم لأنهم يتبايعون لحوم الناس في أسواقهم،

وامتدت أيديهم مع ذلك إلى ظلم من قصدهم من التجار، ولما حدث هذا فيهم التأم إليه ظهور الظلم والتعدي في نواخذة العرب وأرباب المراكب فألزموا التجار ما لا يجب عليهم وغلبوهم على أموالهم واستجازوا ما لم يجر الرسم به قديما في شيء من أفعالهم، فنزع الله جل ذكره البركات منهم جميعا ومنع البحر جانبه، ووقع الفناء بالمقدار الجاري من المدبر تبارك اسمه في الربابنة والأدلاء بسيراف وعمان .

وذكر في الكتاب طرف من سنن أهل الصين ولم يذكر غيره، وهو سبيل المحصن والمحصنة عندهم إذا زنيا القتل، وكذلك اللص والقاتل، وسبيلهم في القتل، أن تشد يدا من يريدون قتله شدا وثيقا، ثم تطرح يداه في رأسه حتى يصيرا على عنقه، ثم تدخل رجله اليمنى فيما ينفذ من يده اليمنى، ورجله اليسرى فيما ينفذ من يده اليسرى، فتصير قدماه جميعا من ورائه ويتقبض ويبقى كالكرة لا حيلة له في نفسه ويستغني عن ممسك يمسكه، وعند ذلك تزول عنقه عن مركبها وتتزايل خرزات ظهره عن بطنها وتختلف وركاه ويتداخل بعضه في بعض ويضيق نفسه ويصير في حال لو ترك على ما هو به بعض ساعة لتلف، فإذا بلغ منه ضرب بخشبة لهم معروفة على مقاتله ضربات معروفة لا تتجاوز فليس دون نفسه شيء، ثم يدفع إلى من يأكله .

وفيهم نساء لا يردن الإحصان ويرغبن في الزنا، وسبيل هذه أن تحضر مجلس صاحب الشرط فتذكر زهدها في الإحصان ورغبتها في الدخول في جملة الزواني، وتسأل حملها على الرسم في مثلها، ومن رسمهم فيمن أراد ذلك من النساء أن تكتب نسبها وحليتها وموضع منزلها وتثبت في ديوان الزواني، وتجعل في عنقها خيط فيه خاتم من نحاس مطبوع بخاتم الملك ويدفع إليها منشور يذكر فيه دخولها في جملة الزواني وأن عليها لبيت المال في كل سنة كذا وكذا فلسا، وإن من تزوجها فعليه القتل، فتؤدي في كل سنة ما عليها ويزول الإنكار عنها . فهذه الطبقة من النساء يرحن بالعشيات عليهن ألوان الثياب من غير استتار فيصرن إلى من طرأ إلى تلك البلاد من الغرباء من أهل الفسق والفساد وأهل الصين، فيقمن عندهم وينصرفن بالغدوات، ونحن نحمد الله على ما طهرنا به من هذه الفتن .

وأما تعاملهم بالفلوس، فالسبب فيه إنكارهم على المتعاملين بالدنانير والدراهم : أن لصا لو دخل منزل رجل من العرب المتعاملين بالدنانير والدراهم لتهيأ له حمل عشرة آلاف دينار ومثلها من الورق على عنقه، فيكون فيها عطب صاحب المال، وأن لصا لو دخل إلى رجل منهم لم يحمل أكثر من عشرة آلاف فلس، وإنما ذلك عشرة مثاقيل ذهب . وهذه الفلوس معمولة من نحاس وأخلاط من غيره معجونة به، والفلس منها في قدر الدرهم البغلي، وفي وسطه ثقب واسع ليفرد الخيط فيه، وقيمة كل ألف فلس منها مثقال من ذهب، وينظم الخيط منها ألف فلس على رأس كل مائة عقدة، فإذا ابتاع المبتاع ضياعا أو متاعا أو بقلا فما فوقه دفع من هذه الفلوس على قدر الثمن، وهي موجودة بسيراف وعليها نقش بكتابتهم .

وأما الحريق ببلاد الصين والبناء وما ذكر فيه فالبلد مبني على ما قيل من خشب ومن قنا مشبك على مثال الشقاق القصب، عندنا ويليّط بالطين وبعلاج لهم يتخذونه من حب الشهدانج(= القنب) فيصير في بياض اللبن، تدهن به الجدر فيشرق إشراقا عجيبا، وليس لبيوتهم عتب لأن أملاكهم وذخائرهم وما تحويه أيديهم في صناديق مركبة على عجل تدور بها، فإذا وقع الحريق دفعت تلك الصناديق بما فيها فلم يمنعها العتب من سرعة النفوذ .

وأما أمر الخدم فذكر مجملا وإنما هم ولاة الخراج وأبواب المال، فمنهم من قد سبي من الأطراف فخصي، ومنهم من يخصيه والده من أهل الصين ويهديه إلى الملك تقربا به إليه، فأمور الملك في خاصته وخزائنه ومن يتوجه إلى مدينة خانقو التي يقصد إليها تجار العرب هم الخدم، ومن سننهم في ركوب هؤلاء الخدم وملوك سائر المدن إذا ركبوا : أن يتقدمهم رجال بخشب تشبه النواقيس يضربون بها، فيسمع من بعد فلا يقف أحد من الرعية في شيء من ذلك الطريق الذي يريد الخادم أو الملك أن يمر فيه، ومن كان على باب دارٍ دخلها وأغلق الباب دونه، حتى يكون اجتياز الخادم أو الملك المملك على تلك المدينة، وليس في طريقه أحد من العامة ترهيبا وتجبرا، ولئلا يكثر نظر العامة إليهم ولا يمتد لسان أحد إلى الكلام معهم . ولباس خدمهم ووجوه قوادهم فاخر الحرير الذي لا يحمل مثله إلى بلاد العرب عندهم ومبالغتهم في أثمانه .

وذكر رجل من وجوه التجار ومن لا يشك في خبره: أنه صار إلى خصي كان الملك أنفذه إلى مدينة خانقو لتخيّر ما يحتاج إليه من الأمتعة الواردة من بلاد العرب، فرأى على صدره خالا يشف من تحت ثياب حرير كانت عليه، فقدر أنه قد ضاعف بين ثوبين منها فلما ألح في النظر، قال له الخصي: أراك تديم النظر إلى صدري فلم ذلك؟ فقال له الرجل: عجبت من خال يشف من تحت هذه الثياب، فضحك الخصي ثم طرح كم قميصه إلى الرجل، وقال له: أعدد ما علي منها، فوجدها خمسة أقبية بعضها فوق بعض والخال يشف من تحتها. والذي هذه صفته من الحرير خام غير مقصور، والذي يلبسه ملوكهم أرفع من هذا وأعجب.

وأهل الصين من أحذق خلق الله كفا بنقش وصناعة وكل عمل لا يقدمهم فيه أحد من سائر الأمم، والرجل منهم يصنع بيده ما يقدر أن غيره يعجز عنه، فيقصد به باب الملك يلتمس الجزاء على لطيف ما ابتدع، فيأمر الملك بنصبه على بابه من وقته ذلك إلى سنة، فإن لم يخرج أحد فيه عيبا جازاه وأدخله في جملة صناعه، وإن أخرج فيه عيب أطرحه ولم يجازه. وأن رجلا منهم صور سنبلة عليها عصفور في ثوب حرير لا يشك الناظر إليها أنها سنبلة وأن عصفورا عليها، فبقيت مدة وأنه اجتاز بها رجل أحدب فعابها، فأدخل إلى ملك ذلك البلد وحضر صانعها فسأل الأحدب عن العيب، فقال: المتعارف عند الناس جميعا أنه لا يقع عصفور على سنبلة إلا أمالها، وأن هذا المصور صور السنبلة قائمة لا ميل لها، وأثبت العصفور فوقها منتصبا فأخطأ فصدق ولم يثب الملك صانعها بشيء، وقصدهم في هذا وشبهه رياضة من يعمل هذه الأشياء ليضطرهم ذلك إلى شدة الاحتراز وإعمال الفكر فيما يصنع كل منهم بيده.

قصة ابن وهب القرشي وما وقع له مع ملك الصين

وقد كان بالبصرة رجل من قريش يعرف بابن وهب من ولد هبار بن الأسود، خرج منها عند خرابها فوقع إلى سيراف، وكان فيها مركب يريد بلاد الصين فنزعت به همته بالمقدار الجاري على أن ركب في ذلك المركب إلى بلاد الصين ثم نزعت به همته إلى قصد ملكها

الكبير، فسار إلى خمدان في مقدار شهرين من المدينة المعروفة بخانقو، وأقام بباب الملك مدة طويلة يرفع الرقاع ويذكر أنه من أهل بيت نبوة العرب، فأمر الملك بعد هذه المدة بإنزاله في بعض المساكن وإزاحة علته فيما يحتاج إليه، وكتب الملك إلى الوالي المستخلف المقيم بخانقو يأمره بالبحث ومسألة التجار عما يدعيه الرجل من قرابة نبي العرب صلى الله عليه وسلم، فكتب صاحب خانقو بصحة نسبه فأذن له ووصله بمال واسع عاد به إلى العراق، وكان شيخا فهما، فأخبرنا: أنه لما وصل إليه وسأله عن العرب، وكيف أزالوا ملك العجم؟ فقال له :بالله جل ذكره وبما كانت العجم عليه من عبادة النيران والسجود للشمس وللقمر من دون الله، فقال له: لقد غلبت العرب على أجل الممالك وأوسعها ريفا وأكثرها أموالا وأعقلها رجالا وأبعدها صوتا، ثم قال له: فما منزلة سائر الملوك عندكم فقال مالي بهم علم، فقال للترجمان: قل له إنا نعد الملوك خمسة فأوسعهم ملكا الذي يملك العراق لأنه في وسط الدنيا، والملوك محدقة به، ونجد اسمه عندنا ملك الملوك وبعده ملكنا هذا ونجده عندنا ملك الناس لأنه لا أحد من الملوك أسوس منا ولا أضبط لملكه من ضبطنا لملكنا، ولا رعية من الرعايا أطوع لملوكها من رعيتنا، فنحن ملوك الناس، ومن بعدنا ملك السباع وهو ملك الترك الذي يلينا، وبعدهم ملك الفيلة وهو ملك الهند، ونجده عندنا ملك الحكمة لأن أصلها منهم، وبعده ملك الروم، وهو عندنا ملك الرجال، لأنه ليس في الأرض أتم خلقا من رجاله ولا أحسن وجوها، فهؤلاء أعيان الملوك، والباقون دونهم .

ثم قال للترجمان قل له أتعرف صاحبك إن رأيته يعني رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقلت وكيف لي برؤيته وهو عند الله جل وعز، فقال: لم أُردْ هذا إنما أردت صورته، فقال أجل فأمر بسفط فأخرج فوضع بين يديه فتناول منه درجا، وقال للترجمان: أره صاحبه فرأيت في الدرج صور الأنبياء فحركت شفتي بالصلاة عليهم، ولم يكن عنه أني أعرفهم، فقال للترجمان: سله عن تحريك شفته، فسألني، فقلت: أصلي على الأنبياء، فقال من أين عرفتهم، فقلت مما صوّر من أمرهم؛ هذا نوح في السفينة ينجو بمن معه لما أمر الله جل ذكره الماء فغمر الأرض كلها ممن فيها وسلمه ومن معه، فضحك وقال: أما نوح فقد صدقت في

تسميته، وأما غرق الأرض كلها فلا نعرفه وإنما أخذ الطوفان قطعة من الأرض ولم يصل إلى أرضنا ولا أرض الهند.

قال ابن وهب: فتهيّبت الرد عليه وإقامة الحجة لعلمي بدفعه ذلك، ثم قلت: هذا موسى وعصاه وبنو إسرائيل، فقال: نعم على قلة البلد الذي كان به وفساد قومه عليه، فقلت: وهذا عيسى على حمار والحواريون معه، فقال: لقد كان قصير المدة إنما كان أمره يزيد على ثلاثين شهرا شيئا يسيرا، وعدّد من أمر سائر الأنبياء ما اقتصرنا على ذكر بعضه، وزعم أنه رأى فوق كل صورة لنبي كتابة طويلة قدر أن فيها ذكر أسمائهم ،ومواقع بلدانهم ،وأسباب نبؤاتهم، ثم قال: رأيت صورة النبي صلى الله عليه وسلم على جمل وأصحابه محدقون به على إبلهم في أرجلهم نعال عربية وفي أوساطهم مساويك مشدودة، فبكيت، فقال للترجمان: سله عن بكائه فقلت هذا نبينا وسيدنا وابن عمي عليه السلام، فقال: صدقت لقد ملك هو وقومه أجل الممالك إلا أنه لم يعاين ما ملك وإنما عاينه من بعده.

ورأيتُ صور أنبياء ذوي عدد كثير، منهم من قد أشار بيده اليمنى وجمع بين الإبهام والسبابة كأنه يوميء في إشارته إلى الحق، ومنهم قائم على رجله مشير بأصابعه إلى السماء، وغير ذلك. زعم الترجمان أنهم من أنبيائهم وأنبياء الهند. ثم سألني عن الخلفاء وزيهم وكثير من الشرائع ووجوهها على قدر ما أعلم منها، ثم قال: كم عمر الدنيا عندكم؟ فقلت :قد اختلف فيه فبعض يقول: ستة آلاف سنة وبعض يقول دونها، وبعض يقول أكثر منها إلا بيسير. فضحك ضحكا كثيرا ووزيره أيضا واقف دل على إنكاره ذلك، وقال :ما أحسب نبيكم قال هذا، فزللت وقلت: بلى هو قال ذلك، فرأيت الإنكار في وجهه، ثم قال للترجمان: قل له :ميّز كلامك ،فإن الملوك لا تكلم إلا عن تحصيل، أما ما زعمت أنكم تختلفون في ذلك فإنكم إنما اختلفتم في قول نبيكم، وما قالته الأنبياء لا يجب أن يختلف فيه بل هو مسلّم فاحذر هذا وشبهه أن تحكيه، وذكر أشياء كثيرة قد ذهبت عني لطول العهد، ثم قال لي: لم عدلت عن ملكك وهو أقرب إليك منا دارا ونسبا؟ فقلت: بما حدث على البصرة ووقوعي إلى سيراف ونظري إلى مركب ينفذ إلى الصين، وما بلغني من جلال

ملك الصين وكثرة الخير به فأحببت الوقوع إلى تلك الناحية ومشاهدتها، وأنا راجع عنها إلى بلادي وملك ابن عمي ومخبر بما شاهدت من جلال هذا الملك وسعة هذه البلاد، وسأقول بكل حسن وأثني بكل جميل، فسرّه ذلك وأمر لي بالجائزة السنية، وبحملي على بغال البريد إلى مدينة خانقو، وكتب إلى ملكها بإكرامي وتقديمي على جميع من في ناحيته من سائر الملوك، وإقامة النزل لي إلى وقت خروجي، فكنت في أخصب عيش وأنعمه، إلى أن خرجت من بلاد الصين ٠

فسألناه عن مدينة خمدان التي بها الملك وصفتها، فذكر سعة البلد وكثرة أهله وأنه مقسوم على قسمين يفصل بينهما شارع طويل عريض، فالملك ووزيره وجنوده وقاضي القضاة وخصيان الملك وجميع أسبابه في الشق الأيمن منه وما يلي المشرق لا يخالطهم أحد من العامة ولا فيه شيء من الأسواق بأنهار في سككهم مطردة، وأشجار عليها منتظمة ومنازل فسيحة ٠ وفي الشق الأيسر مما يلي المغرب: الرعية والتجار والميرة والأسواق، وإذا وضح النهار رأيت قهارمة الملك وأسبابه وغلمان داره، وغلمان القواد ووكلائهم من بين راكب وراجل قد دخلوا إلى الشق الذي فيه الأسواق والتجار فأخذوا وظائفهم وحوائجهم، ثم انصرفوا فلم يعد أحد منهم إلى هذا الشق إلا في اليوم الثاني ٠ وإن بهذا البلد من كل نزهة وغيضة حسنة وأنهار مطردة إلا النخل فإنه معدوم ٠

ومما حدث في زماننا هذا ولم يعرفه من تقدمنا أنه لم يكن أحد يقدر أن البحر الذي عليه بحر الصين والهند يتصل ببحر الشام ولا يقوم في أنفسهم حتى كان في عصرنا هذا، فإنه بلغنا أنه وجد في بحر الروم خشب مراكب العرب المخروزة التي قد تكسرت بأهلها فقطعها الموج وساقتها الرياح بأمواج البحر فقذفته إلى بحر الخزر، ثم جرى في خليج الروم ونفذ منه إلى بحر الروم والشام فدل هذا على أن البحر يدور على بلاد الصين والسيلا وظهر بلاد الترك والخزر، ثم يصب في الخليج ويفضي إلى بلاد الشام، وذلك إن الخشب المخروز لا يكون إلا لمراكب سيراف خاصة، ومراكب الشام، والروم مسمورة غير مخروزة(=هذا توهم فبحر قزوين منقطع عن سواه) ٠

وبلغنا أيضا أنه وجد في بحر الشام عنبر وهذا من المستنكر وما لم يعرف في قدم الدهور، ولا يجوز إن كان ما قيل حقا أن يكون العنبر وقع إلى بحر الشام إلا من بحر عدن والقلزم، وهو البحر الذي يتصل بالبحار التي يكون فيها العنبر لأن الله جل ذكره قد جعل بين البحرين حاجزا، بل هو إن كان صحيحا مما يقذفه بحر الهند إلى سائر البحار واحدا بعد واحد حتى يفضي به إلى بحر الشام .

ثم نبتدي بذكر مدينة الزابج إذ كانت تحاذي بلاد الصين وبينهما مسيرة شهر في البحر وأقل من ذلك إذا ساعدت الرياح، وملكها يعرف بالمهراج(= الحاكم) ويقال : إن تكسيرها(= مساحتها) تسعمائة فرسخ، وهذا الملك مُملّك على جزائر كثيرة يكون مقدار مسافة ملكه ألف فرسخ وأكثر، وفي مملكته جزيرة تعرف بسريرة تكسيرها على ما يذكرون أربعمائة فرسخ، وجزيرة أيضا تعرف بالرامي تكسيرها ثمانمائة فرسخ، فيها منابت البقم والكافور وغيره، وفي مملكته جزيرة كَلَه وهي المنصّف بين أراضي الصين وأرض العرب، وتكسيرها على ما يذكرون ثمانون فرسخا، وبكَله مجمع الأمتعة من الأعواد والكافور والصندل والعاج والرصاص القلعي والأبنوس والبقم والأفاويه كلها، وغير ذلك مما يتسع ويطول شرحه، والجهاز من عمان في هذا الوقت إليها، ومنها إلى عُمان واقع، وأمر المهراج نافذ في هذه الجزائر، وجزيرته التي هو بها في غاية الخصب وعمارتها منتظمة . وذكر من يوثق بقوله : إن الديكة إذا غردت في الأسحار للأوقات كتغريدها عندنا تجاوبت إلى مائة فرسخ وما فوقها يجاوب بعضها بعضا لاتصال القرى وانتظامها، وإنه لا مفاوز فيها، ولا خراب، وإن المتنقل في بلادهم إذا سافر وركب الظهر سار إذا شاء، فإذا مل وكلَّ الظهر نزل حيث شاء .

ومن عجيب ما بلغنا من أحاديث هذه الجزيرة المعروفة بالزابج أن ملكا من ملوكهم في قديم الأيام، وهو المهراج وقصره على ثلاج يأخذ من البحر، ومعنى الثلاج واد كدجلة مدينة السلام(= بغداد) والبصرة، يغلب عليه ماء البحر بالمدِّ وينضب عنه الماء العذب بالجزر، ومنه غدير صغير يلاصق قصر الملك، فإذا كان في صبيحة كل يوم دخل قهرمان الملك ومعه

لبنة قد سبكها من ذهب فيها منًا، قد خُفي عنّي مبلغها، فيطرحها بين يدي الملك في ذلك الغدير، فإذا كان المد علاها وما كان مجتمعا معها من أمثالها غمرها، فإذا كان الجزر نضب عنها فأظهرها فلاحت في الشمس، والملك مطّلع عليها عند جلوسه في المجلس المطل عليها، فلا تزال تلك حالة يطرح في كل يوم في ذلك الغدير لبنة من ذهب ما عاش ذلك الملك من الزمان لا يمس شيء منه، فإذا مات الملك أخرجها القائم من بعده كلها فلم يدع منها شيئا، وأحصيت ثم أذيبت وفرّقت على أهل بيت المملكة رجالهم ونسائهم وأولادهم وقوّادهم وخدمهم على قدر منازلهم ورسوم لهم في كل صنف منهم، فما فضل بعد ذلك فضّ على أهل المسكنة والضعف، ثم دوِّن عدد اللّبن الذهب ووزنه، وقيل إن فلانا مَلك من الزمان كذا وكذا سنة، وخلّف من لبن الذهب في غدير الملوك كذا وكذا لبنة، وإنها فرقت بعد وفاته في أهل مملكته، فالفخر عندهم لمن امتدت أيام ملكه وزاد عدد اللّبن الذهب في تركته .

ومن أخبارهم في القديم أن ملكا من ملوك القمار، وهي الأرض التي يجلب منها العود القمارى، وليست بجزيرة بل هي على ما يلي أرض العرب وليس في شيء من الممالك أكثر عددا من أهل القمار، وهم رحّالة، كلهم يحرمون الزنا والأنبذة كلها، فلا يكون في بلادهم ومملكتهم شيء منه، وهي مسامتة لمملكة المهراج والجزيرة المعروفة بالزابج، وبينهما مسافة عشرة أيام إلى عشرين يوما عرضا في البحر إذا كانت الريح متوسطة . فقيل إن هذا الملك تقلّد المُلك على القمار في قديم الأيام، وهو حدث متسرّع، وإنه جلس يوما في قصره وهو مشرف على واد يجري بالماء العذب كدجلة العراق، وبين قصره والبحر مسيرة يوم، ووزيره بين يديه، إذ قال لوزيره: – وقد جرى ذكر مملكة المهراج وجلالتها وكثرة عمارتها وما تحت يده من الجزائر – "في نفسي شهوة كنت أحب بلوغها" فقال له الوزير: – وكان ناصحا وقد علم منه السرعة – "ما هي أيها الملك؟" قال: " كنت أحب أن أرى رأس المهراج ملك الزابج في طست بين يدي" فعلم الوزير أن الحسد أثار هذا الفكر في نفسه، فقال: " أيها الملك ما كنت أحب أن يحدّث الملك نفسه بمثل هذا ،إذ لم يجر بيننا وبين هؤلاء القوم لا في فعل ولا في حديثٍ ترة(=قول باطل)، ولا رأينا منهم شرّا، وهم في جزيرة نائية غير مجاورة لنا

في أرضنا، ولا طامعين في ملكنا، وليس ينبغي أن يقف على هذا الكلام أحد، ولا يعيد الملك فيه قولا" .

فغضب ولم يسمع من الناصح، وأذاع ذلك لقوّاده ومَن كان يحضره من وجوه أصحابه، فتناقلته الألسن حتى شاع واتصل بالمهراج وكان جزلا(=قويا سديد الرأي) متحركا محنّكا، قد بلغ في السن مبلغا متوسطا، فدعا بوزيره، وأخبره مما اتصل به، وقال له: "ليس يجب مما شاع من أمر هذا الجاهل وتمنيّه ما تمناه بحداثة سنّه وغرّته وانتشار ذلك من قوله أن نمسك عنه، فإن ذلك مما يفت في عضد الملك وينقصه ويضع منه وأمره بستر ما جرى بينهما، وأن يُعدَّ له ألف مركب من أوساط المراكب بآلاتها، ويندب لكل مركب منها من جملة السلاح وشجعان الرجال من يستقل به. وأظهر أنه يريد التَنزّه في الجزائر التي في مملكته، وكتب إلى الملوك الذين في هذه الجزائر وهم في طاعته، وجملته بما عزم عليه من زيارتهم والتنزه بجزائرهم حتى شاع ذلك. وتأهب ملك كل جزيرة لما يصلح للمهراج، فلما استتبّ أمره وانتظم دخل في المراكب وعبر بها وبالجيش إلى مملكة القمار، وهو وأصحابه أهل سواكٍ دائم، يفعل الرجل منهم ذلك في اليوم مرات، وسواك كل وحد منهم معه لا يفارقه أو مع غلامه، فلم يشعر به ملك القمار حتى هجم على الوادي المفضي إلى دار ملك القمار، وطرح رجاله فأحدقوا به على سبيل غرة، فأخذه واحتوى على داره، وطار أهل المملكة من بين يديه، فأمر بالنداء بالأمان، وقعد على السرير الذي كان يجلس عليه ملك القمار، وقد أخذه أسيرا فأحضره وأحضر وزيره، فقال لملك القمار: " ما حملك على تمنّي ما ليس في وسعك ولا لك فيه حظ لو نلته، ولا أوجبه سبب يسهل السبيل إليه؟" فلم يحر جوابا، ثم قال له المهراج: " أما أنك لو تمنّيت مما تمنّيته من النظر إلى رأسي في طست بين يديك إباحة أرضي وملكها أو الفساد في شيء منها لاستعملت ذلك كله فيك، لكنك تمنّيت شيئا بعينه، فأنا فاعله بك وراجع إلى بلدي من غير أن أمدّ يدا إلى شيء من بلادك مما جلّ ودقّ لتكون عظة لمن بعدك، ولا يتجاوز كل قدره وما قسم له، وأن يستغنم العافية من لبسته، ثم ضرب عنقه .

ثم أقبل على وزيره، فقال له" : جُزيت خيرا من وزير، فقد صحّ عندي أنك أشرت على صاحبك بالرأي لو قبل منك، فانظر من يصلح للمُلك من بعد هذا الجاهل فأقمه مقامه " . وانصرف من ساعته راجعا إلى بلاده من غير أن يمدّ هو ولا أحد من أصحابه يدَه إلى شيء من بلاد القمار ، فلما رجع إلى مملكته قعد على سريره وأشرف على غديره ووضع الطست بين يديه وفيها رأس ملك القمار، وأحضر وجوه مملكته وحدثهم بخبره والسبب الذي حمله على ما أقدم عليه، فدعا له أهل مملكته وجزوه خيرا، ثم أمر بالرأس فغسل وطيّب وجعله في ظرف ورده إلى الملك الذي قام بالأمر ببلاد القمار من بعد الملك المقتول ، وكتب إليه : " إنّ الذي حملني على ما فعلناه بصاحبك بغيُه علينا وتأديبنا لأمثاله، وقد بلغنا منه ما أراده بنا، ورأينا رد الرأس إليك إذ لا درك لنا في حبسه ولا فخر بما ظفرنا به منه . " واتصل الخبر بملوك الهند والصين فعظم المهراج في أعينهم وصارت ملوك القمار من بعد ذلك كلما أصبحت قامت وحولت وجوهها نحو بلاد الزابج فسجدت وكفرت للمهراج تعظيما .

وسائر ملوك الهند والصين يقولون بالتناسخ ويدينون به . وذكر بعض من يوثق بخبره أن ملكا من ملوكهم جُدِّر فلما خرج من الجدري نظر في المرآة فاستقبح وجهه فأبصر ابنا لأخيه، فقال له : "ليس مثلي أقام في هذا الجسم عليّ تغيره، وإنما هو ظرف للروح متى زال عنه عاد في غيره ،فقم بالملك، فإني مزيل بين جسمي وروحي إلى أن انحدر في جسم غيره" ثم دعا بخنجر له مشحوذ قاطع فأمر به فحز رأسه ثم أُحرق . كان أهل الصين من شدة التفقّد لأمرهم في قديم أيامهم وقبل تغيره في هذا الوقت على حالة لم يسمع بمثلها .

وقد كان رجل من أهل خراسان ورد العراق فابتاع متاعا كثيرا وخرج إلى بلاد الصين. وكان فيه بخل وشحّ شديد، فجرى بينه وبين خصي للملك كان أنفذه إلى خانقو وهي المدينة التي تقصدها تجار العرب لأخذ ما يحتاج إليه مما يرد في المراكب – وكان هذا الخصي من أجلّ خدم الملك وإليه خزائنه وأمواله – مشاجرة في أمتعة العاج وغيره، امتنع عن بيعها حتى شرق الأمر بينهما، وحمل الخصي نفسه على انتزاع خيار الأمتعة التي كانت معه

واستهان بأمره، فشخص مستخفيا حتى ورد خمدان، وهو بلد الملك الكبير في مقدار شهرين من الزمان وأكثر، فخرج إلى السلسلة التي وصفت في الكتاب، وسبيل من حركها على الملك الكبير أن يباعد إلى مسيرة عشرة أيام على سبيل النفي، ويؤمر بحبسه هناك شهرين، ثم يخرجه ملك تلك الناحية، ويقول: إنك تعرضت لما فيه بوارك وسفك دمك إن كنت كاذبا، وإذ كان الملك قد قرب لك ولأمثالك من وزرائه وملوكه من لا يعوزك الانتصاف بهم، واعلم أنك متى وصلت إلى الملك فلم يكن ما تظلمت منه مما يجب في مثله الوصول إليه، فليس دون دمك شيء لئلا يقدم على ما أقدمت كل من يهم بمثله، فاستقل نقلك وامض لشأنك، فإن استقال ضربه خمسين خشبة ونفي إلى البلاد التي منها قصد، وإن أقام على تظلمه وصل، ففعل ذلك بالخراساني، فأقام على ظلامته والتمس الوصول، فبعث به ووصل إلى الملك، فسأله الترجمان عن أمره، فأخبره بما جرى عليه من الخادم وانتزاعه من يده ما انتزع .

وكان الأمر فيه قد شاع بخانقو وذاع فأمر الملك بحبس الخراساني وإزاحة علته في مطعمه ومشربه، وتقدم إلى وزيره في الكتاب إلى العمّال بخانقو بالفحص عمّا ادّعاه الخراساني وكشفه والصدق عنه، وأمر صاحب الميمنة والميسرة وصاحب القلب بمثله، وهؤلاء الثلاثة عليهم يدور بعد الوزير أمر جيوشه ويثق بهم على نفسه، وإذا ركب بهم بحرب أو غيره كان كل واحد منهم في مرتبته، فكتب كل واحد منهم وقد كشف عن الأمر بما وقف به على صحة الدعوى من الخراساني فتتابعت به الأخبار عند الملك من كل جهة، فأشخص الخصي، فلما ورد قبض أمواله ونزع خزائنه من يده، وقال له : "كان حقك القتل إذ عرضتني لرجل قد سلك من خراسان، وهي على حد مملكتي، وصار إلى بلاد العرب، ومنها إلى ممالك الهند، ثم إلى بلدي طلبا للفضل، فأردت أن يعود مجتازا بهذه الممالك ومن فيها فيقول: :إني ظُلمت ببلاد الصين وغُصب مالي، لكني أتجافى عن دمك لقديم حرمتك، وأوليك تدبير الموتى إذ عجزت عن تدبير الأحياء، وأمر به فجعله في مقابر الملوك يحرسها ويقوم بها .

ومن عجيب تدبيرهم في قديم الأيام دون هذا الوقت أمر الأحكام وجلالها في صدورهم، واختيارهم لها من لا يخالج قلوبهم الشك في علمه بشرائعهم وصدق لهجته وقيامه بالحق في كل أحواله وتجنبه الإغماض عمن جلّ مقداره حتى يقع الحق موقعه، ويكون عفيفا عن أموال أهل الضعف وما يجري على يده، فإذا عزموا على تقليد قاضي القضاة أنفذوه قبل تقليده إلى جميع البلدان التي هي أعمدة بلادهم، حتى يقيم في كل بلد شهرا أو شهرين فيبحث عن أمر أهله وأخبارهم ورسومهم، ويعلم من يجب قبول قوله منهم معرفة يستغني بها عن المسألة، فإذا سلك به هذه الأمصار، ولم يبق في المملكة بلد جليل إلا وَطِيه، رحل إلى دار المملكة وولّى قضاء القضاة وجعل إليه اختيارهم، فيليهم. وعلمه بجميع المملكة ،ومَن يجب أن يقلّد في كل بلد من أهله أو غيرهم علم من يستغني بعلمه عن الرجوع إلى مَن لعله أن يميل فيه أو يقول بغير الحق فيما يسأل عنه، ولا يتهيأ لأحد من قضاته أن يكاتبه بشيء قد علم خلافه أو يزيله عن جهته، ولقاضي القضاة مناد في كل يوم ينادي على بابه يقول: " هل من متظلم على الملك المستور عن عيون رعيته، أم من أحد من أسبابه وقوّاده وسائر رعيته، فإني أنوب في ذلك كله عنه، لما بَسط به يدي وقلّدني؟" يقول ذلك ثلاثا، لأن الملك في عقدهم أن الملك لا يزول عن موضعه حتى تنفذ الكتب من دواوين الملوك بالجور المصرح، وأن يهمل أمر الحكم والحكام، وأنه متى تحفظ من هذين الأمرين، فلم تنفذ الكتب من الدواوين إلا بالعدل، ولم يلِ الحكم إلا من يقوم بالحق فالملك منتظم .

فأما خراسان ومتاخمتها لبلاد الصين فالذي بينها وبين الصغد مسيرة شهرين إلا أنه في مفازة ممتنعة ورمال منتظمة لا ماء فيها ولا أودية لها ولا عمارة بقربها، فهو السبب المانع من هجوم أهل خراسان على بلدهم . وأما ما كان من الصين يلي مغرب الشمس، وهو الموضع المعروف بمذو فهو على حدود التبت، والحروب بينهم متصلة .

وقد رأينا ممن دخل الصين ذكر: أنه رأى رجلا حمل على ظهره مسكا في زق وورد من سمرقند راجلا يقطع بلدا بلدا من مدن الصين حتى صار إلى خانقو، وهو مجتمع التجار القاصدين من سيراف . وذلك أن الأرض التي بها ظباء المسك الصيني والتبت أرض واحدة

لا فرق بينهما، فأهل الصين يجتذبون ما قرب منهم من الظباء وأهل التبت ما قرب منهم، وإنما فضل المسك التبتي على الصيني بحالتين : إحداهما أن ظبي المسك يكون في حد التبت رعية من سنبل الطيب، وما يلي أرض الصين منها رعيه سائر الحشائش . والحالة الأخرى : ترك أهل التبت النوافج(=أكياس المسك في الظباء) في حالها وغش أهل الصين لما وقع إليهم منها، وسلوكهم أيضا في البحر وما يلحقهم من الإيذاء فإذا ترك أهل الصين المسك في نوافجه وأودعت البراني(= أواني خزفية سميكة)، واستوثق منها ورد أرض العرب كالتبتي في جودته، وأجود المسك كله ما حكه الظبي على أحجار الجبال إذ كان مادة تصير في سرته ويجتمع دما عبيطا كاجتماع الدم فيما يعرض من الدمامل، فإذا أدرك حكّه وأضجره فيفزع إلى الحجارة حتى يخرقه فيسيل ما فيه، فإذا خرج عنه جف واندمل وعادت المادة تجتمع فيه من ذي قبل .

وللتبت رجال يخرجون في طلب هذا، ولهم به معرفة فإذا وجدوه التقطوه وجمعوه وأودعوه النوافج وحمل إلى ملوكهم، وهو نهاية المسك إذ كان قد أدرك في نوافجه على حيوانه، وصار له فضل على غيره من المسك كفضل ما يدرك من الثمار في شجرة على سائر ما ينزع منه قبل إدراكه، وغير هذا من المسك فإنما يصاد بالشرك المنصوب أو السهام، وربما قطعت النوافج عن الظبي قبل إدراك المسك فيها، وعلى أنه إذا قطع عن ظبائه كان كريه الرائحة مدة من المدد حتى يجف على الأيام الطويلة، وكلما جف استحال حتى يصير مسكا، وظبي المسك كسائر الظباء عندنا في القد واللون، ودقة القوائم، وافتراق الأظلاف، وانتصاب القرون، وانعطافها، ولها نابان دقيقان أبيضان في الفكين قائمان في وجه الظبي، طول كل واحد منهما مقدار فتر، ودونه على هيئة ناب الفيل، فهو الفرق بينهما وبين سائر الظباء .

ومكاتبات ملوك الصين لملوك أمصارهم وخصيانهم على بغال البريد مجهزة الأذناب على سبيل بغال البريد عندنا على سكك معروفة . وأهل الصين مهما وصفناهم من أمرهم يبولون من قيام، وكذلك سائر رعيتهم من أهل بلادهم، فأما الملوك والقواد والوجوه فلهم

أنابيب من خشب مدهونة طول كل خشبة منها ذراع، وفي الطرفين ثقبتان تتسع العليا للحشفة فيقف على رجله إذا أراد البول ويباعدها عن نفسه ويبول فيها، ويزعمون أن ذلك أصح لأجسامهم، وأن سائر ما يعتري من وجع المثانة والبول من الاستحجار فيها(=ترسّب الحجر)، إنما هو من الجلوس للبول، وأن المثانة لا تصفو بما فيها إلا مع القيام لذلك . والسبب في تركهم الشعور على رؤوسهم أعني الرجال امتناعهم من تدوير رأس المولود وتقويه كما يستعمل العرب، وقولهم إن ذاك مما يزيل الدماغ عن حالة التي خلق عليها، وأنه يفسد الحاسة المعروفة، فرؤوسهم مضطربة يسترها الشعر ويعفى عليها . فأما المناكح ببلاد الصين وهم شعوب وقبائل كشعوب بني اسرائيل والعرب وبطونها يتعارفون ذاك بينهم، ولا يزوج أحد منهم قريبا ولا ذا نسب ويتجاوزون ذلك حتى لا تتزوج القبيلة في قبيلتها، مثال ذلك أن بني تميم لا تتزوج في تميم، وربيعة لا تتزوج في ربيعة وإنما تتزوج ربيعة في مُضر، ومُضر في ربيعة، ويدعون أن ذلك أنجب للولد .

في مملكة بلهرا وغيره من ملوك الهند من يحرق نفسه بالنار، وذلك لقولهم بالتناسخ وتمكنه في قلوبهم، وزوال الشك فيه عنهم . وفي ملوكهم من إذا قعد للملك طبخ له أرز ثم وضع بين يديه على ورق الموز، وينتدب من أصحابه الثلاثمائة والأربعمائة باختيارهم لأنفسهم لا بإكراه من الملك لهم، فيعطيهم الملك من ذلك الأرز بعد أن يأكل منه، ويتقرب رجل رجل منهم فيأخذ منه شيئا يسيرا فيأكله، فيلزم كل من أكل من هذا الأرز إذا مات الملك أو قتل أن يحرقوا أنفسهم بالنار عن آخرهم في اليوم الذي مات فيه لا يتأخرون عن حتى لا يبقى منهم عين ولا أثر . وإذا عزم الرجل على إحراق نفسه صار إلى باب الملك فاستأذن، ثم دار في الأسواق وقد أججّت له النار في حطب جزل كثير عليها رجال يقومون بإيقادها حتى تصير كالعقيق حرارة والتهابا، ثم يعدو، وبين يديه الصنوج دائرا في الأسواق، وقد احتوشه أهله وقرابته، وبعضهم يضع على رأسه إكليلا من الريحان يملؤه جمرا، ويصب عليه السندروس(مادة صمغية)= وهو مع النار كالنفط، ويمشي وهامته تحترق وروائح لحم رأسه تفوح، وهو لا يتعثر في مشيته، ولا يظهر منه جزع، حتى يأتي النار

فيثب فيها فيصير رمادا ، فذكر بعض من حضر رجلا منهم يريد دخول النار، أنه لما أشرف عليها أخذ الخنجر فوضعه على رأس فؤاده فشقه بيده إلى عانته، ثم أدخل يده اليسرى فقبض على كبده، فجذب منها ما تهيأ له، وهو يتكلم ثم قطع بالخنجر منها قطعة فدفعها إلى أخيه استهانة بالموت وصبرا على الألم، ثم زج بنفسه في النار إلى لعنة الله ،

وزعم هذا الرجل الحاكي : أن في جبال هذه الناحية قوما من الهند سبيلهم سبيل الكنيفية (= أصحاب السيوف)والجليدية(= المجالدون) عندنا في طلب الباطل والجهل وبينهم وبين أهل الساحل عصبية، وأنه لا يزال رجل من أهل الساحل يدخل الجبل فيستدعي من يصابره على التمثيل بنفسه، وكذلك أهل الجبل لأهل الساحل، وأن رجلا من أهل الجبال صار إلى أهل الساحل لمثل ذلك، فاجتمع إليه الناس بين ناظر ومتعصب، فطالب أهل العصبية بأن يصنعوا مثل ما يصنع فإن عجزوا عنه اعترفوا بالغلبة، وأنه جلس عند رأس منابت القنا وأمرهم باجتذاب قناة من تلك القنا وسبيله سبيل القصب في التفافه، وأصله مثل الدن وأغلظ، وإذا حط رأس القناة استجابت حتى تقارب الأرض، فإذا تركت عادت إلى حالها، فجذب رأس قناة غليظة حتى قربت منه ثم شد بها ضفائره شدا وثيقا، ثم أخذ الخنجر وهو كالنار في سرعتها، فقال لهم : إني قاطع رأسي به فإذا بان عن بدني فأطلقوه من ساعته، فسأضحك إذا عادت القناة برأسي إلى موضعها، وتسمعوا قهقهة يسيرة، فعجز أهل الساحل عن أن يصنعوا مثل ذلك ،

ولقد أخبرنا بهذا من لا نتهمه وهو اليوم متعارف إذ كانت هذه البلاد من الهند تقرب من بلاد العرب، وأخبارها متصلة بهم في كل وقت، ومن شأنهم إذا أخذت السن من رجالهم ونسائهم وضعفت حواسهم أن يطالب من صار في هذه الحال منهم أهله بطرحه في النار أو تغريقه في الماء ثقة منهم بالرجعة، وسبيل موتاهم الإحراق ،

وقد كان بجزيرة سرنديب وبها جبل الجوهر ومغاص اللؤلؤ وغيره، يقدم الرجل الهندي على دخول السوق ومعه الجربي وهو خنجر لهم عجيب الصنعة مرهف فيضرب بيده إلى أجلّ(=أكبر) تاجر يقدر عليه، ويأخذ بتلابيبه ويشهر الخنجر عليه ويخرجه عن البلد في

مجمع من الناس لا يتهيأ لهم فيه حيلة، وذلك أنه متى أريد انتزاعه منه قتل التاجر وقتل نفسه، فإذا خرج عن البلد طالبه بالفدية وتبع التاجر من يفتديه بالمال الكثير، فدام ذلك بهم مدة من الزمان حتى ملكهم ملك أمر بمن فعل ذلك من الهند أن يؤخذ على أية حال كان، ففعل ذلك فقتل الهندي التاجر وقتل نفسه، فجرى هذا على جماعة منهم، وتلفت فيه أنفس الهند وأنفس العرب، فلما وقع البأس انقطع ذلك وأمن التجار على أنفسهم .

والجوهر الأحمر والأخضر والأصفر مخرجة من جبل سرنديب وهي جزيرة وأكثر ما يظهر لهم في وقت المدود يدحرجه الماء عليهم من كهوف ومغارات ومسائل مياه لهم عليها أرصاد للملك، وربما استنبطوه أيضا كما تستنبط المعادن فيخرج الجوهر ملصقا بالحجارة فيكسر عنه . وللملك هذه الجزيرة شريعة ومشايخ لهم مجالس كمجالس محدثينا يجتمع إليهم الهند فيكتبون عنهم سير أنبيائهم وسنن شرائعهم . وبها صنم عظيم من ذهب إبريز يفرط البحريون في مبلغ وزنه، وهياكل قد أنفق عليها أموال عظيمة . وبهذه الجزيرة جمع من اليهود كثير، ومن سائر الملل، وبها أيضا ثنوية، والملك يبيح لكل فريق منهم ما يتشرع به . ومحاذي هذه الجزيرة أغباب واسعة ومعنى الغب الوادي العظيم إذا أفرط في طوله وعرضه، وكان مصبه إلى البحر، يسير المجتازون في هذا الغب المعروف بغب سرنديب شهرين وأكثر في غياض ورياض وهواء معتدل . وفي فوهة هذا الغب البحر المعروف بهركند، وهو نزِهُ المكان، الشاة فيه بنصف درهم، وما يشرب جمع من الرجال من الشراب المطبوخ من عسل النحل بحب الداذي الرطب، بمثل ذلك . وأكثر أعمالهم القمار بالديكة والنرد والديكة عندهم عظيمة الأجسام وافرة الصياصي يستعملون لها من الخناجر الصغار المرهفة ما يشد على صياصيها، ثم ترسل وقمارهم في الذهب والفضة والأرضين والنبات وغير ذلك، فيبلغ الديك الغالب جملة من الذهب، وكذلك لعبهم بالنرد دائم على خطر واسع، حتى إن أهل الضعف منهم ومن لا مال له ممن يذهب إلى طلب الباطل والفتوة، ربما لاعب في أنامله فيلعب وإلى جنبه شيء قد جعل فيه من دهن الجوز أو دهن السمسم إذ كان الزيت معدوما عندهم وتحته نار تحميه وبينهما فاس صغيرة مشحوذة، فإذا غلب

أحدهما صاحبه وضع يده على حجر وضرب القامر بالفأس أنملة المقمور فأبانها، ووضع المقمور يده في الدهن وهو في نهاية الحرارة فيكويها، ولا يقطعه ذاك عن المعاودة في اللعب، فربما افترقا وقد بطلت أناملهما جميعا ٠ومنهم من يأخذ الفتيلة فينقعها في الدهن، ثم يضعها على عضو من أعضائه ويشعل النار فيها، فهي تحترق ورائحة اللحم تفوح وهو يلعب بالنرد لا يظهر منه جزع ٠

والفساد في هذا الموضع فاش في النساء والرجال غير محظور، حتى إن تجار البحر ربما دعا الواحد منهم ابنة ملكهم فتأتيه إلى غياضهم بعلم أبيها، وكان مشايخ أهل سيراف يمنعون من الجهاز إلى هذه الناحية وخاصة الأحداث ٠ وأمر اليسارة التي تكون ببلاد الهند وتفسيرها المطر، فإنه يدوم عليهم في الصيف ثلاثة أشهر تباعا ليلا ونهارا لا تمسك السماء عنهم بتة، وقد استعدوا قبل ذلك لأقواتهم، فإذا كانت اليسارة أقاموا في منازلهم لأنها معمولة من خشب مكنسة السقوف مظللة بحشائش لهم، فلا يظهر أحد منهم إلا لمهم، على أن أهل الصناعات يعالجون صنائعهم في هذه الأماكن هذه المدة، وربما عفنت أسافل أرجلهم في هذا الوقت، وبهذه اليسارة عيشهم وإذا لم تكن هلكوا لأن زراعتهم الأرز لا يعرفون غيره، ولا قوت لهم سواه، إنما يكون في هذا الوقت في حرامات لهم طريحا لا يحتاجون إلى سقي ومعاناة، ومعنى الحرامات منابت الأرز عندهم، فإذا انكشفت السماء عنهم بلغ الأرز النهاية في الريع والكثرة ولا يمطرون الشتاء ٠

وللهند عبّاد وأهل علم يعرفون بالبراهمة وشعراء يغشون الملوك، ومنجمون وفلاسفة وكهان، وأهل زجر للغربان وغيرها، وبها سحرة وقوم يظهرون التخاييل ويبدعون فيها، وذلك بقنوج خاصة، وهو بلد عظيم في مملكة الجوز ٠

وبالهند قوم يعرفون بالبيكرجيين عراة قد غطت شعورهم أبدانهم وفروجهم، وأظفارهم مستطيلة كالحراب إذ كانت لا تقص إلا ما ينكسر منها، وهم على سبيل سياحة، وفي عنق كل رجل منهم خيط فيه جمجمة من جماجم الأنس، فإذا اشتد به الجوع وقف بباب بعض الهنود فأسرعوا إليه بالأرز المطبوخ مستبشرين به فيأكل في تلك الجمجمة، فإذا أشبع

انصرف فلا يعود لطلب الطعام إلا في وقت حاجته ٠

وللهند ضروب من الشرائع يتقربون بها فيما زعموا إلى خالقهم جلّ الله وعزّ عمّا يقول الظالمون علواً كبيرا، منها: أن الرجل يبتني في طرقهم الخان للسابلة ،ويقيم فيه بقالا يبتاع المجتازون منه حاجتهم، ويقيم في الخان فاجرة من نساء الهند يجري عليها لينال منها المجتازون، وذلك عندهم مما يثابون عليه، وبالهند قحاب يعرفون بقحاب البدّ، والسبب فيه أن المرأة إذا نذرت نذرا وولد لها جارية جميلة أتت بها البدّ وهو الصنم الذي يعبدونه، فجعلتها له ثم اتخذت لها في السوق بيتا وعلقت عليه سترا وأقعدتها على كرسي ليجتاز بها أهل الهند وغيرهم من سائر الملل ممن يتجاوز في دينه، فتمكن من نفسها بأجرة معلومة وكلما اجتمع لها شيء من ذلك دفعته إلى سدنة الصنم ليصرف في عمارة الهيكل، والله جل وعز نحمده على ما اختار لنا وطهرنا من ذنوب الكفرة به ٠

فأما الصنم المعروف بالمولتان وهو قريب المنصورة، فإنه يقصد من مسيرة أشهر كثيرة ويحمل الرجل منهم العود الهندي القامروني، وقامرون بلد يكون فيه فاخر العود حتى يأتي به إلى هذا الصنم فيدفعه إلى السدنة لبخور الصنم، ومن هذا العود ما قيمه المن منه مئتا دينار، وربما ختم عليه فانطبع الخاتم فيه للدونته(= المنشدون والمغنون في العابد) فالتجار يبتاعونه من هؤلاء السدنة ٠

وبالهند عباد في شرائعهم يقصدون إلى الجزائر التي تحدث في البحر فيغرسون بها النارجيل ويستنبطون بها المياه للأجر وأن يجتاز بها المراكب فتنال منها ٠ وبعُمان من يقصد إلى هذه الجزائر التي فيها النارجيل ومعهم آلات النجار وغيرها، فيقطعون من خشب النارجيل ما أرادوا فإذا جف قطع ألواحا، ويفتلون من ليف النارجيل ما يخرزون به ذلك الخشب ،ويستعملون منه مركبا ،وينحتون منه أدقالا، وينسجون من خوصه شراعا. ومن ليفه خرابات (=العُرَى) وهي القلوس(=حبال) عندنا، فإذا فرغوا من جميعه شحنت المراكب بالنارجيل، فقصد بها عمان فبيع .وعظمت بركته ومنفعته إذ كان جميع ما يتخذ منه غير محتاج إلى غيره ٠

وبلاد الزنج واسعة، وكل ما ينبت فيها من الذرة وهو أقواتهم، وقصب السكر وسائر الشجر فهو أسود عندهم، ولهم ملوك يغزو بعضهم بعضا، وعند ملوكهم رجال يعرفون بالمخزّمين قد خزمت أنوفهم، ووضع فيها حلق وركب في الحلق سلاسل، فإذا كانت الحرب تقدموا، وقد أخذ بطرف كل سلسلة رجل يجذبها ويصده عن التقدم حتى تسفر السفراء بينهم، فإن وقع الصلح وإلا شدت تلك السلاسل في أعناقهم وتركوا والحرب فلم تقم له قائمة، ولم يزل أحدهم عن مركزه دون أن يقتل، وللعرب في قلوبهم هيبة عظيمة، فإذا عاينوا رجلا منهم سجدوا له، وقالوا: "هذا من مملكة ينبت بها شجر التمر" لجلالة التمر عندهم وفي قلوبهم .

ولهم الخطب وليس في الأمم كخطبائهم بألسنتهم، وفيهم من يتعبد فيستتر بجلد نمر أو جلد قرد ويأخذ بيده عصا ويقبل نحوهم فيجتمع إليه منهم جمع فيقف على رجله يوما إلى الليل يخطب عليهم ويذكرهم بالله جل ذكره ويصف لهم أمور من هلك منهم . ومن عندهم تحمل النمور الزنجية، وفيها حمرة وهجانة ولها كبر وسعة .

وفي البحر جزيرة تعرف بسقوطرا(= في بحر العرب تابعة لليمن) وبها منابت الصبر الإسقوطري، وموقعها قريب من بلاد الزنج وبلاد العرب، وأكثر أهلها نصارى، والسبب في ذلك أن إسكندر لما غلب على ملك فارس، كان يكاتبه معلمه أرسطوطاليس فيعرفه ما وقع عليه من الأرضين، فكتب إليه يؤكد عليه في طلب جزيرة في البحر تعرف بسقوطرا، وإن بها منابت الصبر وهو الدواء الأعظم الذي لا تتم الايارجات(=معجون مسهّل) إلا به، وأن الصواب أن يخرج من كان في هذه الجزيرة، ويقيم فيها من اليونانيين من يحوطها ليحمل منها الصبر إلى الشام والروم ومصر، فبعث إسكندر فأخرج أهلها عنها ،وأنزل جمعا من اليونانيين فيها، وتقدم إلى ملوك الطوائف – إذ كانوا عند قتله دارا الكبير طوع يده – بالاحتفاظ بهم فكانوا في صيانة حتى بعث الله عيسى عليه السلام، فبلغ من بهذه الجزائر من اليونانية أمره فدخلوا في جملة ما دخلت فيه الروم من التنصر وبقاياهم بها إلى هذا الوقت مع سائر من سكنها من غيرهم، ولم يذكر في هذا الكتاب (= يعني الكتاب الأول

الخاص برحلة التاجر سليمان) ما تيامن من البحر عند خروج المراكب من عمان وأرض العرب وتوسطهم للبحر الكبير، وإنما شرح فيه ما تياسر منها إذ كان فيه بحر الهند والصين، وفيه كان مقصد من كتب ذلك الكتاب عنه.

ففي هذا البحر الذي عن يمين الهند الخارج عن عمان بلاد الشحر، وهي منابت اللبان وأرض من أراضي عاد و حمير وجرهم، والتبابعة ولهم ألسنة بالعربية عادية قديمة لا يعرف أكثرها العرب، وليست لهم قرى، وهم في قشف وضيق عيش إلى أن تنتهي أرضهم الى أرض عدن وسواحل اليمن وإلى جدة، ومن جدة إلى الجار إلى ساحل الشام، ثم تفضى إلى القلزم وينقطع البحر هناك، وهو حيث يقول الله جل ذكره، (وجعل بين البحرين حاجزا)، ثم ينعرج البحر من القلزم على أرض البربر ثم يتصل بالجانب الغربي الذي يقابل أرض اليمن حتى يمر بأرض الحبشة التي تجلب جلود النمور البربرية منها، وهي أحسن الجلود وأنقاها، والزيلع وفيها العنبر والذبل وهو ظهور السلاحف .

ومراكب أهل سيراف إذا وصلت في هذا البحر المتيامن عن بحر الهند فصارت إلى جدة أقامت بها ونقل ما فيها من الأمتعة التي تحمل إلى مصر في مراكب القلزم، إذ كان لا يتهيأ لمراكب السيرافيين سلوك ذلك البحر لصعوبته وكثرة جباله النابتة فيه، وأنه لا ملوك في شيء من سواحله ولا عمارة، وأن المركب إذا سلكه احتاج في كل ليلة إلى أن يطلب موضعا يستكن فيه خوفا من جباله، فيسير النهار ويقيم الليل، وهو بحر مظلم كريه الروائح لا خير في بطنه ولا ظهره، وليس كبحر الهند والصين الذي في بطنه اللؤلؤ والعنبر، وفي جباله الجوهر ومعادن الذهب، وفي أفواه دوابه العاج وفي منابته الأبنوس والبقم والخيزران وشجر العود والكافور والجوزبو والقرنفل والصندل وسائر الأفاويه الطيبة الذكية وطيوره الفغاغي يعني الببغاوات، والطواويس وحرشات أرضه الزباد وظباء المسك وما لا يحصيه أحد لكثرة خيره .

فأما العنبر وما يقع منه إلى سواحل هذا البحر، فهو شيء تقذفه الأمواج إليه ومبدأه من بحر الهند، على أنه لا يعرف مخرجه، غير أن أجوده ما وقع إلى بربرا وحدود بلاد الزنج

والشحر وما والاها وهو البيض المدّور الأزرق ۰

ولأهل هذا النواحي نجب يركبونها في ليالي القمر ويسيرون بها على سواحلهم قد ريضت وعرفت طلب العنبر على الساحل، فإذا رآه النجيب برك بصاحبه فأخذه، ومنه ما يوجد فوق البحر ويزن وزنا كثيرا، وربما كان كهيئة الثور ودونه، فإذا رآه الحوت المعروف بالبال ابتلعه، فإذا حصل في جوفه قتله وطفا الحوت فوق الماء، وله قوم يراعونه في قوارب قد عرفوا الأوقات التي يوجد فيها هذه الحيتان المبتلعة العنبر، فإذا عاينوا منها شيئا اجتذبوه إلى الأرض بكلاليب حديد فيها حبال متينة تنشب في ظهر الحوت فيشقون عنه ويخرجون العنبر منه، فما كان يلي بطن الحوت فهو المند الذي فيه سهوكة وسمكته موجودة عند العطارين بمدينة السلام والبصرة وما لم تصل إليه سهوكة الحوت كان نقيا جدا، وهذا الحوت المعروف بالبال ربما عمل من فقار ظهره كراسي يقعد عليها الرجل ويتمكن ۰ وذكروا أن بقرية من سيراف على عشرة فراسخ تعرف بالتاين بيوتاً عادية لطافاً سقوفها من أضلاع هذا الحوت، وسمعت من يقول: إنه وقع في قديم الأيام إلى قرب سيراف منه واحدة، فقصد للنظر إليها فوجد قوما يصعدون إلى ظهرها بسلم لطيف، والصيادون إذا ظفروا بها طرحوها في الشمس وقطعوا لحمها وحفروا له حفرا يجتمع فيها الودك ويغرف من عينها إذا أذابت الشمس الودك(= الدهن) بالحرارة، ويجمع فيباع على أرباب المراكب ويخلط بأخلاط لهم يمسح بها مراكب البحر يسد به خرزها، ويسد أيضا ما ينفتق من خرزها فيباع ودك هذا الحوت بجملة من المال ۰ بدء خلق اللؤلؤ بلطيف تدبير الله تبارك اسمه وهو عزّ وجلّ يقول: (سبحان الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم ومما لا يعلمون) فاللؤلؤ يبتدئ في مثل قدر الأنجدانة(= نبات) وعلى لونها وفي هيئتها وصغرها وخفتها ورقتها وضعفها، فيطير على وجه الماء طيرانا ضعيفا ويسقط على جوانب مراكب الغاصة، ثم يشتد على الأيام ويعظم ويستحجر، فإذا ثقل لزم قعر البحر ويغذو بما الله أعلم به، وليس فيه الا لحمة حمراء كمثل اللسان في أصله ليس لها عظم ولا عصب ولا فيها عرق ۰

وقد اختلفوا في بدء اللؤلؤ، فقال قوم: الصدف إذا وقع المطر ظهر على وجه البحر وفتح

فاه حتى يقطر فيه من المطر فيصير حبا . وقال آخرون: إنه يتولد من الصدفة نفسها، وهو أصح الخبرين لأنه ربما وجد في الصدفة وهو نابت لم ينقلع فيقلع، وهو الذي تسميه تجار البحر اللؤلؤ القلع والله أعلم .

ومن عجائب ما سمعنا من أبواب الرزق: أن إعرابيا ورد البصرة في قديم الأيام ومعه حبة لؤلؤ تساوي جملة مال، فصار بها إلى عطار كان يألفه فأظهرها له وسأله عنها، وهو لا يعرف مقدارها فأخبره أنها لؤلؤة، فقال: وما قيمتها قال مائة درهم فاستكثر الأعرابي ذاك ،وقال: هل أحد يبتاعها مني بما قلت، فدفع له العطار مائة درهم فابتاع بها ميرة لأهله، وأخذ العطار الحبة فقصد بها مدينة السلام فباعها بجملة من المال واتسع العطار في تجارته، فذكر العطار أنه سأل الأعرابي عن سبب اللؤلؤة، فقال: "مررت بالصمان، وهي من أرض البحرين بينها وبين الساحل مديدة قريبة، فرأيت في الرمل ثعلبا ميتا على فيه شيء قد أطبق عليه، فنزلت فوجدت شيئا كمثل الطبق يلمع جوفه بياضا، ووجدت هذه المدحرجة فيه فأخذتها، فعلم أن السبب في ذلك خروج الصدفة إلى الساحل تستنشق الريح، وذلك من عادة للصدف، فمر بها الثعلب فلما عاين اللحمة في جوفها، وهي فاتحة فاها وثب بسرعته فأدخل فاه في الصدف وقبض على اللحمة، فأطبقت الصدفة على فيه، ومن شأنها إذا أطبقت على شيء وأحست بيد تلمسها، لم تفتح فاها بحيلة حتى تشق من آخرها بالحديد، ضنا منها باللؤلؤة وصيانة لها كصيانة المرأة لولدها، فلما أخذت بنفس الثعلب أمعن في العدو يضرب بها الأرض يمينا وشمالا إلى أن أخذت بنفسه فمات وماتت، وظفر رزقا .

وملوك الهند تلبس الأقراط من الجوهر النفيس في آذانها المركب في الذهب، وتضع في أعناقها القلائد النفيسة المشتملة على فاخر الجوهر الأحمر والأخضر واللؤلؤ ما يعظم قيمته ويجل مقداره، وهو اليوم كنوزهم وذخائرهم، وتلبسه قوادهم ووجوههم . والرئيس منهم يركب على عنق رجل منهم، وعليه فوطة(= قطعة قماش) قد استتر بها وفي يده شيء يعرف بالجترة وهي مظلة من ريش الطواويس يأخذها بيده، فيتقى بها الشمس، وأصحابه

محدقون به . ومنهم صنف لا يأكل اثنان منهم في غضارة واحدة ولا على مائدة واحدة يجدون ذلك عيبا فاحشا، فإذا وردوا سيراف فدعاهم وجه من وجوه التجار وكانوا مائة نفس أو دونها أو فوقها احتاج أن يضع بين يدي كل رجل منهم طبقا فيه ما يأكله لا يشاركه فيه سواه .وأما ملوكهم في بلادهم ووجوههم فإنه يتخذ لهم في كل يوم موائد، يسف خوص النارجيل سفا ويعمل منه كهيئة الغضار والصحاف، فإذا أحضر الغذاء أكلوا الطعام في ذلك الخوص المسفوف، فإذا فرغوا من غذائهم رمى بتلك المائدة والغضار المسفوف من الخوص مهما بقي من الطعام إلى الماء واستأنفوا من غدهم مثله .

وكان يحمل إلى الهند في القديم الدنانير السندية فيباع الدينار بثلاثة دنانير، وما زاد، يحمل إليهم الزمرد الذي يرد من مصر مركبا في الخواتيم مصونا في الحقاق ويحمل البسد وهو المرجان وحجر يقال له الدهنج، ثم تركوه . وأكثر ملوكهم يظهرون نساءهم إذا جلسوا لمن دخل إليهم من أهل بلدهم وغيرهم لا يحجبن عن النظر إليهن .

فهذا أجمل ما لحقه الذكر في ذلك الوقت على سعة أخبار البحر، مع التجنب لحكاية شيء مما يكذب فيه البحريون، ولا يقوم في نفس المرء صدقه، والاقتصار من كل خبر على ما صح منه وإن قل أولى.)

على أنّ كتاب بزرك بن شهريار الرام هرمزي(عجائب الهند برّه وبحره وجزايره) المشهور، يكاد يقف بالتفصيل على كل المرويات الخاصة ببلاد الهند . إنه كتاب إخباري من الطراز الأول فيه سيل من المعلومات التي تبدو أحيانا أشبه بالغرائب .وهذا البحّار المحنّك كانت له قدرة كبيرة على وصف بحر الهند وجزائره ، وقد استعان بذخيرة من المرويات التي تعود لشخصيات حقيقية أفنت أعمارها في الطريق البحري بين الخليج العربي والهند والصين. وتنهض مرويات الرام هرمزي دليلا على غزارة الأحداث الخاصة بعالم البحار.

(60)

(عجائب الهند بره وبحره وجزايره)

بزرك بن شهريار الناخذاه الرام هرمزي

(توفي بعد ٣٤٠هجري=بعد ٩٥٦ميلادي)

يورد أخبارا تعود إلى مطلع (القرن ٤الهجري=١٠ الميلادي)

(إن الله تبارك وتعالى اسمه وجل ثناؤه خلق العجائب عشرة أجزاء، فجعل تسعة منها في ركن المشرق وجزءا في ثلاثة أركان الأرض، التي هي المغرب والشمال والجنوب، ثم جعل في الصين والهند ثمانية أجزاء منها وجزءا في باقي المشرق .

فمما في الهند ما حدثنا به أبو محمد الحسن بن عمرو بن حمويه بن حرام بن حمويه النجيرمي بالبصرة قال: كنت بالمنصورة في سنة ثمان وثمانين ومائتين وحدثني بعض مشايخها ممن يوثق به أن ملك الراء وهو أكبر ملوك بلاد الهند والناحية التي هو بها بين قشمير الأعلى وقشمير الأسفل وكان يسمى مهروك بن رائق كتب في سنة سبعين ومائتين إلى صاحب المنصورة وهو عبد الله بن عمر بن عبد العزيز يسأله أن يفسر له شريعة الإسلام بالهندية فأحضر عبد الله هذا رجلا كان بالمنصورة أصله من العراق حاد القريحة حسن الفهم شاعرا قد نشأ ببلاد الهند وعرف لغاتهم على اختلافها ، فعرفه ما سأله ملك الراء، فعمل قصيدة ،وذكر فيها ما يحتاج إليه وأنفذها إليه ،فلما قرئت على ملك الراء استحسنها،وكتب إلى عبد الله يسأله حمل صاحب القصيدة فحمله إليه، وأقام عنده ثلاث سنين ،ثم انصرف عنه .فسأله عبد الله عن أمر ملك الراء، فشرح له أخباره ،وأنه تركه وقد أسلم قلبه ولسانه ،وأنه لم يمكنه إظهار الإسلام خوفا من بطلان أمره وذهاب ملكه.

وكان فيما حكاه عنه أنه سأله أن يفسر له القرآن بالهندية ففسره له، قال فانتهيت من التفسير إلى سورة يس. قال ففسرت له قول الله عز وجل: (قال من يحيي العظام وهي

رميم قل يحييها الذي أنشأها أول مرة وهو بكل خلق عليم)، قال فلما فسرت له هذا وهو جالس على سرير من ذهب مرصع بالجوهر والدر لا تعرف له قيمة قال لي : " أعد عليّ" فأعدت فنزل عن سريره ،ومشى على الأرض وكانت قد رشت بالماء وهي ندية فوضع خده على الأرض وبكى حتى تلوث وجهه بالطين،ثم قال لي : " هذا هو الرب المعبود والأول القديم الذي ليس يشبهه أحد" وبنى بيتا لنفسه، وأظهر أنه يخلو فيه لمهمة، وكان يصلي فيه سرا من غير أن يطلع على ذلك أحد وأنه وهب له في ثلاث دفعات ستمائة منّ من ذهب .

وحدثني أن لأهل قشمير الأعلى يوم عيد في كل سنة يجتمعون فيه ويصعد خطيبهم على منبر ومعه جرة من طين غير مطبوخ فيخطب ثم يقول :قوا أنفسكم وأموالكم واحفظوها، ويعظهم ثم يقول انظروا إلى هذه الجرة من طين وقيت وحفظت فبقيت وأن لتلك الجرة على ما يقولون أربعة آلاف سنة.

وحدثني أبو عبد الله محمد بن بابشاد بن حرام بن حمويه السيرافي، وكان أوجه النواخذة(= الربّان) الذين سافروا إلى بلاد الذهب وأعرف خلف الله بأمر البحر، ومن جلة البحريين ومستوريهم أن بأغباب(= أودية) سرنديب بلادا يقال لها إبرير، بلد عظيم فيه نيف وثلاثون سوقا كل سوق منها طوله نصف ميل وبه الثياب الغُبِّيَّة المرتفعة الحسنة ،وهو بلد راكب على نهر كبير يصب في بحر الأغباب ،ولأهل هذه البلدة نحو من ستمائة بد(=معبد) جليلة سوى الصغار، وهو نحو أربعمائة بريد، وبظاهر البلد جبل يجري تحته عين ماء، وإلى جانب الجبل شجرة من نحاس وصفر عظيمة فيها شوك مثل السفافيد أو المسال وبإزائها صنم عظيم في صورة زنجي عيناه من زبرجد ولهم يوم عيد في كل سنة عند ذلك الصنم فيخرجون إليه ويصعدون فوق الجبل، فمن أحب التقريب إلى ربه شرب وغنى وسجد للصنم مرارا ورمى بنفسه من فوق الجبل على تلك الشجرة فيتقطع منه قطعا، ومنهم من يرمي بنفسه على دماغه فوق حجر عظيم يجري عليه ماء العين تحت الصنم الأسود فيُطحن فوق الحجر إلى نار الله .

وحدثني أن بقنوج من بلدان الهند من تأخذ الفوفلة (=ثمار صلبة كجوز الهند)بين شفريها فتكسرها قطعا من شدة ما تضغطها .

وحدثني أنه سمع في حداثته أن مردويه بن زرايخت وكان أحد ربانية الصين وبلاد الذهب ذكر أنه كان مجتازا بناحية جزيرة الزابج وأنه سلك في بعض الأيام بين قرنين ظاهرين في البحر قدر أنهما جبلان في الماء وأنه لما جاوزهما غاصا في البحر فقدر أنهما ظفري سرطان .فقلت لأبي محمد أحكي عنك هذه الحكاية .فقال لي :قد سمعت بها وهو شيء عظيم ما أدري ما أقول فيه إلا أن السرطان يعظم في البحر جدا .

وحدثني إسماعيل بن إبراهيم بن مرداس الناخذاه وكان من بقية نواخذة بلاد الذهب وهو المعروف بإسمعيلويه ختن أشكنين أنه في بعض سفراته إلى بلاد الذهب كان قرب من البر بقرب لامري لعيب لحق المركب احتاج معه إلى أن يمسك المركب فإنه رمى بالأنجر(= المرساة) فلم يقف به المركب ومضى على حاله فلم يعرف السبب في ذلك.فقال للغايص تنزل مع حبل الأنجر وتعرف خبره، وأن الغايص لما أراد النزول نظر وإذا الأنجر بين ظفري سرطان ،وهو يجر المركب ويلعب بالأنجر، فإنهم صاحوا وطرحوا في الماء الحجارة ورفعوا الأنجر ثم طرحوه في موضع آخر، وأن وزن الأنجر ستمائة منّ أو أكثر .

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو أن بعض النواخذة حدثه أنه جهز مركبا له إلى الزابج فوقعوا إلى قرية من قرى جزائر الواقواق؛ لأن الريح طرحتهم إليها فلما رأوهم أهل القرية هربوا في الصحاري بما أمكنهم أن يهربوا به من أموالهم، وأن أهل المركب أيضا تهيبوا النزول لأنهم لم يعرفوا البلد ولا عرفوا سبب هرب القوم منهم، ومكثوا في مركبهم يومين لا يجيئهم أحد ولا يخاطبهم على وجه ولا سبب، وأوجدوا رجلا من أهل المركب يعرف لغة الواقواقين ومضى مغررا، وخرج من القرية إلى الصحاري فوجد رجلا قد صعد شجرة وأخفى نفسه فيها وكلمه ورفق به فأطعمه قطعة تمر كانت معه، وسأله عن سبب هرب أهل القرية وآمنه على نفسه ووعده بشيء يهبه له إن صدقه، فقال :إن أهل القرية لما بصروا بالمركب قدروا أنهم يريدون أن يغيروا عليهم وهربوا مع ملكهم في الصحاري والغياض.قال فجاء

بالرجل إلى المركب وأنفذوه مع ثلاثة نفر من أهل المركب إلى ملك القوم برسالة جميلة وأمنوه على نفسه وأهل بلده وحمّلوه إليه ثوبين وشيئا من التمر والسقط هدية، وطابت نفسه وعاد مع سائر أهل البلد وأقاموا معهم وتسوقوا بما في المركب من الأمتعة، ولم يمض عشرون يوما حتى وافى أهل قرية أخرى مع ملكهم لمحاربة هذا الملك فقال لهم الملك اعلموا أن هؤلاء القوم قد جاؤوا لمحاربتي وأخذ مالي لأنهم قدروا أنه قد صار إلي من هذا المركب جملة، فعاونوني عليهم وادفعوا عن أنفسكم وعني. قال: وصبحنا القوم على باب القرية وخرج إليهم هذا الملك وسائر أهل القرية مع بانانية (=صغار الملاحين)المركب ومقاتلته ومن نشط للحرب من تجاره وأهله، وكان في جملة أهل المركب رجل أصله من العراق خبيث فلما اشتد الحرب بين القوم أخرج الرجل من حجرته ورقة كبيرة فيها حساب له ونشرها ورفعها بيده إلى السماء وتكلم بكلام يرفع به صوته، فلما رآه القوم تركوا الحرب وجاءت طائفة منهم إليه، وقالوا: لا تفعل هذا ونحن ننصرف عنكم ولا نأخذ شيئا، وجعل بعضهم يقول لبعض لا تحاربوا فإن القوم قد رفعوا أمرهم إلى ملك السماء والساعة يغلبونا ويقتلونا. ولم يزالوا يضرعون إلى الرجل حتى ردّ الرقعة إلى حجرته وانصرفوا بعد أن أثخنوا القول كأني والقوم يملكون القرية وما فيها .

قال هذا الناخذة ولما كفينا أمرهم رجعنا إلى بيعنا وشرائنا وتسوقنا على الرسم واستخدمنا ملك القوم، ولم نزل نحتال على أهل القرية ونسرق أولادهم ونشتري بعضهم من بعض بالفوطة والتمر والشيء اليسير حتى صار معنا في المركب نحو مائة رأس من الرقيق كبارا وصغارا، فلما مضت علينا أربعة أشهر وقرب وقت الرجوع قال لنا القوم الذي اشتريناهم وسرقناهم :لا تحملونا ،واتركونا في بلدنا فإنه لا يحلّ لكم أن تستعبدونا وتفرقوا بيننا وبين أهلنا، فلم نلتفت إليهم وكانوا في المركب منهم مقيد ومنهم مشدود وصغارهم مطلقون، وفي المركب البانانية خمسة أنفس يرون أمر المركب ويقومون بإطعامهم، وبقية أهل المركب في القرية، فعمدوا إلى البانانية في بعض الليالي فشدوهم بالحبال ورفعوا الأنجر والشروع وسرقوا المركب في جوف الليل، وأصبحنا فلم نجد المركب فبقينا وقد طلع بنا ليس

منا شيء ولا لنا حيلة إلا الشيء الطفيف الحقير الذي في القرية مما يخلف في الأيام، ولم يجئنا أحد بخبر للمركب ،فأقمنا ضرورة شهورا إلى أن بنينا قاربا لطيفا يحملنا وخرجنا على أقبح صورة فقرا .

وحدثني أحمد بن علي بن منير الناخذاه السيرافي وكان أيضا من بقية النواخذة الذين سافروا البحار ومضى لهم الاسم والصيت في البحر أن بعض شيوخ الهند حدثه بسرنديب أن مركبا كسر له فسلم نفر من أهله في القارب ووقعوا إلى جزيرة بقرب الهند فبقوا بها مدة إلى أن مات أكثرهم وبقي منهم سبعة وكانوا مدة مقامهم قد رأوا طيرا عظيما يقع في الجزيرة ويرعى فإذا كان وقت العصر طار فلم يدروا إلى أين يمضي، فأجمع رأيهم على أن يتعلق واحد منهم برجليه ليحمله لما ضاقت صدورهم وعلموا أنه لا بد من الموت، وتعلقت نفوسهم بأمر الطائر وإن كان يطرحهم بقرب بلد فهو الذي يتمنونه وإن قتلهم فهو الذي يتوقعونه. فطرح واحد منهم بنفسه بين الشجر وجاء الطائر على الرسم فرعي، فلما جاء وقت انصرافه تلطف الرجل في الدنو منه وتعلق أخذا برجليه وشد نفسه مع ساقيه بقشور الشجر فطار به في الهواء وهو متعلق بفخذيه وقد جعل رجليه مشتبكة برجليه فعبر بحرا وطرحه وقت غروب الشمس على جبل فحل نفسه وسقط كالميت مما تعب وكلّ ومرّ به وما عاين من الأهوال، فمكث لا يتحرك إلى أن طلعت الشمس من غد فقام ينظر فإذا راعي غنم فسأله بالهندية عن الموضع فذكر قرية من قرى الهند وسقاه لبنا فتحامل حتى دخل القرية . ولم يزل الطائر ينقل القوم من تلك الجزيرة على تلك الصورة حتى اجتمعوا بأسرهم في تلك القرية وتسببوا إلى النفوذ إلى بعض بلاد الهند التي يوجد فيها المراكب وركبوا في مركب وأنهم حدثوا بأمر كسر مركبهم والجزيرة التي وقعوا إليها ومقدار مسافة ما حملهم الطائر إلى تلك القرية فوجدوه زيادة على مائتي فرسخ .

وحدثني أبو الحسن محمد بن أحمد بن عمر السيرافي أنه رأى بعُمان في سنة ثلاثمائة سمكة وقعت ببعض سواحل عمان وجزرَ الماء عنها فصيدت فسُحبت إلى البلد فركب أحمد بن هلال الأمير والعسكر معه وحضر الناس للنظر إليها، وكان الفارس يدخل من

فكها ويخرج من الجانب الآخر وهو راكب لعِظمَها، فإنها ذُرعت فكان طولها زيادة على مائتي ذراع وارتفاعها نحو خمسين ذرعا، وأنه بيع من دهن عينيها على ما قيل ببضعة عشر آلاف درهم . وحدثني إسمعيلويه الناخذاه أن هذا السمك كثير ببحر الزنج وبلجّة سمرقند ويقال له الوال(= جنس من الحيتان) وهو بكسر المراكب مولع فإذا تعرض للمركب ضربوا الخشب بعضه ببعض وصاحوا وضربوا الطبول، وأنه ربما نفخ الماء فيرتفع مثل المنار ويبين من بُعد مثل شرع المراكب، وأنه ربما لعب بذنبه وأجنحته فيُرى من بعد أيضا مثل شرع القوارب .

وحدثني عن بعض المراقبين ممن يضبط أنه رأى باليمن عند بعض إخوانه رأس سمكة قد ذهب لحمه وبقي عظمه صحيحا، فدخل الرجل من إحدى حدقتيها وخرج من الجانب الآخر وهو قائم من غير أن ينحني وكان حمل في سنة عشر وثلاثمائة من عُمان إلى المقتدر من ذلك السمك، وأن فك سمكة رُفع من الروشن ولم يدخل من الأبواب، وحدثني أن هذه السمكة التي حمل فكها إلى بغداد نزف من عينها خمسمائة جرة أو زيادة عليها دهنا .

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو أنه سمع بعض البحريين يحكي أنه خرج في مركب من عدن إلى جدة وأن سمكة نطحت بحذاء زيلع المركب نطحة منكرة لم يشكك أهل المركب أنها قد كسرته، وانحدر الربانية إلى الجمّة(=قاع المركب) فلم يجدوا الماء قد زاد على رسمه فعجبوا من ذلك إذا كانت هذه النطحة العظيمة لم تؤثر فلما وصلوا إلى جدة نجلوا المركب وأنزلوه وتركوه إلى البر فوجدوا رأس السمكة في جوف المركب قد سُجن وسد الموضع حتى ليس فيه خلل، وإذا هي نطحت المركب ولم يمكنها الخلاص فانقطعت من حلقها وبقي رأسها في موضعه، وذكر أنه لم يزل يرى السمك الكبار والصغار يُصاد فيشق جوفه فيوجد فيه سمك فيشق جوفه فيوجد فيه سمك وهذا يتفق أن تأكل السمكة سمكة قد أكلت سمكا.

ومن طريف ما حدثني به محمد بن بابشاد بن حران أنه كان بسيراف وقد خرج منها

مركب إلى البصرة ووقع فيها خبّ بعد خروجه بأيام فانقطعت المراكب وتعلقت القلوب بأخبار البحر وتأخر المراكب، وكان في ذلك المركب خلق من الركاب وغيرهم وأمتعة لها قدر، وأن امرأة اشترت سمكا وكانت تنظفه فوجدت في واحدة منهم خاتما فنظرت إليه فإذا هو خاتم أخيها وكان ممن ركب في ذلك المركب فارتفع الصراخ وشاع الخبر فصارت منازل جميع من كان له في المركب قريب أو حميم أو صديق مأتما، ثم جاء الخبر بعد أيام أن المركب انكسر ولم يسلم منها أحد .

وحدثني بعض الربانية أن سمكة سارت مع مركبه بنواحي اليمن يوما وليلتين وبعض أيام لم تفارقه ولم تتقدم عنه ولم تتأخر عنه قدر مسيرهم معها زيادة على مائة وسبعين فرسخا وأنها كانت بطول المركب سواء وكان طول مركبه خمسين ذراعا بذراع العمل من مشعر الإبط إلى طرف الإصبع الوسطى، فسألته عن السبب في ملازمة دواب البحر الجزيرة مع المراكب ومحاذاتها، فقال ذلك يختلف فمنها ما يحاذي المراكب ليسقط منها شيء فتلتقمه أو تكون قد وقعت قبل ذلك بمركب قد عطب فنالت منه فصارت إذا رأت مركبا حاذته طمعا أن يحدث منه ما حدث من غيره وظنا منها أن المراكب كلهم يكونون كما وجدت في الأول فصارت كأنها ضارية على ذلك، ومنها ما يرى المركب فيتعجب من شكله ويظنه حيوانا بعضه في الماء وبعضه في الهواء فيمرح معه ويجاريه عشقا له وتأنسا به مدة مدى قوته واستفراغ نشاطه إلى أن يعيا فيفارق، ولا صبر للحيوان على مضاهاة الحمار، ومنها ما يجاري المركب على سبيل المغايرة (= المنافسة)والمعاندة والمقاواة، فإذا أعيي وقصر ورأى المركب تتقدمه رجع إليه فحمل عليه حملة واحدة فإن سلم وإلا فنسأل الله العفو، ومنها ما إذا رأت المركب لا يحول بينها شيء لشدة ضراوتها وجسارتها ودربتها على المراكب فتحمل عليه حملات حتى تقلبه فتلتقط ما فيه لعادة واستمرار، نسأل الله العافية، ومنها ما إذا رأى المركب يفر منه وهرب وذعر خوفا على نفسه واستيحاشا منه، وأخلاقها تختلف باختلاف مواضعها المسلوكة المعهودة بعبور السفار والصيادين وقرب السواحل المعمورة والبحار المنقطعة المهجورة والبعد من السواحل المعمورة وعمق البحار وعدم البر والجزائر والسواحل،

وهو عالم آخر تبارك الله أحسن الخالقين .

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذاه وكان من عظماء أهل سيراف وكان مجوسيا على دين الهند وكان عندهم أمينا يقبلون قوله ويستودعونه أموالهم وأولادهم فأسلم وحسن إسلامه وحج بمخاطبته امرأة من جزيرة النساء، وذلك أنه سافر رجل في مركب له عظيم ومعه فيه خلق من أخلاط التجار من كل بلد وهم يسيرون في بحر ملانو ،وقد قربوا من أطراف أرض صين ،وأبصروا بعض جبالها فلم يشعروا إلا وريح قد خرجت عليهم من الجهة التي يقصدونها فلم يسعهم إلا الانصراف معها حيث توجهت وركبهم من هول البحر ما لا طاقة لهم له، ومرت بهم الريح إلى سمت سهيل(=النجم الجنوبي)، ومن اضطر في ذلك إلى أن يصير سهيل على قمة رأسه فقد دخل بحرا لا رجعة له منه وتنكس في لجة هابطة إلى الجنوب مصوبة إلى تلك الجهة، فكلما مرت المركب علا ما وراءها من جهتنا وهبط ما بين يديها من تلك الجهة فلا يستطيع الرجوع بريح عاصف ولا غيره وهوت في لجج البحار المحيطة، فلما رأوا أمرهم يؤدي إلى الدخول تحت سهيل ودخل عليهم الليل وأظلم وادلهم وحال بخار البحر ودجنته ونداه وزخره بينهم وبين النجوة فلم يروا بما يهتدون به وهو البحر وأمواج ترفعهم إلى السحاب وتخفضهم إلى التراب وهم يجرون في قار وضباب طول ليلهم، وأصبح عليهم فلم يشعروا به لشدة ظلمة ما هم فيه واتصال قار البحر مع ضباب الجو وغلظ الريح وكدورته، فلما طال عليهم الليل وهم يجرون في قبضة الهلكة قد حكم عليهم الريح العاصفة والبحار الزاخرة والأمواج الهائلة ومركبهم ينط ويئن ويتقصع ويتتعتع(= يرتج)، توادعوا وصلى كل منهم إلى جهة على قدر معبوده لأنهم كانوا شيعا من أهل الصين والهند والعجم والجزائر، واستسلموا للموت، وجروا كذلك يومين وليلتين لا يفرقون فيهن بين الليل والنهار، فلما كانت الليلة الثالثة وانتصف الليل رأوا بين أيديهم نارا عظيمة قد أضاء أفقها فخافوا خوفا شديدا وفزعوا إلى ربانهم.وقالوا له يا ربان ما ترى هذه النار الهائلة التي ملأت الآفاق ونحن نجري إلى سمتها وقد أحاطت بالأفق والغرق أحب إلينا من الحريق، فبحق معبودك إلا قلبت بنا المركب في هذه اللجة والظلمة لا يرى أحد منا الآخر

ولا يدري ما كانت ميتته ولا يتجزع لوعة صاحبه وأنت في حل وبل مما يجري عليها فقد متنا في هذه الأيام والليالي ألف ألف ميتة، فميتة واحدة أروح، فقال لهم اعلموا أنه قد يجري على المسافرين والتجار أهوال هذا أسهلها وأرحمها ونحن معشر الربانية علينا العهود والمواثيق أن لا نعرض سفينة إلى العطب وهي باقية لم يجر عليها قدر، ونحن معشر ربانية السفن لا نطلعها إلا وآجالنا وأعمارنا معنا فيها، فنعيش بسلامتها ونموت بعطبها، فأصبروا واستسلموا لملك الريح والبحر الذي يصرفهم كيف يشاء .. قال فلما أيسوا من الربان ضجوا بالبكاء والعويل وندم كل منهم شجوة(= نوبة بكاء)، وصار الربان إذا أمر مناديه أن ينادي رجاله بجذب حبل أو إرخائه يُصلح شأن المركب فلا تسمع الرجال ذلك من دوي البحر وحسن تلاطم الأمواج وهدير الرياح في القلوع والشموع والحبال وضجيج الخلائق، فأشرف المركب على التلاف بعطلة الرجال وعدة المركب من غير حادث عليهم من بحر أو ريح .

قال وكان في المركب شيخ مسلم من أهل قادس من الأندلس قد طلع إلى المركب في ازدحام الناس عند طلوعهم ليلة السفر ولم يشعر به ربان المركب وكان في زاوية من المركب مهجورة وهو مختف فيها خوفا أن يعلم به فيؤبث(= يغضب عليه) ويوبخ، فلما رأى القوم وما نزلَ بالناس وما هم عليه من الأخطار بأنفسهم ومركبهم وأنهم قد صاروا عونا مع أهوال البحار على نفسهم مسرعين لهلاكهم، رأى أن يخرج إليهم فيكون من حاله معهم ما كان، فخرج إليهم وقال لهم :ما شأنكم انفتح المركب ؟قالوا: لا .قال: فانكسر السكان. قالوا :لا .قال: فركبكم البحر؟ قالوا :لا.قال" فما شأنكم؟ قالوا له: كأنك ليس معنا في المركب، ما تنظر هول هذا البحر وأمواجه، وظلمة الهواء الذي لم تر معه نهارا ولا شمسا ولا قمرا ولا نجوما نهتدي بها وقد دخلنا تحت سهيل وحكمت البحار والرياح علينا، وأشد ما عاينا هذه النار التي نحن نجري إليها وقد ملأت الأفق، والغرق أهون علينا من الحريق، وقد سألنا الربان أن يقلب المركب بنا في البحر والظلمة لا يرى واحد منا إلى صاحبه ونموت غرقا ولا نموت حرقا يرى بعضنا بعضا ونسمع ما تفعل النار فيه؟. فقال: أوصلوني إلى الربان، فأطلعوه إليه

فسلم عليه بالهندية ،فرد عليه ويعجب منه لإنظاره له. وقال :من أنت ؟من التجار أم من أتباعهم، فلا نعرفك في رجال المركب؟ قال له: ما أنا من التجار ولا من أتباعهم، قال :فمن أطلعك؟ وما بضاعتك؟ قال له: أما من أطلعني فإني طلعت في جمهور الناس ليلة الإسراء، وأويت إلى مكان في المركب، قال: من أين تأكل؟ ومن أين تشرب؟ قال :كان بنيان المركب يضع كل يوم قريبا مني صحفة أرز بسمن لملائكة المركب ومنشل المركب ماد، فكنت أتقوت بذلك وأما بضاعتي فقربة عجوة. قال :فتعجب الربان منها واشتغل الناس بسماع حديثه عمّا كان إليه من الضجيج، وأصلح الرجال أدوات المركب ومشى فيهم مناد بتدبير الإقلاع، واهتدى المركب. فقال الشيخ :يا ربان ما لهؤلاء القوم كانوا يبكون ويعولون؟ قال له: أما ترى ما نزل بهم من هول البحار والرياح والظلمة وأشد من ذلك ما نحن مدفوعون إليه من هذه النار التي ملأت الأفق؟ والله لقد ركبت هذا البحر وأنا دون البلوغ ومع أبي ،وكان قد أذهب عمره في ركوبه، وها أنا اليوم قد رميت ثمانين سنة ورائي فما سمعت بمن سلك هذا المكان ولا خبر عنه. فقال يا: ربان لا بأس عليك ولا خوف نجوتم بقدرة الله، هذه جزيرة يحيط بها ويكتنفها جبال يكسر عليها الأمواج بالبحار المحيطة بالأرض فتنظر بالليل نار هائلة مرجفة يخافها الجاهل فإذا طلعت الشمس ذهب ذلك المرأى وعاد ماء، وهذه النار ترى من بلد الأندلس، وقد عبرت عليها مرة وهذه الثانية .

قال: فتباشر الناس وسكنوا إلى قول الشيخ وتناولوا طعامهم وشرابهم، وذهب عنهم ما كانوا فيه من الغم والخوف وتناقص الريح، وصار البحر رهوا ،والريح رخوا، وقدموا على الجزيرة مع شروق الشمس ،وأصبحت السماء، وأشرفوا على الجزيرة، وتخيروا مرسى كنينا، ووردوا الجزيرة بجملتهم، ويطرحون أرواحهم على الرمال، ويتمرغون على الأرض شوقا إليها. ولم يبق منهم في المركب أحد، فبينما هم كذلك إذ ورد عليهم نسوان من داخل الجزيرة لا يحصى عددهم إلا الله تعالى، فوقع على كل رجل منهم ألف امرأة أو أكثر، فلم يلبثوا أن حملوهم إلى الجبال وكلفوهم الاستمتاع بهن، قال: فلم يزالوا على ذلك وكل من قويت على صاحباتها أخذت الرجل منهن، والرجال يتماوتون من الاستفراغ أولا فأولا،

وكل من مات منهم يتواقعن عليه ٠٠ لنتن رائحته فلم يبق منهم سوى الشيخ الأندلسي فإنه جاءته واحدة فكانت تزوره في الليل فإذا أصبح أكنّته في موضع قريب من البحر وجاءت له بشيء تقوته به، فلم يزل بذلك إلى أن انقلب الريح من تلك الجزيرة إلى الجهة التي خرج المركب منها من الهند، فأخذ الشيخ قارب المركب الذي يسمى الفلوك، ورفع فيه في الليل ماء وزادا، فلما فطنت به المرأة أخذت بيده وجاءت به إلى موضع فنبشت في التراب بيديها عن معدن تبر فنقلت هي وهو منه ما صبر به القارب وأخذها معه وأسرى عن عشرة أيام، وهو بالبلد التي خرج المركب منها فأخبرهم الخبر، وأقامت المرأة معه إلى أن تفصحت وأسلمت ورزق منها الأولاد ،وسألها عن تلك النسوان التي في الجزيرة وانفرادهم دون الرجال، فقالت له نحن أهل بلاد واسعة ومدن عظيمة محيطة بهذه الجزيرة ومسافة ما بين كل بلد من جميع بلادنا وبين هذه الجزيرة ثلاثة أيام بلياليها وكل من في أقاليمنا ومدننا من الملوك والرعايا يعبدون هذه النار التي تظهر لهم في الليل في هذه الجزيرة يسمونها بيت الشمس لأن الشمس تشرق من طرفها الشرقي وتغرب في جانبها الغربي فيظنون أنها تبيت في هذه الجزيرة فإذا أصبح وشرقت الشمس من جانبها الشرقي خفيت نارها وماتت وارتفعت الشمس، فيقولون: هي هي ،وإذا غربت في جانبها الغربي ،وأمسى ظهرت النار فيقولون :هي هي فيعبدونها ويقصدونها بصلواتهم وسجودهم من سائر الجهات.

ثم إن الله سبحانه وتعالى جعل المرأة في بلدنا تلد أول بطن ذكرا وثاني بطن أنثيين، وكذلك باقي عمرها فما أقل الرجال في بلادنا وأكثر النسوان، فلما كثروا وأرادوا يغلبون على الرجال صنعوا لهم المراكب وحملوا منهم آلافا وطرحوهم في هذه الجزيرة ،ويقولون للشمس ياربهم أنت أحق بما خلقت وليس لنا بهم طاقة فيبقوا فيها ويتماوتون فيها بعضهم على بعض، وما سمعنا ولا مر بنا أحد من الناس غيركم ولا يطرق بلادنا أحد على مر الأزمنة، وإن بردنا في البحر الأعظم تحت سهيل لا يقدر أحد أن يجيء إلينا فيرجع، ولا يجسر أحد يفارق الساحل والبر خوفا من أن تشربه البحار، وذلك تقدير العزيز العليم تبارك الله أحسن الخالقين .

وحدثني أبو الزهر البرختي الناخذاه عن خال له يسمى ابن انشرتوا قال: حدثني خالي عن أبيه وهو جد البرختي لأمه قال: أسريت في مركب لي كبير ونحن طالبون جزيرة فَنصور فأسقطنا الريح إلى جون(=خليج) أقمنا فيه ثلاثة وثلاثين يوما في ركود لا ريح فيه ونحن متخلييون (= بلا حركة)على وجه البحر ولا تلحق شباكنا قرار البحر على عمق ألف باع والتيار يصبى بالمركب ونحن لا ندري، إلى أن أدخلنا التيار بين جزائر، فأسندنا المركب إلى واحدة منهن على ساحلها نسوة يعمن ويسبحن ويلعبن فأنفعنا بهن وأسندنا إليهن فلما قربنا منهن تهاربن في الجزيرة. وجاءنا رجال ونساء عقال عارفون فلم ندر لغتهم ،فأشرنا إليهم وأشاروا إلينا ففهمنا عنهم وفهموا عنا، فأشرنا إليهم أعندكم طعام تبيعونا؟ قالوا :نعم، فجاؤونا بالأرز الكثير والدجاج والغنم والعسل والسمن والأدم وأشياء كثيرة من المأكولات والفواكه، فاشترينا منهم بالحديد والنحاس والكحل والخرز والسقط والثياب وأشرنا أعندكم بضائع نشتريها منكم ؟ فقالوا :ما عندنا إلا الرقيق، فقلنا لهم مبارك: احضروا الرقيق، فأتونا بالرقيق ما رأينا أحسن منه ضحوك السن يغنون ويلعبون ويتهارشون ويتداعبون بأبدان عبلة وأجسام كأنها الزبد نعومة، ويكادون يطيرون خفة ونشاطا غير أن رؤوسهم صغار وتحت كشح كل منهم جناحان كجناحي السلحفاة لا تغادر، فقلنا لهم :ما هذا؟ فتضاحكوا وقالوا: أهل هذه الجزائر كلهم كذلك ،وما عليكم من ذلك، وأشاروا إلى السماء أي الله تعالى خلقنا كذلك، فأغضينا عن ذلك وقلنا هذه فرصة، ورأيناها غنيمة فاشترى كل منا بجهد ما عنده من الأمتعة ومعظمه، وفرغنا المركب من البضائع وشحناه رقيقا وزادا، وكلما اشترينا شيئا جاؤونا بما هو أنظف منه وأحسن، فشحنا المركب بخلق ما رأى الراؤون أحسن منه ولا أجمل، فلو أتم لنا لاستغنينا إلى عقب العقب، قال :فلما حان السفر، وعصفت لنا الرياح من صوب الجزاير إلى نحو بلادنا وشيعونا، وقالوا لنا :تعودوا لنا إن شاء الله، وطمعنا وطمع رباننا في العودة بمركبه وحده بغير تجار فكان ليله كله هو ورجاله يوقفهم على النجوم ويثبتهم على منازل الكواكب وجهات الآفاق وطريق الإقلاع في المجيء والعودة، وفرحنا غاية الفرح والسرور وسرينا من الجزيرة بريح عاصف من أول النهار،

فلما غابت الجزيرة بكى بعض الرقيق الذي معنا فضاقت صدورنا على بكائهم، ثم قال بعضهم لبعض، وقالوا: تبكون لأي شيء قوموا بنا نرقص ونغني؟ فقام الرقيق جميعه يرقصون ويغنون ويتضاحكون، فأعجبنا ذلك منهم وقلنا هذا أصلح من البكاء، واشتغلنا كل واحد منا بشأنه فما لهؤلاء إلا أن أصابوا منا غفلة وتطايروا والله في البحر تطاير الجراد والمركب يجري في موج كالجبال كالبرق الخاطف، فما أشرفنا عليهم حتى تعدتهم المركب بنحو فرسخ ونحن نسمعهم يغنون ويصفقون ويتضاحكون فعلمنا أنهم ما فعلوا بنفوسهم ذلك إلا باقتدار لهم على هول ذلك البحر، ولم يمكنا الرجوع إليهم وآيسنا منهم فلم يبق منهم إلا واحدة عند أبي في بلنج(= قمرة المركب)، فلما مضوا هؤلائك نزل إلى محلها فوجدها تريد أن تثقب وتطرح نفسها في البحر، فضبطها وقيدها .وسرنا إلى أن دخلنا بلاد الهند فبعنا الأزواد التي كانت معنا وتقاسمنا أثمانها فصح لكل أحد عُشر رأس ماله.

فلما سمع الناس بأخبارنا جاءنا رجل من أهل الجزاير بعينها قد أُخذ صغيرا وبقي في الهند إلى أن هرم، فقال لنا: أنتم وقعتم إلى جزائر تسمى جزائر الحوت، وهي بلدي ونحن قوم نزل رجالنا على إناث حيوان البحر واضطجعت نسواننا لذكران الحيوان بالبحر فتنتج بينهم خلق مشتبهون بين هؤلاء وهؤلائك، فيجتمع المشتبهة مشتبهة المشتبهة، وذلك في قديم الدهور فجئنا صابرين على طول المقام في البحار وعلى طول المقام في البر للسر المشترك فينا، وأما المرأة التي بقيت مع أبي فاستولدها ستة أولاد أنا سادسهم ،وأقامت عنده ثمانية عشر سنة مقيدة .وكان هذا الشيخ الجزايري الذي أخبرنا عن السر الذي فيهم قد قال لوالدي :لا تتخلّ عنها فتطرح نفسها في البحر وتمضي فلا تراها أبدا فإنا نحن لا صبر لنا عن الماء، ففعل بها كذلك، ولما كبرنا نحن وتوفي والدنا وكنا نلومه في تقييدها بغير علم، فلما مات ما كان لنا بعده عمل إلا أن أطلقناها من القيد رحمة لها وإبرارا وحنوا عليها، فخرجت كأنها الفرس السابق وانطلقنا خلفها فلم ندركها. فقال لها بعض من قرب إليها: تمضين وتخلين أولادك وبناتك؟ فقالت "انشرتوا" معناه ما أعمل لهم؟ وطرحت نفسها في البحر وغاصت كأقوى حوت يكون، سبحان الخالق البارىء المصور، تبارك الله أحسن الخالقين .

قال أبو محمد الحسن بن عمرو: وشاهدت من أضلاع السمك ضلعا حمله إلينا بعض أرباب المراكب فقطع منه قطعة من جانبه غليظة نحو خمسة أذرع فطرحناه على نهر على باب بستان لنا بالجزيرة فقام مقام القنطرة وكان طول ما بقي منه نحو عشرين ذراعا ٠ وفي البحر سمك تحارب السمك ولا يثبتون له وله خراطيم تعمل كالمناشير إلا أنه من الجانبين مثل أسنان المنشار فإذا ضرب السمك قطعه فإذا مات هذا السمك أو صيد أخذ تلك الناحية هذه الخراطيم التي كالمناشير يستعملونها في الحرب بينهم فتعمل عملا عظيما أحدّ من السيوف ٠

وحدثني بعض أهل المراكب العارفين عن شيخ من شيوخ الربانية أنه كان خارجا من سيراف وكان معه في الكنبار رجل في مطيال(= ضرب من القوارب) فخاصم في بعض الأيام رجلا من أهل المركب وافترى عليه وأفرط وأمسك الرجل عنه لأنه كان غريبا لم ينصره أحد ولم يعاونه وكان المفتري قد ركب معهم بوسيلة شفاعة وعناية قوية، قال فما مضى بعد الخصومة ثلاث ساعات حتى طفرت من البحر كنعدة (= نوع من الأسماك) فبقرت برأسها بطن الرجل الجالس في المطيال وتخلصت من الجانب الآخر، فسقطت في البحر وكفنوا الرجل ورموا به إلى الماء ٠

وكنت أسمع بأمر السلاحف فأستظرفه وأنكره لما يحكى مما لا يقبله العقل، فحدثني أبو محمد الحسن بن عمر أنه سمع بعض شيوخ المراكب يحدّث أن مركبا خرج من بلاد الهند إلى بعض النواحي فذهب من يد صاحبه بقوة الشرتا(= الريح) وغاب المركب فقدموا إلى جزيرة صغيرة لم يجدوا فيها ماء ولا شجرا ودفعتهم الضرورة إلى المقام فيها ففرغوا حمولة المركب إلى الجزيرة وأقاموا مدة حتى أصلحوا العيب وردوا الحمل إلى المركب وعزموا على الخطوف فاتفق لهم يوم نوروز فجمعوا من خشبيات معهم وخوص وقماش وأوقدوه فتحركت الجزيرة من تحتهم وكانوا بقرب الماء فرموا أنفسهم إلى الماء وتعلقوا بالقارب والدونيج (=زورق)وغاصت الجزيرة فلحقهم من اضطراب البحر بحركتها ما أشرفوا على الغرق وسلموا بعد تعب شديد وهول عظيم وإذا بها سلحفاة نائمة على وجه الماء ولما

أحست بحر النار ولدغها هربت، وسألت عن السبب في ذلك فقال : إن السلحفاة لها أيام في كل عام تطفو فيها على وجه الماء على سبيل الاستراحة من طول مقامها في كهوف الجبال، وفي البحر غابات وشعارى(= شجر بحري) وأشجار هائلة أهول وأعظم من شجرنا فوق الأرض فتخرج على وجه الماء تمكث أياما تسدر كالسكران فإذا رجعت إليها نفسها وسئمت ما هي فيه غاصت، وربما اجتمع الذكر بالأنثى فيكون بينهما السفاد وهم طائفان على وجه الماء .

وحدثني أبو محمد الحسن بن عمرو عمن حدثه من شيوخ البحر أنه دخل الأغباب وجالس بعض ملوك الأغباب فقدم إليهم طعاما يأكلونه وكان فيما قدم غضارة فيها ألوان مطبوخة برؤوس وأيدي وأرجل تشبه رؤوس الصبيان وأيديهم وأرجلهم، قال فعفت نفسي ذلك الطعام ورجعت عن أكل طعامه بعد أن كنت قد انبسطت، ففطن لذلك فأمسك، فلما كان من الغد حضرت عنده فكلم أصحابه بشيء فوافوا بسمك يحملونه لولا أني رأيته يضطرب اضطراب السمك وعليه صدفة ما شككت في أنه ابن آدم، فقال لي الملك : الذي كرهت بالأمس أن تأكله هو هذا، هو أطيب من سمكنا وأعذب وأخف وأقل ضرا، قال فكنت آكله بعد ذلك .

وحدثني بعض من دخل زيلع وبلاد الحبشة أن في بحر الحبشة سمكا له وجه كوجه بني آدم وأجسامهم لها الأيدي والأرجل وأن الصيادين المتغربين الفقراء المتطرفين في أطراف السواحل المهجورة والجزائر والشعاب والجبال التي لا تسلك المعالجين فيها طول أعمارهم إذا وجدوا ذلك السمك المشابه لبني آدم اجتمعوا به فيتوالد بينهم نسل شبيها لبني آدم يعيش في الماء والهواء وربما كان الأصل في هذا السمك من بني آدم اجتمعوا بجنس من أجناس السمك ويتوالد بينهم هذا السمك الشبيه لبني آدم ثم كذلك على مر الدهور والأزمنة كما يجتمع الآدمي ببعض الوحش مثل الضبع والنمرة وغيره من الحيوان البري فيتوالد فيهم القردة والنسانيس وغير ذلك مما يشبه ابن آدم، وكما تجتمع الخنازير والجواميس وكان بينهما الفيلة، وكما يجتمع الكلاب والمعز وكان بينهما الخنازير، وكما يجتمع الحمير والخيل

وكان بينهما البغال، ولو ذهبنا نعد ما تنتج من الاجتماع للأجناس لعددنا من ذلك ما يبهت القارىء ويخرج عما قصدنا إليه من عجائب الهند خاصة .

ويقال إن سمكا يقال له الظلوم على صورة الآدمي وله فرج كفرج الناس الذكر والأنثى يصاد وله جلد أثخن من جلد الفيل يدبغ ويستعمل للأخفاف، ويقال إن كل طائر في الهواء وعلى وجه الأرض في البحر من السمك مثله أو ما يشبهه .

ولقد رأيت في جون إيلة(= العقبة) من البلاد الشامية سمكا صغيرا لونه يشبه لون الشقراق لا يغادر يطير من الماء ويغوص فيه . ومن عجيب أمر بحر فارس ما يراه الناس فيه بالليل، فإن الأمواج إذا اضطربت وتكسرت بعضها على بعض انقدح منه النار فيخيل إلى راكب البحر أنه يسير في بحر نار .وحدثني أن في البحر حيات يقال لها "التنين" عظيمة هائلة إذا مرت السحاب في كبد الشتاء على وجه الماء خرج هذا التنين من الماء ودخل فيه لما يجد في البحر من حرارة الماء، لأن ماء البحر في الشتاء يسخن كالمرجل فيسجن هذا التنين ببرودة السحاب فيها وتهب الرياح على وجه الماء فترفع السحاب عن الماء ويستقل التنين في السحاب وتتراكم وتسير من أفق إلى أفق، فإذا استفرغت مما فيها من الماء خفت وصارت كالهباء وتفرقت وقطعتها الرياح فلا يجد التنين ما يتحامل عليه فيسقط إما في البحر وإما في البر، فإذا أراد الله تعالى بقوم شرا أسقطه في أرضها فيبتلع جمالهم وخيلهم وأبقارهم ومواشيهم ويهلكهم ويبقى حتى لا يجد شيئا يأكله فيموت أو يهلكه الله .

ولقد حدثني أهل البحر والسفارة تجار وربانية أنهم أبصروه غير دفعة في السحاب يعبر على رؤوسهم أسود ممدوداً في السحاب كلما تراخى هبط إلى أسفلها ورسب وربما تدلى طرف ذنبه في الهواء، فإذا أحس ببرد الهواء زح نفسه(= تنحّى) وتحامل في السحاب وغاب عن الأبصار، فتبارك الله أحسن الخالقين .

وحدثني أبو الزهر البرختي عن حيات بلاد الهند فقال: حدثني رجل طبيب هندي من أهل سرنديب قال لي :هذه الحيات في أرض الهند ثلاثة آلاف ومائة وعشرين جنسا أخبثها جنس في أرض تاكا، إذا هبت الريح من جهتهم قتلت من تمر به من جميع الحيوان الطائر

والداب والمنساب عن ثلاثة فراسخ، ولذلك أن أرض تاكا لا يعمرها الأقوام للرياح أياما معلومة إن هبت الريح أقاموا أيامها فإن جاءت هبوب الرياح من جهة أرض تلك الحيات تبادروا وركبوا الدونج ودخلوا إلى جزائر البحر، فإذا انقضت أيام تلك الرياح تنادوا وعادوا وحرثوا وزرعوا واستخرجوا المعادن، وذلك أن أرض تاكا هي معادن الذهب والفضة ، وفي كل عام يأتيهم من داخل البرية الشرقية سيول تحمل إليهم طيبا ، سوى بني آدم فرمته الرياح إلى بعض المراسي من بلاد البجم، فصعد هو وأصحابه إلى غيضة من تلك الجزائر فيها أخشاب قد مضت عليها الدهور مطروحة قد وقع بعضها على بعض فطاف في الغيضة يطلب دقلا(= سارية) لمركبه فوقع اختياره على دقل أملس حسن في نهاية الاستقامة والغلظة، والخشب فوقه مشوش كما قد وقع في طول الأيام فقدره فوجده زائدا على حاجته فأحضر المنشار ليقطع منه خمسين ذراعا بمقدار حاجته، فلما وضع المنشار عليه وابتدأ ينشر تحرك وانساب، وإذا هو حية فتبادروا إلى الماء فألقوا نفوسهم فيه ولحقوا المركب وسلموا منه ،

وحدثني محمد بن بابشاد عن علاّمة أنه سافر من الهند إلى الصين، فبينما هو يسير في بعض البحر فحان وقت الصلاة الأولى فهبط إلى المتوضأ ليجدد الوضوء إلى الصلاة فنظر إلى البحر فلم يلبث أن قام وعاد ولم يتوضأ وكان كالمذعور وقال :يا رجال سوء إرخوا الشراع، ففعلوا .فقال :اطرحوا كل ما على ظهر المركب في البحر، ثم نزل إلى قريب من الماء ثم طلع مذعورا، وقال: يا تجار أي شيء عندكم أحب لكم أموالكم التي منها ألف عوض أو نفوسكم التي لا عوض لها؟ فقالوا: وأي شيء جرى علينا حتى تقول لنا هذا القول؟ ريحنا رخو وبحرنا رهو ونحن سالمون في كنف رب العالمين، فقال لهم: ليشهد بعضكم على بعض، وليشهد لي رجال المركب على هؤلاء التجار إني قد نصحت لهم قبل الكون فلم يقبلوا وأنا أستودعكم الله تعالى، وقال لصاحب القارب: قدمه لي، فنزل فيه وأنزل معه فيه ماء ورجالا وزادا، فلما عزم على مفارقتهم قالو له :ارجع ونحن نفعل ما تأمرنا به، فقال: والله ما أرجع حتى تطرحوا كل ما معكم في البحر عن طيب أنفسكم بأيديكم، قال: فرموا ما بأيديهم ما عزّ عليهم وهان ،ولم يبق في المركب سوى بني آدم وزادهم ومائهم فقط، قال

فرجع وطلع المركب ،وقال لهم: لو عملتم ما يجري لكم وللمركب في جوف هذه الليلة فتطهروا وصلوا وأخلصوا توبة إلى ربكم واسألوه العفو، قال: ففعلوا فلما كان الليل فتح الله سبحانه أبواب السماء بريح سوداء ملأت ما بين السماء والأرض ورفعت أمواج البحر إلى السحاب وحملتها إلى التراب وطمرت من السفن في البلاد والسواحل وفي وسط البحر وقل من سلم منها، ومركب القوم قد ألهمهم الله أن خففوا وطرحوا ما عليها من ثقل وغيره، وكان كلما جاش البحر عليه خف وعلا على الأمواج وطفا على البحر وهم يقرأون ويدعون ويبتهلون ولا يأكلون ولا يشربون ثلاثة أيام بلياليها، فلما كان اليوم الرابع أمر الله عز وجل الرياح فسكنت والبحار فهدأت، وأذهب الله ذلك كما عرف من عوائد قدرته سبحانه، فطرحوا قارب المركب من جوفه وجعل فيه الربان المجاديف وقدمه بين يدي المركب يجرونه يوما وليلة فأشرفوا على جزيرة قد طرح إليها البحر كل ما أفسده ذلك الخب من المراكب والأزياء والبضائع والمتاجر من آفاق البلاد، فأرسوا بمركبهم فيها ووجدوا عدة مراكبهم فيها بعينها، فرفعوها وردوها إلى مواضعها من مركبهم واختاروا على أعينهم ما أحبوا من البضائع السالمة وواروا من وجدوه من الغرقاء واستقوا، فلما استوى لهم الإقلاع وهبت بموافقتهم الرياح أشرعوا نحو ديارهم وساروا معافين ووصلوا سالمين ،فوجدوا فيما معهم من البضائع للدرهم عشرة ،وربحوا الغنى والعافية والحمد لله رب العالمين .

وأخبرني شيخ من شيوخ البحر أن قرية كبيرة من أعمال الصنف انتقل أهلها من أجل حية كانت بالقرب منهم أكلت مواشيهم وجمعا من أهلها، وأن الحيل أعيتهم فيها فانتقلوا أهلها عنها وخربت القرية ولم يعد إليها أحد .

وأخبرني أبو محمد الحسن بن عمر عن بعض النواخذة أنه كان يسير في مركب فاشتدت عليه الريح وأخذه الخب فلجأ إلى خور لاح له فدخله فأقام به يومه وليلته، فلما كان من غد اجتازت لهم في البر حيّة هائلة المنظر عظيمة لا تقاس بشيء لكبرها، ثم نزلت إلى الخور فعبرت الجانب الآخر كأنها البرق لسرعتها ثم صعدت إلى الناحية الأخرى، فلما كان بعد العصر عادت فعبرت الخور على رفق فلم تزل على هذا خمسة أيام تجيء في كل يوم غدوة

فتعبر وتعود بعد العصر، فلما كان اليوم السادس قال الناخذاة للبنانية: انزلوا إلى البر وانظروا إلى أين تمضي هذه الحية، فنزلوا بعد انصرافها في اليوم السادس إلى البر ومشوا في تلك الأرض نحو ميل فإذا هم بأجمة وغيضة ومستنقع ماء مملوء بأنياب الفيلة كبارا وصغارا، فجاءوا بالخبر إلى الربان ،فنزل معهم في غد ووقف عليه وعادوا إلى المركب ولم يزالوا في نقل الأنياب بعد انصراف الحية وإلى وقت مجيئها حتى حملوا شيئا كثيرا يعظم مقداره ورموا من المركب بمقدار ما حملوا مما لا يسأل عنه ولا قيمة له، وخرجوا من الخور بعد أن أقاموا فيه نحوا من عشرين يوما، وإذا بتلك الحية كانت تأكل تلك الفيلة وتبقي أنيابهم.

وسألت إسمعيلويه الناخذاة عن هذا الحديث في سنة تسع وثلاثين وثلاثمائة وقد كنت سمعت به فحدثني به، وقال: بلغني وهو صحيح. وفي البحر ألوان الحيات إلا أن فعلها في الماء ضعيف وأشد الحيات ما كان في الجبال والفيافي والأرض المعطشة والبعد عن المياه. وفي جبال عُمان حيات تقتل لوقتها. وفيما بين صحار وهي قصبة عُمان وبين جبال اليحمد موضع لا يسلكه أحد فيه واد يسمى وادي الحيات قيل إن فيه حيات مقدارها شبر ودون ذلك، تجمع الواحدة رأسها مع ذنبها وترتفع إلى الفارس فإن نهشت قتلت للوقت وإن ضخت أعمت وقتلت فإذا سلك المسافر تلك الطريق تقافزت عليه من كل جهة فلا تخطيه، وذلك طول الطريق، فتُرك سلوكُها والسلام .

وحدثني بعض المنصوريين ممن سلك إلى ماركين وهي مدينة بينها وبين ساحل بلاد الأومئون فرسخ وبها لهوا ملك الهند أن ببعض جبالها حيات صغار رقطا وغبراء إذا نظرت الحية إلى إنسان قبل أن ينظر إليها ماتت وإذا نظرها الإنسان قبل أن تنظره مات وإذا نظرا بعضهما إلى بعض ماتا، وهي أخبث الحيات .

وحدثني محمد بن بابشاد أن بناحية الواقواق عقارب تطير كالعصافير إذا ضربت الإنسان ورم جسمه واعتل وانقشر جلده ومات .

وحدثني إسمعيلويه وجماعة من البحريين أنه خرج من عُمان في مركب يريد قَنْبَلُه في سنة عشر وثلاثمائة فعصفت الريح وطرحت المركب إلى سفالة الزنج، قال الناخذاة فلما

عاينت الموضع علمت أنا قد وقعنا إلى بلاد الزنج الذين يأكلون الناس فإذا وقفنا في هذا الموقع أيقنا بالهلكة، فتغسلنا وتبنا إلى الله تعالى وصلينا على بعضنا بعضا صلاة الموت، وأحاطت بنا الدوانيج، فأدخلوا بنا المرساة فدخلنا وطرحنا الأناجر ونزلنا مع القوم إلى الأرض فحملونا إلى ملكهم، فرأينا غلاما جميل الوجه من بني الزنج، حسن الخلق، فسألنا عن أخبارنا، فعرفناه أنا قد قصدنا بلده، فقال :كذبتم أنتم قصدتم قنبلة غيرنا، فحملتكم الريح وطرحتكم في أرضنا، فقلنا :هكذا كان وإنما أردنا بقولنا التقرب إليك، فقال :حطوا الأمتعة وتسوقوا فلا بأس عليكم. قال: فحللنا الأمتعة وتسوقنا أطيب تسويق ولم تلزمنا ضريبة ولا مؤنة إلا ما أهديناه إليه ،وأهدى إلينا مثله وأكثر منه، وأقمنا في بلاده شهورا، فلما حان وقت خروجنا استأذناه فأذن لنا ،فحملنا الأمتعة وفرغنا أمورنا .

فلما عزمنا على رواح عرّفناه ذلك فقام ومشى معنا إلى الساحل مع جماعة من أصحابه وغلمانه ونزل في الدوانيج وسار معنا إلى المراكب فصعد هو وسبعة أنفس من وجوه غلمانه، فلما حصلوا في المركب قلت في نفسي :هذا الملك يساوي في عُمان في النداء ثلاثين دينارا، ويساوي السبعة مائة وستين دينارا، وعليهم ثياب تساوي عشرين دينارا، قد حصل لنا على الأقل منهم ثلاثة آلاف درهم ولا يضرنا من هذا الشيء، فصحت بالبنانية فشالوا الشرع ورفعوا الأناجر، وهو مع ذلك يسلم علينا ويؤانسنا ويسألنا الرجوع إليه ويعدنا بالإحسان متى عدنا إلى بلده، فلما رفعت الشروع ورآنا قد سرنا تغير وجهه، فقال: أنتم تسيرون استودعكم الله، وقام لينزل إلى دوانيجه ،فقطعنا حبال الدوانيج، وقلنا له: تقيم معنا فنحملك إلى بلدنا، ونجازيك على إحسانك إلينا ونكافئك ما فعلت بنا وصنعت، فقال :يا قوم لمّا وقعتم إلي قدّرت، ثم إن أهلي أرادوا أن يأكلوكم ويأخذوا أموالكم كما قد فعلوا بغيركم فأحسنت إليكم وما أخذت منكم شيئا وجئت معكم لأودعكم في مركبكم إكراما مني لكم فاقضوا حقي بأن تردوني إلى بلدي، قال: فلم نفكر في كلامه ولم نعبأ به، واشتد الريح فما مضت ساعة حتى غابت بلدته عن عيوننا وظللنا الليل ودخلنا اللج، وأصبحنا والملك وأصحابه في جملة الرقيق وهم نحو مئتي رأس ،وعاملناه بما نعامل به سائر

الرقيق. قال: وأمسك فما أعاد علينا كلمة ولا خاطبنا بشيء، تغافل عنا كأنه ما عرفنا ولا عرفناه، ووصلنا إلى عمان فبعناه، مع سائر أصحابه في جملة الرقيق .

فلما كان في سنة عشر وثلاثمائة خرجنا من عمان نريد قنبلة فحملتنا الريح إلى سفالة الزنج ولم نكذب أن وردنا ذلك الولد بعينه، ونظرونا فخرجوا وأحاطوا بنا الدوانيج، وإذا الذي نعرفه في تلك الكرة، فأيقنا على الهلكة حقيقيا، ولم يكلم أحد منا صاحبه من شدة الرعب، فاغتسلنا وصلينا صلاة الموت وتواعدنا، فوافونا وأخذونا فساقونا إلى دار الملك وأدخلونا وإذا بذلك الملك بعينه جالس على سرير كأنّا فارقناه الساعة، فلما رأيناه سجدنا وذهب قوانا ولم يكن بنا حركة للقيام، فقال لنا: أنتم أصحابي لا شك، فلم يستطع أحد منا أن يتكلم، وارتعدت فرائصنا، فقال لنا :ارفعوا رؤوسكم فقد أمنتكم على أنفسكم وأموالكم، فمنا من رفع ومنا لم يستطع أن يرفع ضعفا وحياء، قال: فلطف بنا حتى رفعنا رؤوسنا جميعا ولم ننظر إليه حياء وخوفا وخجلا، فلما رجعت إلينا نفوسنا بأمانة قال لنا :يا غدارين فعلت لكم وصنعت لكم فكافأتموني بما فعلتم وصنعتم، فقلنا له أقلنا أيها الملك واعف عنا، فقال :قد عفوت عنكم فتسوقوا كما كنتم تسوقتم في تلك الكرّة فلا اعتراض عليكم، فلم نصدق من السرور فظننا أن ذلك على طريق المكر حتى تحصل الأمتعة في الساحل، فحملنا الأمتعة إلى البر وحملنا إليه هدية بمال له مقدار، فرده علينا، فقال: ليس مقداركم عندي أن أقبل لكم هدية ولا أحرم مالي بما آخذ منك فإن أموالكم كلها حرام، فتسوقنا وحان وقت خروجنا فاستأذنا في الحمل فأذن لنا، فلما عزمنا على الرحيل قلت له أيها الملك قد عزمنا على الرحيل، فقال امضوا في حفظ الله تعالى، فقلت له أيها الملك قد عاملتنا بما لا قدرة لنا عليه، غدرناك وظلمناك فكيف خلصت ورجعت إلى بلدك؟ فقال لما بعتموني بعمان فحملني الذي اشتراني إلى بلده يقال له البصرة من صفتها كذا كذا، فتعلمت بها الصلاة والصيام وشيئا من القرآن، ثم باعني مولاي لآخر حملني إلى بلد ملك العرب الذي يقال له بغداد، ووصف لنا بغداد، فتفصحت بتلك البلد وتعلمت القرآن وصليت مع الناس في الجوامع ورأيت الخليفة الذي يقال له المقتدر، وبقيت ببغداد سنة

وبعض أمري حتى وافى قوم من خراسان على الجمال، فنظرت إلى خلق كثير فسألت عنهم في أي شيء جاؤوا؟ فقالوا يخرجون إلى مكة، فقلت ومكة هذه ما هي؟ فقالوا فيها بيت الله الحرام الذي يحج إليه الناس، وحدثوني حديث البيت، فقلت في نفسي سبيلي أن أتبع هؤلاء القوم إلى هذا البيت، فعرّفتُ مولاي ما سمعت فرأيت ليس يريد أن يخرج ولا يدعني أخرج، فتغافلت عنه حتى خرج الناس فلما خرجوا تبعتهم وصحبت رفقة كنت أخدمهم طول الطريق وآكل معهم ووهبوا لي ثوبين فأحرمت فيهما، وعلموني المناسك، فسهل الله تعالى إلي الحج، وخفت أن أرجع إلى بغداد فيأخذني سيدي فيقتلني، فخرجت مع قافلة أخرى إلى مصر فكنت أخدم الناس في الطريق فحملوني وأشركوني في زادهم إلى مصر، فلما دخلت مصر ورأيت البحر الحلو الذي يسمونه النيل فقلت من أين يجيء ،فقالوا :أصله من بلاد الزنج فقلت :من أي ناحية ،فقالوا :من ناحية مصر تسمى أسوان في تخوم أرض السودان، فلزمت ساحل النيل أدخل بلدا وأخرج من أخرى وأطلب من الناس فيطعموني، وكان ذلك دأبي، فوقعت عند قوم من السودان فأنكروني فقيدوني وذهبوا يكلفوني من بين الخدم ما لا أطيق فهربت، ووقعت عند قوم آخرين فأخذوني وباعوني وهربت، فلم أزل كذلك من خروجي من مصر حتى وصلت إلى البلد الفلاني من أطراف بلاد الزنج فتنكرت وأخفيت نفسي .

ولم أخف على نفسي من حين خروجي من مصر مع ما جرى عليّ من الأهوال كخوفي لما قربت من بلادي، وقلت إن بلدي قد جلس فيها بعدي ملك استولى على الملك وطاعته الجند ونزع الملك منه صعب عسر، فإن أنا ظهرت أو علم بي أحد حملت إليه فيقتلني أن يجسر بعض المتنصحين عليّ فيأخذ رأسي فيتنصح إليه به، فداخلني من الرعب ما ضقت به ذرعا، فكنت أسعى الليل وأمشي نحو بلدي وأختفي في النهار إلى أن جئت في البحر فركبت مركبا وأنا متنكر إلى بلد كذا، ثم ركبت في البحر إلى بلد كذا، فرماني المركب في الليل إلى ساحل بلدي فاستخبرت من امرأة عجوز هل ملكهم هذا الذي جلس عادل؟ فقالت والله يا ولدي ما لنا ملك إلا الله تعالى، وقصت علي قصة الملك، وأنا أتعجب كأني

لا أعلم بذلك ولا كأني إياه، ثم قالت اتفق أهل المملكة أن لا يُمَلِّكوا بعده عليهم أحدا حتى يعلموا ما كان من أمره وييأسوا من حياته فقد بلغتهم الأخبار من الكهنة أنه بأرض العرب حي سالم ·

فلما أصبحْتُ مضيتُ إلى بلدي هذه فدخلتها، وأتيت قصري هذا فدخلته، ووجدت أهلي على ما تركتهم غير أنهم مقيمون على بساط الحزن وأهل دولتي، فأعدت عليهم قصتي فتعجبوا وفرحوا ودخلوا معي فيما دخلت فيه من دين الإسلام، فعدت إلى ملكي قبل مجيئكم بشهر، وأنا اليوم فرح مسرور لما من الله علي به وعلى أهل دولتي من الإسلام والإيمان ومعرفة الصلاة والصيام والحج والحلال والحرام، وبلغت ما لم يبلغه أحد في بلاد الزنج، وعفوت عنكم لأنكم السبب في صلاح ديني، ولكن بقي علي شيء أسأل الله الخروج من إثمه، قال: فقلت ما هو أيها الملك؟ قال: مولاي الذي خرجت من بغداد إلى الحج من غير إذنه ورضاه ولم أعد إليه، ولو لقيت ثقة كنت أبعث له ثمني واستحللته، ولو كان فيكم خير ولكم أمانة لدفعت إليكم ثمني تردوه عليه ووهبت له عشرة أضعافه بدلا من صبره علي، ولكنكم أهل غدر وحيل. قال فودعناه. فقال امضوا فإن رجعتم فبهذه المعاملة أعاملكم وأزيد في الإحسان إليكم فعرّفوا المسلمين أن يأتونا فإنّا نحن قد صرنا إخوانا لهم مسلمون مثلهم، وأما تشييعكم إلى المركب فما لي إليه سبيل، فودعناه، وسرنا ·

وقيل إن ببلاد الزنج القافة الكهنة قافة حذاق فهماء · وحدثني إسمعيلويه عن بعض النواخذة أنه قال له دخلت بلاد الزنج في سنة اثنين وثلاثين وثلاثمائة، فقال لي بعض القافة كم أنتم مركبا؟ فقلت ستة عشر مركبا، فقال يسلم منها إلى عمان خمسة عشر مركبا وتنكسر واحدة ويسلم منها ثلاث أنفس وتمضي عليهم شدة عظيمة ويتخلصون.

قال فخرجنا كلنا في يوم واحد وكنت آخر من خرج منه، فأغذذت السير لألحق من خرج منهم أولا، فلما كان في اليوم الثالث رأيت من بعد مثل الجزيرة السوداء، فلرغبتي في سرعة السير لم أنقص الشراع لأعدل عنها لأن السير في ذلك البحر شديد جدا، فما كذبت

أن وصلت إليها فضربتني، وإذا هي دابة من دواب البحر، فلما لمست المركب ضربته بذنبها فانكسر فسلمت أنا وابني والكارين(= كاتب المركب) في الدونيج، وقمنا إلى بعض جزائر الديبجات فأقمنا بها ستة أشهر إلى أن أمكننا الخروج فوصلنا إلى عمان بعد شدائد عظيمة مرت بنا وسلمت الخمسة عشر مركبا بأسرها بإذن الله .

وحدثني الحسن بن عمرو وغيره عن جماعة المشايخ بالهند من أمر طيور الهند والزابج وقمار والصنف وغيرها من نواحي الهند بأمر عظيم . وأكبر ما رأيت من ريش الطيور قطعة من ريش طاير أسفل ريشة أرانيها أبو العباس السيرافي، طولها نحو ذراعين قدرنا أنها تسع قربة ماء. وحدثني إسمعيلويه الناخوذة أنه رأى أسفل ريشة ببعض بلاد الهند عند رجل من كبار تجارهم كانت إلى جانب داره يصب فيها كالدن العظيم فتعجبت من ذلك فقال لي لا تعجب من هذا. حدثني بعض نواخذتة الزنج أنه رأى عند ملك سِرَه أصل ريشة يسع خمسة وعشرين قربة ماء .

وحدثني أبو الحسن علي بن شادان السيرافي قال: إن بعض أهل شيراز حدثه أن بالقرب من شيراز قرية خربها الطائر، قال فقلت له كيف خربها؟ فقال حدثنا أن طائرا سقط في بعض الأيام على سطح دار في القرية فخف السطح وسقط إلى أسفل الدار، فصاح من في الدار وهربوا منه، فاجتمع أهل القرية فدخلوا فوجدوا الطير قد ملأ الدار فلم يتمكنوا من أخذه فأثخنوه بالضرب وكان ثقيلا في الأصل فلا يمكن النهوض، ثم ذبحوه وقطعوه في الدار واقتسموا لحمه، وأخذ كل من كان في القرية من الرجال نحو سبعين رطلا إلى نحو ذلك، وعزلوا من لحمه مائة رطل لوكيل القرية وهو نازل في تلك الدار التي وقع فيها الطائر وكان قد خرج عنها قبل ذلك بيوم مع ثلاثة نفر من أهلها ومضوا في حاجة لصاحب القرية، وطبخ أهل القرية اللحم في بقية يومهم وأكلوه مع عيالهم وصبيانهم، فأصبح جميعهم مرضى، ووفى الوكيل فعرف الصورة فتوقى هو ومن كان معه أكل اللحم، فلما مضت أربعة أيام أو خمسة ماتوا حتى لم يبق منهم أحد ممن أكل لحم الطائر إلا مات وفرغت القرية وخرج الوكيل عنها وخربت فلم يعد إليها، فوقع لنا أن هذا الطائر من طيور الهند أكل

حيوانا من ذوات السموم فاشتعل السم في جسمه فحمل نفسه في الجو وسار في ليل فوقع إلى هذه القرية وقد ثخن ولم يبق فيه نهوض فسقط .

وحدثني غير واحد من الربانية أنه سمع أن بسفالة الزنج من الطيور ما يأخذ الوحش بمنقاره أو بمخاليبه ويحمله إلى الهواء ثم يرمي به ليموت وينكسر ثم ينزل عليه فيأكله، ولقد سمعت أن في بلاد الزنج طائرا ينقض على السلحفاة الكبيرة فيخطفها ويرفعها إلى الجو ويرمي بها إلى الأرض على جبل أو صخرة فتنكسر فيسقط عليها فيأكلها، قال: فيأكل منها إذا وجد في النهار الخمسة والستة، وأن هذا الطائر إذا رأى الإنسان هرب منه وفر من صورته لبشاعة خلق الناس في تلك الأرض .

وحدثني إسمعيلويه الناخوذة أن بأعلى بلاد الزنج معادن الذهب وهي خوارة، وأكثر المعادن خوارة، وأن الرجال يحفرون فيها لطلب الذهب فربما نقبوا على أرض ممخرقة مثل أرض النمل فيخرج عليهم نمل مثل السنانير كثير فيأكلونهم ويقطعونهم قطعا .وقد كان أحمد بن هلال أمير عمان حمل في سنة ست وثلاثمائة في جملة هدية حملها إلى المقتدر نملة سوداء في قفص من حديد مشدودة بسلسلة في قدر السنور وماتت هذه النملة في الطريق بناحية ذي جبلة فجُعلت في الصبر، وحُملت إلى مدينة السلام صحيحة، ورآها المقتدر وأهل بغداد، وذكروا أنهم كانوا يطعمونها كل يوم منّين شرائح غدوة وعشاء .

وحدثني محمد بن بابشاد عمن حدثه ممن دخل الواقواق أن هناك شجرا كبارا له ورق مدور ومنه ما هو إلى الطول يحمل حملا على مثال القرع إلا أنه أكبر منه وصورته صورة الناس تحركه الرياح فيخرج منه صوت وأن داخله منفوخ مثل حمل العشر، فإذا قطع عن الشجر خرج الريح من ساعته وصار مثل الجلد، وأن بعض البانانية رأى الحمل فتعشق صورة من الصور فقطعها ليحملها معه فلما قطعها خرج الريح منها فبقيت كالغراب الميت .

وذاكرت محمد بابشاد في حديث القردة وما يحكى عنها، فحدثني بصفات كثيرة من أحاديثهم، فمما حدثني به أن بنواحي صنفين وبوادي قاقلتا قردة في نهاية الكبر وأن لكل فرقة منها أمير خلقته أعظم من خلق باقيها وأنهم ربما خرجوا من الغياض إلى الطرق

والمسالك فتضرب السفارة فتمنعهم السبيل دون أن يعطوهم شيئا من الحيوان مثل الغنم والبقر وغير ذلك من المأكولات.

وذكر محمد بن بابشاد أنه حدثه غير واحد أنه اجتاز على قطعة منهم مع جماعة معه فمنعوهم من المشي فحاربوهم فمزقوا ثيابهم وتواثبوا عليهم من كل مكان وقطعوا قربهم وهم في مفازات بعيدة عن الماء، فأعطوهم شيئا فتركوهم ولا ماء لهم، فمات أكثر القوم عطشا ولم يصل منهم إلى الماء الثاني إلا القليل. وحدثني أن رجلا من بانانية مركب كان له حدثه أنه خرج في سنة تسع وثلاثمائة في مركب لبعض النواخذة إلى قاقلتا فإنهم وصلوا بالسلامة ونجلوا أمتعتهم إلى البر وحملوا بعض الأمتعة إلى بلد بينه وبين البحر مسيرة سبعة أيام ونحوها، فلما حملوا تلك الأمتعة إلى ذلك البلد رفعوا المزكب في خور صغير على ثلاثة فراسخ من قاقلتا أو أربعة وسدوا بينه وبين البحر وجللوه وأقاموا الخشب حوله وسندوه.

قال هذا البانانى وتركوا معي من الزاد حاجتي ومضوا بأسرهم إلى تلك المدينة فقاموا في بيعهم وشرائهم، فلما بعدوا عني جاءني عدة من القردة فطافوا حول المركب وراموا الصعود إليّ فرميتهم بالحجارة، ولاحقت المركب قردة لها خلق وجثة فطردتها فلم تبرح فسارقتني من بعض جوانب المركب، فصعدت إليّ فلما حصلت معي في المركب وكنت أكل فطرحت لها كسرة من خبز فأكلته وقامت عندي ساعة ثم نزلت فغابت عن عيني إلى العشي ثم وافت وفي فمها قنو(= عنقود) صغير فيه نحو من عشرين موزة، فصاحت فطلعت إليها فصعدت إلى المركب فوضعت الموز بين يدي فأكلت وأقامت عندي بعد ذلك فكانت تغيب وتجيء بالموز والفاكهة التي في تلك الغوطة، وصارت تبيت معي في المركب وإلى جانبي، فتاقت نفسي إليها فوطئتها، فما مضت ثلاثة أشهر في مقامي في الموضع حتى ثقلت وجعلت تمشي متحاملة وأومت إلى بطنها فعلمت أنها قد حملت مني، فورد عليّ من ذلك أمر عظيم وخفت الفضيحة متى جاء القوم وشاهدوا الأمر فحملني الحياء إلى أن أخذت دونيج المركب وحملت لها دقلا وشراعا وأنجرا وجعلت فيه قرب ماء وزادا وأخذت ثيابي وما

كان معي وحملته فيه وتعمدت وقتا تغيب فيه القردة فنزلت إلى الدونيج ودخلت البحر على غرر عظيم وخطر شديد وتركت المركب ليس معه أحد، فسرت نيفا وعشرين راما (الرام= خمسة فراسخ)ووقفت إلى جزيرة من جزاير أندمان بعد أن كدت إلى أن أتلف لعظيم ما مر بي من الشدة، فأقمت في تلك الجزيرة أياما حتى استرحت وأخذت من ماء عذب كان فيها ملوء قربة ومن ثمار فيها وموز وأصلحت أمري، ولم أكن رأيت بالجزيرة أحدا إلا الصيادين في قوارب ينزلون بين الشجر، فسرت في البحر لا أدري أين آخذ ولا أهتدي نحو سبعين راما، فوقفت في جزيرة يقال لها بِدْفاركَلَه فأقمت بها إلى أن خرجت منها إلى كله، فخرجت منها فلقيت بعد ذلك بزمان صاحب ذلك المركب وقوم راكبون فيه، فقلت ما شأنكم؟ فقالوا إنهم وردوا الموضع فوجدوا في المركب قردة قد وضعت قردا أو قردين وجوههم تشبه وجوه بني آدم سواء وصدورهم لا شعر عليها وأذنابهم فيها قصر عن أذناب القرود وظنوا أن القردة حملت من ذاك البناني، وأنه هرب في الدونيج لأنهم ما فقدوا شيئا غير الدونيج وآلته وأن بعضهم ظن أن القردة قتلته وأن الدونيج سرقه مجتاز أو صياد ورجموا الظنون ورموا بالقردة وأولادها ، قال لي محمد بن بابشاد: وكان هذا البناني الذي حدثني ضعيف البصر جدا فسألته عن ذلك فقال ضعف بصري لما كنت أجامع القردة وزاد في ضعفه طول مكثي في البحر .

وحدثني بعض البحريين أن مركبا كان يمضي إلى صنف من عمان فأصيب وسلم من أهله نحو عشرة في قارب فحملتهم الرياح إلى جزيرة مجهولة لا يعرفونها فرموا بنفوسهم على ساحلها وليس لهم حركة لشدة ما لحقهم في البحر من الأهوال والشدائد فمكثوا هناك بقية يومهم ثم قاموا فاحتالوا في القارب إلى أن جروه إلى الساحل وباتوا ليلتهم معه فلما أصبحوا مشوا في الجزيرة فوجدوا فيها ماء عذبا كثيرا وغوطة حسنة وأشجارا متكاثفة فيها ثمار شتى وموز كثير وقصب سكر ولم يروا فيها إنسا فأكلوا مما اشتهوا من الثمار وشربوا من ذلك الماء وانصرفوا إلى قاربهم فجروه إلى البر وسنّدوه بالخشب وجمعوا من ورق الموز والشجر فظللوه وأحكموا أمره وأصلحوا لأنفسهم إلى جانبه موضعا يسترهم.

فلما مضت عليهم خمسة أيام أو ستة فإذا هم بقطعة قرود قد أقبلوا يقدمهم قرد كبير جسيم، فوقفوا على القارب وفزع القوم منهم فصعدوا إلى القارب فلم يعرضوا لهم وأقاموا رئيسهم بمكانه فجعل يفرقهم يمينا وشمالا كما نفذ العامل رجاله ثم عادوا إليه وجعل بعضهم يوما إلى بعض كأنهم يتحدثون بشيء، فلما أمسوا انصرفوا فورد على القوم من هذا أمر عظيم وخافوا على نفوسهم أن تقتلهم القردة، وجعلوا يفكرون في الخلاص ليلهم وهم بسوء حال لا زاد معهم ولا يعرفون الطريق ولا يهتدون لحيلة، فلما أصبحوا جاءتهم قردة فطافت بهم ثم مضت ثم عادت ومعها قردة أخرى فأومت إليها بشيء، قال هذا الرجل فحدثت عن واحد من القوم أنه قال فتبعت القرود إلى أن دخلوا الغوطة ثم خفت على نفسي فرجعت بعد مدة مضت من النهار إلى أصحابي فسألوني فأخبرتهم، فلما كان من غد عاودت القرود على تلك الصورة الأولى وجلس رئيسهم مع القارب ونفّذهم في حوائجه على الرسم.

فلما مضت ساعة من النهار جاء قردان مع كل واحد منهما قطع ذهب في نهاية الجودة فطرحوها بين يديه ثم عادوا بأجمعهم فأومى بعضهم إلى بعض فانصرفوا ونزلنا إلى الأرض فأخذنا الذهب فإذا هو مثل العروق الغلاظ في نهاية الجودة، فورد علينا من السرور بذلك ما نسينا معه بعض ما نحن فيه، فلما أصبح جاءت قردة طافت بنا ثم مضت فمضيت خلفها إلى أن أمعنت في الغوطة وخرجت من الغوطة إلى صحراء أرضها رملة سوداء فحفرت في الموضع فوجدت عروق الذهب مشتبكة فلم أزل أقلع إلى أن أدميت أصابعي وجمعت ما قلعته وحملته ورجعت فضللت عن الطريق لاشتباك الشجر فتعلقت ببعض ذلك الشجر وبت فيه ليلتي فلما أصبحت وإذا بالقردة وقد وافت على الرسم فتركتها حتى مضت ثم تبعتها إلى أن رأيت البحر وتعلقت بشجرة من الشجر فأقمت عليها إلى الليل، فلما انصرفت القرود نزلت فوافيت أصحابي فتلقوني وهم يبكون وقالوا إنّا لم نشك أنك قد تلفت فحدثتهم بالصورة وطرحت الذهب بين أيديهم فتجدد لنا هم وغم لأنّا لما استغنينا لم نجد سبيلا إلى حمل ذلك ولا طريقا ولا معنا ما نحمله فيه لأنا متى حملناه في القارب

لم نأمن الغرق لصغره، وإذا حملناه لم نهتد الطريق ثم أجمع رأينا على أن نمضي إلى تلك الصحراء ونقتلع الذهب ونحمله إلى نحو قاربنا، ونتوكل على الله عز وجل فكنا نمضي في كل غدوة من الغدوات التي لم يجر للقرود أن يجونا فيها فنقلع الذهب ونحمله وحفرنا عند القارب ودفنا الذهب ولم نزل نقلع الذهب وننقله مدة سنة إلى أن حصل لنا شيء عظيم لا يعرف مقداره، والقرود مع ذلك تجيء يوما ويوما لا تجيء، ونأكل من ثمار تلك الجزيرة ونشرب من ذلك الماء.

فبينما نحن على حالنا تلك إذ مرّ بنا مركب ماض إلى عمان أو إلى سيراف قد أسقطه الريح وركبه البحر فرمى كل ما في جوفه ومات أكثر رجاله غرقا وشرقا من شدة ما ركبهم البحر، فلما رأوا الجزيرة وأرادوا الانحياز إليها فلم يقدروا فبقوا متماسكين، فلما أحدُّوا النظر إلى البر رأونا ورأوا الدونيج فوق البر فتطارح لنا رجلان من رجاله بحبل،ولم يزالوا يعاندوا فلما رأيناهم أخذنا حبالنا وتطارحنا إليهم في البحر فتلقيناهم وربطنا حبالنا مع حبالهم، فلما صارت الحبال في البر استوثق بها حتى مضى إلى المركب منا اثنان فأشرفوا على المركب فإذا بالبنانية والربان وبعض التجار قد أشرفوا على الموت من شدة الهول وقد كلوا مما متحوا الماء وهو حينئذ في وسط اللجة فقالوا لأصحابنا اجذبونا إلى البر وخذوا ما بقي معنا من البضائع والمتاجر، وقال الربان يا إخواننا اجذبونا إلى البر وخذوا المركب لكم ملكا، فقال أصحابنا ما نفعل شيئا من ذلك بل نجذبكم إلى البر ولنا نصف هذا المركب ملكا، فقال :حبا وكرامة .

وتعاقدوا على ذلك وشهد بعضهم على بعض ثم قال لهم أصحابنا : وعليكم شرط، قالوا: وما هو؟ قالوا: نشحن نصف هذا المركب لنا بملكنا لا يشاركنا فيه أحد ولا يعترضنا فيه أحد، قالوا لكم ذلك، قال أصحابنا ونوسقه وسق المتعارف لا يحيف عليه فيغرق، قال أصحاب المركب: هذا شيء قد جربناه وما تخلصنا منه إلى الآن فنناشدكم الله إلا ما خلصتم حشاشنا من هذا الهول الذي نحن فيه، فتطارح أصحابنا إلى البر وجاءت القرود فلما رأونا نجذب حبل المركب جذبوا معنا، فجاءت المركب في أسرع وقت، فتطارحت

رجال المركب إلى البر شوقا إليها لما جرى عليهم، فلما أصبحنا عرفناهم موضع الثمار فأكلوا وشربوا ورجعت لهم نفوسهم فجاءت القرود من الغد بالذهب على الرسم فآثرناهم به على نفوسنا لأنا اكتفينا منه، وقدمنا المركب فأوسقنا وشحنا نصف المركب ذهبا وأوسق الربان النصف الثاني له ولتجاره ذهبا وتزودنا مما في الجزيرة، وأتت الرياح وأسرينا فدخلنا بلد الهند ونقل كل واحد منا نايبه إلى موضعه، فكان الذي وقع لكل رجل منا ألف ألف مثقال ومائة ألف وأربعة وأربعون ألف مثقال، فلم نعد نركب بحرا إلى هلم. وهذا من أغرب ما سمعناه من نوادر القردة.

وحدثني من رأى قردا في منزل بعض التجار يخدمه يكنس منزله ويفتح الباب لمن دخل ويغلقه ويوقد النار تحت القدر وينفخ فيه حتى يوقد ويطاعمه الحطب وينش الذباب على المائدة ويروّح على مولاه بالمروحة .

وحُدثْتُ أنه كان بظفار من مدائن اليمن حداد عنده قرد ينفخ على الكور طول نهاره، أقام عنده كذلك نحو خمس سنين وترددت إلى البلد سفرات وأنا أبصره عنده .

وحُدثْتُ أن قردا كان في منزل رجل ببعض بلاد اليمن، وأن الرجل اشترى لحما وجاء به إلى منزله فأومى إلى القرد أن احفظ هذا اللحم، فجاءت حدأة فنشلت اللحم فبقي القرد متحيرا، وكان في الدار شجرة فصعد إلى رأسها ورفع إسته إلى السماء ودلى رأسه إلى أسفل وجعل يديه إلى جانبي إسته، فظن الحدأة أن إسته من جملة اللحم الذي اختطفت فانقض الطائر عليه فضربه فتلقاه القرد بيديه فقبضه وأنزله إلى الدار فوضعه تحت الجفنة وغطاه بشيء ثقيل فجاء صاحب المنزل فلم يجد اللحم فقام إلى القرد ليضربه، فقام القرد إلى الجفنة وأخرج الحدأة فعلم الرجل وفطن لما جرى وأخذ الحدأة فنتف ريشها وصلبها على الشجرة، وللقرود أحاديث ظريفة .

حُدِّث عن رجل من أهل أصبهان شيخ كثير الأسفار أنه سار إلى بغداد قال وكان معه رفقة كثيرة فيهم شاب كأنه بغل من الشباب والقوة قال وكان الشيخ يسهر على الأمتعة ولا ينام إلا إذا سار الناس جملة قال فبينما هو ساهر كالعادة إذ نظر إلى الشاب قد سري إلى واحد

جمّال فلما جلس الشاب بظهره ليجتمع به استيقظ له الجمال وأحنى عليه فداسه دوس الأديم فلم يعد الشاب إلى مكان وقد سكر من اللكم واللطم قال فأقام الشاب بمقدار ما تراجعت إليه نفسه ثم أخذ الجمّال النوم ثم عاد إليه قال فاستيقظ له فأحنى عليه فداسه أشد من الأولى فمات الشاب ولا حركة فيه ثم استجم وعاد إلى الجمال الثالثة ففعل الجمال به في الثالثة ما عاد منه وهو يسحب نفسه على الأرض يمينا وشمالا وقال له الجمال والله إن عدت الرابعة لأفقرنَّ بطنك فلما رأيت ذلك مرارا وسمعت قول الجمال عذرته وشفقت على مثل ذلك الشاب أن يقتل فدعوت الشاب إليّ بعد أن تراجعت إليه نفسه وقلت له يا ولدي ما حملك على ما رأيت منك في هذه الليلة ولقد سلمت من هذا الجمال فاحذر أن يقتلك واصبر فقال يا عم والله أن لي اليوم ليالي لا أستطيع الغمض من شدة الشبق والنار وكلما هاج بي الأمر يهون عليّ ما يفعل بي لشدة ما أنا أقاسي قال فقلت: يا ولدي بقي بيننا وبين مدينة السلام مرحلتين ونرحل إلى بلد نجد فيها ما يسكن هيجانك قال فلم أزل أهديه وأشفق عليه بقية تلك المسافة .

فلما وصلنا إلى بغداد أخذني عليه خوف كثير وقلت في نفسي هذا غريب وشاب وما دخل قبلها ربما يرى أحداً من دور الخليفة والوزراء فيتهاجم عليه كما فعل مع الجمال فيهلك فلزمته وأخذت منزلا وضممته إليَّ ولم يكن لي شغل بعد أن حصل متاعنا في حرز إلا أني أخذته ومضيت به إلى الدلالة أنظر له امرأة تسكن غمته فما هو إلا أن عبرت به من بعض الأزقة وإذا به وقف وقال لي يا عم قد رأيت الساعة في تلك الطاقة وجها كالشمس ولا بد لي منه فدافعته عن ذلك. فقعد على الأرض وقال هنا أموت فقلت في نفسي قد حفظته في البرية أتركه هنا ،وبغداد دار البلايا فلما لم أجد منه موافقة فنظرت في الحارة فإذا داز تنذر أن أصحابها صعاليك فقرعت الباب فكلمتني عجوز فاستخبرت عن الدار التي نظر الشاب المرأة فيها، فقالت هذه دار الوزير فلان والتي بصرها الشاب زوجة الوزير، قال: فقلت للشاب يا ولدي ارجع عن هذا الرأي واحضر معي أعرض عليك بنات بغداد فإنك ستجد أحسن مما رأيت ،فقال :والله لا برحت إلا أن أصل إلى هذه أو أقتل، قال: فقالت العجوز

للشاب إن أوصلتك يا شاب ما يكون لي عليك فبادر الشاب وحل كيسا كان على وسطه وعدّ لها منه عشرة دنانير ففرحت العجوز والتحفت وخرجت فدقت باب الوزير ففتح لها الأستاذ فدخلت ثم خرجت فقالت له :قد قضيت حاجتك بعد الشروط قال لها :وما الشروط قالت خمسون مثقالا لها وخمسة لمقامها وخمسة لأستاذ الدار. قال: فأنقدها ستين مثقالا، قال :فدخلت ثم خرجت فقالت: امض ادخل الحمام وغيّر هذه الحلة فإذا كان بين صلاتي المغرب والعشاء قف عند بابي هذا حتى يؤذن لك .قال :فدخل الشاب الحمام وأصلح شأنه ووقف عند باب العجوز في الوقت فخرج الأستاذ فأذن له فدخل إلى مجلس قد كمل من كل شيء تكمل به المجالس فقدم له طعام حسن فأكل ثم الشراب فشرب فلما انتهى مجلس الشراب ،قام وقامت إلى السرير فلما تجردا من ثيابهما وإذا بقرد قد خرج من وراء ستر فضرب الشاب بأظافيره فجرحه في أفخاذه ومخاصيه وسالت دماه من كل مكان فأعاد ثيابه عليه وأثقله السكر فنام في ثيابه فلما أصبح نبهه الأستاذ وقال له: قم فاخرج قبل أن تترءى الوجوه فخرج حزينا كئيبا ولما أصبح الشيخ قال :أمضي إلى الشاب فأنظر ما صنع لعله نال مناه وحسنت عقباه فلما جاءه الشيخ وجده جالسا عند باب العجوز ورأسه في طوقه سأله عن أخباره فأعلمه بقضيته ،فاستدعى العجوز وأعلمها القضية فدخلت على المرأة وسألتها عن السبب في ذلك، فقالت: اعلمي أنّا نحن نسينا قرطاس قرد صاحب الدار ورسمه وهو قرطاس حلوى فيه رطل ولكن إن أحب المعاودة فنحن نأخذ منه الليلة شطر ما أخذناه البارحة قال فأعطاها ثلاثين دينارا، فقيل له إذا أتيت الليلة في الوقت المعلوم احمل معك قرطاسا فيه رطل من الحلوى لقرد صاحب الدار، قال :فأخذ معه قراطيس فأذن له فدخل وقدم الطعام فأكل والشراب فشرب، فلما انحرف إلى المرأة وثب القرد إليه فرمى له بقرطاس فأخذه القرد ورجع إلى مكانه فقضى الشاب حاجته ثم أراد الشاب المعاودة فخرج له القرد فرمي له بقرطاس ثان، فرجع إلى مكانه وكذلك دفع له عدة دفوع فلما تعب الشاب وأثقله السكر ،خرج إليه القرد وأنبهه، وصار القرد يقبض على الشاب ويجذبه إلى المرأة ويجعل القرد إصبع نفسه في كف نفسه ، المعنى في هذا الحديث أن مصانعة الخدم تقضي

الحوائج على رغم أنف الموالي أعني القرد ،وهو يقول للشاب بالإشارة اعمل كذا، فلم يدع الشاب ينام مما يحثه على الفعل بالمرأة إلى الصباح فخرج الشاب ومضى لسبيله .

ومن أحاديث البحريين والنواخذة ما يُحكى عن عبهرة الربان وأصله من كرمان وكان ببعض عراها يرعى الغنم ثم صار صيادا ثم صار أحد بانانية مركب يختلف إلى الهند ثم تحول إلى مركب صيني ثم صار بعد ذلك ربانا وله في البحر طرائق وسافر إلى الصين سبع مرات ولم يكن سلك قبله إلى الصين إلا من غرر، ولم يسمع أن أحدا سلكه وسلم وعاد قط فإن سلم في المضي فهو عجب فلا يكاد يسلم في العودة، وما سمعت أن أحدا سلم في الذهاب والمجيء سواه، فإنه جلس في مطياله وأخذ معه قربة ماء فمكث في البحر أياما فحكى عن شهرياري الربان – وكان أحد ربانية الصين – أنه قال: كنت أمضي من سيراف إلى الصين، فلما صرت بين الصنف والصين بالقرب من صيندل فولات وهو رأس بحر صنجي وهو بحر الصين ووقفت الريح فلم تتحرك وسكن البحر وطرحنا الأناجر وأقمنا بمكاننا يومين، فلما كان في اليوم الثالث رأينا بالبعد شيئا في البحر، فطرحت الدونيج إلى البحر وأنفذت فيه أربعة من البانانية وقلت اقصدوا ذلك السواد فانظروا ما هو فمضوا وعادوا، فقلنا ما ذلك الشيء؟ فقالوا :عبهرة الربان على مطياله ومعه قربة ماء .قلت لهم: فَلِمَ لم تحملوه؟ فقالوا قد اجتهدنا به فقال لا أصعد إلى المركب إلا بشرط أن أكون الربان فأدير المركب وآخذ أجرتي عن قيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف وإلا لم أصعد، فلما سمعنا هذا الكلام تعلقت نفوسنا بقوله ونزلت وجماعة من المركب إليه وهو في البحر ترفعه الأمواج وتضعه، فسلمنا عليه وتضرعنا إليه في الصعود، فقال :حالكم أقبح من حالي وأنا إلى السلامة أقرب منكم، فإن دفعتم لي بقيمة ألف دينار متاعا بشرى سيراف ورددتم إليّ أمر المركب صعدت، فقلنا :هذا مركب فيه أمتعة وأموال عظيمة وخلق من الناس ولا يضرنا أن نعرف ما عند عبهرة من الرأي بألف دينار، وصعد والدونيج والقرية معه إلى المركب.

فلما حصل فيه قال: سلموني متاعا بألف دينار، فسلمناه إليه، فلما أحرزه قال للربان :اجلس إلى ناحية، فتباعد ذلك عن موضعه، وقال :ينبغي أن تجدُّوا في أمركم مادام عليكم

مهلة فقلنا: فبماذا؟ قال: ارموا الثقل كله إلى البحر فرمينا نحوا من نصف حمولة المركب أو أكثر، ثم قال: اقطعوا الدقل الأكبر، فقطعناه ورميناه ورمينا به إلى البحر، فلما أصبح قال :ارفعوا الأناجر واتركوا المركب يسير لنفسه، ففعلنا، فقال: اقطعوا الأنجر الكبير فقطعناه وبقي في البحر، ثم قال: ارموا بالأنجر الفلاني، فلم يزل كذلك حتى رمينا في البحر ست أناجر، فلما كان في اليوم الثالث ارتفعت سحابة مثل المنارة ثم تفرقت في البحر وأخذنا الخب فلولا أنا كنا قد رمينا بالحمولة وقطعنا الدقل لكنا قد غرقنا من أول موجة أخذتنا، ولم يزل الخب ثلاثة أيام بلياليها والمركب يصعد وينزل بقير أنجر ولا شراع لا ندري كيف تمضي، فلما كان في اليوم الرابع أخذت الريح في السكون وتم سكونها وصلاح أمر البحر في آخر النهار، وأصبحنا في اليوم الخامس والبحر طيب والريح مستقيمة، فأصلحنا المركب ودقلا ،ورفعنا الشُرع وسرنا وسلم الله ووردنا الصين وأقمنا إلى أن بعنا واشترينا وأصلحنا المركب ودقلا بدل الدقل الذي رمينا به في البحر وخرجنا من الصين نريد سيراف ،وقاربنا الموضع الذي قدرنا أن رأينا فيه عبهرة اجتزنا بجزيرة وجبال، فقال عبهرة :اطرحوا الأناجر، ففعلنا ثم طرحنا القارب إلى البحر ونزل فيه خمسة عشر رجلا وقال لهم" : امضوا إلى تلك المواضع، وأومى إلى بعض الجبال فهاتوا الأنجر الفلاني فعجبنا من ذلك ولم نخالفه فمضوا وعادوا وهو معهم ثم قال :امضوا إلى ذلك الجبل الآخر وأومى إليه فهاتوا الأنجر الفلاني فمضوا وعادوا والأنجر معهم، ثم قال :ارفعوا الشراع فرفعنا وسرنا فقلنا له: كيف عرفت أمر هذه الأناجر؟ فقال نعم لقيتكم في هذا الموضع في رأس الثلاثين وهو وقت مد الماء، وقد نقص الماء صدرا صالحا وكنتم في وسط الجبال والجزيرة فأمرتكم بطرح الثقل من الأمتعة ففعلتم، ثم فكرت في أمر الأناجر فإذا حاجتنا إليها في الصين غير ماسة ولم يبق في المركب من الأمتعة إلا ما قيمة وزن الأناجر منه أضعاف قيمة الأناجر فرميت بها كذلك لأنه لم يكن بد من تخفيف المركب فحصلت هذه الأناجر الثلاثة فوق الجبل والجزيرة ظاهرة وحصلت الثلاثة تحت الماء، قلنا له كيف استدليت على هذا النقصان والخب؟ فقال :نعم قد جرب هذا البحر قبلي وجربته فوجدنا في رأس كل ثلاثين ينقص نقصا عظيما حتى تنكشف هذه

الجبال ويكون في وقت النقصان خب عظيم أصله في قعر البحر فانكسر المركب الذي كنت فيه على رأس جبل من هذه الجبال لأنه النقصان لحقني وأنا أسير عليه ليلا وسلمت في ذلك المطيال ولو بقيتم في موضعكم لما بقيتم في البحر أكثر من ساعة لم يجنح مركبكم قبل الخب لأنكم كنتم على الجزيرة إن جنحتم عليها انكسرتم، وعبهرة هذا له طرايق وأخبار في البحر وهذا الخبر من أطراف أخباره .

وقد كان محمد بن بابشاد حدثني أنه كان يمضي في مركبه من فنصور يريد عُمان فلما قطع بحر هركند ودخل في بحر الهند وعزم على أن يعبر إلى بلاد الغرب، قال له ربان مركبه :أي مرسى من تعلق من مراسي الغرب؟ قال أعلق ريسوت أو فوقها بفرسخ أو دونها بفرسخ، فقال له الربان نحن نعلق المرسى الفلاني دون ريسوت بخمسين فرسخا، فتخاطروا في عشرين دينارا يتصدقون بها، وبين الموضع الذي هم فيه وبين ريسوت على الأقل أربعمائة فرسخ، فساروا خمسة عشر يوما إلى أن قدروا أنهم قد قاربوا جبال الغرب وأخذوا يتكلمون فيما كانوا تخاطروا فيه إلى الليل وساروا إلى غد ذلك اليوم، فلما أصبحوا صعدوا بالديدبان إلى رأس الدقل فلم ير شيئا فنزلوا، فلما صلوا العصر قال محمد بن بابشاد أرى آثار الجبال، فقالوا ما نرى شيئا، فقال الديدبان اصعد، فلما صعد الديدبان واستقر على رأس الدقل صاح: رحم الله من كبر، فكبروا واستبشروا وبكوا من شدة الفرح والسرور وساروا طول ليلتهم إلى قرب السحر فلما كاد الفجر أن يطلع قال محمد بن بابشاد اطرحوا الأنجر فطرحوه وحطوا الشراع وقال للربان أين نحن؟ فقال في موضع كذا وذكر موضعا بينه وبين ريسوت أربعون فرسخا، فقال له محمد بن بابشاد نحن على ريسوت سواء إما أن تكون بين أيدينا برمية سهم أو بحذاء المركب أو دوننا برمية سهم فأصبحوا وهم على ريسوت سواء، وقال محمد بن بابشاد إذا كنت في البحر وأحببت أن تعرف هل أنت بقرب أرض أو جبل فانظر بعد العصر إذا انحطت الشمس فإنها إذا انحطت وكان في وجهها جبل أو جزيرة تبينت .

وقال لي بعض البحريين أنه بين خانفوا وهي قصبة الصين الأصغر وبين خمدان – وهي قصبة الصين الأكبر وهو جبل الصينيين وبها بغبور الأكبر – نهر يجري جريانا شديدا بماء

عذب وعرضه أكبر من عرض دجلة البصرة وفي مواضع منه جبال المغناطيس وأنه لا مسير في ذلك النهر بمركب فيه حديد لئلا تجذبه الجبال المذكورة لقوتها وأن الفرسان الذين يسلكون تلك الجبال لا ينعلون دوابهم ولا يكون في سروجهم حديد وركبهم ولجم خيلهم .

وحدثني بعض الربانية يقال له عمران الأعرج أنه خرج من عمان في مركب مع عدة مراكب إلى جدة في سنة خمس وعشرين وثلاثمائة فوقع علينا في بعض الأيام ريح عظيم فرمينا بعض الحمولة وتخلف بعض المراكب وأصيب البعض وسرنا فلما صرنا بين كمران و . . . . وقع بنا خطب عظيم هائل مختلف فقطعت الأناجر ولم يضبط المراسي وحملتنا الرياح، وكان معنا عدة مراكب من عدن وغلانقة وعثر، ومنها جلبة جديدة حسنة من غلانقة فرأيتها وقد طرحتها الريح والأمواج على جبل في البحر ونزلت الأمواج عنها فانقلبت، فعهدي بالأمتعة والناس يتساقطون إلى البحر من فوق الجبل وغرقت فما سلم منها أحد .

ومن طريف أخبار البحريني ما هو مشهور معروف ما حدثني عن مرد أنشأه أحد نواخذة بلاد الفلفل وغيرها وعاش سبعين سنة ولا ولد له ثم ولد له ولد فسماه المرزبان، فاشتدت محبته له وسروره، وكان يحمله معه في المركب مع والدته، فإنه في بعض الأيام يسير في بحر بازبان يريد كولم إذا التمس من والدة المرزبان وهي في البلنج ابنه فدفعته إليه فلم يزل يرقصه ويقبله إلى وقت المغرب، ثم اشتدت الريح واندق دقل القنو، فدهش وأراد أن يدفع الصبي إلى أمه فسقط من يده في البحر، واشتدت الريح واشتغل بأمر المركب إلى صلاة الغداة، فلما أسفر الصبح سكن البحر واستوى أمر المركب وجلس فقال لأم الصبي ناوليني المرزبان فقالت له : هو معك منذ أول الليل، فنتف لحيته ودق رأسه بالخشب وشاش المركب، فقال صاحب السكان اعلم أن السكان ثقيل على يدي من أول الليل فانظروا فيه فنظروا في سورة السكان مثل مسمار ليس يبرح، فهبط رجل وأصعد الصبي، فإذا هو صحيح لم يصبه شيء فدفعه إلى أمه فسقته لبنا فشرب وله من العمر خمسة عشر شهرا، فقال إسمعيلويه رأيت المرزبان هذا وقد نيف على السبعين سنة وقد تقدم إلى قاضي عمان في يوم واحد

ثلاثة عشر كرة يحلف الناس على أموالهم إيمانا كلها كاذبة .

وحدثني خلق من الناس أنه لم يكن في ربانية البحر أظلم من المرزبان هذا وأنه كان يعامل التجار في مركبه ما يعامل به أصحاب الشروط .

وحدثني جماعة من البحريين بأمر سعيداً الفقير العدني وكيف كان سبب غنى أولاده وأجمعوا كلهم على ما أصفه ذكروا أن سعيد الفقير كان رجلا صالحا من أهل عدن يسفر أي يضفر الخفاف والغوص ويلزم مسجدا يصلي فيه سائر الصلوات، وكان له ثلاثة بنين يعيشون في معاش قريبا من معاشه، وأن بعض البحريين جهز مركبا إلى كَلَه وكان صديقا لسعيد، فلما عزم على المسير قال له أسألك أن تسألني حاجة فاشترى بنصف درهم جرة خضراء وبدانق ملحا جريشا، وجعله فيه ودفعه إليه. قال له فما أشتري لك؟ قال اشتر لي بركة كما تقول الناس، وخطف المركب ووصل إلى كَلَه ونجّل وباع ما فيه وأُنسيَ صاحب المركب الجرة .

فبينما هو ذات يوم في سوق كَلَه وقد قارب الخروج منها وحمل المركب إذا رأى رجلا يجر سمكة في حبل وينادي من يشتري بَرَكَة فلما سمع ذلك ذكر جرة سعيد الفقير فدعا صاحب السمكة وسأله عنها فقال هذه جنس من السمك يسميه الصيادون بركة، فقال في نفسه لعل الرجل أراد هذه السمكة بعينها فاشتراها على أن يعطيه بالثمن وزن أوقيتي ملح وأجلسه وأرسل بعض أصحابه إلى المركب فجاء بالجرة كهيئتها وأعطى الرجل من الملك ما وافقه عليه وأمر بحمل السكة إلى المنزل الذي يسكنه ووضعت السمكة لتُملح ببقية الملح، وهم يخرجون ما في جوفها إذ وجدوا عدة صدفة فشقوها فوجدوا فيها صدفة فيها درة، فقال الرجل هذا رزق ساقه الله إلى سعيد، وملح السمكة ببقية الملح ورفع الدرة، وساروا من كَلَه وسلموا إلى عدن ورفع الرجل الدرة إلى سعيد فعاش بعد حصولها في يده مدة يسيرة ثم مات، فأخذها ابنه الأصغر وخرج إلى سُرَّمَنْ رأى إلى الخليفة وهو يومئذ المعتمد فباعها عليه بمائة ألف درهم، وكانت قيمتها أضعاف ذلك .

وقد قيل إن بعض ملوك الهند صوّر محمد بن بابشاد لحالته في النواخذة، ومضّى اسمه في

البحر، ومن رسمهم أن يصوروا كل من له نباهة وقدر ومحل سائر أصناف الناس . وإن بعض السيرافيين ممن سافر البحار حدثه أنه ركب في بعض المراكب من سيراف إلى كَلَه فأصيب في اللج وتخلص على خشبة فمكث نيفا وعشرين يوما في البحر ووقع إلى جزيرة كثيرة الشجر والفواكه والموز، فصعد وأقام بها يأكل من فواكهها ويشرب من ماء عذب فيها، ثم ضاق صدره فمشى على وجهه أياما حتى وقع في أرض عامرة فيها زرع ذرة وأرز وغير ذلك وأنه رأى كوخة فقصد نحوها فوجد فيها خبّاً للماء فارغا فنام في الكوخة ليستريح، فإذا هو برجل يسوق ثورين عليهما اثنتا عشرة قربة مملوءة ماء فصبها بأسرها في ذلك الخب حتى امتلأ وجلس الرجل يستريح، فقام الرجل يشرب من الماء وتأمل الخبّ فوجده أملس حسن الصقال لا يشبه الخزف ولا الزجاج فسأل الرجل عنه، فقال هذا أصل ريشة طائر فلم يصدق الرجل حتى قام فمسح الخبّ من داخل وخارج فوجده يشف ووجد في جنبيه آثار أسافل ريشة، وأن ذلك الرجل حدثه أن في الطيور ما ريشه أكبر من هذا بكثير .

ومما أجمع عليه جماعة البحريين ولم أجدهم ينكرون شيئا منه وهو أن بعض المراكب الخارجة إلى الصين أصيب في اللج وسلم منه ستة أنفس أو سبعة على الشراع ومكثوا أياما في البحر، ثم وقعوا إلى الجزيرة وأقاموا بها شهورا حتى كادت نفوسهم تتلف من ضيق الصدر، وأنهم في بعض الأيام يتحدثون على ساحل البحر إذ سقط طائر في قدر الثور أو نحوه، فقالوا :قد ضاقت صدورنا من الحياة، فقوموا بنا نجتمع على هذا الطير فنصرعه ونذبحه ونشويه ونأكل من لحمه، فإما أن يعطف فيقتلنا بمخاليبه ومنقاره وإما أن نظفر به فنأكله. فقاموا إليه وتعلق بعضهم برجليه وبعضهم بعنقه وبعضهم يضرب ساقه بالخشب وجاهدوا حتى صرعوه، فعمدوا إلى حجارة فضربوا بعضها ببعض حتى تكسرت وصارت كالسكاكين وذبحوه ونتفوا ريشه وأوقدوا نارا عظيمة وطرحوه فيها وقلّبوه حتى استوى ثم جلسوا فأكلوا منه حتى شبعوا وأكلوا منه بالعشي، فلما كان في اليوم الثالث وأصبحوا قاموا إلى البحر ليتطهروا للصلاة فجعلوا لا يمسون شيئا من أبدانهم إلا تساقط الشعر عنه حتى

لم يبق على واحد منهم شعرة واحدة في سائر جسده، وصاروا مردا جردا، وقد كان فيهم ثلاثة شيوخ فورد عليهم ما حيرهم ،وقالوا كان لحمه مسموما وقد تساقط الشعر واليوم نتلف كلنا ونستريح، فأمسوا وهم في عافية وأصبحوا وهم كذلك، فلما مضت عليهم خمسة أيام ابتدت شعورهم وخرجت، ولما مضى عليهم شهر كمل الشعر في نهاية السواد والبريق ولم تبيض بعد ذلك فمكثوا شهرا أو نحوه حتى اجتاز بهم مركب فأوموا إليه فجاء إليهم ،وسَلِموا وتفرقوا في البلاد وحدثوا بحديثهم .وكان بعضهم يُعرف وهو شيخ فلا يصدقه حتى يعطيهم العلامات التي لا يعرفها سواه ،وعاشوا بقية أعمارهم وشعورهم مسودة .

وحدثني بعض الربانية أنه رأى في لجة سمرقند – وهو البحر الذي يلي هركند، ويقال إنه مصب ماء نهر سمرقند في هذا البحر وإنه سمي سمرقند لذلك – خلقا كثيرا من الفال وهو أكبر سمك في البحر، وأنه رأى سمكة منه قدر أن طولها مئتا ذراع وارتفاعها مائة ذراع وأنهم رأوها من بُعد وقد رفعت أجنحتها فظنوها شُرُعَ مراكب إلى أن حاذوها، وأن على ظهر هذا السمك مثل الحجارة الأرحية(= حجر الطاحون) مما قد تراكب عليه طول السنين من الحشور والطين فاستحجر وصار لا يعمل فيه الحديد ولا غيره، وأنه يسير في البحر يمنة ويسرة ووراءه وبين يديه -فراسخ – سمك لا يفارقونه، والذكر والأنثى منه على ما قيل يحمل البيض فيعظم في بطونها إلا أن الذي يحمله الذكر لا يكون منه شيء والذي تحمله الأنثى يكون منه الأولاد .

ومن عجيب أمر البحر أن طائرا بناحية مايط – وهي جزيرة في البحر بالقرب من الصنف وسريرة – قيل إنه يجمع عشا على الماء في خور من تلك الأخورة وتبيض عليه وتحضن البيض أربعين يوما فإذا كان بعد أربعين يوما رمى البيض في الماء وجلس على الساحل بإزائه لا يبرح عشرين يوما يأكل السمك، فإذا مضى عشرون يوما خرج إليه من فراخه من ذلك البيض فيجتمعون حول أبويها فيلفونهم في ريشهم ثم يزقونهم إلى أن ينبت لهم ريش فإذا تحاملوا وأكلوا تركاهم، وأكثر ما يكون فراخهما ثلاثة . وأهل مايط على ما

ذكروا ولا يدخلها مركب سالم لأن المركب تمضي إليها في وقت واحد من السنة فيتفق مجيء المركب إليها في وقت خب عظيم فإذا حصل المركب بإزاء البلد طرح أهله نفوسهم إلى البحر على الخشب وما يحملهم ولا يزال الموج يضربهم حتى يلقيهم على الساحل ويحمل الموج المركب ولو كان في مائة أنجر حتى تلقيه على الساحل فتكسره وتقذف بالأمتعة إلى الساحل فيأخذ الناس أموالهم ويستأنفوا مركبا للرجوع فجميع ما يُحمل إلى ذلك البلد يُجعل في الجلود ويُحكم صونه لئلا يهلك بالماء وقت انكسار المركب، وهي جزيرة فيها ذهب وقطن وعسل .

وحدثني الحسن بن عمرو أنه رأى بالمنصورة أهل قشمير الأسفل، وبينهم وبين المنصورة مسيرة سبعين يوما في البر ينحدرون في مهران من قشمير - وهو يجري كما يجري دجلة والفرات في وقت المدود - على أعدال القسط، وقال لي إنهم يعبون القسط في الأعدال (= كيل)في كل عدل سبعمائة وثمانمائة منّ ويجلّدونه ثم يجعلون فوق الجلد القار فلا ينفذه الماء ولا غيره، ويقرنون الأعدال ويشدونها ويوطئون عليها ويجلسون فيها وينحدرون في مهران فَيَصلون إلى فرضة(= ميناء) المنصورة في أربعين يوما ولم يلحق القسط شيء من الماء البتة .

وحدثني من أقام بالهند زمانا أن فيهم كهنة وأن من يخرج إلى الصحراء فيرى الطيور تطير في الهواء فيخط في الأرض دارة تحت الطيور فلا تزال تدور في جو فوق الخط إلى أن تقع فيه ثم لا تخرج عنه البتة، فيدخل إلى جوف الخط ،ويأخذ منها ما يريد ويطلق عن بقيّتهم، وكذلك أيضا يرى في الصحراء طيورا ترعى فيخط حولها خطا بعيدا يدور عليها فما تبرح منه البتة ويدخل إليها فيأخذ منه حاجته .

وحدثني من رأى بعض هذه الطبقة بصندابورة وهو يجيء إلى خورها ومعه خشبة فيتكلم عليها بشيء ثم يرمي الخشبة في الخور فتمضي الخشبة إلى موضع ثم تقف فلا تبرح فيطلع في دونيج ويمضي هو إلى موضع الخشبة فيخرج تمساحا فيقتله، وخور صندابور فيه أمر عظيم من التماسيح، وقيل إن التماسيح لا تعقر بين الدور أحدا، فإذا خرج الإنسان إلى

خارج لا يقدر أن يضع إصبعه في الماء إلا اختطفه التمساح، وأهل سريرة يقولون إن معهم طلسم للتمساح.

وحدثني من رأى ببلاد الهند خلقا كثيرا يزجرون، وأن بعض التجار من أهل سيراف حدثه أنه أراد الخروج من صامور إلى سوبارة عن طريق البر، فقال لصاحب السلطان يضم إليه رجلا يخفره في طريقه، فضم إليه أحد من كان بين يديه من الباتك، وهو الرجالة، قال فخرجنا فلما صار بظاهر صيمور جلسنا عن ثلاج وهو بركة ماء وجرام وهو البستان نأكل شيئاً وفي جملته أرز، فنعق غراب، فقال الهندي للسيرافي: تعرف ما يقول الغراب؟ قال: لا، قال: يقول لا بد أن آكل هذه الأرز الذي أكلتموه، قال فتعجبت من قوله لأنا كنا قد أكلناه جميعه حتى لم يبق منه شيء، ثم نهضنا وأخذنا نمشي فما سرنا فرسخين حتى لقيتنا خمسة أنفس أو ستة من الهند، فلما رآهم الهندي اضطرب وقال :إليَّ أن أقاتل هؤلاء، قلت: ولِمَ قال لأن بيني وبينهم عداوة، فلما كلمني بما أراد جردوا خناجرهم واجتمعوا عليه فقتلوه وشقوا بطنه حتى خرج ما فيه، ووقع عليّ من الفزع ما لا يمكّني معه المشي فسقطت كالباهت العقل، فقالوا لي: لا تفزع فإن هذا بيننا وبينه عداوة، وأنت لا بأس عليك، ومضوا وتركوني، فما تباعدوا حتى سقط غراب لا أشك في أنه ذلك الغراب، فجعل يلتقط الأرز الذي خرج من جوفه .

ومن طريف أخبار تجار البحر ومَنْ ركبه واستغنى فيه ما حُدِّث عن إسحاق ابن اليهودي وكان رجلا يتصرف مع الدلالين بعُمان، فوقع بينه وبين رجل من اليهود خصومة فهرب من عمان إلى بلاد الهند ومعه نحو مائتي دينار لم يكن يملك سواها، وغاب عن البلد نحو ثلاثين سنة ولا يُعرف له خبر، فلما كان في سنة ثلاثمائة ورد عمان، فحدثني غير واحد من إخواننا البحريين أنه ورد عمان من الصين في مركب لنفسه وجميع ما فيه له، وأنه قاطع أحمد بن هلال صاحب عمان عن المركب لئلا يحصي ما فيه ويعشر عليه على ألف ألف درهم ونيف، وأنه باع على أحمد بن مروان دفعة واحدة مائة ألف مثقال من المسك الفائق، وقدر ابن مروان أنه ليس معه غير هذا المقدار، فباع على أحمد بن مروان بُرداً (= ثوبا

مخططا ثمينا) بأربعين ألف دينار دفعة أخرى، وباع على رجل آخر بعشرين ألف دينار دفعة أخرى، فاستقاله أحمد بن مروان فنقصه في كل مثقال درهما نقرة(=نسبة من الخصم) فكانت الحطيطة(= التخفيض) مائة ألف درهم، وكانت معه طريفة من طرف التجار فطار اسمه في البلاد وحسده الخلق وطلب منه بعض أهل الشر شيئا فلم يعطه، فخرج قاصدا إلى بغداد.

وكان أبو الحسن علي بن محمد بن الفرت وزيرا فسعى باليهودي فلم يلتفت إليه فتسبب إلى بعض الأشرار من خواص المقتدر بالله وتنصح(= تشبّه بالنصحاء) في اليهودي، وحكى أن رجلا خرج من عمان ولا شيء معه وعاد ومعه مركب به مسك بألف ألف دينار وثياب وحرير صيني بمثلها وجواهر وأحجار ظريفة بمثلها. ومن غرائب نوادر الصين ما لا يُحصى، وهو شيخ لا ولد له، وأن أحمد بن هلال أخذ منه من الأمتعة خمسمائة ألف دينار فرُفع الخبر إلى المقتدر فاستعظمه وأنفذ في الوقت خادما يقال له الفلفل أسود مع ثلاثين غلاما إلى عمان ،وكتب إلى أحمد بن هلال يأمر بحمل هذا اليهودي مع الخادم ورسول من جهته، فلما وصل الخادم إلى عمان، فقرأ أحمد بن هلال الكتاب فأمر أحمد بالاحتياط على اليهودي وقطع مصانعته لنفسه على أن يدافع عنه على مال جليل، ثم دس إلى التجار مَنْ عرَّفهم ما في حَمْل اليهودي عليهم وعلى سائر الغرباء والقاطنين ممن يتجر من سوء العاقبة والجرأة عليهم ودخول اليد وطمع الفقراء فيهم،وأهل الشر، وغلقت الأسواق وكتبت المحاضر وشهد فيها الغرباء والقاطنون بأنه متى حُمِل هذا اليهودي انقطعت المراكب عن عمان وهرب التجار، وأنذر الناس بعضهم بعضا أن لا يطرق أحد ساحلا من سواحل العراق أو لا يأمن ذو مال على ماله وأنه بلد فيه وجوه التجار وذوو اليسار من أقطار الآفاق، وإنما سكنت نفوسهم إلى المقام بعدل أمير المؤمنين وعدل أميره وحسن سيرته ورعايته للتجار وكف الطامع عنهم والباغي، فشغبوا على أحمد بن هلال وصاحوا عليه، واختصموه حتى همت نفس الخادم – يعني فلفل وأصحابه – بالخروج عنهم وتمنوا الخلاص. وكتب أحمد بن هلال بذكر ما جرى وأنه قد قامت نفوس التجار وقدموا

مراكبهم وأعادوا أمتعتهم التي جاؤوا بها ليردوها وأن التجار القاطنين في البلد توغرت صدورهم ،وقالوا :إن بقينا انقطعت معايشنا وأرزاقنا بانقطاع المراكب عنا، وإنما هذا بلد رزق أهله من البحر وإنه متى تم هذا على أصغرنا جرى على الكبير أعظم، والسلاطين نار أينما توجهت أحرقت، ولا طاقة لنا بذلك والخروج من بين يديه أمثل، وأخذ الخادم ومن معه من اليهودي نحو ألفي دينار وانصرفوا. فخبثت نفس اليهودي ولم يزل يحتاج(=يتاجر) ويجمع ماله وبنى مركبا وخرج إلى الصين ومعه جميع ماله حتى لم يخلف درهما بعمان. فلما صار بسريرة التمس منه صاحب سريرة عشرين ألف دينار مصانعة ليتركه يجوز إلى الصين ولا يعوقه، فلم يعطه شيئا فدس عليه من قتله ليلا وأخذ مركبه وجميع أمواله، وكان مقامه بعمان ثلاث سنين، وخبرني من شاهده بعمان في يوم مهرجان وقد أهدى إلى أحمد بن هلال برنية(= إناء خزفي) صيني سوداء مضيئة الرأس بالذهب، فقال له :ما في هذه البرنية؟ فقال :سكباج(=لحم متبّل) أصلحتها بالصين لك، فتعجب من هذا، وقال :سكباج يُطبخ بالصين، وقد مضى عليه سنتين! كيف يبقى؟ فكشف الرأس ،وفتحت البرنية فإذا فيها سمك من ذهب عيونه من الياقوت ،وقد عبي في البرنية ،وفي خلله المسك الفائق وإذا قيمة ما في البرنية خمسون ألف دينار .

ومما حدث به اليهودي أنه قال دخلت إلى بلد يقال له "لوبين" من بلدان الصين، والمسلك إليه بين جبال وعلى جبال شاهقة، ويُحمل المتاع إليه على الغنم لأنه صعود جباله مثل الدرج لا يستطيعه إلا الغنم، فوجدت بهذا البلد ملكا كبيرا له قدر، وجلاله عظيم الشأن، فدخلت إليه وهو جالس على سريره من ذهب مرصّع باليواقيت وعليه حلي مثل حلي النساء، وزوجته إلى جانبه عليها أكثر مما عليه، وفي رقبته أطواق من ذهب وزبرجد لا يقومون بقيمة ولا يكونون مثلها عند ملك من ملوك المشرق ولا المغرب، وعلى رأسه نحو من خمسمائة جارية من كل لون عليهم أنواع الحرير والحلي، فسلمت عليه فقال :يا عربي هل رأيت أحسن من هذا؟ يعني طوقا مرصعا من أطواقه، فقلت: نعم، قال: وكيف ذلك؟ قلت: معي واحدة اشتريتها بمال عظيم، قصدتك أيها الملك بها، قال: فقالت له امرأته بقي

لك شيء هوذا قد جاءتك واحدة، فرد على هذه فقالا لي : عجل لنا بها الساعة، فقلت : بسببها جئت والليلة أجيئكما بها، فقال : لا إلا الساعة الساعة، وهو فرح مستبشر. قال اليهودي وكان عندي عشرة، فبادرت إلى الموضع الذي نزلته فأخذت تسعة فدققتها بحجر حتى صيرتها كالسويق(=مسحوق الدقيق) ودفنتها في التراب ،وأخذت الواحدة فلفيتها في المنديل وجعلتها في تخت(= صندوق) وشددتها وأحكمته ثم حملته وقصدت الملك، ولم أزل أفتح وأنشر وهو يزحف إليّ وزوجته قائمة تستعجلني حتى أخرجت المُنية (=البُغية)، فسجد من ساعته لها وسجدت امرأته ،ووهبا لي عليها مكافأة لها قدر عظيم .

وأجمع البحريون على أن بحر بربرا وهو سبعمائة فرسخ وهو في الطريق إلى بلاد الزنج من أعظم البحار خطرا، وللزنج في هذا البحر جزائر عظيمة من جانب واحد والماء فيه على ما يقال يجري جريانا شديدا والمركب تقطعه في سبعة أيام وفي ستة أيام، وإذا وقع المركب إلى بربر أخذوا أهل المركب وخصوهم، وإذا قصد التجار بربرا كان مع الواحد منهم بحسب مقداره وكثرة ماله جماعة يخفرونه لئلا يأخذوه بعضهم فيخصيه، والواحد منهم يجمع بيض من يخصيه ويحفظها فإذا تفاخروا أخرجوا ما عندهم ليقع الرغبة فيه لأن الشجاعة هو أن يخصي الرجل منهم الرجل من الغرباء .

ومن البحار الخبيثة الصعبة الشديدة التي يقل السلامة فيها بحر غباب سرنديب وهو ثلاثمائة فرسخ وفيه من التماسيح أمر عظيم، وفي ساحل هذا البحر النمور والبوارج(= القراصنة) الذين يقطعون في هذا البحر إذا ظفروا بمركب أكلوا أهله وهم أشرّ قوم، وليس في سائر الأماكن من يقطع البحار مثلهم، فالمركب الذي يقطع هذا البحر متى أخذه البوارج أكلوا أهله، وإن غرق لم يمض عليه ساعة حتى يأكل أهله التماسيح، وإن انكسر بقرب البر وصعد أهله إلى الساحل قطعهم النمور في ساعة واحدة .

ومن أخبار الهند في سننهم الظريفة ما حدثني به الحسن بن عمرو أنه سمع شيخا عالما بِسيَر الهند يقول :إن بعض ملوك الهند الكبار كان جالسا يأكل وبإزائه ببغاء في قفص معلقة فقال لها :تعالي فكلي معي، فقالت :أنا أفزع من السنور، فقال لها :أنا بلا وجرك، وهو بكلام الهندي إني أفعل بنفسي مثل ما يصيبك، وتفسير هذه اللفظة ومعناها هو ما أذكره، وذلك أن الملك من ملوك الهند يجيء إليه من الرجال عدة على حسب محله وجلالة قدره فيقولون له: نحن بلا وجرك فيطعمهم الأرز بيده ويعطيهم التانبول(= نبات) بيده، فيقطع كل واحد منهم الخنصر من أصابعه ويضعها بين يديه، ثم يكونون معه حيث سلك يأكلون بأكله، ويشربون بشربه، ويتولون إطعامه ويستقضون سائر أحواله فلا تدخل إليه حظية ولا جارية ولا غلام إلا فتشوه، ولا يفرش له فراش إلا فتشوه، ولا يقدم له طعام ولا شراب إلا قالوا للذي أحضره كُلْ منه أولا، وما أشبه هذا من سائر الأشياء التي يخاف على الملوك منها، فإن مات قتلوا أنفسهم، وإن أحرق نفسه أحرقوا أنفسهم، وإن مرض عذبوا نفوسهم لمرضه، وإن حارب أو حورب كانوا حوله ومعه، ولا يجوز أن يكون هؤلاء (البلاوجرية) إلا من علية أهل الموضع، ومن يرجع إلى نجدة وبسالة وشهامة وله رواء ومنظر فهذا معنى البلاوجرية، فلما قال الملك لها: أنا بلاوجرك أكل الأرز عنها، فلما رأته قد أكل الأرز عنها، وقال لها: أنا بلاوجرك ،نزلت من القفص وجاءت فجلست على الخوان لتأكل، فقصد السنور فقطع رأسها فأخذ الملك بدن الببغاء فجعله في صينية وجعل عليه الكافور وحوله الهيل والتانبول والنورة والفوفل، وضرب الطبل ودار في البلد في عسكره والصينية على يده ،ثم كان يوجه بالصينية كل يوم فيطوف بها في البلد مدة سنتين ،فلما طال ذلك اجتمع عليه البلاوجرية وغيرهم من أهل مملكته فقالوا له :هذا قبيح ،وقد طال الأمر فيه فإلى كم تدافع إما أن تفي وإلا فعرِّفنا حتى نعزلك، ونقلب ملكا غيرك لأن في الشرط أنه إذا قال بلاوجرك ثم وجب عليه حكم فدافع به(= أجّل) أو نكل عنه فقد صار بهند، والبهند عندهم هو الذي لا يجوز عليه الحكم لقلته ومهانته وسقوطه مثل المغني والزامر وما أشبه ذلك، والملك ومن دونه في ذلك سواء إذا نكل عن واجب . فلما رأى هذا جمع العود

والصندل والسليط(=زيت فاخر) وحفر حفيرة وجعل ذلك فيها وأحرقه بالنار ثم رمى بنفسه فيها فاحترق واحترق بلاوجريته ثم بلاوجرية البلاوجرية يعني أتباع لاتباع فأرموا نفوسهم معه فاحترق في ذلك اليوم نحو ألفي نفس معه، وكان أصل ذلك قوله للبغاء أنا بلاوجرك .

وحدثني أن الملوك بسرنديب ومَن يجري مجراهم يُحملون في الهندول، وهو مثل محفة على أعناق الرجال، ومعه كرندة(= طبق) من ذهب فيه ورق التانبول وحوائجه يحملها غلام آخر، والغلمان والأصحاب معه ويطوف في البلد أو يمضي في حاجة وهو يمضغ التانبول ويبصق في المبصقة فربما جاءه البول وهو في مسيره ذاك فيخرج من الهندول ويبول في الطريق أو السوق أو حيث اتفق له، وهو مع ذلك سائر ليس يقف فإذا فرغ من بوله رد إلى ثيابه ولم يمسحه .

وحدثني قال رأيت بسندان رجلا من الهند قد اجتاز بدار فانصب عليه وعلى ثيابه بول من تلك الدار، فوقف وصاح بهم :هذا الذي صب عليّ ماء من غسل اليد أو غسل الفم؟ وهو عندهم أقذر ما يكون، فقالوا له: هذا بول صبي بال الساعة، فقال: كَنًّا، بمعنى جيد، ومضى . وعندهم أن البول أنظف من الماء الذي غُسل به اليد والفم .

وحدثني أن الواحد من الهند يتغوط وينزل إلى الثلاج وهو بركة الماء المنصب من الجبال والصحاري في أوان الأمطار والسيول حتى يغتسل فيه ويستنجي، فإذا تنظف تمضمض بالماء وخرج من الثلاج فمج الماء من فيه إلى الأرض لأن عنده أنه إذا مج الماء من فيه إلى الثلاج أفسده . وحدثني عمن دخل سرنديب وخالط أهلها أن من رسوم سلطانها في معاملته أشياء منها أن له منظرة على الشط يضرب فيها على الأمتعة .

وحدثني بعض البحريين من أمر الحيات بكولَم مِلى ما يدهش وذكر أن منها حية تسمى الناغزان منقطة على رأسها مثل الصليب أخضر ترفع رأسها من الأرض مقدار ذراع وذراعين على قدر كبرها ثم تنفخ رأسها وأصداغها وتصير مثل رأس الكلب، وإذا سعت لم تُلحق، وإذا طلبت لحقت ما أرادت، وإذا نهشت قتلت . وأن بكولم مِلى رجل مسلم يسمى

بالهندية "بنجي "وهو صاحب الصلاة يُرْقي نهشة هذه الحية فربما كان قد تمكن سمها فيه فلم ينفع، وفي الأكثر يعيش من يُرْقيه، ويُرقي أيضا من نهشتها وغيرها من الأفاعي والحيات. بهذه الناحية جماعة من الهند يُرقون إلا أن رُقْية هذا المسلم لا تكاد تخطىء، قال لي هذا الرجل: وشاهدته وقد جاءه برجل قد نهشته هذه الحية، وحضر رجل من الهند موصوف بالحذق بالرُّقْية ليبرأ وجعل المسلم يُرْقيه ليموت فمات، وأنه شاهده أيضا وقد رقى غير واحد ممن قد نهشته هذه الحية وغيرها فبرىء وسلم وأن ببلاد خاصته حية صغيرة ولها رأسان أحدهما الأصغر صغير يقال لها بَطَر وإنما إذا فتحت فمها الأصغر كان مثل منقار العصفور، إذا نهشت بأيهما لم يمهل طرفة عين.

وحدثني أبو الحسن قال: حدثني محمد بن بابشاد قال: رأيت بغُبٍّ سرنديب من أمر الحيات أشياء ظريفة ومن أصحاب الرقى أمر عجيب وشاهدتهم في بعض البلاد القريبة من بريين إذا نهشت أحدهم أفعى أو حية رقوه فإن نفعت الرُّقيا سَلِم وإلا جعلوه في سرير من خشب فتركوه على وجه الماء مع الجزر في نهر لهم يجري إلى البحر ودورهم أو دار أكبرهم على ذلك النهر طوله، وقد علموا أنه لا يوضع في مثل ذلك السرير إلا ملسوع، فمن كان منهم يحسن الرُّقى أخذ السرير ورقى من فيه، فإن نفعت رقيته قام الملسوع ورجع إلى منزله برجليه، وإن لم تنفع تركه مع الماء ولا يزال بطول البلد يأخذه واحد بعد واحد فيرقيه من يحسن الرقي، فإن نفعت رقيته قام الملسوع وإن لم تنفع سرحه، فلا يزال كذلك مع الماء حتى يبلغ إلى لآخر البلد، فإذا لم تنفع الرقية فيه حمله الماء حتى يرمي به في البحر ويغرق أو ينفق قبل أن يصل إلى البحر، لأنه ليس في الأمر أن يتركوه على الأرض ولا يتمسك به أهله رجاء أن يصلح، فإن سلم رجع برجليه وإن لم ينفع فيه الرقي فقد مضى .

وحدثني محمد بن بابشاد أيضا أنه قال :رأيت في نهر من أنهار الأغباب التي تجري إلى البحر تجري في الجزر جريا عظيما والمد يجري كذلك، فمررت في بعض الأيام بذلك النهر والماء قد نزل عن أكثره وظهرت حافتاه، وإذ بعجوز عليها ثيابها متربعة قاعدة على الرمل مع ضفة الماء فقلت لها: ما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت لي: أنا عجوز كبيرة وقد عشت مدة

طويلة وأكلت من الدنيا قطعة، واحتجت أن أتقرب إلى خالقي لأنجو، فقلت: فما الذي يقعدك هاهنا؟ فقالت :أنتظر الماء حتى يجيء فيحملني. فما زالت قاعدة موضعها حتى جاء الماء فحملها وغرقها، وقد ذكرتُ في هذا الجزء في غير موضع من أخبار الهند في قتلهم أنفسهم بضروب القتل ما فيه كفاية .

وحدثني بعض من دخل الهند أنه رأى بكنبايَت الواحد بعد الواحد يجيء إلى الخور ليغرق نفسه فيعطي الأجرة لمن يغرقه يتخوف أن يدركه الخوف أو الجزع أو يبدو له في تغريق نفسه فيعطي الأجرة لمن يضع يده في قفاه ويغطه في الماء حتى يتلف، وإن صاح أو استعفى أو سأله أن يطلقه لم يفعل .

وحدثني بعض من دخل بلاد السَّهال أنه رأى بجزيرة البقر – وهي بين جزيرة سرنديب وبين مندورين ،وهي من الجزاير التي حوالي جزيرة سهيلان – بُدّاً للهند عظيما، وأن الهند يقولون إن هذا البُد كان بجزيرة سهيلان فعبر البحر حتى صار بجزيرة البقر، وأنه يقيم في كل جزيرة منها ألف سنة ثم يعبر إلى أخرى .

وحدثني محمد بن بابشاد قال: رأيت بسريرة عند امرأة بها دابة على صورة بني آدم إلا أن وجهها أسود مثل وجه الزنج ورجليه ويديه طوال أزيد مما عليه الآدمي وله ذنب طويل، وعليه مثل شعر القرد وهو جالس في حجر المرأة قد تشبث بها فقلت لها ما هذا؟ فقالت :من أهل الغياض والأشجار، وكان يصيح صياحا ضعيفا لا يُفهم ما هو، وهو قريب من القرد إلا أن وجهه وجه بني آدم وخلقته مثل بني آدم .

وحدثني أن بجزيرة لامري من الزرافة ما لم يوصف كبره، وحكى عمن حدثه من أهل المراكب الذين كسرهم البحر أنهم اضطروا إلى المشي من نواحي فنصور إلى لامري وكانوا لا يمشون بالليل خوفا من الزرافة لأنها لا تظهر بالنهار، فإذا أقبل الليل صعدوا على شجرة عظيمة خوفا منها، فإذا كان الليل أحسوا بها تدور حولهم ويروا بالنهار آثار وطيها على الرمل، وأن بالجزيرة من النمل ما لا يوصف كثرة وخاصة بجزيرة لامري فإن النمل فيها عظيم . وحدثني أنه سمع بعض البحريين يحكى أن "بلو لوبيلنك" وهو جون في البحر فيه قوم

يأكلون الناس لهم أذناب وهم فيها بين أرض فنصور وأرض لامري .

حدثني محمد بن بابشاد أن بجزيرة النيان ،وهي جزيرة في البحر الخارج بينها وبين فنصور مقدار مائة فرسخ ،قوم يأكلون الناس أيضا ويجمعون رؤوس الناس عندهم ويفتخر الواحد منهم بكثرة ما يجمع من الرؤوس، ويشترون سبايك صفر بالثمن الوافر ويذخرونه مكان الذهب ويبقى في بلادهم الدهر الطويل كما يبقى الذهب عندنا، والذهب عندهم لا مقام له بل يكون منه ما يكون من الصفر(= النحاس) عندنا. فتبارك الله أحسن الخالقين . وبعد جزيرة النيان ثلاث جزاير يقال لها براوة أهلها أيضا يأكلون الناس ويجمعون رؤوسهم فيتعاملون بها ويقتنونها .

وحدثني أن جميع أهل فنصور ولامري وكَلَه وقاقُله وصنفين وغيرهم يأكلون الناس إلا أنهم لا يأكلون إلا أعداءهم من طريق الغيظ عليهم، وليس يأكلونهم من طريق الجوع ،ويقددون من لحم الإنسان ويصنعونه من أنواع الصنعة والألوان، وينتقلون به إلى الخمر .

وحدثني أن أهل جزاير الجبالوس، وهي جزاير كثيرة طولها ثمانون فرسخا، يقصدون المركب ويشترون منهم المتاع يدا بيد، وأنه متى حصل مع أحدهم شيء قبل أن يُعطي بدلا منه، مضى ولم يقدر على استرجاعه منه، وربما انكسر المركب ووقع إليهم رجل أو امرأة فيسلم معه شيء من ماله أو ثيابه، فإن كان الذي سلم معه بيده لم يأخذوا منه شيئا كائنا ما كان لأنهم لا يأخذون من يد أحد يقع لهم شيئا، ثم يقعدونه في منازلهم ويطعمونه مما يأكلون، ولا يأكل الواحد منهم حتى يطعم ضيفه، فإذا أكل الضيف أكل ما يفضُل عنه ولا يزال عندهم من هذه صورته حتى يجتاز بهم مركب حملوهم إليه وقالوا لأهل المركب: أعطونا شيئا وخذوه منا، فلا بد لأهل المركب أن يعطوهم شيئا عنه ويأخذونه، وربما كان الذي يقع لهم شهما فيخدمهم ويفتل الكنبار(= ألياف أشجار جوز الهند) ويبيعه عليهم بالعنب،ر ويجمع شيئا إلى وقت اجتياز المراكب فيجمع شيئا في مقامه عندهم .

وحدثني بعض من دخل بلاد الهند أنه سمع أن الإدماس (= الألماس)الجيد النادر المرتفع يُجلب من نواحي قشمير وأن هناك وادياً بين جبلين فيه نار توقد طول الدهر ليلا ونهارا شتاءً

وصيفا، والإدماس فيه وليس يطلبه إلا طائفة من الهند سفلة ،يحملون أنفسهم على المهالك، فيجتمع الجماعة منهم ويقصدون هذا الوادي ويذبحون الغنم الهزلة ويقطعونها قطعا ويقذفون بالقطعة بعد القطعة في كفة منجنيق يعملونه لأن التقرب من الموضع لا يمكنهم لجهات شتى منها أو وهج النار يمنع من ذلك، ومنها أن حول النار من الأفاعي والحيات ما لا يوصف، وفيها ما لا يُمْهِل حتى يُتلف، فإذا قذفوا باللحم انحدرت عليه النسور وهي كثيرة فتخطفه إن وقع بعيدا عن النار فترفعه فإذا رأوا النسر قد أخذ اللحم اتبعوه حيث يمضي وربما سقط من قطعة اللحم التي أخذها شيء من الإدماس، وربما انحدر في موضع فيأكلها فيجدون في ذلك الموضع الإدماس، وربما سقطت اللحم في النار فتحترق، وربما وقع النسر على قطعة لحم بقرب النار فيحترق ويتشيط، وربما اختطفها النسر قبل سقوطها إلى الأرض على حسب ما يتفق، فهكذا يأخذ الإدماس، وفي الأكثر يَتْلفُ طالبُه بالأفاعي والحيات والنار، وملوك الناحية يطلبون الإدماس ويشددون في طلبه وطلب من يلتمسه ويفتشونهم أشد تفتيش لجلالة الإدماس وعظم خطره .

وحدثني إسمعيلويه الناخذاة ،قال: اجتمع لي في كرّة واحدة وردْتُ فيها من كَلَه إلى عمان ،وذلك في سنة سبعة عشر وثلاثمائة، ما لم يجتمع لناخذا قبلي، خطفْتُ من كَلَه فلقيني في طريقي سبعون بارجة فحاربتهم ثلاثة أيام متوالية ،وأحرقْتُ عدة منها ،وقتلت جماعة ،وتخلصت وقطعت من كلَه إلى أن وصلت إلى شط العرب يعني "شِحْر لُبان" في أحد وأربعين يوما، فأخذ السلطان بعمان من عشور الأمتعة التي في مركبي ستمائة ألف دينار وترك على الناس من العشور في بضائع وغير ذلك مما سامحهم فيه ما لعله يكون مائة ألف دينار سوى ما سرق من العشور، ولم يوقف عليه، وهذه ثلاثة أشياء اجتمعت في كرّة واحدة تتفق لم تجتمع ولا متفرقة لأحد ورد من هذه الناحية قط .

وحدثني البلوجي المتطيب بعمان، قال: كنت بالتيز وقفنا إليها بالتواهية(= وصلناها ضالين)، فتركنا المركب ونجّلنا الحمولة وأقمنا ننتظر الشرتا، فبينما نحن كذلك يوما من الأيام إذ وافت امرأة لها قَدٌّ وتمامٌ وجسمٌ حسن، ومعها شيخ أبيض اللحية ضعيف الجسم

نحيف، فقالت: أشكو إليكم هذا الشيخ ،وكثرة مطالبته لي وإني ليس أطيقه، فلم نزل نرفق بها إلى أن وفَّقناه أن يصطلح في اليوم دفعتين وفي الليل مثله، فلما كان بعد أيام عادت إلينا فشكت مثل ما شكت أولا، فقلنا: يا هذا الرجل أمرك عجيب فما خبرك؟ قال :كنت في مركب فلان في سنة كذا فأصيب وتخلصت مع جماعة من أهل المركب على الشراع :فوقعنا بجزيرة فمكثنا أياما لم نطعم شيئا حتى أشرفنا على التلف، ثم وقعت سمكة ميتة قد قذفها الموج إلى الساحل فتعامى القوم من أكلها خوفا أن تكون أكلت شيئا من السموم، فحمل نفسي الجهد الذي بي على أكلها، وقلت: إن تلفْتُ استرحت مما أنا فيه ،وإن عشت كنت قد شبعْت لوقت آخر، فأخذتها والقوم يمنعوني وجعلت آكلها غير مشوية فلما حصل لحمها في جوفي التهب في ظهري مثل النار ثم صار بطول ظهري كعمود من نار وانتشر على بدني وأتعبني، فأنا منذ ذاك الوقت وإلى يومي هذا على هذه الصورة، قال: وكان له منذ أكله السمكة سنين كثيرة .

وتذاكرنا أمر إسمعيلويه بن إبراهيم بن مرداس فقيل لي إنه وصل في سنة سبع عشرة وثلاثمائة وكان وصوله منذ خطف من كَلّه وإلى أن دخل بكلأ عمان ثمانية وأربعين يوما، وورد في تلك السنة كاوان من سرنديب وبلغ عشور مركبه ستمائة ألف دينار لا مركب إسمعيلويه .

حدثني عن كاوان هذا أنه قال: أدخلني بغبور(=امبراطور) ملك الصين إلى بستان بخانقو مقدار عشرين جريبا فيه نرجس ومنتور(= نوع من الأزهار) وشقايق وورد وسائر النوار، فعجبت من اجتماع نوار الصيف والشتاء في وقت واحد في بستان واحد، فقال :كيف ترى؟ فقلت: ما رأيت حسنة إلا وهذا أحسن !ولا طرفة إلا وهذا أطرف منها! فقال لي :جميع ما ترى من الأشجار والنوار معمولة من الحرير الصيني ،قد عُمِل وضُفِر وحُبِك ونُسِج وسُوِّي، ومنْ رآه لم يشك فيه أنه شجر ونوار لا يغادر شيئا .

وبـ"باندمان الكبير" بيت كبير من الذهب فيه قبر يعظِّمه أهل باندمان، ولشدة تعظمهم إياه بنوا عليه بيتا من الذهب، وأهل الجزيرتين يزورونه، ويقولون إنه قبر سليمان بن داود

عليهما السلام وإنه كان دعا الله عز وجل أن يجعل قبره حيث لا يصل إليه أهل ذلك العصر، وإن الله تعالى خصَّهم به فجعل قبره عندهم، فإندمان لم يقع إليها أحد عاد إلينا، وإنما حكى لي بعض من دخل بلاد الذهب أنه رأى بصِنفين رجلا ذكر أنه وصل إلى إندمان في جملة أهل مركب كانوا فيه وأُكلوا ولم يتخلص غيره ،وأنه حدثه بهذا الحديث .

وحدثني غير واحد من البحريين بأمر الدرة المعروفة باليتيمة وإنما سُميت اليتيمة لأنه لم يوجد لها أخت في الدنيا وأجودهم شرحا للقصة، حدث أنه كان بعُمان رجل يقال له مسلم بن بشر، وكان رجلا مستورا جميل الطريقة(=حسن الأخلاق) وكان ممن يجهز الغواصة في طلب اللؤلؤ وكانت بيده بضاعة فلم يزل يجهز الرجال للغوص ولا يرجع إليه فائدة حتى ذهب جميع ما كان يملكه ولم يبق له حيلة ولا ذخيرة ولا ثوب ولا شيء يجوز بيعه إلا خلخال بمائة دينار لزوجته، فقال لها :اقرضيني هذا الخلخال؛ لأجهز به فلعل الله تعالى يسهِّل شيئا، فقالت له: يا هذا الرجل لم تبق لنا ذخيرة ولا شيء نعول عليه، وقد هلكنا وافتقرنا، فلأن نأكل بهذا الخلخال أصلح من أن نتلفه في البحر، فتلطّف بها وأخذ الخلخال وصرفه وجهّز بجميعه الرجال إلى الغوص وخرج معهم. ومن شرط الغواص أن يقيم الغوّاصة فيه شهرين لا غير وعلى هذا يتشارطون، فأقاموا يغوصون تسعة وخمسين يوما ويخرجون الصدف ويفتحونه فلا يحصل لهم شيء، فلما كان في يوم الستين غاصوا على اسم ابليس لعنه الله فوجدوا فيما أخرجوه صَدَفة استخرجوا منها حبة لها مقدار كبير لعل ثمنها يوفي بجميع ما كان يملكه مسلم منذ كان وإلى وقته، فقالوا هذا وجدناه على اسم إبليس لعنه الله فأخذها وسحقها ورمى بها في البحر. فقالوا له يا هذا الرجل لِمَ فعلت هذا؟ افتقرت وهلكت ،ولم يبق لك شيء بيدك مثل هذه الحبة التي لعلها تساوي آلاف دنانير، فتسحقها. فقال :سبحان الله كيف أن استحل أن أنتفع بمال استخرج على اسم إبليس ،وإني أعلم أن الله تبارك وتعالى لا يبارك ،وإنما وقعت هذه الحبة بأيدينا ليختبرنا الله تعالى بها ويعلم من يعرف خبرها اعتقادي، ولئن انتفعت بها ليقتدينّ كل أحد بي فلا يغوصون إلا على اسم إبليس لعنه الله فإثم ذلك يعظم على كل فائدة وإن عظمت، ووالله لو كان

مكانها كل لؤلؤ في البحر ما تلبست به، امضوا فغوصوا وقولوا باسم الله وببركة الله، قال فغاصوا على ما رسم لهم فما صلى صلاة المغرب من ذلك اليوم ،وهو آخر يوم من الستين حتى حصل بيده درتان إحداهما اليتيمة والأخرى دونها بكثير، فحملهما إلى الرشيد ،وباع اليتيمة بسبعين ألف درهم والصغرى بثلاثين ألف درهم وانصرف إلى عمان بمائة ألف، فبنى بها دارا عظيمة واشترى ضياعا واعتقر عقارا ،وداره معروفة بعمان، فهذا ما كان من خبر الدرة اليتيمة .

وحدثني يونس بن مهران السيرافي التاجر وقد كان دخل الزابج قال: رأيت في البلد الذي فيه مهراجا الملك بالزابج من الأسواق العظيمة ما لا يُحصى، وعددتُ في سوق الصيارف بهذا البلد ثمانمائة صيرفي سوى ما في البلد من الصيارف المتفرقين في الأسواق.
وحكى من أمر جزيرة الزابج وعمارتها وكثرة البلدان والقرى فيها ما لا يقع عليه وصف .

ومن طريف الأخبار ما حدثني به بعض أصحابنا، قال: ركبت في سفينة من الأُبلّة أريد بَيَان فأخذتنا الأمواج ،وزاد الأمر علينا حتى نزعنا ثيابنا ولم يكن عندنا شك أننا تالفون، وكان في السفينة معنا امرأة معها صبي وكانت ساكتة قبل ذلك، فلما اشتد بنا الأمر أخذت ترقّص الصبي وتضحك ولم يكن فينا فضل لخطابها لأنّا يئسنا من الحياة، فلما صرنا في الشط وأمنّا للغرق قلت لها: يا هذه المرأة أما تتقين الله عز وجل، أنت ترى ما حل بنا من البلاء ،وأنّا قد يئسنا الحياة ترقصين الصبي وتضحكين أما خفت الغرق كما خفنا؟ فقالت: لو سمعتم حديثي لتعجبتم وما أنكرتم عليّ صبري وتهاوني بالغرق، قلنا لها: حدثينا، فقالت: أنا امرأة من أهل الأُبلّة وكان لوالدي صديق من بانانية المراكب المختلفة من عمان إلى البصرة، وكان إذا ورد المركب الذي هو فيه من عمان نزل إلينا وأقام عندنا أياما وأهدى إلينا، وإذا أراد الخروج فعلنا مثل ذلك وأهدينا إليه ما يمكننا، وكان رجلا مستورا فزوجني أبي به، وما مضت غير ثلاث سنين حتى توفي أبي، فقال لي :قومي حتى أحملك إلى عمان فإن لي بها والدة وأهلا، فخرجت معه إلى عمان وكنت مع أهله بها مقدار أربع سنين وهو يختلف بين عمان والبصرة، ثم توفي بعمان بعد أن ولدت هذا الصبي بخمسة أشهر، فلما قضيت

العدة لم يطب لي المقام بعمان لأن مقامي إنما كان بسببه، فقلت لوالدته وأهله: أريد أن أرجع إلى أهلي بالأُبلَّة، فقالوا لي إن أقمتِ عندنا قاسمناك حياتنا، فليس لنا في الدنيا غير هذا الصبي، وسألوني فأبَيتُ، فلما عزمت على الخروج اشتريت للصبي سريرا وثيقا من خيزران وجعلت فيه ثيابا كنت قد جمعتها لي وللصبي وذخيرة كنت اذخرتها، وغطيت ذلك كله وأحكمته وجعلت الصبي فوقه وخرجت في مركب يريد البصرة، فبينما نحن إذ أخذنا الخبُّ فانكسر المركب نصف الليل وتفرقت الركاب والبانانية في البحر فلم يرد أحد منا صاحبه، وتعلقت بلوح من الألواح فضبطته، ولم أزل عليه إلى الغد نصف النهار حتى رآنا صاحب مركب مجتاز فجمع من رأس الماء نحو عشرة أنفس كنت أنا أحدهم، وحملنا إلى مركبه ونكسوا رؤوسنا حتى قذفنا الماء الذي شربناه في البحر وسقونا أدوية وعالجونا إلى الغد بالغداة حتى رجعت نفوسنا إلينا، وأنا قد نسيت ابني لما أنا فيه وزال الفكر فيه عن قلبي، فلما كان من الغد قال صاحب المركب وأنا أسمع: انظروا هذه المرأة لها لبن فإن هذا الصبي الذي وجدناه يموت، فقالوا لي: ألك لبنا؟ فتذكرت الصبي فقلت قد كان لي لبن ،ومع ما مر بي فما أعلم أنه قد بقي منه شيء، فقالوا أبصري هذا الصبي قبل أن يموت فجاؤوني بالسرير وفيه الصبي بحاله ما فتحوه ولا أخذوا منه شيئا، فلما رأيته وقعت على وجهي وصرخت وغشي علي، فرشوا علي الماء وقالوا: ما أنت؟ فأفقت بعد ساعة وأقبلت أبكي وأضم الصبي، فقالوا: يا هذه المرأة ما لك؟ فقلت: هذا الصبي ابني، فقام صاحب المركب عليّ وقال: هذا ابنك فأي شيء الذي تحته؟ فأقبلت أعد عليهم ما تحته وجعلوا يخرجون شيئا بعد شيء كأنه إنما وضع الساعة ،فما منهم أحد إلا بكى بكاء عظيما وحمدوا الله وشكروه، فأنا غرقت في ذلك البحر وفرق بيني وبين ابني فجمع الله بيني وبينه على تلك الصورة، أخاف من هذه الرحلة!؟ إن كتب الله عليّ الغرق لم ينفعني الحذر .

وحدثني بعض تجار سيراف قال: ركبت في مركب من عمان يريد البصرة وكان في المركب جارية منصورية جميلة الوجه فارهة، ورأت أحد بانانية المركب يومي إليها في الوقت إذا قرب من البلنج ،ولم يكن يقدر عليها لكونها في البلنج، فلما قربنا من خارك(=جزيرة

خرج في الخليج العربي) تغير البحر وأخذنا الخب فأصيب المركب واتفق أن تعلقت بالشراع وقد تعلق به قبلي جماعة فيهم الجارية المنصورية، وذلك الباناني الذي كان يولع بها فجعل يراودها عن نفسها وهي ترفسه برجلها وتمنعه بقية نهارها والأمواج ترفعنا وتضعنا إلى أن وضعت الجارية وتمكن منه فوطئها وأنا أرى ،وليس فينا فضل للقيام ولا خطاب ولا قدرة عل منعه ولا الفكر أيضا لأنا هالكون في البحر، وأصبحنا وقد تلفت الجارية وسقطت عن الشراع في البحر مع أكثر من سَلِم على الشراع .

وحدثني أنه كان بصيمور رجل من أهل سيراف يقال له العباس بن ماهان وكان "هُنَرْمَن" (= الذي يمثلهم) المسلمين بصيمور ووجه البلد والمنضوي إليه من المسلمين فدخل بعض بانانية المراكب، وكان من أهل الفُجر فمرّ بصيمور فرأى فيه صنما على صورة جارية في نهاية الحسن فطلب غفلة من القوم وتقدم إليها فأنزل بين أفخاذها ،واجتاز به أحد من القوم ففزع وتباعد وفطن به القيّم، فتقدم إلى الصنم فوجد بين أفخاذه ماء فتعلق بالرجل ورفع من ساعته إلى الملك بصيمور وعرف الصورة، وأقر الرجل بما فعل فقال: ما ترون؟ فقالوا :يطرح للفيلة حتى تدوسه، وقال آخر :يقطع قطعا فقال آخر: لا يجوز هذا فإنه من العرب وبيننا وبينهم شروط، ولكن يمضي واحد منكم إلى العباس بن ماهان هنرمن المسلمين فيقول :له ما حكم الرجل منكم إذا وجد في مسجد من مساجدكم بامرأة ؟وانظروا ما يقول فافعلوا به. فمضى إليه أحد الوزراء واستفتاه فأحب العباس بن ماهان أن يعظم أمر الإسلام عندهم ،فقال: إذا وجدنا أحدا على هذه الصفة قتلناه، فقتلوا الرجل فاتصل الخبر بالعباس، وكيف جرت هذه القضية فخرج عن صيمور سرا من الملك خوفا أن يمنعه من الخروج عن بلده لمحله وموضعه .

وحدثني داربزين السيرافي وهو أخ امرأة عبيد الله بن أيوب وعبيد الله خال عبد الله بن الفضل القاضي قال: كنت بخانقو وهي قصبة الصين الأكبر يوما إذ قيل في غد يدخل البلد أحد من حجاب بغبور قد وافى من بعض النواحي فدلس الناس من غد في الطريق الذي يجتاز للنظر إليه وابتدأ أصحابه يدخلون طلوع الشمس قطعة(= جماعات) إلى وقت

العصر ثم أدخل الحاجب نفسه وإذا معه من الرجال نحو مائة ألف فارس .

ومن الأخبار الطريفة ما حدثني به العباس بن ماهان هُنَرْمَن صيمور أن بعض التجار أخبره عن نفسه أنه جهز مركبا من سندان أو صيمور إلى عمان،وأنه سلم إلى وكيله في المركب خشبة طويلة من الساج عليها علامة ،وقال له: بع هذه واشتري بثمنها كذا وكذا من السقط، وكتب له بذلك تذكرة وخطف المركب . فلما كان بعد شهرين أو زيادة عليها وأنا جالس في منزلي وإذ برجل قد وافى فقال لي قد دخلت الخور خشبة طويلة عليها اسمك، فقمت أعدو وليس عقلي معي فأنظر فإذا الخشبة بعينها فلم أشك أن المركب انكسر في البحر لأنها خشبة طويلة تحت الخشب فلم يمكن إخراجها من المركب في وقت الخب وطرح المتاع إلى البحر وزال الشك عني في أن المركب أصيب، فجاء الناس فعزوني وتعزيت عن المركب وما فيه وعدت إلى شغلي وليس عندي البتة شك في أنه تلف لأنه ما جاءنا من البحر أحد عنده خبر . فما مضى إلا شهران أو نحوهما حتى جاءني البشير فقال: مركبك قد طلع. فقمت مبادرا فإذا المركب قد شارف البلد، ونزل الوكيل منه، وجاءني فسألته عن الخبر فقال :سلامة وعافية، فقلت: هل ذهب منكم شيء أو طرحتم إلى البحر شيئا؟ فقال :لم يذهب منا خلاله ،فحمدت الله كثيرا، فقلت له: ما فعلت بتلك الخشبة الفلانية؟ قال بعتها بنيف وثلاثين دينارا واشتريت لك بالثمن . وكثر تعجبي من ذلك، ثم تحاسبنا فحاسبني على ثمنها ، فقلت: لا بد أن تصدقني عن هذه الخشبة وعزمت عليه(= ألححتُ عليه) فقال لي: إني لما حولت جميع ما في المركب إلى الساحل وقع بعمان خب عظيم في البحر فحملت الأمواج الأخشاب إلى البحر وقلب البحر الرمل على الساحل فغطى ما شاء الله أن يغطيه من الأخشاب، فلما كان من الغد جمعت الرجال وطلبنا الأمتعة فلم نفقد شيئا غير الخشبة الطويلة، فقلت لعل الرمل قد سفا عليها فغطاها فاستأجرت من حفر بالساحل ليطلبها فما وقعنا لها على خبر وإذا الأمواج قد قذفتها إلى البحر فعادت إلى صاحبها . وهذا من أظرف ما سمعته في هذا المعنى .

وخرج في سنة اثنين وأربعين وثلاثمائة مركب لبعض التجار بالبصرة من عمان إلى جدة

ولحقه الخب في بعض نواحي" شِحر لُبان "وطرحوا إلى البحر شيئا من الحمولة وفيما طُرح خمسة أعدال قطن حليج، وسلم المركب، واتفق أن خرج مركب لهذا التاجر في هذه السنة أيضا من البصرة يريد عدن وغلافقة ،فلما صار إلى تلك الناحية من شحر لبان انقطع القارب أو الدونيج من خلف المركب وأخذته الأمواج فطرح البانانية نفوسهم في القارب أو الدونيج ومضوا خلفه ليأخذوه فدخل موضعا شبيه البطن في البحر فدخلوا خلفه فإذا على الساحل خمسة أعدال قطن حليج بعلامة صاحب المركب فحملوها في القارب ورزق الله السلامة، وقد كانوا قدروا أن مركبا انكسر فيه الأعدال، فعرفوا بعد ذلك الخبر أن هذه الأعدال من جملة ما طرح من ذلك المركب .

وحدثني من أثق لقوله إنه شاهد ببعض بلاد الهند رجلين ... وحفر كل واحد منهما بئرا(= في جسده) وملأها ، بعد أن قام فيها على رجله سرجينا(= وقف بنفسه على وضع بَعر الجمال فيها)، وجعل فيه نارا، ووسَّطا بينهما نَردا وجعلا يلعبان بهما، ويمضغان التانبول ويغنّيان والنار تعمل فيهما من أسفل إلى أن بلغت النار إلى قلوبهما فطفيا، ولم يظهر منها تألم ولا تغير . وقال إنه لا يعلم هل حدّثه هذا الرجل أنهما ماتا في اليوم الأول أو جلسا يلعبنا إلى اليوم الثاني وماتا فيه .

وحدثني عبد الواحد بن عبد الرحمن الفسوي وهو ابن أخي أبي حاتم الفسوي وقد سافر سنين كثيرة في البحار أن الهند كانت تشد شعورها مثل القلانس على الرؤوس وكانت سيوفها مستقيمة قائمة، فوقع بين طائفة منها وبين طائفة أخرى حرب فاستظهرت إحداهما على الأخرى فتحكموا عليهم وقالوا ما نرجع عنكم إلا أن تجعلوا شعوركم ساجدة لشعورنا وسيوفكم ساجدة لسيوفنا فصارت الفرقة المستظهرة عليها تشد شعورها منكوسة وسيوفهم مقوسة وهو القارطل(= بالسنسكريتية كارتالا) . فالرسم باق إلى اليوم على هذا في تلك الطوائف .

وحدثني علي بن محمد بن سهل المعروف بسرور وقد دخل تَتْبه ودبابد، هذه الدور بها راكبة على الماء وسائر أهلها بهم الشيكرة صغيرهم وكبيرهم لكثرة أكلهم الغيلم، وهو ذكر

السلاحف، وأن كل واحد منهم يشد من باب منزله إلى الماء حبلا في وتد فإذا اصفرت الشمس أخذتهم الشيكرة فيخرج الواحد من بيته ويمسك الحبل إلى الماء ليقضي حاجته ويتطهر ويعود إلى منزله، فلا يزال كذلك إلى من الغد ضحوة النهار حتى تنبسط الشمس ويضيء النهار ،وأن مُجّان الغرباء إذا دخلوا ببلادهم أخذوا حبل هذا فجعلوه مشدودا على باب هذا وحبل هذا على باب هذا فيخرج الواحد منهم إلى الماء ويعود إلى منزل الآخر فيدخله فيقع بينهما الشر ويقول له :دخلت بيتي متعمدا .

وحدثت عن رجل يقال له أبو طاهر البغدادي أنه قال: دخلت الزابج ،ومن بلاد جزيرة الزابج بلد يقال مزغاويد فيه عنبر كثير جدا، وأنه ما حمل أحد قط من ذلك العنبر في مركبه وخرج عن البلد إلا رجع إليه، وأنهم يحتالون في بيع العنبر على الغرباء . ومن لا يعرف خبر العنبر باع بأرخص سعر وأقل الثمن . وأن لأبي طاهر هذا كان في المركب شيء من العنبر قد حُمل سرا من صاحب المركب فرجعت الريح عليهم وردتهم إلى البلد .

وحدثني يزيد العُماني ناخوذة الزنج قال: رأيت في نواحي بلاد الزنج جبلين عظيمين بينهما واد وفيه آثار النار وعظام نخرة وجلود محترقة ،فسألت عنه ،فقيل لي: هذا واد يجري فيه وقت في السنة نار فربما جاءت النار وفي الوادي غنم ومواشي ترعى ولم تشعر أربابها ورعاتها لذلك فتحرقهم، وأن النار تجيء في الوادي أياما مثل السيل إذا جرى في الأودية (=حمم البراكين).

وببلاد الهند لصوص يجيء منهم جماعة من بلد إلى بلد فيعبثون على التجار الموسرين إما غريب وإما هندي فيقبضون عليه في بيته أو في السوق أو في الطريق ويجردون في وجهه السكاكين ويقولون له أعطنا كذا وكذا وكذا وإلا قتلناك، فإن تقدم إليهم أحد يمنعهم من الرجل، أو سلطان، قتلوه ولم يبالوا عنده أن يُقتلوا أو يَقتلوا هم أنفسهم بعده، كل ذلك عندهم سواء إذا طالبوا الإنسان لم يسع أحدا أن يكلمهم ولا يتعّرض لهم خوفا من نفسه ويمضي معهم فيجلس حيث شاءوا من سوقه أو داره أو دكانه أو في بستانه فيجمع لهم المال الذي قد قاطعوه عليه والمتاع وهم مع ذلك يأكلون ويشربون وسكاكينهم مجردة، فإذا جمع

ما وافقوه عليه أحضر من يحمله معهم ومضى وهم محيطون به حتى يبلغوا أماكنهم التي يأمنون فيها على أنفسهم فيطلقونه من هناك ويأخذون المتاع والمال ٠

وحدثني محمد بن مسلم السيرافي وكان مقيما بتانه نيفا وعشرين سنة، وقد سافر إلى أكثر بلاد الهند وعرف أحوال أهلها ومعاملتهم معرفة جيدة، ثم إن اثني عشر نفسا جاؤوا إلى صيمور فقبضوا على رجل من التجار هندي له أب يملك مالا عظيما والأب شديد المحنة به لا ولد له سواه، فقبضوا عليه في وسط منزله وطالبوه بعشرة آلاف دينار أو نحو ذلك، وكان هذا بعض ما يملكه أبوه، فوجه إلى أبيه من يعرفه ما نزل به، ويسأله أن يشتريه ويخلصه منهم، فجاء إليهم فكلمهم ورفق بهم ليأخذوا منه ألف دينار أو نحو ذلك ،فأبوا وقالوا: لم نأخذ إلا عشرة آلاف دينار، فلما رآهم على هذه الحالة مضى إلى الملك وعرفه القضية، وقال :هذا شيء لا دواء له ومتى لم يقع بهؤلاء القوم نكاية لم يكد أحد أن يقيم عندكم، فقال له: كيف نصنع وإن كلمناهم قتلوا ابنك؟ فقال :كيف العمل؟ قال: قتلهم سهل عليّ وإنما أخاف أن يقتلوا ابنك ولا ولد لك غيره، فقال :ما أبالي، هؤلاء يطلبون مالا عظيما ولا يجوز لي أن أفقر نفسي وأخلص ولدي بأي وجه أيها الملك، نجمع الخشب حول الدار ونسد بابها ونضرمها بالنار عليهم، فقال له :يحترق ابنك وعيالك، فقال :احتراقهم أهون عندي من ذهاب مالي، فوجه الملك وسد باب الرجل وضرم الباب بالنار فاحترق القوم وولده وعياله وجميع من كان في الدار ٠ قيل إن في بلاد الهند الأعلى الرسم في إحراق الشيوخ والعجائز باق ٠

وكان من رسم ملوك الذهب والزابج أن لا يجلس أحد بين أيديهم من المسلمين والغرباء كائن ما كان وسائر أهل ممالكهم إلا مربعا، ويسمى ذلك البرسيلا، فمن مد رجليه أو قعد غير تلك القعدة فعليه غرامة كله ثقيلة بحسب ما يملك ٠ فاتفق أن كان عند ملك من ملوكهم يقال "سرناتا كَلَه" رجل من النواخذة يقال له "جهود كوتاه" له موضع ومحل وكان شيخا مسنا وجلس بين يديه فطال عليه الأمر ولم يقم سرناتا، وكانوا في حديث لهم فأخذ جهود كوتاه يحدثهم بحديث آخر فأدخل في حديثه ذكرا لكنعد ، فقال: وعندنا

بعمان سمك يقال له الكنعد تكون الواحدة كذا، ومد رجله وقبض على نصف فخذه، ومنه ما يكون مثل هذا، ومد الرجل الأخرى وقبض على حقوه. فقال لوزيره إن لهذا الرجل سببا، فإنا كنا في حديث وخرج منه إلى حديث السمك فما السبب في ذلك؟ فقال أيها الملك هذا رجل شيخ قد أسن وضعف ولا يحتمل أن يجلس هكذا فلما تعب جعل لاستراحته سببا ووجها . فقال الصواب أن نرفع هذا الرسم عن المسلمين الغرباء خاصة، فرُفع عنهم فهو إلى اليوم رسم أن يجلس المسلمون بين أيديهم كما يشتهون ويجلس غيرهم على الرسم الأول برسيلا، فإن غيّر جلسته كانت عليه الغرامة .

وذكرتُ في فصل قبل هذا أمر عباد الهند وزهادهم وهم عدة أصناف منهم البيكور (=طائفة من رهبان سيلان) وأصلهم من سرنديب وهم يحبون المسلمين ويميلون إليهم ميلا شديدا، وهم في الصيف عراة حفاة لا يُسترون بشيء، وربما جعل الواحد منهم على سوأته خرقة أربع أصابع في مثل ذلك مشدودة بخيط في الوسط، وفي الشتاء يتشحون بالحصر الحشيشة . ومنهم من يلبسون الإزار مرقعا من كل لون على لون المرقعة للشهرة ويلوثون أبدانهم برماد عظام الموتى من الهند الذين أُحرقوا، ويحلقوا رؤوسهم وينتفون لحاهم وشواربهم، ولم يحلقوا شعر العانة ولا شعر الإبطين، في الأكثر يقصون أظفارهم، ومع الواحد منهم قحف رأس إنسان ميت يأكل فيه ويشرب على سبيل الاتّعاظ بذلك والتواضع. وكان أهل سرنديب وما والاها بلغهم خروج النبي صلى الله عليه وسلّم فأرسلوا رجلا فهيما منهم وأمروه أن يسير إليه فيعرف أمره وما يدعو إليه فعاقت الرجل عوائق ووصل إلى المدينة بعد أن قُبض رسول الله صلى الله عليه وسلّم، وتوفي أبو بكر رضي الله عنه ،ووجد القائم بالأمر عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فسأله عن أمر النبي صلى الله عليه وسلم، فشرح له وبيّن ، ورجع فتوفي الرجل بنواحي بلاد مكران . وكان مع الرجل غلام له هندي، فوصل الغلام إلى سرنديب وشرح لهم الأمر وما وقف عليه من أمر النبي صلى الله عليه وسلم وأبي بكر رضي الله عنه، وأنهم وجدوا صاحب النبي صلى الله عليه وسلم عمر بن الخطاب رضي الله عنه، ووصف لهم تواضعه وأنه كان يلبس مرقعة ويبيت في المساجد

• فتواضعهم لأجل ما حكى لهم من ذلك الغلام، ولبسهم الثياب المرقعة لما ذكره من لبس عمر رضي الله عنه المرقعة، ومحبتهم للمسلمين وميلهم إليهم لما في قلوبهم مما حكاه ذلك الغلام عن عمر رضي الله عنه •

وفي مذهب أهل الهند أن الشراب على الرجال حرام، وهو للنساء حلال، ومن الهند من يشربه سرا • وبالهند كهنة وسحرة أمرهم مشهود.

وحدثني أبو يوسف بن مسلم قال: حدثني أبو بكر الفسوي بصيمور قال: حدثني موسى الصندابوري قال: كنت عند صاحب صندابور يوما ما أتحدث ،إذ ضحك فقال :أتدري لِمَ ضحكت؟ قلت :، لا فقال :على الحائط وزغة(من الزواحف) وتقول الوزغة الساعة يجيء ضيف غريب • قال: فعجبت من حماقته وأردت الانصراف بعد ساعة، فقال: لا تبرح حتى تنظر آخر أمر هذه • قال :فإنا لفي حديثنا إذ دخل بعض أصحابه،فقال: وافى الخور من عمان مركب، ثم لم نلبث إلا ساعة حتى دخل جماعة ومعهم أقفاص فيها أسقاط وقماش وماوِرْد ففتح منها قفص فيه ماوِرْد(= ماء الورد)، فقفزت منه وزغة كبيرة وصعدت إلى الحائط تعدو إلى الوزغة الأولى فصارت الوزغة وزغتين وأنا أرى •

وحكى أن هذا هو الذي رقى التمساح في خور صندابور فهو إلى الساعة لا يؤذي أحدا البتة في خور صندابور، وكذلك خور سريرة لا يؤذي فيه التمساح اليوم أحداً، وقد كان قبل هذا لا يتمكن أحدأن يدنو من الماء إلا أثبته التمساح وقد كان في الخور منه شيء عظيم يجاوز الحد فوقع إليهم رجل هندي فقال لملك سريرة :أنا أرقي التمساح لا يؤذي أحدا في الخور: فقال له :افعل حتى أعطيك كذا، ثم هرب الرجل فلم يقدر عليه • فلما كان بعد مدة دخل إلى سريرة رجل هندي صاحب رقي وكهانة وسحر فصادق بسريرة صديقا فقال له :أريك شيئا ظريفا، فقال: نعم، فجلس على الخور وتكلم بكلامه، ثم قال: إن شئت فادخل الخور ،فإن التمساح لا يؤذيك وإن شئت فأحضر من يدخل، وإن شئت دخلت أنا. فقال له :تدخل أنت، فدخل هو ثم دخل آخر فجعل التمساح يطوف بهم ولا يؤذيهم ثم صعدوا فقال له: تحب أن أخلي عنهم ،فقال :افعل. وطرحوا كلبا فقطعه

التمساح . فبلغ الملك خبره فأحضره وقال :عندك كذا وكذا؟ فقال نعم . فركب الملك إلى الخور فأحضر معه رجلين يريد قتلهما فقال له :تكلم عن الخور، فتكلم فأدخل أحد الرجلين الخور فأطافت به التماسيح فلم تؤثر فيه البتة ولم تعرض له . ثم قال له: أطلق بينهم، فتكلم فقطعت التماسيح الرجل عضوا عضوا . ثم قال له: قد فعلت فعلا حسنا،ووجبت مجازاتك فخلع عليه ووهب له شيئا ووعده ومناه، فلما كان من غد، قال له: أحب أن تفعل اليوم مثل ما فعلت أمس، فقال :نعم، ثم دعا الملك بغلام من غلمانه جَلد جسور، ولم يكن معه مثله فقال له: إذا أومأت إليك بضرب عنق هذا الهندي الكاهن فاضرب عنقه من ساعتك . ومضى إلى الخور، وتكلم الهندي على الخور وطرح فيه أحد الرجلين فطافت به التماسيح ولم تعرض له ثم لم يزل يقوم من موضع ويتحول إلى آخر حتى لم يبق في الخور ناحية إلا دخلها ذلك اللص والتماسيح تطوف به ولا تعرض له، فلما علم الملك أنه رقي جميع الخور أومى إلى غلامه فضرب عنقه من ساعته . فخور سريرة إلى هذا الوقت لا يؤذي التمساح فيه أحدا .

والسرقة عند الهند عظيمة، فإذا سرق الهندي في بلاد الهند قتله الملك إن كان الهندي وضيعا أو لا مال له، وإن كان له مال أخذ الملك ماله بأسره أو غرمه غرامة عظيمة وكذلك إن اشترى شيئا مسروقا بعد علمه بذلك غُرم الغرامة العظيمة . ومجازاة السرقة عندهم القتل . وإن سرق مسلم ببلاد الهند رُدَّ الحكم في أمره إلى هُنَرمِن المسلمين ليعمل فيه بما يوجبه الإسلام . والهنرمن هو مثل القاضي في بلاد الإسلام، ولا يكون الهنرمن إلا من المسلمين . قال راشد الغلام بن بابشاد: كنت سائرا من سيراف أريد البصرة في ذي القعدة سنة خمس وثلاثمائة في قارب لطيف فوقع علينا الخَب بناحية رأس الكامل،ا وطرحنا بعض الحمول إلى البحر فكنت أرى الأمواج تظل على القارب حتى يقع لي أنها قد ظللته بأسره ثم تنكسر الأمواج تحته . وتفقدت غير مرة السماء إذا ظللتنا الأمواج فلا أراها لأن الأمواج قد حالت بيننا وبين السماء وغشينا من الأمواج ما يستر السماء عنا .

وحدثني أن الجليل من تجار الهند والجند وغيرهم أو الجليلة من النساء وإن كانت حظية

الملك يجتاز بروث البقر والجواميس، فإن كان معه من يحمله، وإلا جعل علامة ليعلم أن ذلك قد صار في حيز آخر(ملك لأخر)، فإذا وجد من يحمله أخذه . والهند يأكلون الميتة وذلك أنهم يأخذون الشاة أو الطير فيضربون رأسه حتى يموت، فإذا مات أكلوه . وقيل لبعض كبارهم بصيمور وسوبارة: اجتاز بفأرة ميتة، فأخذها بيده ودفعها إلى ابنه أو غلامه وحملها إلى منزله وأكلها . والفأرة عندهم من أنظف ما يؤكل .

ومما يحكى لي عن بعض ملوك الصين وهو من الحكايات أن له بركة عظيمة يجيئها الماء من فرسخ، ثم يفتح الماء عنها فينضب كله وهي فارغة، فإذا أحب أن تملى ماء أمر الماء عليها من الموضع الذي يجيء منه ثم تطرح اللؤلؤ مع الماء فيجري إلى البركة في نهاية الصفاء واللؤلؤ فيه إلى أن تمتلىء البركة من اللؤلؤ ويفيض الماء على جوانبها ثم يقطع عنها ويبقى اللؤلؤ مثل الحصى .

وقد ذكرت في بعض هذه الأجزاء طرائف من أخبار ديبجات الدم ، وهي جزائر أولها بالقرب من ديبجات الكستج وآخرها عرضا بالقرب من جزائر الواقواق، ويقال إنهم نحو من ثلاثين ألف جزيرة والتجار يقولون إن العامر منها اثني عشر ألف جزيرة ،وطول الجزيرة من نصف فرسخ إلى عشرة فراسخ وبين كل جزيرتين فرسخ فما دونها وكلها رمال .

وأخبرني بعضهم أنه شاهد ببعض بلدان الهند قبيلة فيلة تتصرف في حوائج أربابها، وأن الفيل يُدفع إليه الوعاء الذي يشتري فيه الحوائج وفيه الودع وهو نقد القوم، وأنموذج الحاجة كائنا ما كانت، فيكون معه في الوعاء شيء من ذلك الجنس والنقد، ويمضي إلى البقال، فإذا رآه البقال نزل من جميع شغله ولو كان على رأسه من يشتري منه كائنا من كان، وأخذ الوعاء من الفيل بعد الودع الذي فيه ونظر ما يريد بأنموذج متاعه، ودفع إليه أجود ما عنده من ذلك النوع بأرخص سعر، ويستزيده فيزيده، وربما عد البائع الودع فغلط فيه فيشوشه الفيل بخرطومه فيعيد البقال عده ثانية . ويمضي الفيل بما اشتراه، فربما استقله صاحبه فيضربه فيعود إلى البقال فيشوش متاعه ويخلط بعضه ببعض فإما أن يزيده أو يرد عليه الودع . وأن الفيل الذي هذه صورته يكنس ويرش ويدق الأرز بمدقة يأخذها بخرطومه

فيدق، ورجل يجمع على الأرز، ويطحن الأرز، ويستقي الماء وذلك أنه يأخذ الوعاء الذي يستقي فيه الماء وفي الوعاء حبل مشدود يدخل خرطومه فيه ويحمله، ويقضي جميع الحوائج ويركبه صاحبه في حوائجه البعيدة، ويركبه الصبي، ويمضي عليه إلى الصحراء فيقطع الحشيش وورق الشجر بخرطومه ويدفعه إلى الصبي فيجمعه في وعاء معه ويحمله فيكون ذلك طعامه . وأنه إذا كان على هذه الصفة يبلغ مالا عظيما وقيل عشرة آلاف درهم.

ومن مصائب البحر المشهورة التي أثرت(=ظلّ أثرها قائما) إلى يومنا هذا، ما حدثني به بعض التجار قال: خرجت في مركب من سيراف في سنة ست وثلاثمائة يريد صيمور . وكان معنا مركب عبد الله بن الجنيد ومركب سبا، وكانت هذه الثلاثة مراكب في نهاية الكبر ومن المراكب الموصوفة في البحر ونواخذتها مشهورون لهم قدر ومنزلة في البحر، وفي المراكب ألف ومائتا رجل من التجار والنواخذة والبانانية والتجار وغيرهم من صنوف الناس، وفيها من الأموال والأمتعة ما لا يُعرف مقداره لِكثرته . فلما سرنا أحد عشر يوما رأينا آثار الجبال ولوائح أرض سندان وتانه وصيمور، وما سار هذا السير السريع قبلهم أحد فيما سمعنا . فاستبشرنا وسررنا وبشر بعضنا بعضا بالسلامة، وأخذنا في الاستعداد لأنا قدرنا أن نصبح من على الأرض ، ثم جاءتنا الريح من الجبال فلم نضبط الشرع وأخذنا الخب والمطر والرعد والبرق، فقال الربانية والبانانية :نطرح الأمتعة، فمنعهم أحمد، وقال :لا أطرح إلا بعد أن يخرج الأمر عن يدي ،وأعلم أني هالك، ونزل الرجالة ينزِفون الجَمَّة من الجانبين، والمركبان على مثل حالنا كل واحد منهما ينتظر صاحبه ما يفعل من طرح أو غيره فيفعل مثله . وضج التجار وقالوا له :اطرح الأمتعة وأنت في الحل فإنّا نهلك فقال: لا أطرح البتة . ولم يزل الأمر يتزايد إلى أن مضت ستة أيام . فلما كان في اليوم السادس وكاد المركب أن يغوص في البحر قال :اطرحوا الحمولة فلم يمكن شيء لأن الخوابي(= الجرار) والأعدال ثقلت بالمطر وكان ما فيه خمسمائة فقد صار فيه ألف وخمسمائة منّ بالمطر، وعاجلهم الأمر وطرحوا القارب إلى الماء ،ونزل فيه ثلاثة وثلاثون رجلا . وقيل لأحمد :قم فانزل في

القارب فقال: لا أبرح من مركبي فإنه أرجى(=أكثر أملا) في السلامة من القارب وإن تلف تلفت معه فلا حظ لي في الرجوع بعد تلف مالي، قال لي هذا التاجر ، فمكثنا في القارب خمسة أيام ليس معنا ما لا يؤكل وما لا يشرب إلى أن لم يبق فينا فضل أن نتكلم بكلمة من الجوع والعطش والشدة التي مضت علينا في البحر، والقارب تقلبه الأمواج والرياح لا ندري هو في البحر أم لا ، ولشدة الجوع وما نحن فيه أومينا إلى بعضنا بعضا أن نأكل واحدا منا، وكان معنا في القارب صبي سمين لا يبلغ، وكان أبوه في جملة من تخلف في المركب ،فعزمنا على أكله فأحس الصبي بذلك فرأيته وهو ينظر إلى السماء ويحرك شفتيه وعينيه تحريكا خفيفا ، فما مضت ساعة حتى رأينا آثار الأرض ثم لاحت لنا الأرض ،ثم جنح القارب على البر وانقلب القارب ودخله الماء وليس لنا قوة للقيام ولا الحركة ، وإذ برجلين قد نزلا إلى القارب فقالا لنا :من أين أنتم؟ فقلنا :نحن من مركب فلان ،فأخذوا بأيدينا وأخرجونا إلى الأرض ،فوقعنا على وجوهنا مثل الموتى ومضى واحد منهما يعدو على وجهه فقلت للآخر: أين نحن؟ فقال :هذا الدخان الذي نراه من التيز، وقد راح صاحبي إلى القرية فعندنا الزاد والماء والثياب، فحملونا إلى البلد وهلك جميع أهل المراكب الثلاثة فلم يسلم منهم أحد إلا نفر من الذين كانوا في القارب وكان في جملتهم ربان المركب أحمد وكان اسمه بقي(=اشتهر) ، وكان قد زاد تلف هذا المركب وما فيه من المعايش في اختلال سيراف وصيمور لعظيم ما كان فيها من الأموال ووجوه النواخذة والربان والتجار .

ومن أعجب العجائب ما حدثني به بعض البحريين ممن أقام ببلاد الهند وغيرها سنين كثيرة أنه سمع غير واحد ممن دخل تخوم الهند أن بنواحي قشمير الأعلى في موضع يقال له ترنارابيين وادي فيه بستان وأشجار ومياه تجري وفيه سوق للجن يُسمع فيه ضجيجهم في البيع والشراء ولا نرى أشخاصهم، وأن ذلك لم يزل يُعرف على دوام الأيام بذلك الموضع . فقلت للرجل :سمعت أن بها سوقا قائما أبدا في وقت دون وقت؟ فقال ما سألت عن هذا . وقال لي بعض من دخل الصين أنه رأى هناك حجارة منها حجر يجذب الرصاص من وراء

طست وأنه إذا جُعل تحت الحامل سهل عليها أمر الولادة . ومنها حجر يجذب الصفر، ومنها حجر يجذب الذهب، ومنها حجر المغناطيس المشهور الذي يجذب الحديد، وحجر يطفيء النار وفي جوفه آخر يتحرك. وقال لي: إنه رأى بناحية أغباب سرنديب حجر قد كسر فخرج منه دودة فلما ظهرت دبت مقدار عشرة أذرع ثم ماتت . وأنه كان على رأسها وذنبها زغب مثل زغب الفرخ .

ومن العجائب جبل باليمن يقطر من رأسه ماء فإذا صار في الأرض جمد فصار هو هذا الشب اليماني . وقال لي من رأى شجر اللبان وهو الكندر(= بالسنسكريتية كوندورو) وهو نبات في أودية ومسايل الماء وليس له بذر وهو على قدر واحد منذ كان لا يعرفه أربابه إلا على صورة واحدة، وهو مع هذا يتفاضل في الحسن، وليس يوجد منه شجرة في الأرض إلا من حد حاسك إلى حدود خاريج .

وقال لي من دخل الهند أنه رأى في عنقيه بنواحي مانكير، وهي قصبة بلاد الذهب ، وبها شجرة عظيمة غليظة الساق تكون مثل شجر الجوز لها ورد أحمر فيه بياض مكتوب لا إله إلا الله محمد رسول الله . وفي بحر الصنف جزيرة إذا وقعت السرطانات إلى أرضها صارت حجارة وهو حجر معروف يجلب إلى العراق وسائر الدنيا، وهو من الأدوية في جلاء البياض من العين، والصيادلة يسمونه السرطان النهري .

وحدثني رجل من الرجال أن بالبُجَّة عين غزيرة عليها حجر من زبرجد عظيم يحمله أربعة أصنام من ذهب، فإذا طلعت عليه اخضرّت العين كلها بخضرته . وأن عبر – وهو ملك من الملوك المقاربة لتلك النواحي – غزاهم لأجل هذا الحجر طمعا أن يظفر بهم فيأخذه، فلا يقدر عليهم أحد . وأنهم قد جربوا وقال: إنهم ما زالوا يستبقون . وأن بعض ملوكهم عزم على أخذ الحجر فلحقه سوء منعه أو نحو هذا . وقال لي بعض أصحابي أن بناحية أغباب سرنديب طائر كبير إذا أفرخ على شاطيء البحر لم تهب الرياح في تلك الناحية إلا بعد أربعة عشر يوما .

وحدثني العماني محمد قال: رأيت ببريين من بلاد الهند غلاما من الهند قد أخذه الملك

في سرق أو غير ذلك وقد أمر بسلخه وهو يتكلم ويغني ولا يتأوه إلى أن بلغ السلخ سرته فلما قطعها طفا(= مات) .

وحدثني أن بجزيرة من جزاير الواقواق طير ملون بحمرة وبياض وخضرة وزرقة على لون الشقراق(= طائر صغير زاهي الألوان) ،وفي قد(= بحجم) الحمام الكبار يسمونه سمندل(= طائر شبه خرافي، قيل يوجد في الهند) يدخل النار فلا يحترق ويمكث الأيام لا يطعم إلا بالتراب فإذا أحضن بيضه لم يشرب الماء إلا حتى يفقس، فإذا خرجت فراخه تركه أياما لا يدنو منه، ويطوف بالفراخ الذباب والبق إلى أن يخرج ريشهم، فإذا ريّشوا وتحركوا زقهم(= أطعمهم بمنقاره) حينئذ .

وحدثني أن بجزيرة من جزائر الواقواق دابة تشبه الأرنب تصير الذكور منها مرة أنثى ومرة ذكرا والأنثى كذلك . والذي حكى لي ذكر أن بعض الهند قال إن أهل سرنديب يحدثون بهذا وما أدري ما أقول في هذه الحكاية وقالوا إن الأرانب على هذه الصورة، وهو عندي يستحيل والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقال لي بعض من سلك البحر أنه رأى بسفالة الزنج حيوانا قدر الضب(= من الزواحف) إلا أنه على نحو صورته ولونه، للذكر منه ذكران، والأنثى لها فرجان وأن هذه الدابة تعض فلا تبرأ عضتها، ولا يزال الجرح ينتفض(=يتجدد) على صاحبه ولا يعالجه فلا يبرأ أبدا . وأن هذه الدابة أكثر ما تكون في مزارع قصب السكر والذرة، وأكثر مضار أهلها الحيات والأفاعي، وإذا اجتمع منها على رجل واحد ثلاثة أو أربعة قطعوه ولم يطرقهم(=يتغلّب عليهم) وهم يثبون في وجه الإنسان .

وحدثني جعفر بن راشد المعروف بابن لاكيس – وهو أحد ربانية بلاد الذهب ونواخذته المشهورين فيه – أن حية جاءت إلى خور صيمور فابتلعت تمساحا كبيرا، وبلغ صاحب صيمور الخبر فوجه من يطلبها، وأنه اجتمع عليها زيادة على ثلاثة آلاف رجل حتى ظفروا بها وشدوا في عنقها الحبال واجتمع عليها جماعة من أصحاب الحيات فقلعوا أنيابها وشدوها بالحبال وحصل لها شجة من رأسها إلى أذنها، وذرعوها وكانت أربعين ذراعا،

وحملها الرجال على أعناقها وكان تقديرها آلاف أرطال ، وكان ذلك في سنة أربعين وثلاثمائة .

وقد حكى لي قوم أنهم رأوا مَنْ دخل الواقواق وأبحر فوصف سعة البلاد والجزائر، وليس أعني بسعة البلاد أن البلدان كبار، ولكن أهل الواقواق كثير، وفيهم مشابه من الترك وهم أحذق خلق الله بالصنائع، ثم إنه يتخرج في جميعها، وهم أهل مكر وخديعة وخبث وشدة بأس في كل شيء .

وحدثني ابن لاكيس أنهم شاهدوا من أمر أهل الواقواق ما يدهش وذلك أنهم وافوهم في سنة أربع وثلاثين وثلاثمائة في نحو ألف قارب فحاربوهم حربا شديدا ،ولم يقدروا عليهم لأن حول قنبلة حصن وثيق وحول الحصن خور فيه من ماء البحر، وقنبلة في ذلك الخور مثل القلعة الحصينة وأنه وقع إليهم قوم منهم فسألوهم عن مجيئهم إليهم دون سائر البلاد، فذكروا أنهم إنما جاؤوهم لأن عندهم من الأمتعة ما يصلح لبلادهم والصين مثل العاج والذبل(=قحوف السلاحف) والنمور والعنبر، ولأنهم يريدون الزنج لصبرهم على الخدمة وجلدهم . وأنهم جاؤوهم من مسيرة سنة، ونهبوا جزائر بينها وبين قنبلة مسيرة ستة أيام، وظفروا بعدة قرى ومدن من سفالة الزنج ما عرف خبره سوى ما لم يعرف . فإذا كان قول هؤلاء وحكايتهم صحيحة أنه جاؤوا من مسيرة سنة فهذا يدل على صحة ما ذكره ابن لاكيس من أمر جزائر الواقواق وأنها قبالة الصين والله سبحانه وتعالى أعلم .

وقد ذكرت أمر سريرة وأنها في آخر جزيرة لامري وبين سريرة وكله مسيرة مائة وعشرين زاما والله سبحانه وتعالى أعلم . وبلغني أن خور سريرة يدخل في الجزيرة خمسين فرسخا، وهو نهر أوسع من دجلة البصرة بكثير، ماؤه عذب مثل ماء دجلة البصرة، وليس في أخوار بلدان هذه الجزيرة أطول منه، والمد فيه اثنتا عشرة ساعة . وفيه التماسيح إلا ما كان منه بين الدور لا يضر لأنه فيما قد حكى أنه قد رقي، وما كان خارج الدور فليس يمكن أحد يدنو منه بسبب التمساح . ودور سريرة بعضها في البر وأعظمها في الماء مبني على خشب ملفق مثل الأطواف ويبقى طول الدهر، وكل ذلك بسبب النار فإن الحريق يقع كثيرا عندهم لأن

الأبنية من خشب، فأدنى شيء يقع من النار فتحترق سائر الدور، فقد جعلوا هذه الدور في الماء استظهارا، فإن وقع حريق أمكن صاحب المنزل أن يقطع الأناجر من منزله ويتحول إلى ناحية أخرى فيهرب من النار ٠ وربما كره بعضهم جوار بعضهم فيتحول عنه إلى حارة أخرى ٠ والدور صفوف في الخور مثل الشوارع ٠ والماء بين الدور غزير جدا، وهو عذب لأنه من فوق إلى أن يصب في الخور ويخرج إلى البحر على هيئة دجلة من البحر ٠

وحكى لي أنه سمع بعض الربانية يقول إن المركب إذا مضت إلى سفالة الزنج فأكثر ما يبلغون إلى بلد فيه زنج يأكلون الناس، وإنما يقع المركب إليهم على سبيل الغلط لأن الماء والريح يحدرانه(= يدفعانه) فلا يقدر الربان على ضبطه ويغلبهم فيقع إليهم ٠ وبين قنبلة وبين هذا الموضع الذي فيه الزنج الذين يأكلون الناس نحو ألف وخمسمائة فرسخ، والله سبحانه وتعالى أعلم ٠

فأما الموضع الذي تمضي إليه المركب فهو بعد قنبلة بنحو ألف فرسخ وأقله ثمانمائة، وهو مسيرة اثنين وأربعين زاما ونحوها ٠

وحدثني ابن لاكيس أنه كان بسفالة عند بعض ملوك الزنج إذ جاءه رجل فقال له :أيها الملك إن فرخا من فراخ طيور كذا، ونسي ابن لاكيس اسم الطير، قد وقع في الغوطة الفلانية وكان قد اقتنص فيلا وكسره وهو يأكل فيه وقد صيد ٠ فقام ملك الزنج وخرج إلى الغوطة ومعه خلق كنت أنا فيهم، فوقفنا على الطائر وهو يضطرب والفيل مطروح قد أكل منه نحو ربعه، فأمر الملك بأخذ ريش جناحيه فإذا بالكبار منها اثنتي عشر ريشة في كل جناح ست، وأخذ من ريشه شيء غير ذلك وأخذ منقاره وشيء من مخاليبه وشيء من جوفه وحمل معه ٠ وكان في ذلك الريش الذي أخذ شيء قطع أسفله وكان تسع قربتين ماء أو أكثر ٠ وحكوا أنه من فراخ طيور يكون بسفالة الزنج وأنه اجتاز بالغوطة فرأى الفيل فأخذه بمخالبه ودفعه إلى الهواء ورمى به فقتله ثم نزل عليه فأكله وأحس به قوم كانوا هناك فأثخنوه بالسهام المسمومة والحراب حتى صرعوه وقتلوه ٠

وقال لي ابن لاكيس أن بين ثيبه وجزيرة الغيلمى بحر صغير يقال له بحر صفيو طوله

مسيرة ستة أيام ويحتاج المركب إذا سلكه أن يأخذ ماء ثلاثين باعا، فإنه إن كان في عشرين باعا غاص، وذلك إن في هذا البحر وحلا رقيقا إذا وقع فيه المركب أتلفه، قليل أن يسلم منه أحد .

ومن الجزائر الموصوفة التي ليس مثلها في البحر جزيرة سرنديب ،ويسمى سهيلان(= سيلان) وطولها نحو مائة فرسخ . ودورها ثلاثمائة فرسخ . وفيها مغاص اللؤلؤ النقي إلا أنه صغار ومهما كان منه ككبار فهو ردي، وجبلها حصين وهو جبل الياقوت والإدماس (= الألماس) . ويقال إن هذا الجبل هو الذي هبط عليه آدم عليه السلام وفيه أثر قدمه طوله نحو سبعين ذراعا . وأهل الجزائر يقولون إن هذا الأثر هو رجل آدم عليه السلام وأنه وضع رجل ها هنا والرجل الأخرى في البحر . وفيها تراب أحمر وهو هذا السنبادج(= الفيروز) الذي يخرط به البلور والزجاج . وقشور أشجارها القرفة المرتفعة، وهي القرفة السهيلانية الموصوفة . وحشيش هذه الجزيرة أحمر يصبغ به الثياب والغزل، وهو صباغ يفوق البقم والزعفران والعصفر وكل صبغ أحمر، وبها من غرائب النباتات مما يطول شرحه ويتعجب منه . وقيل إن بجزيرة سرنديب نحو مائة ألف قرية .

وسمعت من حكى أن رجلا من أهل البصرة كان ينزل في وسط سكة قريش خرج من البصرة قبل الزابج أو ما قاربه . . فتخلص ووقع إلى جزيرة قال: فصعدت تلك الجزيرة وتعلقت بشجرة كبيرة فواربت شخصي بين أوراقها وبت ليلتي، فلما أصبحت رأيت غنما قد أقبلت نحو مائتي رأس في قدر العجاجيل(= العجول) يسوقها رجل لم أر مثله عظيم الخلقة طويل عريض بشع المنظر ومعه عصاه يسوق بها الغنم . فقعد على ساحل البحر ساعة والغنم ترعى بين ذلك الشجر ثم طرح نفسه على وجهه فنام إلى حدود نصف النهار ثم قام فرمى بنفسه في الماء واغتسل وخرج وهو مع ذلك عريان ليس عليه إلا ورقة تشبه ورق الموز إلا أنها أعرض منه قد جعلها في وسطه كالميزر، ثم عاد إلى شاة فقبض رجلها وأخذ ضرعها في فيه ومصه إلى أن شرب ما فيه ثم فعل ذلك بعدة من الغنم، ثم استلقى في ظل شجرة، ففي تأمله الشجرة وقع طائر على الشجرة التي أنا فيها فأخذ حجرا ثقيلا وحذف الطائر فلم

يكذب فسقط الطائر بين أغصان الشجر بالقرب مني فأومى إليَّ بيده أن أنزل، فلخوفي منه بادرت وأنا ضعيف ميت خوفا وجوعا ٠

وأخذ الطائر ورمى به إلى الأرض فقدرت أن وزن الطائر نحو مائة رطل، ثم نتف ريشه وهو حي يضطرب، فلما نتفه أخذ حجرا قدر عشرين رطلا فضرب به رأسه وتركه حتى مات، ثم لم يزل يضربه بالحجر حتى فسخه، ثم جعل ينهشه بأسنانه ويأكل كما تأكل السباع حتى أتى عليه ولم يبق إلا عظامه ٠ فلما اصفرت الشمس قام وأخذ العصا وساق الغنم بعد أن صاح صيحة أفزعتني فاجتمعت الغنم إلى موضع واحد ،وأوردهم خليجا في الجزيرة فيه ماء عذب فسقاهم وشرب وشربت، وقد أيقنت بالموت، ثم ساقنا أجمعين حتى جئنا موضعا قد علمه بين الأشجار وحوله الخشب طولا وعرضا وله شبه باب، ودخلت الغنم ودخلتُ معها وإذا في وسط تلك الموضع مثل الغزالة(= ربما يقصد خيمة) في ارتفاع نحو عشرين ذراعا على خشب وثيق، والغزالة شبه البيت، فما عمل شيئا دون أن أخذ شاة كانت من أصغر الغنم وأهزلها فدق رأسها بحجر ثم أجج نارا وجعل يقطع بيديه وأسنانه كما تفعل السباع ويرمي اللحم مع الجلد والصوف في النار، فأكل كل ما في جوف الشاة نيا، ثم عمد إلى الغنم فلم يزل يشرب من هذه وهذه حتى شرب من عدة كبيرة، ثم أخذ شاة من أكبر الغنم فقبض بيديه على وسطها فسخها ،وهي تصيح ثم أخذ أخرى ففعل بها مثل ذلك ،ثم صعد فأخذ شيئا كان يشربه ،ثم نام فجعل يغط (=يشخر)كما يغط الثور ٠

فلما انتصف الليل جعلت أدب قليلا إلى موضع النار وتتبعت ما بقى من اللحم ،فأكلت ما يمسك رمقي وخفت أن تنفر الغنم فينتبه فيجعلني مثل الطائر أو كالشاة وبقيت مطروحا إلى الغد ٠ فلما أصبح نزل وساق الغنم وساقني معهم ويوحي إليّ بكلام لا أفهمه، فأتكلم بما أعرف من اللغات فلا يفهم مني، وقد صار عليّ شعر عظيم ٠ وأظنه لما رآني على الصورة عافتني نفسه، وكان ذلك سبب تأخير أكلي ٠ ولم أزل معه في تلك الحالة عشرة أيام يفعل كل يوم مثل ما يفعل قبله ولا يمضي يوم إلا ويصطاد فيه الطير والطيرين، فإن حصل له من الطيور ما يشبعه لم يأكل شيئا من الغنم، وإن اقتصرت (= قلّت) الطيور أكل شاة ٠

وصرت أعاونه في وقيد النار وجمع الحطب وأخدمه وأدبر الحيلة لنفسي إلى أن مضى لي عنده شهران ،وصلح جسمي ورأيت في وجهه آثار السرور وفهمت أنه عزم على أكلي . وكان يأخذ من شجر في الجزيرة له ثمرا ينقعه في الماء ثم يصفيه ويشربه فيسكر طول ليلته حتى لا يعقل، وكنت أرى في تلك الجزيرة طيورا كبارا كالفيل والجاموس وأكبر وأصغر، ومنها شيء قد أكل بعض غنمه، وإنما يبيت هو وغنمه في تلك الحظيرة خوفا من تلك الطيور لأنها بين شجر كبار وقد جعل تحت الشجر مثل السراديب من وثاقه ما قد عمل، والطير يفزع أن ينزل إلى هناك فيتعوق في الأشجار .

فلما كان في ليلة من الليالي صبرت حتى سكر ونام فقمت وتعلقت بشجرة ودليت غصنا من أغصانها إلى الأرض ومضيت على وجهي أطلب الصحراء ،قد كنت قد أشرفت عليها من تلك الشجرة. فلم أزل أمشي إلى الصباح ثم خفت وتعلقت بشجرة عظيمة الساق ومعي خشبة قد أعمدتها وعملت على أنه إن لحقني ضربت رأسه فإما أن أدافع عن نفسي وإما أن يقتلني فالموت لا بد منه . فمكثت يومي في شجرة فلم أره، وقد كنت أخذت معي قطعة من اللحم، فلما أمسيت أكلتها ونزلت، فمشيت ليلتي إلى الصباح فوجدت نفسي في صحراء وفيها أشجار متفرقة فمشيت وما أرى أحدا إلا الطيور ووحوشا لا أعرفها وحيات ورأيت ماء عذبا فأقمت بمكاني، وجعلت آخذ من تلك الثمار والموز فآكل وأشرب، والطيور تطوف بالغوطة فعاينت طيرا منها فأعددت شيئا من قشور الشجر مثل الحبال ولم أزل أرصد ذلك الطائر حتى سقط يرعى ودرت من خلفه فتعلقت بساقه وهو مشغول يرعى ،فشددت نفسي فلما فرغ من أكله شرب ماء وتحلق في الهواء فأشرفنا على البحر فاستسلمت للموت على أي حال كان لا محالة، فانحط على جبل في الجزيرة فحللت نفسي من ساقه، وأنا ضعيف فجعلت أجر نفسي خوفا منه، ونزلت من الجبل فتعلقت بشجرة وأخفيت شخصي فيها، فلما أصبحت رأيت دخانا فعلمت أن الدخان مع الناس، فنزلت أمشي إلى ناحية الدخان فما مشيت قليلا حتى استقبلني جماعة فأخذوني وكلموني كلاما لم أعرفه فحملوني إلى القرية فأدخلوني إلى منزل وحبسوني مع ثمانية

أنفس فسألوني عن خبري فحدثتهم ،وسالتهم فخبروني أنهم أهل مركب فلان، وكان قد خرج من الصنف إلى الزابج فوقع عليهم الخب فتخلصوا في قارب المركب نحو عشرين رجلا فوقعوا إلى هذه الجزيرة فأخذهم قوم فاقتسموهم فأكلوا منهم جماعة إلى هذا الوقت. فنظرت وإذا مقامي عند صاحب الغنم كان أصلح، فجعلت أتأسى بالقوم وإن كنت أؤكل فقد كان عليّ الموت وبعضنا يتأسى ببعض .

فلما كان من الغد جاؤنا بسمسم أو بشيء يشبهه وموز وسمن وعسل وضعوه عندنا فقالوا :هذا طعامنا منذ وقعنا ها هنا فأكلنا مقدار ما يمسك رمقنا ،ثم جاءوا فنظروا إلينا وأخذوا أحسننا حالا في جسده فودعناه وقد كان بعضنا أوصى ببعض فأخرجوه إلى وسط المنزل ودهنوه من رأسه إلى قدمه بالسمن ثم أقعدوه في الشمس مقدار ساعتين ثم اجتمعوا عليه فذبحوه وقطعوه قطعا، ونحن نرى ،ثم شووه وأكلوه وطبخوا بعضه وأكلوا بعضه نيا مملوحا ثم شربوا شرابا وسكروا فناموا، فقلت لهم قوموا فنقتل هؤلاء فإنهم سكارى، ونخرج على وجوهنا، فإن سلمنا فالحمد لله ،وإن هلكنا فهو أسهل من هذا البلاء الذي يحل بنا، وإن لحقنا أهل القرية فهي موتة واحدة، فاختلف رأينا بقية يومنا، وأظللنا الليل وأصبحنا،فجاؤونا بما نأكل على الرسم المعتاد، ومضى أول يوم وثاني يوم وثالث يوم ورابع يوم ونحن على تلك الحالة ،فلما كان في اليوم الخامس جاؤونا فأخذوا منا واحدا ففعلوا به مثل الأول فلما سكروا وناموا قمنا إليهم فذبحناهم بأسرهم وأخذ كل واحد منا سكينا وشيئا من العسل والسمن والسمسم .

فلما أظلمت الدنيا خرجنا من المنزل وقد كنا ميزنا بالنهار(=عرفنا المكان خلال النهار) فمشينا نطلب ساحل البحر من جانب آخر لا من شط القرية، ودخلنا غوطة فتعلقنا بالشجر ونحن سبعة أو ثمانية خوفا من القوم، فلما جن الليل نزلنا ومشينا ونحن نأخذ الطريق على الكواكب، وأخذنا نمشي الساحل الساحل يومنا ثم أمنا القوم فكنا الآن نمشي ونستريح ونأكل من ثمار الغيط وهي كثيرة الموز زمانا طويلا، إلى أن وقعنا في غوطة حسنة وفيها ماء عذب طيب فعزمنا على المقام بها أبدا إلى أن يقع إلينا مركب أو نموت فيها، فمات منا ثلاثة

وبقينا أربعة ، فبينما نحن في بعض الأيام نمشي، وإذا بقارب خلق(= عتيق) قد قذف به الموج وفيه جماعة موتى قد تقطعوا والقارب جانب في الطين والموج يضربه وهو مطروح فاحتلنا في رميهم إلى البحر، وغسلنا القارب، وأخذنا معنا طينا من طين الجزيرة مثل الغري(= الصلصال) وأصلحنا فيه دقلا من الشجر وسوينا حبالا من خوص النارجيل وشراعا ليفا ،وملأنا بطن القارب من النارجيل والفاكهة وملأنا معنا ماء ،وبعضنا يدري سفر البحر وسرنا نحن خمسة عشر يوما، ووقعنا بقرية من قرى الصنف بعد أهوال وعجائب مرت بنا، وسرنا من تلك القرية إلى أن وصلنا الصنف . وخبّرنا الناس بأخبارنا فجمعوا لنا زوادا وخرج كل واحد منا يقصد بلدا.

فرجع إلى البصرة بعد أربعين سنة من غيبته، وقد مات أكثر أهله، ووجد لوالده ولِدا فأنكروه ، وقد كانوا لما انقطع خبره قسموا ماله وكان موسرا وحاله حسن فلم يصل من ماله إلى شيء ثم مات بعد ذلك .

وحدثني بعض البحريين أنه كان ماضياً بين سريرة والصين في سنبوق قال: فلما سرنا من سريرة مقدار خمسين زاما وقع علينا الخب ورمينا بعض الحمولة إلى البحر ومكثنا أياما في الخب ثم وقعت علينا الريح ولم يمسك المركب وأشرفنا على الهلاك وأردنا أن نرمي نفوسنا في البحر ونتعلق بجزيرة فرمينا الأناجر ونحن لا نصدق أن نتخلص وسكنت الأمواج ،ولم تمض عنا ساعة حتى لاح لنا من الجزيرة جماعة، فانتظرنا أن يخرج إلينا قوم منهم فلم يخرج إلينا أحد ،فأومأنا إليهم فلم يكلمونا ولم نعرف الموضع ،وحققنا أنّا نحن متى نزلنا إليهم آذونا أو يكون وراءهم قوم فيقعوا بنا فلا نطيق لهم، فمكثنا في موضعنا أربعة أيام لا ينزل منا أحد إلى الجزيرة ولا يعبر منهم أحد إلينا، فلما كان اليوم الخامس اجتمع رأينا إلى النزول إليهم لأنا احتجنا إلى الماء وإلى مسألتهم عن الموضع ونحن لم نعرف الطريق ، فنزل منا مقدار ثلاثين رجلا بالسلاح في القارب والدونيج فلما صعدنا إليهم تهاربوا كلهم ولم يبق منهم إلا رجل واحد فكلمنا فلم نعرف لغته إلا رجلا واحدا منا، قال لنا: هذه جزيرة من جزائر الواقواق ،. فسألنا عن الجزيرتين فحكى أنها من جزائر الواقواق وأن ليس بقربها بلد إلا

على مسيرة ثلاثمائة فرسخ ،وهي جزيرة ليس فيها أحد سواهم وعدتهم أربعين نفسا، وسألنا عن طريقنا إلى الصنف ،فعرّفنا ودلّنا وملأنا الماء وشرعنا نحو الصنف على ما قال، فأقمنا خمسة عشر زاما، وأشرفنا سالمين إلى الصنف والسلام وحسبنا الله ونعم الوكيل .

تعتبر رحلة أبي دلف إلى بلاد الصين والهند وأواسط آسيا من الوثائق المهمة والمبكّرة عن هذه المناطق ،وفيها كما سيتضح وصف للمظاهر الاجتماعية والاقتصادية، كما أنها تقدّم التفاصيل شبه الكاملة للمسالك التي توصل بين أواسط آسيا- حيث تعيش مجموعة كبيرة من الأقوام التركية-والصين حيث تكون المحطة النهائية لرحلة أبي دلف مبعوثا من نوح بن نصر،والهند إذ يحرص أبو دلف المرور فيها خلال عودته .ومما تتصف به هذه الرحلة الكثافة والدقة وقوة الملاحظة،وهي تضفي على النص قيمة بوصفه وثيقة تعنى بالأحوال البشرية من حياة ودين وحكم.

(61)

رحلة أبي دُلف مسعر بن مهلهل إلى بلاد الصين والهند.

(ولد ٣٠٠وتوفي ٣٩٠ هجري= ٩١٣- ١٠٠١ميلادي ،وأوفد إلى الصين نحو ٣٣١هجري=٩٤٣ميلادي)

أوردها ياقوت الحموي(٦٢٥هجري=١٢٢٩ميلادي) في (معجم البلدان)

(قال ياقوت الحموي: قرأت في كتاب عتيق ما صورته: كتب إلينا أبو دلف مسعر بن مهلهل في ذكر ما شاهده ورآه في بلاد الترك والصين والهند قال: إني لما رأيتكما يا سيدي، أطال الله بقاءكما، لهجين بالتصنيف مولعين بالتأليف ،أحببت أن لا أخلي دستوركما، وقانون حكمتكما من فائدة وقعت إلي مشاهدتها، وأعجوبة رمت بي الأيام إليها ليروق معنى ما تتعلمانه السمع ويصبو إلى استيفاء قراءته القلب، وبدأت بعد حمد

الله والثناء على أنبيائه بذكر المسالك المشرقية، واختلاف السياسة فيها ،وتباين مُلكها، وافتراق أحوالها، وبيوت عبادتها ،وكبرياء ملوكها، وحكوم قوّامها ،ومراتب أولي الأمر والنهي لديها؛ لأن معرفة ذلك زيادة في البصيرة واجبة في السيرة، قد حض الله تعالى عليها أولي التيقّظ والاعتبار، وكلّفه أهل العقول والأبصار، فقال، جل اسمه: " أفلم يسيروا في الأرض" .

فرأيت معاونتكما لِماَ وشج بيننا من الإخاء وتوكّد من المودة والصفاء، ولما نَبا بي وطني ووصل بي السير إلى خراسان ضاربا في الأرض ،أبصرت ملكها ،والموسوم بإمارتها نصر بن أحمد الساماني، عظيم الشأن كبير السلطان، يستصغر في جنبه أهل الطول، وتخف عنده موازين ذوي القدرة والحول. ووجدت عنده رسل "قالين بن الشخير" ملك الصين راغبين في مصاهرته طامعين في مخالطته، يخطبون إليه ابنته فأبى ذلك واستنكره لحظر الشريعة له، فلما أبى ذلك راضوه على أن يزوج بعض ولده ابنة ملك الصين فأجاب إلى ذلك . فاغتنمت قصد الصين معهم.

فسلكنا بلد الأتراك ،فأول قبيلة وصلنا إليها بعد أن جاوزنا خراسان وما وراء النهر من مدن الإسلام قبيلة في بلد يعرف بالخركاه، فقطعناه في شهر نتغذّى بالبر والشعير، ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالطخطاخ تغذينا فيها بالشعير والدخن وأصناف من اللحوم والبقول الصحراوية، فسرنا فيها عشرين يوما في أمن ودعة يسمع أهلها لملك الصين ويطيعونه ،ويؤدون الإتاوة إلى الخركاه لقربهم إلى الإسلام ودخولهم فيه ،وهم يتفقون معهم في أكثر الأوقات على غزو من بعد عنهم من المشركين.

ثم وصلنا إلى قبيلة تعرف بالبجا فتغذينا فيهم بالدخن والحمص والعدس، وسرنا بينهم شهرا في أمن ودعة، وهم مشركون ويؤدون الإتاوة إلى الطخطاخ ،ويسجدون لملكهم، ويعظّمون البقر ولا تكون عندهم ولا يملكونها تعظيما لها، وهو بلد كثير التين والعنب والزعرور الأسود، وفيه ضرب من الشجر لا تأكله النار، ولهم أصنام من ذلك الخشب.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبجناك طوال اللحى أُولو أسبلة همجٌ، يغير بعضهم على بعض

ويفترش الواحد المرأة على ظهر الطريق، يأكلون الدخن فقط. فسرنا فيهم اثني عشر يوما وأُخبرنا أن بلدهم عظيم مما يلي الشمال وبلد الصقالبة ولا يؤدون الخراج إلى أحد ، ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالجكل يأكلون الشعير والجلبان ولحوم الغنم فقط ،ولا يذبحون الإبل ،ولا يقتنون البقر، ولا تكون في بلدهم، ولباسهم الصوف والفراء لا يلبسون غيرهما. وفيهم نصارى قليل، وهم صباح الوجوه يتزوج الرجل منهم بابنته وأخته وسائر محارمه، وليسوا مجوسا ولكن هذا مذهبهم في النكاح، يعبدون سهيلا وزحل والجوزاء وبنات نعش والجدي ويسمون الشعرى اليمانية رب الأرباب، وفيهم دعة ولا يرون الشر، وجميع من حولهم من قبائل الترك يتخطفهم ويطمع فيهم، وعندهم نبات يعرف بالكلكان طيب الطعام يطبخ مع اللحم، وعندهم معادن البازهر وحياة الحبق، وهي بقر هناك، ويعملون من الدم والذاذي البري نبيذا يسكر سكرا شديدا، وبيوتهم من الخشب والعظام، ولا ملك لهم، فقطعنا بلدهم في أربعين يوما في أمن وخفض ودعة.

ثم خرجنا إلى قبيلة تعرف بالبغراج لهم أسبلة بغير لحى يعملون بالسلاح عملا حسنا فرسانا ورجالة، ولهم ملك عظيم الشأن يذكر أنه علوي وأنه من ولد يحيى بن زيد وعنده مصحف مذهب على ظهره أبيات شعر رثي بها زيد، وهم يعبدون ذلك المصحف، وزيد عندهم ملك العرب وعلي بن أبي طالب، رضي الله عنه، عندهم إله العرب لا يملكون عليهم أحدا إلا من ولد ذلك العلوي، وإذا استقبلوا السماء فتحوا أفواههم وشخصوا أبصارهم إليها، يقولون: إن إله العرب ينزل منها ويصعد إليها، ومعجزة هؤلاء الذين يملكونهم عليهم من ولد زيد أنهم ذوو لحى وأنهم قيام الأنوف عيونهم واسعة وغذاؤهم الدخن ولحوم الذكران من الضأن، وليس في بلدهم بقر ولا معز. ولباسهم اللبود لا يلبسون غيرها، فسرنا بينهم شهرا على خوف ووجل، أدينا إليهم العشر من كل شيء كان معنا.

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بتبت، فسرنا فيهم أربعين يوما في أمن وسعة، يتغذون بالبر والشعير والباقلى وسائر اللحوم والسموك والبقول والأعناب والفواكه، ويلبسون جميع اللباس، ولهم مدينة من القصب كبيرة فيها بيت عبادة من جلود البقر المدهونة، فيه أصنام

من قرون غزلان المسك، وبها قوم من المسلمين واليهود والنصارى والمجوس والهند، ويؤدون الإتاوة إلى العلوي البغراجي ولا يملكهم أحد إلا بالقرعة، ولهم محبس جرائم وجنايات، وصلاتهم إلى قبلتنا .

ثم سرنا إلى قبيلة تعرف بالكيماك، بيوتهم من جلود ، يأكلون الحمص والباقلى ولحوم ذكران الضأن والمعز ولا يرون ذبح الإناث منها، وعندهم عنب نصف الحبة أبيض ونصفها أسود، وعندهم حجارة هي مغناطيس المطر يستمطرون بها متى شاؤوا، ولهم معادن ذهب في سهل من الأرض يجدونه قطعا، وعندهم ماس يكشف عنه السيل ونبات حلو الطعم ينوم ويخدر، ولهم قلم يكتبون به، وليس لهم ملك ولا بيت عبادة، ومن تجاوز منهم ثمانين سنة عبدوه إلا أن يكون به عاهة أو عيب ظاهر، فكان مسيرنا فيهم خمسة وثلاثين يوما .

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الغز، لهم مدينة من الحجارة والخشب والقصب ولهم بيت عبادة وليس فيه أصنام، ولهم ملك عظيم الشأن يستأدي منهم الخراج، ولهم تجارات إلى الهند وإلى الصين ويأكلون البر فقط وليس لهم بقول، ويأكلون لحوم الضأن والمعز الذكران والإناث ويلبسون الكتان والفراء ولا يلبسون الصوف، وعندهم حجارة بيض تنفع من القولنج ،وحجارة خضر إذا مرت على السيف لم يقطع شيئا، وكان مسيرنا بينهم شهرا في أمن وسلامة ودعة .

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم التغزغز ، يأكلون المذكي وغير المذكي ويلبسون القطن واللبود، وليس لهم بيت عبادة، وهم يعظمون الخيل ويحسنون القيام عليها، وعندهم حجارة تقطع الدم إذا علّقت على صاحب الرعاف أو النزف، ولهم عند ظهور قوس قزح عيد، وصلاتهم إلى مغرب الشمس، وأعلامهم سود، فسرنا فيهم عشرين يوما في خوف شديد.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخرخيز، يأكلون الدخن والأرز ولحوم البقر والضأن والمعز وسائر اللحوم إلا الجمال، ولهم بيت عبادة وقلم يكتبون به، ولهم رأي ونظر، ولا يطفئون

سرجهم حتى تطفأ موادها، ولهم كلام موزون يتكلمون به في أوقات صلاتهم، وعندهم مسك ، ولهم أعياد في السنة، وأعلامهم خضر، يصلون إلى الجنوب ويعظمون زحل والزهرة ويتطيرون من المريخ، والسباع في بلدهم كثيرة، ولهم حجارة تسرج بالليل يستغنون بها عن المصباح ولا تعمل في غير بلادهم، ولهم ملك مطاع لا يجلس بين يديه أحد منهم إلا إذا جاوز أربعين سنة، فسرنا فيهم شهرا في أمن ودعة.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الخرلخ، يأكلون الحمص والعدس ويعملون الشراب من الدخن ولا يأكلون اللحم إلا مغموسا بالملح، ويلبسون الصوف، ولهم بيت عبادة في حيطانه صورة متقدمي ملوكهم، والبيت من خشب لا تأكله النار، وهذا الخشب كثير في بلادهم، والبغي والجور بينهم ظاهر ويغير بعضهم على بعض، والزنا بينهم كثير غير محظور، وهم أصحاب قمار، يقامر أحدهم غيره بزوجته وابنه وابنته وأمه فما دام في مجلس القمار فللمقمور أن يفادي ويفك فإذا انصرف القامر فقد حصل له ما قمر به يبيعه من التجار كما يريد، والجمال والفساد في نسائهم ظاهر، وهم قليلو الغيرة، فتجيء ابنة الرئيس فمن دونه أو امرأته أو أخته إلى القوافل إذا وافت البلد فتعرض للوجوه فإن أعجبها إنسان أخذته إلى منزلها وأنزلته عندها وأحسنت إليه وتصرف زوجها وأخاها وولدها في حوائجه، ولم يقربها زوجها ما دام من تريده عندها إلا لحاجة يقضيها ثم تتصرف هي ومن تختاره في أكل وشرب وغير ذلك بعين زوجها لا يغيره ولا ينكره، ولهم عيد يلبسون الديباج ومن لا يمكنه رقع ثوبه برقعة منه، ولهم معدن فضة تستخرج بالزيبق، وعندهم شجر يقوم مقام الإهليلج قائم الساق وإذا طلي عصارته على الأورام الحارة أبرأها لوقتها، ولهم حجر عظيم يعظمونه ويحتكمون عنده ويذبحون له الذبائح، والحجر أخضر سلقيّ، فسرنا بينهم خمسة وعشرين يوما في أمن ودعة.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لهم الخطلخ، فسرنا بين أهلها عشرة أيام، وهم يأكلون البر وحده ويأكلون سائر اللحوم غير مذكاة، ولم أر في جميع قبائل الترك أشد شوكة منهم، يتخطفون من حولهم ويتزوجون الأخوات، ولا تتزوج المرأة أكثر من زوج واحد، فإذا مات لم تتزوج

بعده، ولهم رأي وتدبير، ومن زنى في بلدهم أحرق هو والتي يزني بها، وليس لهم طلاق، والمهر جميع ما ملك الرجل، وخدمة الولي سنة، وللقتل بينهم قصاص وللجراح غرمٌ، فإن تلف المجروح بعد أن يأخذ الغرم بطل دمه، وملكهم ينكر الشر ولا يتزوج فإن تزوج قتل.

ثم انتهينا إلى قبيلة يقال لها الختيان، يأكلون الشعير والجلبان ولا يأكلون اللحم إلا مذكى، ويزوجون تزويجا صحيحا وأحكامهم أحكام عقلية تقوم بها السياسة، وليس لهم ملك، وكل عشرة يرجعون إلى شيخ له عقل ورأي فيتحاكمون إليه، وليس لهم جور على من يجتاز بهم، ولا اغتيال، ولهم بيت عبادة يعتكفون فيه الشهر والأقل والأكثر، ولا يلبسون شيئا مصبوغا ، وعندهم مسك جيد ما دام في بلدهم فإذا حمل منه تغير واستحال، ولهم بقول كثيرة في أكثرها منافع وعندهم حيات تقتل من ينظر إليها إلا أنها في جبل لا تخرج عنه بوجه ولا سبب، ولهم حجارة تسكن الحمى ولا تعمل في غير بلدهم، وعندهم بازهر جيد شمعي فيه عروق خضر، وكان مسيرنا فيهم عشرين يوما.

ثم انتهينا إلى بلد بهي فيه نخل كثير وبقول كثيرة وأعناب ولهم مدينة وقرى وملك له سياسة يلقب بهي، وفي مدينتهم قوم مسلمون ويهود ونصارى ومجوس وعبدة أصنام، ولهم أعياد، وعندهم حجارة خضر تنفع من الرمد وحجارة حمر تنفع من الطحال، وعندهم النيل الجيد القانيء المرتفع الطافي الذي إذا طرح في الماء لم يرسب، فسرنا فيهم أربعين يوما في أمن وخوف .

ثم انتهينا إلى موضع يقال له القليب فيه بوادي عرب ممن تخلف عن تبّع لما غزا بلاد الصين، لهم مصايف ومشات في مياه ورمال، يتكلمون بالعربية القديمة لا يعرفون غيرها، ويكتبون بالحميرية ولا يعرفون قلمنا، يعبدون الأصنام، وملكهم من أهل بيت منهم لا يخرجون الملك من أهل ذلك البيت، ولهم أحكام، وحظر الزنا والفسق، ولهم شراب جيد من التمر، وملكهم يهادي ملك الصين، فسرنا فيهم شهرا في خوف وتغرير.

ثم انتهينا إلى مقام الباب، وهو بلد في الرمل تكون فيه حجبة الملك، وهو ملك الصين، ومنه يستأذن لمن يريد دخول بلد الصين من قبائل الترك وغيرهم ، فسرنا فيه ثلاثة أيام في

ضيافة الملك يغير لنا عند رأس كل فرسخ مركوب.

ثم انتهينا إلى وادي المقام فاستؤذن لنا منه، وتقدمنا الرسل فأذن لنا بعد أن أقمنا بهذا الوادي، وهو أنزه بلاد الله وأحسنها، ثلاثة أيام في ضيافة الملك، ثم عبرنا الوادي وسرنا يوما تاما فأشرفنا على مدينة سندابل، وهي قصبة الصين وبها دار المملكة، فبتنا على مرحلة منها، ثم سرنا من الغد طول نهارنا حتى وصلنا إليها عند المغرب، وهي مدينة عظيمة تكون مسيرة يوم ولها ستون شارعا ينفذ كل شارع منها إلى دار الملك، ثم سرنا إلى باب من أبوابها فوجدنا ارتفاع سورها تسعين ذراعا وعرضه تسعين ذراعا وعلى رأس السور نهر عظيم يتفرق على ستين جزءا كل جزء منها ينزل على باب من الأبواب تتلقاه رحى تصبه إلى ما دونها ثم إلى غيرها حتى يصب في الأرض ثم يخرج نصفه تحت السور فيسقي البساتين ويرجع نصفه إلى المدينة فيسقي أهل ذلك الشارع إلى دار الملك ثم يخرج في الشارع الآخر إلى خارج البلد فكل شارع فيه نهران وكل خلاء فيه مجريان كل واحد يخالف صاحبه، فالداخل يسقيهم والخارج يخرج بفضلاتهم ، ولهم بيت عبادة عظيم، ولهم سياسة عظيمة وأحكام متقنة، وبيت عبادتهم يقال إنه أعظم من مسجد بيت المقدس وفيه تماثيل وتصاوير وأصنام وبدّ عظيم، وأهل البلد لا يذبحون ولا يأكلون اللحوم أصلا، ومن قتل منهم شيئا من الحيوان قتل، وهي دار مملكة الهند والترك معا.

ودخلتُ على ملكهم فوجدته فائقا في فنه كاملا في رأيه فخاطبه الرسل بما جاؤوا به من تزويجه ابنته من نوح بن نصر ،فأجابهم إلى ذلك وأحسن إلي وإلى الرسل، وأقمنا في ضيافته حتى نجزت أمور المرأة وتم ما جهزها به ثم سلمها إلى مائتي خادم وثلاثمائة جارية من خواص خدمه وجواريه، وحُملتْ إلى خراسان إلى نوح بن نصر فتزوج بها.

قال: وبلغنا أن نصرا عمل قبره قبل وفاته بعشرين سنة، وذلك أنه حُدَّ له في مولده مبلغ عمره ومدة انقضاء أجله، وأن موته يكون بالسل ،وعُرف اليوم الذي يموت فيه، فخرج يوم موته إلى خارج بخارى ،وقد أعلم الناس أنه ميت في يومه ذلك ،وأمرهم أن يتجهزوا له بجهاز التعزية والمصيبة ليتصورهم بعد موته بالحال التي يراهم بها، فسار بين يديه ألوف من

الغلمان الأتراك المرد وقد ظاهروا اللباس بالسواد وشقوا عن صدورهم وجعلوا التراب على رؤوسهم ثم تبعهم نحو ألفي جارية من أصناف الرقيق مختلفي الأجناس واللغات على تلك الهيئة ثم جاء على آثارهم عامة الجيش والأولياء يجنبون دوابهم ويقودون قودهم وقد خالفوا في نصب سروجها عليها وسودوا نواصيها وجباهها حاثين التراب على رؤوسهم، واتصلت بهم الرعية والتجار في غم وحزن وبكاء شديد وضجيج يقدمهم أولادهم ونساؤهم ،ثم اتصلت بهم الشاكرية والمكارون والحمالون على فرق منهم قد غيروا زيهم، وشهر نفسه بضرب من اللباس، ثم جاء أولاده يمشون بين يديه حفاة حاسرين والتراب على رؤوسهم وبين أيديهم وجوه كتّابه وجلة خدمه ورؤساؤه وقواده، ثم أقبل القضاة والمعدلون والعلماء يسايرونه في غم وكآبة وحزن، وأحضر سجلا كبيرا ملفوفا فأمر القضاة والفقهاء والكتاب بختمه فأمر نوحا ابنه أن يعمل بما فيه ،واستدعى شيئا من حسا في زبدية من الصيني الأصفر فتناول منه شيئا يسيرا ،ثم تغرغرت عيناه بالدموع، وحمد الله تعالى وتشهد وقال: هذا آخر زاد نصر من دنياكم؛ وسار إلى قبره ودخله وقرأ عشرا فيه واستقر به مجلسه ومات، رحمه الله. وتولى الأمر نوح ابنه؛ قلت ونحن نشك في صحة هذا الخبر لأن محدثنا به ربما كان ذكر شيئا لسأل الله أن لا يؤاخذه بما قال.

ونرجع إلى كلام رسول نصر، قال: وأقمت بسندابل مدينة الصين مدة ألقى ملكها في الأحايين فيفاوضني في أشياء،ويسألني عن أمور من أمور بلاد الإسلام، ثم استأذنته في الانصراف فأذن لي بعد أن أحسن إلي ولم يبق غاية في أمري، فخرجت إلى الساحل أريد كَلَه، وهي أول الهند وآخر منتهى مسير المراكب ،لا يتهيأ لها أن تتجاوزها وإلا غرقت، قال: فلما وصلت إلى كله رأيتها وهي عظيمة عالية السور كثيرة البساتين غزيرة الماء ووجدت بها معدنا للرصاص القلعي لا يكون إلا في قلعتها في سائر الدنيا، وفي هذه القلعة تضرب السيوف القلعية وهي الهندية العتيقة، وأهل هذه القلعة يمتنعون على ملكهم إذا أرادوا ويطيعونه إن أحبوا، ورسمهم رسم الصين في ترك الذباحة ، وليس في جميع الدنيا معدن للرصاص القلعي إلا في هذه القلعة، وبينها وبين مدينة الصين ثلاثمائة فرسخ، وحولها مدن

ورساتيق وقرى، ولهم أحكام حبوس جنايات، وأكلهم البر والتمور، وبقولهم كلها تباع وزنا وأرغفة خبزهم تباع عددا، وليس عندهم حمامات بل عندهم عين جارية يغتسلون بها، ودرهمهم يزن ثلثي درهم ويعرف بالقاهري، ولهم فلوس يتعاملون بها، ويلبسون كأهل الصين الإفرند الصيني المثمن ، وملكهم دون ملك الصين ويخطب لملك الصين، وقبلته إليه، وبيت عبادته له.

وخرجت منها إلى بلد الفلفل فشاهدت نباته، وهو شجر عادي لا يزول الماء من تحته فإذا هبت الريح تساقط حمله فمن ذلك تشنجه وإنما يجتمع من فوق الماء، وعليه ضريبة للملك، وهو شجر حر لا مالك له ،وحمله أبدا فيه لا يزول شتاء ولا صيفا، وهو عناقيد فإذا حميت الشمس عليه انطبق على العنقود عدة من ورقه لئلا يحترق بالشمس، فإذا زالت الشمس زالت تلك الأوراق ، وانتهيت منه إلى لحف الكافور ، وهو جبل عظيم فيه مدن تشرف على البحر منها قامرون التي ينسب إليها العود الرطب المعروف بالمندل القامروني، ومنها مدينة يقال لها قماريان، وإليها ينسب العود القماري ، وفيه مدينة يقال لها الصنف، ينسب إليها العود الصنفي.

وفي اللحف الآخر من ذلك الجبل مما يلي الشمال مدينة يقال لها الصيمور، لأهلها حظ من الجمال وذلك لأن أهلها متولدون من الترك والصين فجمالهم لذلك، وإليها تخرج تجارات الترك، وإليها ينسب العود الصيموري وليس هو منها إنما هو يحمل إليها، ولهم بيت عبادة على رأس عقبة عظيمة وله سدنة وفيه أصنام من الفيروزج والبيجاذق، ولهم ملوك صغار، ولباسهم لباس أهل الصين، ولهم بيع وكنائس ومساجد وبيوت نار، لا يذبحون ولا يأكلون ما مات حتف أنفه. وخرجت إلى مدينة يقال لها جاجلي على رأس جبل مشرف نصفها على البحر ونصفها على البر ولها ملك مثل ملك كله يأكلون البر والبيض ولا يأكلون السمك ولا يذبحون، ولهم بيت عبادة كبير معظم، لم يمتنع على الإسكندر في بلدان الهند غيرها، وإليها يحمل الدار صيني، ومنها يحمل إلى سائر الآفاق، وشجر الدار صيني حر لا مالك له، ولباسهم لباس كله إلا أنهم يتزينون في أعيادهم بالحبر اليمانية،

ويعظمون من النجوم قلب الأسد، ولهم بيت رصد وحساب محكم ومعرفة بالنجوم كاملة، وتعمل الأوهام في طباعهم، ومنها خرجت إلى مدينة يقال لها قشمير وهي كبيرة عظيمة لها سور وخندق محكمان تكون مثيل نصف سندابل مدينة الصين ،وملكها أكبر من ملك مدينة كَلَه وأتم طاعة، ولهم أعياد في رؤوس الأهلة وفي نزول النيرين شرفهما، ولهم رصد كبير في بيت معمول من الحديد الصيني لا يعمل فيه الزمان، ويعظمون الثريا، وأكلهم البر ويأكلون المليح من السمك ولا يأكلون البيض ولا يذبحون.

وسرت منها إلى كابل ،فسرت شهرا حتى وصلت إلى قصبتها المعروفة بطابان، وهي مدينة في جوف جبل قد استدار عليها كالحلقة دوره ثلاثون فرسخا لا يقدر أحد على دخوله إلا بجواز ؛لأن له مضيقا قد غلق عليه باب ووكل به قوم يحفظونه فما يدخله أحد إلا بإذن، والإهليلج بها كثير جدا، وجميع مياه الرساتيق والقرى التي داخل المدينة تخرج من المدينة، وهم يخالفون ملة الصين في الذباحة، ويأكلون السمك والبيض، ويقتل بعضهم بعضا، ولهم بيت عبادة.

وخرجت من كابل إلى سواحل البحر الهندي متياسرا فسرت إلى بلد يعرف بمندورقين منابت غياض القنا وشجر الصندل ومنه يحمل الطباشير، وذلك أن القنا إذا جف وهبت عليه الريح احتك بعضه ببعض واشتدت فيه الحرارة للحركة فانقدحت منه نار فربما أحرقت منها مسافة خمسين فرسخا أو أكثر من ذلك فالطباشير الذي يحمل إلى سائر الدنيا من ذلك القنا، فأما الطباشير الجيد الذي يساوي مثقاله مائة مثقال أو أكثر فهو شيء يخرج من جوف القنا إذا هز، وهو عزيز جدا، وما يفجر من منابت الطباشير حمل إلى سائر البلاد وبيع على أنه توتيا الهند، وليس كذلك لان التوتيا الهندي هو دخان الرصاص القلعي، ومقدار ما يرتفع منه كل سنة ثلاثة أمنان أو أربعة أمنان ولا يتجاوز الخمسة، ويباع المن منه بخمسة آلاف درهم إلى ألف دينار.

وخرجت منها إلى مدينة يقال لها كولَم لأهلها بيت عبادة وليس فيه صنم وفيها منابت الساج والبقم، وهو صنفان ،وهذا دونٌ ،والأمرون هو الغاية، وشجر الساج مفرط العظم

والطول ربما جاوز مائة ذراع وأكثر، والخيزران والقنا بها كثير جدا، وبها شيء من السنْدَروس قليل غير جيد والجيد منه بالصين، وهو من عرعر ينبت على باب مدينتها الشرقي، والسندروس شبه الكهربائية وأحلُّها وفيها مغناطيس يجذب كل شيء إذا أُحميَ بالدلك، وعندهم الحجارة التي تعرف بالسندانية يعمل بها السقوف، وأساطين بيوتهم من خرز أصلاب السمك الميت ولا يأكلونه، ولا يذبحون، وأكثرهم يأكل الميتة، وأهلها يختارون للصين ملكا إذا مات ملكهم، وليس في الهند طب إلا في هذه المدينة، وبها تُعمل غضائر تباع في بلداننا على أنه صيني وليس هو صيني لأن طين الصين أصلب منه وأصبر على النار وطين هذه المدينة الذي يعمل منه الغضائر المشبه بالصيني يخمر ثلاثة أيام لا يحتمل أكثر منها وطين الصين يخمر عشرة أيام ويحتمل أكثر منها، وخزف غضائرها أدكن اللون وما كان من الصين أبيض وغيره من الألوان شفافا وغير شفاف فهو معمول في بلاد فارس من الحصى والكلس القلعي والزجاج يعجن على البوائن وينفخ ويعمل بالماسك كما ينفخ الزجاج مثل الجامات وغيرها من الأواني.

ومن هذه المدينة يُركب إلى عمان، وبها راوند ضعيف العمل والصيني أجود منه، والراوند قرع يكون هناك وورقه السادج الهندي، وإليها تنسب أصناف العود والكافور واللبان والقُتار، وأصل العود نبت في جزائر وراء خط الاستواء، وما وصل إلى منابته أحد ولم يعلم أحد كيف نباته وكيف شجره ولا يصف إنسان شكل ورق العود وإنما يأتي به الماء إلى جانب الشمال، فما انقلع وجاء إلى الساحل فأُخذ رطبا بكَلَه وبقامرون أو في بلد الفلفل أو بالصنف أو بقماريان أو بغيرها من السواحل بقي إذا أصابته الريح الشمال رطبا أبدا لا يتحرك عن رطبه، وهو المعروف بالقامروني المندلي، وما جف في البحر ورمي يابسا فهو الهندي المصمت الثقيل ومحنته أن يُنال منه بالمِبرد ويلقى على الماء فإن لم ترسب بُرادته فليس بمختار وإن رسبت فهو الخالص الذي ما بعده غاية، وما جف منه في مواضعه ونخر في البحر فهو القماري، وما نخر في مواضعه وحمله البحر نخرا فهو الصنفي، وملوك هذه المرافيء يأخذون ممن يجمع العود من السواحل ومن البحر العشر، وأما الكافور فهو في لحف

جبل بين هذه المدينة وبين مندورقين مطل على البحر وهو لب شجر يشق فيوجد الكافور كامنا فيه فربما وجد مائعا وربما كان جامدا لأنه صمغ يكون في لب هذا الشجر، وبها شيء من الإهليلج قليل والكابلي أجود منه لأن كابُل بعيدة من البحر، وجميع أصناف الإهليلج بها وكل شجر مما نثرته الريح فجا غير نضيج فهو الأصفر، وهو حامض بارد، وما بلغ وقطف في أوان إدراكه فهو الكابلي، وهو حلو حار، وما ترك في شجرة في أيام الشتاء حتى يسود فهو الأسود مر حار، وبها معدن كبريت أصفر ومعدن نحاس يخرج من دخانه توتيا جيد، وجميع أصناف التوتيا كلها من دخان النحاس إلا الهندي فإنه كما ذكرنا يخرج من دخان الرصاص القلعي، وماء هذه المدينة وماء مندورقين من الصهاريج المختزن فيها من مياه الأمطار، ولا زرع فيها إلا القرع الذي فيه الراوند فإنه يزرع بين الشوك، وكذلك أيضا بطيخهم عزيز جدا، وبها قنبيل يقع من السماء ويجمع بأخثاء البقر، والعربي أجود منه.

وسرت من مدن السواحل إلى الملتان، وهي آخر مدن الهند مما يلي الصين وأولها مما يلينا وتلي أرض السند، وهي مدينة عظيمة جليلة القدر عند أهل الهند والصين لأنها بيت حجهم ودار عبادتهم مثل مكة عند المسلمين وبيت المقدس عند اليهود والنصارى، وبها القبة العظمى والبد الأكبر، وهذه القبة سمكها في السماء ثلاثمائة ذراع وطول الصنم في جوفها مائة ذراع، وبين رأسه وبين القبة مائة ذراع، وبين رجليه وبين الأرض مائة ذراع، وهو معلق من جوفها لا بقائمة من أسفله يُدعم عليها ولا بعلاقة من أعلاه تمسكه؛ قلت ـ: هذا هو الكذب الصراح لأن هذا الصنم ذكره المدائني في فتوح الهند والسند وذكر أن طوله عشرون ذراعا، قال أبو دلف: البلد في يد يحيى بن محمد الأموي هو صاحب المنصورة أيضا والسند كله في يده، والدولة بالملتان للمسلمين ومُلاك عُقْرها ولد عمر بن علي بن أبي طالب، والمسجد الجامع مصاقب لهذه القبة، والإسلام بها ظاهر والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بها شامل؛ وخرجت منها إلى المنصورة، وهي قصبة السند، والخليفة الأموي مقيم بها يخطب لنفسه ويقيم الحدود ويملك السند كله بره وبحره، ومنها إلى البحر خمسون فرسخا، وبساحلها مدينة الديبُل، وخرجت من المنصورة إلى بغانين، وهو بلد واسع يؤدي

أهله الخراج إلى الأموي وإلى صاحب بيت الذهب ، وهو بيت من ذهب في صحراء تكون أربعة فراسخ ولا يقع عليها الثلج ويثلج ما حولها، وفي هذا البيت رصد الكواكب، وهو بيت تعظمه الهند والمجوس، وهذه الصحراء تعرف بصحراء زردشت صاحب المجوس، ويقول أهل هذه البلدان : إن هذه الصحراء متى خرج منها إنسان يطلب دولة لم يُغلب ولم يهزم له عسكر حيثما توجه؛ ومنها إلى شهر داور ومنها إلى بغنين ومنها إلى غزنين وبها تتفرق الطرق فطريق يأخذ يمنة إلى باميان وختلان وخراسان، وطريق يأخذ تلقاء القبلة إلى بُسْت ثم إلى سجستان، وكان صاحب سجستان في وقت موافاتي إياها أبا جعفر محمد بن أحمد بن الليث وأمه بانويه أخت يعقوب بن الليث، وهو رجل فيلسوف سمح كريم فاضل. له في بلده طراز تعمل فيه ثياب، ويخلع في كل يوم خلعة على واحد من زواره ويقوم عليه من طرازها بخمسة آلاف درهم ومعها دابة النوبة وولي الحمام والمِسند والمطرح ومِسورتان ومخدتان، وبذلك يعمل ثبت ويسلم إلى الزائر فيستوفيه من الخازن.)

انحدر ابن بطوطة من وسط آسيا باتجاه الهند، ثم توغّل فيها إلى الجنوب، وأمضى في البلاد سنين طويلة، واستأنف بعد ذلك تجواله في الجزر الواقعة جنوب شبه القارة الهندية : جزر المالديف ،وسيلان، وغيرهما .ثم اتجه صوب البنغال، وسرعان ماأخذ طريق البحر إلى جاوه ،ومنها إلى الصين التي ظل يتوغل فيها من الجنوب باتجاه الشمال إلى ماكان يسمى (بلاد الخطا)، قبل أن يعود أدراجه. ولقد توفرّ لابن بطوطة مايندر أن يتوفّر لدى غيره : الزمن الكافي ، والحيوية، والرغبة، ودقة الملاحظة. وهي مكونات اجتمعت في شخص هذا الرحالة الذي لايعرف الكلل واليأس والخوف(إذا أخذناها بالمعنى المباشر) .

لقد كان مدفوعا بإصرار عجيب نحو هدف يبدو للمعاصرين غامضا، لم نستطع ، فيما يبدو لي، أن نتفهّم معنى أن يمضي رحّالة ربع قرن في ارتحال دائم يعايش خلالها شعوبا وثقافات وعقائد متنوعة ومختلفة، ثم فجأة بعد أن وطّن نفسه على كل ذلك ، يقفل راجعا إلى مسقط رأسه، في أقصى غرب ديار الإسلام : المغرب .

ليس المكان مناسبا هنا لتقديم تفسير لكلّ ذلك، فلنا في تضاعيف هذا الكتاب بكل

أجزائه عودة ثم عودة إليه، ولكن بقدر تعلّق الأمر برحلته في البلاد الهندية والصينية وماجاورهما، فإن ماجاء في الرحلة يعتبر بكل المعايير غاية من الأهمية على الصُعد الجغرافية والتاريخية والاجتماعية والدينية، فقد كان ذا عين راصدة لكل ذلك ، عبر أسلوب حار ومتدفّق، تمكّن من الحفاظ على حرارته على الرغم من مسافة الإملاء التي يمثلها المدّون ابن جُزي .

إنّ نص الرحلة طريّ، حديث، متمرّد على أساليب النثر العربي الكلاسيكي في القرون المتأخرة ، تلك الأساليب التي ضربها التصنّع في الصميم .وكانت ملاحظاته مثل مساره الذي لا ينتهي، حاذقة، مختصرة، تُشبع الحالة الموصوفة ولا تختزلها، ولا تكاد تتكرر، وفيها تبصّر وعمق ،ومسح معمّق للخلفيات الاجتماعية والتاريخية للشعوب التي يعيش بينها أو يمر بها .وسوف نتنحّى جانبا تاركين له فرصة كاملة لكي يقوم بعملية استكشاف فريدة لمجتمعات تعتبر حضاراتها من أعرق الحضارات في العالم .

من المؤكد أن الصورة التي رسمها ابن بطوطة للشرق هي من أعمق وأوسع الصور التي ركّبها المسلمون للعالم الشرقي في القرون الوسطى .

(62)

رحلة ابن بطوطة الى الهند والصين وجنوب شرق آسيا
ابن بطوطة (توفي ٧٧٩ هجري=١٣٧٧ ميلادي)
من كتاب (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

من خراسان إلى الهند

ثم سافرت من هذه المدينة(= بسطام وهي مدينة بجوار سمرقند في خراسان) على طريق هند خير(=أندخوي غرب بلخ) إلى قندوس(=شمال أفغانستان) وبغلان وهي قرى فيها مشايخ وصالحون وبها البساتين والأنهار ،فنزلنا بقندوس على نهر ماء به زاوية لأحد شيوخ الفقراء من أهل مصر يسمى بشير سيّاه ومعنى ذلك "الأسد الأسود" وأضافنا بها والي تلك

الأرض وهو من أهل الموصل ببستان عظيم هنالك ،وأقمنا بخارج هذه القرية نحو أربعين يوما لرعي الجمال والخيل، وبها مراعي طيبة وأعشاب كثيرة ،والأمن بها شامل بسبب شدة أحكام الأمير برنطيه ،وقد قدمنا أن أحكام الترك في مَن سرق فرسا أن يعطي منه تسعة مثله فإن لم يجد ذلك أخذ فيها أحد أولاد ه ،فإن لم يكن له أولاد ذبح مثل الشاة ،والناس يتركون دوابهم مهملة دون راع بعد أن يَسِمَ كل واحد دوابه في أفخاذها .وكذلك فعلنا في هذه البلاد.

واتفق أن تفقدنا خيلنا بعد عشر من نزولنا بها ففقدنا منها ثلاثة أفراس، ولما كان بعد نصف شهر جاءنا التتر بها إلى منزلنا خوفا على أنفسهم من الأحكام وكنا نربط في كل ليلة إزاء أخبيتنا فرسين لما عسى أن يقع بالليل ،ففقدنا الفرسين ذات ليلة ،وسافرنا من هنالك ،وبعد اثنتين وعشرين ليلة جاؤوا بهما إلينا في أثناء طريقنا.

وكان أيضا من أسباب إقامتنا خوف الثلج ؛فإن بأثناء الطريق جبلا يقال له هندوكوش (= في قلب أفغانستان ارتفاعه ٧٠٠٠م) ومعناه "قاتل الهنود" لأن العبيد والجواري الذين يؤتى بهم من بلاد الهند يموت هنالك الكثير ،منهم لشدة البرد، وكثرة الثلج .وهو مسيرة يوم كامل. وأقمنا حتى تمكنا من دخول الحر(= وقع هذا في ربيع عام ٧٣٥هجرية=١٣٣٥ ميلادية) وقطعنا ذلك الجبل من آخر الليل ،وسلكنا به جميع نهارنا إلى الغروب وكنا نضع اللبود بين أيدي الجمال تطأ عليها لئلا تغرق في الثلج.

ثم سافرنا إلى موضع يعرف بأنبر(=اندراب) وكانت هنالك فيما تقدم مدينة عفي رسمها ،ونزلنا بقرية عظيمة فيها زاوية لأحد الفضلاء ويسمى بمحمد المهروي ،ونزلنا عنده وأكرمنا. وكان متى غسلنا أيدينا من الطعام يشرب الماء الذي غسلناها به لحسن اعتقاده وفضله ،وسافر معنا إلى أن صعدنا جبل هندوكوشْ المذكور، ووجدنا بهذا الجبل عين ماء حارة فغسلنا منها وجوهنا فتقشرت وتألمنا لذلك ، ثم نزلنا بموضع يعرف ببنج هير(=بنجهر) ومعنى بنج خمسة وهير الجبل فمعناه خمسة جبال ،وكانت هنالك مدينة حسنة كثيرة العمارة على نهر عظيم أزرق ،كأنه بحر ينزل من جبال بدخشان ،وبهذه

الجبال يوجد الياقوت الذي يعرفه الناس بالبلخش ،وخرب هذه البلاد تنكيز(= جنكيز) ملك التتر فلم تعمر بعده. وبهذه المدينة مزار الشيخ سعيد المكي، وهو معظم عندهم.

ووصلنا إلى جبل بشاي (= جوار كلبهار)وبه زاوية الشيخ الصالح أطا أولياء، وأطا معناه بالتركية الأب ،وأولياء باللسان العربي فمعناه أبو الأولياء، ويسمى أيضا سيصد صاله، وسيصد معناه بالفارسية ثلاثمائة وصاله معناه عام ،وهم يذكرون أن عمره ثلاثمائة وخمسون عام ،ولهم فيه اعتقاد حسن ويأتون لزيارته من البلاد والقرى ،ويقصده السلاطين والخواتين ،وأكرمنا وأضافنا، ونزلنا على نهر عند زاويته، ودخلنا إليه فسلمت عليه،وعانقني وجسمه رطب لم أر ألين منه. ويظن رائيه أن عمره خمسون سنة ،وذكر لي أنه في كل مائة سنة ينبت له الشعر والأسنان، وأنه رأى أباهم الذي دفنهم بملتان من السند ،وسألته عن رواية حديث ،فأخبرني بحكايات شككت في حاله. والله أعلم بصدقه.

ثم سافرنا إلى بَروَن(= شمال كابول) وفيها لقيت الأمير برنطية ،وأحسن إلي وأكرمني،وكتب إلى نوابه في مدينة غزنة في إكرامي... ثم سافرنا إلى قرية الجرخ، وهي كبيرة لها بساتين كثيرة وفواكه طيبة قدمنا في أيام الصيف ،ووجدنا فيها جماعة من الفقراء والطلبة ،وصلينا بها الجمعة ،وأضافنا أميرها محمد الجرخي ولقيته بعد ذلك بالهند .

ثم سافرنا إلى مدينة غزنة(= جنوب غربي كابول) وهي بلد السلطان المجاهد محمود بن سبكتكين(٤٢١هـ=١٠٣٠هـ) الشهير الاسم، وكان من كبار السلاطين يلقب بيمين الدولة، وكان كثير الغزو إلى بلاد الهند ،وفتح بها المدائن والحصون وقبره بهذا المدينة عليه زاوية ،وقد خرب معظم هذه البلدة ولم يبق منها إلا يسير .وكانت كبيرة وهي شديدة البرد، والساكنون بها يخرجون عنها أيام البرد إلى مدينة القندهار، وهي كبيرة مخصبة ولم أدخلها وبينهما مسيرة ثلاث ،ونزلنا بخارج غزنة في قرية هنالك على نهر ماء تحت قلعتها، وأكرمنا أميرها مرذك آغا ومرذك معناه الصغير وآغا معناه الكبير الأصل .

ثم سافرنا إلى كابل وكانت فيما سلف مدينة عظيمة ،وبها الآن قرية يسكنها طائفة من الأعاجم يقال لهم الأفغان، ولهم جبال وشعاب وشوكة قوية وأكثرهم قطاع طريق ،وجبلهم

الكبير يسمى كوه سليمان(=تخت سليمان) يذكر أن نبي الله سليمان عليه السلام صعد ذلك الجبل فنظر إلى أرض الهند وهي مظلمة، فرجع ولم يدخلها فسمي الجبل به ،وفيه يسكن ملك الأفغان .وبكابل زاوية الشيخ إسماعيل الأفغاني تلميذ الشيخ عباس من كبارالأولياء . ومنها رحلنا إلى كرماش ،وهي حصن بين جبلين تقطع الطرق بين الأفغان وكنا حين جاوزنا عليه نقاتلهم وهم بسفح الجبل ،ونرميهم بالنشاب فيفرون ،وكانت رفقتنا مُخِفَّة، ومعهم نحو أربعة آلاف فرس، وكانت لي جمال انقطعتُ عن القافلة لأجلها ومعي جماعة بعضهم من الأفغان، وطرحنا بعض الزاد وتركنا أحمال الجمال التي أعيت بالطريق، وعادت إليها خيلنا بالغد فاحتملتها ،ووصلنا إلى القافلة بعد العشاء الآخرة فبتنا بمنزل ششنغار(= شمال شرق بيشاور) هي آخر العمارة مما يلي بلاد الترك.

ومن هنا دخلنا البرية الكبرى وهي مسيرة خمس عشرة لا تدخل إلا في فصل واحد وهو بعد نزول المطر بأرض السند والهند ،وذلك في أوائل شهر يوليه ،وتهب في هذه البرية ريح السموم القاتلة الي تعفن الجسوم حتى إن الرجل إذا مات تنفسخ أعضاؤه... وكانت تقدمت أمامنا رفقة كبيرة فيها خداوند زادة قاضي ترمذ فمات لهم جماعة وخيل كثيرة. ووصلت رفقتنا سالمة بحمد الله تعالى إلى بنج آب، وهو ماء السند وبنج معناه خمسة وآب معناه الماء، فمعنى ذلك الأودية الخمسة، وهي تصب في النهر الأعظم، وتسقي تلك النواحي وسنذكرها إن شاء الله تعالى.

وكان وصولنا لهذا النهر سلخ ذي الحجة ،واستهل علينا تلك الليلة هلال المحرم من عام أربع وثلاثين وسبعمائة ،ومن هنالك كتب المخبرون بخبرنا إلى أرض الهند وعرفوا ملكها بكيفية أحوالنا .

الوصول إلى بنج آب

ولما كان بتاريخ الغرة من شهر المحرم مفتتح عام أربعة وثلاثين وسبعمائة وصلنا إلى وادي السند المعروف ببنج آب ومعنى ذلك المياه الخمسة وهذا الوادي من أعظم أودية الدنيا وهو يفيض في أوان الحر فيزرع أهل تلك البلاد على فيضه كما يفعل أهل الديار المصرية في

فيض النيل، وهذا الوادي هو أول عمالة السلطان المعظم محمد شاه ملك الهند والسند . ولما وصلنا إلى هذا النهر جاء إلينا أصحاب الأخبار الموكلون بذلك ،وكتبوا بخبرنا إلى قطب الملك أمير مدينة ملتان، وكان أمير أمراء السند على هذا العهد مملوك للسلطان يسمى سرتيز، وهو عرض المماليك، وبين يديه تعرض عساكر السلطان، ومعنى اسمه الحاد الرأس لأن سر هو الرأس و تيز معناه الحاد ،وكان في حين قدومنا بمدينة سيوستان من السند ، وبينها وبين ملتان مسيرة عشرة أيام ،وبين بلاد السند وحضرة السلطان مدينة دهلي (=دلهي) مسيرة خمسين يوما وإذا كتب المخبرون إلى السلطان من بلاد السند يصل الكتاب إليه في خمسة أيام بسبب البريد .

والبريد ببلاد الهند صنفان : فأما بريد الخيل فيسمونه الولاق، وهو خيل تكون للسلطان في كل مسافة أربعة أميال، وأما بريد الرجالة فيكون في مسافة الميل الواحد منه ثلاث رتب، ويسمونها الداوة(= الركض) والداوة هي ثلث ميل والميل عندهم يسمى الكروة(= ثلث فرسخ) وترتيب ذلك أن يكون في كل ثلث ميل قرية معمورة ،ويكون بخارجها ثلاث قباب يقعد فيها الرجال مستعدين للحركة قد شدوا أوساطهم ،وعند كل واحد منهم مقرعة مقدار ذراعين بأعلاها جلاجل نحاس فإذا خرج البريد من المدينة أخذ الكتاب بأعلى يده والمقرعة ذات الجلاجل باليد الأخرى ،وخرج يشتد بمنتهى جهده فإذا سمع الرجال الذين بالقباب صوت الجلاجل تأهبوا له فإذا وصلهم أخذ أحدهم الكتاب من يده ومر بأقصى جهده ،وهو يحرك المقرعة حتى يصل إلى الداوة الأخرى، ولا يزالون كذلك حتى يصل الكتاب إلى حيث يراد منه. وهذا البريد أسرع من بريد الخيل، وربما حملوا على هذا البريد الفواكه المستطرفة بالهند من فواكه خراسان يجعلونها في الأطباق ويشتدون بها حتى تصل إلى السلطان، وكذلك يحملون الكبار من ذوي الجنايات، يجعلون الرجل على سرير ويرفعونه فوق رؤوسهم ويسيرون به شدا، وكذلك يحملون الماء لشرب السلطان إذا كان بدولة أباد يحملونه من نهر الكنك الذي تحج الهنود إليه وهو على مسيرة أربعين يوما منها.

وإذا كتب المخبرون إلى السلطان بخبر مَن يصل إلى بلاده استوعبوا الكتاب وأمعنوا في

ذلك، وعرفوه أنه ورد رجل صورته كذا ولباسه كذا ،وكتبوا عدد أصحابه وغلمانه وخدامه ودوابه وترتيب حاله في حركته وسكونه وجميع تصرفاته، لا يغادرون من ذلك كله شيئا ،فإذا وصل الوارد مدينة ملتان، وهي قاعدة بلاد السند ،أقام بها حتى ينفذ أمر السلطان بقدومه وما يجري له من الضيافة ،وإنما يكرم الإنسان هنالك بقدر ما يظهر من أفعاله وتصرفاته وهمته إذ لا يعرف هنالك ما حسبه ولا آباؤه .

ومن عادة ملك الهند السلطان أبي المجاهد محمد شاه إكرام الغرباء ومحبتهم وتخصيصهم بالولايات والمراتب الرفيعة ،ومعظم خواصه وحجابه ووزارئه وقضاته وأصهاره غرباء، ونفذ أمره بأن يسمي الغرباء في بلده بالأعزّة فصار لهم ذلك اسما وعلما ،ولا بد لكل قادم على هذا الملك من هدية يهديها إليه ويقدمها وسيلة بين يديه فيكافئه السلطان عليها بأضعاف مضاعفة وسيمر من ذكر هدايا الغرباء إليه كثير.

ولما تعود الناس ذلك منه صار التجار الذين ببلاد السند والهند يعطون لكل قادم على السلطان الآلاف من الدنانير دينا ويجهزونه بما يريد أن يهديه إليه أو يتصرف فيه لنفسه من الدواب للركوب والجمال والأمتعة ويخدمونهم بأموالهم وأنفسهم ويقفون بين يديه كالحشم، فإذا وصل إلى السلطان أعطاه العطاء الجزيل فقضى ديونهم ووفاهم حقوقهم فنفقت تجارتهم وكثرت أرباحهم ،وصار لهم ذلك عادة مستمرة .

ولما وصلتُ إلى بلاد السند سلكتُ ذلك المنهج واشتريت من التجار الخيل والجمال والمماليك وغير ذلك ،ولقد اشتريت من تاجر عراقي من أهل تكريت يعرف بمحمد الدوري بمدينة غزنة نحو ثلاثين فرسا وجملا عليه حمل من النشاب، فإنه مما يهدى إلى السلطان، وذهب التاجر المذكور إلى خراسان ثم عاد إلى الهند .وهنالك تقاضى مني ماله واستفاد بسببي فائدة عظيمة، وعاد من كبار التجار. ولقيته بمدينة حلب بعد سنين كثيرة وقد سلبني الكفار ما كان بيدي فلم ألق منه خيرا.

من بنج آب إلى سيوستان

ولما أجزنا نهر السند المعروف ببنج آب دخلنا غيضة قصب لسلوك الطريق لأنه في وسطها فخرج علينا الكركدن ،وصورته أنه حيوان أسود اللون عظيم الجرم رأسه كبير متفاوت الضخامة ولذلك يضرب به المثل ،فيقال: الكركدن، رأس بلا بدن . وهو دون الفيل، ورأسه أكبر من رأس الفيل بأضعاف ،وله قرن واحد بين عينيه طوله نحو ثلاثة أذرع وعرضه نحو شبر .ولما خرج علينا عارضه بعض الفرسان في طريقه فضرب الفرس الذي كان تحته بقرنه فأنفذ فخذه وصرعه ،وعاد إلى الغيضة .فلم نقدر عليه، وقد رأيت الكركدن مرة ثانية في هذا الطريق بعد صلاة العصر، وهو يرعى نبات الأرض ،فلما قصدناه هرب منا، ورأيته مرة أخرى ونحن مع ملك الهند دخلنا غيضة قصب وركب السلطان على الفيل وركبنا معه الفيلة ،ودخلت الرجالة والفرسان فأثاروه وقتلوه واستاقوا رأسه إلى المحلة.

وسرنا من نهر السند يومين ووصلنا إلى مدينة جناني(= شمال سيوستان) مدينة كبيرة حسنة على نهر السند لها أسواق مليحة ،وسكانها طائفة يقال لهم السامرة استوطنوها قديما واستقر بها أسلافهم حين فتحها على أيام الحجاج بن يوسف ،حسبما أثبت المؤرخون في فتح السند .

وأخبرني الشيخ الإمام العالم العامل الزاهد العابد ركن الدين بن الشيخ الفقيه الصالح شمس الدين بن الشيخ الإمام العابد الزاهد بهاء الدين زكريا القرشي، وهو أحد الثلاثة الذين أخبرني الشيخ الولي الصالح برهان الدين الأعرج بمدينة الإسكندرية أني سألقاهم في رحلتي ،فلقيتهم والحمد لله :إن جده الأعلى كان يسمى بمحمد بن قاسم القرشي، وشهد فتح السند في العسكر الذي بعثه لذلك الحجاج بن يوسف أيام إمارته على العراق، وأقام بها وتكاثرت ذريته وهؤلاء الطائفة المعروفون بالسامرة لا يأكلون مع أحد ،ولا ينظر إليهم أحد حين يأكلون، ولا يصاهرون أحدا من غيرهم ،ولا يصاهر إليهم أحد، وكان لهم في هذا العهد أمير يسمى وُنار وسنذكر خبره.

ثم سافرنا من مدينة جناني إلى أن وصلنا إلى مدينة سيوستان(= شمال كراتشي) وهي

مدينة كبيرة وخارجها صحراء ورمال لا شجر بها إلا شجر أم غيلان، ولا يزرع على نهرها شيء ما عدا البطيخ وطعامهم الذرة والجلبان ويسمونه المشنك، ومنه يصنعون الخبز وهي كثيرة السمك والألبان الجاموسية، وأهلها يأكلون السقنقور، وهي دويبة شبيهة بأم حنين التي يسميها المغاربة حنيشة الجنة إلا أنها لا ذنب لها ،ورأيتهم يحتفرون الرمل ويستخرجونها منه ،ويشقون بطنها ويرمون بما فيه ويحشونه بالكركم، وهم يسمونه زرد شوبه، ومعناه العود الأصفر وهو عندهم عوض الزعفران، ولما رأيت تلك الدويبة وهم يأكلونها استقذرتها فلم آكلها، ودخلنا هذه المدينة في احتدام القيظ وحرها شديد فكان أصحابي يقعدون عريانين يجعل أحدهم فوطة على وسطه وفوطة على كتفيه مبلولة بالماء فما يمضي اليسير من الزمان حتى تيبس تلك الفوطة فيبلها مرة أخرى، وهكذا أبدا.

ولقيت بهذه المدينة خطيبها المعروف بالشيباني وأراني كتاب أمير المؤمنين الخليفة عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه لجده الأعلى ،بخطابة هذه المدينة وهم يتوارثونها من ذلك العهد حتى الآن، ونص الكتاب :هذا ما أمر به عبد الله أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز لفلان وتاريخه سنة تسع وتسعين، وعليه مكتوب بخط أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز الحمد لله وحده ، على ما أخبرني الخطيب المذكور. ولقيت بها أيضا الشيخ المعمر محمد البغدادي ،وهو بالزاوية التي على قبر الشيخ الصالح عثمان المرندي، وذكر أن عمره يزيد على مائة وأربعين سنة، وأنه حضر لقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس رضي الله عنهم لما قتله الكافر هلاون(= هولاكو) بن تنكيز التتري، وهذا الشيخ على كبر سنه قوي الجثة يتصرف على قدميه.

كان يسكن بهذه المدينة الأمير ونار السامري الذي تقدم ذكره ،والأمير قيصر الرومي، وهما في خدمة السلطان ومعهما نحو ألف وثمانمائة فارس ،وكان يسكن بها كافر من الهنود اسمه رتَن وهو من الحذاق بالحساب والكتابة ،فوفد على ملك الهند مع بعض الأمراء فاستحسنه السلطان وسماه عظيم السند وولاه بتلك البلاد ،وأقطعه سيوستان وأعمالها وأعطاه المراتب وهي الأطبال والعلامات كما يعطي كبار الأمراء ،فلما وصل إلى تلك البلاد

عظم على وُنار وقيصر وغيرهم تقديم الكافر عليهم فأجمعوا على قتله فلما كان بعد أيام من قدومه أشاروا عليه بالخروج إلى أحواز المدينة ليتطلع على أمورها،فخرج معهم فلما جن الليل أقاموا ضجة بالمحلة ،وزعموا أن السبع ضرب عليها وقصدوا مضرب الكافر فقتلوه ،وعادوا إلى المدينة فأخذوا ما كان بها من مال السلطان وذلك اثنا عشر لكا ،واللك مائة ألف دينار، وصرف اللك عشرة آلاف دينار من ذهب الهند ،وصرف الدينار الهندي ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب ،وقدموا على أنفسهم ونار المذكور وسمّوه ملك فيروز، وقسم الأموال على العسكر ثم خاف على نفسه لبعده عن قبيلته فخرج فيمن معه من أقاربه وقصد قبيلته وقدم الباقون من العسكر على أنفسهم قيصر الرومي، واتصل خبرهم بعماد الملك سرتيز مملوك السلطان ،وهو يومئذ أمير أمراء السند، وسكناه بملتان ،فجمع العساكر وتجهز في البر وفي نهر السند ،وبين ملتان وسيوستان عشرة أيام، وخرج إليه قيصر فوقع اللقاء وانهزم قيصر ومن معه أشنع هزيمة ،وتحصنوا بالمدينة فحاصرهم ونصب المجانيق عليهم واشتد عليهم الحصار فطلبوا الأمان بعد أربعين يوما من نزوله عليهم ،فأعطاهم الأمان ،فلما نزلوا إليه غدرهم وأخذ أموالهم وأمر بقتلهم ،فكان كل يوم يضرب أعناق بعضهم ويوسّط البعض ويسلخ آخرين منهم ويملأ جلودهم تبنا ويعلقها على السور، فكان معظمه عليه تلك الجلود مصلوبة ترعب من ينظر إليها ،وجمع رؤوسهم في وسط المدينة فكانت مثل التل هنالك.

ونزلت بتلك المدينة أثر هذه الواقعة بمدرسة فيها كبيرة ،وكنت أنام على سطحها فإذا استيقظت من الليل أرى تلك الجلود المصلوبة فتشمئز النفس منها ،ولم تطب نفسي بالسكنى بالمدرسة، فانتقلت عنها. وكان الفقيه الفاضل العادل علاء الملك الخراساني المعروف بفصيح الدين قاضي هراة في متقدم التاريخ قد وفد على ملك الهند فولاه مدينة لاهري وأعمالها من بلاد السند ،وحضر هذه الحركة مع عماد الملك سرتيز بمن معه من العساكر فعزمت على السفر معه إلى مدينة لاهري، وكان له خمسة عشر مركبا قدم بها في نهر السند تحمل أثقاله فسافرت معه.

من سيوستان إلى ملتان

وكان للفقيه علاء الملك في جملة سفنه سفينة تعرف بالأهورَة ،وهي نوع من الطريدة عندنا إلا أنها أوسع منها وأقصر وعلى نصفها مرعش من خشب يصعد له على درج وفوقه مجلس مهيأ لجلوس الأمير، ويجلس أصحابه بين يديه، ويقف المماليك يمنة ويسرة ،والرجال يقذِّفون وهم نحو أربعين ويكون مع هذه الأهورة أربع من السفن عن يمينها ويسارها اثنتان منها فيهما مراتب الأمير،وهي العلامات والطبول والأبواق والأنفار والصرنايات ،وهي الغيطات، والأخريان فيهما أهل الطرب فتضرب الطبول والأبواق نوبة ويغني المغنون نوبة ولا يزالون كذلك من أول النهار إلى وقت الغداء فإذا كان وقت الغداء انضمت المراكب واتصل بعضها ببعض، ووضعت بينهما الإصقالات(= ألواح) وأتى أهل الطرب إلى أهورة الأمير فيغنون إلى أن يفرغ من أكله ثم يأكلون، وإذا انقضى الأكل عادوا إلى مراكبهم وشرعوا في المسير على ترتيبهم إلى الليل ،فإذا كان الليل ضربت المحلة على شاطئ النهر ونزل الأمير إلى مضاربه ومُدَّ السماط، وحضر الطعام معظم العسكر فإذا صلوا العشاء الآخرة سمَر السمّار بالليل نوبا فإذا أتم أهل النوبة منهم نوبتهم نادى مناد منهم بصوت عال :يا خوند ملك، قد مضى من الليل كذا من الساعات ثم يسمر أهل النوبة الأخرى، فإذا أتموا نادى مناديهم أيضا معلما بما مر من الساعات ،فإذا كان الصبح ضربت الأبواق والطبول وصلت صلاة الصبح وأتي بالطعام ،فإذا فرغ الأكل أخذوا في المسير فإن أراد الأمير ركوب النهر ركب على ما ذكرناه من الترتيب ،وإن أراد المسير في البر ضربت الأطبال والأبواق وتقدم حجابه ثم تلاهم المشاؤون بين يديه،ويكون بين أيدي الحجاب ستة من الفرسان عند ثلاثة منهم أطبال قد تقلدوها وعند ثلاثة صُرنايات فإذا أقبلوا على قرية أو ما هو من الأرض مرتفع ضربوا تلك الأطبال والصرنايات ثم تضرب أطبال العسكر وأبواقه ويكون عن يمين الحجاب ويسارهم المغنون يغنون نوبا، فإذا كان وقت الغداء نزلوا.

وسافرت مع علاء الملك خمسة أيام ووصلنا إلى موضع ولايته وهو مدينة لاهري (= لارا

بندر)،مدينة حسنة على ساحل البحر الكبير وبها يصب نهر السند في البحر فيلتقي بها بحران ،ولها مرسى عظيم يأتي إليه أهل اليمن وأهل فارس وغيرهم ،وبذلك عظمت جبايتها وكثرت أموالها .أخبرني الأمير علاء الملك المذكور أن مجبى هذه المدينة ستون لكا في السنة .وقد ذكرنا مقدار الملك وللأمير من ذلك "نم نيم ده يك" ومعناه نصف العشر وعلى ذلك يعطي السلطان البلاد لعماله يأخذون منها لأنفسهم نصف العشر، وركبت يوما مع علاء الملك فانتهينا إلى بسيط من الأرض على مسافة سبعة أميال منها يعرف بتارنا، فرأيت هنالك مالا يحصره العد من الحجارة على مثل صور الآدميين والبهائم وقد تغير كثير منها ودثرت أشكاله ،فيبقى منه صورة رأس أو رجل أو سواهما، ومن الحجارة أيضا على صورة الحبوب من البر والحمص والفول والعدس .وهنالك آثار سور وجدران دور ثم رأينا رسم دار فيها بيت من حجارة منحوتة، وفي وسطه دكانة حجارة منحوتة كأنها حجر واحد عليها صورة آدمي إلا أن رأسه طويل وفمه في جانب من وجهه ويداه خلف ظهره كالمكتوف ،وهنالك مياه شديدة النتن، وكتابة على بعض الجدران بالهندي.

وأخبرني علاء الملك أن أهل التاريخ يزعمون أن هذا الموضع كانت فيه مدينة أكثر أهلها الفساد فمسخوا حجارة، وأن ملكهم هو الذي على الدكانة في الدار التي ذكرناه وهي الآن تسمى دار الملك ،وأن الكتابة التي على بعض الحيطان هنالك بالهندي هي تاريخ هلاك أهل تلك المدينة .وكان ذلك منذ ألف سنة أو نحوها .وأقمت بهذه المدينة مع علاء الملك خمسة أيام ،ثم أحسن في الزاد،وانصرفت عنه إلى مدينة بكار(= جزيرة بخاهار) وهي مدينة حسنة يشقها خليج من نهر السند وفي وسط ذلك الخليج زاوية حسنة فيها الطعام للوارد والصادر، عمّرها كَشلوخان أيام ولايته على بلاد السند، وسيقع ذكره. ولقيت بهذه المدينة الفقيه الإمام صدر الدين الحنفي ،ولقيت بها قاضيها المسمى بأبي حنيفة، ولقيت بها الشيخ العابد الزاهد شمس الدين محمد الشيرازي ،وهو من المعمرين ذكر لي أن سنه يزيد على مائة وعشرين عاما.

ثم سافرت من مدينة بكار فوصلت إلى مدينة أُوجَه، وهي مدينة كبيرة على نهر السند لها

أسواق حسنة وعمارة جيدة ،وكان الأمير بها إذ ذاك الملك الفاضل الشريف جلال الدين الكيجي أحد الشجعان الكرماء ،وبهذه المدينة توفي بعد سقطة سقطها من فرسه، ونشأت بيني وبين هذا الملك الشريف جلال الدين مودة وتأكدت بيننا الصحبة والمحبة واجتمعنا بحضرة دهلي، فلما سافر السلطان إلى دولة أباد، كما سنذكره وأمرني بالإقامة بالحضرة ،قال لي جلال الدين :إنك تحتاج إلى نفقة كبيرة والسلطان تطول غيبته فخذ قريتي واستغلها حتى يعود، ففعلت ذلك واستغللت منها نحو خمسة آلاف دينار جزاه الله أحسن الجزاء، ولقيت بمدينة أوجه الشيخ العابد الزاهد الشريف قطب الدين حيدر العلوي، وألبسني الخرقة ،وهو من كبار الصالحين، ولم يزل الثوب الذي ألبسنيه معي إلى أن سلبني كفار الهنود في البحر.

من ملتان إلى أبو هر

ثم سافرت من أوجه إلى مدينة مُلتان وهي قاعدة (= عاصمة)بلاد السند(= حاليا في البنجاب) ومسكن أمير أمرائه ،وفي الطريق إليها على مسافة عشرة أميال الوادي المعروف بخسرو أباد من الأودية الكبار لا يجاز إلا بالمراكب وبه يبحث عن أمتعة المجتازين أشد البحث وتفتش رحالهم ،وكانت عادتهم حين وصولنا إليها أن يأخذوا الربع من كل ما يجلبه التجار ويأخذوا على كل فرس سبعة دنانير مغرما ،ثم بعد وصولنا للهند بسنتين رفع السلطان تلك المغارم، وأمر أن لا يؤخذ من الناس إلا الزكاة والعشر لما بايع للخليفة أبي العباس العباسي ،ولما أخذنا في إجازة هذا الوادي وفُتشت الرحال عظم علي تفتيش رحلي لأنه لم يكن فيه طائل، وكان يظهر في أعين الناس كبيرا فكنت أكره أن يُطّلع عليه ،ومن لطف الله تعالى أن وصل أحد كبار الأجناد من جهة قطب الملك صاحب ملتان ،فأمر أن لا يعرض لي ببحث ولا تفتيش، فكان كذلك، فحمدت الله على ما هيأه لي من لطائفه. وبتنا تلك الليلة على شاطئ الوادي، وقدم علينا في صبيحتها ملك البريد، واسمه دهقان وهو سمرقندي الأصل، وهو الذي يكتب للسلطان بأخبار تلك المدينة وعمالتها وما يحدث بها

ومن يصل إليها ،فتعرفت به ودخلت بصحبته إلى أمير ملتان .

وأمير ملتان هو قطب الملك من كبار الأمراء وفضلائهم ،لما دخلت قام إلي وصافحني وأجلسني إلى جانبه، وأهديتُ له مملوكا وفرسا وشيئا من الزبيب واللوز ،وهو من أعظم ما يهدى إليهم لأنه ليس ببلادهم وإنما يجلب من خراسان. وكان جلوس هذا الأمير على دكانة كبيرة عليها البسط وعلى مقربة منه القاضي ،ويسمى سالار والخطيب ولا أذكر اسمه، وعن يمينه ويساره أمراء الأجناد وأهل السلاح وقوف على رأسه والعساكر تعرض بين يديه ،وهناك قسي كثيرة فإذا أتى من يريد أن يثبت في العسكر راميا أعطي قوسا من تلك القسي ينزع فيها وهي متفاوتة في الشدة فعلى قدر نزعه يكون مرتبه ،ومن أراد أن يثبت فارسا فهناك طبلة منصوبة فيجري فرسه ويرميها برمحه ،وهناك أيضا خاتم معلق من حائط صغير فيجري فرسه حتى يحاذيه فإن رفعه برمحه فهو الجيد عندهم، ومن أراد أن يثبت راميا فارسا فهنالك كرة موضوعة على الأرض فيجري فرسه ويرميها وعلى قدر ما يظهر الإنسان في ذلك من الإصابة يكون مرتبة ،ولما دخلنا على هذا الأمير وسلمنا عليه كما ذكرناه أمر بإنزالنا في دار خارج المدينة هي لأصحاب الشيخ العابد ركن الدين الذي تقدم ذكره، وعادتهم ألا يضيفوا أحدا حتى يأمر السلطان بتضييفه.

وممن اجتمعت به في هذه المدينة من الغرباء الوافدين على حضرة ملك الهند خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ، قدم بأهله وولده ثم ورد عليه بها إخوته عماد الدين وضياء الدين وبرهان الدين، ومنهم مبارك شاه أحد كبار سمرقند ،ومنهم أرن بغا أحد كبار بخارى، ومنهم ملك زاده ابن أخت خداوند ،ومنهم بدر الدين الفصال، وكل واحد من هؤلاء معه أصحابه وخدامه وأتباعه .ولما مضى من وصولنا إلى ملتان شهران وصل أحد حجاب السلطان ،وهو شمس الدين البوشنجي والملك محمد الهروي الكتوال،بعثهما السلطان لاستقبال خداوند زاده ،وقدم معهم ثلاثة من الفتيان بعثتهم المخدومة جهان أم السلطان لاستقبال زوجة خداوند زاده المذكور، وأتوا بالخلع لهما ولأولادهما ولتجهيز من قدم من الوفود، وأتوا جميعا إلي وسألوني لماذا قدمت فأخبرتهم أني قدمت للإقامة في خدمة خوند

عالم، وهو السلطان وبهذا يدعى في بلاده. وكان أمر أن لا يترك أحد ممن يأتي من خراسان يدخل بلاد الهند إلا إن كان برسم الإقامة فلما أعلمتهم أني قدمت للإقامة استدعوا القاضي والعدول وكتبوا عقدا علي وعلى من أراد الإقامة من أصحابي وأبى بعضهم من ذلك.

وتجهزنا للسفر إلى الحضرة وبين ملتان وبينهما مسيرة أربعين يوما في عمارة متصلة، وأخرج الحاجب و صاحبه الذي بعث معه ما يحتاج إليه في ضيافة قوام الدين واستصحبوا من ملتان نحو عشرين طباخا، وكان الحاجب يتقدم ليلا إلى كل منزل فيجهز الطعام وسواه فما يصل خداوند زاده حتى يكون الطعام متيسرا وينزل كل واحد ممن ذكرناهم من الوفود على حدة بمضاربه وأصحابه وربما حضروا الطعام الذي يصنع لخداوند زاده ،ولم أحضره أنا إلا مرة واحدة. وترتيب ذلك الطعام أنهم يجعلون الخبز، وخبزهم الرقاق وهو شبه الجراديق(= الأرغفة)، ويقطعون اللحم المشوي قطعا كبيرة بحيث تكون الشاة أربع قطع أو ستا ويجعلون أمام كل رجل قطعة ويجعلون أقراصا مصنوعة بالسمن تشبه الخبز المشّرك(= المقطّع) ببلادنا ،ويجعلون في وسطها الحلواء الصابونية، ويغطون كل قرص منها برغيف حلواء يسمونه الخِشتي ومعناه الآجُري مصنوع من الدقيق والسكر والسمن ثم يجعلون اللحم المطبوخ بالسمن والبصل والزنجبيل الأخضر في صحاف صينية ثم يجعلون شيئا يسمونه سُموسك(=سنبوسة) وهو لحم مهروس مطبوخ باللوز والجوز والفستق والبصل والأبازير موضوع في جوف رقاقة مقلوة بالسمن يضعون أمام كل إنسان خمس قطع من ذلك أو أربعاً ثم يجعلون الأرز المطبوخ بالسمن وعليه الدجاج ثم يجعلون لقيمات القاضي ويسمونها الهاشمي ثم يجعلون القاهرية.

ويقف الحاجب على السماط قبل الأكل ويخدم إلى الجهة التي فيها السلطان ويخدم جميع من حضر لخدمته، والخدمة عندهم حط الرأس نحو الركوع ،فإذا فعلوا ذلك جلسوا للأكل ،ويؤتى بأقداح الذهب والفضة والزجاج مملوءة بماء النبات ،وهو الجُلاب محلولا في الماء ويسمون ذلك الشّربة ،ويشربونه قبل الطعام ثم يقول الحاجب :بسم الله ،فعند ذلك يشرعون في الأكل، فإذا أكلوا أتوا بأكواز الفُقّاع (= عصير الفطر)فإذا شربوه أتو بالتنبول

والفوفل . .فإذا أخذوا التنبول والفوفل قال الحاجب بسم الله فيقومون ويخدمون مثل خدمتهم أولا وينصرفون .

وسافرنا من مدينة ملتان، وهم يجرون هذا الترتيب على حسب ما سطرناه إلى أن وصلنا إلى بلاد الهند، وكان أول بلد دخلناه مدينة أبو هَر (=حاليا على الحدود الهندية -الباكستانية، جنوب لاهور) ،وهي أول تلك البلاد الهندية ،صغيرة حسنة ،كثيرة العمارة ذات أنهار وأشجار .

وليس هناك من أشجار بلادنا شيء ما عدا النبق، لكنه عندهم عظيم الجرم، تكون الحبة منه بمقدار حبة العفص ،شديد الحلاوة ،ولهم أشجار كثيرة ليس يوجد منها شيء ببلادنا ولا بسواها، فمنها العنبة ،وهي شجرة تشبه أشجار النارنج إلا أنها أعظم أجراما وأكثر أوراقا، وظلها أكثر الظلال غير أنه ثقيل فمن نام تحته وعك ،وثمرها على قدر الإجاص الكبير فإذا كان أخضر قبل تمام نضجه أخذوا ما سقط منه، وجعلوا عليه الملح وصيروه كما يصير الليم والليمون ببلادنا، وكذلك يصيرون أيضا الزنجبيل الأخضر وعناقيد الفلفل، ويأكلون ذلك مع الطعام يأخذون بأثر كل لقمة يسيرا من هذه المملوحات، فإذا نضجت العنبة في أوان الخريف اصفرت حباتها فأكلوها كالتفاح، فبعضهم يقطعها بالسكين وبعضهم يمصها مصا، وهي حلوة يمازج حلاوتها يسير حموضة ،ولها نواة كبيرة يزرعونها فتنبت منها الأشجار كما تزرع نوى النارنج وغيرها .

ومنها الشَّكي والَبركي وهي أشجار عادية أوراقها كأوراق الجوز وثمرها يخرج من أصل الشجر فما اتصل منه بالأرض فهو البركي وحلاوته أشد وطعمه أطيب، وما كان فوق ذلك فهو الشكي وثمره يشبه القرع الكبار وجلوده تشبه جلود البقر فإذا اصفر في أوان الخريف قطعوه وشقوه فيكون في داخل كل حبة المائة والمائتان فما بين ذلك من حبات تشبه الخيار بين كل حبة وحبة صفاق أصفر اللون ،وبكل حبة نواة تشبه الفول الكبير وإذا شويت تلك النواة أو طبخت يكون طعمها كطعم الفول إذ ليس يوجد هنالك ويدخرون هذه النوى في التراب الأحمر فتبقى إلى سنة أخرى، وهذا الشكي والبركي هو خير فاكهة ببلاد الهند ،

ومنها التندو، وهو ثمر شجر الأبنوس وحباته في قدر حبات المشمش ولونها وهو شديد الحلاوة، ومنها الجمون وأشجاره عادية ويشبه ثمره الزيتون وهو أسود اللون ونواه واحدة كالزيتون ، ومنها النارنج الحلو وهو عندهم كثير، وأما النارنج الحامض فعزيز الوجود ،ومنه صنف ثالث يكون بين الحلو والحامض وثمره على قدر الليم ،وهو طيب جدا ،وكنت يعجبني أكله ، ومنها المهوا وأشجاره عادية وأوراقه كأوراق الجوز إلا أن فيها حمرة وصفرة وثمره مثل الإجاص الصغير شديد الحلاوة ،وفي أعلى كل حبة منه حبة صغيرة بمقدار حبة العنب مجوفة وطعمها كالعنب إلا أن الإكثار من أكلها يحدث في الرأس صداعا، ومن العجب أن هذه الحبوب إذا يبست في الشمس كان طعمها كطعم التين. وكنت آكلها عوضا عن التين إذا لا يوجد ببلاد الهند، وهم يسمون هذه الحبة الأنكور وتفسيره بلسانهم العنب .والعنب بأرض الهند عزيز جدا ولا يكون بها إلا في مواضع بحضرة دهلي وببلاد أخرى ،ويثمر مرتين في السنة، ونوى هذا الثمر يصنعون منه الزيت ويستصبحون به .

ومن فواكههم فاكهة يسمونها كسيرا يحفرون عليها الأرض وهي شديدة الحلاوة يشبه القسطل، وببلاد الهند من فواكه بلادنا الرمان ،ويثمر مرتين في السنة ،ورأيته ببلاد جزائر ذيبة المهل لا ينقطع له ثمر وهم يسمونه أنَار، وأظن هو الأصل في تسمية الجُلَّنار فإن جل بالفارسية الزهر، و نار الرمّان .

وأهل الهند يزرعون مرتين في السنة ،فإذا نزل المطر عندهم في أوان القيظ زرعوا الزرع الخريفي وحصدوه بعد ستين يوما من زراعته ،ومن هذه الحبوب الخريفية عندهم الكذرو، وهو نوع من الدخن. وهذا الكذرو هو أكثر الحبوب عندهم، ومنها القال وهو شبه أنلى، ومنها الشاماخ وهو أصغر حبا من القال وربما نبت هذا الشاماخ من غير زراعة وهو طعام الصالحين ،وأهل الورع والفقراء والمساكين يخرجون لجمع ما نبت منه من غير زراعة، فيمسك أحدهم قفة كبيرة بيساره وتكون بيمناه مقرعة يضرب بها الزرع فيسقط في القفة فيجمعون منه ما يقتاتون به جميع السنة، وحب هذا الشاماخ صغير جدا وإذا جمع جعل في الشمس ثم يدق في مهارس الخشب فيطير قشره ويبقى لبه أبيض ويصنعون منه عصيدة

يطبخونها بحليب الجواميس، وهي أطيب من خبزه. وكنت آكلها كثيرا ببلاد الهند وتعجبني ،ومنها الماش وهو نوع من الجلبان، ومنها المنج وهو نوع من الماش إلا أن حبوبه مستطيلة ولونه صافي الخضرة ،ويطبخون المنج مع الأرز ويأكلونه بالسمن ويسمونه كشري، وعليه يفطرون في كل يوم وهو عندهم كالحريرة ببلاد المغرب ،ومنها اللوبيا وهي نوع من الفول ،ومنها المُوت وهو مثل الكذرو إلا أن حبوبه أصغر، وهو علف الدواب عندهم وتسمن الدواب بأكله والشعير عندهم لا قوة له وإنما علف الدواب من هذا الموت أو الحمص يجرشونه ويبلونه بالماء ويطعمونه الدواب ويطعمونها عوضا من القصيل أوراق الماش بعد أن تسقى الدابة السمن عشرة أيام في كل يوم مقدار ثلاثة أرطال أو أربعة ولا تركب في تلك الأيام ،وبعد ذلك يطعمونها أوراق الماش كما ذكرنا شهرا أو نحوه .وهذه الحبوب التي ذكرناها هي الخريفية وإذا حصدوها بعد ستين يوما من زراعتها ازدرعوا الحبوب الربيعية وهي القمح والشعير والحمص والعدس وتكون زراعتها في الأرض التي كانت الحبوب الخريفية مزروعة فيها وبلادهم كريمة طيبة التربة، وأما الأرز فإنهم يزرعونه ثلاث مرات في السنة، وهو من أكبر الحبوب عندهم، ويزدرعون السمسم وقصب السكر مع الحبوب الخريفية التي تقدم ذكرها.

من أبو هر إلى أجودهن

ولنعد إلى ما كنا بسبيله؛ فأقول سافرنا من مدينة أبو هر في صحراء مسيرة يوم في أطرافها جبال منيعة يسكنها كفار الهنود، وربما قطعوا الطريق وأهل بلاد الهند أكثرهم كفار، فمنهم رعية تحت ذمة المسلمين يسكنون القرى ويكون عليهم حاكم من المسلمين يقدمه العامل(= الوالي)أو الخديم(= الوكيل) الذي تكون القرية في إقطاعه، ومنهم عصاة محاربون يمتنعون بالجبال ويقطعون الطريق.

ولما أردنا السفر من مدينة أبو هر خرج الناس منها أول النهار، وأقمت بها إلى نصف النهار في لُمّة من أصحابي ثم خرجنا ونحن اثنان وعشرون فارسا منهم عرب ومنهم أعاجم، فخرج علينا في تلك الصحراء ثمانون رجلا من الكفار وفارسان ،وكان أصحابي ذوي نجدة

وعتو، فقاتلناهم أشد القتال فقتلنا أحد الفارسين منهم وغنمنا فرسه، وقتلنا من رجالهم نحو اثني عشر رجلا، وأصابتني نشابة وأصابت فرسي نشابة ثانية، ومنّ الله بالسلامة منها؛ لأن نشابهم لا قوة لها. وجُرح لأحد أصحابنا فرس عوضناه له بفرس الكافر، وذبحنا فرسه المجروح فأكله الترك من أصحابنا، وأوصلنا تلك الرؤوس إلى حصن أبي بكهر فعلقناها على سوره، وكان وصولنا في نصف الليل إلى حصن أبي بكهر المذكور .

وسافرنا منه فوصلنا بعد يومين إلى مدينة أجودهن (= شرق البنجاب)مدينة صغيرة هي للشيخ الصالح فريد الدين البذاوني الذي أخبرني الشيخ الصالح الولي برهان الدين الأعرج بالإسكندرية أني سألقاه ،فلقيته. والحمد لله. وهو شيخ ملك الهند ،وأنعم عليه بهذه المدينة ،وهذا الشيخ مبتلى بالوسواس والعياذ بالله فلا يصافح أحدا، ولا يدنو منه، وإذا ألصق ثوبه بثوب أحد غسل ثوبه. دخلتُ زاويته، ولقيته ،وأبلغته سلام الشيخ برهان الدين، فعجب ،وقال: أنا دون ذلك. ولقيتُ ولديه الفاضلين :معز الدين ،وهو أكبرهما ولما مات أبوه تولى الشياخة بعده ،وعلم الدين وزرتُ قبر جده القطب الصالح فريد الدين البذاوني منسوبا إلى مدينة بذاون بلد السنبل ،ولما أردت الانصراف عن هذه المدينة ،قال لي علم الدين: لا بد لك من رؤية والدي، فرأيته وهو في أعلى سطح له ،وعليه ثياب بيض وعمامة كبيرة لها ذوابة وهي مائلة إلى جانب، ودعا لي، وبعث إلى بسكر ونبات.

ولما انصرفت عن هذا الشيخ رأيت الناس يهرعون من عسكرنا ومعهم بعض أصحابنا، فسألتهم :ما الخبر ؟فأخبروني : أن كافرا من الهنود مات ،وأججت النار لحرقه وامرأته تحرق نفسها معه، ولما احترقا جاء أصحابي، وأخبروا أنها عانقت الميت حتى احترقت معه .وبعد ذلك كنت في تلك البلاد أرى المرأة من كفار الهنود متزينة راكبة والناس يتبعونها من مسلم وكافر، والأطبال والأبواق بين يديها، ومعها البراهمة وهم كبراء الهنود. وإذا كان ذلك ببلاد السلطان أستأذنوا السلطان في إحراقها، فيؤذن لهم فيحرقونها .

ثم اتفق بعد مدة أني كنت بمدينة أكثر سكانها الكفار تعرف بأمجري (= في إقليم ماديا- براديش)وأميرها مسلم من سامرة السند وعلى مقربة منها الكفار العصاة، فقطعوا

الطريق يوما، وخرج الأمير المسلم لقتالهم وخرجت معه رعية من المسلمين والكفار ووقع بينهم قتال شديد مات فيه من رعية الكفار سبعة نفر وكان لثلاثة منهم ثلاث زوجات، فاتفقن على إحراق أنفسهن .وإحراق المرأة بعد زوجها عندهم أمر مندوب إليه غير واجب، لكن من أحرقت نفسها بعد زوجها أحرز أهل بيتها شرفا بذلك ،ونُسبوا إلى الوفاء ،ومَن لم تحرق نفسها لبست خشن الثياب، وأقامت عند أهلها بائسة ممتهنة لعدم وفائها ،ولكنها لا تُكره على إحراق نفسها.

ولما تعاهدت النسوة الثلاث اللائي ذكرناهنّ على إحراق أنفسهن أقمن قبل ذلك ثلاثة أيام في غناء وطرب وأكل وشرب ،كأنهن يودعن الدنيا، وتأتي إليهن النساء من كل جهة. وفي صبيحة اليوم الرابع أُتيت كل واحدة منهن بفرس فركبته ،وهي متزينة متعطِّرة وفي يمناها جوزة نارجيل تلعب بها وفي يسراها مرآة تنظر فيها وجهها، والبراهمة يحفون بها وأقاربها معها، وبين يديها الأطبال والأبواق والأنفار، وكل إنسان من الكفار يقول لها :أبلغي السلام إلى أبي أو أخي أو أمي أو صاحبي ،وهي تقول :نعم ،وتضحك إليهم .وركبت مع أصحابي لأرى كيفية صنعهن في الاحتراق، فسرنا معهن نحو ثلاثة أميال، وانتهينا إلى موضع مظلم كثير المياه والأشجار متكاثف الظلال، وبين أشجاره أربع قباب في كل قبة صنم من الحجارة ،وبين القباب صهريج ماء قد تكاثفت عليه الظلال، وتزاحمت الأشجار فلا تتخللها الشمس فكأن ذلك الموضع بقعة من بقع جهنم أعاذنا الله منها، ولما وصلن إلى تلك القباب نزلن إلى الصهريج وانغمسن فيه وجردن ما عليهنّ من ثياب وحلي فتصدقن به، وأوتيت كل واحدة منهم بثوب قطن خشن غير مخيط فربط بعضه على وسطها وبعضه على رأسها وكتفيها والنيران قد أضرمت على قرب من ذلك الصهريج في موضع منخفض ،وصبّ عليها "روغن كنجُت" وهو زيت الجلجلان فزاد في اشتعالها، وهنالك نحو خمسة عشر رجلا بأيديهم حزم من الحطب الرقيق ومعهم نحو عشرة بأيديهم خشب كبار، وأهل الأطبال والأبواق وقوف ينتظرون مجيء المرأة وقد حجبت النار بملحفة يمسكها الرجال بأيديهم لئلا يدهشها النظر إلي،ها فرأيت إحداهن لما وصلت إلى تلك الملحفة نزعتها من

أيدي الرجال بعنف، وقالت لهم :"مارا ميترساني أزاطش مَن ميدانم أواطش است رها كُني مارا" وهي تضحك، ومعنى هذا الكلام" أبالنار تخوفوني ،أنا أعلم أنها نار محرقة؟" ثم جمعت يديها على رأسها خدمة للنار ورمت بنفسها فيها، وعند ذلك ضربت الأطبال والأنفار والأبواق، ورمى الرجال ما بأيديهم من الحطب عليها وجعل الآخرون تلك الأخشاب من فوقها لئلا تتحرك وارتفعت الأصوات، وكثر الضجيج .

ولما رأيت ذلك كدت أسقط عن فرسي لولا أن أصحابي تداركوني بالماء فغسلوا وجهي، وانصرفت. وكذلك يفعل أهل الهند أيضا في الغرق يُغرق كثير منهم أنفسهم في نهر الكنك(= النهر المقدس عند الهندوس) وهو الذي إليه يحجون، وفيه يرمى برماد هؤلاء المحرّقين. وهم يقولون: إنه من الجنة،وإذا أتى أحدهم ليغرق نفسه، يقول لمن حضره: لا تظنوا أني أُغرق نفسي لأجل شيء من أمور الدنيا أو لقلة مال، إنما قصدي التقرب إلى كساي(= كريشنا)، وكساي اسم الله عز وجل بلسانهم ،،ثم يغرق نفسه فإذا مات أخرجوه وأحرقوه ورمو برماده في البحر المذكور .

من أجودهن إلى دهلي (= دلهي)

ولنعد إلى كلامنا الأول، فنقول سافرنا من مدينة أجودهن فوصلنا بعد مسيرة أربعةأيام منها إلى مدينة سرستي(= شمال غربي دلهي) مدينة كبيرة كثيرة الأرز وأرزها طيب، ومنها يحمل إلى حضرة دهلي، ولها مجبى كثير جدا. أخبرني الحاجب شمس الدين البوشنجي بمقداره وأُنسيتُه.

ثم سافرنا منها إلى مدينة حانسي، وهي من أحسن المدن وأتقنها وأكثرها عمارة ولها سور عظيم ذكروا أن بانيه رجل من كبار سلاطين الكفار يسمى توره ،وله عندهم حكايات وأخبار، ومن هذه المدينة كمال الدين صدر الجهان قاضي قضاة الهند ،وأخوه قطلوخان معلم السلطان، وأخواهما نظام الدين وشمس الدين الذي انقطع إلى الله و جاور بمكة حتى مات.

ثم سافرنا من حانسي فوصلنا بعد يومين إلى مسعود أباد، وهي على عشرة أميال من

حضرة دهلي ،وأقمنا بها ثلاثة أيام وحانسي ومسعود أباد هما للملك المعظم هو شنج بن الملك كمال كرك، وكرك معناه الذئب .وسيأتي ذكره .وكان سلطان الهند الذي قصدنا حضرته غائبا عنها بناحية مدينة قنوج وبينها وبين حضرة دهلي عشرة أيام ،وكانت بالحضرة والدته وتدعى المخدومة جهان ،وجهان اسم الدنيا. وكان بها أيضا وزيره خواجه جهان المسمى بأحمد بن إياس الرومي الأصل، فبعث الوزير إلينا أصحابه ليتلقونا، وعيّن للقاء كل واحد منا مَن كان من صنفه، فكان من الذين عينهم للقائي الشيخ البسطامي والشريف المازنداراني ،وهو حاحب الغرباء، والفقيه علاء الدين الملتاني المعروف بقُنَّره .

وكتب إلى السلطان بخبرنا ،وبعث الكتاب مع الدواة، وهي بريد الرجالة ،حسبما ذكرناه ،فوصل إلى السلطان وأتاه الجواب في تلك الأيام الثلاثة التي أقمناها بمسعود أباد. وبعد تلك الأيام خرج إلى لقائنا القضاة والفقهاء والمشايخ وبعض الأمراء، وهم يسمون الأمراء ملوكا، فحيث يقول أهل ديار مصر وغيرها الأمير يقولون هم الملك، وخرج إلى لقائنا الشيخ ظهير الدين الزنجاني وهو كبير المنزلة عند السلطان ، ثم رحلنا من مسعود أباد فنزلنا بمقربة من قرية تسمى بالم، وهي للسيد الشريف ناصر الدين مطهر الأوهري أحد ندماء السلطان وممن له عنده الحُظوة التامة.

مدينة دهلي، وصفها وتاريخها

وفي غد ذلك اليوم وصلنا إلى حضرة دهلي قاعدة بلاد الهند، وهي المدينة العظيمة الشأن الضخمة الجامعة بين الحسن والحصانة ،وعليها السور الذي لا يعلم له في بلاد الدنيا نظير، وهي أعظم مدن الهند بل مدن الإسلام كلها بالمشرق .ومدينة دهلي كبيرة المساحة كثيرة العمارة وهي الآن أربع مدن متجاورات متصلات: إحداها المسماة بهذا الاسم دهلي، وهي القديمة من بناء الكفار وكان افتتاحها سنة أربع وثمانين وخمسمائة (= الصواب هو عام ٥٨٨= ١١٩٢م وفتحها قطب الدين أيبك) والثانية تسمى سيري(= أسست في عام٧٠٣=١٣٠٣م) ،وتسمى أيضا دار الخلافة وهي التي أعطاها السلطان لغياث الدين

حفيد الخليفة المستنصر العباسي لما قدم عليه ،وبها كان سكنى السلطان علاء الدين وابنه قطب الدين وسنذكرهما، والثالثة تسمى تُغلق أباد(أسست في ٧٢٠=١٣٢٠م) باسم بانيها السلطان تغلق والد سلطان الهند الذي قدمنا عليه ؛وكان سبب بنائه لها أنه وقف يوما بين يدي السلطان قطب الدين فقال له :يا خوند عالم ،كان ينبغي أن تبني هنا مدينة. فقال له السلطان متهكما : إذا أصبحت سلطانا فابنها ،فكان من قدر الله أن كان سلطانا فبناها وسماها باسمه، والرابعة تسمى جهان بناه(= ملاذ العالم بنيت نحو ٧٢٥هـ 1325=م) وهي مختصة بسكنى السلطان محمد شاه ملك الهند الآن الذي قدمنا عليه، وهو الذي بناها، وكان أراد أن يضم هذه المدن الأربع تحت سور واحد فبنى منه بعضا وترك بناء باقيه لعظم ما يلزم في بنائه .

والسور المحيط بمدينة دهلي لا يوجد له نظير عرض حائطه أحد عشر ذراعا ،وفيه بيوت يسكنها السُمّار وحفاظ الأبواب ،وفيها مخازن للطعام ويسمونها الأنبارات (= العنابر)ومخازن للعدد ومخازن للمجانيق والرعادات(= قاذفات صغيرة) ويبقى الزرع بها مدة طائلة لا يتغير ولا تطرقه آفة. ولقد شاهدت الأرز يخرج من بعض تلك المخازن ولونه قد اسود لكن طعمه طيب ،ورأيت أيضا الكذرو يخرج منها .وكل ذلك من اختزان السلطان بلبَن منذ تسعين سنة، ويمشي داخل السور الفرسان والرجالة من أول المدينة إلى آخرها، وفيه طيقان(=نوافذ) مفتحة إلى جهة المدينة يدخل منها الضوء وأسفل السور مبني بالحجارة وأعلاه بالآجر، وأبراجه كثيرة متقاربة .ولهذه المدينة ثمانية وعشرون بابا، وهم يسمون الباب دروازة ،فمنها دروازة بذاون وهي الكبرى، ودروازة المندوي وبها رحبة الزرع، ودروازة جل وهي موضع البساتين ،ودروازة شاه اسم رجل ،ودروازة بالم اسم قرية ذكرناها ،ودروازة نجيب اسم رجل ،ودروازة كمال كذلك ،ودروازة غزنة نسبة إلى مدينة غزنة التي بطرف خراسان وبخارجها مصلى العيد وبعض المقابر ،ودروازة البجالصة ، وبخارج هذه الدروازة مقابر دهلي وهي مقبرة حسنة يبنون بها القباب ولا بد عند كل قبر من محراب وإن كان لا قبة له ،ويزرعون بها الأشجار المزهرة مثل قل شنبه(= النرجس) وديبول(= الياسمين)

والنسرين وسواها والأزاهير هنالك لا تنقطع في فصل من الفصول .

وجامع دهلي كبير الساحة حيطانه وسقفه وفرشه كل ذلك من الحجارة البيض المنحوتة أبدع نحت ملصقة بالرصاص أتقن إلصاق ولا خشبة به أصلا، وفيه ثلاث عشرة قبة من حجارة، ومنبره أيضا من الحجر وله أربعة صحون، وفي وسط الجامع العمود الهائل الذي لا يدرى من أي المعادن هو(= عمود أثري عريق يعود إلى القرن الرابع الميلادي اقتلع من معبد فيشنو).

ذكر لي بعض حكامهم أنه يسمى هفت جوش(= العمود المسبّع) ومعنى ذلك سبعة معادن، وأنه مؤلف منها، وقد جُلي من هذا العمود مقدار السبّابة ولذلك المجلو منه بريق عظيم ولا يؤثر فيه الحديد ،وطوله ثلاثون ذراعا. وأدرنا به عمامة فكان الذي أحاط بدائرته منها ثمانية أذرع .

وعند الباب الشرقي من أبواب المسجد صنمان كبيران جدا من النحاس مطروحان بالأرض قد ألصقا بالحجارة ويطأ عليها كل داخل إلى المسجد أو خارج منه، وكان موضع هذا المسجد بُذَخانة(=بيت بوذا) وهو بيت الأصنام، فلما افتتحت جعل مسجدا .وفي الصحن الشمالي من المسجد الصومعة التي لا نظير لها في بلاد الإسلام، وهي مبنية بالحجارة الحمر خلافا لحجارة سائر المسجد فإنها بيض، وحجارة الصومعة منقوشة وهي سامية الارتفاع وفحلُها من الرخام الأبيض الناصع ،وتفافيحها من الذهب الخالص ،وسعة ممرها بحيث تصعد فيه الفيلة .

حدثني من أثق به أنه رأى الفيل حين بنيت يصعد بالحجارة إلى أعلاها ،وهي من بناء السلطان معز الدين بن ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بَلبَن ،وأراد السلطان قطب الدين أن يبني بالصحن الغربي صومعة أعظم منها فبنى مقدار الثلث منها واخترم دون تمامها، وأراد السلطان محمد إتمامها ثم ترك ذلك تشاؤما .وهذه الصومعة من عجائب الدنيا في ضخامتها وسعة ممرها؛ بحيث تصعده ثلاثة من الفيلة متقارنة ،وهذا الثلث المبني منها مساو لارتفاع جميع الصومعة التي ذكرنا أنها بالصحن الشمالي. وصعدتها مرة فرأيت

معظم دور المدينة وعاينت الأسوار على ارتفاعها وسموِّها منحطة، وظهر لي الناس في أسفلها كأنهم الصبيان الصغار، ويظهر لناظرها من أسفلها أن ارتفاعها ليس بذلك لعظم جرمها وسعتها

وكان السلطان قطب الدين أراد أن يبني أيضا مسجدا جامعا بسيري، المسماة دار الخلافة ،فلم يتم منه غير الحائط القبلي والمحراب .وبناؤه بالحجارة البيض والسود والحمر والخضر، ولو كمل لم يكن له مثل في البلاد، وأراد السلطان محمد إتمامه وبعث عرفاء البناء ليقدروا النفقة فيه، فزعموا أنه يُنفق في إتمامه خمسة وثلاثون لكا ،فترك ذلك استكثارا له. وأخبرني بعض خواصه أنه لم يتركه استكثارا ؛لكنه تشاءم به لما كان السلطان قطب الدين قتل قبل تمامه.

وبخارج دهلي الحوض العظيم المنسوب إلى السلطان شمس الدين لَلْمِش ،ومنه يشرب أهل المدينة، وهو بالقرب من مصلاها ،وماؤها يجتمع من ماء المطر وطوله نحو ميلين وعرضه على النصف من طوله ،والجهة الغربية منه من ناحية المصلى مبنية بالحجاره مصنوعة أمثال الدكاكين بعضها أعلى من بعض ،وتحت كل دكان درج ينزل عليها إلى الماء ،وبجانب كل دكان قبة حجارة فيها مجالس للمتنزهين والمتفرجين، وفي وسط الحوض قبة عظيمة من الحجارة المنقوشة مجعولة طبقتين، فإذا كثر الماء في الحوض لم يكن سبيل إليها إلا في القوارب فإذا قل الماء دخل إليها الناس وداخلها مسجد، وفي أكثر الأوقات يقيم بها الفقراء المنقطعون إلى الله المتوكلون عليه، وإذا جف الماء في جوانب هذا الحوض زرع فيها قصب السكر والخيار والقثاء والبطيخ الأخضر والأصفر وهو شديد الحلاوة صغير الجرم.

وفيما بين دهلي ودار الخلافة حوض الخاص ،وهو أكبر من حوض السلطان شمس الدين وعلى جوانبه نحو أربعين قبة ،ويسكن حوله أهل الطرب وموضعهم يسمى طرب آباد، ولهم سوق هنالك من أعظم الأسواق ومسجد جامع ومساجد سواه كثيرة. وأُخبرت أن النساء المغنيات الساكنات هنالك يصلين التراويح في شهر رمضان بتلك المساجد مجتمعات، ويؤم بهن الأئمة ،وعددهن كبير، وكذلك الرجال المغنون. ولقد شاهدت الرجال أهل الطرب في

عرس الأمير سيف الدين غدا بن مهنّى لكل واحد منهم مصلّى تحت ركبته فإذا سمع الآذان قام فتوضأ وصلى. . . .

خدمة ابن بطوطة لسلطان الهند

ولما دخلنا حضرة دهلي قصدنا باب السلطان ،ودخلنا الباب الأول ثم الثاني والثالث ووجدنا عليه النقباء . . فلما وصلنا إليهم تقدم بنا نقيبهم إلى مشور عظيم متسع فوجدنا به الوزير خواجة جهان ينتظرنا، فتقدم ضياء الدين خداوند زاده ثم تلاه أخوه قوام الدين ثم أخوهما عماد الدين ثم تلوتهم ثم تلاني أخوهم برهان الدين ثم الأمير مبارك السمرقندي ثم رن بغا التيكي ،ثم ملك زاده ابن أخت خداوند زادة ،ثم بدر الدين الفصال .

ولما دخلنا من الباب الثالث ظهر لنا المشور الكبير المسمى هزار أسطون ومعنى ذلك ألف سارية وبه يجلس السلطان الجلوس العام فخدم الوزير عند ذلك حتى قرب رأسه من الأرض، وخدمنا نحن بالركوع وأوصلنا ،صابعنا إلى الأرض وخدمتنا لناحية سرير السلطان ،وخدم جميع من معنا، فلما فرغنا من الخدمة صاح النقباء بأصوات عالية :بسم الله ،وخرجنا .

وأمُّ السلطان تدعى المخدومة جهان، وهي من أفضل النساء كثيرة الصدقات عمرت زوايا كثيرة وجعلت فيها الطعام للوارد والصادر-وهي مكفوفة البصر؛ وسبب ذلك أنه لما ملك ابنها جاء إليها جميع الخواتين وبنات الملوك والأمراء في أحسن زي وهي على سرير الذهب المرصع بالجوهر فخدمن بين يديها جميعا ،فذهب بصرها للحين ،وعولجت بأنواع العلاج فلم ينفع، وولدها أشد الناس برورا بها، ومن بروره أنها سافرت معه مرة فقدم السلطان قبلها بمدة ،فلما قدمت خرج لاستقبالها وترجّل عن فرسه وقبّل رجلها، وهي في المحفة بمرأى من الناس أجمعين .

ولنعد لما قصدناه ،فنقول: ولما انصرفنا عن دار السلطان خرج الوزير ونحن معه إلى باب الصرف، وهم يسمونه باب الحرم ،وهنالك سكنى المخدومة جهان، فلما وصلنا بابها نزلنا عن الدواب وكل واحد منا قد أتى بهدية على قدر حاله ،ودخل معنا قاضي قضاة المماليك

كمال الدين بن البرهان، فخدم الوزير والقاضي عند بابها وخدمنا كخدمتهم، وكتب كاتب بابها هدايانا ،ثم خرج من الفتيان جماعة وتقدم كبارهم إلى الوزير فكلموه سرا ،ثم عادوا إلى القصر ،ثم رجعوا إلى الوزير ،ثم عادوا إلى القصر ،ونحن وقوف ثم أمرنا بالجلوس في سقيف هنالك ،ثم أتوا بالطعام ،وأتوا بقلال من الذهب يسمونها السُّيُن، وهي مثل القدور ولها مرافع من الذهب تجلس عليها يسمونها السبك ،وأتوا بأقداح وطسوت وأباريق كلها ذهب، وجعلوا الطعام سماطين، وعلى كل سماط صفان، ويكون في رأس الصف كبير القوم الواردين.

ولما تقدمنا للطعام خدم الحجاب والنقباء، وخدمنا لخدمتهم ثم أتوا بالشربة فشربنا ،وقال الحجاب :بسم الله، ثم أكلنا ،وأتوا بالفقاع ،ثم بالتنبول ،ثم قال الحجاب :بسم الله، فخدمنا جميعا ،ثم دعينا إلى موضع هنالك، فخُلع علينا خلع الحرير المذهبة ثم أتوا بنا إلى باب القصر فخدمنا عنده، وقال الحجاب : بسم الله ،ووقف الوزير ،ووقفنا معه ثم أخرج من داخل القصر تخت ثياب غير مخيط من حرير وكتاب وقطن فأعطي كل واحد منا نصيبه منها ثم أتوا بطيفور ذهب فيه الفاكهة اليابسة ،وبطيفورمثله في الجلاب، وطيفور ثالث فيه التنبول، ومن عادتهم أن الذي يخرج له ذلك يأخذ الطيفور بيده ويجعله على كاهله ثم يخدم بيده الأخرى إلى الأرض ،فأخذ الوزير الطيفور بيده قصد أن يعلمني كيف أفعل إيناسا منه وتواضعا ومبرة جزاه الله خيرا، ففعلت كفعله ،ثم انصرفنا إلى الدار المعدة لنزولنا بمدينة دهلي وبمقربة من دروازة بالم منها (= جنوب غربي المدينة)وبعثت لنا الضيافة .

ولما وصلت إلى الدار التي أعدت لنزولي وجدت فيها ما يحتاج إليه من فرش وبسط وحصر وأوان وسرير الرقاد. وأسرّتهم بالهند خفيفة الحمل يحمل السرير منها الرجل الواحد ولا بد لكل أحد أن يستصحب السرير في السفر يحمله غلامه على رأسه وهو أربع قوائم مخروطة يعرض عليها أربعة أعواد وتنسج عليها ضفائر من الحرير أو القطن فإذا نام الانسان عليه لم يحتج إلى ما يرطبه به لانه يعطي الرطوبة من ذاته ،وجاءوا مع السرير بمضربتين ومخدتين ولحاف كل ذلك من الحرير ،وعادتهم أن يجعلوا للمضربات واللحوف وجوها

تغشيها من كتان أو قطن بيضا فمتى توسخت غسلوا الوجوه المذكورة وبقي ما في داخلها مصوناً. وأتوا تلك الليلة برجلين أحدهما الطاحوني، ويسمونه الخواص، والثاني الجزار ويسمونه القصاب. فقالوا لنا: خذوا من هذا كذا وكذا من الدقيق، ومن هذا كذا وكذا من اللحم لأوزان لا أذكرها الآن. وعادتهم أن يكون اللحم الذي يعطون بقدر وزن الدقيق، وهذا الذي ذكرناه ضيافة أم السلطان وبعد ها وصلتنا ضيافة السلطان وسنذكرها .

ولما كان من غد ذلك اليوم ركبنا إلى دار السلطان، وسلمنا على الوزير فأعطاني بدرتين كل بدرة من ألف دينار دراهم ،وقال لي: هذه سرششتي (=إكرامية) ومعناه لغسل رأسك، وأعطاني خلعة من المرعز، وكتب جميع أصحابي وخدامي وغلماني فجعلوا أربعة أصناف :فالصنف الأول منها أعطي كل واحد منهم مائتي دينار، والصنف الثاني أعطي كل واحد منهم مائة وخمسين دينارا ،والصنف الثالث أعطي كل واحد مائة دينار ،والصنف الرابع أعطي كل واحد خمسة وسبعين دينارا .وكانوا نحو أربعين وكان جملة ما أعطوه أربعة آلاف دينار ونيفا. وبعد ذلك عينت ضيافة السلطان وهي ألف رطل هندية من الدقيق ثلثها من الميرا، وهو الدرمك،وثلثاها من الخشكار وهو المدهون، وألف رطل من اللحم ومن السكر والسمن والسليق والفوفل أرطال كثيرة لا أذكر عددها، والألف من ورق التنبول والرطل الهندي عشرون رطلا من أرطال المغرب وخمسة وعشرون من أرطال مصر. وكانت ضيافة خداوند زاده أربعة آلاف رطل من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يناسبها مما ذكرناه.

وفاة بنت ابن بطوطة

ولما كان بعد شهر ونصف من مقدمنا توفيت بنت لي سنها دون السنة(كانت ولدت في رجب ٧٣٣=أذار/ مارس ١٣٣٣قبل وصوله الهند) فاتصل خبر وفاتها بالوزير، فأمر أن تدفن في زاوية بناها خارج دروازة بالم بقرب مقبرة هنالك لشيخنا إبراهيم القونوي، فدفناها بها، وكتب بخبرها إلى السلطان فأتاه الجواب في عشي اليوم الثاني ،وكان بين متصيّد السلطان وبين الحضرة مسيرة عشرة أيام.

وعادتهم أن يخرجوا إلى قبر الميت صبيحة الثالث من دفنه ويفرشون جوانب القبر بالبسط وثياب الحرير ويجعلون على القبر الأزاهير وهي لا تنقطع هنالك في فصل من الفصول كالياسمين وقل شبه وهي زهر أصفر، وريبول وهو أبيض ،والنسرين وهو على صنفين أبيض وأصفر ويجعلون أغصان النارنج والليمون بثمارها وإن لم يكن فيها ثمار علقوا منها حبات بالخيوط ويصبون على القبر الفواكه اليابسة وجوز النارجيل ،ويجتمع الناس ويؤتى بالمصاحف فيقرأون القرآن، فإذا ختموه أتوا بماء الجلاب فسقوه للناس ،ثم يصب عليهم ماء الورد صبا ويعطون التنبول، وينصرفون .

ولما كان صبيحة الثالث من دفن هذه البنت ،خرجتُ عند الصبح على العادة وأعددتُ ما تيسر من ذلك كله، فوجدت الوزير قد أمر بترتيب ذلك وأمر بسراجة . فضُربت على القبر ،وجاء الحاجب شمس الدين الفوشنجي الذي تلقانا بالسند والقاضي نظام الدين الكرواني وجملة من كبار أهل المدينة ولم آت إلا والقوم المذكورون قد أخذوا مجالسهم والحاجب بين أيديهم وهم يقرأون القرآن ،فقعدت مع أصحابي بمقربة من القبر فلما فرغوا من القراءة ،قرأ القراء بأصوات حسان ،ثم قام القاضي فقرأ رثاء في البنت المتوفاة ،وثناء على السلطان وعند ذكر اسمه قام الناس جميعا قياما فخدموا ثم جلسوا ،ودعا القاضي دعاء حسنا ثم أخذ الحاجب وأصحابه براميل ماء الورد وصبوا على الناس ثم داروا عليهم بأقداح شربة النبات ثم فرقوا عليهم التنبول ،ثم أوتي بإحدى عشرة خلعة لي ولأصحابي ثم ركب الحاجب وركبنا معه إلى دار السلطان فخدمنا للسرير على العادة وانصرفت إلى منزلي .

فما وصلت إلا وقد جاء الطعام من دار المخدومة جهان ما ملأ الدار ودور أصحابي ،وأكلوا جميعا وأكل المساكين وفضلت الأقراص والحلواء والنبات، فأقامت بقاياها أياما . وكان فعل ذلك كله بأمر السلطان، وبعد أيام جاء الفتيان من دار المخدومة جهان بالدولة، وهي المحفة التي يحمل فيها النساء ويركبها الرجال ،وهي شبه السرير سطحها من ضفائر الحرير أو القطن وعليها عود شبه الذي على البوجات عندنا معوج من القصب الهندي المغلوق، ويحملها ثمانية رجال في نوبتين يستريح أربعة ويحمل أربعة ،وهذه الدول بالهند كالحمير

بديار مصر عليها يتصرف أكثر الناس فمن كان له عبيد حملوه، ومن لم يكن له عبيد اكترى رجالا يحملونه ،وبالبلد منهم جماعة يسيرة يقفون في الأسواق وعند أبواب الناس للكري وتكون دول النساء مغشاة بغشاء حرير وكذلك كانت هذه الدولة التي أتى الفتيان بها من دار أم السلطان فحملوا فيها جاريتي التي هي أم البنت المتوفاة ،وبعثت أنا معها عن هدية جارية تركية فأقامت الجارية أم البنت عندهم ليلة وجاءت في اليوم الثاني ،وقد أعطوها ألف دينار دراهم وأساور ذهب مرصعة وتهليلا من الذهب مرصعا أيضا وقميص كتان مزركشا بالذهب وخلعة حرير مذهبة وتختا بأثواب ،ولما جاءت بذلك كله أعطيته لأصحابي وللتجار الذين لهم علي الدين محافظة على نفسي وصونا لعرضي ؛لأن المخبرين يكتبون إلى السلطان بجميع أحوالي .

إحسان السلطان في غيابه ورجوعه لابن بطوطة

وفي أثناء مقامي أمر السلطان أن يعين لي من القرى ما يكون عائده خمسة آلاف دينار في السنة ،فعينها لي الوزير وأهل الديوان وخرجت إليها فمنها : قرية تسمى بدلي، وقرية تسمى بسهي، ونصف قرية تسمى بلرة . وهذه القرى على مسافة ستة عشر كروها وهو الميل بصدى ،يعرف بصدى هندبت . والصدى عندهم مجموع مائة قرية وأحواز المدينة مقسومة أصداء كل صدى له جوطري(= أشبه بالوكيل) وهو شيخ من كفار تلك البلاد ومتصرف وهو الذي يضم مجابيها وكان قد وصل في ذلك الوقت سبي من الكفار،فبعث الوزير إلي عشر جوار منه فأعطيت الذي جاء بهن واحدة منهن ،فما رضي بذلك وأخذ أصحابي ثلاثا صغارا منهن، وباقيهن لا أعرف ما اتفق لهن. والسبي هنالك رخيص الثمن لأنهن قذرات لا يعرفن مصالح الحضر والمعلمات رخيصات الأثمان فلا يفتقر أحد إلى شراء السبي .

والكفار ببلاد الهند في بر متصل وبلاد متصلة مع المسلمين ،والمسلمون غالبون عليهم وإنما يمتنع الكفار بالجبال والأوعار ،ولهم غيضات من القصب وقصبهم غير مجوف ويعظم

ويلتف بعضه على بعض ،ولا تؤثر فيه النار، وله قوة عظيمة فيسكنون تلك الغياض وهي لهم مثل السور وبداخلها تكون مواشيهم وزروعهم، ولهم فيها المياه مما يجتمع من ماء المطر فلا يقدر عليهم إلا بالعساكر القوية من الرجال الذين يدخلون تلك الغياض ويقطعون تلك القصب بآلات معدة لذلك .

وأطلّ عيد الفطر(= حزيران/ يونيو ١٣٣٤) والسلطان لم يعد بعد إلى الحضرة ،فلما كان يوم العيد ركب الخطيب على الفيل وقد مُهد له على ظهره شبه السرير، وركزت أربعة أعلام في أركانه الأربعة، ولبس الخطيب ثياب السواد وركب المؤذنون على الفيلة يكبرون أمامه وركب فقهاء المدينة وقضاتها ،وكل واحد منهم يستصحب صدقة يتصدق بها حين الخروج إلى المصلى، ونصب على المصلى صيوان قطن وفرش ببسط. واجتمع الناس ذاكرين الله تعالى ثم صلى بهم الخطيب وخطب وانصرف الناس إلى منازلهم ،وانصرفنا إلى دار السلطان وجعل الطعام فحضره الملوك والأمراء والأعزة وهم الغرباء وأكلوا وانصرفوا .

ولما كان في رابع شوال(=٨حزيران) نزل السلطان بقصر يسمى تلبت(=شرق دلهي) وهو على مسافة سبعة أميال من الحضرة، فأمرنا الوزير بالخروج إليه فخرجنا ومع كل إنسان هديته من الخيل والجمال والفواكه الخراسانية والسيوف المصرية والمماليك والغنم المجلوبة من بلاد الأتراك ،فوصلنا إلى باب القصر ،وقد اجتمع جميع القادمين فكانوا جميعا يدخلون إلى السلطان على قدر مراتبهم ،ويخلع عليهم ثياب الكتان المزركشة بالذهب ،ولما وصلت إلي النوبة التي دخلت فوجدت السلطان قاعدا على كرسي فظننته أحد الحجاب حتى رأيت معه ملك النُّدماء ناصر الدين الكافي الهروي ،وكنت عرفته أيام غيبة السلطان ،فخدم الحاجب فخدمت واستقبلني أمير حاجب وهو ابن عم السلطان المسمى بفيروز ،وخدمت ثانية لخدمته ،ثم قال لي ملك الندماء :بسم الله مولانا بدر الدين ،وكانوا يدعونني بأرض الهند بدر الدين،وكل من كان من أهل الطلب إنما يقال له مولانا، فقربت من السلطان حتى أخذ بيدي وصافحني وأمسك يدي وجعل يخاطبني بأحسن خطاب ،ويقول لي بالفارسي : "حلت البركة، قدومك مبارك ،اجمع خاطرك، اعمل معك من المراحم واعطيك

الأنعام ما يسمع به أهل بلادك ،فيأتون إليك" ثم سألني عن بلادي فقلت له بلاد المغرب، فقال لي بلاد عبد المؤمن، فقلت له :نعم .وكان كلما قال لي كلاما جيدا قبلت يده حتى قبلتها سبع مرات ،وخلع علي وانصرفت .

واجتمع الواردون فمُد لهم سماط ووقف على رؤوسهم قاضي القضاة صدر الجهان ناصر الدين الخوارزمي، وكان من كبار الفقهاء وقاضي قضاة المماليك صدر الجهان كمال الدين الغزنوي وعماد الملك عرض المماليك والملك جلال الدين الكيجي وجماعة من الحجاب والأمراء، وحضر لذلك خداوند زاده غياث الدين ابن عم خداوند زاده قوام الدين قاضي ترمذ الذي قدم معنا ،وكان السلطان يعظمه ويخاطبه بالأخ، وتردد إليه مرارا من بلاده والواردون الذين خلع عليهم في ذلك هم خداوند زاده قوام الدين وإخوته ضياء الدين وعماد الدين وبرهان الدين وابن أخته أمير بخت بن السيد تاج الدين ،وكان جده وجيه الدين وزير خراسان ،وكان خاله علاء الدين أمير هند ووزيرا أيضا ،والامير هبة الله بن الفلكي التبريزي وكان أبوه نائب الوزير بالعراق وهو بنى المدرسة الفلكية بتبريز، وملك كراي من أولاد بهرام جور صاحب كسرى ،وهو من أهل جبل بدخشان الذي منه يجلب الياقوت البدخش واللازورد ،والأمير مبارك شاه السمرقندي نوارون بغا البخاري، وملك زاده الترمذي ،وشهاب الدين الكازروني التاجر الذي قدم من تبريز بالهدية إلى السلطان فسلب في طريقه .

وفي الغد من يوم خروجنا إلى السلطان أعطى كل واحد منا فرسا من مراكب السلطان عليه سرج ولجام محليان وركب السلطان لدخول حضرته ،وركبنا في مقدمته مع صدر الجهان وزينت الفيلة أمام السلطان، وجعلت عليها الأعلام ورفعت عليها ستة عشر شطرا منها مزركشة ومنها مرصعة ،ورفع على راس السلطان شطر منها وحملت أمامه الغاشية وهي ستارة مرصعة وجعل على بعض الفيلة رعّادات صغار، فلما وصل السلطان إلى قرب المدينة قذف في تلك الرعادات بالدنانير والدراهم مختلطة والمشاة بين يدي السلطان وسواهم ممن حضر يلتقطون ذلك ولم يزالوا ينثرون إلى أن وصلوا القصر، وكان بين يديه

آلاف من المشاة على الأقدام ،وصنعت قباب الخشب المكسوة بثياب الحرير وفيها المغنّيات حسبما ذكرنا ذلك .

عطآت السلطان لابن بطوطة

ولما كان يوم الجمعة ثاني يوم دخول السلطان أتينا باب المشور فجلسنا في سقائف الباب الثالث ولم يكن الإذن حصل لنا بالدخول ،وخرج الحاجب شمس الدين الفوشنجي فأمر الكتاب أن يكتبوا أسماءنا وأذن لهم في دخولنا ودخول بعض أصحابنا وعين للدخول معي ثمانية فدخلنا ودخلوا معنا ،ثم جاؤوا بالبِدَر والقَبّان ،وهو الميزان ،وقعد قاضي القضاة والكتّاب ودعوا مَن الباب من الأعزة هم الغرباء، فعينوا لكل إنسان نصيبه من تلك البدر فحصل لي منها خمسة آلاف دينار، وكان مبلغ المال مائة ألف دينار ،تصدقت به أم السلطان لما قدم ابنها .وانصرفنا ذلك اليوم وكان السلطان بعد ذلك يستدعينا للطعام بين يديه ،ويسأل عن أحوالنا ويخاطبنا بأجمل كلام .ولقد قال لنا في بعض الأيام :أنتم شرفتمونا بقدومكم فما نقدر على مكافأتكم ،فالكبير منكم مقام والدي ،والكهل مقام أخي، والصغير مقام ولدي، وما في ملكي أعظم من مدينتي هذه أعطيكم إياها. فشكرناه ودعونا له .

ثم بعد ذلك أمر لنا بالمرتّبات فعين لي اثني عشر ألف دينار في السنة ،وزادني قريتين على الثلاث التي أمر لي بها قبل، إحداها قرية جوزة والثانية قرية ملك بور .وفي بعض الأيام بعث لنا خداوند زاده غياث الدين وقطب الملك صاحب السند فقالا لنا: إن خوند عالم يقول لكم من كان منكم يصلح للوزارة أو الكتابة أو الإمارة أو القضاء أو التدريس أو المشيخة أعطيته ذلك فسكت الجميع لأنهم كانوا يريدون تحصيل الأموال والانصراف إلى بلادهم .وتكلم أمير بخت بن السيد تاج الدين الذي تقدم ذكره ،فقال أما الوزارة فميراثي وأما الكتابة فشغلي ،وغير ذلك لا أعرفه. وتكلم هبة الله بن الفلكي فقال مثل ذلك، وقال لي خداوند زاده بالعربي :ما تقول أنت يا سيدي؟ وأهل تلك البلاد ما يدعون العربي إلا

بالتسويد ،وبذلك يخاطبه السلطان تعظيما للعرب .فقلت له أما الوزارة والكتابة فليست شغلي وأما القضاء والمشيخة فشغلي وشغل آبائي، وأما الإمارة فتعلمون أن الاعاجم ما أسلمت إلا بأسياف العرب . فلما بلغ ذلك إلى السلطان أعجبه كلامي وقال: بـ"هزار أُسطون" يأكل الطعام، فبعث عنا فأكلنا بين يديه وهو يأكل، ثم انصرفنا إلى خارج هزار أسطون فقعد أصحابي وانصرفت بسبب دمل كان يمنعني الجلوس، فاستدعانا السلطان ثانية فحضر أصحابي واعتذروا له عني، وجئت بعد صلاة العصر فصليت بالمشور المغرب والعشاء الآخرة ،ثم خرج الحاجب فاستدعانا ، فدخل خدواند زاده ضياء الدين وهو أكبر الإخوة المذكورين فجعله السلطان أمير داد(= قاضي التحقيق) وهو من الأمراء الكبار فجلس بمجلس القاضي، فمَن كان له حق على أمير أو كبير أحضره بين يديه وجعل مرتبه على هذه الخطة خمسين ألف دينار في السنة، عين له مجاشر(= ضياع) فائدها ذلك المقدار فأمر له بخمسين ألفا عن يد وخلع عليه خلعة حرير مزركشة تسمى صورة الشير، ومعناه صورة السبع؛ لأنه يكون في صدرها وظهرها صورة سبع وقد خيط في باطن الخلعة بطاقة بمقدار ما زُركِش فيها من الذهب، وأمر له بفرس من الجنس الأول. والخيل عندهم أربعة أجناس وسروجهم كسروج أهل مصر ويكسون أعظمها بالفضة المذهبة .ثم دخل أمير بخت فأمره أن يجلس مع الوزير في مسنده ويقف على محاسبات الدواوين ،وعين له مرتبا أربعين الف دينار في السنة أعطي مجاشر فائدها بمقدار ذلك وأعطي أربعين ألفا عن يد وأعطى فرسا مجهزا وخلع عليه كخلعة الذي قبله ولقِّب شرف الملك .

ثم دخل هبة الله بن الفلكي فجعله رسول دار(=مايشبه منصب وزير الخارجية) ومعناه حاجب الإرْسال(= السفراء) وعين له مرتبا أربعين ألف دينار في السنة أعطي مجاشر يكون فائدها بمقدار ذلك، وأعطي أربعة وعشرين ألفا عن يد وأعطي فرسا مجهزا وخلعة وجعل لقبه بهاء الملك .

ثم دخلت فوجدت السلطان على سطح القصر مستندا إلى السرير والوزير خواجة جهان بين يديه، والملك الكبير قَبُولة واقف بين يديه ،فلما سلّمتُ عليه ،قال لي الملك الكبير:

اخدم فقد جعلك خوند عالم قاضي دار الملك دهلي ،وجعل مرتبك اثني عشر ألف دينار في السنة، وعين لك مجاشر بمقدارها، وأمر لك باثني عشر ألفا نقدا تأخذها من الخزانة غدا إن شاء الله ،وأعطاك فرسا بسرجه ولجامه، وأمر لك بخلعة محاريبيّ وهي التي يكون في صدرها وظهرها شكل محراب ،فخدمت وأخذ بيدي فتقدم بي إلى السلطان، فقال لي السلطان: لا تحسب قضاء دلهي من أصغر الأشغال ،هو أكبر الأشغال عندنا. وكنت أفهم قوله، ولا أحسن الجواب عنه. وكان السلطان يفهم العربي ولا يحسن الجواب عنه، فقلت له :يا مولانا أنا على مذهب مالك، وهؤلاء حنفية، وأنا لا أعرف اللسان ،فقال لي :قد عينت بهاء الدين الملتاني وكمال الدين البجنوري ،ينوبان عنك ويشاورانك ،وتكون أنت تسجل على العقود وأنت عندنا بمقام الوالد، فقلت له :بل عبدكم وخديمكم .فقال لي باللسان العربي :بل أنت سيدنا ومخدومنا، تواضعا منه وفضلا وإيناسا .ثم قال لشرف الملك أمير بخت إن كان الذي رتبت له لا يكفيه لأنه كثير الإنفاق فأنا أعطيه زاوية إن قدر على إقامة حال الفقراء. وقال: قل له هذا بالعربي، وكان يظن أنه يحسن العربي ولم يكن كذلك، وفهم السلطان ذلك، فقال له :"برروويكجا بخصبي وآن حكاية برا وبكوي وتفهيم كنى تا فردا إن شاء الله بيش من بيابي جواب أو بكري "معناه" امشوا الليلة فارقدوا في موضع واحد، وفهّمه هذه الحكاية فإذا كان بالغد إن شاء الله تجيء إلي وتعلمني بكلامه" .

فانصرفنا وذلك في ثلث الليل وقد ضُربت النوبة، والعادة عندهم إذا ضربت لا يخرج أحد، فانتظرنا الوزير حتى خرج وخرجنا معه ووجدنا أبواب دهلي مسدودة، فبتنا عند السيد أبي الحسن العبادي العراقي بزقاق يعرف بسرابورخان، وكان هذا الشيخ يتجر بمال السلطان، ويشتري له الأسلحة والأمتعة بالعراق وخراسان ،ولما كان بالغد بعث عنا فقبضنا الأموال والخيل والخلع وأخذ كل واحد منا البدرة بالمال فجعلها على كاهلة ودخلنا كذلك على السلطان فخدمنا وأتينا بالأفراس فقبّلنا حوافرها بعد أن جعلت عليها الخرق، وقدناها بأنفسنا إلى باب دار السلطان ،فركبناها وذلك كله عادة عندهم ثم انصرفنا. وأمر السلطان لاصحابي بألفي دينار وعشر خلع ،ولم يعط لأصحاب أحد سواي شيئا. وكان أصحابي لهم

رواء ومنظر فأعجبوا السلطان ،وخدموا بين يديه وشكرهم .

وكنت يوما بالمشور بعد أيام من توليتي القضاء والإحسان إلي، وأنا قاعد تحت شجرة هنالك وإلى جانبي مولانا ناصر الدين الترمذي العالم الواعظ فأتى بعض الحجّاب فدعا مولانا ناصر الدين فدخل إلى السلطان فخلع عليه وأعطاه مصحفا مكللا بالجوهر ،ثم أتاني بعض الحجاب ،فقال :أعطني شيئا وآخذ لك خط خرد باثني عشر ألفا أمر لك بها خوند عالم فلم أصدقه وظننته يريد الحيلة علي وهو مجد في كلامه ،فقال بعض الأصحاب : أنا أعطيه، فأعطاه دينارين أو ثلاثة فجاء بخط خرد، ومعناه الخط الأصغر مكتوبا بتعريف الحاجب، ومعناه أمر خوند عالم أن يعطى من الخزانة الموفورة كذا لفلان بتبليغ فلان أي بتعريفه ويكتب المبلغ اسمه ثم يكتب على تلك البراءة ثلاثة من الأمراء، وهم :الخان الأعظم قطلو خان معلم السلطان ،والخريطة دار وهو صاحب خريطة الكاغد والأقلام والامير نُكبية الداودار صاحب الدواة؛ فإذا كتب كل واحد منهم خطه يذهب بالبراءة إلى ديوان الوزارة فينسخها كتاب الديوان عندهم، ثم تثبت في ديوان الإشراف، ثم تثبت في ديوان النظر ثم تكتب البروانة، وهي الحكم من الوزير للخازن بالعطاء ثم يثبتها الخازن في ديوانه ويكتب تلخيصا في كل يوم بمبلغ ما أمر به السلطان ذلك اليوم من المال ويعرضه عليه فمن أراد التعجيل بعطائه أمر بتعجيله ومن أراد التوقيف وقف له، ولكن لا بد من عطاء ذلك ولو طالت المدة فقد توقفت هذه الاثنا عشر ألفا ستة أشهر ثم أخذتها مع غيرها حسبما يأتي، وعادتهم إذا أمر السلطان بإحسان لأحد يحط منه العشر فمن أمر له مثلا بمائة ألف أعطي تسعين ألفا أو بعشرة آلاف أعطي تسعة آلاف .

وكنت حسبما ذكرته قد استدنت من التجار مالا أنفقته في طريقي ،وما صنعت به الهدية للسلطان وما أنفقته في إقامتي ،فلما أرادوا السفر إلى بلادهم ألحّوا علي في طلب ديونهم، فمدحت السلطان بقصيدة طويلة أولها :

إليك أمير المؤمنين المبجّلا أتينا نجدّ السير نحوك في الفَلا

فجئتُ محلا من علائك زائراً ومغناك كهفٌ للزيارة أُهّلا

فلو أنّ فوق الشمس للمجد رتبةً | لكنتَ لأعلاها إماما مؤهّلا
فأنت الإمام الماجدُ الأوحدُ الذي | سجاياه حتما أن يقول ويفعلا
ولي حاجةٌ من فيض جودك أرتجي | قضاها ،وقصدي عند مجدك سُهَّلا
أأذكرها أم قد كفاني حياؤكم؟ | فإنّ حياكم ذكره كان أجملا
فعجّل لمن وافى محلك زائرا | قضا دينه، إن الغريم تعجّلا

فقدمتها بين يديه وهو قاعد على كرسي ،فجعلها على ركبته وأمسك طرفها بيده وطرفها الثاني بيدي، وكنت إذا أكملت بيتا منها أقول لقاضي القضاة كمال الدين الغزنوي بيّن معناه لخوند عالم فيبيّنه، ويعجب السلطان. وهم يحبون الشعر العربي فلما بلغت إلى قولي: فعجل لمن وافى... البيت، قال: مرحمة، ومعناه ترحّمت عليك ،فأخذ الحجاب حينئذ بيدي ليذهبوا بي إلى موقفهم وأخدم على العادة، فقال السلطان :اتركوه حتى يكملها، فأكملتها وخدمت وهنأني الناس بذلك .

وأقمت مدة وكتبت رفعا ،وهم يسمونه "عرض داشت" فدفعته إلى قطب الملك صاحب السند فدفعه للسلطان، فقال له: امض إلى خواجه جهان فقل له يعطي دينه، فمضى إليه وأعلمه، فقال :نعم، وأبطأ ذلك أياما، وأمره السلطان في خلاها بالسفر إلى دولة آباد، وفي أثناء ذلك خرج السلطان إلى الصيد وسافر الوزير فلم آخذ شيئا منها إلا بعد مدة، والسبب الذي توقف به عطاؤها أذكره مستوفى، وهو أنه لما عزم الذين كان لهم علي الدين إلى السفر، قلت لهم: إذا أنا أتيت دار السلطان فدَرُّهُوني على العادة في تلك البلاد لعلمي أن السلطان متى يعلم بذلك خلصهم، وعادتهم أنه متى كان لأحد دين على رجل من ذوي العناية وأعوزه خلاصه ،وقف له بباب دار السلطان فإذا أراد الدخول ،قال: له دروهي السلطان(= التوسل للسلطان)، وحق رأس السلطان ما تدخل حتى تخلصني، فلا يمكنه أن يبرح من مكانه حتى يخلصه أو يرغب إليه في تأخيره .

فاتفق يوما أن خرج السلطان إلى زيارة قبر أبيه ونزل بقصر هنالك، فقلت لهم :هذا وقتكم فلما أردت الدخول، وقفوا لي بباب القصر، فقالوا لي دروهي السلطان ما تدخل حتى

تخلصنا، وكتب كتّاب الباب بذلك إلى السلطان، فخرج حاجب قِصّة شمس الدين ،وكان من كبار الفقهاء فسألهم لأي شيء دَرُهْتُموه؟ فقالوا :لنا عليه الدين، فرجع إلى السلطان فأعلمه بذلك، فقال له :اسألهم كم مبلغ الدين؟ فسألهم، فقالوا له :خمسة وخمسون ألف دينار ،فعاد إليه فأعلمه، فأمره أن يعود إليهم، ويقول لهم: إن خوند عالم يقول لكم المال عندي، وأنا أنصفكم ،منه فلا تطلبوه به .وأمر عماد الدين السمناني وخداوند زاده غياث الدين أن يقعدوا بهزار أسطون، ويأتي أهل الدين بعقودهم، وينظروا إليها ويتحققوها ففعلا ذلك، وأتى الغرماء بعقودهم فدخلا إلى السلطان وأعلماه بثبوت العقود ،فضحك ،وقال ممازحا :أنا أعلم أنه قاض جهّز شغله فيها، ثم أمر خدواند زاده أن يعطيني ذلك من الخزانة فطمع في الرشوة على ذلك ،وامتنع أن يكتب خط خرد ،فبعثت إليه مائتي تنكة، فردّها ولم يأخذها، وقال لي عنه بعض خدامه إنه طلب خمسمائة تنكة فامتنعت من ذلك ،وأعلمت عميد الملك بن عماد الدين السمناني بذلك ،فأعلم به أباه وعلمه الوزير، وكانت بينه وبين خذاوند زاده عداوة، فأعلم السلطان بذلك، وذكر له كثيرا من أفعال خداوند زاده فغير خاطر السلطان عليه ،فأمر بحبسه في المدينة، وقال: لأي شيء أعطاه فلان ما أعطاه؟ ووقفوا ذلك حتى يعلم هل يعطي خداوند زاده شيئا إذا منعته أو يمنعه إذا أعطيته؟ فبهذا السبب توقف عطاء دَيني .

خروج السلطان إلى الصيد وهدايا ابن بطوطة له

ولما خرج السلطان إلى الصيد خرجت معه من غير تربّص، وكنت قد أعددت ما يحتاج إليه ،وعملت ترتيب أهل الهند فاشتريت سراجة(= خيمة كبيرة) وهي أفراج وضربها هناك مباح ولا بد منها لكبار الناس ،وتمتاز سراجة السلطان بكونها حمراء وسواها بيضاء منقوشة بالأزرق واشتريت الصيوان، وهو الذي يظلل به داخل السراجة ويرفع على عمودين كبيرين ويحمل ذلك الرجال على أعناقهم ،ويقال لهم الكيوانية، والعادة هنالك أن يكتري المسافر الكيوانية ،وقد ذكرناهم .ويكتري من يسوق له العشب لعلف الدواب لأنهم لا يطعمونها التبن ،ويكتري الكهارين(=حاملو القرب) وهم الذين يحملون أواني المطبخ، ويكتري من

يحمله في الدولة، وقد ذكرناها ،ويحملها فارغة. ويكتري الفراشين وهم الذين يضربون السراجة ويفرشونها ويرفعون الأحمال على الجمال. ويكتري الدوادوية وهم الذين يمشون بين يديه ويحملون المشاعل بالليل. فاكتريت أنا جميع من احتجت له منهم، وأظهرت القوة والهمة، وخرجت يوم خروج السلطان وغيري أقام بعده اليومين والثلاثة ،فلما كان بعد العصر من يوم خروجه ركب الفيل وقصده أن يتطلع على أحوال الناس ،ويعرف من تسارع إلى الخروج ومن أبطا ، وجلس خارج السراجة على كرسي فجئت وسلمت، ووقفت في مواقفي بالميمنة ،فبعث إلي الملك الكبير قبولة سرجا مدار(=الوصيف) وهو الذي يشرّد الذباب عنه ،فأمرني بالجلوس عناية بي ولم يجلس في ذلك اليوم سواي ،ثم أُتي بالفيل وأُلصق به سُلم فركب عليه ،ورُفع شطر فوق رأسه، وركب معه الخواص وجال ساعة ثم عاد إلى السراجة.

وعادته إذا ركب أن يركب الأمراء أفواجا كل أمير بفوجه وعلامته وطبوله وأنفاره وصرناياته،ويسمون ذلك المراتب، ولا يركب أمام السلطان إلا الحجّاب، وأهل الطرب والطبالة الذين يتقلدون الأطبال الصغار، والذين يضربون الصرنايات ،ويكون عن يمين السلطان نحو خمسة عشر رجلا وعن يساره مثل ذلك منهم قضاة القضاة والوزير ،وبعض الأمراء الكبار وبعض الأعزة .وكنت أنا من أهل ميمنته ،ويكون بين يديه المشّاؤون والأدلاّء، ويكون خلفه علاماته وهي من الحرير المذهب والأطبال على الجمال ،وخلف ذلك مماليكه وأهل دخلته ، وخلفهم الأمراء وجميع الناس .ولا يعلم أحد أين يكون النزول، فإذا مرّ السلطان بمكان يعجبه النزول به أمر بالنزول، ولا تضرب سراجة أحد حتى تضرب سراجته ،ثم يأتي الموكلون بالنزول فينزلون كل أحد في منزله ،وفي خلال ذلك ينزل السلطان على نهر أو بين أشجاره ،وتقدم بين يديه لحوم الأغنام والدجاج المسمّنة والكراكي، وغيرها من أنواع الصيد، ويحضر أبناء الملوك وفي يد كل واحد منهم سفود ويوقدون النار ويشتوون ذلك ،ويؤتى بسراجة صغيرة فتضرب للسلطان ،ويجلس من معه من الخواص خارجها، ويؤتى بالطعام، ويستدعي من شاء فيأكل معه .

وكان في بعض تلك الأيام وهو بداخل السراجة يسأل عمن بخارجها، فقال له السيد ناصر

الدين مطهر الأوهري أحد ندمائه ،ثم فلان المغربي، وهو متغير ،فقال :لماذا ؟فقال :بسبب الدَّين الذي عليه ،وغرماؤه يلحّون في الطلب، وكان خوند عالم قد أمر الوزير بإعطائه فسافر قبل ذلك ،فإن أمر مولانا أن يصبّر أهل الدَّين حتى يقدم الوزير أو أمر بإنصافهم، وحضر لهذا الملك دولة شاه ،وكان السلطان يخاطبه بالعم ،فقال :يا خوند عالم كل يوم هو يكلّمني بالعربي ،ولا أدري ما يقول، يا سيدي ناصر الدين ماذا ؟وقصد أن يكرر ذلك الكلام ،فقال: يتكلم لأجل الدَّين الذي عليه، فقال السلطان: إذا دخلنا دار الملك فامض أنت يا أُومار ،ومعناه يا عم، إلى الخزانة فأعطه ذلك المال. وكان خداوند زاده حاضرا فقال يا خوند عالم إنه كثير الإنفاق، وقد رأيته ببلادنا عند السلطان طرمشيرين. وبعد هذا الكلام استحضرني السلطان للطعام ولا علم عندي بما جرى ،فلما خرجتُ، قال لي السيد ناصر الدين: اشكر للملك دولة شاه ،وقال لي الملك دولة شاه اشكر لخداوند زاده. وفي بعض تلك الأيام ،ونحن مع السلطان في الصيد ركب في المحلة وكان طريقه على منزلي، وأنا معه في الميمنة وأصحابي في الساقة ،وكان لي خباء عند السراجة فوقف أصحابي عندها، وسلموا على السلطان فبعث عماد الملك وملك دولة شاه ليسألا لمن تلك الأخبية والسراجة؟ فقيل لهما: لفلان، فأخبراه بذلك فتبسم فلمّا كان بالغد نفذ الأمر أن أعود أنا وناصر الدين مطهر الأوهري وابن قاضي مصر وملك صبيح إلى البلد، فخلع علينا وعدنا إلى الحضرة.

وكان السلطان في تلك الأيام سألني عن الملك الناصر، هل يركب الجمل؟ فقلت :نعم يركب المهاري في أيام الحج فيسير إلى مكة من مصر في عشرة أيام، ولكن تلك الجمال ليست كجمال هذه البلاد، وأخبرته أن عندي جملا منها .فلما عدت إلى الحضرة بعثت عن بعض عرب مصر، فصور لي صورة الكور الذي تركب المهاري به من القير ،وأريتها بعض النجارين فعمل الكور وأتقنه وكسوته بالملف ،وصنعت له ركبا ،وجعلت على الجمل عباءة حسنة ،وجعلت له خطام حرير . وكان عندي رجل من أهل اليمن يحسن عمل الحلواء فصنع منها ما يشبه التمر وغيره ،وبعثت الجمل والحلواء إلى السلطان وأمرت الذي حملها أن يدفعها على يد ملك دولة شاه وبعثت له بفرس وجملين فلما وصله ذلك دخل

على السلطان، وقال يا خوند عالم :رأيت العجب، قال :وما ذلك؟ قال: فلان بعث جملا عليه سرج. فقال" ائتوا به ،فأدخل الجمل داخل السراجة، وأعجب به السلطان ،وقال لراجلي :اركبه فركبه ومشّاه بين يديه ،وأمر له بمائتي دينار دراهم وخلعة، وعاد الرجل إليّ فأعلمني، فسرني ذلك وأهديت له جملين بعد عودته إلى الحضرة .

ولما عاد إلي راجلي الذي بعثته بالجمل فأخبرني بما كان من شأنه صنعت كورين اثنين، وجعلت مقدم كل واحد ومؤخره مكسوا بصفائح الفضة المذهبة، وكسوتهما بالملف وصنعت رسنا مصفحا بصفائح الفضة، وجعلت لهما جلّين من زرد خانة مبطنين بالكمخا، وجعلت للجملين الخلاخيل من الفضة، وصنعت أحد عشر طيفورا وملأتها بالحلواء وغطيت كل طيفور بمنديل حرير .فلما قدم السلطان من الصيد، وقعد ثاني يوم قدومه بموضع جلوسه العام، غدوت عليه بالجمال، فأمر بها فحرّكت بين يديه، وهرولت فطار خلخال أحدها ،فقال لبهاء الدين بن الفلكي :بايل ورداري ،معنى ذلك: ارفع الخلخال ،فرفعه ثم نظر إلى الطيافير فقال: جداري درآن طبقها حلوا إست، معنى ذلك ما معك في تلك الاطباق؟ حلواء هي؟ فقلت له :نعم، فقال للفقيه ناظر الدين الترمذي الواعظ :ما أكلت قط ولا رأيت مثل الحلواء التي بعثها إلينا ونحن بالمعسكر. ثم أمر بتلك الطيافير أن ترفع لموضع جلوسه ،فرفعت وقام إلى مجلسه واستدعاني، وأمر بالطعام فأكلت ثم سألني عن نوع من الحلواء الذي بعثت له قبل فقلت له :يا خوند عالم تلك الحلواء أنواعها كثيرة، ولا أدري عن أي نوع تسألون منها ،فقال ائتوا بتلك الأطباق ،وهم يسمون الطيفور طبقا، فأتوا بها وقدموها بين يديه وكشفوا عنها، فقال :عن هذا سألتك، وأخذ الصحن الذي هي فيه ،فقلت له :هذه يقال لها المقرضة(= حلوى شائعة في المغرب العربي وتسمى المقروض)،ثم أخذ نوعا آخر، فقال: وما اسم هذه؟ فقلت له: هي لقيمات القاضي، وكان بين يديه تاجر من شيوخ بغداد يعرف بالسامري، وينتسب إلى آل العباس رضي الله عنه، وهو كثير المال ،ويقول له السلطان يا والدي ،فحسدني وأراد أن يخجلني، فقال: ليست هذه لقيمات القاضي بل هي هذه، وأخذ قطعة من التي تسمى جَلْد الفرس(= الملبّن)

وكان بإزائه ملك الندماء ناصر الدين الكافي الهروي، وكان كثيرا ما يمازح هذا الشيخ بين يدي السلطان، فقال :يا خواجة أنت تكذب والقاضي يقول الحق، فقال له السلطان :وكيف ذلك ؟فقال :يا خوند عالم هو القاضي، وهي لقيماته فإنه أتى بها، فضحك السلطان، وقال :صدقت، فلما فرغنا من الطعام أكل الحلواء ثم شرب الفقاع بعد ذلك، وأخذنا التنبول وانصرفنا .

فلم يكن غير هنيهة وأتاني الخازن، فقال :ابعث أصحابك يقبضون المال فبعثتهم وعدت إلى داري بعد المغرب، فوجدت المال بها، وهو ثلاث بدر فيها ستة آلاف ومائتان وثلاث وثلاثون تنكة ،وذلك صرف الخمسة والخمسين ألفا التي هي دين علي، وصرف الاثني عشر ألفا التي أمر لي بها فيما تقدم بعد حط العشر على عادتهم، وصرف التنكة ديناران ونصف دينار من ذهب المغرب .

خروج السلطان وأمره لابن بطوطة بالبقاء في دهلي

وفي تاسع جمادى الأولى (= من عام ٧٤١= ٢١ أكتوبر ١٣٤١)خرج السلطان برسم قصد بلاد المعبر وقتال القائم بها ،وكنت قد خلصت أصحاب الدين وعزمت على السفر وأعطيت مرتب تسعة أشهر للكهارين والفراشين والكيوانية والدوادوية ،وقد تقدم ذكرهم. فخرج الأمر بإقامتي في جملة ناس وأخذ الحاجب خطوطنا بذلك لتكون حجة له ،وتلك عادتهم خوفا من أن ينكر المبلّغ وأمر لي بستة آلاف دينار دراهم ،وأمر لابن قاضي مصر بعشرة آلاف، وكذلك كل من أقام من الأعزة(= الغرباء) وأما البلديون فلم يعطوا شيئا، وأمرني السلطان أن أتولى النظر في مقبرة السلطان قطب الدين . . وكان السلطان يعظم تربته تعظيما شديدا لأنه كان خديما له، ولقد رأيته إذا أتى قبره يأخذ نعله فيقلبه ويجعله فوق رأسه وعادتهم أن يجعلوا نعل الميت عند قبره فوق متكأة، وكان إذا وصل القبر خدم له كما كان يخدم أيام حياته ،وكان يعظم زوجته ،ويدعوها بالأخت وجعلها مع حرمه وزوّجها بعد ذلك لابن قاضي مصر، واعتنى به من أجلها ،وكان يمضي لزيارتها في كل جمعة .

ولما خرج السلطان بعث عنا للوداع ،فقام ابن قاضي مصر، فقال: أنا لا أوادع ولا أفارق خوند عالم ،فكان له في ذلك الخير. فقال له السلطان: امض فتجهز للسفر. وقدمتُ بعدها للوداع، وكنت أحب الإقامة، ولم تكن عاقبتها محمودة، فقال :مالك من حاجة؟ فأخرجت بطاقة فيها ست مسائل ،فقال لي :تكلم بلسانك، فقلت له :إن خوند عالم أمر لي بالقضاء، وما قعدت لذلك بعدُ، وليس مرادي من القضاء إلا حرمته، فأمرني بالقعود للقضاء وقعود النائبين معي، ثم قال لي: إيه، فقلت: وروضة السلطان قطب الدين ماذا أفعل فيها؟ فإني رتبت فيها أربعمائة وستين شخصا ،ومحصول أوقافها لا يفي بمرتباتهم وطعامه؟ فقال للوزير: بنجاه هزار، ومعناه خمسون ألفا ،ثم قال: لا بد لك من غلة بديه، يعني أعطه مائة ألف من المغلّة، وهي القمح والأرز ينفقها في هذه السنة حتى تأتي غلة الروضة ،والمنّ عشرون رطلا مغربية، ثم قال لي :وماذا أيضا؟ فقلت: إن أصحابي سجنوا بسبب القرى التي أعطيتموني فإني عوضتها بغيرها فطلب أهل الديوان ما وصلني منها أو الاستظهار بأمر خوند عالم أن يرفع عني ذلك، فقال :كم وصلك منها؟ فقلت :خمسة آلاف دينار، فقال : هي إنعام عليك ،فقلت له: وداري التي أمرتم لي بها مفتقرة إلى البناء ؟فقال للوزير :عمارة كُنيد ،أي معناه عمروها .ثم قال لي: ديكر نماند؟ معناه ،هل بقي لك كلام؟ فقلت: لا .ثم قال لي :وصية ديكر هست ،معناه أوصيك أن لا تأخذ الدّين لئلا تُطلب فلا تجد من يبلغ خبرك إلي: أنفق على قدر ما أعطيتُك، قال الله تعالى " ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط "وكلوا واشربوا ولا تسرفوا "والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما " فأردت أن أقبل قدمه، فمنعني وأمسك رأسي بيده، فقبلتها وانصرفت .

وعدت إلى الحضرة فاشتغلت بعمارة داري ،وأنفقت فيها أربعة آلاف دينار أُعطيت منها من الديوان ستمائة دينار، وزدت عليها الباقي وبنيت بإزائها مسجدا ، واشتغلت بترتيب مقبرة السلطان قطب الدين ،وكان قد أمر أن تبنى عليها قبة يكون ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بزيادة عشرين ذراعا على ارتفاع القبة المبنية على قازان ملك العراق (= قبره في تبريز)

وأمر أن تشترى ثلاثون قرية تكون وقفا عليها ،وجعلها بيدي على أن يكون لي العشر من فائدها على العادة .وعادة أهل الهند أن يرتبوا لأمواتهم ترتيبا كترتيبهم بقيد الحياة، ويؤتى بالفيلة والخيل فتربط عند باب التربة وهي مزينة، فرتبت أنا في هذه التربة بحسب ذلك، ورتبت من قراء القرآن مائة وخمسين، وهم يسمونهم الختميين، ورتبت من الطلبة ثمانين، ومن المعيدين ويسمونهم المكررين ثمانية، ورتبت لها مدرسا، ورتبت من الصوفية ثمانين، ورتبت الإمام والمؤذنين والقراء بالأصوات الحسان، والمداحين، وكتاب الغيبة والمعرّفين، وجميع هؤلاء يعرفون عندهم بالأرباب ،ورتبت صنفا آخر يعرفون بالحاشية :وهم الفراشون والطباخون والدوادوية والأبدارية، وهم السقاؤون والشربدارية الذين يسقون الشّربة ،والتنبول دارية الذين يعطون التنبول، والسلحدارية، والنيزدارية، والشطردارية ،والطشت دارية، والحجاب والنقباء فكان جميعهم أربعمائة وستين .

وكان السلطان أمر أن يكون الطعام بها كل يوم اثني عشر منا من الدقيق، ومثلها من اللحم ،فرأيت أن ذلك قليل والزرع الذي أمر به كثير، فكنت أنفق كل يوم خمسة وثلاثين منا من الدقيق ومثلها من اللحم مع ما يتبع ذلك من السكر والنبات والسمن والتنبول، وكنت أطعم المرتبين وغيرهم من صادر ووارد. وكان الغلاء شديدا (= وقع قحط شديد فعلا ابتداء من عام ٧٣٦هـ=١٣٣٦م)فارتفق الناس بهذا الطعام وشاع خبره وسافر الملك صبيح إلى السلطان بدولة آباد ،فسأله عن حال الناس، فقال له: لو كان بدهلي اثنان مثل فلان لما شكا الجهد أحد ،فأعجب ذلك السلطان وبعث إلي بخلعة من ثيابه. وكنت أصنع في المواسم، وهي العيدان، والمولد الكريم ويوم عاشوراء ،وليلة النصف من شعبان ،ويوم وفاة السلطان قطب الدين ،مائة من الدقيق ومثلها لحما ،فيأكل منها الفقراء والمساكين .وأما أهل الوظيفة فيجعل أمام كل إنسان منهم ما يخصه.

ولنذكر عادتهم في ذلك، وعادتهم ببلاد الهند وببلاد السّرا(= عاصمة خان قفجق) أنه إذا فرغ من أكل الطعام في الوليمة جعل أمام كل إنسان من الشرفاء والفقهاء والمشايخ والقضاة وعاء شبه المهد له أربع قوائم منسوج سطحه من الخوص، وجعل عليه الرقاق ورأس

غنم مشوي وأربعة أقراص معجونة بالسمن مملوءة بالحلواء الصابونية(= تصنع من النشاء واللوز والسمسم وتعجن بالزيت والعسل) مغطاة بأربع قطع من الحلواء كأنها الآجر ،وطبقا صغيرا مصنوعا من الجلد فيه الحلواء والسموسك ،ويغطى ذلك الوعاء بثوب قطن جديد، ومَن كان دون من ذكرناه جعل أمامه نصف رأس غنم ،ويسمونه الزلّة (= الطعام القليل)ومقدار النصف مما ذكرناه ،ومَن كان دون هؤلاء أيضا جعل أمامه مثل الربع من ذلك، ويرفع رجال كل أحد ما جعل أمامه ،وأول ما رأيتهم يصنعون هذا بمدينة السَّرا حضرة السلطان أوزبك ،فامتنعت أن يرفع رجالي ذلك إذ لم يكن لي به عهد ،وكذلك يبعثون أيضا لدار كبراء الناس من طعام الولائم .

خروج ابن بطوطة إلى هزار أمروها

وكان الوزير قد أعطاني من الغلة المأمور بها للزاوية عشرة آلاف منّ، ونفّذ لي الباقي في هزار أمروها(=على مسافة ١٣٠ كم شرق دلهي) وكان والي الخراج بها عزيز الخمّار، وأميرها شمس الدين البدخشاني، فبعثت رجالي فأخذوا بعض الإحالة وتشكوا من تعسف عزيز الخمّار، فخرجت بنفسي لاستخلاص ذلك .وبين دهلي وهذه العمالة ثلاثة أيام. وكان ذلك في أوان نزول المطر، فخرجت في نحو ثلاثين من أصحابي واستصحبت معي أخوين من المغنيين المحسنين يغنيان لي في الطريق ، فوصلنا إلى بلدة بجنور(= بين أمروها ودلهي) فوجدت بها أيضا ثلاثة إخوة من المغنيين فاستصحبتهم ،فكانوا يغنون لي نوبة والآخران نوبة .

ثم وصلنا إلى أمروها وهي بلدة صغيرة حسنة، فخرج عمّالها للقائي، وجاء قاضيها الشريف أمير علي ،وشيخ زاويتها وأضافاني معا ضيافة حسنة .وكان عزيز الخمار بموضع يقال له أفغان بور على نهر السرو، وبيننا وبينه النهر ولا معدية فيه ، فأخذنا الأثقال في معدية صنعناها من الخشب والنبات وجزنا في اليوم الثاني ،وجاء نجيب أخو عزيز في جماعة من أصحابه وضرب لنا سراجة ،ثم جاء أخوه إلى الوالي ،وكان معروفا بالظلم. وكانت القرى التي في عمالته ألفا وخمسمائة قرية ومجباها ستون لكا في السنة له فيها

نصف العشر. ومن عجائب النهر الذي نزلنا عليه أنه لا يشرب منه أحد في أيام نزول المطر، ولا تسقى منه دابة. ولقد أقمنا عليه ثلاثا فما غرف منه أحد غرفة، ولا كدنا نقرب منه لأنه ينزل من جبل قراجيل(= الهملايا) التي بها معادن الذهب ،ويمر على الحشائش المسمومة فمن شرب منه مات. وهذا الجبل متصل مسيرة ثلاثة أشهر وينزل منه إلى بلاد تبت حيث غزلان المسك. .وبهذا الموضع جاء إلي جماعة من الفقراء الحيدرية وعملوا السماع وأوقدوا النيران فدخلوها ،ولم تضرهم .

وكانت قد نشأت بين أمير هذه البلاد شمس الدين البدخشاني وبين وإليها عزيز الخمار منازعة وجاء شمس الدين لقتاله فامتنع منه بداره ،وبلغت شكاية أحدهما الوزير بدهلي ،فبعث إلى الوزير وإلى الملك شاه أمير المماليك بأمروها وهم أربعة آلاف مملوك للسلطان وإلى شهاب الدين الرومي أن ننظر في قضيتهما فمن كان على الباطل بعثاه مثقفا إلى الحضرة، فاجتمعوا جميعا بمنزلي وادعى عزيز على شمس الدين دعاوي منها أن خديما له يعرف بالرّضى الملتاني نزل بدار خازن عزيز المذكور فشرب بها الخمر وسرق خمسة آلاف دينار من المال الذي عند الخازن، فاستفهمت الرّضى عن ذلك فقال لي: ما شربت الخمر منذ خروجي من ملتان ،وذلك ثمانية أعوام، فقلت له: أو شربتها بملتان ؟قال: نعم ،فأمرت بجلده ثمانين وسجنته بسبب الدعوى لِلَوثٍ ظهر عليه. وانصرفت عن أمروها فكانت غيبتي نحو شهرين، وكنت في كل يوم أذبح لأصحابي بقرة ،وتركت أصحابي ليأتوا بالزرع المنفّذ على عزيز وحمله عليه ،فوُزع على أهل القرى التي لنظَرِه ثلاثين ألف منّ يحملونها على ثلاثة آلاف بقرة. وأهل الهند لا يحملون إلا على البقر، وعليه يرفعون أثقالهم في الأسفار ،وركوب الحمير عندهم عيب كبير، وحميرهم صغار الأجرام يسمونها اللاشة (= الجثة) وإذا أرادوا إشهار أحد بعد ضربه أركبوه الحمار. وكان السيد ناصر الدين الأوهري قد ترك عندي لما سافر ألفا وستين تنكة فتصرفت فيها ،فلما عدت إلى دهلي وجدته قد أحال في ذلك المال خدواند زاده قوام الدين، وكان قدم نائبا على الوزير، فاستقبحت أن أقول له تصرفت في المال، فأعطيته نحو ثلثه ،وأقمت بداري أياما وشاع أني مرضت فأتى ناصر

الدين الخوارزمي صدر الجهان لزيارتي ،فلما رآني قال :ما أرى بك مرضا؟ فقلت له :إني مريض القلب ،فقال لي : عرفني بذلك ،فقلت له : ابعث إلي نائبك شيخ الإسلام أعرّفه به فبعثه إلي ،فأعلمته فعاد إليه فأعلمه فبعث إلي بألف دينار دراهم، وكان له عندي قبل ذلك ألفا ثانية ،ثم طلب مني بقية المال ،فقلت في نفسي : ما يخلصني منه إلا صدر الجهان المذكور لأنه كثير المال ،فبعثت إليه بفرس مسرج قيمته وقيمة سرجه ألف وستمائة دينار، وبفرس ثان قيمته وقيمة سرجه ثمانمائة دينار، وببغلتين قيمتهما ألف ومائتا دينار، وبتركش فضة وبسيفين غمداهما مغشيان بالفضة، وقلت له : انظر قيمة الجميع ،وابعث إلي ذلك ،فأخذ ذلك وعمل لجميعه قيمة ثلاثة آلاف دينار ،فبعث إلي ألفا واقتطع الألفين فتغير خاطري ،ومرضت بالحمى ،وقلت في نفسي : إن شكوت به إلى الوزير افتضحت، فأخذت خمسة أفراس وجاريتين ومملوكين، وبعثت الجميع للملك مغيث الدين محمد بن ملك الملوك عماد الدين السمناني، وهو فتيّ السّن ،فردّ على ذلك وبعث إلي مائتي تنكة وأغزر، وخلصت من ذلك المال ،فشتان بين محمد ومحمد.

رجوع السلطان وإرسال ابن بطوطة للصين

وكان السلطان لما توجه إلى بلاد المعبر وصل إلى التّلنك ووقع الوباء بعسكره فعاد إلى دولة آباد ،ثم وصل إلى نهر الكنك، فنزل عليه وأمر الناس بالبناء، وخرجت في تلك الأيام إلى محلته، واتفق ما سردناه من مخالفة عين الملك، ولازمت السلطان في تلك الأيام وأعطاني من عتاق الخيل لما قسمها على خواصه ،وجعلني فيهم ،وحضرت معه الوقيعة على عين الملك والقبض عليه، وجزت معه نهر الكنك ونهر السرو لزيارة قبر الصالح البطل سالا رعود، وقد استوفيت ذلك كله وعدت معه إلى حضرة دهلي لما عاد إليها .

و كان سبب ما همّ به السلطان من عقابي أني ذهبت يوما لزيارة الشيخ شهاب الدين بن الشيخ الجام بالغار الذي احتفره خارج دهلي، وكان قصدي رؤية ذلك الغار، فلما أخذه السلطان سأل أولاده عمّن كان يزوره فذكروا أناسا أنا من جملتهم، فأمر السلطان أربعة من

عبيده بملازمتي بالمشور ،وعادته أنه متى فعل ذلك مع أحد قلما يتخلص. فكان أول يوم من ملازمتهم لي يوم الجمعة ،فألهمني الله تعالى إلى تلاوة قوله "حسبنا الله ونعم الوكيل" فقرأتها ذلك اليوم ثلاثة وثلاثين ألف مرة ،وبتّ بالمشور وواصلت إلى خمسة أيام ،في كل يوم منها أختم القرآن، وأفطر على الماء خاصة ،ثم أفطرت بعد خمس، وواصلت أربعا ،وتخلصت بعد قتل الشيخ .والحمد لله تعالى.

ولما كان بعد مدة انقبضتُ عن الخدمة ولازمت الشيخ الإمام العالم العابد الزاهد الخاشع الورع فريد الدهر ووحيد العصر كمال الدين عبد الله الغاري ،وكان من الأولياء وله كرامات كثيرة ...وانقطعت إلى خدمة هذا الشيخ، ووهبت ما عندي للفقراء والمساكين. وكان الشيخ يواصل عشرة أيام وربما واصل عشرين، فكنت أحب أن أواصل فكان ينهاني ويأمرني بالرفق على نفسي في العبادة، ويقول لي :إن المنبتّ لا أرضا قطع ولا ظهرا أبقى .وظهر لي من نفسي تكاسل بسبب شيء بقي معي ،فخرجت عن جميع ما عندي من قليل وكثير، وأعطيت ثياب ظهري لفقير، ولبست ثيابه ،ولزمت هذا الشيخ خمسة أشهر. والسلطان إذ ذاك غائب ببلاد السند .

ولما بلغ السلطان خبر خروجي عن الدنيا استدعاني، وهو يومئذ بسيوستان(= على نهر السند شمال حيرد أباد) فدخلت عليه في زي الفقراء ،فكلمني أحسن كلام وألطفه وأراد مني الرجوع إلى الخدمة فأبيت وطلبت منه الإذن في السفر إلى الحجاز، فأذن لي فيه وانصرفت عنه .ونزلت بزاوية تعرف بالنسبة إلى الملك بشير، وذلك في أواخر جمادى الثانية سنة ثنتين وأربعين(= وسبعمائة= ١٣٤١) فاعتكفت بها شهر رجب وعشرة من شعبان وانتهيت إلى مواصلة خمسة أيام ،وأفطرت بعدها على قليل أرز دون إدام ،وكنت أقرأ القرآن كل يوم، وأتهجّد بما شاء الله ،وكنت إذا أكلت الطعام آذاني ،فإذا طرحته وجدت الراحة .وأقمت كذلك أربعين يوما ثم بعث عني ثانية ، ولما كملت لي أربعون يوما بعث إلي السلطان خيلا مسرجة وجواري وغلمانا وثيابا ونفقة فلبست ثيابه وقصدته وكانت لي جبة قطن زرقاء مبطنة لبستها أيام اعتكافي، فلما جردتها ولبست ثياب

السلطان أنكرت نفسي، وكنت متى نظرت إلى تلك الجبة أجد نورا في باطني ،ولم تزل عندي إلى أن سلبني الكفار في البحر، ولما وصلت إلى السلطان زاد في إكرامي على ما كنت أعهده وقال لي : إنما بعثت إليك لتتوجه عني رسولاً إلى ملك الصين، فإني أعلم حبك في الأسفار والجولان، فجهزني بما أحتاج له وعين للسفر معي مَن يذكر بعد .

وكان ملك الصين قد بعث إلى السلطان مائة مملوك وجارية ،وخمسمائة ثوب من الكمخا منها مائة من التي تصنع بمدينة الزّيتون ،ومائة من التي تصنع بمدينة الخنسا، وخمسة أمنان من المسك، وخمسة أثواب مرصعة بالجوهر، وخمسة من التراكش مزركشة، وخمسة سيوف . وطلب من السلطان أن يأذن له في بناء بيت الأصنام بناحية جبل قراجيل المتقدم ذكره، ويعرف الموضع الذي هو به بسمهل(= سمبهال) وإليه يحج أهل الصين وتغلّب عليه جيش الإسلام بالهند، فخربوه وسلبوه .

لما وصلت هذه الهدية إلى السلطان كتب إليه :إن هذا المطلب لا يجوز في ملة الإسلام إسعافه، ولا يباح بناء كنيسة بأرض المسلمين إلا لمن يعطي الجزية ؛فإن رضيت بإعطائها أبحنا لك بناءه، والسلام على من اتبع الهدى .وكافأه عن هديته بخير منها، وذلك مائة فرس من الجياد مسرجة ملجمة ومائة مملوك ومائة جارية من كفار الهند مغنيات ورواقص، ومائة ثوب بيرمية، وهي من القطن ولا نظير لها في الحسن قيمة الثوب منها مائة دينار، ومائة شقة من ثياب الحرير المعروفة بالجُزّ، وهي التي يكون حرير إحداها مصبوغا بخمسة ألوان وأربعة، ومائة ثوب من الثياب المعروفة بالصلاحية ،ومائة ثوب من الشيرين باف(= ثياب قطنية نفيسة) ومائة ثوب من الشان باف(= ثياب شفافة) وخمسمائة ثوب من المرعز، مائة منها سود ومائة بيض ومائة حمر ومائة خضر ومائة زرق ،ومائة شقة من الكتان الرومي، ومائة فضلة من الملف، وسراجة، وست من القباب، وأربع حسك من ذهب، وست حسك من فضة منيلة ،وأربعة طسوت من الذهب ذات أباريق كمثلها، وستة طسوت من الفضة وعشر خلع من ثياب السلطان مزركشة، وعشر شواش من لباسه إحداهما مرصعة بالجوهر وعشرة تراكش مزركشة، وأحدها مرصع بالجواهر وعشرة من السيوف أحدها مرصع

الغمد بالجوهر، ودشت بان وهو قفاز مرصع بالجوهر وخمسة عشر من الفتيان، وعيّن السلطان للسفر معي بهذه الهدية الأمير ظهير الدين الزنجاني، وهو من فضلاء أهل العلم ،والفتى كافور الشُربدار(= الساقي) ،وإليه سلِّمت الهدية، وبعث معنا الأمير محمد الهروي في ألف فارس ليوصلنا إلى الموضع الذي نركب منه البحر، وتوجه صحبتنا أرسال(=سفراء) ملك الصين، وهم خمسة عشر رجلا يسمى كبيرهم تُرسي، وخدامهم نحو مائة رجل ،وانفصلنا في جمع كبير ومحلة عظيمة ،وأمر لنا السلطان بالضيافة مدة سفرنا ببلاده .

من دهلي إلى كول وأسر ابن بطوطة بها

وكان سفرنا في السابع عشر لشهر صفر سنة ثلاث وأربعين(= وسبعمائة= ٢٢يوليو/ تموز ١٣٤٢) وهو اليوم الذي اختاروه للسفر لأنهم يختارون للسفر من أيام الشهر ثانيه أو سابعه أو الثاني عشر أو السابع عشر أو الثاني والعشرين أو السابع والعشرين ،فكان نزولنا في أول مرحلة بمنزل تلبت(= ٧ أميال عن دلهي) على مسافة فرسخين وثلث من حضرة دهلي ،ورحلنا منه إلى منزل هيلو، ورحلنا منه إلى مدينة بيانة(= غرب عليكرة) مدينة كبيرة حسنة البناء مليحة الأسواق ومسجدها الجامع من أبدع المساجد وحيطانه وسقفه حجارة ،والأمير بها مظفر بن الداية ،وأمه هي داية السلطان. وكان بها قبله الملك مجير بن أبي الرجاء أحد كبراء الملوك . . . وهو ينتسب في قريش ،وفيه تجبر وله ظلم كثير ،قتل من أهل هذه المدينة جملة ومثّل بكثير منهم ،ولقد رأيت من أهلها رجلا حسن الهيئة قاعدا في أسطوان منزله وهو مقطوع اليدين والرجلين .وقدم السلطان مرة على هذه المدينة فتشكّى الناس من الملك مجير المذكور، فأمر السلطان بالقبض عليه ،وجعلت في عنقه الجامعة، وكان يقعد بالديوان بين يدي الوزير وأهل البلد يكتبون عليه المظالم، فأمر السلطان بإرضائهم فأرضاهم بالأموال، ثم قتله بعد ذلك. ومن كبار أهل هذه المدينة الإمام العالم عز الدين الزبيري من ذرية الزبير بن العوام رضي الله عنه ،أحد كبار الفقهاء الصلحاء، لقيته

بكاليور عند الملك عز الدين البنتاني المعروف بأعظم ملك .

ثم رحلنا من بيانة فوصلنا إلى مدينة كول (= عليكرة)مدينة حسنة ذات بساتين وأكثر أشجارها العنبا ،ونزلنا بخارجها في بسيط أفيح ،ولقينا بها الشيخ الصالح العابد شمس الدين المعروف بابن تاج العارفين، وهو مكفوف البصر معمّر، وبعد ذلك سجنه السلطان ،ومات في سجنه ..ولما بلغنا إلى مدينة كول بلغنا أن بعض كفار الهنود حاصروا بلدة الجلالي(= شرق عليكرة) وأحاطوا بها ،وهي على مسافة سبعة أميال من كول، فقصدنا الجلالي ، والكفار يقاتلون أهلها وقد أشرفوا على التلف .ولم يعلم الكفار بنا حتى صدقنا الحملة عليهم، وهم في نحو ألف فارس وثلاثة آلاف راجل،فقتلناهم عن آخرهم، واحتوينا على خيلهم وأسلحتهم واستشهد من أصحابنا ثلاثة وعشرون فارسا وخمسة وخمسون راجلا، واستشهد الفتى كافور الساقي الذي كانت الهدية مسلمة بيده، فكتبنا إلى السلطان بخبره، وأقمنا في انتظار الجواب .وكان الكفار في أثناء ذلك ينزلون من جبل هنالك منيع فيغيرون على نواحي بلدة الجلالي، وكان أصحابنا يركبون كل يوم مع أمير تلك الناحية ليعينوه على مدافعتهم .

وفي بعض تلك الأيام ركبت في جماعة من أصحابي ودخلنا بستانا نقيل فيه ،وذلك فصل القيظ فسمعنا الصياح فركبنا ولحقنا كفارا أغاروا على قرية من قرى الجلالي، فاتبعناهم فتفرقوا، وتفرق أصحابنا في طلبهم ،وانفردت في خمسة من أصحابنا ،فخرج علينا جملة من الفرسان والرجال من غيضة هنالك ،ففررنا منهم لكثرتهم واتبعني نحو عشرة منهم ،ثم انقطعوا عني إلى ثلاثة منهم ولا طريق بين يدي، وتلك الأرض كثيرة الحجارة فنشبت يدا فرسي بين الحجارة فنزلت عنه واقتلعت يده وعدت إلى ركوبه .والعادة بالهند أن يكون مع الإنسان سيفان أحدهما معلق بالسرج ويسمى الركابي ،والآخر في التركش ،فسقط سيفي الركابي من غمده ،وكانت حليته ذهبا فنزلت فأخذته وتقلدته وركبت، وهم في أثري ثم وصلت إلى خندق عظيم ،فنزلت ودخلت في جوفه ،فكان آخر عهدي بهم .

ثم خرجت إلى واد في وسط شجراء ملتفة في وسطها طريق فمشيت عليه ولا أعرف

منتهاها، فبينا أنا في ذلك خرج علي نحو أربعين رجلا من الكفار بأيديهم القسي ،فأحدقوا بي، وخفت أن يرموني رمية رجل واحد إن فررت منهم، وكنت غير متدرع فألقيت بنفسي إلى الأرض واستأسرت ،وهم لا يقتلون من فعل ذلك ،فأخذوني وسلبوني جميع ما علي غير جبة وقميص وسروال ،ودخلوا بي إلى تلك الغابة، فانتهوا بي إلى موضع جلوسهم منها على حوض ماء بين تلك الأشجار، وأتوني بخبز ماش وهو الجلبان فأكلت منه وشربت من الماء ،وكان معهم مسلمان كلماني بالفارسية ،وسألاني عن شأني، فأخبرتهما ببعضه وكتمتهما أني من جهة السلطان، فقالا لي: لا بد أن يقتلك هؤلاء أو غيرهم ،ولكن هذا مقدَّمهم. وأشارا إلى رجل منهم فكلمته بترجمة المسلمين ،وتلطّفت له ،فوكل بي ثلاثة منهم أحدهم شيخ ومعه ابنه ،والآخر أسود خبيث، وكلمني أولائك الثلاثة ففهمت منهم أنهم أُمروا بقتلي ،فاحتملوني عشي النهار إلى كهف ،وسلط الله على الأسود منهم حمى مرعدة فوضع رجليه علي، ونام الشيخ وابنه ،فلما أصبح تكلموا فيما بينهم وأشاروا إلي بالنزول معهم إلى الحوض، وفهمت أنهم يريدون قتلي ،فكلمت الشيخ وتلطفت إليه فرقّ لي، وقطعت كمي قميصي وأعطيته إياهما لكي لا يأخذه أصحابه فيّ إن فررت .

ولما كان عند الظهر سمعنا كلاما عند الحوض فظنوا أنهم أصحابهم فأشاروا إلي بالنزول معهم فنزلنا، ووجدنا قوما آخرين فأشاروا عليهم أن يذهبوا في صحبتهم ،فأبوا وجلس ثلاثتهم أمامي وأنا مواجه لهم ووضعوا حبل قنب كان معهم بالأرض، وأنا أنظر إليهم ،وأقول في نفسي بهذا الحبل يربطونني عند القتل، وأقمت كذلك ساعة ثم جاء ثلاثة من أصحابهم الذين أخذوني فتكلموا معهم، وفهمت أنهم قالوا لهم لأي شيء ما قتلتموه فأشار الشيخ إلى الأسود كأنه اعتذر بمرضه، وكان أحد هؤلاء الثلاثة شابا حسن الوجه فقال لي: أتريد أن أسرّحك؟ فقلت :نعم ،فقال :اذهب فأخذت الجبة التي كانت علي فأعطيته إياها وأعطاني مقّيرة بالية عنده ،وأراني الطريق. فذهبت وخفت أن يبدو لهم فيدركونني فدخلت غيضة قصب ،واختفيت فيها إلى أن غابت الشمس .ثم خرجت وسلكت الطريق التي أرانيها الشاب فأفضت بي إلى ماء فشربت منه، وسرت إلى ثلث الليل فوصلت إلى

جبل فنمت تحته ،فلما أصبحت سلكت الطريق، فوصلت ضحى إلى جبل من الصخر عال فيه شجر أم غيلان والسدر، فكنت أجني النبق فآكله حتى أثر الشوك في ذراعي آثارا هي باقية به حتى الآن، ثم نزلت من ذلك الجبل إلى أرض مزدرعة قطنا وبها أشجار الخروع ،وهنالك باين ،والباين عندهم بئر متسعة جدا مطوية بالحجارة لها درج ينزل عليها إلى ورد الماء وبعضها يكون في وسطه وجوانبه القباب من الحجر والسقائف والمجالس ويتفاخر ملوك البلاد وأمراؤها بعمارتها في الطرقات التي لا ماء بها .. ولما وصلت إلى الباين شربت منه، ووجدت عليه شيئا من عساليج الخردل قد سقطت لمن غسلها فأكلت منها ،وادخرت باقيها ونمت تحت شجرة خروع. فبينما أنا كذلك إذ ورد الباين نحو أربعين فارسا مدرعين فدخل بعضهم إلى المزرعة ثم ذهبوا ،وطمس الله أبصارهم دوني، ثم جاء بعدهم نحو خمسين في السلاح ونزلوا الباين وأتى أحدهم إلى شجرة إزاء الشجرة التي كنت تحتها فلم يشعر بي .

ودخلت إذ ذاك في مزرعة القطن وأقمت بها بقية نهاري، وأقاموا على الباين يغسلون ثيابهم ويلعبون فلما كان الليل هدأت أصواتهم فعلمت أنهم قد مروا أو ناموا، فخرجت حينئذ واتبعت أثر الخيل والليل مقمر ،وسرت حتى انتهيت إلى باين آخر عليه قبة فنزلت إليه وشربت من مائه، وأكلت من عساليج الخردل التي كانت عندي ودخلت القبة فوجدتها مملوءة بالعشب مما يجمعه الطير فنمت بها ،وكنت أحس حركة حيوان في ذلك العشب أظنه حية فلا أبالي بها لما بي من الجهد، فلما أصبحت سلكت طريقا واسعة تفضي إلى قرية خربة وسلكت سواها فكانت كمثلها وأقمت كذلك أياما ،وفي بعضها وصلت إلى أشجار ملتفة بينها حوض ماء وداخلها شبه بيت وعلى جوانب الحوض نبات الأرض كالنجيل وغيره فأردت أن أقعد هنالك حتى يبعث الله من يوصلني إلى العمارة ،ثم أني وجدت يسير قوة فنهضت على طريق وجدت بها أثر البقر ووجدت ثورا عليه بردعة ومنجل، فإذا تلك الطريق تفضي إلى قرى الكفار فأتبعت طريقا أخرى فأفضت بي إلى قرية خربة ورأيت بها أسودين عريانين فخفتهما، وأقمت تحت أشجار هنالك ،فلما كان الليل دخلت القرية ووجدت دارا في بيت من بيوتها شبه خابية كبيرة يصنعونها لاختزان الزرع وفي أسفلها نقب يسع منه الرجل فدخلتها، ووجدت داخلها مفروشا بالتبن وفيه حجر جعلت رأسي

عليه ونمت وكان فوقها طائر يرفرف بجناحيه أكثر الليل وأظنه كان يخاف فاجتمعنا خائفي.

وأقمت على تلك الحال سبعة أيام من يوم أسرت ،وهو يوم السبت .وفي السابع منها وصلت إلى قرية للكفار عامرة وفيها حوض ماء ومنابت خضر فسألتهم الطعام فأبوا أن يعطوني فوجدت حول بئرها أوراق فجل، فأكلته وجئت القرية فوجدت جماعة كفار لهم طليعة فدعاني طليعتهم فلم أجبه، وقعدت إلى الأرض فأتى أحدهم بسيف مسلول ورفعه ليضربني به فلم ألتفت إليه لعظيم ما بي من الجهد ففتشني فلم يجد عندي شيئا فأخذ القميص الذي كنت أعطيت كميه للشيخ الموكل بي .

ولما كان اليوم الثامن اشتد بي العطش وعدمت الماء ووصلت إلى قرية خراب فلم أجد بها حوضا وعادتهم بتلك القرى أن يصنعوا أحواضا يجتمع بها ماء المطر فيشربون منه جميع السنة ،فأتبعت طريقا فأفضت بي إلى بئر غير مطوية عليها حبل مصنوع من نبات الأرض وليس فيه آنية يستقى بها فربطت خرقة كانت على رأسي في الحبل وامتصصت ما تعلق بها في الماء فلم يروني فربطت خفي واستقيت به فلم يروني فاستقيت به ثانيا فانقطع الحبل ووقع الخف في البئر فربطت الخف الآخر وشربت حتى رويت ثم قطعته فربطت أعلاه على رجلي بحبل البئر وبخرق وجدتها هنالك ، فبينا أنا أربطها وأفكر في حالي إذ لاح لي شخص فنظرت إليه فإذا رجل أسود اللون بيده إبريق وعكاز وعلى كاهله جراب فقال لي :سلام عليكم، فقلت له: عليكم السلام ورحمة الله وبركاته، فقال لي بالفارسية :جيكس؟ معناه، من أنت؟ فقلت له: أنا تائه، فقال لي: وأنا كذلك ،ثم ربط إبريقه بحبل كان معه واستقى ماء، فأردت أن أشرب، فقال لي: اصبر ،ثم فتح جرابه فأخرج منه غرفة حمص أسود مقلو مع قليل أرز فأكلت منه ،وشربت. وتوضأ وصلى ركعتين، وسألني عن اسمي فقلت له :محمد، وسألته عن اسمه فقال لي: القلب الفارح، فتفاءلت بذلك وسررت به ،ثم قال لي :بسم الله ترافقني ،فقلت: نعم، فمشيت معه قليلا ثم وجدت فتورا في أعضائي ولم أستطع النهوض فقعدت، فقال :ما شأنك؟ فقلت له: كنت قادرا

على المشي قبل أن ألقاك ،فلما لقيتك عجزت، فقال :سبحان الله اركب فوق عنقي، فقلت له : إنك ضعيف ولا تستطع ذلك : فقال : يقويني الله لا بد لك من ذلك، فركبت على عنقه ،وقال لي :أكثر من قراءة حسبنا الله ونعم الوكيل، فأكثرت من ذلك وغلبتني عيني ،فلم أفق إلا لسقوطي على الأرض، فاستيقظت ولم أر للرجل أثرا ،وإذا أنا في قرية عامرة فدخلتها فوجدتها لرعية الهنود وحاكمها من المسلمين، فأعلموه بي فجاء إلي ،فقلت له :ما اسم هذه القرية، فقال لي : تاج بوره، وبينها وبين مدينة كول حيث أصحابنا فرسخان، وحملني ذلك الحاكم إلى بيته فأطعمني طعاما سخنا ،واغتسلت وقال لي : عندي ثوب وعمامة أودعهما عندي رجل عربي مصري من أهل المحلة التي بكول ،فقلت له :هاتهما ألبسهما إلى أن أصل إلى المحلة، فأتى بهما فوجدتهما من ثيابي كنت قد وهبتهما لذلك العربي لما قدمنا كول، فطال تعجبي من ذلك.

وفكرت في الرجل الذي حملني على عنقه فتذكرت ما أخبرني به ولي الله تعالى أبو عبد الله المرشدي، حسبما ذكرناه في السفر الأول، إذ قال لي ستدخل أرض الهند وتلقي بها أخي دلشاد، ويخلصك من شدة تقع فيها، وتذكرت قوله لما سألته عن اسمه فقال القلب الفارح ،وتفسيره بالفارسية دلشاد، فعلمت أنه هو الذي أخبرني بلقائه، وأنه من الأولياء ولم يحصل لي من صحبته إلا المقدار الذي ذكرت .

وكتبت تلك الليلة إلى أصحابي بكول معلما لهم بسلامتي فجاؤوا إلي بفرس وثياب، واستبشروا بي، ووجدت جواب السلطان قد وصلهم وبعث بفتى يسمى بسنبل الجامدار(= حامل الكأس) عوضا من كافور المستشهد، وأُمرنا أن نتمادى على سفرنا، ووجدتهم أيضا قد كتبوا للسلطان بما كان من أمري وتشاءموا بهذه السفرة لما جرى فيها علي وعلى كافور وهم يريدون أن يرجعوا ،فلما رأيت تأكيد السلطان في السفر، أكدت عليهم وقوي عزمي، فقالوا : ألا ترى ما اتفق في بداية هذه السفرة، والسلطان يعذرك فلنرجع إليه ،أو نقيم حتى يصل جوابه؟ فقلت لهم :لا يمكن المقام، وحيث ما كنا أدركنا الجواب .

من كول إلى دولة آباد

فرحلنا من كول ونزلنا برج بوره (= بين عليكرة وكانّوج)وبه زاوية حسنة فيها شيخ حسن الصورة والسيرة يسمى بمحمد العريان لأنه لا يلبس عليه إلا ثوبا من سرته إلى أسفل، وباقي جسده مكشوف ،وهو تلميذ الصالح الولي محمد العريان القاطن بقرافة مصر نفع الله به . وكان من أولياء الله تعالى قائما على قدم التجرد يلبس تنورة ،وهو ثوب يستر من سرته إلى أسفل ،ويُذكر أنه كان إذا صلى العشاء الآخرة أخرج كل ما بقي بالزاوية من طعام وأدام وماء وفرّق ذلك على المسلمين، ورمى بفتيلة السراج وأصبح على غير معلوم ،وكانت عادته أن يطعم أصحابه عند الصباح خبزا وفولا ،فكان الخبازون والفوالون يستبقون إلى زاويته فيأخذ منهم مقدار ما يكفي الفقراء، ويقول لمن أخذ منه ذلك: اقعد حتى يأخذ أول ما يفتح به عليه في ذلك اليوم قليلا أو كثيرا.

ومن حكاياته أنه لما وصل قازان ملك التتر إلى الشام بعساكره، وملك دمشق ما عدا قلعتها، وخرج الملك الناصر إلى مدافعته ،ووقع اللقاء على مسيرة يومين من دمشق بموضع يقال له قشحب ،والملك الناصر إذ ذاك حديث السن لم يعهد الوقائع ،وكان الشيخ العريان في صحبته فنزل وأخذ قيدا فقيد به فرس الملك الناصر لئلا يتزحزح عند اللقاء لحداثة سنه فيكون ذلك سبب هزيمة المسلمين؛ فثبت الملك الناصر ،وهزم التتر هزيمة شنعاء قتل منهم فيها كثير وغرق كثير بما أرسل عليهم من المياه، ولم يعد التتر إلى قصد بلاد الإسلام بعدها(= هي معركة مرج الصفّار التي وقعت في ٢رمضان ٧٠٢هـ=٢١نيسان / أبريل ١٣٠٣م) .وأخبرني الشيخ محمد العريان المذكور تلميذ هذا الشيخ أنه حضر هذه الوقيعة وهو حديث السن .

ورحلنا من برج بوره ونزلنا على الماء المعروف بآب سياه(= النهر الأسود أحد روافد الكنج) .ثم رحلنا إلى مدينة قنوج(= على الضفة اليمنى للكنج) مدينة كبيرة حسنة العمارة حصينة رخيصة الأسعار كثيرة السكر، ومنها يحمل إلى دهلي ،وعليها سور عظيم .. وكان بها الشيخ معين الدين الباخرزي أضافنا ،بها وأميرها فيروز البدخشاني من ذرية

بهرام جور صاحب كسرى .ويسكن بها جماعة من الصلحاء الفضلاء المعروفين بمكارم الأخلاق يعرفون بأولاد شرف جهان ،وكان جدهم قاضي القضاة بدولة آباد ،وهو من المحسنين المتصدقين، وانتهت الرئاسة ببلاد الهند إليه .يُذكر أنه عزل مرة عن القضاء وكان له أعداء فادعى أحدهم عند القاضي الذي ولي بعده أن له عشرة آلاف دينار قبله، ولم تكن له بينة ،وكان قصده أن يحلّفه؛ فبعث القاضي عنه فقال لرسوله: بم ادعى عليّ، فقال :بعشرة آلاف دينار، فبعث إلى مجلس القاضي عشرة آلاف، وسلمت للمدعي، وبلغ خبره السلطان علاء الدين ،وصح عنده بطلان تلك الدعوى ،فأعاده إلى القضاء وأعطاه عشرة آلاف. وأقمنا بهذه المدينة ثلاثا، ووصلنا فيها جواب السلطان في شأني بأنه إن لم يظهر لفلان أثر فيتوجه وجيه الملك قاضي دولة أباد عوضا منه .

ثم رحلنا من هذه المدينة فنزلنا بمنزل هنول ،ثم بمنزل وزير بور ،ثم بمنزل البجالصة ، ثم وصلنا إلى مدينة موري، وهي صغيرة ولها أسواق حسنة ،ولقيت بها الشيخ الصالح المعمر قطب الدين المسمى بحيدر الفرغاني وكان بحال مرض فدعا لي وزودني رغيف شعير ،وأخبرني أن عمره ينيف على مائة وخمسين .وذكر لي أصحابه أنه يصوم الدهر ويواصل كثيرا، ويكثر الاعتكاف ،وربما أقام في خلوته أربعين يوما يقتات فيها بأربعين تمرة في كل يوم واحدة. وقد رأيت بدهلي الشيخ المسمى برجب البرقعي دخل الخلوة بأربعين تمرة، فأقام بها أربعين يوما ،ثم خرج وفضل معه منها ثلاث عشرة تمرة .

ثم رحلنا ووصلنا إلى مدينة مره، وهي مدينة كبيرة أكثر سكانها كفار تحت الذمة وهي حصينة وبها القمح الطيب الذي ليس له مثل بسواها، ومنها يحمل إلى دهلي وحبوبه طوال شديدة الصفرة ضخمة ،ولم أر قمحا مثله إلا بأرض الصين .وتنسب هذه المدينة إلى المالوة، وهي قبيلة من قبائل الهنود ضخام الأجسام عظام الخلق حسان الصور، لنسائهم الجمال الفائق، وهن مشهورات بطيب الخلوة، ووفور الحظ من اللذة، وكذلك نساء المرهتة(=إقليم مهر شترا قرب بومباي) ونساء جزيرة ذيبة المهل(= جزر المالديف) .

ثم سافرنا إلى مدينة علا بور(= قرب كواليور) مدينة صغيرة أكثر سكانها الكفار تحت

الذمة وعلى مسيرة يوم منها سلطان كافر اسمه قَتَم، وهو سلطان جَنبيل الذي حاصر مدينة كيالير وقُتل بعد ذلك .كان هذا السلطان الكافر قد حاصر مدينة رابري (= على نهر يامونا)وهي على نهر الجون كثيرة القرى والمزارع .وكان أميرها خطّاب الأفغاني وهو أحد الشجعان ،واستعان السلطان الكافر بسلطان كافر مثله يسمى رجُو ،وبلده يسمى سلطان بور، وحاصر مدينة رابري ،فبعث خطابا إلى السلطان يطلب منه الإغاثة فأبطأ عليه المدد وهو على مسيرة أربعين من الحضرة، فخاف أن يتغلب الكفار عليه فجمع من قبيلة الأفغان نحو ثلاثمائة، ومثلهم من المماليك ،ونحو أربعمائة من سائر الناس، وجعلوا العمائم في أعناق خيلهم ،وهي عادة أهل الهند إذا أرادوا الموت ،وباعوا نفوسهم من الله تعالى، وتقدم خطّاب وقبيلته وأتبعهم سائر الناس ،وفتحوا الباب عند الصبح ،وحملوا على الكفار حملة واحدة وكانوا نحو خمسة عشر ألفا فهزموهم بإذن الله ،وقتلوا سلطانيهم قتم ورجو ،وبعثوا برأسهما إلى السلطان. ولم ينج من الكفار إلا الشريد .وكان أمير علا بور بدر الحبشي من عبيد السلطان وهو من الأبطال الذين تضرب بهم الأمثال، وكان لا يزال يغير على الكفار منفردا بنفسه فيقتل ويسبي حتى شاع خبره واشتهر أمره وهابه الكفار وكان طويلا ضخما يأكل الشاة عن آخرها في أكلة ،وأخبرت أنه كان يشرب نحو رطل ونصف من السمن بعد غذائه على عادة الحبشة ببلادهم ،وكان له ابن يدانيه في الشجاعة ،فاتفق أنه أغار مرة في جماعة من عبيده على قرية للكفار فوقع به الفرس في مطمورة ،واجتمع عليه أهل القرية فضربه أحدهم بقتارة، والقتارة حديدة شبه سكة الحرث يدخل الرجل يده فيها فتكسو ذراعه ويفضل منها مقدار ذراعين وضربتها لاتبقي ،فقتله بتلك الضربة وقاتل عبيده أشد القتال فتغلبوا على القرية وقتلوا رجالها وسبوا نساءها وما فيها، وأخرجوا الفرس من المطمورة سالما، فأتوا به ولده فكان من الإتفاق الغريب أنه ركب الفرس وتوجه إلى دهلي فخرج عليه الكفار فقاتلهم حتى قتل وعاد الفرس إلى أصحابه فدفعوه إلى أهله فركبه صهر له فقتله الكفار عليه أيضا .

ثم سافرنا إلى مدينة كاليور ويقال فيه أيضا كيالير وهي مدينة كبيرة لها حصن منيع

منقطع في رأس شاهق على بابه صورة فيل وفيّال من الحجارة .. وأمير هذه المدينة أحمد بن سيرخان فاضل كان يكرمني أيام إقامتي عنده قبل هذه السفرة ،ودخلت عليه يوما وهو يريد توسيط رجل من الكفار فقلت له بالله لا تفعل ذلك؛ فإني ما رأيت أحدا قط يقتل بمحضري فأمر بسجنه وكان ذلك سبب .

ثم رحلنا من مدينة كاليور إلى مدينة برون (= نرور)مدينة صغيرة للمسلمين بين بلاد الكفار أميرها محمد بن بيرم التركي الأصل، والسباع بها كثيرة .وذكر لي بعض أهلها أن السبع كان يدخل إليها ليلا وأبوابها مغلقة فيفترس الناس حتى قتل من أهلها كثيرا ،وكانوا يعجبون في شأن دخوله .وأخبرني محمد التوفيري من أهلها وكان جارا لي بها أنه دخل داره ليلا وافترس صبيا من فوق السرير، وأخبرني غيره أنه كان مع جماعة في دار عرس فخرج أحدهم لحاجة فافترسه، فخرج أصحابه في طلبه فوجدوه مطرحا بالسوق وقد شرب دمه ولم يأكل لحمه، وذكروا أنه كذلك فعله بالناس .ومن العجب أن بعض الناس أخبرني أن الذي يفعل ذلك ليس بسبع وإنما هو آدمي من السحرة المعروفين بالجوكية يتصور في صورة سبع، ولما أخبرت بذلك أنكرته، وأخبرني به جماعة.

ولنذكر بعضا من أخبار هؤلاء السحرة، وهؤلاء الطائفة تظهر منهم عجائب منها أن أحدهم يقيم الأشهر لا يأكل ولا يشرب ،وكثير منهم تحفر لهم حفر تحت الأرض وتبنى عليه فلا يترك له إلا موضع يدخل منه الهواء، ويقيم به الشهور. وسمعت أن بعضهم يقيم كذلك سنة ،ورأيت بمدينة منجرور رجلا من المسلمين ممن يتعلم منهم، قد رفعت له طبلة وأقام بأعلاها لا يأكل ولا يشرب مدة خمسة وعشرين يوما، وتركته كذلك فلا أدري كم أقام بعدي. والناس يذكرون أنهم يركِّبون حبوبا يأكلون الحبة منها لأيام معلومة أو شهر؛ فلا يحتاج في تلك المدة إلى طعام ولا شراب ويخبرون بأمور مغيبة ،والسلطان يعظمهم ويجالسهم ومنهم من يقتصر في أكله على البقل ،ومنهم من لا يأكل اللحم وهم الأكثرون ،والظاهر من حالهم أنهم عودوا أنفسهم الرياضة ولا حاجة لهم في الدنيا وزينتها، ومنهم من ينظر إلى الإنسان فيقع ميتا من نظرته .وتقول العامة: إنه إذا قتل بالنظر وشق عن صدر

الميت وجد دون قلب ،ويقولون أُكل قلبه وأكثر ما يكون هذا في النساء والمرأة التي تفعل ذلك تسمى كفتار .

ولما وقعت المجاعة العظمى ببلاد الهند بسبب القحط والسلطان ببلاد التِّلنك(= مملكة هندية عاصمتها وارانكل) نفذ أمره أن يعطى لأهل دهلي ما يقوتهم بحساب رطل ونصف للواحد في اليوم فجمعهم الوزير ووزع المساكين منهم على الأمراء والقضاة ليتولوا إطعامهم، فكان عندي منهم خمسمائة نفس ،فعمّرت لهم سقائف في دارين ،وأسكنتهم بها .وكنت أعطيهم نفقة في خمسة أيام ،فلما كان في بعض الأيام أتوني بامرأة منهم ،وقالوا : إنها كفتار ،وقد أكلتْ قلب صبي كان إلى جانبها وأتوا بالصبي ميتا ،فأمرتهم أن يذهبوا إلى نائب السلطان فأمر باختبارها؛ وذلك بأن ملأوا أربع جرات بالماء وربطوها بيديها ورجليها وطرحوها في نهر الجون فلم تغرق، فعُلم أنها كفتار. ولو لم تطف على الماء لم تكن بكفتار، فأمر بإحراقها بالنار ،وأتى أهل البلد رجالا ونساء ،فأخذوا رمادها ،وزعموا أنه مَن تبخر به أمن في تلك السنة من سحر كفتار.

بعث إلي السلطان يوما وأنا عنده بالحضرة، فدخلت عليه وهو في خلوة وعنده بعض خواصه ورجلان من هؤلاء الجوكية، وهم يلتحفون بالملاحف ويغطون رؤوسهم لأنهم ينتفونها بالرماد كما ينتف الناس آباطهم، فأمرني بالجلوس ،فجلست ،فقال لهما :إن هذا العزيز من بلاد بعيدة فأرياه ما لم يره، فقالا : نعم، فتربع أحدهما ثم ارتفع عن الأرض حتى صار في الهواء فوقنا متربعا ،فعجبت منه وأدركني الوهم فوقعت إلى الأرض، فأمر السلطان أن أسقى دواء عنده، فأفقت وقعدت وهو على حاله متربع فأخذ صاحبه نعلا له من شكارة كانت معه ،فضرب بها الأرض كالمغتاظ فصعدت إلى أن علت فوق عنق المتربع، وجعلت تضرب في عنقه ،وهو ينزل قليلا قليلا حتى جلس معنا .فقال السلطان: إن المتربع هو تلميذ صاحب النعل ،ثم قال: لولا أني أخاف على عقلك لأمر تهم أن يأتوا بأعظم مما رأيت ،فانصرفت عنه وأصابني الخفقان ،ومرضت حتى أمر لي بشربة أذهبت ذلك عني .

ولنعد لما كنا بسبيله ،فنقول :سافرنا من مدينة برون إلى منزل أمواري ثم منزل كجرا

(=خَجُرة)وبه حوض عظيم طوله نحو ميل ،وعليه الكنائس(= المعابد) فيها الأصنام قد مثّل بها المسلمون ،وفي وسطه ثلاث قباب من الحجارة الحمر على ثلاث طباق وعلى أركانه الرابعة أربع قباب .ويسكن هنالك جماعة من الجوكية ،وقد لبدوا شعورهم ،وطالت حتى صارت في طولهم وغلبت عليهم صفرة الألوان من الرياضة وكثير من المسلمين يتبعونهم ليتعلموا منهم، ويذكرون أن من كانت به عاهة من برص أو جذام يأوي إليه مدة طويلة فيبرأ بإذن الله تعالى .وأول ما رأيت هذه الطائفة بمحلة السلطان طرمشيرين ملك تركستان ،وكانوا نحو خمسين فحفر لهم غار تحت الارض وكانوا مقيمين به لا يخرجون إلا لقضاء حاجة ،ولهم شبه القرن يضربونه أول النهار وآخره وبعد العتمة،وشأنهم كله عجب، ومنهم الرجل الذي صنع للسلطان غياث الدين الدامغاني سلطان بلاد المعبر حبوبا يأكلها تقوية على الجماع ،وكان من أخلاطها برادة الحديد، فأعجبه فعلها فأكل منها أزيد من مقدار الحاجة فمات ،وولي ابن أخيه ناصر الدين؛ فأكرم هذا الجوكي ورفع قدره .

ثم سافرنا إلى مدينة جنديري(= في إقليم كونا) مدينة عظيمة لها أسواق حافلة يسكنها أمير أمراء تلك البلاد عز الدين البنتاني، وهو المدعو بأعظم ملك ،وكان خيرا فاضلا يجالس أهل العلم .وممن كان يجالسه الفقيه عز الدين الزبيري، والفقيه العالم وجيه الدين البياني نسبة إلى مدينة بيانة . .والفقيه القاضي المعروف بقاضي خاصة وإمامهم شمس الدين، وكان النائب عنه على أمور المخزن يسمى قمر الدين ونائبه على أمور العسكر سعادة التلنكي من كبار الشجعان وبين يديه تعرض العساكر وأعظم ملك لا يظهر إلا في يوم الجمعة أو في غيرها نادرا .

ثم سرنا من جنديري إلى مدينة ظهار، وهي مدينة المالوه أكبر عمالة تلك البلاد وزرعها كثير خصوصا القمح ،ومن هذه المدينة تحمل أوراق التنبول إلى دهلي، وبينهما أربعة وعشرون يوما وعلى الطريق بينهما أعمدة منقوش عليها عدد الأميال فيما بين كل عمودين فإذا أراد المسافر أن يعلم عدد ما سار في يومه وما بقي له إلى المنزل أو إلى المدينة التي يقصدها قرأ النقش الذي في الأعمدة فعرفه .ومدينة ظهار إقطاع للشيخ إبراهيم الذي من أهل ذيبة المهل.

كان الشيخ إبراهيم قدم على هذه المدينة ونزل بخارجها ،فأحيا أرضا مواتا هنالك، وصار يزرعها بطيخا فتأتي في الغاية من الحلاوة ليس بتلك الأرض مثلها، ويزرع الناس بطيخا فيما يجاوره فلا يكون مثله، وكان يعطم الفقراء والمساكين فلما قصد السلطان إلى بلاد المعبر أهدى إليه هذا الشيخ بطيخا فقبله واستطابه وأقطعه مدينة ظهار، وأمره أن يعمر زاوية بربوة يشرف عليها فعمرها أحسن عمارة، وكان بطعم بها الوارد والصادر وأقام على ذلك أعواما ثم قدم على السلطان وحمل إليه ثلاثة عشر لكا، فقال: هذا فضل مما كنت أطعمه الناس، وبيت المال أحق به .فقبضه منه، ولم يعجب السلطان فعله لكونه جمع المال ولم ينفق جميعه في إطعام الطعام .

وبهذه المدينة أراد ابن أخت الوزير خواجة جهان أن يفتك بخاله، ويستولي على أمواله ويسير إلى القائم ببلاد المعبر، فنمي خبره إلى خاله فقبض عليه وعلى جماعة من الأمراء وبعثهم إلى السلطان فقتل الأمراء، ورد ابن أخته اليه فقتله الوزير ،ولما رد ابن أخت الوزير إليه أمر به أن يقتل كما قتل أصحابه ،وكانت له جارية يحبها فاستحضرها وأطعمها التنبول وأطعمته وعانقها مودعا، ثم طُرح للفيلة ،وسلخ جلده ومليء تبنا ،فلما كان من الليل خرجت الجارية من الدار فرمت بنفسها في بئر هنالك تقرب من الموضع الذي قتل فيه؛ فوجدت ميتة من الغد، فأخرجت ودفن لحمه معها في قبر واحد وسمى ذلك" قبور عاشقان" وتفسير ذلك بلسانهم قبر العاشقين .

وثم سافرنا من مدينة ظهار الى مدينة أُجين مدينة حسنة كثيرة العمارة، وكان يسكنها الملك ناصر الدين بن عين الملك من الفضلاء الكرماء العلماء استشهد بجزيرة سندابور حين افتتاحها وقد زرت قبره هنالك .. وبهذه المدينة كان سكنى الفقيه الطبيب جمال الدين المغربي الغرناطي الأصل .

ثم سافرنا من مدينة أجين إلى مدينة دولة آباد(= ديوجير، فتحها المسلمون في عام ٦٩٣هـ=١٢٩٤م) وهي المدينة الضخمة العظيمة الشأن الموازية لحضرة دهلي في رفعة قدرها واتساع خطتها ،وهي منقسمة ثلاثة اقسام :أحدها دولة آباد ،وهو مختص بسكنى

السلطان وعساكره ،والقسم الثاني اسمه الكتكه(= المعسكر الملكي ، بالسنسكريتية)، والقسم الثالث قلعتها التي لا مثل لها ولا نظير في الحصانة ،وتسمى الدُّويقير وبهذه المدينة سكنى الخان الأعظم قطلو خان معلم السلطان وهو أميرها والنائب عن السلطان بها وببلاد صاغر وبلاد التلنك وما أضيف إلى ذلك، وعمالتها مسيرة ثلاثة أشهر عامرة كلها لحكمه ونوابه فيها. وقلعة الدويقير التي ذكرناها في قطعة حجر في بسيط من الأرض قد نحتت وبني بأعلاها قلعة يصعد إليها بسلم مصنوع من جلود ويرفع ليلا ،ويسكن بها المفردون وهم الزمَّاميون(=جنود الزّمام) بأولادهم ،وفيها سجن أهل الجرائم العظيمة في جُبُوب بها، وبها فيران ضخام أعظم من القطوط ،والقطوط تهرب منها ولا تطيق مدافعتها لأنها تغلبها ولا تصاد إلا بحيل تدار عليها، وقد رأيتها هناك فعجبت منها .أخبرني الملك خطّاب الأفغاني أنه سجن مرة في جب بهذه القلعة يسمى جب الفيران، قال: فكانت تجتمع علي ليلا لتأكلني فأقاتلها ،وألقي من ذلك جهدا ،ثم إني رأيت في النوم قائلا يقول لي :اقرأ سورة الإخلاص مائة ألف مرة ،ويفرج الله عنك .قال فقرأتها فلما أتممتها أُخرجت، وكان سبب خروجي أن الملك ملّ كان مسجونا في جب يجاورني، فمرض وأكلت الفيران أصابعه وعينيه ،فمات فبلغ ذلك السلطان، فقال: أخرجوا خطابا لئلا يتفق له مثل ذلك .وإلى هذه القلعة لجأ ناصر الدين بن ملك ملّ المذكور والقاضي جلال حين هزمهما السلطان .وأهل بلاد دولة آباد هم قبيل المرهَته الذين خص الله نساءهم بالحسن وخصوصا في الأنوف والحواجب، ولهن من طيب الخلوة والمعرفة بحركات الجماع ما ليس لغيرهن. وكفار هذه المدينة أصحاب تجارات وأكثر تجاراتهم في الجوهر وأموالهم طائلة وهم يسمون الساهة واحدهم ساه ،وهم مثل الاكارم(= هم تجار عَدَن) بديار مصر.

وبدولة آباد العنب والرمان ،ويثمران مرتين في السنة وهي من أعظم البلاد مجبى وأكبرها خراجا لكثرة عمارتها واتساع عمالتها .وأخبرت أن بعض الهنود التزم مغارمها وعمالتها جميعا، وهي كما ذكرناه مسيرة ثلاثة أشهر بسبعة عشر كرورا والكرور مائة لك ولك مائة ألف دينار، ولكنه لم يف بذلك فبقي عليه بقية، وأخذ ماله وسلخ جلده. وبمدينة دولة آباد

سوق للمغنين والمغنيات تسمى سوق طرب آباد من أجمل الأسواق وأكبرها فيه الدكاكين الكثيرة كل دكان له باب يفضي إلى دار صاحبه ،وللدار باب سوى ذلك ، والحانوت مزين بالفرش وفي وسطه شكل مهد كبير تجلس فيه المغنية أو ترقد وهي متزينة بأنواع الحلي وجواريها يحركن مهدها ،وفي وسط السوق قبة عظيمة مفروشة مزخرفة يجلس فيها أمير المطربين بعد صلاة العصر من يوم كل خميس، وبين يديه خدامه ومماليكه، وتأتي المغنيات طائفة بعد أخرى فيغنين بين يديه ويرقصن إلى وقت المغرب ثم ينصرف ،وفي تلك السوق المساجد للصلاة ويصلي الأئمة فيها التراويح في شهر رمضان . وكان بعض سلاطين الكفار بالهند إذا مر بهذه السوق ينزل بقبتها ويغني المغنيات بين يديه وقد فعل ذلك بعض سلاطين المسلمين أيضا .

من دولة آباد إلى بلاد المليبار

ثم سافرنا إلى مدينة نَذَرْبار مدينة صغيرة يسكنها المرهته وهم أهل الإتقان في الصنائع والأطباء والمنجمون وشرفاء المرهته هم البراهمة ،وهم الكتريون(= طائفة دينية) أيضا وأكلهم الأرز والخضر ودهن السمسم، ولا يرون بتعذيب الحيوان ولا ذبحه ويغتسلون للأكل كغسل الجنابة، ولا ينكحون في أقاربهم إلا فيمن كان بينهم وبينه سبعة أجداد ،ولا يشربون الخمر وهي عندهم أعظم المعايب ،وكذلك هي ببلاد الهند عند المسلمين ومَن شربها من مسلم حُد ثمانين جلدة وسجن في مطمورة ثلاثة أشهر لا تفتح عليه إلا حين طعامه .

ثم سافرنا من هذه المدينة إلى مدينة صاغَر(= صونغارا) وهي مدينة كبيرة على نهر كبير يسمى أيضا صاغر كاسمها، وعليه النواعير والبساتين فيها العنبا والموز وقصب السكر وأهل هذه المدينة أهل صلاح ودين وأمانة وأحواله كلها مرضية ،ولهم بساتين فيها الزوايا للوارد والصادر وكل من يبني زاوية يحبس البستان عليها ويجعل النظر فيه لأولاده فإن انقرضوا عاد النظر للقضاة ،والعمارة بها كثيرة والناس يقصدونها للتبرك بأهلها ولكونها محررة من المغارم والوظائف .

وثم سافرنا من صاغر المذكورة إلى مدينة كنباية(= كمباي) وهي على خور من البحر، وهو شبه الوادي تدخله المراكب ،وبه المد والجزر. وعاينت المراكب به مرساة في الوحل حين الجزر فإذا كان المدّ عامت في الماء، وهذه المدينة من أحسن المدن في إتقان البناء وعمارة المساجد؛ وسبب ذلك أن أكثر سكانها التجار الغرباء فهم أبدا يبنون بها الديار الحسنة والمساجد العجيبة ،ويتنافسون في ذلك. ومن الديار العظيمة بها دار الشريف السامري الذي اتفقت لي معه قضية الحلواء وكذّبه ملك الندماء .ولم أر قط أضخم من الخشب الذي رأيته بهذه الدار ،وبابها كأنه باب مدينة وإلى جانبها مسجد عظيم يعرف باسمه ،ومنها دار ملك التجار الكازروني وإلى جانبها مسجده ،ومنها دارشمس الدين كلاه نور، ومعناه خياط الشواشي. ولما وقع ما قدمناه من مخالفة القاضي جلال الأفغاني أراد شمس الدين المذكور والناخوذة إلياس ،وكان من كفار أهل هذه المدينة وملك الحكماء الذي تقدم ذكره على أن يمتنعوا منه بهذه المدينة وشرعوا في حفر خندق عليها إذ لا سور لها، فتغلب عليهم ودخلها واختفى الثلاثة المذكورون في دار واحدة ،وخافوا أن يتطلع عليهم فاتفقوا على ان يقتلوا أنفسهم فضرب كل واحد منهم صاحبه بقتارة. . فمات اثنان منهم ولم يمت ملك الحكماء ،وكان من كبار التجار أيضا بها نجم الدين الجيلاني وكان حسن الصورة كثير المال وبنى بها دارا عظيمة ومسجدا ثم بعث السلطان عنه وأمره عليها وأعطاه المراتب؛ فكان ذلك سبب تلف نفسه وماله.

وكان أمير كنباية حين وصلنا إليها مقبل التلنكي، وهو كبير المنزلة عند السلطان، وكان صحبته الشيخ زاده الأصبهاني نائبا عنه في جميع أمره، وهذا الشيخ له أموال عظيمة وعنده معرفة بأمور السلطنة ،ولا يزال يبعث الأموال إلى بلاده، ويتحيّل في الفرار، وبلغ خبره إلى السلطان وذُكر عنه أنه يروم الهروب فكتب إلى مقبل أن يبعثه على البريد وأُحضر بين يدي السلطان ووكِّل به. والعادة عنده أنه متى وكل بأحد فقلما ينجو، فاتفق هذا الشيخ مع الموكل به على مال يعطيه إياه وهربا جميعا. وذكر لي أحد الثقات أنه رآه في ركن مسجد بمدينة قلهات(= في عُمان) وأنه وصل بعد ذلك إلى بلاده فحصل على أمواله وأمن مما كان يخافه.

وأضافنا الملك مقبل يوما بداره فكان من النادر أن يجلس قاضي المدينة ،وهو أعور العين اليمنى وفي مقابلته شريف بغدادي شديد الشبه به في صورته وعوره إلا أنه أعور اليسرى؛فجعل الشريف ينظر إلى القاضي ويضحك، فزجره القاضي فقال له :لا تزجرني فإني أحسن منك ،قال :كيف ذلك ؟ قال: لأنك أعور اليمنى ،وأنا أعور اليسرى، فضحك الأمير والحاضرون وخجل القاضي ولم يستطع أن يرد عليه لأن الشرفاء ببلاد الهند معظمون أشد التعظيم . وكان بهذه المدينة من الصالحين الحاج ناصر من أهل ديار بكر وسكناه بقبة من قباب الجامع دخلنا إليه وأكلنا من طعامه واتفق له لما دخل القاضي جلال مدينة كنباية حين خلافه أنه أتاه وذُكر للسلطان أنه دعا له ؛فهرب لئلا يقتل كما قتل الحيدري. وكان بها أيضا من الصالحين التاجر خواجة إسحاق وله زاوية يطعم فيها الوارد والصادر وينفق على الفقراء والمساكين، وماله على هذا ينمّى ويزيد كثرة .

وسافرنا من هذه المدينة إلى بلدة كاوي(=كافا على مصب نهر ماهي) وهي على خور فيه المد والجزر وهي بلاد الري جالنَسي الكافر، وسنذكره. وسافرنا منها إلى مدينة قندهار(= ميناء هام على مصب نهر داندار)، وهي مدينة كبيرة للكفار على خور من البحر وسلطان قندهار كافر اسمه جالنسي ،وهو تحت حكم الإسلام ويعطي لملك الهند هدية كل عام ،ولما وصلنا إلى قندهار خرج إلى استقبالنا وعظمنا أشد التعظيم وخرج عن قصره فأنزلنا به، وجاء إلينا من عنده كبار المسلمين كأولاد خواجة بُهرة(طائفة دينية تتمركز في كوجرات وبومباي ، وهم من الإسماعيلية)ومنهم الناخوذة إبراهيم له ستة من المراكب مختصة له .

ومن هذه المدينة ركبنا البحر ،وركبنا في مركب لإبراهيم المذكور يسمى الجَاكر وجعلنا فيه من خيل الهدية سبعين فرسا ،وجعلنا باقيها مع خيل أصحابنا في مركب لأخي إبراهيم المذكور يسمى مَنُورت ،وأعطانا جالنسي مركبا جعلنا فيه ظهير الدين وسنبل وأصحابهما، وجهزه لنا بالماء و الزاد والعلف، وبعث معنا ولده في مركب يسمى العُكيري وهو شبه الغراب إلا أنه أوسع منه، وفيه ستون مجذافاً، ويسقف حين القتال حتى لا ينال الجذافين شيء من السهم ولا الحجارة ،وكان ركوبي أنا في الجاكر ،وكان فيه خمسون راميا

وخمسون من المقاتلة الحبشة، وهم زعماء هذا البحر. وإذا كان بالمركب أحد منهم تحاماه لصوص الهنود وكفارهم .

ووصلنا بعد يومين إلى جزيرة بيرم(= على خليج كنباية، كانت معقلا للقراصنة) وهي خالية، وبينها وبين البر أربعة أميال فنزلنا بها ،واستقينا الماء من حوض بها، وسبب خرابها أن المسلمين دخلوها على الكفار فلم تعمر بعد. وكان ملك التجار الذي تقدم ذكره أراد عمارتها وبنى سورها وجعل بها المجانيق وأسكن بها بعض المسلمين .

ثم سافرنا منها ووصلنا في اليوم الثاني إلى مدينة قوقة(=شمال بيرم) وهي مدينة كبيرة عظيمة الأسواق ،أرسينا على أربعة أميال منها بسبب الجزر ،ونزلت في عشاري مع بعض أصحابي حين الجزر لأدخل إليها فوحل العشاري في الطين ؛وبقي بيننا وبين البلد نحو ميل ،فكنت لما نزلنا في الوحل أتوكأ على رجلين من أصحابي ،وخوفني الناس من وصول المد قبل وصولي إليها وأنا لا أحسن السباحة ،ثم وصلت إليها وطفت بأسواقها ،ورأيت بها مسجدا ينسب للخضر و إلياس عليهما السلام ،صليت به المغرب ،ووجدت به جماعة من الفقراء الحيدرية مع شيخ لهم ثم عدت إلى المركب .وسلطانها كافر يسمى دُنكُول وكان يظهر الطاعة لملك الهند وهو في الحقيقة عاص .

ولما أقلعنا عن هذه المدينة وصلنا بعد ثلاثة أيام إلى جزيرة سندابور(=في خليج كوا ، فتحها المسلمون عام ٧١٢هـ=١٣١٢م) وهي جزيرة في وسطها ست وثلاثون قرية ويدور بها خور، وإذا كان الجزر فماؤها عذب طيب، وإذا كان المد فهو ملح أجاج ،وفي وسطها مدينتان :إحداهما قديمة من بناء الكفار، والثانية بناها المسلمون عند استفتاحهم لهذه الجزيرة الفتح الأول، وفيها مسجد جامع عظيم يشبه مساجد بغداد عمّره الناخوذة (= الربّان)حسن والد السلطان جمال الدين محمد الهنوري، وسيأتي ذكره وذكر حضوري معه تفتح الجزيرة الفتح الثاني إن شاء الله .

وتجاوزنا هذه الجزيرة لما مررنا بها ورسينا على جزيرة صغيرة قريبة من البر(= جزيرة أنجيديف) فيها كنيسة وبستان وحوض ماء ووجدنا فيها أحد الجوكية، ولما نزلنا بهذه

الجزيرة الصغرى وجدنا بها جوكيا مستندا إلى حائط بدخانة(= معبد) وهي بيت الأصنام وهو فيها بين صنمين منها ،وعليه أثر المجاهدة فكلمناه فلم يتكلم، ونظرنا هل معه طعام فلم نر معه طعاما ،وفي حين نظرنا صاح صيحة عظيمة فسقطت عند صياحه جوزة من جوز النارجيل بين يديه ودفعها لنا فعجبنا من ذلك ودفعنا له دنانير ودراهم فلم يقبلها ،وأتيناه بزاد فردّه ،وكانت بين يديه عباءة من صوف الجمال مطروحة فقلّبتُها بيدي؛ فدفعها لي وكانت بيدي سبحة زيلع(=نوع من الودع) فقلّبها في يدي؛ فأعطيته إياها ففركها بيده وشمها وقبلها وأشار إلى السماء ثم إلى سمت القبلة، فلم يفهم أصحابي إشارته ،وفهمت أنا عنه أنه أشار أنه مسلم يخفي إسلامه من أهل تلك الجزيرة ،ويتعيش من تلك الجوز .ولمّا وادعناه قبّلت يده؛ فأنكر أصحابي ذلك ،ففهم إنكارهم فأخذ يدي وقبّلها وتبسّم وأشار لنا بالانصراف، فانصرفنا. وكنت آخر أصحابي خروجا فجذب ثوبي فرددت رأسي إليه فأعطاني عشرة دنانير، فلما خرجنا عنه قال لي أصحابي :لم جذبك؟ فقلت لهم: أعطاني هذه الدنانير، وأعطيت لظهير الدين ثلاثة منها ،ولسنبل ثلاثة، وقلت لهما: الرجل مسلم،ألا ترون كيف أشار إلى السماء يشير إلى أنه يعرف الله تعالى، وأشار إلى القبلة يشير إلى معرفة الرسول عليه السلام، وأخذه السبحة يصدّق ذلك. فرجعا لما قلت لهما ذلك إليه فلم يجداه، وسافرنا تلك الساعة .

وبالغد وصلنا إلى مدينة هِنور(= هونافار، على مصب نهر شاراواتي)) وهي على خور كبير تدخله المراكب الكبار والمدينة على نصف ميل من البحر، وفي أيام البُشكال وهو المطر يشتد هيجان هذا البحر وطغيانه فيبقى مدة أربعة أشهر لا يستطيع أحد ركوبه إلا للتصيد فيه. وفي يوم وصلنا إليها جاءني أحد الجوكية من الهنود في خلوة، وأعطاني ستة دنانير،وقال لي : البرهمي بعثها إليك ، يعني الجوكي الذي أعطيته السبحة وأعطاني الدنانير، فأخذتها منه وأعطيته دينارا منها فلم يقبله وانصرف، وأخبرت أصحابي بالقضية، وقلت لهما: إن شئتما فخذا نصيبكما منها فأبيا وجعلا يعجبان من شأنه، وقالا لي :إن الدنانير الستة التي أعطيتنا إياها جعلنا معها مثلها وتركناها بين الصنمين حيث

وجدناه ،فطال عجبي من أمره واحتفظت بتلك الدنانير التي أعطانيها.

وأهل مدينة هنور شافعية المذهب لهم صلاح ودين وجهاد في البحر وقوة ،وبذلك عرفوا حتى أذلهم الزمان بعد فتحهم لسندابور، وسنذكر ذلك .ولقيت من المتعبدين بهذه المدينة الشيخ محمد الناقوري أضافني بزاويته ، وكان يطبخ الطعام بيده استقذارا للجارية والغلام، ولقيت بها الفقيه إسماعيل معلم كتاب الله تعالى، وهو ورع حسن الخلق كريم النفس، والقاضي لها نور الدين عليا، والخطيب ولا أذكر اسمه .ونساء هذه المدينة وجميع هذه البلاد الساحلية لا يلبسن المخيط(= الساري) ،وإنما يلبسن ثيابا غير مخيطة تحتزم إحداهن بأحد طرفي الثوب وتجعل باقيه على رأسها وصدرها، ولهن جمال وعفاف، وتجعل إحداهن خُرص(=ناث) ذهب في أنفها .ومن خصائصهن أنهن جميعا يحفظن القرآن الكريم. ورأيت بالمدينة ثلاثة عشر مكتبا لتعليم البنات وثلاثة وعشرين لتعليم الأولاد، ولم أر ذلك في سواها، ومعاش أهلها من التجارة في البحر ولا زرع لهم ،وأهل بلاد المليبار يعطون للسلطان جمال الدين في كل عام شيئا معلوما خوفا منه لقوته في البحر وعسكره نحو ستة آلاف بين فرسان ورجالة.

ذكر سلطان هِنّور

هو السلطان جمال الدين محمد بن حسن من خيار السلاطين وكبارهم ،وهو تحت حكم سلطان كافر يسمى هَرْيَب. السلطان جمال الدين مواظب للصلاة في الجماعة وعادته أن يأتي إلى المسجد قبل الصبح فيتلو في المصحف حتى يطلع الفجر، فيصلي أول الوقت ثم يركب إلى خارج المدينة، ويأتي عند الضحى فيبدأ بالمسجد فيركع فيه ثم يدخل إلى قصره ،وهو يصوم الأيام البيض .وكان أيام إقامتي عنده يدعوني للإفطار معه فأحضر لذلك، ويحضر الفقيه علي، والفقيه إسماعيل، فتوضع أربعة كراسي صغار على الأرض فيقعد على احداها ويقعد كل واحد منا على كرسي ،وترتيبه أن يؤتى بمائدة نحاس يسمونها خونجة(=خوان) ويجعل عليها طبق نحاس يسمونه الطالم، وتأتي جارية حسنة ملتحفة

بثوب حرير فتقدم قدور الطعام بين يديه ،ومعها مغرفة نحاس كبيرة فتغرف بها من الأرز مغرفة واحدة وتجعلها في الطالم ،وتصب فوقها السمن، وتجعل مع ذلك عناقيد الفلفل المملوح والزنجبيل الأخضر والليمون المملوح والعنبا، فيأكل الإنسان لقمة ويتبعها بشيء من تلك الموالح، فإذا تمت الغرفة التي جعلتها في الطالم غرفت غرفة أخرى من الأرز وأفرغت دجاجة مطبوخة في سُكُرجة فيؤكل بها الأرز أيضا فإذا تمت المغرفة الثانية ،غرفت وأفرغت لونا آخر من الدجاج تؤكل به فإذا تمت ألوان الدجاج أتوا بألوان من السمك فيأكلون بها الأرز أيضا ،فإذا فرغت ألوان السمك أتوا بالخضر مطبوخة بالسمن والألبان فيأكلون بها الأرز، فإذا فرغ ذلك كله أتوا بالكوشان، وهو اللبن الرائب وبهذا يختمون طعامهم ،فإذا وضع علم أنه لم يبق شيء يؤكل بعده، ثم يشربون على ذلك الماء الساخن لأن الماء البارد يضرّ بهم في فصل نزول المطر .

ولقد أقمت عند هذا السلطان في كرّة أُخرى أحد عشر شهرا لم آكل خبزا، إنما طعامهم الأرز. وبقيت ،أيضا بجزائر المهل وسيلان وبلاد المعبر والمليبار ثلاث سنين لا آكل فيها الارز حتى كنت لا أستسيغه إلا بالماء. ولباس هذا السلطان ملاحف الحرير والكتان الرقاق يشد في وسط فوطة ويلتحف ملحفتين إحداهما فوق الأخرى ويقص شعره ويلف عليه عمامة صغيرة، وإذا ركب لبس قباء والتحف بملحقتين فوقه ،وتضرب بين يديه طبول وأبواق يحملها الرجال. وكانت إقامتنا عنده في هذه المرة ثلاثة أيام، وزودنا وسافرنا عنه .

الذهاب إلى مدينة قالقوط

وبعد ثلاثة أيام وصلنا إلى بلاد المليبار وهي بلاد الفلفل، وطولها مسيرة شهرين على ساحل البحر من سندابور إلى كولم، و الطريق في جميعها بين ظلال الأشجار وفي كل نصف ميل بيت من الخشب فيه دكاكين يقعد عليها كل وارد وصادر من مسلم وكافر، وعند كل بيت منها بئر يشرب منها، ورجل كافر موكل بها فمَن كان كافرا سقاه في الأواني ومَن كان مسلما سقاه في يديه، ولا يزال يصب له حتى يشير له أن يكف .وعادة الكفار ببلاد المليبار أن لا يدخل المسلم دورهم ولا يطعم في آنيتهم، فإن طعم فيها كسروها أو

أعطوها للمسلمين .وإذا دخل المسلم موضعا منها لا يكون فيه دار للمسلمين وطبخوا له الطعام وصبوه له على أوراق الموز وصبوا عليه الإدام ،وما فضل عنه يأكلونه الكلاب والطير، وفي جميع المنازل بهذا الطريق ديار المسلمين ينزل عندهم المسلمون فيبيعون منهم جميع ما يحتاجون إليه ،ويطبخون لهم الطعام ولولاهم لما سافر فيه مسلم. وهذا الطريق الذي ذكرنا أنه مسيرة شهرين ليس فيه موضع شبر فما فوقه دون عمارة وكل إنسان له بستانه على حدة وداره في وسطه وعلى الجميع حائط خشب، والطريق يمر في البساتين فإذا انتهى إلى حائط بستان كان هنالك درج خشب يصعد عليها، ودرج آخر ينزل عليها إلى البستان الآخر هكذا مسيرة الشهرين .

ولا يسافر أحد في تلك البلاد بدابة ولا تكون الخيل إلا عند السلطان، وأكثر ركوب أهلها في دولة على رقاب العبيد أو المستأجرين، ومَن لم يركب في دولة مشي على قدميه كائنا مَن كان، ومَن كان له رحل أو متاع من تجارة وسواها اكترى رجالا يحملونه على ظهورهم فترى هنالك التاجر ومعه المائة فما دونها أو فوقها يحملون أمتعته وبيد كل واحد منهم عود غليظ له زجٌّ حديد ،وفي أعلاه مخطاف حديد فإذا أعيا ولم يجد دكَّانة يستريح عليها ركز عوده بالأرض وعلق حمله منه، فإذا استراح أخذ حمله من غير معين ومضى به .ولم أر طريقا آمن من هذا الطريق ،وهم يقتلون السارق على الجوزة الواحدة ؛فإذا سقط شيء من الثمار لم يلتقطه أحد حتى يأخذه صاحبه. وأخبرت أن بعض الهنود مروا على الطريق فالتقط أحدهم جوزة وبلغ خبره إلى الحاكم فأمر بعود فركز في الأرض وبرى طرفه الأعلى وأدخل في لوح خشب حتى برز منه ،ومُد الرجل على اللوح وركز في العود وهو على بطنه حتى خرج من ظهره ،وترك عبرة للناظرين، ومن هذه العيدان على هذه الصورة بتلك الطرق كثيرا ليراها الناس فيتّعظوا. ولقد كنا نلقى الكفار بالليل في هذه الطريق فإذا رأونا تنحوا عن الطرق حتى نجوز. والمسلمون أعز الناس بها غير أنهم كما ذكرناه لا يؤاكلونهم ولا يدخلونهم دورهم .

وفي بلاد المليبار اثنا عشر سلطانا من الكفار منه القوي الذي يبلغ عسكره خمسين ألفا

ومنهم الضعيف الذي عسكره ثلاثة آلاف ،ولا فتنة بينهم البتة ولا يطمع القوي منهم في انتزاع ما بيد الضعيف . وبين بلاد أحدهم وصاحبه باب خشب منقوش فيه اسم الذي هو مبدأ عمالته ،ويسمونه باب أمان فلان . وإذا فر مسلم أو كافر بسبب جناية من بلاد أحدهم ووصل باب أمان الآخر أمن على نفسه ولم يستطع الذي هرب عنه أخذه وإن كان القوي صاحب العدد والجيوش ،وسلاطين تلك البلاد يورثون ابن الأخت ملكهم دون أولادهم(= لأن الانتساب للأم) ،ولم أر من يفعل ذلك إلا مسوّفة أهل اللثام وسنذكرهم(= يقصد قبائل البربر من الطوارق غرب الصحراء الكبرى، وسيزورهم في رحلته إلى قلب إفريقية) فيما بعد فإذا أراد السلطان من أهل بلاد المليبار منع الناس من البيع والشراء أمر بعض غلمانه فعلق على الحوانيت بعض أغصان الأشجار بأوراقها فلا يبيع أحد ولا يشتري ما دامت عليها تلك الأغصان ، وشجرات الفلفل شبيهة بدوالي العنب وهم يغرسونها إزاء النارجيل فتصعد فيها كصعود الدوالي إلا إنها ليس لها عسلوج وهو الغزل كما للدوالي ،وأوراق شجره تشبه آذان الخيل وبعضها يشبه أوراق العليق، ويثمر عناقيد صغارا حبها كحب أبي قُنَينَة (= نبات جبلي معروف في شمال المغرب)إذا كانت خضراء وإذا كان أوان الخريف قطفوه وفرشوه على الحصر في الشمس كما يصنع بالعنب عند تزبيبه، ولا يزالون يقلبونه حتى يستحكم يبسه ويسود، ثم يبيعونه من التجار. والعامة ببلادنا يزعمون أنهم يغلونه بالنار؛ وبسبب ذلك يحدث فيه التكريش، وليس كذلك؛ وإنما يحدث ذلك فيه بالشمس ،ولقد رأيته بمدينة قالقوط يصب للكيل كالذرة ببلادنا .

وأول مدينة دخلناها من بلاد المليبار مدينة أبي سرور(= بارسيلور) وهي صغيرة على خور كبير كثيرة أشجار النارجيل ،وكبير المسلمين بها الشيخ جمعة المعروف بأبي ستة ،أحد الكرماء أنفق أمواله على الفقراء والمساكين .وبعد يومين منها وصلنا إلى مدينة فاكنور(= باركور) مدينة كبيرة على خور بها قصب السكر الكثير الطيب الذي لا مثل له بتلك البلاد،وبها جماعة من المسلمين يسمى كبيرهم بحسين السلاط، وبها قاض وخطيب وعمّر بها حسين المذكور مسجدا لإقامة الجمعة .وسلطان فاكنور كافر اسمه باسدو وله نحو ثلاثين

مركبا حربية قائدها مسلم يسمى لولا ،وكان من المفسدين يقطع بالبحر ويسلب التجار. ولما أرسينا على فاكنور بعث سلطانها إلينا ولده فأقام بالمركب كالرهينة، ونزلنا إليه فأضافنا ثلاثا بأحسن ضيافة تعظيما لسلطان الهند، وقياما بحقه ورغبة فيما يستفيده في التجارة مع أهل مراكبنا .ومن عادتهم هنالك أن كل مركب يمر ببلد فلا بد من إرسائه بها وإعطائه هدية لصاحب البلد يسمونها حق البندر، ومن لم يفعل ذلك خرجوا في إتباعه بمراكبهم وأدخلوه المرسى قهرا وضاعفوا عليه المغرم ،ومنعوه عن السفر ما شاؤوا .

وسافرنا منها فوصلنا بعد ثلاثة أيام مدينة منجرور(=مانجالور) مدينة كبيرة على خور يسمى خور الدنب، وهو أكبر خور ببلاد المليبار، وبهذه المدينة ينزل معظم تجار فارس واليمن، والفلفل والزنجبيل بها كثير جدا. وسلطانها هو أكبر سلاطين تلك البلاد واسمه رام دو، وبها نحو أربعة آلاف من المسلمين يسكنون ربضا بناحية المدينة ،وربما وقعت الحرب بينهم وبين أهل المدينة فيصلح السلطان بينهم لحاجته إلى التجار، وبها قاض من الفضلاء الكرماء شافعي المذهب يسمى بدر الدين المعبري ،وهو يقرئ العلم. صعد إلينا إلى المركب ورغب في النزول إلى بلده، فقلنا: حتى يبعث السلطان ولده يقيم بالمركب ،فقال: إنما فعل ذلك سلطان فاكنور لأنه لا قوة للمسلمين في بلده ،وأما نحن فالسلطان يخافنا، فأبينا عليه إلا أن يبعث السلطان ولده فبعث ولده كما فعل الآخر، ونزلنا إليهم وأكرمونا إكراما عظيما وأقمنا عنده ثلاثة أيام .

ثم سافرنا إلى مدينة هيلي(= إيلي) فوصلناها بعد يومين وهي كبيرة حسنة العمارة على خور عظيم تدخله المراكب الكبار، وإلى هذه المدينة تنتهي مراكب الصين، ولا تدخل إلا مرساها ومرسى كولم وقالقوط. ومدينة هيلي معظمة عند المسلمين والكفار بسبب مسجدها الجامع فإنه عظيم البركة مشرق النور، وركاب البحر ينذرون له النذور الكثيرة ،وله خزانة مال عظيمة تحت نظر الخطيب حسين، وحسن الوزان كبير المسلمين. وبهذا المسجد جماعة من الطلبة يتعلمون العلم ولهم مرتبات من مال المسجد ،وله مطبخة فيها الطعام للوارد والصادر ولإطعام الفقراء من المسلمين بها ،ولقيت بهذا المسجد فقيها صالحا

من أهل مقدشو(= في الصومال) يسمى سعيدا حسن اللقاء والخلق يسرد الصوم، ويذكر لي أنه جاور بمكة أربع عشرة سنة ومثلها بالمدينة، وأدرك الأمير بمكة أبا نُمّي ،والأمير بالمدينة منصور بن جماز، وسافر في بلاد الهند والصين .

ثم سافرنا من هيلي إلى مدينة جُرفتين ،وبينها هيلي ثلاثة فراسخ و،لقيت بها فقيها من أهل بغداد كبير القدر يعرف بالصرصري نسبه إلى بلدة على مسافة عشرة أميال من بغداد في طريق الكوفة واسمها كاسم صرصر التي عندنا بالمغرب ،وكان له أخ بهذه المدينة كثير المال له أولاد صغار أوصى إليه بهم وتركته آخذا في حملهم إلى بغداد. وعادة أهل الهند كعادة السودان لا يتعرضون لمال الميت ولو ترك الآلاف إنما يبقى ماله بيد كبير المسلمين حتى يأخذه مستحقه شرعا .وسلطانها يسمى بكويل وهو من أكبر سلاطين المليبار وله مراكب كثيرة تسافر إلى عمان وفارس واليمن ومن بلاده دَه فتن وبُدَّفتن وسنذكهما .

وسرنا من جرفتن إلى مدينة دَهْ فتّن وهي مدينة كبيرة على خور كثيرة البساتين وبها النارجيل والفلفل والفوفل والتنبول وبها القلقاس الكثير ويطبخون به اللحم، وأما الموز فلم أر في البلاد أكثر منه بها ولا أرخص ثمن، وفيها الباين الأعظم(= الصهريج) طوله خمسمائة وعرضه ثلاثمائة خطوة، وهو مطوي بالحجارة الحمر المنحوتة وعلى جوانبة ثمان وعشرون قبة من الحجر في كل قبة أربعة مجالس من الحجر، وكل قبة يصعد إليها على درج حجارة وفي وسطه قبة كبيرة من ثلاث طبقات في كل طبقة أربعة مجالس.

وذكر لي أن والد هذا السلطان كويل هو الذي عمّر هذا الباين وبإزائه مسجد للمسلمين وله أدراج ينزل منها إليه فيتوضأ منه الناس ويغتسلون. وحدثني الفقيه حسين أن الذي عمّر المسجد والباين أيضا هو أحد أجداد كويل، وأنه كان مسلما .ولإسلامه خبر عجيب نذكره. ورأيت أنا بإزاء هذا الجامع شجرة خضراء ناعمة تشبه أوراقها أوراق التين إلا أنها لينة وعليها حائط يطيف بها، وعندها محراب صليت فيه ركعتين واسم هذه الشجرة عندهم دَرَخْت الشهادة ،وأخبرت هنالك أنه إذا كان زمان الخريف من كل سنة تسقط من هذه الشجرة ورقة واحد بعد أن يستحيل لونها إلى الصفرة ثم إلى الحمرة ويكون فيها

مكتوبا بقلم القدرة" لا اله الا الله محمد رسول الله " ،وأخبرني الفقيه حسين وجماعة من الثقات أنهم عاينوا هذه الورقة وقرأوا المكتوب الذي فيها. وأخبرني أنه إذا كانت أيام سقوطها قعد تحتها الثقات من المسلمين والكفار فإذا سقطت أخذ المسلمين نصفها ،وجعل نصفها في خزانة السلطان الكافر، وهم يستشفون بها للمرضى، وهذه الشجرة كانت سبب إسلام جد كويل الذي عمّر المسجد والباين؛ فإنه كان يقرأ الخط العربي فلما قرأها وفهم ما فيها أسلم وحسن إسلامه. وحكايته عندهم متواترة. وحدثني الفقيه حسين أن أحد أولاده كفر بعد أبيه وطغى وأمر باقتلاع الشجرة من أصلها فاقتلعت ولم يترك لها أثر ،ثم إنها نبتت بعد ذلك ،وعادت كأحسن ما كانت عليه ،وهلك الكافر سريعا .

ثم سافرنا إلى مدينة بدفتن، وهي مدينة كبيرة على خور كبير وبخارجها مسجد بمقربة من البحر يأوي إليه غرباء المسلمين لأنه لا مسلم بهذه المدينة ،ومرساها من أحسن المراسي وماؤها عذب والفوفل بها كثير ومنها يحمل للهند والصين وأكثر أهلها براهمة ،وهم معظمون عند الكفار مبغضون في المسلمين ولذلك ليس بينهم مسلم، أخبرت أن سبب تركهم هذا المسجد غير مهدوم أن أحد البراهمة خرب سقفه ليصنع منه سقفا لبيته فاشتعلت النار في بيته فاحترق هو وأولاده ومتاعه؛ فاحترموا هذا المسجد ولم يتعرضوا له بسوء بعدها وخدموه وجعلوا بخارجه الماء يشرب منه الصادر والوارد وجعلوا على بابه شبكة لئلا يدخله الطير.

ثم سافرنا من مدينة بُدفتن إلى مدينة فندرينا(= بانتالايني) مدينة كبيرة ذات بساتين وأسواق وبها للمسلمين ثلاث محلات وفي كل محلة مسجد والجامع بها على الساحل وهو عجيب له مناظر ومجالس على البحر ،وقاضيها وخطيبها رجل من أهل عمان وله أخ فاضل، وبهذه البلدة تشتو مراكب الصين.

محاولة الذهاب إلى الصين وفشلها

ثم سافرنا منها إلى مدينة قالقوط (= كاليكوت)وهي إحدى البنادر العظام ببلاد المليبار يقصدها أهل الصين والجاوة وسيلان والمهل وأهل اليمن وفارس ،ويجتمع بها تجار الآفاق

ومرساها من أعظم مراسي الدنيا، وسلطانها كافر يعرف بالسَّامري ،شيخ مسن يحلق لحيته كما يفعل طائفة من الروم رأيته بها. وسنذكره إن شاء الله. وأمير التجار بها إبراهيم شاه بندر من أهل البحرين فاضل ذو مكارم يجتمع إليه التجار، ويأكلون في سماطه، وقاضيها فخر الدين عثمان فاضل كريم، وصاحب الزاوية بها الشيخ شهاب الدين الكازروني، وله تعطى النذور التي ينذر بها أهل الهند والصين للشيخ أبي إسحاق الكازوني نفع الله به .وبهذه المدينة الناخوذة مثقال الشهير الاسم صاحب الأموال الطائلة والمراكب الكثيرة لتجارته بالهند والصين واليمن وفارس ،ولما وصلنا إلى هذه المدينة خرج إلينا إبراهيم شاه بندر، والقاضي والشيخ شهاب الدين وكبار التجار، ونائب السلطان الكافر المسمى بقلاج ،ومعهم الأطبال والأنفار والأبواق والأعلام في مراكبهم، ودخلنا المرسى في بروز عظيم ما رأيت مثله بتلك البلاد؛ فكانت فرحة تتبعها ترحة .وأقمنا بمرساها وبه يومئذ ثلاثة من مراكب الصين ،ونزلنا بالمدينة وجعل كل واحد منا في دار ،وأقمنا ننتظر زمان السفر إلى الصين ثلاثة أشهر ونحن في ضيافة الكافر.

وبحر الصين لا يسافر فيه إلا بمراكب الصين، ولنذكر ترتيبها ومراكب الصين ثلاثة أصناف: والكبار منها تسمى الجنوك واحدها جنك، والمتوسطة تسمى الزو، والصغار يسمى أحدها الككم .ويكون في المركب الكبير منها اثنا عشر قلعا فما دونها إلى ثلاثة وقلعها من قضبان الخيزران منسوجة كالحصر لا تحط أبدا ,ويديرونها بحسن دوران الريح وإذا أرسوا تركوها واقفة في مهب الريح ،ويخدم في المركب منها ألف رجل منهم البحرية ستمائة ومنهم أربعمائة من المقاتلة تكون فيهم الرماة وأصحاب الدرق والجرخية، وهم الذين يرمون بالنفط، ويتبع كل مركب كبير منها ثلاثة :النصفي والثلثي والربعي، ولا تصنع هذه المراكب إلا بمدينة الزيتون من الصين أو بصين كلان، وهي صين الصين(= كانتون). وكيفية إنشائها أنهم يصنعون حائطين من الخشب يصلون ما بينهما بخشب ضخام جدا موصولة بالعرض والطول بمسامير ضخام طول المسمار منها ثلاثة أذرع فإذا التأم الحائطان بهذه الخشب صنعوا على أعلاهما فرش المركب الأسفل ودفعوهما في البحر وأتموا

عمله، وتبقى تلك الخشب والحائطان موالية للماء ينزلون إليها فيغتسلون ويقضون حاجتهم ،وعلى جوانب تلك الخشب تكون مجاذيفهم وهي كبار كالصواري يجتمع على أحدها العشرة والخمسة عشر رجلا ويجذفون وقوفا على أقدامهم ويجعلون للمركب أربعة ظهور ،ويكون فيه البيوت والمصاري والغرف للتجارة ،والمصرية منها يكون فيها البيوت والسنداس وعليها المفتاح يسدها صاحبها ،ويحمل معه الجواري والنساء. وربما كان الرجل في مصريته فلا يعرف به غيره ممن يكون بالمركب حتى يتلاقيا إذا وصلا بعض البلاد. والبحرية يسكنون فيها أولادهم ويزرعون الخضر والبقول والزنجبيل في أحواض خشب، ووكيل المركب كأنه أمير كبير ،وإذا نزل إلى البر مشت الرماة والحبشة بالحراب والسيوف والأطبال والأبواق والانفار أمامه، وإذا وصل إلى المنزل الذي يقيم به ركزوا رماحهم عن جانبي بابه، ولا يزالون كذلك مدة إقامته. ومن أهل الصين مَن تكون له المراكب الكثيرة بعث بها وكلاءه إلى البلاد، وليس في الدنيا أكثر أموالا من أهل الصين.

ولما حان وقت السفر إلى الصين جهز لنا السلطان السامري جنكا من الجنوك الثلاثة عشر التي بمرسى قالقوط، وكان وكيل الجنك يسمى بسليمان الصفدي الشامي ،وبيني وبينه معرفة، فقلت له: أريد مصرية لا يشاركني فيها أحد لأجل الجواري، ومن عادتي أن لا أسافر إلا بهن ،فقال: إن تجار الصين قد اكتروا المصاري ذاهبين وراجعين ولصهري مصرية أعطيكها، لكنها لاسنداس فيها، وعسى أن تمكن معاوضتها ،فأمرت أصحابي فأوسقوا ما عندي من المتاع وصعد العبيد والجواري إلى الجنك ،وذلك في يوم الخميس وأقمت لأصلي الجمعة وألحق بهم، وصعد الملك سنبل، وظهير الدين مع الهدية، ثم إن فتى لي يسمى بهلال أتاني غدوة الجمعة، فقال: إن المصرية التي أخذنا بالجنك ضيقة لا تصلح، فذكرت ذلك للناخودة، فقال: ليست في ذلك حيلة، فإن أحببت أن تكون في الككم ففيه المصاري على اختيارك ،فقلت :نعم ،وأمرت أصحابي فنقلوا الجواري والمتاع إلى الككم، واستقروا به قبل صلاة الجمعة .وعادة هذا البحر أن يشتد هيجانه كل يوم بعد العصر فلا يستطيع أحد ركوبه، وكانت الجنوك قد سافرت ولم يبق منها إلا الذي فيه الهدية، وجنك

عزم أصحابه على أن يشتوا بفندرينا، والككم المذكور، فبتنا ليلة السبت على الساحل لا نستطيع الصعود إلى الككم، ولا يستطيع مَن فيه النزول إلينا ،ولم يكن بقي معي إلا بساط أفترشه وأصبح الجنك والككم يوم السبت على بعد من المرسى، ورمى البحر بالجنك الذي كان أهله يريدون فندرينا فتكسّر ومات بعض أهله وسلم بعضهم ،وكانت فيه جارية لبعض التجار عزيزة عليه فرغب في إعطاء عشرة دنانير ذهبا لمن يخرجها، وكانت قد التزمت خشبة في مؤخرة الجنك فانتدب لذلك بعض البحرية الهُرمُزيين ،فأخرجها وأبى أن يأخذ الدنانير، وقال :إنما فعلت ذلك لله تعالى، ولما كان الليل رمى البحر بالجنك الذي كانت فيه الهدية فمات جميع من فيه ،ونظرنا عند الصباح إلى مصارعهم، ورأيت ظهير الدين قد انشق رأسه وتناثر دماغه ،والملك سنبل قد ضرب مسمار في أحد صدغيه ونفذ من الآخر، وصلينا عليهما ودفناهما .ورأيت الكافر سلطان قالقوط وفي وسطه شقة بيضاء كبيرة قد لفها من سرته إلى ركبته ،وفي رأسه عمامة صغيرة وهو حافي القدمين والشطر بيد غلام فوق رأسه ،والنار توقد بين يديه في الساحل، وزبانيته يضربون الناس لئلا ينتهبوا ما يرمي البحر. وعادة بلاد المليبار أن كل ما انكسر من مركب يرجع ما يخرج منه للمخزن إلا في هذا البلد خاصة ،فإن ذلك يأخذه أربابه؛ ولذلك عمرت وكثر تردد الناس إليها. ولما رأى أهل الككم ما حدث على الجنك رفعوا قلعهم وذهبوا ومعهم جميع متاعي وغلماني وجواري ،وبقيت منفردا على الساحل ليس معي إلا فتى كنت أعتقته، فلما رأى ما حل بي ذهب عني ،ولم يبق عندي إلا العشرة الدنانير التي أعطانيها الجوكي، والبساط الذي كنت أفترشه. وأخبرني الناس أن ذلك الككم لا بد له أن يدخل مرسى كولم، فعزمت على السفر إليها وبينهما مسيرة عشر في البر أو في النهر أيضا لمن أراد ذلك، فسافرت في النهر واكتريت رجلا من المسلمين يحمل لي البساط .وعادتهم إذا سافروا في ذلك النهر أن ينزلوا بالعشي فيبيتوا بالقرى التي على حافتيه ،ثم يعودوا إلى المركب بالغدو فكنا نفعل ذلك ولم يكن بالمركب مسلم إلا الذي اكتريته، وكان يشرب الخمر عند الكفار إذا نزلنا ويعربد عليّ فيزيد تغير خاطري.

ووصلنا في اليوم الخامس من سفرنا إلى كنجي كري ،وهي بأعلى جبل هنالك يسكنها اليهود ،ولهم أمير منهم ويؤدون الجزية لسلطان كولم وجميع الأشجار التي على هذا النهر أشجار القرفة والبقم وهي حطبهم هنالك ،ومنها كنا نقد النار لطبخ طعامنا في ذلك الطريق.

وفي اليوم العاشر وصلنا إلى مدينة كولم (= كويلون)وهي أحسن بلاد المليبار وأسواقها حسان وتجارها يعرفون بالصُّوليين(=مسلمون من الطائفة الإمامية) لهم أموال عريضة يشتري أحدهم المركب بما فيه ويوسقه من داره بالسلع ،وبها من التجار المسلمين جماعة كبيرهم علاء الدين الآوجي من أهل آوة من بلاد العراق، وهو رافضي ومعه أصحاب له على مذهبه ،وهم يظهرون ذلك .وقاضيها فاضل من أهل قزوين، وكبير المسلمين بها محمد شاه بندر وله أخ فاضل كريم اسمه تقي الدين ،و المسجد الجامع بها عجيب، عمّره التاجر خواجه مهذب .وهذه المدينة أول ما يوالي الصين من بلاد المليبار وإليه يسافر أكثرهم والمسلمون بها أعزة محترمون وسلطانها كافر يعرف بالتيروري، وهو يعظِّم المسلمين ،وله أحكام شديدة على السراق والدعار. ومما شاهدت بكولم أن بعض الرماة العراقيين قتل آخر منهم وفر إلى دار الآوجي، وكان له مال كثير وأراد المسلمون دفن المقتول فمنعهم نواب السلطان من ذلك ،وقالوا: لا يدفن حتى تدفعوا لنا قاتله فيقتل به، وتركوه في تابوته على باب الآوجي حتى انتن وتغير ،فمكنهم الآوجي من القاتل ورغب منهم أن يعطيهم أمواله ويتركوه حيا فأبوا ذلك وقتلوه ،وحينئذ دفن المقتول. أخبرت أن سلطان كولم ركب يوما إلى خارجها وكان طريقه فيما بين البساتين ومعه صهره زوج بنته، وهو من أبناء الملوك فأخذ حبة واحدة من العنبة سقطت من بعض البساتين وكان السلطان ينظر اليه فأمر به عند ذلك فوسط وقسم نصفين وصلب نصفه عن يمين الطريق ونصفه الآخر عن يساره وقسمت حبة العنبة نصفين فوضع على كل نصف منها وترك عبرة للناظرين. ومما اتفق نحو ذلك بقالقوط أن ابن أخ للنائب عن سلطانها غصب سيفا لبعض تجار المسلمين فشكا بذلك إلى ابن عمه فوعده بالنظر في أمره وقعد على باب داره فإذا بابن أخيه متقلداً ذلك السيف فدعاه ،فقال :هذا

سيف المسلم ؟قال :نعم قال "اشتريته منه؟ قال: لا، فقال لأعوانه أمسكوه ،ثم أمر به فضربت عنقه بذلك السيف.

وأقمت بكولم مدة بزاوية الشيخ فخر الدين بن الشيخ شهاب الدين الكزورني شيخ قالقوط فلم أتعرف للككم خبرا ،وفي أثناء مقامي بهادخل إليها أرسال ملك الصين الذين كانوا معنا، وكانوا ركبوا في أحد تلك الجنوك فانكسر أيضا فكساهم تجار الصين ،وعادوا إلى بلادهم ،ولقيتهم بها بعد، وأردت أن أعود من كولم إلى السلطان لأعلمه بما اتفق على الهدية، ثم خفت أن يتعقب فعلي، ويقول لم فارقت الهدية فعزمت على العودة إلى السلطان جمال الدين الهنوري، وأقيم عنده حتى أتعرف خبر الككم.

فعدت إلى قالقوط ووجدت بها بعض مراكب السلطان فبعث فيها أميرا من العرب يعرف بالسيد أبي الحسن، وهو من البرددارية(= الحاجب السلطاني) وهم خواص البوابين بعثه السلطان بأموال يستجلب بها من قدر عليه من العرب من أرض هرمز والقطيف لمحبته في العرب ،فتوجهت إلى هذا الأمير ورأيته عازما على أن يشتو بقالقوط وحينئذ يسافر إلى بلاد العرب، فشاورته في العودة إلى السلطان فلم يوافق على ذلك ، فسافرت بالبحر من قالقوط، وذلك آخر فصل السفر فيه، فكنا نسير نصف النهار الأول ثم نرسو إلى الغد ،ولقينا في طريقنا أربعة أجفان غزوية فخفنا منها ثم لم يعرضوا لنا بشرّ .

ووصلنا إلى مدينة هنور فنزلت إلى السلطان ،وسلمت عليه فأنزلني بدار ،ولم يكن لي خديم ،وطلب مني أن أصلي معه الصلوات. وكنت أختم القرآن كل يوم ،ثم كنت أختم مرتين في اليوم أبتدئ القراءة بعد صلاة الصبح فأختم عند الزوال، وأجدد الوضوء وأبتدئ القراءة فأختم الختمة الثانية عند الغروب، ولم أزل كذلك مدة ثلاثة أشهر واعتكفت فيها أربعين يوما .وكان السلطان جمال الدين قد جهز اثنين وخمسين مركبا وسفرته برسم غزو سندابور ،وكان وقع بين سلطانها وولده خلاف ؛فكتب ولده إلى السلطان جمال الدين أن يتوجه لفتح سندابور ،ويسلم الولد المذكور ويزوجه السلطان أخته، فلما تجهزت المراكب ظهر لي أن أتوجه فيها إلى الجهاد ففتحت المصحف أنظر فيه فكان في أول الصفح يذكر

فيها اسم الله كثيرا "ولينصرن الله من ينصره "فاستبشرت بذلك وأتى السلطان إلى صلاة العصر فقلت له : إني أريد السفر، فقال :فأنت إذا تكون أميرهم، فأخبرته بما خرج لي في أول المصحف فأعجبه ذلك ،وعزم على السفر بنفسه ،ولم يكن ظهر له ذلك قبل ، فركب مركبا منها وأنا معه ،وذلك في يوم السبت فوصلنا عشي الاثنين إلى سندابور ودخلنا خورها، فوجدنا أهلها مستعدين للحرب وقد نصبوا المجانيق فبتنا عليها تلك الليلة ،فلما أصبح ضربت الطبول والأنفار والأبواق وزحفت المراكب ورموا عليها بالمجانيق فلقد رأيت حجرا أصاب بعض الواقفين بمقربة من السلطان ورمى أهل المراكب أنفسهم في الماء وبأيديهم الترسة والسيوف، ونزل السلطان إلى العكيري(= سفينة شراعية) وهو شبه الشلي(= مركب) ورميت بنفسي في الماء في جملة الناس ،وكان عندنا طريدتان مفتوحتي المواخر فيها الخيل وهي بحيث يركب الفارس فرسه في جوفها ويتدرع ويخرج ،ففعلوا ذلك وأذن الله في فتحها ،وأنزل النصر على المسلمين .فدخلنا بالسيف ودخل معظم الكفار في قصر سلطانهم فرمينا النار فيه فخرجوا وقبضنا عليهم، ثم إن السلطان أمنهم ورد لهم نساءهم وأولادهم وكانوا نحو عشرة آلاف، وأسكنهم بربض المدينة وسكن السلطان القصر، وأعطى الديار بمقربة منه لأهل دولته ،وأعطاني جارية منهن تسمى لَمْكي فسميتها مباركة، وأراد زوجها فداءها فأبيتُ، وكساني فرجية مصرية ووجدت في خزائن الكافر. وأقمت عنده بسندابور من يوم فتحها، وهو الثالث عشر لجمادى الأولى إلى منتصف شعبان(= من ١٥ أكتوبر١٣٤٢لغايةمنتصف يناير ١٣٤٣) وطلبت منه الإذن في السفر فأخذ علي العهد في العودة إليه.

وسافرت في البحر إلى هنور ثم إلى فاكنور ثم إلى منجرور ثم إلى هيلي ثم إلى جرفتن وده فتن وبدفتن وفندرينا وقالقوط ،وقد تقدم ذكر جميعها ، ثم إلى مدينة الشاليات(=شاليام) مدينة من حسان المدن تصنع بها الثياب المنسوبة لها ،وأقمت بها فطال مقامي ، فعدت إلى قالقوط، ووصل إليها غلامان كانا لي بالككم فأخبراني أن الجارية التي كانت حاملا وبسببها كان تغير خاطري توفيت، وأخذ صاحب الجاوة سائر الجواري واستولت الأيدي

على المتاع ،وتفرق أصحابي إلى الصين والجاوة وبنجالة ،فعدت لما تعرّفتُ هذا إلى هنور إلى سندابور ،فوصلتها في آخر المحرم وأقمت بها إلى الثاني من شهر ربيع الآخر (= من ٢٤ حزيران لغاية ٢٤ أغسطس ١٣٤٣)وقدم سلطانهم الكافر الذي دخلنا عليه برسم أخذها وهرب إليه الكفار كلهم وكانت عساكر السلطان متفرقة في القرى فانقطعوا عنا ،وحصرنا الكفار وضيقوا علينا ولما اشتد الحال خرجت عنها، وتركتها محصورة ، وعدت إلى قالقوط وعزمت على السفر إلى ذيبة المهل وكنت أسمع بأخبارها.

جزائر ذيبة المهل (= المالديف)

فبعد عشرة أيام من ركوبنا البحر بقالقوط وصلنا جزائر ذيبة المهل، وهذه الجزائر إحدى عجائب الدنيا، وهي نحو ألفي جزيرة ويكون منها مائة فما دونها مجتمعات مستديرة كالحلقة لها مدخل كالباب لا تدخل المراكب إلا منه وإذا وصل المركب إلى إحداها فلا بد له من دليل من أهلها يسير به إلى سائر الجزائر ،وهي من التقارب بحيث تظهر رؤوس النخل التي بإحداها عند الخروج من الأخرى فإن أخطأ المركب سمتها لم يمكنه دخولها وحملته الريح إلى المعبر أو سيلان(= جنوب الهند) وهذه الجزائر أهلها كلهم مسلمون ذوو ديانة وصلاح وهي منقسمة إلى أقاليم على كل إقليم وال يسمونه الكردوبي، ومن أقاليمها: إقليم بالبور ومنها كنلوس، ومنها إقليم المهل وبه تعرف الجزائر كلها وبها يسكن سلاطينها، ومنها إقليم تلاديب ،ومنها إقليم كرايدوا ،ومنها إقليم التيم، ومنها إقليم تلدمتي، ومنها إقليم هلدمتي ،ومنها إقليم بريدوا ،ومنها إقليم كند كل، ومنها إقليم ملوك ،ومنها إقليم السويد وهو أقصاها .

وهذه الجزائر كلها لا زرع بها إلا أن في إقليم السويد منها زرعا يشبه أنلي(= نوع من الحبوب) ويجلب منه إلى المهل وإنما أكل أهلها سمك يشبه البيرون(=سمك التن) يسمونه قلب الماس ولحمه أحمر ولا زفر له إنما ريحه كريح لحم الأنعام ،وإذا اصطادوه قطعوا السمكة منه أربع قطع وطبخوها يسيرا ،ثم جعلوه في مكاتيل من سعف النخل وعلقوه للدخان فإذا استحكم يبسه أكلوه(= تصبير السمك) ويحمل منها إلى الهند والصين واليمن ويسمونه

قلب الماس ومعظم أشجار هذه الجزائر النارجيل(= جوز الهند) وهو من أقواتهم مع السمك .. وأشجار النارجيل شأنها عجيب وتثمر النخل منها اثني عشر عذقا في السنة يخرج في كل شهر عذق فيكون بعضها صغيرا وبعضها كبيرا وبعضها يابسا وبعضها أخضر هكذا أبدا ،ويصنعون منه الحليب والزيت والعسل.. ويصنعون من عسله الحلواء فيأكلونها مع الجوز اليابس منه ولذلك كله وللسمك الذي يتغذون به قوة عجيبة في الباءة لا نظير لها ،ولأهل هذه الجزائر عجب في ذلك ،ولقد كان لي بها أربع نسوة وجوار سواهن ،فكنت أطوف على جميعهن كل يوم وأبيت عند من تكون ليلتها وأقمت بها سنة ونصف أخرى على ذلك .ومن أشجارها الجمون والأترج والليمون والقلقاص، وهم يصنعون من أصوله دقيقا يعملون منه شبه الأطرية ويطبخونها بحليب النارجيل وهي من أطيب الطعام كنت أستحسنها كثيرا وآكلها.

وأهل هذه الجزائر أهل صلاح وديانة وإيمان صحيح ونية صادقة أكلهم حلال ودعاؤهم مجاب وإذا رأى الإنسان أحدهم قال له :الله ربي ،ومحمد نبيي ،وأنا أميّ مسكين .وأبدانهم ضعيفة ولا عهد لهم بالقتال والمحاربة وسلاحهم الدعاء ،ولقد أمرت مرة بقطع يد سارق بها فغشى على جماعة منهم كانوا بالمجلس،ولا تطرقهم لصوص الهند ولا تذعرهم لأنهم جربوا أن من أخذ لهم شيئا أصابته مصيبة عاجلة ،وإذا أتت أجفان العدو إلى ناحيتهم أخذوا من وجدوا من غيرهم ولم يعرضوا لأحد منهم بسوء ،وإن أخذ أحد الكفار ولو ليمونة عاقبه أمير الكفار وضربه الضرب المبرح خوفا من عاقبة ذلك، ولولا هذا لكانوا أهون الناس على قاصدهم بالقتال لضعف بنيتهم. وفي كل جزيرة من جزائرهم المساجد الحسنة، وأكثر عمارتهم الخشب وهم أهل نظافة وتنّزه عن الأقذار، وأكثرهم يغتسلون مرتين في اليوم تنظفا لشدة الحر بها، وكثرة العرق . ويكثرون من الأدهان العطرية كالصندلية وغيرها ويتلطخون بالغالية المجلوبة من مقدشو.

ومن عادتهم أنهم إذا صلوا الصبح أتت كل امرأة إلى زوجها أو ابنها بالمكحلة وبماء الورد ودهن الغالية ،فيكحل عينيه ويدهن بماء الورد ودهن الغالية(= مزيج العنبر والمسك)

فتصقل بشرته وتزيل الشحوب عن وجهه ،ولباسهم فوط يشدون الفوطة منها على أوساطهم عوض السراويل، ويجعلون على ظهورهم ثياب الوليان(= الصداري)، وهي شبه الأحاريم وبعضهم يجعل عمامة وبعضهم منديلا صغيرا عوضا منها، وإذا لقي أحدهم القاضي أو الخطيب وضع ثوبه عن كتفيه وكشف ظهره ومضى معه كذلك حتى يصل إلى منزله.

ومن عوائدهم أنه إذا تزوج الرجل منهم ومضى إلى دار زوجته، بسطت له ثياب القطن من باب دارها إلى باب البيت، وجعل عليها غرفات من الودع عن يمين طريقه إلى البيت وشماله، وتكون المرأة واقفة عند باب البيت تنتظره فإذا وصل إليها رمت على رجليه ثوبا يأخذه خدامه، وإن كانت المرأة هي التي تأتي إلى منزل الرجل بسطت داره وجعل فيها الودع ،ورمت المرأة عند الوصول إليه الثوب على رجليه ،وكذلك عادتهم في السلام على السلطان عندهم لا بد من ثوب يرمى عند ذلك . .

وبنيانهم بالخشب ويجعلون سطوح البيوت مرتفعة عن الأرض توقيا من الرطوبات لأن أرضهم ندية ،وكيفية ذلك أن ينحتوا حجارة يكون طول الحجر منها ذراعين أو ثلاثة ويجعلونها صفوفا ،ويعرضون عليها خشب النارجيل، ثم يضعون الحيطان من الخشب ،ولهم صناعة عجيبة في ذلك ويبنون في أسطوان الدار بيتا يسمونه المالم(= المضيف) يجلس الرجل به مع أصحابه ويكون له بابان أحدهما إلى جهة الأسطوان يدخل منه الناس، والآخر إلى جهة الدار يدخل منه صاحبها ،ويكون عند هذا البيت خابية مملوءة ماء ولها مستقى يسمونه الولنج هو من قشر جوز النارجيل وله نصاب طوله ذراعان وبه يسقون الماء من الآبار لقربها . وجميعهم حفاة الأقدام من رفيع ووضيع وأزقتهم مكنوسة نقية تظللها الأشجار ،فالماشي بها كأنه في بستان ،ومع ذلك لا بد لكل داخل إلى الدار أن يغسل رجليه بالماء الذي في الخابية بالمالم ويمسحها بحصير غليظ من الليف يكون هنالك ثم يدخل بيته وكذلك يفعل كل داخل إلى المسجد .

ومن عوائدهم إذا قدم عليهم مركب أن تخرج إليه الكنادر، وهي القوارب الصغار

واحدها كندرة وفيها أهل الجزيرة معهم التنبول أو الكرنبة، وهي جوز النارجيل الأخضر فيعطي الإنسان منهم ذلك لمن شاء من أهل المركب، ويكون نزيله ويحمل أمتعته إلى داره كأنه بعض أقربائه، ومن أراد التزوج من القادمين عليهم تزوج فإذا حان سفره طلق المرأة لأنهن لا يخرجن عن بلادهن، ومن لم يتزوج فالمرأة التي ينزل بدارها تطبخ له وتخدمه وتزوده إذا سافر وترضى منه في مقابلة بأيسر شيء من الإحسان ، وفائدة المخزن ويسمونه البندر أن يشتري من كل سلعة بالمركب خطا بسوم معلوم سواء كانت السلعة تساوي ذلك أو أكثر منه ويسمونه شرع البندر ويكون للبندر بيت في كل جزيرة من الخشب يسمونه البجنصار(= المستودع) يجمع به الوالي وهو الكردوري جميع سلعه ويبيع بها ويشتري ،وهم يشترون الفخار إذا جلب إليهم بالدجاج فتباع عندهم القدر بخمس دجاجات وست ،وتحمل المراكب من هذه الجزائر السمك الذي ذكرناه وجوزالنارجيل والفوط والوليان والعمائم وهي من القطن، ويحملون منها أواني النحاس فإنها عندهم كثيرة ويحملون الودع ويحملون القنبر، وهو ليف جوز النارجيل وهم يدبغونه في حفر على الساحل ثم يضربونه بالمرازب ثم تغزله النساء وتصنع منه الحبال لخياطة المراكب وتحمل إلى الصين والهند واليمن وهو خير من القنب، وبهذه الحبال تخاط مراكب الهند واليمن؛ لأن ذلك البحر كثير الحجارة فإن كان المركب مسمّرا بمسامير الحديد صدم الحجارة فانكسر وإذا كان مخيطا بالحبال أعطى الرطوبة فلم ينكسر.

وصرف أهل هذه الجزائر الودع ،وهو حيوان يلتقطونه في البحر ويضعونه في حفر هنالك فيذهب لحمه ويبقى عظمه أبيض ويسمون المائة منه :سِياه ،ويسمون السبعمائة :منه الفال، ويسمون الاثني عشر ألفا منه : الكتي، ويسمون المائة ألف منه : بستوا. ويباع بها بقيمة أربعة بساتي بدينار من الذهب وربما رخص حتى يباع عشر بساتي منه بدينار ويبيعونه من أهل اليمن فيجعلونه عوض الرمل في مراكبهم، وهذا النوع أيضا هو صرف السودان في بلادهم رأيته يباع بمالي وجوجو بحساب ألف ومائة وخمسين للدينار الذهبي .ونساؤها لا يغطين رؤسهن ولا سلطانتهم تغطي رأسها، ويمشطن شعورهن ويجمعنها إلى

جهة واحدة ولا يلبسن اكثرهن إلا فوطه واحدة تسترها من السرة إلى أسفل وسائر أجسادهن مكشوفه وكذلك يمشين في الأسواق وغيرها.

ولقد جهدت لما وليت القضاء بها أن أقطع تلك العادة، وآمرهن باللباس فلم أستطع ذلك، فكنت لا تدخل إلي منهن امرأة في خصومه إلا مستترة الجسد ،وما عدا ذلك لم تكن لي عليهن قدرة. ولباس بعضهن قمص زائدة على الفوطه ،وقمصهن قصار الأكمام عراضها. وكان لي جوارٍ كسوتهن لباس أهل دهلي تغطين رؤسهن فعابهن ذلك أكثر مما زانهن إذ لم يتعودنه. وحليهن الأساور وتجعل المرأة منها جملة في ذراعيها بحيث تملأ ما بين الكوع والمرفق، وهي من الفضة ولا يجعل أساور الذهب إلا نساء السلطان وأقاربه ولهن الخلاخيل ويسمونها البايل، وقلائد ذهب يجعلنها على صدورهن ويسمونها البسدرد.

ومن عجيب أفعالهن أنهن يستأجرن أنفسهن للخدمة بالديار على عدد معلوم من خمسة دنانير فما دونها، وعلى مستأجرهن نفقتهن ولا يرين ذلك عيبا، ويفعله أكثر بناتهم، فتجد في دار الإنسان الغني منهن العشرة والعشرين، وكل ما تكسره من الأواني يحسب عليها قيمته. وإذا أرادت الخروج من دار إلى دار أعطاها أهل الدار التي تخرج إليها العدد الذي هي مرتهنة فيه فتدفعه لأهل الدار التي خرجت منها ويبقى عليها للآخرين وأكثر شغل هؤلاء المستأجرات غزل القنبر

والتزوج بهذه الجزائر سهل لنزارة الصداق وحسن معاشرة النساء ،وأكثر الناس يسمي صداقا إنما تقع الشهادة ويعطى صداق مثلها، وإذا قدمت المراكب تزوج أهلها النساء فإذا أرادوا السفر طلقوهن، وذلك نوع من نكاح المتعة. وهن لا يخرجن عن بلادهن أبدا. ولم أر في الدنيا أحسن معاشرة منهن ،ولا تكل المرأة عندهم خدمة زوجها إلى سواها بل هي تأتيه بالطعام وترفعه من بين يديه وتغسل يده ،وتأتيه بالماء للوضوء، وتغم رجليه عند النوم ،ومن عوائدهن أن لا تأكل المرأة مع زوجها، ولا يعلم الرجل ما تأكله المرأة. ولقد تزوجت بها نسوة فأكل معي بعضهن بعد محاولة وبعضهن لم تأكل معي ولا استطعت أن أراها تأكل ولا نفعتني حيلة في ذلك.

حدثني الثقات من أهلها كالفقية عيسى اليمني ،والفقيه المعلم علي، والقاضي عبد الله وجماعة سواهم أن هذه الجزائر كانوا كفاراً وكان يظهر لهم في شهر عفريت من الجن يأتي ناحية البحر كأنه مركب مملوء بالقناديل وكانت عادتهم إذا رأوه أخذوا جارية بكرا فزينوها وأدخلوها إلى بدخانة ،وهي بيت الأصنام، وكان مبنيا على ضفة البحر وله طاق ينظر إليه منه،ويتركونها هنالك ليلة ثم يأتون عند الصباح فيجدونها مفتضة ميتة ،ولا يزالون في كل شهر يقترعون بينهم فمن أصابته القرعة أعطى بنته،ثم إنه قدم عليهم مغربي يسمى بأبي البركات البربري، وكان حافظا للقرآن العظيم فنزل بدار عجوز منهم بجزيرة المهل فدخل عليها يوما وقد جمعت أهلها، وهن يبكين كأنهن في ماتم فاستفهمهنّ عن شأنهن فلم يفهمنه ،فأتى ترجمان فأخبره أن العجوز كانت القرعة عليها وليس لها إلا بنت واحدة يقتلها العفريب .فقال لها أبو البركات: أنا أتوجه عوضا من بنتك بالليل ،وكان سِنَاطا لا لحية له، فاحتملوه تلك الليلة وأدخلوه إلى بدخانه وهو متوضيء ،وأقام يتلو القرآن ثم ظهر له العفريت من الطاق فداوم التلاوة، فلما كان بحيث يسمع القراءة غاص في البحر. وأصبح المغربي وهو يتلو على حاله فجاءت العجوز وأهلها وأهل الجزيرة ليستخرجوا البنت على عادتهم فيحرقوها فوجدوا المغربيّ يتلو، فمضوا إلى ملكهم ،وكان يسمى شنورازة، وأعلموه بخبره فعجب منه، وعرض المغربي عليه الإسلام ورغّبه فيه ،فقال له أقم عندنا إلى الشهر الآخر فإن فعلت كفعلك ونجوت من العفريت أسلمت. فأقام عندهم وشرح الله صدر الملك للإسلام فأسلم قبل تمام الشهر، وأسلم أهله وأولاده وأهل دولته ثم حمل المغربي لما دخل الشهر إلى بدخانة، ولم يأتي العفريت فجعل يتلو حتى الصباح، وجاء السلطان والناس معه فوجدوه على حاله من التلاوة فكسروا الأصنام ،وهدموا البدخانة، وأسلم أهل الجزيرة، وبعثوا إلى سائر الجزائر فأسلم أهلها وأقام المغربي عندهم معظما وتمذهبوا بمذهبه مذهب الإمام مالك رضي الله عنه وهم إلى هذا العهد يعظمون المغاربة بسببه وبني مسجد هو معروف باسمه، وقرأت على مقصورة الجامع منقوشا في الخشب: أسلم السلطان أحمد شنورازة على يد أبي البركات البربري المغربي، وجعل ذلك السلطان ثلث مجابي الجزائر

صدقة على أبناء السبيل إذ كان إسلامه بسببهم، فسمي على ذلك حتى الآن ،وبسبب هذا العفريت خرب من هذه الجزائر كثير قبل الإسلام.

ولما دخلناها لم يكن لي علم بشأنه فبينا أنا ليلة في بعض شأني سمعت الناس يجهرون بالتهليل والتكبير ورأيت الأولاد وعلى رؤوسهم المصاحف والنساء يضربن في الطسوت وأواني النحاس فعجبت من فعلهم ،وقلت :ما شأنكم ؟فقالوا: الا تنظر إلى البحر؟ فنظرت فإذا مثل المركب الكبير وكأنه مملوءسرجا ومشاعل، فقالوا: ذلك العفريت، وعادته أن يظهر مرة في الشهر، فإذا فعلنا ما رأيت انصرف عنا ولم يضرنا .

ومن عجائبها أن سلطانتها امرأة ،وهي خديجة بنت السلطان جلال الدين عمر بن السلطان صلاح الدين صالح البنجالي، وكان الملك لجدها ثم لأبيها فلما مات أبوها ولي أخوها شهاب الدين، وهو صغير السن فتزوج الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي أمه وغلب عليه، وهو الذي تزوج أيضا هذه السلطانة خديجة بعد وفاة زوجها الوزير جمال الدين . . فلما بلغ شهاب الدين مبلغ الرجال أخرج ربيبه الوزير عبد الله ونفاه إلى جزائر السويد، واستقل بالملك واستوزر أحد مواليه ويسمى علي كلكي ،ثم عزله بعد ثلاثة أعوام ونفاه إلى السويد(= جزيرة على مقربة من خط الاستواء) وكان يذكر عن السلطان شهاب الدين المذكور أنه يختلف إلى حرم أهل دولته وخواصه بالليل ،فخلعوه لذلك ونفوه إلى إقليم هلدتني، وبعثوا من قتله بها ،ولم يكن بقي من بيت الملك إلا أخواته خديجة الكبرى ومريم وفاطمة ،فقدموا خديجة سلطانة، وكانت متزوجة لخطيبهم جمال الدين فصار وزيرا وغالبا على الأمر، وقدم ولده محمدا للخطابة عوضا عنه، ولكن الأوامر إنما تنفذ باسم خديجة،وهم يكتبون الاوامر في سعف النخل بحديدة معوجة شبه السكين، ولا يكتبون في الكاغد الا المصاحف وكتب العلم ،ويذكرهاالخطيب يوم الجمعة وغيرها فيقول: اللهم انصر أمتك التي اخترتها على علم العالمين ،وجعلتها رحمة لكافة المسلمين ألا وهي السلطانة خديجة بنت السلطان جلال الدين بن السلطان صلاح الدين .

ومن عادتهم إذا قدم الغريب عليهم ومضى إلى المشور ،وهم يسمونه الدار فلا بد له أن

يستصحب ثوبين فيخدم لجهة هذه السلطانة ويرمي بأحدهما ثم يخدم لوزيرها وهو زوجها جمال الدين ويرمي بالثاني. وعسكرها نحو ألف إنسان من الغرباء، وبعضهم بلديون ويأتون كل يوم إلى الدار فيخدمون وينصرفون ومرتبهم الأرز يعطاهم من البندر في كل شهر ،فإذا تم الشهر أتوا الدار وخدموا، وقالوا للوزير بلغ عنا الخدمة واعلم بأنا أتينا نطلب مرتبنا ،فيؤمر لهم بها عند ذلك ،ويأتي أيضا إلى الدار كل يوم القاضي وأرباب الخطط،وهم الوزراء عندهم، فيخدمون ويبلغ خدمتهم الفتيان وينصرفون ، وهم يسمون الوزير الأكبر النائب عن السلطانة كلكي، ويسمون القاضي فند يارقالوا، وأحكامهم كلها راجعة إلى القاضي، وهو أعظم عندهم من الناس أجمعين وأمره ممتثل كأمر السلطان وأشد، ويجلس على بساط في الدار وله ثلاث جزائر يأخذ مجباها لنفسه عادة قديمة أجراها السطان أحمد شنورازة، ويسمون الخطيب هند يجري، ويسمون صاحب الديوان الفاملداري ،ويسمون صاحب الأشغال مافاكلوا ،ويسمون الحاكم فتنايك ،ويسمون قائد البحر مانايك ،وكل هؤلاء يسمى وزيرا ،ولا سجن عندهم بتلك الجزائر إنما يحبس أرباب الجرائم في بيوت خشب هي معدة لأمتعة التجار، ويجعل أحدهم في خشبة كما يفعل عندنا بأسارى الروم.

مقام ابن بطوطة بجزائر ذيبة المهل

ولما وصلت إليها ،نزلت منها بجزيرة كنلوس(= يغلب أنه وصلها في نهاية عام ١٣٤٣م) وهي جزيرة حسنة فيها المساجد الكثيرة ونزلت بدار رجل من صلحائها ،وأضافني بها الفقيه علي، وكان فاضلا له أولاد من طلبة العلم ،ولقيت بها رجلا اسمه محمد من أهل ظفار الحموض، فأضافني ،وقال لي: إن دخلت جزيرة المهل أمسكك الوزير بها فإنهم لا قاضي عندهم ،وكان غرضي أن أسافر منها إلى المعبر وسرنديت وبنجالة ثم إلى الصين، وكان قدومي عليها في مركب الناخوذة عمر الهنوري، وهو من الحجاج الفضلاء. ولما وصلنا كنلوس أقام بها عشرا ثم اكترى كندرة يسافر فيها إلى المهل بهدية للسلطانة وزوجها

،فأردت السفر معه، فقال: لا تسعك الكندرة أنت وأصحابك ،فإن شئت السفر منفردا عنهم فدونك. فأبيت ذلك، وسافر فلعبت به الريح وعاد إلينا بعد أربعة أيام ،وقد لقي شدائد ،فاعتذر لي وعزم على في السفر معه بأصحابي ،فكنا نرحل غدوة فننزل في وسط النهار لبعض الجزائر ونرحل فنبيت بأخرى.

ووصلنا بعد أربعة أيام إلى إقليم التيم ،وكان الكردوي يسمى بها هلالا فسلم علي وأضافني وجاء إلي ومعه أربعة رجال وقد جعل اثنان منهم عودا على أكتافهما وعلقا منه أربع دجاجات، وجعل الآخران عودا مثله وعلقا منه نحو عشر من جوز النارجيل ،فعجبت من تعظيمهم لهذا الشيء الحقير فأخبرت أنهم صنعوه على جهة الكرامة والإجلال .

ورحلنا عنهم فنزلنا في اليوم السادس بجزيرة عثمان وهو رجل فاضل من خيار الناس فأكرمنا وأضافنا ، وفي اليوم الثامن نزلنا بجزيرة لوزير يقال له التلمدي ، وفي اليوم العاشر وصلنا إلى جزيرة المهل حيث السلطانة وزوجها، وأرسينا بمرساها وعادتهم أن لا ينزل أحد من المرسى إلا بإذنهم ،فأذنوا لنا في النزول وأردت التوجه إلى بعض المساجد، فمنعني الخدام الذين بالساحل، وقالوا :لا بد من الدخول إلى الوزير .وكنت أوصيت الناخوذة أن يقول إذا سئل عني :لا أعرفه ؛خوفا من إمساكهم إياي، ولم أعلم أن بعض أهل الفضول قد كتب إليهم معرفا بخبري، وأني كنت قاضيا بدهلي؛ فلما وصلنا إلى الدار وهو المشور نزلنا في سقائف على الباب الثالث منه، وجاء القاضي عيسى اليمني فسلم علي ،وسلمت على الوزير وجاء الناخوذة إبراهيم بعشرة أثواب فخدم لجهة السلطانة ورمى بثوب منها ،ثم خدم للوزير ورمى بثوب آخر، ورمى بجميعها. وسئل عني فقال: لا أعرفه ،ثم أخرجوا إلينا التنبول وماء الورد؛ وذلك هو الكرامة عندهم، وأنزلنا بدار، وبعث إلينا الطعام وهو قصعة كبيرة فيها الأرز، وتدور بها صحاف فيها اللحم والدجاج والسمن والسمك، ولما كان بالغد مضيت مع الناخوذة والقاضي عيسى اليمني لزيارة زاوية في طرف الجزيرة عمّرها الشيخ الصالح نجيب ،وعدنا ليلا، وبعث الوزير إلي صبيحة تلك الليلة كسوة وضيافة فيها الأرز والسمن والخليع وجوز النارجيل والعسل المصنوع منها، وهم يسمونه القرباني، ومعنى ذلك ماء السكر وأتوا بمائة ألف ودعة للنفقة.

وبعد عشرة أيام قدم مركب من سيلان فيه فقراء من العرب والعجم يعرفوني فعرفوا خدام الوزير بأمري فزاد اغتباطا بي ،وبعث عني عند استهلال رمضان (= يوافق ١٦ يناير ١٣٤٤)فوجدت الأمراء والوزراء وأحضر الطعام في موائد يجتمع على المائدة طائفة فأجلسني الوزير إلى جانبه ومعه القاضي عيسى والوزير الفاملداري والوزير عمر دهرد، ومعناه مقدم العسكر.وطعامهم الأرز والدجاج والسمن والسمك والخليع والموز المطبوخ ،ويشربون بعده عسل النارجيل مخلوطا بالأفاويه ،وهو يهضم الطعام .

وفي التاسع من شهر رمضان مات صهر الوزير زوج بنته، وكانت قبله عند السلطان شهاب الدين ولم يدخل بها أحد منهما لصغرها، فردها أبوها لداره، وأعطاني دارها وهي من أجمل الدور واستأذنته في ضيافة الفقراء القادمين من زيارة القدم (= من سيلان)فأذن لي في ذلك وبعث إلي خمسا من الغنم وهي عزيزة عندهم لأنها مجلوبة من المعبر والمليبار ومقدشو، وبعث الأرز والدجاج والسمن والأبازير ،فبعثت ذلك كله إلى دار الوزير سليمان مانايك ،فطبخ لي بها فأحسن في طبخه ،وزاد فيه وبعث الفرش وأواني النحاس، وأفطرنا على العادة بدار السلطانة مع الوزير واستأذنته في حضور بعض الوزراء بتلك الضيافة، فقال لي :وأنا أحضر أيضا، فشكرته وانصرفت إلى داري فإذا به قد جاء ومعه الوزراء وأرباب الدولة فجلس في قبة خشب مرتفعة ،وكان كل من يأتي من الأمراء والوزراء يسلم على الوزير ويرمي بثوب غير مخيط حتى اجتمع مائة ثوب أو نحوها فأخذها الفقراء وقدم الطعام فأكلوا ثم قرأ القراء بالأصوات الحسان ،ثم أخذوا في السماع والرقص وأعددت النار فكان الفقراء يدخلونها ويطؤونها بالأقدام، ومنهم من يأكلها كما تؤكل الحلواء إلى أن خمدت.

ولما تمت الليلة انصرف الوزير ومضيت معه فمررنا ببستان للمخزن، فقال لي الوزير: هذا البستان لك، وسأعمر لك فيه دار لسكناك. فشكرت فعله ودعوت له ،ثم بعث لي من الغد بجارية،وقال لي خديمه :يقول لك الوزير إن أعجبتك هذه فهي لك وإلا بعث لك جارية مرهتية، وكانت الجواري المرهتيات تعجبني، فقلت له: إنما أريد المرهتية فبعثها لي، وكان اسمها "كل أستان" ومعناه زهر البستان، وكانت تعرف اللسان الفارسي فأعجبتني، وأهل

تلك الجزائر لهم لسان لم أكن أعرفه، ثم بعث إلي في غد ذلك بجارية معبرية تسمى عنبري، ولما كانت الليلة بعدها جاء الوزير إلي بعد العشاء الأخيرة في نفر من أصحابه فدخل الدار ومعه غلامان صغيران فسلمت عليه، وسألني عن حالي فدعوت له وشكرته ،فألقى أحد الغلامين بين يديه لقشة ،وهي شبه السبنية(= صرّة كبيرة من القماش) وأخرج منها ثياب حرير وحقا فيه جوهر وحلي فأعطاني ذلك، وقال لي: لو بعثته لك مع الجارية، لقالت :هو مالي جئت به من دار مولاي، والآن هو مالك فأعطه إياها، فدعوت له وشكرته . وكان أهلا للشكر رحمه الله .

وكان الوزير سليمان مانايك قد بعث إلي أن أتزوج بنته، فبعثت إلى الوزير جمال الدين مستأذنا في ذلك فعاد إلي الرسول، وقال :لم يعجبه ذلك وهو يحب أن يزوجك بنته إذا انقضت عدتها، فأبيت أنا ذلك وخفت من شؤمها؛ لأنه مات تحتها زوجان قبل الدخول، وأصابتني أثناء ذلك حمى مرضت بها ،ولا بد لكل من يدخل تلك الجزيرة أن يحم(= حمى المالديف المشهورة) فقوي عزمي على الرحلة عنها ،فبعت بعض الحلي بالودع، واكتريت مركبا أسافر فيه لبنجالة؛ فلما ذهبت لوداع الوزير خرج إلي القاضي، فقال الوزير: يقول لك إن شئت السفر فأعطنا ما أعطيناك وسافر، فقلت له: إن بعض الحلي اشتريت به الودع فشأنكم وإياه، فعاد إلي فقال: يقول إنما أعطيناك الذهب ولم نعطك الودع ،فقلت له: أنا أبيعه وآتيكم بالذهب، فبعثت إلى التجار ليشتروه مني فأمرهم الوزير أن لا يفعلوا، وقصده بذلك كله أن لا أسافر عنه ،ثم بعث إلي أحد خواصه، وقال: الوزير يقول لك أقم عندنا ولك كل ما أحببت، فقلت: في نفسي أنا تحت حكمهم ،وإن لم أقم مختارا أقمت مضطرا ،فالإقامة باختياري أولى. وقلت لرسوله: نعم أنا أقيم معه ،فعاد إليه ففرح بذلك واستدعاني، فلما دخلت إليه قام إلي وعانقني، وقال: نحن نريد قربك وأنت تريد البعد عنا، فاعتذرت له فقبل عذري ،وقلت له: إن أردتم مقامي فأنا أشترط عليكم شروطا، فقال: نقبلها. فاشترط فقلت له: أنا لا أستطيع المشي على قدمي، ومن عادتهم أن لا يركب أحد هنالك إلا الوزير، ولقد كنت لما أعطوني الفرس فركبته يتبعني الناس رجالا وصبيانا يعجبون

مني حتى شكوت له، فضربت الدُّنقُرة وبرح في الناس أن لا يتبعني أحد، والدنقرة شبه الطست من النحاس تضرب بحديدة فيسمع لها صوت على البعد فإذا ضربوها حينئذ يبرح في الناس بما يراد ،فقال لي الوزير: إن أردت أن تركب الدولة وإلا فعندنا حصان ورمْكة ،فاختر أيهما شئت ،فاخترت الرمكة ،فأتوني بها في تلك الساعة وأتوني بكسوة، فقلت له: وكيف أصنع بالودع الذي اشتريته ؟فقال ابعث أحد أصحابك ليبيعه لك ببنجالة، فقلت له: على أن تبعث أنت من يعينه على ذلك، فقال: نعم، فبعثت حيئذ رفيقي أبا محمد بن فرحان ،وبعثوا معه رجلا يسمى الحاج عليّا، فاتفق أن هال البحر فرموا بكل ما عندهم حتى الزاد والماء والصاري والقربة ،وأقاموا ست عشرة ليلة لا قلع لهم ولا سكان ولا غيره ،ثم خرجوا إلى جزيرة سيلان بعد جوع وعطش وشدائد ،وقدم علي صاحبي أبو محمد بعد سنة، وقد زار القدم ،وزارها مرة ثانية معي .ولما تم شهر رمضان بعث الوزير إلي بكسوة ،وخرجنا إلى المصلى وقد زينت الطريق التي يمر الوزير عليها من داره إلى المصلى،وفرشت الثياب فيها، وجعلت كتاتي الودع يمنة ويسرة ،وكل من له على طريقه دار من الأمراء والكبار قد غرس عندها النخل الصغار من النارجيل وأشجار الفوفل والموز ومدّ من شجر إلى أخرى شرائط ،وعلق منها الجوز الأخضر ،ويقف صاحب الدار عند بابها فإذا مر الوزير رمى على رجليه ثوبا من الحرير أو القطن فيأخذها عبيده مع الودع الذي يجعل على طريقه أيضا ،والوزير ماش على قدميه وعليه فرجية مصرية من المرعز وعمامة كبيرة،وهو متقلد فوطة حرير ،وفوق رأسه أربعة شطور،وفي رجليه النعل وجميع الناس سواه حفاة والأبواق والأنفار والأطبال بين يديه والعساكر أمامه وخلفه ،وجميعهم يكبرون حتى أتوا المصلى، فخطب ولده بعد الصلاة ثم أتى بمحفة فركب فيها الوزير وخدم الأمراء والوزراء ورموا بالثياب على العادة ،ولم يكن ركب في المحفة قبل ذلك لأن ذلك لا يفعله إلا الملوك، ثم رفعه الرجال، وركبت فرسي ودخلنا القصر فجلس بموضع مرتفع وعنده الوزراء والأمراء، ووقف العبيد بالترسة والسيوف والعصي ،ثم أتي بالطعام ثم بالفوفل والتنبول ،ثم أتي بصحفة صغيرة فيها الصندل المقاصري، فإذا أكلت جماعة من الناس تلطخوا بالصندل

ورأيت على بعض طعامهم يومئذ حوتا من السردين مملوحا غير مطبوخ أهدي لهم من كولم ،وهو ببلاد المليبار كثير فأخذ الوزير سردينة ،وجعل يأكلها، وقال لي :كل منه فإنه ليس ببلادنا ،فقلت :كيف آكله وهو غير مطبوخ ؟فقال :إنه مطبوخ، فقلت: أنا أعرف به؛فإنه ببلادي كثير.

وفي الثاني من شوال(= ١٦ فبراير ١٣٤٤) اتفقت مع الوزير سليمان مانایاك على تزوج بنته؛ فبعث إلى الوزير جمال الدين أن يكون عقد النكاح بين يديه بالقصر فأجاب إلى ذلك وأحضر التنبول على العادة والصندل ،وحضر الناس وأبطأ الوزير سليمان فاستدعي فلم يأت ثم استدعي ثانية فاعتذر بمرض البنت ،فقال لي الوزير سرا: إن بنته امتنعت ،وهي مالكة أمر نفسها ،والناس قد اجتمعوا فهل لك أن تتزوج بربيبة السلطانة زوجة أبيها ،وهي التي ولده متزوج بنتها، فقلت له: نعم فاستدعى القاضي والشهود ووقعت الشهادة ،ودفع الوزير الصداق، ورفعت إلي بعد أيام فكانت من خيار النساء ،وبلغ حسن معاشرتها أنها كانت إذا تزوجتُ عليها تطيبني وتبخر أثوابي ،وهي ضاحكة لا يظهر عليها تغير ،ولما تزوجتها أكرهني الوزير على القضاء، وسبب ذلك اعتراضي على القاضي، ولكونه كان يأخذ العشر من التركات إذا قسمها على أربابها، فقلت له: إنما لك أجرة تتفق بها مع الورثة ،ولم يكن يحسن شيئا، فلما وليت اجتهدت جهدي في إقامة رسوم الشرع، وليست هنالك خصومات كما هي ببلادنا فأول ما غيرت من عوائد السوء مكث المطلقات في ديار المطلقين ،وكانت إحداهن لا تزال في دار المطلق حتى تتزوج غيره، فحسمت علة ذلك، وأتي إلي بنحو خمسة وعشرين رجلا ممن فعل ذلك فضربتهم وشهرتهم الأسواق، وأخرجت النساء عنهم، ثم اشتددت في إقامة الصلوات وأمرت الرجال بالمبادرة إلى الأزقة والأسواق أثر صلاة الجمعة ؛فمن وجدوه لم يصل ضربته وشهرته، وألزمت الأئمة والمؤذنين أصحاب المرتبات المواظبة على ما هم بسبيله، وكتبت إلى جميع الجزائر بنحو ذلك، وجهدت أن أكسو النساء فلم أقدر على ذلك .

وكنت قد تزوجت ربيبة بنت زوجة الوزير عبد الله بن محمد الحضرمي ، وأحببتها

حبا شديدا ،ولما بعث الوزير عنه ورده إلى جزيرة المهل ،بعثت له التحف وتلقيته ومضيت معه إلى القصر فسلم على الوزير وأنزله في دار جيدة ،فكنت أزوره بها، واتفق أن اعتكفت في رمضان فزارني جميع الناس إلا هو، وزارني الوزير جمال الدين فدخل هو معه بحكم الموافقة فوقعت بيننا الوحشة ،فلما خرجت من الاعتكاف شكا إلي أخوال زوجتي ربيبة أولاد الوزير جمال الدين السنجري فإن أباهم أوصى عليهم الوزير عبد الله وأن مالهم باق بيده، وقد خرجوا عن حجره بحكم الشرع وطلبوا إحضاره بمجلس الحكم ،وكانت عادتي إذا بعثت عن خصم من الخصوم أبعث له قطعة كاغد مكتوبة أو غير مكتوبة فعندما يقف عليها يبادر إلى مجلس الحكم الشرعي وإلا عاقبته، فبعثت إليه على العادة فأغضبه ذلك وحقدها لي وأضمر عداوتي ووكل من يتكلم عنه ،وبلغني عنه كلام قبيح، وكانت عادة الناس من صغير وكبير أن يخدموا له كما يخدمون للوزير جمال الدين خدمتهم بأن يواصلوا السبابة إلى الأرض ثم يقبلونها ويضعونها على رؤوسهم ،فأمرت المنادي فنادى بدار السلطان على رؤوس الأشهاد أنه من خدم للوزير عبد الله كما يخدم للوزير الكبير لزمه العقاب الشديد ،وأخذت عليه أن لا يترك الناس لذلك فزادت عداوته. وتزوجت أيضا زوجة أخرى بنت وزير معظم عندهم كان جده السلطان داود حفيد السلطان أحمد شنورازة، ثم تزوجت زوجة كانت تحت السلطان شهاب الدين وعمرت ثلاث ديار بالبستان الذي أعطانيه الوزير، وكانت الرابعة وهي ربيبة الوزير عبد الله تسكن في دارها وهي أحبهن إلي ،فلما صاهرت من ذكرته هابني الوزير وأهل الجزيرة وتخوفوا مني لأجل ضعفهم وسعوا بيني وبين الوزير بالنمائم ،وتولى الوزير عبد الله كبر ذلك حتى تمكنت الوحشة .

واتفق في بعض الأيام أن عبدا من عبيد السلطان جلال الدين شكته زوجته إلى الوزير وأعلمته أنه عنده سرّية من سراري السلطان يزني بها ،فبعث الوزير الشهود ودخلوا دار السُرّية فوجدوا الغلام نائما معها في فراش واحد ،وحبسوهما ،فلما أصبحت وعلمت بالخبر، توجهت إلى المشور وجلست في موضع جلوسي ،ولم أتكلم في شيء من أمرها فخرج إلي بعض الخواص، فقال: يقول لك الوزير ألك حاجة؟ فقلت: لا، وكان قصده أن

أتكلم في شأن السرية والغلام إذ كانت عادتي أن لا تقع قضية إلا حكمت فيها، فلما وقع التغير والوحشة قصرت في ذلك، فانصرفت إلى داري بعد ذلك، وجلست بموضع الأحكام، فإذا ببعض الوزراء، فقال لي: الوزير يقول لك أنه وقع البارحة كيت وكيت لقضية السرية والغلام فاحكم فيهما بالشرع ،فقلت له هذه قضية لا ينبغي الحكم أن يكون فيها إلا بدار السلطان، فعدت إليها واجتمع الناس، وأحضرت السرية والغلام ،فأمرت بضربهما للخلوة، وأطلقت سراح المرأة، وحبست الغلام، وانصرفت إلى داري فبعث الوزير إلي جماعة من كبراء ناسه في شأن تسريح الغلام ،فقلت لهم :أتشفع في غلام زنجي يهتك حرمة مولاه ،وأنتم بالأمس خلعتم السلطان شهاب الدين وقتلتموه بسبب دخوله لدار غلام له؟ وأمرت بالغلام عند ذلك فضرب بقضبان الخيزران وهي أشد وقعا من السياط، وشهرته بالجزيرة وفي عنقه حبل ، فذهبوا إلى الوزير فأعلموه فقام وقعد واستشاط غضبا ،وجمع الوزراء ووجوه العسكر وبعث عني فجئته، وكانت عادتي أن أخدم فلم أخدم وقلت :سلام عليكم ،ثم قلت للحاضرين اشهدوا علي أني قد عزلت نفسي عن القضاء لعجزي عنه، فكلمني الوزير فصعدت وقعدت بموضع أقابله فيه وجاوبته أغلظ جواب وأذن مؤذن المغرب فدخل إلى داره وهو يقول ويقولون إني سلطان وهأناذا طلبته لأغضب عليه فغضب علي ،وإنما كان اعتزازي عليهم بسبب سلطان الهند لأنهم تحققوا مكانتي عنده،وإن كانوا على بعد منه فخوفه في قلوبهم متمكن فلما دخل إلى داره بعث إلي القاضي المعزول، وكان جريء اللسان فقال لي: إن مولانا يقول لك كيف هتكت حرمته على رؤوس الأشهاد ،ولم تخدم له؟ فقلت له: إنما كنت أخدم له حين كان قلبي له طيبا، فلما وقع التغير تركت ذلك، وتحية المسلمين إنما هي السلام ،وقد سلمت. فبعثه إلي ثانية فقال: إنما غرضك الرحيل عنا فأعط صدقات النساء ،وديون الناس ،وانصرف إذا شئت فخدمت له على هذا القول ،وذهبت إلى داري فخلصت مما علي من الدين ،وكان قد أعطاني في تلك الأيام فرش دار وجهازها من أواني نحاس وسواها، وكان يعطيني كل ما أطلبه ويحبني ويكرمني ولكنه غير خاطره وخوف مني ،فلما عرف أني قد خلصت الدين وعزمت على السفر ندم على ما قاله، وتلكأ في الإذن لي في

السفر فحلفت بالأيمان المغلظة أن لا بد من سفري، ونقلت ما عندي إلى مسجد على البحر ،وطلقت إحدى الزوجات وكانت إحداهن حاملا فجعلت لها أجلا تسعة أشهر إن عدت فيها وإلا فأمرها بيدها وحملت معي زوجتي التي كانت امرأة السلطان شهاب الدين لأسلمها لأبيها بجزيرة ملوك ،وزوجتي الأولى التي بنتها أخت السلطان .

وتوافقت مع الوزير عمر دهرد والوزير حسن قائد البحر على أن أمضي إلى بلاد المعبر وكان ملكها سلفي، فآتي منها بالعساكر لترجع الجزائر إلى حكمه ،وأنوب أنا عنه فيها وجعلت بيني وبينهم علامة رفع أعلام بيض في المراكب فإذا رأوها ثاروا في البر ولم أكن حدثت نفسي بهذا قط حتى وقع ما وقع من التغير، وكان الوزير خائفا مني يقول للناس لا بد لهذا أن يأخذ الوزارة إما في حياتي أو بعد موتي ،ويكثر السؤال عن حالي ويقول: سمعت أن ملك الهند بعث إليه الأموال ليثور بها علي ،وكان يخاف من سفري لئلا آتي بالجيوش من بلاد المعبر ،فبعث إلي أن أقيم حتى يجهز لي مركبا فأبيت وشكت أخت السلطانة إليها بسفر أمها معي فأرادت منعها فلم تقدر على ذلك ،فلما رأت عزمها على السفر ،قالت لها: إن جميع ما عندك من الحلي هو من مال البندر فإن كان لك شهود بأن جلال الدين وهبه لك وإلا فرديه ،وكان حليا له خطر، فردته إليهم .

وأتاني الوزراء والوجوه وأنا بالمسجد وطلبوا مني الرجوع فقلت لهم: لولا أني حلفت لعدت ،فقالوا :تذهب إلى بعض علماء الجزائر ليبر قسمك ،وتعود فقلت لهم :نعم ،إرضاء لهم ،فلما كانت الليلة التي سافرت فيها أتيت لوداع الوزير فعانقني وبكى حتى قطرت دموعه على قدمي، وبات تلك الليلة يحترس الجزيرة بنفسه خوفا أن يثور عليه أصهاري وأصحابي.

ثم سافرت ووصلت إلى جزيرة الوزير علي فأصابت زوجتي أوجاع عظيمة وأحبت الرجوع فطلقتها وتركتها هنالك ،وكتبت للوزير بذلك لأنها أم زوجة ولده ،وطلقت التي كنت ضربت لها الأجل، وبعثت عن جارية كنت أحبها وسرنا في تلك الجزائر من إقليم إلى إقليم.

وفي بعض تلك الجزائر رأيت امرأة لها ثدي واحد في صدرها ولها بنتان إحداهما كمثلها ذات ثدي واحد والأخرى ذات ثديين إلا أن أحدهما كبير فيه اللبن والآخر صغير لا لبن فيه ،فعجبت من شأنهن. ووصلنا إلى جزيرة من تلك الجزائر صغيرة ليس لها إلا دار واحدة فيها رجل حائك له زوجة وأولاد ونخيلات نارجيل وقارب صغير يصطاد فيه السمك ويسير به إلى حيث أراد من الجزائر، وفي جزيرته أيضا شجيرات موز ولم نر فيها من طيور البر غير غرابين خرجا إلينا ،لما وصلنا الجزيرة وطافا بمركبنا فغبطت –والله– ذلك الرجل ،ووددت أن لو كانت تلك الجزيرة لي ،فانقطعت فيها إلى أن يأتيني اليقين .

ثم وصلت إلى جزيرة ملوك حيث المركب الذي للناخوذة إبراهيم ،وهو الذي عزمت على السفر فيه إلى المعبر فجاء إلي ومعه أصحابه ،وأضافوني ضيافة حسنة. وكان الوزير قد كتب لي أن أعطى بهذه الجزيرة مائة وعشرين بستوا من الكودة، وهي الودع وعشرين قدحا من الأطوان وهو عسل النارجيل وعددا معلوما من التنبول والفوفل والسمك في كل يوم،وأقمت بهذه الجزيرة سبعين يوما، وتزوجت بها امرأتين، وهي من أحسن الجزائر خضرة ونضرة، رأيت من عجائبها أن الغصن يقتطع من شجرها ويركز في الأرض أو الحائط فيورق ويصير شجرة، ورأيت الرمان بها لا ينقطع له ثمر بطول السنة وخاف أهل هذه الجزيرة من الناخوذة إبراهيم أن ينهبهم عند سفره فأرادوا إمساك ما في مركبه من السلاح حتى يوم سفره فوقعت المشاجرة بسبب ذلك.

وعدنا إلى المهل ولم ندخلها ،وكتبت إلى الوزير معلما بذلك، فكتب أن لا سبيل لأخذ السلاح ، وعدنا إلى ملوك وسافرنا منها في نصف ربيع الثاني عام خمسة وأربعين (وسبعمائة= ٢٦ أغسطس ١٣٤٤)،وفي شعبان من هذه السنة توفي الوزير جمال الدين رحمه الله، وكانت السلطانة حاملا منه فولدت أثر وفاته وتزوجها الوزير عبد الله.

جزيرة سيلان

وسافرنا ولم يكن معنا رائس عارف، ومسافة ما بين الجزائر والمعبر ثلاثة أيام فسرنا نحن تسعة أيام ،وفي التاسع منها خرجنا إلى جزيرة سيلان ،ورأينا جبل سرنديب فيها ذاهبا في

السماء كأنه عمود دخان، ولما وصلناها قال البحرية: إن هذا المرسى ليس في بلاد السلطان الذي يدخل التجار إلى بلاده آمنين ،إنما هذا مرسى في بلاد السلطان أيري شكروتي، وهو من العتاة المفسدين وله مراكب تقطع في البحر فخفنا أن ننزل بمرساه ،ثم اشتدت الريح فخفنا الغرق، فقلت للناخوذة :نزلني إلى الساحل وأنا آخذ لك الأمان من هذا السلطان، ففعل ذلك، وأنزلني بالساحل، فأتانا الكفار فقالوا :ما أنتم ؟فأخبرتهم أني سلف سلطان المعبر وصاحبه جئت لزيارته، وأن الذي في المركب هدية له ،فذهبوا إلى سلطانهم فأعلموه بذلك ،فاستدعاني فذهبت له إلى مدينة بطالة(= بوطالام) وهي حضرته مدينة صغيرة حسنة عليها سور خشب وأبراج خشب وجميع سواحلها مملوءة بأعواد القرفة تأتي بها السيول فتجتمع بالساحل كأنها الروابي، ويحملها أهل المعبر والمليبار دون ثمن إلا أنهم يهدون للسلطان في مقابلة ذلك الثوب ونحوه ،وبين بلاد المعبر وهذه الجزيرة مسيرة يوم وليلة، وبها أيضا من خشب البقم كثير، ومن العود الهندي المعروف بالكلخي إلا أنه ليس كالقماري والقاقلي(= أنواع من البخور)..

واسم سلطان سيلان أيري شكروتي وهو سلطان قوي في البحر ،رأيت مرة وأنا بالمعبر مائة مركب من مراكبه بين صغار وكبار وصلت إلى هنالك، وكانت بالمرسى ثمانية مراكب للسلطان برسم السفر إلى اليمن، فأمر السلطان بالاستعداد وحشد الناس لحماية أجفانه ،فلما يئسوا من انتهاز الفرصة فيها قالوا: إنما جئنا في حماية مراكب لنا تسير أيضا إلى اليمن ، ولما دخلت على هذا السلطان الكافر قام إلي وأجلسني في جانبه وكلمني بأحسن كلام وقال: ينزل أصحابك على الأمان، ويكونون في ضيافتي إلى أن يسافروا ،فإن سلطان المعبر بيني وبينه الصحبة .ثم أمر بإنزالي، فأقمت عنده ثلاثة أيام في إكرام عظيم متزايد في كل يوم، وكان يفهم اللسان الفارسي ويعجبه ما أحدثه به عن الملوك والبلاد، ودخلت عليه يوما وعنده جواهر كثيرة أتي بها من مغاص الجوهر الذي ببلاده وأصحابه يميزون النفيس منها من غيره ،فقال لي: هل رأيت مغاص الجوهر في البلاد التي جئت منها؟ فقلت له: نعم رأيته بجزيرة قيس وجزيرة كش التي لابن السواملي ،فقال :سمعت بها ،ثم أخذ حبات

منه، فقال :أيكون في تلك الجزيرة مثل هذه ؟فقلت له: رأيت ما هو دونها، فأعجبه ذلك، وقال: هي لك، وقال لي: لا تستحي واطلب مني ما شئت، فقلت له :ليس مرادي منذ وصلت هذه الجزيرة إلا زيارة القدم الكريمة قدم آدم عليه السلام ،وهم يسمونه بابا ويسمون حواء ماما، فقال :هذا هين نبعث معك من يوصلك ،فقلت :ذلك أريد، ثم قلت له: وهذا المركب الذي جئت فيه يسافر آمنا إلى المعبر، وإذا عدت أنا بعثتني في مراكبك ،فقال: نعم، فلما ذكرت ذلك لصاحب المركب ،قال لي: لا أسافر حتى تعود، ولو أقمت سنة بسببك ،فأخبرت السلطان بذلك ،فقال: يقيم في ضيافتي حتى تعود، فأعطاني دولة يحملها عبيده على أعناقهم وبعث معي أربعة من الجوكية الذين عادتهم السفر كل عام إلى زيارة القدم وثلاثة من البراهمة وعشرة من سائر أصحابه وخمسة عشر رجلا يحملون الزاد ،وأما الماء فهو بتلك الطريق كثير.

ونزلنا ذلك اليوم على واد جزناه في معدية مصنوعة من قصب الخيزران ، ثم رحلنا من هنالك إلى منار مندلي(= ميناري مانديل) مدينة حسنة هي آخر عمالة السلطان أضافنا أهلها ضيافة حسنة، وضيافتهم عجول الجواميس يصطادونها بغابة هنالك ويأتون بها أحياء، ويأتون بالأرز والسمن والحوت والدجاج واللبن ،ولم نر بهذه المدينة مسلما غير رجل خراساني انقطع بسبب مرضه فسافر معنا ورحلنا إلى بندر سلاوات(= جيلام) بلدة صغيرة.

وسافرنا في أوعار كثيرة المياه بها الفيلة الكثيرة إلا أنها لا تؤذي الزوار والغرباء وذلك ببركة الشيخ أبي عبد الله بن خفيف رحمه الله ،وهو أول من فتح هذا الطريق إلى زيارة القدم وكان هؤلاء الكفار يمنعون المسلمين من ذلك ويؤذونهم ولا يؤاكلونهم ولا يبايعونهم، فلما اتفق للشيخ أبي عبد الله . .من قتل الفيلة لأصحابه وسلامته من بينهم وحمل الفيل له على ظهره ،صار الكفار من ذلك العهد يعظمون المسلمين ويدخلونهم دورهم ويطعمون معهم ويطمئنون لهم بأهلهم وأولادهم ،وهم إلى الآن يعظمون الشيخ المذكور أشد تعظيم ويسمونه الشيخ الكبير.

ثم وصلنا بعد ذلك إلى مدينة كنكار، وهي حضرة السلطان الكبير بتلك البلاد وبناؤها

في خندق بين جبلين على خور كبير يسمى خور الياقوت لأن الياقوت يوجد به، وبخارج هذه المدينة مسجد الشيخ عثمان الشيرازي المعروف بشاوش ،وسلطان هذه المدينة وأهلها يزورونه ويعظمونه، وهو كان الدليل إلى القدم فلما قطعت يده ورجله صار الأدلاّء أولاده وغلمانه، وسبب قطعه أنه ذبح بقرة وحكم كفار الهنود أنه من ذبح بقرة ذبح كمثلها أو جعل في جلدها وحرق، وكان الشيخ عثمان معظما عندهم فقطعوا يده ورجله وأعطوه مجبى بعض الأسواق. و سلطانها هو يعرف بالكنار، وعنده الفيل الأبيض ولم أر في الدنيا فيلا أبيض سواه يركبه في الأعياد ويجعل على جبهته أحجار الياقوت العظيمة، واتفق له أن قام عليه أهل دولته وكحلوا عينيه وولوا ولده وهو هنالك أعمى.

والياقوت العجيب البهرمان(= الأحمر) إنما يكون بهذه البلدة فمنه ما يخرج من الخور وهو عزيز عندهم ومنه ما يحفر عنه ، وجزيرة سيلان يوجد الياقوت في جميع مواضعها وهي متملكة فيشتري الإنسان القطعة منها ويحفر عن الياقوت فيجد أحجارا مشعبة ،وهي التي يتكون الياقوت في أجوافها فيعطيها الحكاكين فيحكونها حتى تنفلق عن أحجار الياقوت فمنه الأحمر ومنه الأصفر ومنه الأزرق ويسمونه النيلم(= الأزرق)وعادتهم أن ما بلغ ثمنه من أحجار الياقوت إلى مائة فَنَم فهو للسلطان يعطي ثمنه ويأخذه وما نقص عن تلك القيمة فهو لأصحابه ،وصرف مائة فَنَم ستة دنانير من الذهب .

وجميع النساء بجزيرة سيلان لهن القلائد من الياقوت الملون ويجعلنه في أيديهن وأرجلهن عوضا من الأسورة والخلاخيل وجواري السلطان يصنعن منه شبكة يجعلنا على رؤوسهن. ولقد رأيت على جبهة الفيل الأبيض سبعة أحجار منه كل حجر أعظم من بيضة الدجاج ،ورأيت عند السلطان أيري شكروتي سكرجة على مقدار الكف من الياقوت فيها دهن العود ،فجعلت أعجب منها فقال: إن عندنا ما هو أضخم من ذلك.

ثم سافرنا من كنكار(= كورونكالا) فنزلنا بمغارة تعرف باسم أسطا محمود اللوري وكان من الصالحين، واحتفر تلك المغارة في سفح جبل عند خور صغير هنالك ،ثم رحلنا عنها ونزلنا بالخور المعروف بخور بوزنة ،وبوزنة هي القرود، والقرود بتلك الجبال كثيرة جدا، وهي سود الألوان لها أذناب طوال ولذكورها لحى كما هي للآدميين .وأخبرني الشيخ عثمان

وولده وسواهما أن هذه القرود لها مقدّم تتبعه كأنه سلطان يشد على رأسه عصابة من أوراق أشجار ،ويتوكأ على عصا ويكون عن يمينه ويساره أربعة من القرود لها عصي بأيديها ،وأنه إذا جلس القرد المقدم تقف القرود الأربعة على رأسه ،وتأتي أنثاه وأولاده فتقعد بين يديه كل يوم وتأتي القرود فتقعد على بعد منه ،ثم يكلمها أحد القرود الأربعة فتنصرف القرود كلها، ثم يأتي كل قرد منها بموزة أو ليمونة أو شبه ذلك فيأكل القرد المقدم وأولاده والقرود الأربعة .

وأخبرني بعض الجوكية أنه رأى القرود الأربعة بين يدي مقدمها وهي تضرب بعض القرود بالعصي، ثم نتفت وبره بعد ضربه وذكر لي الثقات أنه إذا ظفر قرد من هذه القرود بصبية لا تستطيع الدفاع عن نفسها جامعها. وأخبرني بعض أهل هذه الجزيرة أنه كان بداره قرد منها فدخلت بنت له بعض البيوت فدخل عليها فصاحت به فغلبها ،قال :ودخلنا عليها وهو بين رجليها، فقتلناه . ثم كان رحيلنا إلى خور الخيزران ومن هذا الخور أخرج أبو عبد الله بن خفيف الياقوتتين اللتين أعطاهما لسلطان هذه الجزيرة .

ثم رحلنا إلى موضع يعرف ببيت العجوز، وهو آخر العمارة ثم رحلنا إلى مغارة بابا طاهر وكان من الصالحين ، ثم رحلنا إلى مغارة السبيك، وكان السبيك من سلاطين الكفار وانقطع للعبادة هنالك. وبهذا الموضع رأينا العلق الطيار ويسمونه الزلو، ويكون بالأشجار والحشائش التي تقرب من الماء فإذا قرب الإنسان منه وثب عليه فحينما وقع من جسده خرج منه الدم الكثير، والناس يستعدون له الليمون يعصرونه عليه فيسقط عنهم ،ويجردون الموضع الذي يقع عليه بسكين خشب معد لذلك ،ويذكر أن بعض الزوار مر بذلك الموضع فتعلقت به العلق فأظهر الجلد ولم يعصر عليها الليمون ،فنزف دمه ومات وكان اسمه بابا خوزي وهنالك مغارة تنسب إليه.

ثم رحلنا إلى السبع مغارات، ثم إلى عقبة إسكندر، وثم مغارة الأصفهاني، وعين ماء وقلعة غير عامرة تحتها خور يعرف بغوطة كاه عارفان ،وهنالك مغارة النارنج ومغارة السلطان وعندها دروازة الجبل أي بابه، وهو من أعلى جبال الدنيا(= جبل آدم ارتفاع قمته ٢٢٤٣م)

رأيناه من البحر وبيننا وبينه مسيرة تسع ،ولما صعدناه كنا نرى السحاب أسفل منا قد حال بيننا وبين رؤية أسفله ،وفيه كثير من الأشجار التي لا يسقط لها ورق والأزاهير الملونة والورد الأحمر على قدر الكف ،ويزعمون أن في ذلك الورد كتابة يقرأ منها اسم الله تعالى واسم رسوله عليه الصلاة والسلام ،وفي الجبل طريقان إلى القدم أحدهما يعرف بطريق بابا والآخر بطريق ماما يعنون آدم وحواء عليهما السلام، فأما طريق ماما فطريق سهل عليه يرجع الزوار إذا رجعوا، ومَن مضى عليه فهو عندهم كمن لم يزر ،وأما طريق بابا فصعب وعر المرتقى ،وفي أسفل الجبل حيث دروازته مغارة تنسب أيضا للإسكندر ،وعين ماء، ونحت الأولون في الجبل شبه درج يصعد عليها وغرزوا فيها أوتاد الحديد وعلقوا منها السلاسل ليتمسك بها من يصعده، وهي عشر سلاسل ثنتان في أسفل الجبل إلى حيث الدروازة وسبع متوالية بعدها ،والعاشرة هي سلسلة الشهادة لأن الإنسان إذا وصل إليها ونظر إلى أسفل الجبل أدركه الوهم فيتشهد خوف السقوط ،ثم إذا جاوزت هذه السلسلة وجدت طريقا مهملا ومن السلسلة العاشرة إلى مغارة الخضر سبعة أميال ،وهي في موضع فسيح عندها عين ماء تنسب إليه أيضا ملأى بالحوت ولا يصطاده أحد ،وبالقرب منها حوضان منحوتان في الحجارة عن جنبتي الطريق وبمغارة الخضر يترك الزوار ما عندهم، ويصعدون منها ميلين إلى أعلى الجبل حيث القدم، وأثر القدم الكريمة قدم أبينا آدم صلى الله عليه وسلم في صخرة سوداء مرتفعة بموضع فسيح، وقد غاصت القدم الكريمة في الصخرة حتى عاد موضعا منخفضا وطولها أحد عشر شبرا وأتى إليها أهل الصين قديما فقطعوا من الصخرة موضع الإبهام وما يليه، وجعلوه في كنيسة بمدينة الزيتون يقصدونها من أقصى البلاد، وفي الصخرة حيث القدم تسع حفر منحوتة يجعل الزوار من الكفار فيها الذهب واليواقيت والجواهر، فترى الفقراء إذا وصلوا مغارة الخضر يتسابقون منها لأخذ ما بالحفر ،ولم نجد نحن بها إلا يسير حجيرات وذهب أعطيناها الدليل ،والعادة أن يقيم الزوار بمغارة الخضر ثلاثة أيام يأتون فيها إلى القدم غدوة وعشيا وكذلك فعلنا.

ولما تمت الأيام الثلاثة عدنا على طريق ماما بمغارة شيم، وهو شيث بن آدم عليهما السلام، ثم إلى خور السمك ،ثم إلى قرية كرملة، ثم إلى قرية جبر كاوان، ثم إلى قرية دل دينوة، ثم

إلى قرية آت قلنجة ،وهنالك كان يشتي الشيخ أبو عبد الله بن خفيف، وكل هذه القرى والمنازل هي بالجبل وعند أصل الجبل في هذا الطريق درخت روان، وهي شجرة عادية لايسقط لها ورق، ولم أر من رأى ورقها ويعرفونها أيضا بالماشية لأن الناظر إليها من أعلى الجبل يراها بعيدة منه قريبة من أسفل الجبل ،والناظر إليها من أسفل الجبل يراها بعكس ذلك، ورأيت هنالك جملة من الجوكيين ملازمين أسفل الجبل ينتظرون سقوط ورقها وهي بحيث لا يمكن التوصل إليها البتة ،ولهم أكاذيب في شأنها من جملتها أن من أكل من أوراقها عاد له الشباب إن كان شيخا، وذلك باطل، وتحت هذا الجبل الخور العظيم الذي يخرج منه الياقوت وماؤه يظهر في رأي العين شديد الزرقة.

ورحلنا من هنالك يومين إلى مدينة دينور(= دوندره) مدينة عظيمة على البحر يسكنها التجار وبها الصنم المعروف بدينور في كنيسة عظيمة فيها نحو الألف من البراهمة والجوكية ونحو خمسمائة من النساء بنات الهنود ،ويغنين كل ليلة عند الصنم ويرقصن،والمدينة ومجابيها وقف على الصنم ،وكل من بالكنيسة ومن يرد عليها يأكلون من ذلك، والصنم من ذهب على قدر الآدمي وفي موضع العينين منه ياقوتتان عظيمتان أخبرت أنهما تضيئان بالليل كالقنديلين.

ثم رحلنا إلى مدينة قالي(= كالي) وهي صغيرة على ستة فراسخ من دينور وبها رجل من المسلمين يعرف بالناخوذة إبراهيم أضافنا بموضعه ، ورحلنا إلى مدينة كلنبو(= كولومبو، عاصمة الجزيرة في الوقت الحاضر) وهي من أحسن بلاد سرنديب وأكبرها وبها يسكن الوزير حاكم البحر جَالَسْتي ومعه نحو خمسمائة من الحبشة ، ثم رحلنا فوصلنا بعد ثلاثة أيام إلى بطالة ..ودخلنا إلى سلطانها الذي ..ووجدت الناخوذة إبراهيم في انتظاري.

من سيلان إلى الصين

فسافرنا بقصد بلاد المعبر، وقويت الريح وكاد الماء يدخل في المركب ،ولم يكن لنا رائس عارف ثم وصلنا إلى حجارة كاد المركب ينكسر فيها ،ثم دخلنا بحرا قصيرا فتجلّس

المركب،ورأينا الموت عيانا ،ورمى الناس بما معهم وتوادعوا ،وقطعنا صاري المركب فرمينا به، وصنع البحرية معدية من الخشب، وكان بيننا وبين البر فرسخان فأردت أن أنزل في المعدية، وكان لي جاريتان وصاحبان من أصحابي، فقالا: أتنزل وتتركنا؟ فآثرتهما على نفسي، وقلت: إنزلا أنتما، والجارية التي أحبها، فقالت الجارية: إني أحسن السباحة فأتعلق بحبل المعدية، وأعوم معهم .فنزل رفيقاي وأحدهما محمد بن فرحان التوزري ،والآخر رجل مصري ،والجارية معهم ،والأخرى تسبح ،وربط البحرية في المعدية حبالا وسبحوا بها ،وجعلت معهم ما عز علي من المتاع والجواهر والعنبر ،فوصلوا إلى البر سالمين؛ لأن الريح كانت تساعدهم ،وأقمت بالمركب ونزل صاحبه إلى البر على الدفة،وشرع البحرية في عمل أربع من المعادي فجاء الليل قبل تمامها ودخل معنا الماء فصعدت إلى المؤخر وأقمت به حتى الصباح وحينئذ جاء إلينا نفر من الكفار في قارب لهم، ونزلنا معهم إلى الساحل ببلاد المعبر، فأعلمناهم أنّا من أصحاب سلطانهم ،وهم تحت ذمته، فكتبوا إليه بذلك وهو على مسيرة يومين في الغزو ،وكتبت أنا إليه أعلمه بما اتفق علي، وأدخلنا أولئك الكفار إلى غيضة عظيمة فأتوا بفاكهة تشبه البطيخ ،يثمرها شجرة المقل، وفي داخلها شبه قطن فيه عسلية يستخرجونها ويصنعون منها حلواء يسمونها التل، وهي تشبه السكر وأتوا بسمك طيب وأقمنا ثلاثة أيام ثم وصل من جهة السلطان أمير يعرف بقمر الدين معه جماعة فرسان ورجال ،وجاؤوا بالدولة وبعشرة أفراس، فركبت وركب أصحابي ،وصاحب المركب وإحدى الجاريتين وحملت الأخرى في الدولة.

ووصلنا إلى حصن هركاتو ،وبتنا به وتركت فيه الجواري وبعض الغلمان والأصحاب ،ووصلنا في اليوم الثاني إلى محلة السلطان ،وهو غياث الدين الدامغاني وكان أول أمره فارسا من فرسان الملك مجير بن أبي الرجا أحد خدام السلطان محمد، ثم خدم الأمير حاجي بن السيد السلطان جلال الدين ،ثم ولي الملك وكان يدعى سراج الدين قبله فلما ولي تسمى غياث الدين ،وكانت بلاد المعبر تحت حكم السلطان محمد ملك دهلي، ثم ثار بها صهري الشريف جلال الدين أحسن شاه وملك بها خمسة أعوام ،ثم قتل وولي أحد

أمرائه وهو علاء الدين أديجي، فملك سنة ثم خرج إلى غزو الكفار فأخذ لهم أموالا كثيرة وغنائم واسعة وعاد إلى بلاده ،وغزاهم في السنة الثانية فهزمهم وقتل منهم مقتلة عظيمة، واتفق يوم قتله لهم أن رفع المغفر عن رأسه ليشرب فأصابه سهم غرب ،فمات من حينه فولوا صهره قطب الدين، ثم لم يحمدوا سيرته فقتلوه بعد أربعين يوما، وولي بعده السلطان غياث الدين، وتزوج بنت السلطان الشريف جلال الدين التي كنت متزوجا أختها بدهلي.

ولما وصلنا إلى قرب من منزل السلطان غياث الدين بعث بعض الحجاب ،لتلقينا وكان قاعدا في برج خشب ،وعادتهم بالهند كلها أن لا يدخل أحد على السلطان دون خف، ولم يكن عندي خف فأعطاني بعض الكفار خفا، وكان هنالك من المسلمين جماعة فعجبت من كون الكافر كان أتم مروءة منهم ،ودخلت على السلطان فأمرني بالجلوس ودعا القاضي الحاج صدر الزمان بهاء الدين ،وأنزلني في جواره في ثلاثة من الأخبية، وهم يسمونها الخيام، وبعث بالفرش وبطعامهم وهو الأرز واللحم. وعادتهم هنالك أن يسقوا اللبن الرائب على الطعام كما يفعل ببلادنا ،ثم اجتمعت به بعد ذلك وألقيت له أمر جزائر ذيبة المهل ،وأن يبعث الجيش إليها فأخذ في ذلك بالعزم ،وعين المراكب لذلك وعين الهدية لسلطانتها والخلع للوزراء والأمراء والعطايا لهم ،وفوض إلي في عقد نكاحه مع مريم أخت السلطانة ،وأمر بوثق ثلاثة مراكب بالصدقة لفقراء الجزائر، وقال لي: يكون رجوعك بعد خمسة أيام، فقال له قائد البحر خواجه سرلك: لا يمكن السفر إلى الجزائر إلا بعد ثلاثة أشهر من الآن، فقال لي السلطان: أما إذا كان الأمر هكذا فامض إلى فتَن حتى تقضي هذه الحركة، وتعود إلى حضرتنا مُتْرَة (= مادورا)ومنها تكون الحركة فأقمت معه بخلال ما بعثت عن الجواري والأصحاب.

وكانت الأرض التي نسلكها غيضة واحدة من الأشجار والقصب بحيث لا يسلكها أحد، فأمر السلطان أن يكون لكل واحد ممن في الجيش من كبير وصغير قادوم لقطع ذلك، فإذا نزلت المحلة ركب إلى الغابة والناس معه فقطعوا تلك الأشجار من غدوة النهار إلى الزوال ،ثم يؤتى بالطعام فيأكل جميع الناس طائفة بعد أخرى ،ثم يعودون إلى قطع الأشجار إلى

العشي، وكل من وجدوه من الكفار في الغيضة أسروه وصنعوا خشبة محددة الطرفين فجعلوها على كتفيه يحملها ومعه امرأته وأولاده ،ويؤتى بهم إلى المحلة، وعادتهم أن يصنعوا على المحلة سورا من خشب يكون له أربعة أبواب ويسمونه الكتكر، ويصنعون على دار السلطان كتكرا ثانيا ،ويصنعون خارج الكتكر الأكبر مصاطب ارتفاعها نحو نصف قامة، ويوقدون عليها النار بالليل ويبيت عندها العبيد والمشاؤون، ومع كل واحد منهم حزمة من رقيق القصب، فإذا أتى أحد من الكفار ليضربوا على المحلة ليلا أوقد كل واحد منهم الحزمة التي بيده فعاد الليل شبه النهار لكثرة الضياء، وخرجت الفرسان في إتباع الكفار فإذا كان عند الصباح قسم الكفار المأسورون بالأمس أربعة أقسام وأتي إلى كل باب من أبواب الكتكر بقسم منهم فركزت الخشب التي كانوا يحملونها بالأمس عنده ثم ركزوا فيها حتى تنفذهم ثم تذبح نساؤهم، ويربطن بشعورهن إلى تلك الخشبات، ويذبح الأولاد الصغار في حجورهن، ويتركون هنالك وتنزل المحلة ويشتغلون بقطع غيضة أخرى ويصنعون بمن أسروه كذلك، وذلك أمر شنيع ما علمته لأحد من الملوك وبسببه عجل الله حينه.

ولقد رأيته يوما والقاضي عن يمينه وأنا عن شماله وهو يأكل معنا، وقد أتي بكافر معه امرأته وولده سنه سبع، فأشار إلى السيافين بيده أن يقطعوا رأسه ،ثم قال له: "وَزْنِ أُو وَبّسر أُو" معناه" وابنه وزوجته" فقطعت رقابهم، وصرفت بصري عنهم، فلما قمت وجدت رؤسهم مطروحة بالأرض ،وحضرت عنده يوما وقد أتي برجل من الكفار فتكلم بما لم أفهمه فإذا بجماعة من الزبانية قد استلوا سكاكينهم فبادرت القيام ،فقال لي: إلى أين؟ فقلت أصلي العصر، ففهم عني وضحك وأمر بقطع يديه ورجله ،فلما عدت وجدته متشحطا في دمائه.

وكان فيما يجاور بلاده سلطان كافر يسمى بلال ديو وهو من كبار سلاطين الكفار يزيد عسكره على مائة ألف ومعه نحو عشرين ألفا من المسلمين أهل الدعارة وذوي الجنايات والعبيد الفارين فطمع في الاستيلاء على بلاد المعبر، وكان عسكر المسلمين بها ستة آلاف منهم النصف من الجياد والنصف الثاني لا خير فيهم ولا غناء عندهم فلقوه بظاهر مدينة

كبان(= كونور كوبام أقصى جنوب ولاية أندرابراديش) فهزمهم ورجعوا إلى حضرة مترة، ونزل الكافر على كبان وهي من أكبر مدنهم وأحصنها وحاصرها عشرة أشهر، ولم يبق لهم من الطعام إلا قوت أربعة عشر يوما ،فبعث لهم الكافر أن يخرجوا على الأمان، ويتركوا له البلد، فقالوا له. لا بد من مطالعة سلطاننا بذلك، فوعدهم إلى تمام أربعة عشر يوما، وكتبوا إلى السلطان غياث الدين بأمرهم فقرأ كتابهم على الناس يوم الجمعة فبكوا ،وقالوا :نبيع أنفسنا من الله فإن الكافر إن أخذ تلك المدينة انتقل إلى حصارنا فالموت تحت السيوف أولى بنا فتعاهدوا على الموت وخرجوا من الغد ونزعوا العمائم عن رؤوسهم وجعلوها في أعناق الخيل، وهي علامة من يريد الموت، وجعلوا ذوي النجدة والأبطال منهم في المقدمة، وكانوا ثلاثمائة وجعلوا على الميمنة سيف الدين بهادور وكان فقيها ورعا شجاعا ،وعلى الميسرة الملك محمد السلحدار ،وركب السلطان في القلب، ومعه ثلاث آلاف وجعل الثلاثة آلاف الباقين ساقة لهم وعليهم أسد الدين كيخسرو الفارسي، وقصدوا محلة الكافر عند القائلة وأهلها على غرة، وخيلهم في المرعى فأغاروا عليها وظن الكفار أنهم سراق فخرجوا إليهم على غير تعبية وقاتلوهم، فوصل السلطان غياث الدين فانهزم الكفار شر هزيمة ،وأراد سلطانهم أن يركب وكان ابن ثمانين فأدركه ناصر الدين بن أخي السلطان الذي ولي الملك بعده فأراد قتله ،ولم يعرفه فقال له أحد غلمانه :هو السلطان فأسره وحمله إلى عمه فأكرمه في الظاهر حتى جبى منه الأموال والفيلة والخيل، وكان يعده السراح فلما استصفى ما عنده ذبحه وسلخه، ومُلئ جلده بالتبن فعلق على سور مترة .ورأيته بها معلقا.

ولنعد إلى كلامنا فنقول: ورحلت عن المحلة فوصلت إلى مدينة فتن وهي كبيرة حسنة على الساحل ومرساها عجيب قد صنعت فيه قبة من الخشب كبيرة قائمة على الخشب الضخام يصعد إليها على طريق خشب مسقف فإذا جاء العدو ضموا إليها الأجفان التي تكون بالمرسى وصعدها الرجال والرماة فلا يصيب العدو فرصة، وبهذه المدينة مسجد حسن مبني بالحجارة، وبها العنب الكثير والرمان الطيب ،ولقيت بها الشيخ الصالح محمد النيسابوري أحد الفقراء المولهين الذين يسدلون أكتافهم ومعه سبعٌ ربّاه يأكل مع الفقراء ويقعد معهم،

وكان معه نحو ثلاثين فقيرا لأحدهم غزالة تكون مع الأسد في موضع واحد فلا يعرض لها، واقمت بمدينة فتن وكان السلطان غياث الدين قد صنع له أحد الجوكية حبوبا للقوة على الجماع وذكروا أن من جملة أخلاطها برادة الحديد فأكل منها فوق الحاجة فمرض، ووصل إلى فتن فخرجت إلى لقائه، وأهديت له هدية فلما استقر بها بعث عن قائد البحر خواجه سرور، فقال له: لا تشتغل بسوى المراكب المعينة للسفر إلى الجزائر ،وأراد أن يعطيني قيمة الهدية فأبيت ثم ندمت لأنه مات فلم آخذ شيئا، وأقام بفتن نصف شهر ثم رحل إلى حضرته، وأقمت أنا بعده نصف شهر .

ثم رحلت إلى حضرته وهي مدينة مترة مدينة كبيرة متسعة الشوارع، وأول من اتخذها حضرة صهري السلطان الشريف جلال الدين أحسن شاه وجعلها شبيهة بدهلي وأحسن بناءها ولما قدمتها وجدت بها وباء يموت منه الناس موتا ذريعا فمن مرض مات من ثاني يوم مرضه أو ثالثه ،وإن أبطأ موته فإلى الرابع ،فكنت إذا خرجت لا أرى إلا مريضا أو ميتا ،واشتريت بها جارية على أنها صحيحة فماتت في يوم آخر، ولقد جاءت إلي في بعض الأيام امرأة كان زوجها من وزراء السلطان أحسن شاه، ومعها ابن لها سنُّه ثمانية أعوام نبيل كيس فطن فشكت ضعف حالها فأعطيتهما نفقة، وهما صحيحان سويان فلما كان من الغد جاءت تطلب لولدها المذكور كفنا وإذا به قد توفي من حينه، وكنت أرى بمشور السلطان حين مات المئين من الخدم اللاتي أتي بهم لدق الأرز المعمول منه الطعام لغير السلطان، وهن مريضات قد طرحن أنفسهن في الشمس ولما دخل السلطان مترة وجد أمه وامرأته وولده مرضى، فأقام بالمدينة ثلاثة أيام ثم خرج إلى نهر على فرسخ منها كانت عليه كنيسة الكفار وخرجت إليه في يوم خميس فأمر بإنزالي إلى جانب القاضي .فلما ضربت لي الأخبية رأيت الناس يسرعون ويموج بعضهم في بعض فمن قائل أن السلطان مات ومن قائل أن ولده هو الميت ،ثم تحققنا ذلك فكان الولد هو الميت ،ولم يكن له سواه فكان موته مما زاد في مرضه ،وفي الخميس بعده توفيت أم السلطان ،وفي الخميس الثالث توفي السلطان غياث الدين وشعرت بذلك فبادرت الدخول إلى المدينة خوف الفتنة ،ولقيت ناصر الدين

ابن أخيه الوالي بعده خارجا إلى المحلة قد وُجّه عنه إذ ليس للسلطان ولد فطلبني بالرجوع معه فأبيت ،وأثّر ذلك في قلبه. وكان ناصر الدين هذا خديما بدهلي قبل أن يملك عمه ،فلما ملك عمه هرب في زي الفقراء إليه فكان من القدر ملكه بعده، ولما بويع مدحته الشعراء فأجزل لهم العطاء، وأول من قام منشدا القاضي صدر الزمان فأعطاه خمسمائة دينار وخلعة ،ثم الوزير المسمى بالقاضي فأعطاه ألفي دينار دراهم وأعطاني أنا ثلاثمائة دينار وخلعة، وبث الصدقات في الفقراء والمساكين ولما خطب الخطيب أول خطبة خطبها باسمه نثرت عليه الدنانير والدراهم في أطباق الذهب والفضة وعمل عزاء السلطان غياث الدين فكانوا يختمون القرآن على قبره كل يوم ،ثم يقرأ العشارون ثم يؤتى بالطعام فيأكل الناس ثم يعطون الدراهم كل إنسان على قدره وأقاموا على ذلك أربعين يوما ثم يفعلون ذلك في مثل يوم وفاته من كل سنة .

وأول ما بدأ به السلطان ناصر الدين أن عزل وزير عمه وطلبه بالأموال وولي الوزارة الملك بدر الدين الذي بعثه عمه إلي وأنا بفتن ليتلقاني فتوفي سريعا فولي الوزارة خواجه سرور قائد البحر، وأمر أن يخاطب بخواجة جهان كما يخاطب الوزير بدهلي ومن خاطبه بغير ذلك غرم دنانير معلومة، ثم إن السلطان ناصر الدين قتل ابن عمته المتزوج بنت السلطان غياث الدين وتزوجها بعده ،وبلغه أن الملك مسعودا زاره في محبسه قبل موته فقتله أيضا وقتل الملك بهادور وكان من الشجعان الكرماء الفضلاء ،وأمر لي بجميع ما كان عيَّنه عمه من المراكب برسم الجزائر ،ثم أصابتني الحمى القاتلة هنالك فظننت أنها القاضية وألهمني الله إلى التمر الهندي ،وهو هنالك كثير فأخذت نحو رطل منه وجعلته في الماء ثم شربته فأسهلني ثلاثة أيام وعافاني الله من مرضي، فكرهت تلك المدينة وطلبت الإذن في السفر فقال لي السلطان :كيف تسافر ولم يبق لأيام السفر إلى الجزائر غير شهر واحد؟ أقم حتى نعطيك جميع ما أمر لك به خوند عالم ،فأبيت وكتب لي إلى فتن لأسافر في أي مركب أردت. وعدت إلى فتن فوجدت ثمانية من المراكب تسافر إلى اليمن فسافرت في أحدها ولقينا أربعة أجفان فقاتلتنا يسيرا ثم انصرفت.

في بلاد بنجالة (= البنغال)

ووصلنا إلى كولم وكان فيّ بقية مرض فأقمت ثلاثة أشهر(=منذ بداية رمضان ٧٤٥=بداية يناير ١٣٤٥) ثم ركبت في مركب بقصد السلطان جمال الدين الهنوري فخرج علينا الكفار بين هنّور وفاكنور، ولما وصلنا إلى الجزيرة الصغرى بين هنور وفاكنور خرج علينا الكفار في اثني عشر مركبا حربية، وقاتلونا قتالا شديدا، وتغلبوا علينا فأخذوا جميع ما عندي مما كنت أدخره للشدائد، وأخذوا الجواهر واليواقيت التي أعطانيها ملك سيلان، وأخذوا ثيابي والزوادات التي كانت عندي مما أعطانيه الصالحون والأولياء، ولم يتركوا لي ساترا خلا السراويل، وأخذوا ما كان لجميع الناس وأنزلونا بالساحل فرجعت إلى قالقوط ،فدخلت بعض المساجد فبعث إلي أحد الفقهاء بثوب، وبعث القاضي بعمامة، وبعث بعض التجار بثوب آخر، وتعرفت هنالك بتزوّج الوزير عبد الله بالسلطانة خديجة بعد موت الوزير جمال الدين، وبأن زوجتي التي تركتها حاملا ولدت ولدا ذكرا، فخطر لي السفر إلى الجزائر، وتذكرت العداوة التي بيني وبين الوزير عبد الله ففتحت المصحف فخرج لي : "تتنزل عليهم الملائكة أن لا تخافوا ولا تحزنوا "فاستخرت الله وسافرت، فوصلت بعد عشرة أيام إلى جزائر ذيبة المهل ،ونزلت منها بكنّلوس، فأكرمني واليها عبد العزيز المقدشاوي ،وأضافني وجهز لي كندرة، ووصلت بعد ذلك إلى هلّلي وهي الجزيرة التي تخرج السلطانة وأخوانها إليها برسم التفرج والسياحة ويسمون ذلك التّبحُّر ويلعبون في المراكب ،ويبعث لها الوزراء والأمراء بالهدايا والتحف متى كانت بها، ووجدت بها أخت السلطانة وزوجها الخطيب محمد بن الوزير جمال الدين وأمها التي كانت زوجتي ،فجاء الخطيب إلي وأتوا بالطعام ،ومر بعض أهل الجزيرة إلى الوزير عبد الله فأعلموه بقدومي، فسأل عن حالي وعمّن قدم معي، وأُخبر أني جئت برسم حمل ولدي، وكانت سنّه نحو عامين، وأتته أمه تشكو من ذلك ،فقال لها: أنا لا أمنعه من حمل ولده ،وأذن لي في دخول الجزيرة وأنزلني بدار تقابل برج قصره ليتطلع على حالي، وبعث إلي بكسوة كاملة وبالتنبول وماء الورد على عادتهم ،وجئت بثوبي حرير للرمي عند السلام فأخذوهما ،ولم يخرج

الوزير إلي ذلك اليوم ،وأتى إلي بولدي فظهر لي أن إقامته معهم خير له فرددته إليهم وأقمت خمسة أيام ،وظهر لي أن تعجيل السفر أولى، فطلبت الإذن في ذلك ؛فاستدعاني الوزير ودخلت عليه وأتوني بالثوبين اللذين أخذوهما مني فرميتهما عند السلام على العادة ،وأجلسني إلى جانبه وسألني عن حالي وأكلت معه الطعام ،وغسلت يدي معه في الطست وذلك شيء لا يفعله مع أحد، وأتوا بالتنبول وانصرفت وبعث إلي بأثواب وبساتي من الودع وأحسن أفعاله وأجمل.

وسافرت فأقمنا على ظهر البحر ثلاثا وأربعين ليلة، ثم وصلنا إلى بلاد بنجالة ،وهي بلاد متسعة كثيرة الأرز ولم أر في الدنيا أرخص أسعارا منها لكنها مظلمة وأهل خراسان يسمونها" دوز خست بور نعمة" معناه "جهنم ملأى بالنعم "رأيت الأرز يباع في أسواقها خمسة وعشرين رطلا دهلية بدينار فضي ،والدينار الفضي هو ثمانية دراهم، ودرهمهم كالدرهم النقرة سواء والرطل الدهلي عشرون رطلا مغربية، وسمعتهم يقولون إن ذلك غلاء عندهم .

وحدثني محمد المصمودي المغربي وكان من الصالحين وسكن هذا البلد قديما ومات عندي بدهلي أنه كانت له زوجة وخادم فكان يشتري قوت ثلاثتهم في السنة بثمانية دراهم ،وأنه كان يشتري الأرز في قشره بحساب ثمانين رطلا دهلية بثمانية دراهم فإذا دقه خرج منه خمسون رطلا صافية، وهي عشرة قناطير ،ورأيت البقرة تباع بها للحلب بثلاثة دنانير فضة وبقرهم الجواميس، ورأيت الدجاج السمان تباع بحساب ثمان بدرهم واحد، وفراخ الحمام يباع خمسة عشر منها بدرهم ،ورأيت الكبش السمين يباع بدرهمين ،ورطل السكر بأربعة دراهم ،وهو رطل دهلي ورطل الجلاب بثمانية دراهم ،ورطل السمن بأربعة دراهم ،ورطل السيرج بدرهمين ،ورأيت ثوب القطن الرقيق الجيد الذي ذرعه ثلاثون ذراعا يباع بدينارين، ورأيت الجارية المليحة للفراش تباع بدينار من الذهب واحد، وهو ديناران ونصف دينار من الذهب المغربي، واشتريت بنحو هذه القيمة جارية تسمى عاشورة وكان لها جمال بارع، واشترى بعض أصحابي غلاما صغير السن حسنا اسمه لؤلؤ بدينارين من الذهب.

وأول مدينة دخلناها من بلاد بنجالة مدينة سدكاوان(= شيتا كونك جنوب شرق دكا في خليج البنغال) وهي مدينة عظيمة على ساحل البحر الأعظم(= المحيط الهندي) ويجتمع بها نهر الكنك الذي يحج إليه الهنود ونهر الجون(= جومنا) ويصبان في البحر ولهم في النهر مراكب كثيرة يقاتلون بها أهل بلاد اللكنوتي. و سلطان بنجالة هو السلطان فخر الدين الملقب بفخره سلطان فاضل محب في الغرباء وخصوصا الفقراء والمتصوفة ،وكانت مملكة هذه البلاد للسلطان ناصر الدين بن السلطان غياث الدين بلبن وهو الذي ولي ولده معز الدين الملك بدهلي فتوجه لقتاله، والتقيا بالنهر وسمي لقاؤهما لقاء السعدين. .وأنه ترك الملك لولده وعاد إلى بنجالة فأقام بها إلى أن توفي وولي ابنه شمس الدين إلى أن توفي فولي ابنه شهاب الدين إلى أن غلب عليه أخوه غياث الدين بهادور بور فاستنصر شهاب الدين بالسلطان غياث الدين تغلق فنصره ،وأخذ بهادور بور أسيرا ثم أطلقه ابنه محمد لما ملك على أن يقاسمه ملكه فنكث عليه فقاتله حتى قتله وولي على هذه البلاد صهرا له فقتله العسكر واستولى على ملكها علي شاه، وهو إذ ذاك ببلاد اللكنوتي فلما رأى فخر الدين أن الملك قد خرج عن أولاد السلطان ناصر الدين وهو مولى لهم خالف بسد كاوان وبلاد بنجالة واستقل بالملك واشتدت الفتنة بينه وبين علي شاه ،فإذا كانت أيام الشتاء والوحل أغار فخر الدين على بلاد اللكنوتي في البحر لقوته فيه وإذا عادت الأيام التي لا مطر فيها أغار علي شاه على بنجالة في البر لقوته فيه .

وانتهى حب الفقراء بالسلطان فخر الدين إلى أن جعل أحدهم نائبا عنه في الملك بسد كاوان ،وكان يسمى شيدا، وخرج إلى قتال عدو له فخالف عليه شيدا، وأراد الاستبداد بالملك وقتل ولدا للسلطان فخر الدين لم يكن له ولد غيره، فعلم بذلك فكرّ عائدا إلى حضرته ففر شيدا ومن اتبعه إلى مدينة سنركاوان(= جنوب دكّا) وهي منيعة فبعث السلطان بالعساكر إلى حصاره فخاف أهلها على أنفسهم فقبضوا على شيدا ،وبعثوه إلى عسكر السلطان فكتبوا إليه بأمره، فأمرهم أن يبعثوا له رأسه فبعثوه ،وقتل بسببه جماعة كبيرة من الفقراء، ولما دخلتُ سدكاوان لم أر سلطانها ولا لقيته لأنه مخالف على ملك الهند فخفت عاقبة ذلك.

وسافرت من سدكاوان بقصد جبال كامرو(= جزء من ولاية أسام الهندية) وبينها وبين سدكاوان مسيرة شهر، وهي جبال متسعة متصلة بالصين، وتتصل أيضا ببلاد التبت حيث غزلان المسك، وأهل هذا الجبل يشبهون الترك ولهم قوة على الخدمة ،والغلام منهم يساوي أضعاف ما يساويه الغلام من غيرهم، وهم مشهورون بمعاناة السحر والاشتغال به ، وكان قصدي بالمسير إلى هذه الجبال لقاء ولي من الأولياء بها، وهو الشيخ جلال الدين التبريزي، وهذا الشيخ من كبار الأولياء وأفراد الرجال له الكرامات الشهيرة والمآثر العظيمة، وهو من المعمرين.

أخبرني رحمه الله أنه أدرك الخليفة المستعصم بالله العباسي ببغداد ،وكان بها حين قتْله .وأخبرني أصحابه بعد هذه المدة أنه مات وهو ابن مائة وخمسين ،وأنه كان له نحو أربعين سنة يسرد الصوم ولا يفطر إلا بعد مواصلة عشر، وكانت له بقرة يفطر على حليبها ويقوم الليل كله، وكان نحيف الجسم طُوالا خفيف العارضين ،وعلى يديه أسلم أهل تلك الجبال، ولذلك أقام بينهم. أخبرني بعض أصحابه أنه استدعاهم قبل موته بيوم واحد، وأوصاهم بتقوى الله، وقال لهم :إني أسافر عنكم غدا إن شاء الله، وخليفتي عليكم الله الذي لا إله إلا هو، فلما صلى الظهر من الغد قبضه الله في آخر سجدة منها ،ووجدوا في جانب الغار الذي كان يسكنه قبرا محفورا عليه الكفن والحنوط، فغسلوه وكفنوه وصلوا عليه ودفنوه به رحمه الله تعالى.

ولما قصدت زيارة هذا الشيخ لقيني أربعة من أصحابه على مسيرة يومين من موضع سكناه، فأخبروني أن الشيخ قال للفقراء الذين معه: قد جاءكم سائح من المغرب ،فاستقبلوه، وأنهم أتوا لذلك بأمرالشيخ ،ولم يكن عنده علم من أمري ،وإنما كوشف به. وسرت معهم إلى الشيخ فوصلت زاويته خارج الغار ولا عمارة عندها، وأهل تلك البلاد من مسلم وكافر يقصدون زيارته ،ويأتون بالهدايا والتحف فيأكل منها الفقراء والواردون، وأما الشيخ فقد اقتصر على بقرة يفطر على حليبها بعد عشر كما قدمناه، ولما دخلت عليه قام إلي وعانقني وسألني عن بلادي وأسفاري فأخبرته. قال لي: أنت مسافر العرب، قال له مَن حضر من

أصحابه: والعجم يا سيدنا، فقال :والعجم فأكرموه، فاحتملوني إلى الزاوية وأضافوني ثلاثة أيام، ولما كان يوم دخولي إلى الشيخ رأيت عليه فرجية مرعز فأعجبتني ،وقلت في نفسي: ليت الشيخ أعطانيها ،فلما دخلت عليه للوداع قام إلى جانب الغار وجرد الفرجية وألبسنيها مع طاقية من رأسه ولبس مرقعة. فأخبرني الفقراء أن الشيخ لم تكن عادته أن يلبس تلك الفرجية /وإنما لبسها عند قدومي، وأنه قال لهم هذه الفرجية يطلبها المغربي ،ويأخذها منه سلطان كافر ويعطيها لأخينا برهان الدين الصاغرجي وهي له وبرسمه كانت. فلما أخبرني الفقراء بذلك قلت لهم قد حصلت لي بركة الشيخ بأن كساني لباسه وأنا لا أدخل بهذه الفرجية على سلطان كافر ولا مسلم .وانصرفت عن الشيخ فاتفق لي بعد مدة طويلة أني دخلت بلاد الصين وانتهيت إلى مدينة الخنسا فافترق مني أصحابي لكثرة الزحام وكانت الفرجية علي، فبينما أنا في بعض الطرق إذا بالوزير في موكب عظيم فوقع بصره علي فاستدعاني وأخذ بيدي وسألني عن مقدمي ،ولم يفارقني حتى وصلت إلى دار السلطان معه، فأردت الانفصال فمنعني وأدخلني على السلطان، فسألني عن سلاطين الإسلام فأجبته ونظر إلى الفرجية فاستحسنها، فقال لي الوزير: جردها فلم يمكنني خلاف ذلك فأخذها وأمر لي بعشر خلع وفرس مجهز ونفقة ،وتغير خاطري لذلك ،ثم تذكرت قول الشيخ إنه يأخذها سلطان كافر فطال عجبي من ذلك، ولما كان في السنة الأخرى دخلت دار ملك الصين بخان بالق، فقصدت زاوية الشيخ برهان الدين الصاغرجي فوجدته يقرأ والفرجية عليه بعينها، فعجبت من ذلك وقلبتها بيدي، فقال لي :لمَ تقلبها وأنت تعرفها؟ فقلت له :نعم هي التي أخذها مني سلطان الخنسا، فقال لي: هذه الفرجية صنعها أخي جلال الدين برسمي، وكتب إلي أن الفرجية تصلك على يد فلان ثم أخرج لي الكتاب فقرأته وعجبت من صدق يقين الشيخ، وأعلمته بأول الحكاية ،فقال لي: أخي جلال الدين أكبر من ذلك كله ،هو يتصرف بالكون، وقد انتقل إلى رحمة الله ،ثم قال لي: بلغني أنه كان يصلي الصبح كل يوم بمكة، وأنه يحج كل عام لأنه كان يغيب عن الناس يومي عرفة والعيد فلا يُعرف أين ذهب.

ولما وادعت الشيخ جلال الدين سافرت إلى مدينة حبنق ،وهي من أكبر المدن وأحسنها يشقها النهر الذي ينزل من جبال كامرو ،ويسمى النهر الأزرق ويسافر فيه إلى بنجالة وبلاد اللكنوتي وعليه النواعير والبساتين والقرى يمنة ويسرة كما هي على نيل مصر وأهلها كفار تحت الذمة يؤخذ منهم نصف ما يزدرعون ووظائف سوى ذلك.

وسافرنا في هذا النهر خمسة عشر يوما بين القرى والبساتين فكنا نمشي في سوق من الأسواق وفيه من المراكب مالا يحصى كثره وفي كل مركب منها طبل ،فإذا التقى المركبان ضرب كل واحد طبله وسلم بعضهم على بعض وأمر السلطان فخر الدين المذكور أن لا يؤخذ بذلك النهر من الفقراء نول(= ضريبة مرور) وأن يعطى الزاد لمن لا زاد له منهم و إذا وصل الفقير إلى مدينة أعطي نصف دينار.

وبعد خمسة عشر يوما من سفرنا في النهر كما ذكرناه وصلنا إلى مدينة سنركاوان ،وهي المدينة التي قبض أهلها على الفقير شيدا عندما لجأ إليها، ولما وصلناها وجدنا بها جنكا يريد السفر إلى بلاد الجاوة(يرجح أنه يقصد سومطرة ، أما جاوة فسيذكرها باسم مُل جاوة) ،وبينهما أربعون يوما.

من بنجالة إلى جاوة

فركبنا في الجنك وصلنا بعد خمسة عشر يوما إلى بلاد البرهنكار(=سكان جزر أندامان في بورما) الذين أفواههم كأفواه الكلاب، وهذه الطائفة من الهمج لا يرجعون إلى دين الهنود ولا إلى غيره، وسكناهم في بيوت قصب مسقفة بحشيش الأرض على شاطئ البحر ،وعندهم من أشجار الموز والفوفل والتنبول كثير، ورجالهم على مثل صورتنا إلا أن أفواههم كأفواه الكلاب، وأما نساؤهم فلسن كذلك ولهن جمال بارع، ورجالهم عرايا لا يستترون إلا أن الواحد منهم يجعل ذكره وأنثييه في جعبة من القصب منقوشة معلقة من بطنه، ويستتر نساؤهم بأوراق الشجر .

ومعهم جماعة من المسلمين من أهل بنجالة والجاوة ساكنون في حارة على حدة خبرونا

أنهم يتناكحون كالبهائم لا يستترون بذلك ويكون للرجل منهم ثلاثون امرأة فما دون ذلك أو فوقه وأنهم لا يزنون وإذا زنا رجل منهم فحد الرجل أن يصلب حتى يموت أو يأتي صاحبه أو عبده فيصلب عوضا منه ويسرّح هو، وحدّ المرأة أن يأمر السلطان جميع خدامه فينكحونها واحدا بعد واحد بحضرته حتى تموت، ويرمون بها في البحر، ولأجل ذلك لا يتركون أحدا من أهل المراكب ينزل إليهم إلا إن كان من المقيمين عندهم وإنما يبايعون الناس ويشارونهم على الساحل ويسوقون إليهم الماء على الفيلة لأنه بعيد من الساحل ولا يتركونهم لاستقائه خوفا على نسائهم لأنهن يطمحن إلى الرجال الحسان.

والفيلة كثيرة عندهم ولا يسعها أحد غير سلطانهم ثم يشتري منهم بالأثواب ولهم كلام غريب لا يفقهه إلا من ساكنهم وأكثر التردد إليهم ،ولما وصلنا إلى ساحلهم أتوا إلينا في قوارب صغار كل قارب من خشبة واحدة منحوتة وجاءوا بالموز والأرز والتنبول والفوفل والسمك. وأتى إلينا سلطانهم راكبا على فيل عليه شبه بردعة من الجلود ولباس السلطان ثوب من جلود المعزى وقد جعل الوبر إلى خارج فوق رأسه ثلاث عصائب من الحرير ملونات ،وفي يده حربة من القصب ومعه نحو عشرين من أقاربه على الفيلة ،فبعثنا إليه هدية من الفلفل والزنجبيل والقرفة والحوت الذي يكون بجزائر ذيبه المهل ،وأثوابا من بنجالة وهم لا يلبسونها إنما يكسونها الفيلة في أيام عيدهم ،ولهذا السلطان على كل مركب ينزل ببلاده جارية ومملوك وثياب لكسوة الفيل وحلي ذهب تجعله زوجته في محزمها وأصابع رجليها، ومَن لم يعط هذه الوظيفة صنعوا له سحرا يهيج به البحر فيهلك أو يقارب الهلاك. واتفق في ليلة من ليالي إقامتنا بمرساهم أن غلاما لصاحب المركب ممن تردد إلى هؤلاء الطائفة نزل من المركب ليلا وتواعد مع امرأة أحد كبرائهم إلى موضع شبه الغار على الساحل، وعلم بذلك زوجها فجاء في جميع من أصحابه إلى الغار فوجدهما به فحُملا إلى سلطانهم فأمر بالغلام فقطعت أنثياه وصلب، وأمر بالمرأة فجامعها الناس حتى ماتت، ثم جاء السلطان إلى الساحل فاعتذر عما جرى، وقال :إنّا لا نجد بدا من إمضاء أحكامنا ووهب لصاحب المركب غلاما عوض الغلام المصلوب.

ثم سافرنا عن هؤلاء وبعد خمسة وعشرين يوما وصلنا إلى جزيرة الجاوة(= في يناير ١٣٤٦) وهي التي ينسب إليها اللبان الجاوي، رأيناها على مسيرة نصف يوم وهي خضرة نضرة وأكثر أشجارها النارجيل والفوفل والقرنفل والعود الهندي والشكي والبركي والعنبة والجمون والنارنج الحلو وقصب الكافور ،وبيع أهلها وشراؤهم بقطع قصدير وبالذهب الصيني التبر غير المسبوك ،والكثير من أفاويه الطيب التي بها إنما هو ببلاد الكفار منها وأما ببلاد المسلمين فهو أقل من ذلك ،ولما وصلنا المرسى خرج إلينا أهلها في مراكب صغار ومعهم جوز النارجيل والموز والعنبة والسمك، وعادتهم أن يهدوا ذلك للتجار فيكافئهم كل إنسان على قدره ،وصعد إلينا أيضا نائب صاحب البحر وشاهد مَن معنا من التجار وأذن لنا في النزول إلى البر ،فنزلنا إلى البندر وهي قرية كبيرة على ساحل البحر بها دور اسمها السرحي ،وبينها وبين البلد أربعة أميال، ثم كتب إلى بهروز نائب صاحب البحر إلى السلطان فعرفه بقدومي فأمر الأمير دولسة بلقائي، والقاضي الشريف أمير سيد الشيرازي وتاج الدين الأصبهاني وسواهم من الفقهاء ،فخرجوا لذلك وجاؤوا بفرس من مراكب السلطان وأفراس سواه فركبت وركب أصحابي،ودخلنا إلى حضرة السلطان ،وهي مدينة سُمُطرة مدينة حسنة كبيرة عليها سور خشب وأبراج خشب .

و سلطان الجاوة هو السلطان الملك الظاهر من فضلاء الملوك وكرمائهم شافعي المذهب محب في الفقهاء يحضرون مجلسه للقراءة والمذاكرة ،وهو كثير الجهاد والغزو ومتواضع يأتي إلى صلاة الجمعة ماشيا على قدميه وأهل بلاده شافعية محبون في الجهاد يخرجون معه تطوعا وهم غالبون على من يليهم من الكفار، والكفار يعطونهم الجزية على الصلح .

ولما قصدنا دار السلطان وجدنا بالقرب منه رماحا مركوزة على جانبي الطريق هي علامة على نزول الناس فلا يتجاوزها من كان راكبا فنزلنا عندها ،ودخلنا المشور فوجدنا نائب السلطان وهو يسمى عمدة الملك، فقام إلينا وسلم علينا وسلامهم بالمصافحة، وقعدنا معه، وكتب بطاقة إلى السلطان يعلمه بذلك وختمها ودفعها لبعض الفتيان فأتاه الجواب على ظهرها ،ثم جاء أحد ببقشة، والبقشة هي السبنية، فأخذها النائب بيده وأخذ بيدي

وأدخلني إلى دويرة يسمونها فردخانة، وهي موضع راحته بالنهار فإن العادة أن يأتي نائب السلطان إلى المشور بعد الصبح ولا ينصرف إلا بعد العشاء الآخر ،وكذلك الوزراء والأمراء الكبار، وأخرج من البقشة ثلاث فوط إحداهما من خالص الحرير والأخرى حرير وقطن والأخرى حرير وكتان ،وأخرج ثلاثة أثواب يسمونها التحتانيات من جنس الفوط، وأخرج ثلاثة من الثياب مختلفة الأجناس تسمى الوسطانيات، وأخرج ثلاثة أثواب من الأرمك أحدها أبيض ،وأخرج ثلاث عمائم فلبست فوطة منها عوضاً عن السراويل على عادتهم،وثوبا من كل جنس ،وأخذ أصحابي ما بقي منها ،ثم جاؤوا بالطعام أكثره الأرز ثم أتوا بنوع من الفقاع ثم أتوا بالتنبول وهو علامة الانصراف ،فأخذناه وقمنا وقام النائب لقيامنا، وخرجنا عن المشور فركبنا وركب النائب معنا ،وأتوا بنا إلى بستان عليه حائط خشب وفي وسطه دار بناؤها بالخشب مفروشة بقطائف قطن يسمونها المخملات ومنها مصبوغ وغير مصبوغ، وفي البيت أسرّة من الخيزران فوقها مضربات من الحرير ولحف خفاف ومخاد يسمونها البوالشت ،فجلسنا بالدار ومعنا النائب ثم جاء الأمير دولسة بجاريتين وخادمين وقال لي: يقول لك السلطان هذه على قدرنا لا على قدر السلطان محمد، ثم خرج النائب وبقي الأمير دولسة عندي، وكانت بيني وبينه معرفة لأنه كان ورد رسولا على السلطان بدهلي ،فقلت له :متى تكون رؤية السلطان؟ فقال لي :إن العادة عندنا أن لا يسلم القادم على السلطان إلا بعد ثلاث ليذهب عنه تعب السفر ويثوب إليه ذهنه ،فأقمنا ثلاثة أيام يأتي إلينا الطعام ثلاث مرات في اليوم ،وتأتينا الفواكه والطرف مساء وصباحا ،فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة أتاني الأمير دولسة، فقال لي: يكون سلامك على السلطان بمقصورة الجامع بعد الصلاة.

فأتيت المسجد وصليت به الجمعة مع حاجبه قيران ،ثم دخلت إلى السلطان فوجدت القاضي أمير سيد والطلبة عن يمينه وشماله فصافحني،وسلمت عليه وأجلسني عن يساره وسألني عن السلطان محمد وعن أسفاري فأجبته، وعاد إلى المذاكرة في الفقه على مذهب الإمام الشافعي ،ولم يزل كذلك إلى العصر فلما صلاها دخل بيتا هنالك فنزع الثياب التي

كانت عليه وهي ثياب الفقهاء وبها يأتي الجامع يوم الجمعة ماشيا ،ثم لبس ثياب الملك وهي الأقبية من الحرير والقطن، ولما خرج من الجامع وجد الفيلة والخيل على بابه .والعادة عندهم أنه إذا ركب السلطان الفيل ركب من معه الخيل وإذا ركب الفرس ركبوا الفيلة، ويكون أهل العلم عن يمينه فركب ذلك اليوم على الفيل وركبنا الخيل وسرنا معه إلى المشور، فنزلنا حيث العادة ودخل السلطان راكبا وقد اصطف في المشور الوزراء والأمراء والكتاب وأرباب الدولة ووجوه العسكر صفوفا فأول الصفوف صف الوزراء والكتاب. ووزراؤه أربعة فسلموا عليه وانصرفوا إلى موضع وقوفهم ثم صف الأمراء فسلموا ومضوا إلى مواقفهم وكذلك تفعل كل طائفة ثم صف الشرفاء والفقهاء ثم صف الندماء والحكماء والشعراء ثم صف وجوه العسكر ثم صف الفتيان والمماليك .ووقف السلطان على فيله إزاء قبة الجلوس ،ورفع فوق رأسه شطر مرصّع، وجعل عن يمينه خمسون فيلا مزينة وعن شماله مثلها وعن يمينه أيضا مائة فرس وعن شماله مثلها وهي خيل النوبة، ووقف بين يديه خواص الحجاب، ثم أتى أهل الطرب من الرجال فغنوا بين يديه ،وأتي بخيل مجللة بالحرير لها خلاخيل ذهب وأرسان حرير مزركشة فرقصت الخيل بين يديه فعجبت من شأنها، وكنت رأيت مثل ذلك عند ملك الهند ،ولما كان عند الغروب دخل السلطان إلى داره ،وانصرف الناس إلى منازلهم.

وكان له ابن أخ متزوج ببنته فولاّه بعض البلاد ،وكان الفتى يتعشّق بنتا لبعض الأمراء ويريد تزوجها، والعادة هنالك أنه إذا كانت لرجل من الناس أمير أو سوقي أو سواه بنت قد بلغت مبلغ النكاح فلا بد أن يستأمر للسلطان في شأنها، ويبعث السلطان من النساء من تنظر إليها فإن أعجبته صفتها تزوجها وإلا تركها يزوجها أولياؤها ممن يشاؤون، والناس هنالك يرغبون في تزوج السلطان بناتهم لما يحوزون به من الجاه والشرف. ولما استأمر والد البنت التي تعشّقها ابن أخي السلطان بعث السلطان من نظر إليها وتزوجها، واشتد شغف الفتى بها ولم يجد سبيلا إليها ،ثم إن السلطان خرج إلى الغزو وبينه وبين الكفار مسيرة شهر فخالفه ابن أخيه إلى سمطرة ودخلها إذ لم يكن عليها سور حينئذ ،وادعى الملك

وبايعه بعض الناس وامتنع آخرون وعلم عمه بذلك فقفل عائدا إليها فأخذ ابن أخيه ما قدر عليه من الأموال والذخائر وأخذ الجارية التي تعشّقها وقصد بلاد الكفار بمل جاوة، ولهذا بنى عمه السور على سمطرة وكانت إقامتي عنده بسمطرة خمسة عشر يوما .ثم طلبت منه السفر إذا كان أوانه إذ لا يتهيأ السفر إلى الصين في كل وقت ،فجهّز لنا جنكا، وزودنا، وأحسن ،وأجمل جزاه الله خيرا، وبعث معنا من أصحابه من يأتي لنا بالضيافة إلى الجنك ،وسافرنا بطول بلاده إحدى وعشرين ليلة .

من جاوة إلى الصين

ثم وصلنا إلى مل جاوة، وهي بلاد الكفار وطولها مسيرة شهرين وبها الأفاوية العطرة والعود الطيب القاقلي والقماري وقاقلة وقمارة (=كمبوديا)من بعض بلادها وليس ببلاد السلطان الظاهر بالجاوة إلا اللبان والكافور وشيء من القرنفل وشيء من العود الهندي وإنما معظم ذلك بمل جاوة . ولنذكر ما شاهدناه منها ووقفنا على أعيانه وحققناه .

وشجرة اللبان صغيرة تكون بقدر قامة الإنسان إلى ما دون ذلك وأغصانها كأغصان الخرشف وأوراقها صغار رقاق، وربما سقطت فبقيت الشجرة منها دون ورقة واللبان صمغية تكون في أغصانها وهي في بلاد المسلمين أكثر منها في بلاد الكفار، وأما شجر الكافور فهي قصب كقصب بلادنا إلا أن الأنابيب منها أطول وأغلظ ويكون الكافور داخل الأنابيب فإذا كسرت القصبة وجد في داخل الأنبوب مثل شكله من الكافور، والسر العجيب فيه أنه لا يتكون في تلك القصب حتى يذبح عند أصولها شيء من الحيوان وإلا لم يتكون شيء منه ،والطيب المتناهي في البرودة الذي يقتل منه وزن الدرهم بتجميد الروح وهو المسمى عندهم الحردالة هو الذي يذبح عند قصبة الأدمي ويقوم مقام الآدمي في ذلك الفيلة الصغار، .

وأما العود الهندي فشجره يشبه شجر البلوط إلا أن قشره رقيق وأوراقه كأوراق البلوط سواء ولا ثمر له وشجرته لا تعظم كل العظم وعروقه طويلة ممتدة وفيها الرائحة العطرة وأما عيدان

شجرته وورقها فلا عطرية فيها وكل ما ببلاد الإسلام من شجره فهو متملك ،وأما الذي في بلاد الكفار فأكثره غير متملك منه ما كان بقاقلة وهو أطيب العود وكذلك القماري هو أطيب أنواع العود ،ويبيعونه لأهل الجاوة بالأثواب .ومن القماري صنف يطبع عليه كالشمع، وأما العطاس فإنه يقطع العرق منه ويدفن في التراب أشهرا فتبقى فيه قوته وهو من أعجب أنواعه ،وأما أشجار القرنفل فهي عادية ضخمة وهي ببلاد الكفار أكثر منها ببلاد الإسلام وليست بمتملكة لكثرتها والمجلوب إلى بلادنا منها هو العيدان والذي يسميه أهل بلادنا نوار القرنفل هو الذي يسقط من زهره وهو شبيه بزهر النارنج وثمر القرنفل هو جوز بوا المعروفة في بلادنا بجوزة الطيب والزهر المتكون فيها هو البساسة رأيت ذلك كله وشاهدته.

ووصلنا إلى مرسى قاقلة فوجدنا به جملة من الجنوك معد للسرقة ولمن يستعصي عليهم من الجنوك فإن لهم على كل جنك وظيفة، ثم نزلنا من الجنك إلى مدينة قاقلة، وهي مدينة حسنة عليها سور من حجارة منحوتة عرضه بحيث تسير فيه ثلاثة من الفيلة وأول ما رأيت بخارجها الفيلة عليها الأحمال من العود الهندي يوقدونه في بيوتهم ،وهو بقيمة الحطب عندنا أو أرخص ثمنا هذا إذا ابتاعوا فيما بينهم ،وأما التجار فيبيعونه الحمل منه بثوب من ثياب القطن وهي أغلى عندهم من ثياب الحرير والفيلة بها كثيرة جدا عليها يركبون ويحملون وكل إنسان يربط فيلته على بابه ،وكل صاحب حانوت يربط فيله عنده يركبه إلى داره، وكذلك جميع أهل الصين والخِطا على مثل هذا الترتيب.

وسلطان مل جاوة كافر رأيته خارج قصره جالسا على قبة ليس بينه وبين الأرض بساط، ومعه أرباب دولته والعساكر يعرضون عليه مشاة ولا خيل هنالك إلا عند السلطان وإنما يركبون الفيلة وعليها يقاتلون ،فعرف شأني فاستدعاني فجئت وقلت: السلام على من اتبع الهدى، فلم يفقهوا إلا لفظ السلام، فرحب بي وأمر أن يفرش لي ثوب أقعد عليه، فقلت للترجمان: كيف أجلس على الثوب والسلطان قاعد على الأرض؟ فقال: هكذا عادته يقعد على الأرض تواضعا وأنت ضيف وجئت من عند سلطان كبير فيجب إكرامك ،فجلست

وسألني عن السلطان فأوجز في سؤاله وقال لي :تقيم عندنا في الضيافة ثلاثة أيام وحينئذ يكون انصرافك.

ورأيت في مجلس هذا السلطان رجلا بيده سكين شبه سكين المسعر قد وضعه على رقبة نفسه وتكلم بكلام كثير لم أفهمه ثم أمسك السكين بيديه معا وقطع عنق نفسه فوقع رأسه لحدة السكين وشدة إمساكه بالأرض فعجبت من شأنه ،وقال لي السلطان: أيفعل أحد هذا عندكم؟ فقلت له: ما رأيت هذا قط ،فضحك وقال :هؤلاء عبيدنا يقتلون أنفسهم في محبتنا ،وأمر به فرفع وأحرق وخرج لإحراقه النواب ،وأرباب الدولة والعساكر والرعايا وأجرى الرزق الواسع على أولاده وأهله وإخوانه وعظموا لأجل فعله. وأخبرني من كان حاضرا في ذلك المجلس أن الكلام الذي تكلم به كان تقريرا لمحبته في السلطان وأنه يقتل نفسه في حبه كما قتل أبوه نفسه في حب أبيه وجده نفسه في حب جده ثم انصرفت عن المجلس وبعث إلي بضيافة ثلاثة أيام.

وسافرنا في البحر فوصلنا بعد أربعة وثلاثين يوما في البحر الكاهل ،وهو الراكد وفيه حمرة زعموا أنها من تربة أرض تجاوره ولا ريح فيه ولا موج ولا حركة مع اتساعه ،ولأجل هذا البحر تتبع كل جنك من جنوك الصين ثلاثة من مراكب.. تجذف به فتجره ويكون في الجنك مع ذلك نحو عشرين مجذافا كبار كالصواري يجتمع على المجداف منها ثلاثون رجلا أو نحوها ،ويقومون قياما صفين كل صف يقابل الآخر ،وفي المجداف حبلان عظيمان كالطوانيس(= الدبابيس) فتجدف إحدى الطائفتين الحبل ثم تتركه وتجدّف الطائفة الأخرى وهم يغنون عند ذلك بأصواتهم الحسان ،وأكثر ما يقولون: " لَعْلَي لَعْلَي .وأقمنا على ظهر هذا البحر سبعة وثلاثين يوما وعجبت البحرية من التسهيل فيه فإنهم يقيمون فيه خمسين يوما إلى أربعين وهي أنهى ما يكون التيسير عليهم.

ثم وصلنا إلى بلاد طوالسي(= مختلف حولها بين الهند الصينية أو الفلبين أو اليابان) وملكها هو المسمى بطوالسي ،وهي بلاد عريضة وملكها أيضا ملك الصين وله الجنوك الكثيرة يقاتل بها أهل الصين حتى يصالحوه على شيء ،وأهل هذه البلاد عبدة أوثان حسان

الصورة أشبه الناس بالترك في صورهم ،والغالب على ألوانهم الحمرة ولهم شجاعة ونجدة ،ونساؤهم يركبن الخيل ويحسن الرماية ويقاتلن كالرجال سواء .

وأرسينا من مراسيهم بمدينة كيلوكري، وهي من أحسن مدنهم وأكبرها وكان يسكن بها ابن ملكهم ،فلما أرسينا بالمرسى جاءت عساكرهم ونزل الناخوذة إليهم ومعه هدية لابن الملك فسألهم عنه ،فأخبروه أن أباه ولاه بلدا غيره وولى بنته بتلك المدينة واسمها أُردجا، ولما كان في اليوم الثاني من حلولنا بمرسى كيلوكري استدعت هذه الملكة الناخوذة صاحب المركب و الكراني وهو الكاتب والتجار والرؤساء والتنديل ،وهو مقدم الرجال وسباه سالار، وهو مقدم الرماة، لضيافة صنعتها لهم على عادتها، ورغب الناخوذة مني أن أحضر معهم فأبيت لأنهم كفار لا يجوز أكل طعامهم ،فلما حضروا عندها قالت لهم: هل بقي أحد منكم لم يحضر؟ فقال لها الناخوذة: لم يبق إلا رجل واحد بخشي، وهو القاضي بلسانهم وهو لا يأكل طعامكم ،فقالت ادعوه فجاء جنادرتها وأصحاب الناخوذة ،فقالوا :أجب الملكة فأتيتها، وهي بمجلسها الأعظم ،وبين يديها نسوة بأيديهن الأزمّة يعرضن ذلك عليها، وحولها النساء القواعد وهنّ وزيراتها، وقد جلسن تحت السرير على كراسي الصندل وبين يديها الرجال ومجلسها مفروش بالحرير، وعليه ستور حرير وخشبة من الصندل ،وعليه صفائح الذهب وبالمجلس مساطب خشب منقوش عليها أواني ذهب كثيرة من كبار وصغار كالخوابي والقلال والبواقيل.

أخبرني الناخوذة أنها مملوؤة بشراب مصنوع من السكر مخلوط بالأفاويه يشربونه بعد الطعام ،وإنه عطر الرائحة حلو المطعم يفرح ويطيب النكهة ويهضم ويعين على الباءة ،فلما سلمت على الملكة قالت لي بالتركية :"حسن مسن يخشى مسن "؟من معناه" كيف حالك؟ كيف أنت؟" وأجلستني على قرب منها، وكانت تحسن الكتاب العربي ،فقالت لبعض خدامها دواة و"بتك كاتوز" معناه الدواة والكاغد ،فأتى بذلك فكتبت: بسم الله الرحمن الرحيم، فقالت: ما هذا؟ فقلت لها "تنضري نام" ومعنى ذلك :اسم الله: فقالت :"خشن" ومعناه" جيد" ثم سألتني :من أي البلاد قدمت؟ فقلت لها من بلاد الهند،

فقالت : بلاد الفلفل ؟فقلت : نعم ،فسألتني عن تلك البلاد وأخبارها فأجبتها ،فقالت : لا بد أن أغزوها وآخذها لنفسي، فإني يعجبني أكثر ما لها وعساكرها ،فقلت لها : افعلي، وأمرت لي بأثواب وحمل فيلين من الأرز وبجاموستين وعشر من الضأن وأربعة أرطال جلاب وأربعة مرطبانات ،وهي أوان ضخمة مملوءة بالزنجبيل والفلفل والليمون والعنبا كل ذلك مملوح مما يستعد للبحر.

وأخبرني الناخوذة أن هذه الملكة لها في عسكرها نسوة وخدم وجوار يقاتلن كالرجال ،وأنها تخرج في العساكر من رجال ونساء فتغير على عدوها وتشاهد القتال وتبارز الأبطال. وأخبرني أنها وقع بينها وبين بعض أعدائها قتال شديد، وقتل كثير من عسكرها وكادوا ينهزمون ؛فدفعت بنفسها وخرقت الجيوش حتى وصلت إلى الملك الذي كانت تقاتله فطعنته طعنة كان فيها حتفه فمات وانهزمت عساكره ،وجاءت برأسه على رمح فافتداه أهله منها بمال كثير ،فلما عادت إلى أبيها ملّكها تلك المدينة التي كانت بيد أخيها .وأخبرني أن أبناء الملوك يخطبونها فتقول لا أتزوج إلا من يبارزني فيغلبني فيتحامون مبارزتها خوف المعرة إن غلبتهم.

ثم سافرنا عن بلاد طوالسي فوصلنا بعد سبعة عشر يوما والريح مساعدة لنا ونحن نسير بها أشد السير وأحسنه إلى بلاد الصين ،وإقليم الصين متسع كثير الخيرات والفواكه والزرع والذهب والفضة لا يضاهيه في ذلك إقليم من أقاليم الأرض ويخترقه النهر المعروف بآب حياة، معنى ذلك ماء الحياة، ويسمى أيضا نهر السرو كاسم النهر بالهند ومنبعه من جبال بقرب مدينة خان بالق، تسمى كوه بوزنه ،معناه جبل القرود ويمر في وسط الصين مسيرة ستة أشهر إلى أن ينتهي إلى صين الصين، وتكتنفه القرى والمزارع والبساتين والأسواق كنيل مصر إلا أن هذا أكثر عمارة وعليه النواعير الكثيرة.

وببلاد الصين السكر الكثير مما يضاهي المصري بل يفضله والأعناب والإجاص، وكنت أظن أن الإجاص العثماني الذي بدمشق لا نظير له حتى رأيت الإجاص الذي بالصين، وبها البطيخ العجيب يشبه بطيخ خوارزم وأصفهان وكل ما ببلادنا من الفواكه فإن بها ما هو مثله

وأحسن منه، والقمح بها كثير جدا ،ولم أر قمحا أطيب منه ،وكذلك العدس والحمص.
وأما الفخار الصيني فلا يصنع منه إلا بمدينة الزيتون (=تسوتونك)وبصين كلان(= كانتون، وقد عرفت عند المسلمين بـ خانقو أو خانفو) وهو من تراب جبال هنالك تقد فيه النار كالفحم، وسنذكر ذلك، ويضيفون إليه حجارة عندهم ويوقدون النار عليها ثلاثة أيام ثم يصبون عليها الماء فيعود الجميع ترابا ثم يخمرونه فالجيد منه ما خمر شهرا كاملا ولا يزاد على ذلك والدون ما خمر عشرة أيام، وهو هنالك بقيمة الفخار ببلادنا أو أرخص ثمنا ،ويحمل إلى الهند وسائر الأقاليم حتى يصل إلى بلاد بالمغرب، وهو أبدع أنواع الفخار.

ودجاج الصين وديوكها ضخمة جدا أضخم من الإوز عندنا ،وبيض الدجاج عندهم أضخم من بيض الإوز عندنا ،وأما الإوز عندهم فلا ضخامة لها. ولقد اشترينا دجاجة فأردنا طبخها فلم يسع لحمها في برمة واحدة فجعلناه في برمتين ويكون الديك بها على قدر النعامة، وربما انتتف ريشه فيبقى بضعة حمراء ،وأول ما رأيت الديك الصيني بمدينة كولم فظننته نعامة و عجبت منه فقال لي صاحبه :إن ببلاد الصين ما هو أعظم منه. فلما وصلت إلى الصين رأيت مصداق ما أخبرني به من ذلك.

وأهل الصين كفار يعبدون الأصنام ويحرقون موتاهم كما تفعل الهنود، وملك الصين تتري من ذرية تنكيزخان، وفي كل مدينة من مدن الصين مدينة للمسلمين ينفردون بسكناها ولهم فيها المساجد لإقامة الجمعات وسواها، وهم معظّمون محترمون. وكفار الصين يأكلون لحوم الخنازير والكلاب ويبيعونها في أسواقهم، وهم أهل رفاهية وسعة عيش إلا أنهم لا يحتفلون في مطعم ولا ملبس ،وترى التاجر الكبير منهم الذي لا تحصى أمواله كثرة وعليه جبة قطن خشنة ،وجميع أهل الصين إنما يحتفلون في أواني الذهب والفضة، ولكل واحد منهم عكاز يعتمد عليه في المشي، ويقولون هو الرجل الثالثة .والحرير عندهم كثير جدا لأن الدود تتعلق بالثمار وتأكل منها فلا تحتاج إلى كثير مؤنة ولذلك كثر وهو لباس الفقراء والمساكين بها ولولا التجار لما كانت له قيمة، ويباع الثوب الواحد من القطن عندهم بالأثواب الكثيرة من الحرير وعادتهم أن يسبك التاجر ما يكون عنده من الذهب

والفضة قطعا تكون القطعة منها من قنطار فما فوقه وما دونه ،ويجعل ذلك على باب داره ومن كان له خمس قطع منها جعل في أصبعه خاتما، ومن كانت له عشر جعل خاتمين ،ومن كان له خمس عشرة سموه الستي ،وهو بمعنى الكارمي بمصر ويسمون القطعة الواحدة منه بركالة.

وأهل الصين لا يتبايعون بدينار ولا درهم وجميع ما يتحصل ببلادهم من ذلك يسبكونه قطعا كما ذكرناه، وإنما بيعهم وشراؤهم بقطع كاغد كل قطعة منها بقدر الكف مطبوعة بطابع السلطان وتسمى الخمس والعشرون قطعة منها بالشت وهو بمعنى الدينار عندنا، وإذا تمزقت تلك الكواغد في يد إنسان حملها إلى دار كدار السكة عندنا فأخذ عوضها جددا ودفع تلك ولا يعطى على ذلك أجرة ولا سواها لأن الذين يتولون عملها لهم الأرزاق الجارية من قبل السلطان، وقد وكل بتلك الدار أمير من كبار الأمراء وإذا مضى الإنسان إلى السوق بدرهم فضة أو دينار يريد شراء شيء لم يأخذ منه ولا يلتفت إليه حتى يصرفه بالبالشت ويشتري به ما أراد.

وجميع أهل الصين والخِطا(= كاثي، مناطق شمال الصين) إنما فحمهم تراب عندهم منعقد كالطفل عندنا ولونه لون الطفل تأتي الفيلة بالأحمال منه فيقطعونه قطعا على قدر قطع الفحم عندنا ويشعلون النار فيه فيقد كالفحم وهوأشد حرارة من نار الفحم وإذا صار رمادا عجنوه بالماء ويبسوه وطبخوا به ثانية ولا يزالون يفعلون به كذلك إلى أن يتلاشى ومن هذا التراب يصنعون أواني الفخار الصيني ويضيفون إليه حجارة سواه كما ذكرناه.

وأهل الصين أعظم الأمم أحكاما للصناعات وأشدهم إتقانا فيها وذلك مشهور من حالهم قد وصفه الناس في تصانيفهم فأطنبوا فيه، وأما التصوير فلا يجاريهم أحد في أحكامه من الروم ولا سواهم فإن لهم فيه اقتدارا عظيما ،ومن عجيب ما شاهدت لهم من ذلك أني ما دخلت قط مدينة من مدنهم ثم عدت إليها إلا ورأيت صورتي وصورة أصحابي منقوشة في الحيطان والكواغد موضوعة في الأسواق، ولقد دخلت إلى مدينة السلطان فمررت على سوق النقاشين ووصلت إلى قصر السلطان مع أصحابي ونحن على زي العراقيين، فلما عدت

من القصر عشيا مررت بالسوق المذكورة، فرأيت صورتي وصور أصحابي منقوشة في كاغد قد ألصقوه بالحائط فجعل الواحد منا ينظر إلى صورة صاحبه لا تخطئ شيئا من شبهه،،وذكر لي أن السلطان أمرهم بذلك وأنهم أتوا إلى القصر ونحن به فجعلوا ينظرون إلينا، و يصورون صورنا ونحن لم نشعر بذلك وتلك عادة لهم في تصوير كل من يمر بهم وتنتهي حالهم في ذلك إلى أن الغريب إذا فعل ما يوجب فراره عنهم بعثت صورته إلى البلاد وبحث عنه فحيثما وجد شبه تلك الصورة أخذ ه.

وعادة أهل الصين إذا أراد جنك من جنوكهم السفر صعد إليه صاحب البحر وكتّابه وكتبوا من يسافر فيه من الرماة والخدام والبحرية ،وحينئذ يباح لهم السفر فإذا عاد الجنك إلى الصين ،صعدوا إليه أيضا وقابلوا ما كتبوه بأشخاص الناس فإن فقدوا أحدا مما قيدوه طلبوا صاحب الجنك به فأما من يأتي ببرهان على موته أو فراره أو غير ذلك مما يحدث عليه وإلا أخذ فيه ،فإذا فرغوا من ذلك أمروا صاحب المركب أن يملي عليهم تفصيلا بجميع ما فيه من السلع قليلها وكثيرها ثم ينزل من فيه ويجلس حفاظ الديوان لمشاهدة ما عندهم فإن عثروا على سلعة قد كتمت عنهم عاد الجنك بجميع ما فيه مالا للمخزن وذلك نوع من الظلم ما رأيته ببلاد من بلاد الكفار ولا المسلمين إلا بالصين اللهم إلا أنه كان بالهند ما يقرب منه ،وهو أن من عثر على سلعة له قد غاب على مغرمها أغرم أحد عشر مغرما، ثم رفع السلطان ذلك لما رفع المغارم.

وإذا قدم التاجر المسلم على بلد من بلاد الصين خيّر في النزول عند تاجر من المسلمين المتوطنين معّين أو في الفندق ،فإن أحب النزول عند التاجر حصر ماله وضمنه التاجر المستوطن، وأنفق عليه منه بالمعروف ،فإذا أراد السفر بحث عن ماله فإن وجد شيئا منه قد ضاع أغرمه التاجر المستوطن الذي ضمنه وإن أراد النزول بالفندق سلم ماله لصاحب الفندق وضمنه ،وهو يشتري له ما أحب ويحاسبه ،فإن أراد التسري اشترى له جارية وأسكنه بدار يكون بابها في الفندق وأنفق عليهما ،والجواري رخيصات الأثمان لأن أهل الصين أجمعين يبيعون أولادهم وبناتهم وليس ذلك عيبا عندهم غير أنهم لا يجبرون على السفر مع

مشتريهم ولا يمنعون أيضا منه إن اختاروه ،وكذلك إن أراد التزوج تزوج وأما إنفاق ماله في الفساد فشيء لا سبيل له إليه ويقولون لا نريد أن يسمع في بلاد المسلمين أنهم يخسرون أموالهم في بلادنا فإنها أرض فساد وحسن فائت.

وبلاد الصين آمن البلاد وأحسنها حالا للمسافر فإن الإنسان يسافر منفردا مسيرة تسعة أشهر وتكون معه الأموال الطائلة فلا يخاف عليها، وترتيب ذلك أن لهم في كل منزل ببلادهم فندقا عليه حاكم يسكن به في جماعة من الفرسان والرجالة فإذا كان بعد المغرب والعشاء جاء الحاكم إلى الفندق ومعه كاتبه فكتب أسماء جميع من يبيت به من المسافرين وختم عيها وأقفل باب الفندق عليهم، فإذا كان بعد الصبح جاء ومعه كاتبه فدعا كل إنسان باسمه وكتب به تفصيلا وبعث معهم من يوصلهم إلى المنزل الثاني له، ويأتيه ببراءة من حاكمه أن الجميع قد وصلوا إليه ،وإن لم يفعل طلبه بهم و هكذا العمل في كل منزل ببلادهم من صين الصين في خان بالق ،وفي هذه الفنادق جميع ما يحتاج إلى المسافر من الأزواد وخصوصا الدجاج والإوز، وأما الغنم فهي قليلة عندهم.

من الزيتون إلى الخنسا

ولنعد إلى ذكر سفرنا ،فنقول: لما قطعنا البحر كانت أول مدينة وصلنا إليها مدينة الزيتون، وهذه المدينة ليس بها زيتون ولا بجميع بلاد أهل الصين والهند ،ولكنه اسم وضع عليها، وهي مدينة عظيمة كبيرة تصنع بها ثياب الكمخا والأطلس وتعرف بالنسبة إليها وتفضل على الثياب الخنساوية والخنبالقية ،ومرساها من أعظم مراسي الدنيا أو هو أعظمها. رأيت به نحو مائة جنك كبار وأما الصغار فلا تحصى كثرة ،وهو خور كبير من البحر يدخل في البر حتى يختلط بالنهر الأعظم، وهذه المدينة وجميع بلاد الصين يكون للإنسان بها البستان والأرض وداره في وسطها كمثل ما هي ببلدة سجلماسة ببلادنا ،وبهذا عظمت بلادهم والمسلمون ساكنون بمدينة على حدة.

وفي يوم وصولي إليها رأيت بها الأمير الذي توجه إلى الهند رسولا بالهدية ومضى في

صحبتنا وغرق به الجنك فسلم عليّ وعرّف صاحب الديوان بي؛ فأنزلني في منزل حسن، وجاء إلي قاضي المسلمين تاج الدين الأردويلي، وهو من الأفاضل الكرماء ،وشيخ الإسلام كمال الدين عبد الله الأصفهاني، وهو من الصلحاء ،وجاء إلي كبار التجار فيهم شرف الدين التبريزي أحد التجار الذي استدنت منهم حين قدومي على الهند وأحسنهم معاملة حافظ للقرآن مكثر للتلاوة ،وهؤلاء التجار لسكناهم في بلاد الكفار إذا قدم عليهم المسلم فرحوا به أشد الفرح وقالوا جاء من أرض الإسلام وله يعطون زكوات أموالهم فيعود غنيا كواحد منهم ،وكان بها من المشايخ الفضلاء برهان الدين الكازورني له زاوية خارج البلد وإليه يدفع التجار النذور التي ينذرونها للشيخ أبي إسحاق الكازروني، ولما عرف صاحب الديوان أخباري كتب إلى القان(= الخان) وهو ملكهم الأعظم يخبره بقدومي من جهة ملك الهند فطلبت منه أن يبعث معي من يوصلني إلى بلاد صين الصين وهم يسمونها صين كلان لأشاهد تلك البلاد، وهي في عمالته بخلال ما يعود جواب القان فأجاب إلى ذلك وبعث معي من أصحابه من يوصلني.

وركبت في النهر في مركب يشبه أجفان بلادنا الغزوية إلا أن الجذافين يجذفون فيه قياما وجميعهم في وسط المراكب والركاب في المقدم والمؤخر ويظلون على المركب بثياب تصنع من نبات ببلادهم يشبه الكتان وليس به ،وهو أرق من القنب .وسافرنا في هذا النهر سبعة وعشرين يوما ،وفي كل يوم نرسو عند الزوال بقرية نشتري بها ما نحتاج إليه، ونصلي الظهر ثم ننزل بالعشي إلى أخرى، وهكذا إلى أن وصلنا مدينة صين كلان، وهي مدينة صين الصين، وبها يصنع الفخار وبالزيتون أيضا ،وهنالك يصب نهر آب حياة في البحر ويسمونه مجمع البحرين، وهي من أكبر المدن وأحسنها أسواقا ومن أعظم أسواقها سوق الفخار، ومنها يحمل إلى سائر بلاد الصين والهند واليمن وفي وسط هذه المدينة كنيسة عظيمة لها تسعة أبواب داخل كل باب أسطوان ومصاطب يقعد عليها الساكنون بها وبين البابين الثاني والثالث منها موضع فيه بيوت يسكنها العميان وأهل الزمانات ولكل واحد منهم نفقته وكسوته من أوقاف الكنيسة، وكذلك فيما بين الأبواب كلها وفي داخلها المارستان

للمرضى والمطبخة لطبخ الأغذية ،وفيها الأطباء والخدام .وذكر لي أن الشيوخ الذين لا قدرة لهم على التكسب لهم نفقتهم وكسوتهم بهذه الكنيسة ،وكذلك الأيتام والأرامل ممن لا مال لهم، وعمّر هذه الكنيسة بعض ملوكهم ،وجعل هذه المدينة وما إليها من القرى والبساتين وقفا عليها، وصورة ذلك الملك مصورة بالكنيسة المذكورة ،وهم يعبدونها. وفي بعض جهات هذه المدينة بلدة المسلمين لهم بها المسجد الجامع والزاوية والسوق ولهم قاض وشيخ ولا بد في كل بلد من بلاد الصين من شيخ الإسلام تكون أمور المسلمين كلها راجعة إليه وقاض يقضي بينهم. وكان نزولي عند أوحد الدين السنجاري وهو أحد الفضلاء الأكابر ذوي الأموال الطائلة، وأقمت عنده أربعة عشر يوما وتحف القاضي وسائر المسلمين تتوالى علي ،وكل يوم يصنعون دعوة جديدة ،ويأتون إليها بالعشارين الحسان والمغنين، وليس وراء هذه المدينة مدينة لا للكفار ولا للمسلمين، وبينها وبين سد يأجوج ومأجوج ستون يوما فيما ذكر لي، يسكنها كفار رحالة يأكلون بني آدم إذا ظفروا بهم ،ولذلك لا تسلك بلادهم ولا يسافر إليها .ولم أر بتلك البلاد من رأى السد المذكور ولا من رأى من رآه.

ولما كنت بصين كلان سمعت أن بها شيخا كبيرا قد أناف على مائتي سنة وأنه لا يأكل ولا يشرب ولا يحدث ولا يباشر النساء مع قوته التامة، وأنه ساكن في غار بخارجها يتعبد فيه ؛فتوجهت إلى الغار ،فرأيته على بابه ،وهو نحيف شديد الحمرة عليه أثر العبادة ولا لحية له ،فسلمت عليه فأمسك يدي وشمها ،وقال للترجمان :هذا من طرف الدنيا كما نحن من طرفها الآخر ،ثم قال لي :لقد رأيت عجبا، أتذكر قدومك الجزيرة التي فيها الكنيسة والرجل الذي كان بين الأصنام وأعطاك عشرة دنانير من الذهب ؟فقلت: نعم فقال: أنا هو، فقبلت يده ،وفكر ساعة ثم دخل الغار فلم يخرج إلينا ،وكأنه ظهر منه الندم على ما تكلم به، فتجهمنا ودخلنا عليه فلم نجده ،ووجدنا بعض أصحابه ومعه جملة بوالشت من الكاغد، فقال :هذه ضيافتكم ،فانصرفوا فقلنا له: ننتظر الرجل فقال: لو أقمتم عشر سنين لم تروه فإن عادته إذا أطلع أحد على سر من أسراره لا يراه بعده ولا تحسب أنه غاب عنك

بل هو حاضر معك، فعجبت من ذلك وانصرفت، فأعلمت القاضي وشيخ الإسلام وأوحد الدين السنجاري بقضيته ،فقالوا :كذلك عادته مع من يأتي إليه من الغرباء ولا يعلم أحد ما ينتحله من الأديان، والذي ظننتموه أحد أصحابه هو هو. وأخبروني أنه غاب عن هذه البلاد نحو خمسين سنة ثم قدم عليها منذ سنة ،وكان السلاطين والأمراء والكبراء يأتونه زائرين فيعطيهم التحف على أقدارهم ويأتيه الفقراء كل يوم فيعطي لكل أحد على قدره .وليس في الغار الذي هو به ما يقع عليه البصر وأنه يحدث عن السنين الماضية، ويذكر النبي صلى الله عليه وسلم ،ويقول لوكنت معه لنصرته، ويذكر الخليفتين عمر بن الخطاب وعلي بن أبي طالب بأحسن الذكر، ويثني عليهما ويلعن يزيد بن معاوية ويقع في معاوية.

وحدثوني عنه بأمور كثيرة وأخبرني أوحد الدين السنجاري قال دخلت عليه الغار فأخذ بيدي فخيل لي أني في قصر عظيم وأنه قاعد فيه على سرير وفوق رأسه تاج وعن جانبيه الوصائف الحسان والفواكه تتساقط في أنهار هنالك وتخيلت أني أخذت تفاحة لآكلها فإذا أنا بالغار وبين يديه وهو يضحك مني وأصابني مرض شديد لازمني شهورا فلم أعد إليه،وأهل تلك البلاد يعتقدون أنه مسلم لكن لم يره أحد يصلي، وأما الصيام فهو صائم أبدا .وقال لي القاضي :ذكرت له الصلاة في بعض الأيام ،فقال لي: أتدري أنت ما أصنع إن صلاتي غير صلاتك ؟وأخباره جميعها غريبة.

وفي اليوم الثاني من لقائه سافرت راجعا إلى مدينة الزيتون وبعد وصولي إليها بأيام جاء أمر القان بوصولي إلى حضرته على البر والكرامة إن شئت في النهر وإلا ففي البر فاخترت السفر في النهر فجهزوا لي مركبا حسنا من المراكب المعدة لركوب الأمراء وبعث الأمير معنا أصحابه ووجه لنا الأمير والقاضي والتجار المسلمون أزوادا كثيرة.

وسرنا في الضيافة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى فوصلنا بعد سفر عشرة أيام إلى مدينة قنجنفو، مدينة كبيرة حسنة في بسيط أفيح والبساتين محدقة بها فكأنها غوطة دمشق ،وعند وصولنا خرج إلينا القاضي وشيخ الإسلام والتجار ومعهم الأعلام والطبول والأبواق والأنفار وأهل الطرب، وأتونا بالخيل فركبنا ومشوا بين أيدينا لم يركب معنا غير القاضي

والشيخ ،وخرج أمير البلد وخدامه وضيف السلطان عندهم معظم أشد التعظيم ودخلنا المدينة ولها أربعة أسوار يسكن ما بين السور الأول والثاني عبيد السلطان من حراس المدينة وسمارها يسمون البصواناں ويسكن ما بين السور الثاني والثالث الجنود المركبون والأمير الحاكم على البلد ويسكن داخل السور الثالث المسلمون ،وهنالك نزلنا عند شيخهم ظهير الدين القرلاني ،ويسكن داخل السور الرابع الصينيون ،وهوأعظم المدن الأربعة ومقدار ما بين كل باب منها والذي يليه ثلاثة أميال وأربعة ،ولكل إنسان كما ذكرناه بستانه وداره وأرضه.

وبينا أنا يوما في دار ظهير الدين القرلاني إذا بمركب عظيم لبعض الفقهاء المعظمين عندهم فاستؤذن له علي وقالوا مولانا قوام الدين السبتي فعجبت من اسمه ودخل إلي فلما حصلت المؤانسة بعد التحية سنح لي أن أعرفه فأطلت النظر إليه ،فقال: أراك تنظر إلي نظر من يعرفني، فقلت له :من أي البلاد أنت؟ فقال :من سبتة ،فقلت له: وأنا من طنجة ،فجدد السلام علي وبكى حتى بكيت لبكائه، قلت له :هل دخلت بلاد الهند؟ فقال لي: نعم دخلت حضرة دهلي، فلما قال لي ذلك تذكرت ،وقلت له: أأنت البشري ؟قال: نعم .وكان وصل إلى دهلي مع خاله أبي القاسم المرسي، وهو يومئذ شاب لا نبات بعارضيه من حذاق الطلبة يحفظ الموطأ، وكنت أعلمت سلطان الهند بأمره فأعطاه ثلاثة آلاف دينار ،وطلب منه الإقامة عنده فأبى وكان قصده في بلاد الصين فعظم شأنه بها، واكتسب الأموال الطائلة. أخبرني أن له نحو خمسين غلاما ومثلهم من الجواري وأهدى إلي منهم

وكانت إقامتي بقنجنفو خمسة عشر يوما وسافرت منها وبلاد الصين على ما فيها من الحسن لم تكن تعجبني بل كان خاطري شديد التغير بسبب غلبة الكفر عليها فمتى خرجت عن منزلي رأيت المناكير الكثيرة؛ فأقلقني ذلك حتى كنت ألازم المنزل فلا أخرج إلا للضرورة ،وكنت إذا رأيت المسلمين بها فكأني لقيت أهلي وأقاربي.

ومن تمام فضيلة هذا الفقيه البشري أن سافر معي لما رحلت عن قنجنفو أربعة أيام حتى وصلت إلى مدينة بيوم قطلو مدينة صغيرة يسكنها الصينيون من جند وسوقة وليس بها

للمسلمين إلا أربعة من الدور أهلها من جهة الفقيه المذكور نزلنا بدار أحدهم وأقمنا عنده ثلاثة أيام ثم ودعت الفقيه وانصرفت .

مدينة الخنسا

فركبت النهر على العادة نتغدى بقرية ونتعشى بأخرى إلى أن وصلنا بعد سبعة عشر يوما منها إلى مدينة الخنسا، واسمها على نحو اسم الخنساء الشاعرة ولا أدري أعربي هو أم وافق العربي ؟وهذه المدينة أكبر مدينة رأيتها على وجه الأرض طولها مسيرة ثلاثة أيام يرحل المسافر فيها وينزل وهي على ما ذكرناه من ترتيب عمارة الصين كل واحد له بستانه وداره وهي منقسمة إلى ست مدن سنذكرها ،وعند وصولنا إليها خرج إلينا قاضيها فخر الدين وشيخ الإسلام بها وأولاد عثمان بن عفان المصري وهم كبراء المسلمين بها ومعهم علم أبيض والأطبال والأنفار والأبواق وخرج أميرها في موكبه ودخلنا المدينة وهي ست مدن على كل مدينة سور ومحدق بالجميع سور واحد .فأول مدينة منها يسكنها حراس المدينة وأميرهم حدثني القاضي وسواه انهم اثنا عشر ألفا في زمام العسكرية وبتنا ليلة دخولنا في دار أميرهم .

وفي اليوم الثاني دخلنا المدينة الثانية على باب يعرف بباب اليهود ويسكن بها اليهود والنصارى والترك عبدة الشمس وهم كثير وأمير هذه المدينة من أهل الصين وبتنا عنده الليلة الثانية .

وفي اليوم الثالث دخلنا المدينة الثالثة ويسكنها المسلمون ومدينتهم حسنة وأسواقهم مرتبة كترتيبها في بلاد الإسلام ،وبها المساجد والمؤذنون سمعناهم يؤذنون بالظهر عند دخولنا ونزلنا منها بدار أولاد عثمان بن عفان المصري .وكان أحد التجار الكبار استحسن هذه المدينة فاستوطنها وعرفت بالنسبة إليه ،وأورث عقبه بها الجاه والحرمة وهم على ما كان عليه أبوهم من الإيثار على الفقراء والإعانة للمحتاجين، ولهم زاوية تعرف بالعثمانية حسنة العمارة لها أوقاف كثيرة وبها طائفة من الصوفية وبنى عثمان المذكور المسجد الجامع بهذه المدينة ووقف عليه وعلى الزاوية أوقاف عظيمة وعدد المسلمين بهذه المدينة كثير وكانت

إقامتنا عندهم خمسة عشر يوما فكنا كل يوم وليلة في دعوة جديدة ولا يزالون يختلفون في أطعمتهم ويركبون معنا كل يوم للنزهة في أقطار المدينة.

وركبوا معي يوما فدخلنا إلى المدينة الرابعة، وهي دار الإمارة وبها سكنى الأمير الكبير قرطي، ولما دخلنا من بابها ذهب عني أصحابي ولقيني الوزير وذهب بي إلى دار الأمير الكبير قرطي فكان من أخذه الفرجية التي أعطانيها ولي الله جلال الدين الشيرازي ما قد ذكرته، وهذه المدينة منفردة لسكنى عبيد السلطان وخدامه وهي أحسن المدن الست ويشقها أنهار ثلاثة أحدها خليج يخرج من النهر الأعظم وتأتي فيه القوارب الصغار إلى هذه المدينة بالمرافق من الطعام وأحجار الوقد وفيه السفن للنزهة والمشور في وسط هذه المدينة وهو كبير جدا ودار الإمارة في وسطه وهو يحف بها من جميع الجهات وفيه سقائف فيها الصناع يصنعون الثياب النفيسة وآلات الحرب.

أخبرني الأمير قرطي أن عددهم ألف وستمائة معلم كل واحد منهم يتبعه الثلاثة والأربعة من المتعلمين وهم أجمعون عبيد القان، وفي أرجلهم القيود ومساكنهم خارج القصر ويباح لهم الخروج إلى أسواق المدينة دون الخروج على بابها ويعرضون كل يوم على الأمير مائة مائة فإن نقص أحدهم طلب به أميره وعادتهم أنه إذا خدم أحدهم عشر سنين فك عنه قيده وكان يخير في النظرين أما أن يقيم في الخدمة غير مقيد وأما أن يسير حيث شاء من بلاد القان، ولا يخرج عنها وإذا بلغ سنه خمسين عاما أعتق من الأشغال وأنفق عليه وكذلك ينفق على من بلغ هذه السن أو نحوها من سواهم ومن بلغ ستين سنة عدوه كالصبي فلم تجر عليه الأحكام. والشيوخ بالصين يعظمون تعظيما كثيرا ويسمى أحدهم آطا ومعناه الوالد ،والأمير الكبير قرطي هو أمير أمراء الصين أضافنا بداره وصنع الدعوة ويسمونها الطوى ،وحضرها كبار المدينة ،وأتى بالطباخين المسلمين فذبحوا وطبخوا الطعام وكان هذا الأمير على عظمته يناولنا الطعام بيده ويقطع اللحم بيده، وأقمنا في ضيافته ثلاثة أيام، وبعث ولده معنا إلى الخليج.

فركبنا في سفينة تشبه الحراقة وركب ابن الأمير في أخرى ومعه أهل الطرب وأهل الموسيقى

وكانوا يغنون بالصيني وبالعربي وبالفارسي وكان ابن الأمير معجبا بالغناء الفارسي فغنوا شعرا منه(= هو لسعدي الشيرازي) وأمرهم بتكريره مرارا حتى حفظته من أفواههم وله تلحين عجيب وهو :

تادل بمهرت داده أم در بحر فكر افتاده أم—جون درنماز استاده كويي بمحرابم دري) .

واجتمعت بذلك الخليج من السفن طائفة كبيرة لهم القلاع الملونة ومظلات الحرير وسفنهم منقوشة أبدع نقش وجعلوا يتحاملون ويترامون بالنارنج والليمون، وعدنا بالعشي إلى دار الأمير فبتنا بها ،وحضر أهل الطرب فغنوا بأنواع من الغناء العجيب .

و في تلك الليلة حضر أحد المشعوذة وهو من عبيد القان، فقال له الأمير :أرنا من عجائبك، فأخذ كرة خشب لها ثقب فيها سيور طوال فرمى بها إلى الهواء ،فارتفعت حتى غابت عن الأبصار، ونحن في وسط المشور أيام الحر الشديد ،فلما لم يبق من السير في يده إلا يسير أمر متعلما له فتعلق به وصعد في الهواء إلى أن غاب عن أبصارنا، فدعاه فلم يجبه ثلاثا فأخذ سكينا بيده كالمغتاظ وتعلق بالسير إلى أن غاب أيضا ،ثم رمى بيد الصبي إلى الأرض، ثم رمى برجله ،ثم بيده الأخرى ،ثم برجله الأخرى ،ثم بجسده، ثم برأسه ،ثم هبط وهو ينفخ وثيابه ملطخة بالدم، فقبل الأرض بين يدي الأمير، وكلمه بالصيني وأمر له الأمير بشيء، ثم أنه أخذ أعضاء الصبي فألصق بعضها ببعض، وركضه برجله فقام سويا، فعجبت منه، وأصابني خفقان القلب كمثل ما كان أصابني عند ملك الهند حين رأيت مثل ذلك ،فسقوني دواء أذهب عني ما وجدت ،وكان القاضي فخر الدين إلى جانبي فقال لي والله ما كان من صعود ولا نزول ولا قطع عضو وإنما شعوذة.

وفي غد تلك الليلة دخلنا من باب المدينة الخامسة وهي من أكبر المدن يسكنها عامة الناس وأسواقها حسان وبها الحذاق بالصنائع وبها تصنع الثياب الخنساوية، ومن عجيب ما يصنعون بها أطباقا يسمونها الدست، وهي من القصب، وقد ألصقت قطعة أبدع إلصاق ودهنت بصبغ أحمر مشرق وتكون هذه الأطباق عشرة واحدا في جوف آخر لرقتها تظهر لرائيها كأنها طبق واحد ،ويصنعون غطاء يغطي جميعها ويصنعون من هذا القصب

صحافا،ومن عجائبها أن تقع من العلو فلا تنكسر ويجعل فيها الطعام السخن فلا يتغير صباغها ولا يحول ،وتجلب من هنالك إلى الهند وخراسان وسواها ،ولما دخلنا هذه المدينة بتنا ليلة في ضيافة أميرها.

وبالغد دخلنا من باب يسمى كشتي وانان إلى المدينة السادسة ويسكنها البحرية والصيادون والجلامطة والنجارون ويدعون دودكاران والأصباهية وهم الرماة والبيادة وهم الرجالة ،وجميعهم عبيد السلطان ولا يسكن معهم سواهم وعددهم كثير ،وهذه المدينة على ساحل النهر الأعظم بتنا بها ليلة في ضيافة أميرها وجهز لنا الأمير قرطي مركبا بما يحتاج إليه من زان وسواه وبعث معنا أصحابه برسم التضييف.

بلاد الخطا

وسافرنا من هذه المدينة وهي آخر أعمال الصين ودخلنا إلى بلاد الخطا(= شمال الصين) وهي أحسن بلاد الدنيا عمرة ولايكون في جميعها موضع غير معمور فإنه إن بقي موضع غير معمور طلب أهله أو من يواليهم بخراجه والبساتين والقرى والمزارع منتظمة بجانبي هذا النهر من مدينة الخنسا إلى مدينة خان بالق وذلك مسيرة أربعة وستين يوما ،وليس بها أحد من المسلمين إلا من كان خاطرا غير مقيم لأنها ليست بدار مقام وليس بها مدينة مجتمعة إنما هي قرى وبسائط فيها الزرع والفواكه والسكر ،ولم أر في الدينا مثلها غير مسيرة أربعة أيام من الأنبار إلى عانة.

وكنا كل ليلة ننزل بالقرى لأجل الضيافة حتى وصلنا إلى مدينة خان بالق ،وتسمى أيضا، خانقو، وهي حضرة القان ،والقان هو سلطانهم الأعظم الذي مملكته بلاد الصين والخطا، ولما وصلنا إليها أرسينا على عشرة أميال منها على العادة عندهم وكتب إلى أمراء البحر بخبرنا فأذنوا لنا في دخول مرساها، فدخلناه ثم نزلنا إلى المدينة وهي من أعظم مدن الدنيا وليست على ترتيب بلاد الصين في كون البساتين داخلها إنما هي كسائر البلاد والبساتين بخارجها ومدينة السلطان في وسطها كالقصبة حسبما نذكره ،ونزلت عند

الشيخ برهان الدين الصاغرجي وهو الذي بعث إليه ملك الهند بأربعين ألف دينار واستدعاه فأخذ الدنانير وقضى بها دينه وأبى أن يسير إليه ،وقدم على بلاد الصين فقدمه القان على جميع المسلمين الذين ببلاده وخاطبه بصدر الجهان .

والقان عندهم سمة لكل من يلي الملك: ملك الأقطار كمثل ما يسمى كل من ملك بلاد اللور، بأتابك واسمه باشاي وليس للكفار على وجه الأرض مملكة أكبر من مملكته وقصره في وسط المدينة المختصة بسكناه ،وأكثر عمارته بالخشب المنقوش وله ترتيب عجيب وعليه سبعة أبواب :فالباب الأول منها يجلس به الكتوال، وهو أمير البوابين وله مصاطب مرتفعة عن يمين الباب ويساره فيها المماليك البرد دارية ،وهم حفاظ باب القصر وعددهم خمسمائة رجل، وأخبرت أنهم كانوا فيماتقدم ألف رجل، والباب الثاني يجلس عليه الأصباهية وهم الرماة وعددهم خمسمائة،والباب الثالث يجلس عليه النزدارية وهم أصحاب الرماح وعددهم خمسمائة ،والباب الرابع يجلس عليه التغدارية وهم أصحاب السيوف والتروسة ،والباب الخامس فيه ديوان الوزارة وله سقائف كثيرة فالسقيفة العظمى يقعد بها الوزير على مرتبة هائلة مرتفعة، ويسمون ذلك الموضع المسند وبين يدي الوزير دواة عظيمة من الذهب وتقابل هذه السقيفة سقيفة كتاب الأشغال وتقابل هذه السقائف سقائف أربع إحداها تسمى ديوان الإشراف يقعد بها المشرف والثانية سقيفة ديوان المستخرج، وأميرها من كبار الأمراء والمستخرج هو ما يبقى قبل العمال وقبل الأمراء من إقطاعاتهم والثالثة ديوان الغوث ويجلس فيها أحد الأمراء الكبار ومعه الفقهاء والكتاب فمن لحقته مظلمة استغاث بهم والرابعة ديوان البريد يجلس فيها أمير الأخباريين ،والباب السادس من أبواب القصر يجلس عليه الجندارية وأميرهم الأعظم ،والباب السابع يجلس عليه الفتيان ولهم ثلاثة سقائف إحداهما سقيفة الحبشان منهم والثانية سقيفة الهنود والثالثة سقيفة الصينيين لكل طائفة منهم أمير من الصينيين .

ولما وصلنا حضرة خان بالق وجدنا القان غائبا عنها إذ ذاك، وخرج للقاء ابن عمه فيروز القائم عليه بناحية قراقرم وبش بالغ من بلاد الخطا، وبينها وبين الحضرة مسيرة ثلاثة أشهر

عامرة .وأخبرني صدر الجهان برهان الدين الصاغرجي أن القان لما جمع الجيوش وحشد الحشود اجتمع عليه من الفرسان مائة فوج كل فوج منها من عشرة آلاف فارس ،وأميرهم يسمى أمير طومان وكان خواص السلطان وأهل دخلته خمسين ألفا زائدا إلى ذلك وكانت الرجالة خمسمائة ألف، ولما خرج خالف عليه أكثر الأمراء واتفقوا على خلعة لأنه كان قد غير أحكام اليساق، وهي الأحكام التي وضعها تنكيز خان جدهم الذي خرب بلاد الإسلام فمضوا إلى ابن عمه القائم وكتبوا إلى القان أن يخلع نفسه ،وتكون مدينة الخنسا إقطاعا له فأبى ذلك وقاتلهم فانهزم وقتل وبعد أيام من وصولنا إلى حضرته ورد الخبر بذلك فزينت المدينة وضربت الطبول والأبواق والأنفار واستعمل اللعب والطرب مدة شهر ، ثم جيء بالقان المقتول وبنحو مائة من المقتولين بني عمه وأقاربه وخواصه فحفر للقان ناووس عظيم وهو بيت تحت الأرض وفرش بأحسن الفرش وجعل فيه القان بسلاحه، وجعل معه ما كان في داره من أواني الذهب والفضة وجعل معه أربع من الجواري وستة من خواص المماليك معهم أواني الشراب وبني باب البيت وجعل فوقه التراب حتى صار كالتل العظيم ثم جاؤوا بأربعة أفراس فأجروها عند قبره حتى وقفت ونصبوا خشبا على القبر وعلقوها عليه بعد أن دخلوا في دبر كل فرس خشبة حتى خرجت من فمه وجعل أقارب القان المذكورون في نواويس ومعهم سلاحهم وأواني دورهم وصلبوا على قبور كبارهم وكانوا عشرة ثلاثة من الخيل على كل قبر وعلى قبور الباقين فرسا فرسا وكان هذا اليوم يوما مشهودا لم يتخلف عنه أحد من الرجال ولا النساء والمسلمين والكفار وقد لبسوا أجمعون ثياب العزاء وهي الطيالسة البيض للكفار والثياب البيض للمسلمين وأقام خواتين القان وخواصه في الأخبية على قبره أربعين يوما وبعضهم يزيد على ذلك إلى سنة وصنعت هنالك سوق يباع فيها ما يحتاجون إليه من طعام وسواه ،وهذه الأفعال لا أذكر أن أمة تفعلها سواهم في هذا العصر فأما الكفار من الهنود وأهل الصين فيحرقون موتاهم وسواهم من الأمم يدفنون الميت ولا يجعلون معه أحدا لكن أخبرني الثقات ببلاد السودان أن الكفار منهم إذا مات ملكهم صنعوا له ناووسا وأدخلوا معه بعض خواصه وخدامه وثلاثين من أبناء كبارهم وبناتهم بعد

أن يكسروا أيديهم وأرجلهم ويجعلون معهم أواني الشراب، وأخبرني بعض كبار مسوفة ممن يسكن بلاد كوبر مع السودان واختصه سلطانهم أنه كان له ولد فلما مات سلطانهم أرادوا أن يدخلوا ولده مع من أدخلوه من أولادهم قال فقلت لهم :كيف تفعلون ذلك ،وليس على دينكم ولا من ولدكم ؟ثم فديته منهم بمال عريض، ولما قتل القان كما ذكرناه واستولى ابن عمه فيروز على الملك اختار أن تكون حضرته مدينة قراقرم لقربها من بلاد بني عمه ملوك تركستان، وما وراء النهر ثم خالفت عليه الأمراء ممن لم يحضر لقتل القان وقطعوا الطرق وعظمت الفتن.

من الصين إلى جاوة

ولما وقع الخلاف وتسعرت الفتن أشار علي الشيخ برهان الدين وسواه أن أعود إلى الصين قبل تمكن الفتن، ووقفوا معي إلى نائب السلطان فيروز فبعث معي ثلاثة من أصحابه و كتب لي بالضيافة وسرنا منحدرين في النهر إلى الخنسا ثم إلى قنجفو ثم إلى الزيتون فلما وصلتهما وجدت الجنوك على السفر إلى الهند، وفي جملتها جنك للملك الظاهر صاحب الجاوة أهله مسلمون وعرفني وكيله وسر بقدومي.

وصادفتنا الريح الطيبة عشرة أيام فلما قاربنا بلاد طوالسي تغيرت الريح وأظلم الجو وكثر المطر وأقمنا عشرة أيام لا نرى الشمس ثم دخلنا بحرا لا نعرفه وخاف أهل الجنك فأرادوا الرجوع إلى الصين فلم يتمكن ذلك وأقمنا اثنين وأربعين يوما لانعرف في أي البحار نحن .ولما كان في اليوم الثالث والأربعين ظهر لنا بعد طلوع الفجر جبل في البحر بيننا وبينه نحو عشرين ميلا والريح تحملنا إلى صوبه، فعجب البحرية وقالوا: لسنا بقرب من البر ولا يعهد في البحر جبل وإن اضطرتنا الريح إليه هلكنا فلجأ الناس إلى التضرع والإخلاص وجددوا التوبة وابتهلنا إلى الله بالدعاء وتوسلنا بنبيه صلى الله عليه وسلم ،ونذر التجار الصدقات الكثيرة وكتبتها لهم في زمام بخطي ،وسكنت الريح بعض سكون ثم رأينا ذلك الجبل عند طلوع الشمس قد ارتفع في الهواء وظهر الضوء فيما بينه وبين البحر فعجبنا من ذلك، ورأيت البحرية يبكون ويودع بعضهم بعضا ،فقلت :ما شأنكم؟ فقالوا :إن الذي

تخيلناه جبلا هو الرخ وإن رآنا أهلكنا وبيننا وبينه آنذاك أقل من عشرة أميال، ثم إن الله تعالى منّ علينا بريح طيبة صرفتنا عن صوبه، فلم نره ولا عرفنا حقيقة صورته.

وبعد شهرين من ذلك اليوم وصلنا الجاوة ونزلنا إلى سمطرة فوجدنا سلطانها الملك الظاهر قد قدم من غزوة له وجاء بسبي كثير؛ فبعث لي جاريتين وغلامين وأنزلني على العادة وحضرت إعراس ولده مع بنت أخيه وشاهدت يوم الجلوة فرأيتهم قد نصبوا في وسط المشهور منبرا كبيرا وكسوه بثياب الحرير، وجاءت العروس من داخل القصر على قدميها بادية الوجه ومعها نحو أربعين من الخواتين يرفعن أذيالها من نساء السلطان، وأمرائه ووزارئه وكلهن باديات الوجوه ينظر إليهن كل من حضر من رفيع أو وضيع وليست تلك بعادة لهن إلا في الأعراس خاصة، وصعدت العروس المنبر وبين يديها أهل الطرب رجالا ونساء يلعبون ويغنون ،ثم جاء الزوج على فيل مزين على ظهره سرير وفوقه قبة شبيه البوجة(=محفة العروس) والتاج على رأس العروس المذكور، وعن يمينه ويساره نحو مائة من أبناء الملوك والأمراء قد لبسوا البياض وركبوا الخيل المزينة وعلى رؤوسهم الشواشي المرصعة ،وهم أتراب العروس ليس فيهم ذو لحية ونثرت الدنانير والدراهم على الناس عند دخوله .

وقعد السلطان بمنظرة له يشاهد ذلك ونزل ابنه فقبل رجله وصعد المنبر إلى العروس فقامت إليه وقبلت يده وجلس إلى جانبها والخواتين يروحون عليها وجاؤوا بالفوفل والتنبول فأخذه الزوج بيده وجعل منه في فمها ثم أخذت هي بيديها وجعلت في فمه ثم أخذ الزوج بفمه ورقة تنبول وجعلها في فمها وذلك كله على أعين الناس ثم فعلت هي كفعله ثم وضع عليها الستر ورفع المنبر وهما فيه إلى داخل القصر وأكل الناس وانصرفوا ثم لما كان من الغد جمع الناس وأجرى له أبوه ولاية العهد وبايعه الناس وأعطاهم العطاء الجزل من الثياب والذهب وأقمت بهذه الجزيرة شهرين ثم ركبت في بعض الجنوك وأعطاني السلطان كثيرا من العود والكافور والقرنفل والصندل.

من جاوة إلى البصرة

وسافرت عنه فوصلت بعد أربعين يوما إلى كولم فنزلت بها في جوار القزويني قاضي

المسلمين ،وذلك في رمضان وحضرت بها صلاة العيد في مسجدها الجامع وعادتهم أن يأتوا المسجد ليلا فلا يزالون يذكرون الله إلى الصبح ثم يذكرون إلى حين صلاة العيد ثم يصلون ويخطب الخطيب وينصرفون.

ثم سافرنا من كولم إلى قالقوط ،وأقمنا بها أياما وأردت العودة إلى دهلي ثم خفت من ذلك . فركبت البحر فوصلت بعد ثمان وعشرين ليلة إلى ظفار وذلك في محرم سنة ثمان وأربعين (وسبعمئة=أبريل ١٣٤٧) ونزلت بدار خطيبها عيسى بن طأطأ ووجدت سلطانها في هذه الكرة الملك الناصر بن الملك المغيث الذي كان ملكا بها حين وصولي إليها فيما تقدم ونائبه سيف الدين عمر أمير جندر التركي الأصل وأنزلني هذا السلطان وأكرمني ثم ركبت البحر فوصلت إلى مسقط ،وهي بلدة صغيرة بها السمك الكثير المعروف بقلب الماس ، ثم سافرنا إلى مرسى القريات ، ثم سافرنا إلى مرسى شبه ،ثم إلى مرسى كلبه ،ثم إلى قلهات . . وهذه البلاد كلها من عمالة هرمز وهي محسوبة من بلاد عمان ، ثم سافرنا إلى هرمز وأقمنا بها ثلاثا ، وسافرنا في البر إلى كورستان ثم إلى اللار ثم إلى خنج بال ، ثم سافرنا إلى كارزي وأقمنا بها ثلاثا ، ثم سافرنا إلى جمكان ،ثم سافرنا منها إلى ميمن ،ثم سافرنا إلى بسا ،ثم إلى مدينة شيراز فوجدنا سلطانها أبا إسحاق على ملكه إلا أنه كان غائبا عنها ،ولقيت بها شيخنا الصالح العالم مجد الدين قاضي القضاة وهو قد كف بصره نفعه الله ونفع به ،ثم سافرت إلى ماين ،ثم إلى يزد خاص ،ثم إلى كليل ،ثم إلى كشك زر ثم إلى أصبهان ،ثم إلى تستر، ثم إلى الحويزاء ،ثم إلى البصرة . .وزرت بالبصرة القبور الكريمة التي بها ،وهي قبر الزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله وحليمة السعدية وأبي بكرة وأنس بن مالك والحسن البصري وثابت البناني ومحمد بن سيرين ومالك بن دينار ومحمد بن واسع وحبيب العجمي وسهل بن عبد الله التستري رضي الله تعالى عنهم أجمعين .)

مصادر كتاب الشرق

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (٧٧٩=١٣٧٧)

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق كرم البستاني، بيروت، دار صادر

البلخي، أبو زيد أحمد بن سهل(٣٢٢=٩٣٢)

- المسالك والممالك،ليدن ، بريل، ١٩٣٧(ملحق بكتاب الإصطخري :المسالك والممالك البيروني، أبو الريحان محمد بن أحمد(٤٤٠=١٠٤٨)

- في تحقيق ماللهند من مقوله مقبولة في العقل أو مرذوله،حيدر آباد مطبعة دائرة المعارف العثمانية، ١٩٥٨

ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن حوقل البغدادي(توفي بعد ٣٦٧ =بعد ٩٧٧)

- صورة الأرض، بيروت، دار صادر، ١٩٣٩

ابن خرداذبة، أبو القاسم عبد الله بن أحمد(توفي بين ٢٨٠ و٣٠٠= نحو ٨٩٢-٩١٣)

- المسالك والممالك، بعناية م.ج.دي خويه، ليدن ، بريل ،١٨٨٩

الرام هرمزي، بزرك بن شهريار (توفي بعد ٣٤٠=بعد ٩٥٠)

- كتاب عجائب الهند :برّه وبحره وجزايره ، تحقيق فان دي ليث، ليدن ، بريل، ١٨٨٣-١٨٨٦

ابن رسته، ابو علي أحمد بن عمر(توفي نحو ٣٠٠=نحو٩١٢)

- كتاب الأعلاق النفيسة، ليدن ، بريل، ١٨٩٣

السيرافي،أبو زيد (القرن ٤ الهجري =العاشر الميلادي)

- رحلة السيرافي، تحقيق عبدالله الحبشي،أبوظبي، المجمّع الثقافي،١٩٩٩

الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (٧٢٧=١٣٢٧)

- نحبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى.

القزويني، زكريا بن محمد بن محمود الأنصاري (٦٨٢=١٢٨٣)

- عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، بيروت ، دار الآفاق الجديدة،١٩٨١

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦=٩٥٧)

- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٤

ياقوت الحموي ،أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (٦٢٦=١٢٢٩)

- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر

اليعقوبي ،أحمد بن إسحاق بن جعفر (بعد ٢٩٢=بعد ٩٠٥)

- تاريخ اليعقوبي ، بيروت ، دار صادر .



مدخل

صورة الإفريقيين السود في أعين المسلمين

يقصد الجغرافيون المسلمون بالسودان أرض الجنس الأسود في إفريقية، لكنّهم يفرّقون في الدرجة بين الزنوج، والسودانيين،والأحباش، والنوبيّين،وهو تفريق جغرافي أكثر مماهو تفريق ثقافي وعرقي فيتحدثون عنهم، ويحددون مواقع استيطانهم في الأرض الإفريقية الواقعة جنوب الصحراء بامتداد شبه مستقيم يبدأ من الحبشة شرقا، وينتهي بضفاف المحيط الأطلسي غربا،كانت الأقوام المتساكنة حول خط الأستواء هي مثار عنايتهم.

ويقصدون بالزنوج تلك الأقوام التي تقع مناطقها على الأجزاء الشرقية من إفريقية حول خط الاستواء وما خلفه،وهي المناطق التي يصطلح عليها بالزنج أو سُفالة، وأحيانا سفالة الزنج، وفيها يقع بحر الزنج الذي يفصل بين البر الإفريقي وجزر القُمر، ويعتقدون أن إفريقية تنتهي هناك، وإن كان بعضهم يُلمح إلى أقوام مجهولة تتردّد أخبارها في أوساط بلاد السودان الواقعة إلى الشمال، وهي أخبار مشوبة بالمبالغات،والأحكام السريعة التي غالبا مايكون مبعثها الجهل، أما بلاد السودان، فتمتد من غرب النيل إلى المحيط الأطلسي جوار خط الاستواء، وشمال خليج غينيا، وهي التي تكوّن حاليا: النيجر ونيجيريا ومالي وغانا والسنغال ومالي وسيراليون وساحل العاج والكاميرون،كتلة بشرية ضخمة،تتكون من أمم كثيرة، وهي معروفة أكثر من غيرها للجغرافيين،فيما يشار إلى المناطق شرق النيل بالحبشة، وتحديدا ذلك النتوء الضخم من اليابسة المندفع شرقا، وهو القرن الإفريقي، ويجري الحديث عن النوبة التي تقع بين الحبشة وبلاد السودان وبلاد الزنج، وباستثناء مناطق شمال الصحراء فكثيرا ما يفقد التمايز حدوده الواضحة والنهائية، فتتداخل أحيانا المناطق بسبب غياب التخوم. فالتماثل الجغرافي والعرقي والثقافي كان دائما يتهدد الخصوصيات، ويعيد تشكيلها بين وقت وآخر،ولم تكن إفريقية بمنأى عن ذلك.

يجري الحديث عن السودان كجنس يستوطن ممالك كثيرة. وتتوفّر معلومات جيدة عن الممالك الواقعة في شرق إفريقية وغربيها، ولكن من الصعب الوثوق بالمعلومات التي تخص الأقوام الواقعة ضمن بلاد الزنج ،على الرغم من ورود إشارات حول الشواطئ الشرقية المقابلة لجزر القمر، مثل زنجبار، وسفالة، وجبال القمرحيث منابع النيل ،كما يشار إلى ذلك عادة عند معظم الجغرافيين.

يؤكد أندريه ميكيل بأن إفريقية بقيت سرّا خفيا تقريبا طوال العصور القديمة الكلاسيكية، الاّ أن هذا السر كان جذابا، فاستمال في الحد الأدنى الذين أرادوا الاتجار بالذهب، أو العاج،أو الرقيق، أو الحيوانات المتوحشة. وعندما ترسّخت دار السلام في التاريخ، ورثت في الوقت ذاته شكوك التقليد القديم، الكتبي أو الأسطوري.ويضيف ،بأن المعلومات التي توارثت زمنا طويلا حول إفريقية أرضا وبشرا صاغها في الأصل كل من بطليموس الذي قدم صورة ممتزجة بالخيال عن تلك البلاد،وجالينوس الذي رسم أثنوغرافية العرق الأسود على نحو يفتقر إلى الأصالة[١] .

والواقع أن كثيرا من تصورات الجغرافيين المسلمين حول إفريقية تدور في فلك بطليموس وجالينوس وأبقراط.فالأصول تمارس نفوذا بالغا في قوته إذا لم يجر تصحيح حقيقي لركائزها، وفيما يخص إفريقية فإن صورتها مختلفة في أذهان المسلمين عن غيرها،ذلك أن المسلمين هم الذين شكّلوا الصور الأولى للشمال والشرق، سواء أكانت صورا للأرض أم البشر ، أما في حالة إفريقية فقد ورثوا تلك الصورة، وهي صورة بالغة التشويه، حجزت الجنس الأسود وراء حركة التاريخ، وظلت توجّه معظم مواقف المفكرين وتصوراتهم إلى العصر الحديث، نجد ذلك بوضوح كامل في الفكر الحديث، وبخاصة الغربي منه الذي نظر إلى الجنس الأسود نظرة مشوبة باحتقار محيّر،وطال ذلك كبار الفلاسفة والمفكرين، ومن هؤلاء هيغل الذي قدم تصورا عن التاريخ العام للبشر،وفيه تتضح بصمات جالينوس فيما يخص حديثه عن الإفريقيين السود،الذين وصفهم بأنهم يرقدون وراء التاريخ، ويلفّ بلادهم حجاب الليل الأسود [٢] . ويعيد هيغل ونخبة من المفكرين في العصر الحديث بعث الصورة التقليدية القديمة التي تركّبت في ضباب الجهل، دون أية محاولة للتصحيح كجزء

من نظرة الغرب إلى الآخر ، وقد قدمنا من قبل نقدا موسعا لهذه الصورة التي تعبر عن رغبة أكثر مما تعبر عن واقع مدعم بمعطيات حقيقية[٣] ولم ينج معظم المؤرخين والرحالة المسلمين من الطوق المحكم الذي قيدت به إفريقية السوداء من قبل.

يتحدث ابن سعيد المغربي عن (المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب)ويمكن التأكيد أنه يقصد بذلك الزنج أو سفالة الزنج .وبدل أن يصف فإنه يحكم،فتلك البلاد، إنما هي بلاد " العراة المهملين كالبهائم [٤]. ويؤكد أن ذلك معروف ومتداول، وكان متناقلا بين الناس.وكان ابن سعيد قد ورث ذلك عن غيره ، لكنه فيما يخص المشاهدات العيانية ينقل عنه ابن فاطمة الذي يعتبر المصدر الرئيس له، وكل مايلفت الاهتمام هنا هو التأكيد على وجود جبل القمر، ثم منابع نهر النيل المتوزعة في أجزاء إفريقية ،وكل الأنهار كان يطلق عليها النيل.

قال ابن فاطمة واصفا المناطق الواقعة على مشارف خط الاستواء بالصورة الآتية: ولم أر من رأى جانبها وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي. ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس، ولا دين يذكرهم بسكان الجانب الشمالي، ومنهم بدي. ومدينتهم تعرف بهم ومن تحتها يخرج نيل غانا. ومدينتهم حولها ويجاورها من الجانب الغربي جابي وهم الذي يبردون أسنانهم. وإذا مات لهم ميت، دفعوه إلى جيرانهم وكذلك يفعل معهم جيرانهم. وعلى جنوبي البحيرة أنكرار، وعلى شرقيها كوري، الذين تنسب البحيرة إليهم. وفي شرقي مدينة بدي من الكانم المسلمين مدينة جاجة، وهي كرسي مملكة مفرده ولها مدن وبلاد، وهي الآن لسلطان الكانم. وهي موصوفة بالخصب وكثرة الخيرات وبها الطواويس والببغاء والدجاج الرقط والغنم البلق التي على قدر الحمير الصغار [٥] ومن الواضح أنه يتحدث عن بعض الممالك التي تقع في الوسط الغربي لإفريقية،لكن صدى أخبار الزنج تصل إليهم باعتبارهم عراة وثنيين كالبهائم ، ومن أكلة لحوم البشر، وهي صورة شديدة الشبه بالصورة التي يقدمها هيغل عنهم باعتبار أن أكل لحوم البشر " يتفق تماما مع المباديء العامة للجنس الإفريقي. فاللحم البشري عند

الزنجي الشهواني ليس إلاّ موضوعا حسيا، إنه مجرد لحم فحسب" وسبب ذلك في رأيه ، أن " المشاعر الأخلاقية عند الزنوج ضعيفة جداً أو هي معدومة إن شئنا الدقة (٦) .

هذه الأحكام المتوارثة أجرت تنميطا ثابتا لصورة الإفريقيين ليس في أعين المسلمين وحدهم ، إنما في أعين العالم، وهي مازالت فاعلة ، وتحتاج إلى نقد جذري يعيد الاعتبار للقيمة الإنسانية الكامنة في كل نفس بشرية .والواقع أن تباين المنظومات الأخلاقية والعقائدية والثقافية بين السود والأمم الأخرى تدخل مباشرة في صوغ الصورة المشوهة للإفريقين السود،ومادامت الصور تنبثق عن تلك المنظومات ،فلايمكن تغييرها إلا بنقد المنظومات نفسها.

يستبد الجهل بالأحكام كلما شحّت المعلومات الحقيقية،وقد لاحظنا ذلك في تشكيل صورة أهل الشمال والشرق في أعين المسلمين من قبل، وهو أمر ينطبق على إفريقية ، فالمناطق النائية والمنقطعة تتركّب صورها استنادا إلى مرويات هي مزيج من المبالغات والرغبات والمواقف الثقافية العامة الموجهة لرأي العامة، وكنا بينّا كيف أن صورة الروم تأتي في مقدمة صورة أهل الشمال ، ثم الإفرنج ، والأقوام الأخرى وصولا إلى العماء شبه التام فيما يخص بلاد يأجوج ومأجوج، وبينّا كيف كانت صورة الهنود والصينيين واضحة في أعين المسلمين ، لكنّ العتمة تظهر حول الأقوام الشرقية في الجزر النائية والمتناثرة في أقاصي الشرق، والأمر نفسه يظهر أمامنا فيما يخص الإفريقيين السود، ويحسن متابعة الصورة وتدرجها، بعد أن أوضحنا من خلال ابن سعيد المغربي نوع الحكم الصادر عن موروث مستقر.

يذهب الدمشقي إلى أن الزنوج جنوب خط الاستواء أكثرهم متوحشون لا يدينون بدين ولا يكادون يفقهون قولا وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس (٧) .ويسهم ابن خلدون في الحديث عن الشعوب الاستوائية ، فيقول عن ساكني الجزء الأول من الإقليم الأول، بأنهم كفار ويكتوون في وجوههم وأصداغهم ،وليس وراءهم في الجنوب عمران، يعتبر الإناسي أقرب إلى الحيوان العجم من الناطق، يسكنون الفيافي والكهوف، ويأكلون العشب،

والحبوب غير مهيأة، وربما يأكل بعضهم بعضا ،وليسوا في عداد البشر[٨] .

أما الجزء الثاني من ذلك الإقليم فيتكفل الإدريسي بوصفه: ففيه أمم كثيرة سودان عراة لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق ،وهم أكثر الناس نسلا، ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها ويأكلون الحيتان المصيدة ولحوم الإبل المقددة، [٩].

ويجمل الدمشقي المناطق المحاذية لخط الاستواء شمالا وجنوبا بالصورة الآتية: فيه من الأمم الزنج والسودان والحبشة والنوبة ومثلهم، وكل هؤلاء سود ،سوادهم من قبل الشمس، فإنه لما كان حرّها شديداً ،وطلوعها عليهم، ومسامتة رؤوسهم لها في السنة مرتين ولا تزال قريبة منهم أسخنتهم إسخانا محرقا، وصارت شعورهم التي بالقصد من الطبيعة سوداء حالكة جعدة مفلفلة أشبه شيء بشعر أدني من النار حتى يشيط ،وأدلّ دليل على أنه متشيّط ؛ أنه لا ينمو ولا يطول. جلودهم زعرة ناعمة؛ لتنقية الشمس أوساخ أبدانهم وإجذابها إياها إلى خارج، وأدمغتهم قليلة الرطوبة لمثل ذلك. فلذلك كانت عقولهم خسيفة، وأفكارهم قصيرة ،وأذهانهم جامدة .ولايوجد منهم الشيء وضده كالأمانة والخيانة والوفاء والغدر. ولم يوجد فيهم النواميس. ولم يُبعث فيهم رسول؛ لأنهم غير قادرين على الجمع بين الضدين. والشرعية إنما هي أمر ونهي، ورغبة ورهبة .فالخُلق الذي يوجد في غرائزهم قريب مما يوجد في أخلاق البهائم من سجاياها الموجودة فيها بالطبع من غير تعلم، أُخرج ذلك الأمر منها من القوة إلى الفعل ،كما توجد الشجاعة في الأسد، والحيلة في الذئب، والخبث في الثعلب، والجزع في الأرنب، والملق في الكلب، والخيل في الفرس، وليس يوجد في هذه الحيوانات أضداد هذه الأفعال. وطاعتهم لملوكهم وأكابرهم إنما هو لإقامة الأحكام فيهم والسياسات كما ترى ذلك في الوحوش.[١٠] .

للبرهنة على هذه الدعوى يستعين الدمشقي ببطليموس الذي يقول:إن في الأسود عشر خصال لاتوجد في غيره من البيض: تفلفل الشعر، ودقة الحاجبين ،وانتشار المنخرين، وغلظ الشفتين، وتحدد الأسنان، ونتن الجلد، وسوء الخُلق ،وتشقّق الأطراف، وطول الذكر، وكثرة الطرب. والخصي متى خصي صلب عظمه، وعظمت رجلاه،وقصرت بشرته، وطالت

فخذاه ،واعوجّت أصابع كفيه، وأمن من السلع. وفي أي سنٍّ كان من أسنان عمره خُصي انحفظ عليه حال ذلك السن من الأفعال السياسية والحيوانية والطبيعية مع رقة صوته، وتأنيث شمائله ،وشدة اغتلامه. وسواء في ذلك الأسود والأبيض. ولكن الأبيض يسوء خلقه أكثر، ويظهر عليه التأنيث بسرعة. ولما كان الإنسان شبيهاً بنخلة مقلوبة جذوعه، وطلعه وحمله في الأسفل إلى جهة الأرض، وذلك أنثياه وذكره الذي هو شبيه برأسه وعنقه وفمه ومنافذ رأسه، كان أصله وعروقه التي يتغذى منها ويمتص بها الهواء والماء في السماء إلى جهة العلو وهو رأسه ويداه ومنافذ رأسه من الفم والأنف والأذنين والعينين، وذلك شبيه النخلة الراسخة في الأرض، وبه تمتص غذاءها ،وبها تعيش ،ومتى قطع هذا منها عدمت الحياة، وتعطل حملها، وأكلها .وكأنّ الإنسان كذلك إن قطع رأسه الذي في الهواء مات، وإن قطع ذكره الشبيه برأسه عدم النسل ،وكثير من الأخلاق الإنسانية والله أعلم[١١] وكان نخبة من الجغرافيين قد أوردوا حكم جالينوس ، بيد أن المسعودي أضاف مايأتي:قال جالينوس: وإنما غلب على الأسود الطرب لفساد دماغه، فضعف لذلك عقله، وقد ذكر غير جالينوس في طرب السودان، وغلبة الفرح عليهم، وما خص به الزنج من ذلك دون سائر السودان في الإكثار من الطرب [١٢].

لكن الحسن الوزان يصف الفوضى الزنجية بطريقة بالغة في قسوتها، فيقول:يسكن هذه البلاد كلها قوم يعيشون كالبهائم، لا ملوك لهم ولا أمراء ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل، عشرة إلى اثني عشر رجلا وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج[١٣] ويدعم الدمشقي ذلك: ومن طوائف السودان الحبوش المقاربة لزغاوة، ويقال إنهم الحبشة العليا وهم كفار عراة ودينهم المجوسية، يعبدون الأوثان ويسمونها الدكاكير، ومن سنتهم التي ينقادون إليها ويعتمدون في الحكومة عليها أنهم إذا مات أحد دفنوا معه أقرب الناس إليه وأشد حبا له وثيابه وسلاحه[١٤] .

ويعلل ابن خلدون ذلك: قد رأينا من خلق السودان على العموم: الخفة والطيش وكثرة الطرب. فتجدهم مولعين بالرقص على كل توقيع، موصوفين بالحمق في كل قطر. والسبب الصحيح في ذلك أنه تقرر في موضعه من الحكمة أن طبيعة الفرح والسرور هي انتشار الروح الحيواني وتفشيه، وطبيعة الحزن بالعكس وهو انقباضه وتكاثفه، وتقرر أن الحرارة مفشية للهواء والبخار مخلخلة له رائدة في كميته ،ولهذا يجد المنتشي من الفرح والسرور ما لا يعبر عنه، وذلك بما يداخل بخار الروح في القلب من الحرارة الغريزية التي تبعثها سورة الخمر في الروح من مزاجه فيتفشى الروح وتجيء طبيعة الفرح .وكذلك نجد المتنعمين بالحمامات إذا تنفسوا في هوائها واتصلت حرارة الهواء في أرواحهم فتسخنت لذلك حدث لهم فرح، وربما انبعث الكثير منهم بالغناء الناشيء عن السرور .ولما كان السودان ساكنين في الإقليم الحار واستولى الحر على أمزجتهم وفي أصل تكوينهم ،كان في أرواحهم من الحرارة على نسبة أبدانهم وإقليمهم فتكون أرواحهم الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة، ولا أحسن أيضا للجماع منهن، وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مائة دينار وأقل من ذلك ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن [١٦] بالقياس إلى أرواح أهل الإقليم الرابع أشد حرا، فتكون أكثر تفشيا ،فتكون أسرع فرحا وسرورا ،وأكثر انبساطا. ويجيء الطيش على أثر هذه[١٥].

كلما تقدم بنا الجغرافيون صوب المناطق القريبة من دار الإسلام جرى نوع من قبول الصفات الزنجية، وتقديرها، فالإدريسي الذي رأيناه قبل قليل يصف المناطق الاستوائية يتخفف نسبيا من أحكامة حينما يتعلّق الأمر بالأقوام السوداء في بلاد النوبة ،وليس في مجاهلها. وعلى أية حال فالأمر متصل هذه المرة بالنساء: :وليس في جميع أرض السودان من المقازرة ولا من) و يسهم البكري في ذلك ،قائلا :والزنج أطيب الأمم أفواها لرطوبة أفواههم وكثرة الريق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ له أن يجرب[١٧] .ثم يوثق مروياته لتكتسب

مصداقية: وقال مجاهد: ومن النوبة النساء المعروفات بالمقّورات لا يقدر أحد على افتضاض أبكارهن ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهن بقدر ما يحتاج الوطء، وهن أطيب النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل (في شق) ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم. أخبرني بذلك جماعة من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكة، أنهن رأين ذلك وشاهدنه[١٨] وعلى الرغم من أن الصورة الجديدة متصلة بالمرأة، لكن الأوصاف تبدا بالتضارب بسبب المؤثر العقائدي، بالشكل الآتي :فأهل زيلع في شرق إفريقية من أعف أهل السودان، مسلمون يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة. ولكن كلما توغلنا إلى الجنوب ظهرت المغايرة التامة، فهنالك الأقوام الذين يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفار. ومنالك أمة من السودان لا رؤوس.... [١٩] وفي أقاصي بلاد الحبشة قوم يمشون على أربع كالدواب، لا تطول أعمارهم[٢٠] .

ويمضي الوزان في إيراد جوانب من الانطباعات عن بعض المناطق، فيقول عن (زنفري) بأنها مسكونة من عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن. وأهل زنفري طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان[٢١] أما بورنو الواقعة في الأراضي النيجيرية فيسير أهلها عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم لا نصرانية ولا يهودية ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات[٢٢] .

ويدخل الدمشقي في عرض بعض المعلومات حول سكان شرق إفريقية، فيقول :ومن طوائف السودان الزنج وهم الزاغوان، والزغو من ولد قفط بن مصر بن حام، وهم صنفان قبلية

وكنجوية، فقبلية اسم للنمل وكنجوية اسم للكلاب ومدينتهم العظمى مقدشو يأتونها التجار من سائر الأمصار ولها ساحل يسمى الزنجبار، ولهم ممالك وهم قبائل، وأكثرهم عراة وهم سباع بني آدم، ويقال إن مسافة أرضهم في الطول والعرض سبعمائة فرسخ وهي أودية وجبال وديس ورمال وهي متصلة ببلاد دغوطة وساحل بحر جزيرة القمر المسمى البحر الجامد وفيه قبة أرين التي هي وسط الوسط من خط الاستواء، والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي محددو الأسنان يأكلون الناس لشدة توحشهم وليس للكفار منهم ملة ولا نحلة وإنما لهم رسوم تصنعها لهم ملوكهم، واسم ملكهم الكبير توقليم معنى الاسم ابن الرب ،وهذه التسمية لملكهم في سائر الأمصار، والزنج الشماليون منهم من لهم في لسانهم فصاحة وبلاغة حتى إنهم يصنعون الخطب يضمنونها المواعظ المبكية يخطبون بها في المحافل أيام أعيادهم ومشاهدهم(٢٣) .

نجد بالمقابل صورة برّاقة لأهل غانة: فهم أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ،سبط الشعور فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة، وصورة أخرى مختلفة لغيرهم يقدمها أبو حامد الغرناطي : وأما قناوة وقوقو وملي وتكرور وغدامس، فقوم لهم بأس، وليس بأراضيهم بركة ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم ولا عقل، وأشرهم قوقو، قصار الأعناق فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسموم بدماء حيات صفر لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه، ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات والأفاعي، وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلا بالحية الصفراء التي في بلدهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم. وقسيّهم صغار قصار، رأيتهم في بلاد المغرب، ورأيت قسيهم، وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار، كل سهم شبر، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة قد شدوه بلحاء شجرة، ويصيبون الحدق وهم شرّ نوع في السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو، فلا خير فيهم إلا في الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون في تلك الثقب، فيصوتون

بأصوات عجيبة فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه، كما يشد الحزام، ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل ،ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات، فيعطونه شيئا حتى يخرج، وإن لم يعطوه، ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات(٢٤).

ويتركز جانب كبير من الحديث حول الممالك في غرب إفريقية حيث تمكّن كثير من الرحّالة المغاربة من الوصول إلى تلك البلاد،منها تالوين وهم إلى بلاد السودان أقرب. وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنّة مجاهدون للسودان .

وهنالك الطوارق الذين يلتزمون النقاب وهو فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر العين، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعة لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم. وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن، وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء،وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة(٢٥) ثم بلد زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب رأسه كرأس البختي وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب. وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاماً وصفروا صفيراً معلوماً فيبرز إليهم. وإذا هلك والٍ من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها فإذا نكزته إلى المغارة

فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطيهم ذلك بزعمهم (٢٦) .

وتليهم بلاد الفرويين، وهي مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباه والعون عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر. وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئاً من هذا النبات. فعارضه على هديته وكتب إليه يقول: إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له. وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب(٢٧) .

ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة ويعرف أهله بالبكم، بينه وبين غانة مسيرة أربعة أيام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر العانة ويحلقن شعر الرأس. وحدث أبو عبدالله المكي أنه رأى منهن إمرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنّت أن يكون شعر لحيته في عانتها. فامتلأ العربي غضبا وأوسعها سبا. والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة. ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله(٢٨).

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزي تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق.

وأخبر الفقيه عبدالملك أن أهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الصنف. ومن هذا الجنس حجارة بوادي درغة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتي في

قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار في شيء من ذلك. وقد صنع منها كساء لبعض ملوك زناتة بسلجماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى "فردلند" صاحب الجلالقة ،وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غناه، وبعث به" فردلند "إلى صاحب قسطنطينة ليوضع في كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينية التاج وأمره بالتتويج. وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي فضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان[٢٩] .

ويصف ابن بطوطة أهل من أيوالاتن قائلا :وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه؛ وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن ،وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ،ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ، ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ،وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك.

دخلت يوما على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن ؛فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني، ولم يدركها خجل ، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع؟ إنها صاحبتي .فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحُجّاج، وأخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته، لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له . دخلت يوما على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد ،وهما يتحدثان فقلت له :ما هذه المرأة ؟فقال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي معها؟ فقال: هو صاحبها، فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي:

مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم. فعجبت من رعونته، وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه(٣٠) وتتردد أخبارأكلة لحوم البشرعند ابن بطوطة

أخبرني فربامغا أن منسي موسى كان معه قاض من البيضان يكنى بأبي العباس ويعرف بالدكالي فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته، فلما وصلوا إلى ميمة شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه، وهددهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع، وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير، وأتى بها السلطان وعرفه الخبر، فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم، فأقام عندهم أربع سنين ثم رده إلى بلده، وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم

وقدمت على السلطان منسي سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أمير لهم وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا وتكون فتحة القرط نصف شبر، ويلتحفون في ملاحف الحرير، وفي بلادهم يكون معدن الذهب فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها، وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك، وذكر لي عنهم أنهم يقولون أن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي (٣١).

هكذا تتلوّن صورة الإفريقيين في أعين المسلمين، وكما اتضح فقد ركّز الاهتمام على الأجزاء الوسطى الغربية القريبة من الديار المغربية التي كانت تمدّ الجغرافيا الإسلامية دائما بنخبة من الرحالة الذين يجوبون أطراف العالم، وإليهم يرجع الفضل الكبير في تأسيس جزء كبير من المعرفة بالآخر طوال القرون الوسطى. وقد ظفرت إفريقية برحّالة كبار مثل ابن بطوطة والحسن الوزان والبكري. وقد جهز هؤلاء وغيرهم مدونة المسلمين الإفريقية بمعلومات غنية، أضاءت الطبيعة المركبة بشريا واقتصاديا وثقافيا لبلاد السودان بأجمعها.

الهوامش

١ .أندريه ميكيل، جغرافية دار الإسلام البشرية،ترجمة إبراهيم خوري (دمشق، وزارة الثقافة١٩٨٥) ق١ ج٢ص ١٨٣

٢ .هيغل، محاضرات في فلسفة التاريخ : العقل في التاريخ، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام (القاهرة)، دار الثقافة ، ١٩٨٦، ص١٧٢

٣ .عبدالله إبراهيم ، المركزية الغربية (بيروت ، المركزالثقافي العربي،١٩٩٧) ص٢٢٩-٢٧

٤ .ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر.) ص ٧٩

٥. م.ن.ص ٩٤

٦ . محاضرات في فلسفة التاريخ ١ : ١٧٨

٧ .الدمشقي،نحبة الدهر في عجائب البر والبحر(بغداد، مكتبة المثنى) ص٢٤١

٨ . ابن خلدون، المقدمة تحقيق حجر عاصي (بيروت ، دار مكتبة الهلال،١٩٨٦) ص٦٣

٩ .الإدريسي ، نزهة المشتاق في اختراق الآفاق(بيروت ،عالم الكتب ، ١٩٨٩) ص٢٢

١٠ . نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، ص١٧٣-٢٧٤

١١ . م.ن.ص١٧٣-١٧٤

١٢ . المسعودي، مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد (القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٤) ١ : ٨٣

١٣ . الوزّان ،وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر ،(الرباط، الجمعية المغربية) ص١٥٩-١٦٠

١٤ . نخبة الدهر، ص٢٦٩

١٥ .مقدمة ابن خلدون،ص٦٣

١٦ . نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ص٣٠-٣١

١٧ .البكري، المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري ،(تونس، الدار العربية للكتاب- بيت الحكمة، ١٩٩٢) ص ٣٢١

١٨. م .ن .ص ص٣٢٤

١٩ . أبو حامد الغرناطي ، تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي (بيروت، دار الجيل- المغرب) ص٤١-٤٢

٢٠ .المسالك والممالك،ص ص٣٢٨

٢١ .وصف إفريقيا،ص١٧٤

٢٢ .م.ن.ص١٧٦

٢٣ . نخبة الدهر ،ص٢٦٩

٢٤ . تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، ص٣٩-٤٠

٢٥ . المسالك والممالك،ص٨٦٥

٢٦ .م.ن. ص ٨٦٩-٨٧٠

٢٧ .م.ن.ص ٨٧٠

٢٨ .م.ن.ص٨٧٦

٢٩ . م.ن. ص٨٧٨

٣٠ .ابن بطوطة، رحلة ابن بطوطة، تحقيق عبدالهادي التازي (المغرب، أكاديمية المملكة المغربية، ١٩٩٧) ٤ : ٢٤٥ -٢٤٧

٣١ . م.ن.٤: ٢٦٨

مدوّنة النصوص

يصعب القول بأن إفريقية المحاذية لخط الاستواء كان لها تاريخ مدوّن قبل أن يفرد لها الجغرافيون والرحالة المسلمون جانبا من اهتمامهم في وصف تلك الأصقاع المجهولة. ومن الواضح أن معرفتهم قد امتدّت الى ماوراء ذلك الخط بنحو ست عشرة درجة .إلى ذلك فان ندرة المعلومات قد تركت أثرا لايمحى في تركيب صورة خاصة للإفريقيّين ، فقد لعبت ندرة المعلومات في إشاعة أوصاف وأحكام مختزلة .وكما هو متوقّع فإن التمايزا ت الثقافية والعقائدية قد أسهمت في صوغ تلك الصورة . وتكشف النصوص الأصلية التي تركها الجغرافيون والرحالة عن قيمة أثنوغرافية مهمة فيما يخص هذه المناطق من النواحي الاجتماعية والدينية والاقتصادية .ويلزم أن نبدأ بتقديم النظرة العامة لتلك البلاد حسب فكرة الأقاليم التي كانت شائعة آنذاك .

ومن المفيد تقديم الأبعاد الجغرافية والبشرية لإفريقية، ولعل كثيرا من الجغرافيين المتأخرين قد اعتمدوا على كتاب (الجغرافيا) الذي كتبه ابن سعيد المغربي، وهو مخصص للأقاليم .وكان ابن سعيد مولعا بالتفاصيل، ولم يكتف برسم صورة مفصلة للأقاليم الجغرافية والبشرية المعروفة، إنما زاد نطاقين أحدهما جنوب خط الاستواء عن المعمور في الوسط الإفريقي، والآخر الى الشمال من الإقليم السابع، قريبا مما يعرف الآن بالقطب الشمالي .

(63)

البلاد الإفريقية على جانبي خط الاستواء

ابن سعيد المغـربي (توفي ٦٧٣ هجري= ١٢٧٤ ميلادي)

من كتـاب (الجغـرافيا)

(الأرض كروية يحيط بها الماء. وهما واقفان بالمركز في قلب الأفلاك ودورها ثلاثمائة وستون درجة. والمعمور منها طوله من الجزائر الخالدات(= الكناري) التي بالبحر المحيط(= الأطلسي) بالغرب إلى جزائر السيلي (=كوريا) التي بالبحر المحيط (= الهادئ) بالمشرق. والظاهر منها مضرس لاستقرار البحار وسلوك الأنهار. وعرض المعمور من أقصاه في الجنوب إلى أقصاه في الشمال ثمانون درجة. وما بعد ذلك في الجنوب لا يُسكن لقوة حرارة الشمس في الحضيض التي لها هناك. وما بعده في الشمال لا يُسكن لقوة البرد. ومجموع المعمور مقسّم على تسعة أقسام: المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب ،والسبعة الأقاليم على التدريج من الخط. ثم يكون القسم التاسع المعمور ما بعدها إلى أقصى العمارة في الشمال.

المعمور خلف خط الاستواء إلى الجنوب: عرضه ست عشرة درجة. لا يظهر فيه البحر المحيط من الغرب الأقصى ولا في الجنوب. وهو عشرة أجزاء.

الجزء الأول: فيه من المدن السودانية مدينة كو، مدينة العراة المهملين كالبهائم كما نقلوا.. وغير ذلك رمال سائلة وطرق طامسة.

الجزء الثاني: فيه من نوع ما تقدم ومنه زغنه.. وفيه أول نهر من أنهار النيل النازلة من عرض ست عشرة درجة إلى آخر العمارة..

الجزء الثالث: من أوله، ينابيع النيل الأربعة. وهي نابعة في البسيط. والخمسة الأخرى ينابيعها أيضاً في الجزء الثالث. إلا أنها من جبل القُمَر.فالخمسة (الأنهار) الأولى تنصب في البطيحة الغربية الأولى. البطيحة الشرقية الثانية والمركز في العرض واحد.. وكذلك

القطر ,ويخرج من كل بطيحة، كما يدخل إليها، خمسة أنهار من الجانب الشمالي، إلا أن الثاني والثالث من البطيحتين يصيران نهراً واحداً عن قريب، وينصب الجميع في البطيحة الكبرى التي تركز في الإقليم الأول. وفي هذا الإقليم الأول من السودان رفلة، وهي بين النهرين الأوليين، وبينها وبين البطيحة درجة. وكوشة، على عيون تمتد على آخر الأنهار من البطيحة. وتحتها يمر نيل مقدشو الخارج في شمال الخط. ومحلات القمر بين البطيحتين، ومحلات أكر في شماليها إلى بحيرة كورا.

الجزء الرابع: فيه انتهاء جبل القمر على مذهب بطليموس. وفيه عمائر القمر التي يُنسب إليهم الجبل. وهم إخوة الصين. والمشهور عنهم في هذا الجزء من مدن السودان دمدمة التي خرج منها الدمدام على بلاد النوبة والحبشة، سنة سبع عشرة وستمائة في طالع خروج التتر على بلاد العجم. وهم تتر السودان. وفيه قلجور التي تنسب إليها السيوف القلجورية. وبالقرب منها معدن حديد فائق يصنع منه ذلك، وبربرا قاعدة البرابر التي ذكر امرؤ القيس خيلهم. ورقيقهم مستحسن. وقد أسلم أكثرهم فلذلك عدموا في بلاد الإسلام. ونيل مقدشو لا يزال يصعد في هذا الجزء ثم ينحدر على شرقي بربرا، ويبقى بينها وبينه نحو درجة ثم ينحدر على شرقي مقدشو.

وفي هذا الجزء من مدن بربرا – وهي أول مدنهم على ساحل البحر الهندي– قرفونة (=كرادوفي، على القرن الإفريقي) وموضوعها في أول ركن البحر. وشرقيها من مدنهم على جون مرتفع برمه. وفي شرقيها خافوني، الجبل المشهور عند المسافرين، ويظهر داخلاً في البر جنوباً نحو مائة ميل، ويدخل في البحر نحو مائة وأربعين ميلاً في الشمال بتعرج للمشرق. وفي الظاهر منه سبعة رؤوس يعدها المسافرون على بعد ويعطون البشارة إذا جاوزوها وخلصوا من ذلك الطرف. وفي شرقيه من بلاد بربرا المشهورة على البحر مركة.. وأهلها مسلمون وهي قاعدة الهاوية التي تنيف على خمسين قرية، وهي شاطئ نهر يخرج من نيل مقدشو وينصب على مرحلتين من المدينة في شرقيها. ومنه فرع يكون حوض المركة. وفي شرقي ذلك مدينة الإسلام المشهورة في ذلك الصقع والمترددة الذكر على ألسن المسافرين وهي مقدشو. وهي على بحر الهند ومرساها غير مأمون الأنواء.

الجزء الخامس: في أوله مصب نيل مقدشو وهو عابر على أرضها ويبقى بينها وبينه نحو اثني عشر ميلاً وينصب في بحر الهند، وهو في رأي العين أقل من نيل مصر بالقرب من مقدشو، ولكنه عميق ويخرج منه ما يضعف ماءه.

قال ابن فاطمة: وخروج هذا النيل من بحيرة كوري تحت خط الاستواء من جبل المقسم شقيقاً لنيل مصر. وهو معوج ومستقيم،ويخرج منه من الأنهار ما تصير به تلك الجهات كالديار المصرية في السكر والموز وكالهند في المقل والنارجيل والفوفل، وبه يُسقى كل ذلك وغيره. وهم يزرعون مرتين عليه وعلى المطر. وينصب من مقدشو في شرقيها ويكون طوله نحو ألفي ميل. وفي شرقي هذا النيل آخر حد البلاد البربرية وأول حد بلاد الزنج ،ويكون في هذا الجزء الخامس من مدن الزنج المشهورة مَلَندة. وفي غربيها خور كبير ينزل إليه نهر من جبل القمر وعلى شطّي هذا الخور عمائر كثيرة للزنج، وفي الجنوب عمائر القمر.

وفي شرقي ملندة الحراني وهو جبل مشهور عند المسافرين في نحو البحر نحو مائة ميل آخذاً للشمال بتشريق ويظهر في البر آخذاً نحو الجنوب مستقيماً على نحو خمسين ميلاً. ومن غرائبه أن ما في البر منه فيه معدن حديد يعم بلاد الزنج ويسافر به إلى غيرها. وما في البحر منه فيه حجر المغناطيس الجاذب للحديد. وفي هذه المدينة سحرة الزنج وسكنى ملوكهم في مدينة ممبصّة.. وفي غربيّها خور كبير تدخله المراكب نحو يومين ويمتد نحو ثلاثمائة ميل. وفي هذا الجزء المفازة التي بين الزنج وبين سفالة. وفيه من مدن سفالة بتينة. وهي على ذيل جون عظيم يدخل في البحر من خط الاستواء، وعرض رأسه بالتدوير درجتان. والمدينة في غربيّها داخل للشمال والمشرق عجرد. وهو جبل طوله في البحر نحو مائة ميل. وللموج فيه أصوات هائلة وهو يجذب لنفسه ما قاربه.

والمسافرون يأخذون حذرهم منه. ولهذه المدينة خور طويل ينصب فيه نهر يأتي من جبل القمر وهو في شرقيها. وطول الخور والنهر شهر. وعليه الغياض والعمائر وينزل البحر من هذه المدينة مسافة شهر إلى أن يكون ساحله عند خط الاستواء حيث قبة أرين (= نقطة التقاء خط الاستواء بخط الطول الرئيس، وكان الهنود يعتبرونها مركز العالم) التي هي كفة الميزان في الأرض، وإليها من كل جهة تسعون درجة

الجزء السادس: فيه على البحر الهندي عمائر السفالين وما لم يشتهر من مدنهم إلى أن يكون عليه قاعدتهم وهي صيونة ،وهي على خور كبير ينزل فيه نهر من جبل القمر إلى غربيها في جون كبير هي في شرقيّه،. وفي هذه المدينة ملك السافلين وهم الزنج الذين يعبدون الأوثان والحجارة ويصبون عليها دهن السمك الكبار. وأكثر معاشهم من الذهب والحديد ولباسهم جلود النمور. والخيل لا تعيش عندهم، فعسكرهم رجّالة. وذكر المسعودي أن الزنج يقاتلون على البقر كما تقاتل النوبة على المهاري.

ومن شرقي هذه المدينة يدخل خليج القمر من بحر الهند إلى أقصى العمارة في الجنوب. واتساعه هناك نحو مائتي ميل. وعلى هذا المنزع وما قاربه يمر كالقوس إلى الجنوب والمشرق إلى أن يضرب في جبل الندامة الذي يأتي ذكره. ومن شرقي صيونة جبل الملطم ،وهو كبير يمتد مع ساحل الخليج نحو مائتي ميل وستين ميلاً، وكثيراً ما يلطم المركب التي تدفع بها الريح الشمالية إليه. فالمسافرون يتحفظون منه فإن شرقوا عنه فقد خلصوا، وإن دخلوا في الخليج جنوباً احتالوا في أن يخرجوا بالريح الجنوبية لكي لا تحملهم المياه والرياح إلى جبل الندامة فيهلكوا. وعمائر القمر في جنوب هذا الجزء متصلة مع الجبل المنسوب إليهم. ويقع فيه من مدن: جزيرة القمر الطويلة العريضة التي يُقال أن طولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها نيف وعشرون يوماً، ليرانة، ذكر ابن فاطمة أنه دخلها وأنها للمسلمين كمقدشو. وأهلها مجتمعون من الأقطار. وهي بلد حط وإقلاع. وأشياخها الذي يديرونها يدارون صاحب مدينة ملاي التي في شرقهم. وليرانة على البحر. وهي على خور كبير ينزل في الجزء السابع إلى غربيّها، فيها ملك من ملوك الجزيرة. وقد يكون سلطاناً مستولياً على جميع الجزيرة أو أكثرها وذلك قليل لبعد المسافات وتشتت الآراء والفرق. وهي في عرض ليرانة، وفي غربيها خور ينزل من النهر الكبير النازل إلى ليرانة.

الجزء السابع: فيه ينتهي بر السودان المتصل من أقصى الغرب بجبل الندامة ثم يكون البحر عامراً لما في شرقه بطول جزيرة القمر. وأول جبل الندامة أول هذا الجزء. ويقال إن علوه في الجو نحو ثلاثة أيام وهو ممزوج بالغبرة والحمرة. ويمتد مع أول العمارة نحو عشرين يوماً. ويكون منه مع البحر نحو أربعة عشر يوماً. والبحر المحيط الداخل من المشرق والجنوب

يضرب في ركنه الجنوبي، وفي شماليه خليج القمر. فإن زلّ المركب عن بحر الهند ودخل إلى هذا الخليج وحملته المياه والرياح إلى أن يرى هذا الجبل ندم على ما فرط فيه من حيث الاحتياط واستسلم للقضاء، فإما أن ينكسر عليه، وإما أن يدخل خلفه فلا يخرج له خبر ولا يعلم ما جرى له. ويقال إن هناك دورات لا تزال تدور بالمركب حتى تغرقه.

ويسمي المسافرون في بحر الهند ذلك المكان بحر الخراب وبحر سهيل، لأنهم إذا وصلوا إليه رأوا سهيلاً مقارنا لرؤوسهم. وتحت هذا الجبل من شماليه على خليج القمر مدينة دغوطة وهي آخر مدن سفالة وآخر العمارة في البر المتصل بهذا البحر. ولها من شماليها خور ينزل له من نهر من جبل القمر. ويقال إن منبعه مشارك لمنبع نهر صيونة. ويقع في هذا الجزء السابع من مدن جزيرة القمر التي هي قواعد لملوكها دهمي. وينزل إلى شرقيها خور مادته من النهر الكبير ويتقوّس في دخوله البحر منها حتى يكاد يلاصق خط الاستواء إلى أن يكون على آخر القوس مدينة بلبق، وهي أيضاً من قواعد ملوك الجزيرة. وفي شرقيها جزيرة (تنسب إلى هذه المدينة) وفي شرقي بلبق النهر الكبير المقوس،وهو نهر ليرانة ونزوله من جبل العيون، وهو جبل طوله ثماني مراحل من المغرب إلى المشرق. وينزل من عيونه خمسة أنهار صغار إلى قوس هذا النهر الكبير فيتقوّس وينصب في نهر ليرانة وبحر بلبق. وفي شرقي بلبق جزيرة سرنديب نصفها في هذا الجزء ونصفها الآخر في الثامن. ونصفها الجنوبي خلف خط الاستواء ونصفها الشمالي في الإقليم الأول. وهي مشهورة. وموضوع مدينتها التي يحل فيها ملكها واسمها أغنا. وفيها مدائن غيرها، ويشقها بالنصف في خط الاستواء، الجبل الكبير الذي اسمه الرهون وهو عال جداً.

ويقال إن آدم عليه السلام نزل عليه من الجنة. وفي شعابه وأوديته توجد أنواع الياقوت النفيسة وحجر الماس الذي يثقب به الياقوت. وفي بحرها مغاص لؤلؤ مشهور. وهي مستديرة الصورة. ويقال إنها ثمانون فرسخاً في مثلها. والعقاقير الهندية فيها كثيرة. وعلى قوس بحرها الجنوبي أغباب سرنديب المشهورة إلى الجنوب. وهي أربعة منحوتة، ينصب في كل غب منها نهر من أنهار جزيرة القمر. والغب المغربي في الجزء السابع والذي يليه مع خط الجزء الثامن ثم الرابع من آخر القوس المذكور.

الجزء الثامن: أول ما يلقاك منه من قواعد جزيرة القمر مدينة خافورا. الجون الأخير للمشرق من أغباب سرنديب. وينصب في شماليها النهر الأعظم النازل من الجبل المطل على قمرية، وفي شرقها قاعدة ديملي وهي على البحر. وينصب في شرقيها نهر ينزل من النهر الأعظم. وفي هذا الجزء جبلان أحدهما في جنوب ديملي يخرج منه نهر طويل إلى الغب الثالث، والآخر قرب وسط المسافة بين القاعدتين بقرب البحر الجنوبي ويخرج منه ثلاثة أنهار صغار تنصب في هذا النهر الطويل.

الجزء التاسع: فيه مدن وعمائر من جزيرة القمر غير مشهورة. والمذكور من ذلك قاعدة الجزيرة القديمة وقد يكون صاحبها في بعض الأحيان غالباً على معظمها وهي قمرية. على جون عظيم يرتفع عن خط الاستواء ثلاث درجات ويتسع نحو ذلك. وهذه المدينة منسوبة إلى القمر وهم بنو عامور بن يافث ويشاركهم النسبة إلى عامور الصين. وكانوا يسكنون مع الصين في مشارق الأرض ثم تفاتنوا وأخرجهم الصين إلى الجزائر فكانوا بها مدة وكانت سِمة ملكهم قامرون. ثم تفاتنوا في تلك الجزيرة التي يأتي ذكرها، فخرج منهم الأباعد من الملك إلى هذه الجزيرة العظمى وكان سلطانهم في مدينة قمرية. ثم أنهم كثروا وتشعبوا على القواعد المذكورة وصاروا فرقاً وملوك طوائف ثم تفاتنوا لما كثروا وخرج منهم خلق عظيم عمروا الجنوب في أول العمارة مع طول الجبل المنسوب إليهم. ومن لا يعرف يسميه بجبل القمر بفتح القاف.

وفي هذه الجزيرة الكبيرة التي طولها أربعة أشهر وعرض أوسعها عشرون يوماً أنهار عظيمة وأعظمها نهر خافورا. يسافر فيه من عمقه واتساعه سفن البحر الكبار للوسق. وطوله ما بين مصبه وآخر الجزيرة الشرقي ومصبه تحت خافورا نحو شهرين. وعلى شطيه أشجار كبار يصنع من الشجرة منها المركب التي تعرفون ويجدف فيه مائة رجل. وهو محفور والمائدة التي يجلس عليها مائة نسمة. وذلك مذكور في الكتب مشهور على الألسن. ويصنعون من هذه الأخشاب دياراً على مراكب ويرسونها بحبال، فإذا كره أحد منهم جوار جاره انتقل إلى جار آخر. وكذلك إذا وقعت النار في دار جاره حلّ حبال داره وخلص منها.

وفيها الطائر الكبير المعروف بالرخ .زعموا أنه يغطي بظله سرية ويخطف بمخالبه فراخ الفيلة ويزقها فراخه. ويصنعون من قصبه قناطر على مياههم يجوزون عليها ومن قيعانها المجوّفة حباباً للماء. وعندهم بقر يجرون بها، العجل الواحد يكون قدر الثلاثة من بقر أرضنا يسع في كل قرن من قرونه ألف "منٍّ" من الزيت. وزيتهم التي يستصحبون بها إنما هي شحم الدواب العظام التي يصيدونها في بحرهم. وعندهم الحشيش الذي ينسجون منه التفاصيل الملونة الملاح وتجلب للعراق واليمن. وفيها الموز والسكر والنارجيل الذي يصنعون منه حبال مراكبهم ويجرون ألواحها به. وأكثر ما ينبت فيها التنبيل وهو كالعريش في التوائه، وكالرند في ورقه ويستعملون الورقة منه بقليل خبز وماء فيحدث لهم طيب نفس وسكر وعطرية يتلذذون بها وهو خمر بلاد الهند. وصورهم أميَل إلى أهل الصين منهم إلى أهل الهند وكذلك ملابسهم وعبادتهم الأبداد(= الأصنام) كأهل الهند والصين. وعلى رأس مدينة قمرية الجبل المنسوب إليها وتنحدر منه أنهار كثيرة إلى نهر خافورا الأعظم وينصب طرفه الشرقي في آخر الجزيرة من جهة الشرق وطرفه الغربي تحت خافورا. والبحر الذي يمر مع طولها الجنوبي يختلط من الجنوب بالبحر المحيط. ويقال إنه لا يدخله أحد لا من أهل الجزيرة ولا من غيرها. ومن وقع إليه تلف في دوراته؛ وإنما سفرهم في البحر الشمالي الهندي وبحر الجهتين الشرقية والغربية.

الجزء العاشر: فيه جزيرة الموجه طولها من الجنوب إلى الشمال اثنا عشر يوماً. وموضوعها في أول الجزء وعرضها نحو يومين ورأسها الجنوبي في آخر العمارةوهي مملكة مستقلة. وفي شمالها جزيرة المايد، ومنها مجاز عرضه نصف درجة وهي أصغر من الأولى محسوبة من جزائر الصين المذكورة في الكتب، وحولها جزائر صغار يقال لها جزائر الشمسية أهلها من أوسخ خلق الله، وهم يجلبون العسل والشمع إلى الصين. وهناك ينتهي البحر الهندي ويمتزج مع البحر. ومدينة المايد، وإليها كان المسافرون يقصدون في القديم ثم عدلوا عنها إلى جزيرة الجاوة. وباختلاط البحرين مصب خمدان وهو أعظم أنهار الصين وعلى شرقيه وغربيه في هذا الجزء مدينة خمدان وهي من أشهر مدن الصين التي خلف خط

الاستواء. وعلى غربيه مدينة قيطاغور وهي من مشاهير مدن الصين وعرضها خلف خط الاستواء ست درجات. وخمدان أطول منها بدرجتين، وللصين في شرقي هذا المركز عمائر ومدن لكنها غير مشهورة.

وعند اختلاط البحر الهندي بالبحر المحيط يأخذ منه ذراع إلى الجنوب ويفصل بينه وبين المحيط جبل السحاب الكبير وهو جبل لا يزال السحاب يعمه لعلوه. وقيل إنما سمي بذلك لأنه يخرج من جزيرة السحاب التي تحته سحب سوداء يهيج من رياحها البحر فيغرق ما عليه. والبحر في هذا المكان من آخر الجزء العاشر كأنه منفرد عن البحر الهندي والبحر المحيط ويقال له بحر الواق واق. وفيه جزائر أولها جزيرة السحاب بين طرفها الشمالي وخط الاستواء. وفي جنوبها جزيرة الدجال طولها إلى جهة الجنوب. وجزيرة الواق واق في آخر عمارة هذه الجزيرة مع المشرق. ويفصل بين بحرها وبين البحر المحيط الجبل الكبير الرأس وهي كبيرة.

حكى المسعودي أن فيها شجراً يخرج منه نبات كالأبرنج ويولد منه جوار يتعلقن بشعورهن وتصيح الواحدة منهن واق واق فإن قطعن شعورهن وفصلن من الشجرة متْنَ، ويقال إن الذهب في هذه الجزيرة كثير. وهذه الجزائر محدقة بجبل الفتح الذي يسكنه السود المشوهون الذين يقطعون الطريق على الناس ويأكلونهم، ولا يدخل أحد من المجاورين إلى جزائر هذا البحر. والكلام عن ساكنيه وعن جزيرة الدجال بمنزلة الأحدوثات. فجلّ الخالق.

الإقليم الأول:

سكانه سودان. وهو عشرة أجزاء:

الجزء الأول: فيه ظهور البحر المحيط على ما نقل عن بطليموس. ومن هناك الجزائر الخالدات على البحار المرسومة في الجغرافيا. وهي ست يستغرق جميعها سمت العرض من الإقليم الأول وقليل من سمت الثاني. ومن هذه الجزائر أخذ بطليموس الأطوال كما أخذ من خط الاستواء العروض. وهي ليست مسكونة ولكنها وصل إليها الإسكندر ذو القرنين ورام السلوك في عرضها فلم يتمكن له ما أراد، إما لأقاصير وضباب متراكم أو خوفاً من

الضلال والهلاك في غير شيء. ثم إنه وضع على كل جزيرة منها منارة يهتدي بها من ضل وكتب على كل واحدة منها: "لا مسلك خلفي". وفيها كلام يطول.

قال ابن فاطمة: وجزائر السعادة فيما بين الجزائر الخالدات والبر مبددة في الإقليم الأول والثاني والثالث. وهي أربع وعشرون جزيرة. والحديث عنها كالخرافات. والبحر المحيط يتدرج قليلاً قليلاً لارتفاع في هذا الجزء إلى أن يكون مصب النيل الذي يمر على غانا. وأمام مصب النيل في البحر المحيط جزيرة الملح. وفي طرفها الجنوبي على البحر مدينة أوليل .. وفيها كثير من أنواع القصب والنبات. وعيش أهلها من السمك والسلاحف وتجارتهم بالملح يصعدون به في المراكب إلى البلاد التي على شواطئ النيل. قالوا وليس في بلاد السودان ملاحة غيرها. وإلى جانب هذه الجزيرة جزيرة العنبر وبينهما مجاز مقداره نصف درجة. وبينها وبين البر أقل من ذلك.

ويقال فيها أيضاً جزيرة السلاحف إذ فيها من ذلك الكثير. وأهل تلك البلاد يصطادونها ويقددون لحمها ويسافرون به. ويجدون أيضاً في هذه الجزيرة العنبر الكثير. وأول ما يلقاك على غربي النيل من مدائن التكرور مدينة قلنبو، وهي فرضة مشهورة وكانت في زمن أبي عبيد البكري للكفار. وأما في عصرنا فما على شاطئ النيل من بلاد التكرور مدينة إلا وقد دخلها الإسلام وجميعها لسلطان التكرور. وقاعدتها على جانبي النيل واسمها تكرور وبها عرفوا. ونسلهم يقال له مغزاوه. وهم قسمان: قسم تحضّر ويسكن المدن وقسم رجاله في البوادي. وأكثر مجالاتهم في جانب النيل الشمالي ولهم في الجنوب قليل، ومعظمه مجالات لَمْلَم وهم كفار مهملون يأكلون الناس. وصاحبها يُسبي رقيق لملم وهم بواد ولهم في الكتب مدينة كالقرية اسمها مويّة، وفيها بيت دكاكيرهم-وهي الأوثان-.

الجزء الثاني: أول ما يلقاك منه مدينة بريسا وهي من أشهر بلاد التكرور. وإن ضعف سلطان التكرور انفرد صاحب بريسا بنفسه. والمسافرون يترددون عليها وهي آخر مدائن التكرور على شمال النيل. والغالب على لباس السودان التكرور وغيرهم الجلود. وإذا احتشم الواحد منهم كان الجلد مدبوغاً.

ومن خالط البيض وتخصص اتخذ لباسه من الصوف والقطن وذلك مجلوب له. والغالب على مأكلهم القطانيا (=عصايد غير مختمرة) والخبرة عندهم لا يوجد إلا طرفة عند الملوك المتخلقين بأخلاق البيض. وخيلهم قصار غير سابقة. وسلاحهم دبابيس الأبانوس، وهو كثير على النيل ومنه يحتطبون، ولهم قسي وسهام من القصب الشوكي ومنه يصنعون أوتارها، وفي ديارهم شجر القطن. ولا يبني بالجبص والآجر إلا ملك أو مَن أذن له في ذلك من أهل الرفه والتخصص. وباديتهم عراة. المسلمون منهم يسترون فروجهم بعظام أو جلود والكفار لا يستترون. وفي شرقي بريسا وشمالها ينصب نهر لامي المنحدر من الجبال التي في جنوب مدينة لامي. وهذه المدينة كالقرية تحت طاعة كفار لملم. وأهلها يهود يعرف جنسهم في الرقيق ببلاد المغرب. وجبل لامي امتداده من الغرب إلى الشرق ثماني مراحل يخرج من طرفه الغربي نهر لامي المذكور فيمر في عمائرهم حتى ينصب في النيل. ويخرج من طرفه الشرقي نهر ملل ويتقوس حتى يمر على مدينة ملل، وهي من مدن الكفار المهملين.نهرها ينصب في النيل من سمت مدينة درهم من مدن الكفار المهملين. وهي في وسط المسافة بين لامي وملل.

وفي شرقي ما ذكر نهر "الهو" وهو من الأنهار التي ذكرها بطليموس وينحدر من جبل الهو، الذي يمتد خلف خط الاستواء. وهذا الجبل رأسه خلف الخط، فيمتد من هناك إلى أن يجوز الخط ويخرج منه مع الخط شعبة يخرج من رأسها الغربي النهر المذكور ويلتوي إلى الشمال كالنون، ثم ينحدر إلى النيل. وعلى شطي هذا النهر من مبتدئه إلى قرب مصبه مجالات نمنم وهم أخوة لملم في النسب وأشباههم في الأفعال.

ومن شرقيه على أميال جبل سامقدي كبير مشرف، فيه عقاقير ونباتات من منافع تلك البلاد ويأوي إليه خلق من كفرة السودان المهملين المعروفين بسامقدي، وبهم عرفت مدينة سامقدي. وهي في رأس هذا الجبل. ومدينة غانا على ضفتي النيل وبها يحل سلطان غانا وهو من ذرية الحسين بن علي رضي الله عنهما. وله كبيرة فيها ثقب يربط فيها فرسه ويفخر بذلك على سائر ملوك السودان. وهو كثير الجهاد للكفار وبذلك عرف بيته.

وفي شرقي مدينة سامقدي جزيرة التبر، .وفي هذه الجزيرة يجدون التبر الكثير يلمع بالليل إذا حسرت المياه الزائدة عن رملها. وعلى هذه الجزيرة مدن مشهورة منها مدينة سمغارة. وعلى هذا الذراع الشمالي في آخر هذا الجزء أشهر ما في هذا الجزء بعد غانا من مدن التبر وهي غيارو وهي على خليج يخرج من جنوبي نيل الجزيرة. وعن جنوبي نيل غانا مجالات نمنم المتقدمة الذكر وعن شماليه مجالات وانقاره، ،وهم سودان البلاد وقد فشا فيهم الإسلام.

الجزء الثالث: أول ما يلقاك منه جبل ثلا. رأسه الجنوبي في بحيرة كوري التي يخرج منها النيل ورأسه الشمالي يخرج منه نيل غانا. وفي شرقيه بلاد كوكو وهي منسوبة إلى مدينة صاحب البلاد. وهو من كفار السودان. وجبل كوكو يضرب به المثل، وهو يقابل من غربيه مسلمي غانا ومن شرقيه مسلمي الكانم. ومدينة كوكو في شرقي النهر. ومنبع نهر كوكو المغرب عن النيل من جبل مقورس ، وهو من الجبال التي ذكرها بطليموس، . ويتصل به جبل بدي المتصل ببحيرة كوري التي يخرج منها النيل. وقد قيل إن نهر كوكو مادته من بحيرة كوري وإنه يغوص منه ماء كثير في هذا الجبل ثم يخرج منه نهر كوكو وهو شماليها مسامت لنيل غانا حتى يغوص في رمال في الجزء الثاني مسامتاً لوسط جزيرة التبر، وعليه مجالات كوكو في شطيه وهم عراة مهملون. وفي طرفه الغربي مجالات نعامة وهم برابر السود من نوع كوكو. وبين كوكو ومدينة بدي التي يخرج من جنوبها نيل غانا وكوكو.

قال ابن فاطمة: فتكون مسافة جريه من بحيرة كوري إلى البحر المحيط بحسب تعريجاته نحو ثلاثة آلاف ميل. وفي هذا الجزء الثالث بحيرة كوري التي يخرج منها نيل مصر ونيل مقدشو ونيل غانا. وقد تقدم ذكر انحدار أنهار البطيحة إليها عند مماسة خط الاستواء

قال ابن فاطمة: ولم أر من رأى جانبها وإنما وصفها الكانميون وجيرانهم ممن لقيناه بالجانب الشمالي. ويحدق بها من جميع جهاتها أمم طاغية من السودان الكفرة الذين يأكلون الناس، ولا دين يذكرهم بسكان الجانب الشمالي، ومنهم بدي. ومدينتهم تعرف بهم ومن تحتها يخرج نيل غانا. ومدينهم حولها ويجاورها من الجانب الغربي جابي وهم الذي يبردون

أسنانهم. وإذا مات لهم ميت، دفعوه إلى جيرانهم وكذلك يفعل معهم جيرانهم. وعلى جنوبي البحيرة أنكرار، وعلى شرقيها كوري، الذين تنسب البحيرة إليهم. وفي شرقي مدينة بدي من الكانم المسلمين مدينة جاجة، وهي كرسي مملكة مفردة ولها مدن وبلاد، وهي الآن لسلطان الكانم. وهي موصوفة بالخصب وكثرة الخيرات وبها الطواويس والببغاء والدجاج الرقط والغنم البلق التي على قدر الحمير الصغار ولها صور تخالف صور كباشنا. والزرافة كثيرة في أرض جاجة وفي شرقي مدينتها على ركن البحيرة المغزاة، حيث دار صناعة الكانم. وكثيراً ما يغزو من هنالك في أسطوله بلاد الكفار التي على جوانب هذه البحيرة ويقطع على مراكبهم فيقتل ويسبي.

ومن مدن الكانم المشهورة مانان. وفي شرقيها وجنوبيها قاعدة الكانم جيمي وفيها سلطان الكانم المشهور بالجهاد وأفعال الخير، محمدي من ولد سيف بن ذي يزن. وكانت قاعدة جدود الكفرة قبل أن يسلموا مدينة مانان. ثم أسلم منهم جده الرابع على يد فقهاء الإسلام في بلد الكانم ولهذا السلطان هنالك مثل سلطنة تجوه ومملكة كوارو ومملكة فزان وقد أيده الله وكثر نسله وعساكره. والثياب تحمل إليه من الحضرة التونسية. وعنده الفقهاء ,وله في سمت جيمي على آخر هذا الجزء الرديني فيها سابين له ومستنزه. وهي على غربي النيل الآتي لمصر. وبينها وبين جيمي أربعون ميلاً. وفواكههم لا تشبه فواكهنا ويوجد عندهم الرمان والخوخ كثيراً وقد عانوا قصب السكر فأنجب عندهم قليلاً ولا يستغله إلا السلطان وكذلك العنب والقمح. ومخرج النيل المصري في هذا الجزء من بحيرة كوري. وعند اندفاعه من البحيرة مدينة كوري للسودان الذي يأكلون الناس وهي في شماليه، حيث جبل المقسم الممتد من أول ركن البحيرة الشرقي الجنوبي ومن تحت هذا الجبل أيضاً يخرج نيل مقدشو بالقرب من خط الاستواء ومن خلف الخط وقد ذكروا أن في بحيرة كوري جبل لوراطس وهو واقع في هذا الجزء الثالث. .

والسودان تزعم أن الذهب الذي يوجد على بلاد النيل عند مدّه إنما هو من معادن هذا الجبل. ولا يقدر أحد على قربه من كثره ما فيه من الثعابين والوحوش المهلكة. وجوانبه

الساحلية ملأى بالتماسيح وخيل النيل. وقد قيل أن فرس النيل لا تصاد في هذه البحيرة، وإنما تصاد في نيل غانا ونيل النوبة. وفي شرقي جبل مقورس الفاصل بين الكانم وكوكو، مجالات الكانم وأتباعهم من البرابرة الذين أسلموا على يد سلطان الكانم، وهم له عبيد يغزو بهم وينتفع بجمالهم التي ملأت تلك الأقطار في مجالات مانان. وفي شرقي مانان مجالات الزغاوين ومعظمهم مسلمون تحت طاعة الكانمي. وفي شمال مانان ومجالات الكانم مجالات الكوار. ومدينتهم المشهورة تقع في الإقليم الثالث وهم مسلمون تحت طاعة الكانمي.

الجزء الرابع: يمر من أوله النيل المغربي على بلاد بنته، وهم سود كفار يفصلون بين الكانم والنوبة، ثم يغوص في الرمال. ويمر تحت الأرض على زعمهم ملتوياً من الجنوب إلى الشمال فلا. ويلتوي كالقوس وظهره إلى المشرق فيقع في غربيه قاعدة النوبة دُنقُلة. وفي جنوبها من مدن النوبة، نوابه التي سموا بها. وفي جنوبها وغربيها مجالات زنج النوبة التي قاعدتهم كوشة خلف الخط. والنوبة نصارى. وفي غربي دنقلة وشماليها من مدنهم المذكورة في الكتب علوه وهي في شرقي النيل وشماليه. وبينها وبين دنقلة مائة وسبعون ميلاً. وفي غربي علوه ينعطف النيل كثيراً فيعود إلى الغرب حتى يدخل الجزء الثالث الذي خرج منه فينتهي وينحدر من هنالك إلى الإقليم الثاني. وعلى شطيه عمائر النوبة ويبقى بين شرقيه الجنوبي وبين تاجوه قاعدة الزغاوين مائة ميل. وقد أسلم أهلها ودخلوا في طاعة الكانمي. وفي جنوبيها مدينة زغاوة. ومجالات التاجويين والزغاويين ممتدة في المسافة التي بين قوس النيل من الجنوب إلى الشمال. وهم جنس واحد، ولكن المُلك وحسن الصورة والأخلاق في التاجويين. وهم كفار عصاة على الكانمي يألفون الصحارى والجبال في الإقليم الأول والثاني.

وذكر ابن فاطمة أن الملوك من الكانم وتاجوه إنما هربوا بقواعدهم من النيل بسبب البعوض، فإنه يكثر من مجاورة النيل فيشتد أذاه على الآدميين والخيل. ولهم عيون في الرمال ومياه مشربة من النيل أيام الزيادة. وفي هذا الجزء الرابع من مدن الحبشة المذكورة في الكتب

حُنْبية. وفي شرقيها بلاد كزله. وهم مشهورون في بلاد الحبشة مرغوب في جنسهم. والحبشة بالإطلاق أفضل أجناس السودان وخصيان الملوك والأكابر منهم. وهم نصارى وفيهم بالساحل مسلمون.

وبلاد كزله من أول خط الاستواء في مجاورة زنج الحبشة إلى جنوب جبل موريس الذي زعموا أن أهل حنبية وتلك الجهات يعيشون مما فيه من معادن الذهب والفضة. وهو على أربعة أيام من حنبية، وفي شرقيها وشمالها يبدأ من هنالك ويمر مشرقاً منحرفاً إلى الشمال حتى يشق نيل الحبشة وينتهى إلى بحرهم. وفي شرقي كزله وجنوبها بحيرة الحاورس وهي منسوبة إلى أمة من زنوج الحبشة عراة متوحشون، ويقال إن الذهب والرصاص القلعي في أرضهم كثير.

قال ابن فاطمة: نقل عن بطليموس أن مركز هذه البحيرة في خط الاستواء. ويخرج منها نيل الحبشة الذي يشبه نيل مصر في زيادته أيام نقص الأنهار وفي وجود التماسيح وفرس النيل. وعلى شرقيه إلى جانب البحيرة من مدنهم المذكورة في الكتب النجاعه. ويمر إلى الشمال فيكون شمالها جبل المعادن المتقدم الذكر. والمدينة في شرقي النيل وفي شمال الجبل بلاد سحرته من أجناس الحبشة المذكورة وعمائرهم ممتدة مع هذا النيل من الجانبين. وفي شرقيه من مدن الحبشة المشهورة كلغور، وهي مجمع لهم في كل ناحية وبها ملتقى من يريد البحر أو النيل أو البرية.

وفي شمالي سحرته من النيل إلى البحر بلاد الخاسة وهم مذمومون بين أجناس الحبشة وقد اشتهر عنهم أنهم يخصون من يقع إلى أيديهم ويدفعون ذكور الآدميين في صداقاتهم ويفتخرون بذلك. ومن شرقيهم إلى البحر سمهر وهي أرض يكون فيها القنا الطوال السمهرية. ومن غريب شأنها أنها إذا احتك بعضها ببعض انقدحت منها نار تحترق بها كلها أو طائفة منها على قدر الالتصاق ومساعدة الرياح. والغزلان في أرض سمهر كثيرة. ومن جلودها يشدون على الخيل عوض السروج ويركبون عليها، وقتالهم بالقنا السمهرية المذكورة ولهم بالطعن بها واللعب حذق، ويزعمون أنهم يصل إليهم من الجنوب قوم

كالترك بيض ولهم شعور ويقاتلونهم. وإن صح هذا تكون الأقاليم بالجنوب مرتبطة كالأقاليم بالشمال، والكلام في ذلك يطول.

وفي أرضهم الكركدن وله قرنان في جبهته أحدهما أطول من الآخر وهو حيوان مؤذ يصيده الفارس بأن يعدو خلفه فيضرب رجليه بالسيف فيقع وإن لم يحترز منه وقع (الكركدن) عليه فقتله مع فرسه، وهم يأكلون لحمه. وأيضا على نيلهم الأسود والفيلة. وفي شرقي كلغور بانحراف إلى الشمال مدينة نجبة التي تُنسب إليها الجمال النجيبية. وفي غربيها جبل الخماهن ويوجد فيه هذا الحجر وكان عزيزاً عند الفرس وكانوا يختمون به ويتداوون بالماء إذا حك فيه من حرارة الخماهن. ويقال له الصندل المعدني وهو داخل مدخل الصندل في مداواة العلل الحارة. وطول هذا الجبل مائة ميل من الجنوب إلى الشمال باعوجاج عندما يمر شمالاً إلى المشرق، وأول ما يلقاك من مدن الحبشة على بحر الهند من ساحله الغربي

وحدّ بلاد بربرا المتقدمة الذكر، خلف خط الاستواء، مدينة بطا ،وهي مشهورة على ألسن الحبشة الذين ببلادنا. وفي شمالها من مدنهم على مائة ميل باقصلي على جون داخل إلى المغرب نحو خمسين ميلاً. وفي شماليها منقوبه وهي جبل الدخلة المستمرة إلى الشرق. وفي طرفيها جبل مقورس داخل في البحر. وفي شماله من مدن الحبشة المشهورة بلاد الزيلع، وأهلها مسلمون يكثرون الحج والتردد إلى ساحل عدن وزبيد، وهي محل حط وإقلاع، ومنها يتوزع رقيق الحبشة على بلاد الإسلام الساحلية. وموضوعها على ركن من البحر ينتهي إليه عرض طرفه الغربي والشمالي، والمذكور في الكتب من جزر هذا البحر المقاربة للساحل جزيرة قنبلو، بينها وبين باقصلي درجتان ونصف وطرفها الجنوبي في سمتها وطولها مقارب لعرضها. وبين ركنها الشرقي الشمالي وكانت عامرة وهي الآن خراب يأوي إليها من أحزم من المراكب واحتاج إلى الماء والحطب.

وقد ذكر أن منتهى البحر الهندي حيث مدن الحبشة المذكورة كله فيما قارب السواحل أقاصير متصلة يضح عليها الماء إلى باب المندب ولا يسافر هناك إلا المراكب الصغار وربما

غلبتها الرياح فكسرتها على تلك الحشو . وعرض ذنب البحر الهندي من باب المندب إلى بربرا ثمان مجاز، وجبل المندب هو الفاصل بين بحر الهند الكبير وبحر القلزم الذي يخرج منه وهو صغير يمتد اثنا عشر ميلاً من الشرق إلى الغرب بانحراف إلى الشمال، والبحر يضيق هناك حتى يرى الرجل صاحبه من البر الثاني . ويقولون إنه قدر مائتي سهم . ويسمي المسافرون هذا المكان باب المندب وقدر طوله مع الجبل.، ولا بد للمركب في دخولها وخروجها منه .)

رأينا كيف أن ابن سعيد المغربي قد وفّر لنا أرضية مناسبة لتشكيل فكرة عن العالم الإفريقي الأوسط، ومكونات تلك الفكرة مزيج من المعلومات الطبيعية والبشرية،وقد بدأ من جنوب خطّ الاستواء – وفي هذا فإنه وسّع من مجال الأقاليم المعمورة –ثمّ اتبع التقسيم التقليدي في الوقوف على أجزاء الإقليم الأول الذي أكد بأن سكانه من السودان ،وراح يصف أجزاء هذا الإقليم بالتعاقب . والجدير ذكره أن أبا الفداء قد عني بالأقاليم أيضا لكنه احتذى ابن سعيد ونسخه فيما يخص بلاد السودان .

ومادمنا في سياق التعريف بالأبعاد الجغرافية لإفريقية السوداء يحسن بنا أن نورد نصا للإدريسي الذي يضع بلاد السودان، وهي المناطق المجاورة لخط الاستواء، ضمن الإقليم الأول، ويقسمه إلى أجزاء عدة جريا على العادة المعروفة ، وبالنظر إلى أن كتاب الإدريسي يتصف بالشمول ، فلاينتظر منه أن يعنى بالتفاصيل الدقيقة .

(64)

ذكر الإقليم الأول وهو بلاد السودان
الإدريسي (توفي ٥٦٠ =١١٦٥ ميلادية) من كتاب
(نزهة المشتاق في اختراق الآفاق)

الجزء الأول

(إن هذا الإقليم الأول مبدؤه من جهة المغرب من البحر الغربي المسمى ببحر الظلمات، وهو البحر الذي لا يعلم ما خلفه، وفيه هناك جزيرتان تسميان بالخالدات، ومن هذه الجزائر بدأ بطلميوس يأخذ الطول والعرض، وهاتان الجزيرتان فيما يذكر في كل واحدة منهما صنم مبني بالحجارة، طول كل صنم منهما مائة ذراع، وفوق كل صنم منهما صورة من نحاس تشير بيدها إلى خلف وهذه الأصنام فيما يذكر ستة، إحدها صنم قادس التي بغربي الأندلس، ولا يعلم أحد شيئا من المعمور خلفها.

وفي هذا الجزء من المدن أوليل وسلى وتكرور وبريسي ودو ومورة، وهذه البلاد من أرض مقزارة السودان، فأما جزيرة أوليل فهي في البحر وعلى مقربة من الساحل، وبها الملاحة المشهورة، ولا يعلم في بلاد السودان ملاحة غيرها، ومنها يحمل الملح إلى جميع بلاد السودان وذلك أن المراكب تأتي إلى هذه الجزيرة فتوسق بها الملح وتسير منها إلى موقع النيل، وبينهما مقدار مجرى فتجري في النيل إلى سلى وتكرور وبريسي وغانة وسائر بلاد ونقارة وكوغة وجميع بلاد السودان، وأكثرها لا يكون لها مأوى ولا مستقر إلا على النيل بعينه، أو على نهر يمد النيل، وسائر الأرضين المجاورة للنيل صحار خالية لا عمارة فيها، وهذه الصحارى فيها مجابات مياه وذلك أن الماء لا يوجد إلا بعد يومين وأربعة وخمسة وستة واثني عشر يوما، مثل مجابة تيسر التي في طريق سجلماسة إلى غانة وهي أربعة عشر يوما لا يوجد فيها ماء، وأن القوافل تتزود بالماء لسلوك هذه المجابات في الأوعية على ظهور الجمال، ومثل هذه المجابة كثير في بلاد السودان وأكثر أرضها أيضا رمال تسفها الرياح وتنقلها من مكان إلى مكان فلا يوجد بها شيء من الماء، وهذه البلاد كثيرة الحر حامية جداً

ولذلك أهل هذا الأقليم الأول والثاني وبعض الثالث لشدة الحر وإحراق الشمس لهم كانت ألوانهم سوداء وشعورهم متفلفلة بضد ألوان أهل الإقليم السادس والسابع.

ومن جزيرة أوليل إلى مدينة سلى ست عشرة مرحلة، ومدينة سلى على ضفة نهر النيل وبشماله، وهي مدينة حاضرة وبها مجتمع السودان ومتاجر صالحة وأهلها أهل بأس ونجدة، وهي من عمالة التكروري وهو سلطان مؤمر وله عبيد وأجناد وله حزم وجلادة وعدل مشهور وبلاده آمنة وادعة وموضع مستقره والبلد الذي هو فيه مدينة تكرور، وهي في جنوب النيل، وبينها وبين سلى مقدار يومين في النيل وفي البر، ومدينة تكرور أكبر من مدينة سلى وأكثر تجارة وإليها يسافر أهل المغرب الأقصى بالصوف والنحاس والخرز ويخرجون منها التبر والخدم وطعام أهل سلى وأهل تكرور الذرة والسمك والألبان وأكثر مواشيهم الجمال والمعز، ولباس عامة أهلها قداوير الصوف وعلى رؤوسهم كرازي الصوف، ولباس خاصتها ثياب القطن والمآزر.

ومن مدينة سلى وتكرور إلى مدينة سجلماسة أربعون يوما بسير القوافل وأقرب البلاد إليهما من بلاد لمتونة الصحراء أزكى، وبينهما خمس وعشرون مرحلة ويتزود بالماء فيها من يومين إلى أربعة إلى خمسة وستة أيام وكذلك من جزيرة أوليل إلى مدينة سجلماسة نحو من أربعين مرحلة بسير القوافل.

ومن مدينة تكرور إلى مدينة بريسي على النيل مشرقا اثنتا عشرة مرحلة، ومدينة بريسي مدينة صغيرة لا سور لها غير أنها كالقرية الحاضرة وأهلها متجولون تجار، وهم في طاعة التكروري.

وفي الجنوب من بريسي أرض لملم وبينهما نحو من عشرة أيام، وأهل بريسي وأهل سلى وتكرور وغانة يغيرون على بلاد لملم ويسبون أهلها ويجلبونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار الداخلين إليهم فيخرجهم التجار إلى سائر الأقطار، وليس في جميع أرض لملم إلا مدينتان صغيرتان كالقرى اسم إحداهما ملل، واسم الثانية دو، وبين هاتين المدينتين مقدار أربعة أيام، وأهلها فيما يذكره أهل تلك الناحية يهود والغالب عليهم الكفر والجهالة

وجميع أهل بلاد لملم إذا بلغ أحدهم الحلم وسم وجهه وصدغاه بالنار وذلك علامة لهم وبلادهم وجملة عماراتهم على واد يمد النيل وليس بعد أرض لملم في جهة الجنوب عمارة تعرف وبلاد لملم تتصل من جهة المغرب بأرض مقزارة ومن جهة المشرق بأرض ونقارة ومن جهة الشمال بأرض غانة ومن جهة الجنوب بالأرض الخالية وكلامهم كلام لا يشبه كلام المقزاريين ولا كلام الغانيين.

ومن بريسي المتقدم ذكرها إلى غانة في جهة المشرق اثنا عشر يوما، وهي في وسط الطريق إلى مدينة سلى وتكرور، وكذلك من مدينة بريسي إلى أودغشت اثنتا عشرة مرحلة وأودغشت من بريسي شمالا وليس في بلاد السودان شيء من الفواكه الرطبة إلا ما يجلب إليها من التمرمن بلاد سجلماسة أو بلاد الزاب يجلبه إليهم أهل وارقلان الصحراء والنيل يجري في هذه الأرض من المشرق إلى المغرب، وينبت على ضفتيه القصب الشوكي وشجر الأبنوس والشمشار والخلاف والطرفاء والأثل غياضا متصلة، وبها تقيل وتسكن مواشيهم، وإليها يميلون ويستظلون عند شدة الحر وحمية القيظ وفي غياضه الأسد والزرائف والغزلان والضبعان والأفيال والأرانب والقنافذ.

وفي النيل أنواع من السمك وضروب من الحيتان الكبار والصغار، ومنه طعام أكثر السودان يتصيدونه ويملحونه ويدخرونه، وهو في نهاية السمن والغلظ، وأسلحة أهل هذه البلاد القسي والنشابات وعليها عمدتهم والدبابيس أيضا من أسلحتهم يتخذونها من شجر الأبنوس ولهم فيها حكمة وصناعة متقنة، وأما قسيهم فإنها من القصب الشوكي وسهامهم منه وكذلك أوتارها من القصب وبناء أهل هذه البلاد بالطين والخشب العريض الطويل عندهم قليل الوجود، وحليهم النحاس والخرز والنظم من الزجاج والباذوق ولعاب الشيخ وأنواع المجزعات من الزجاج المؤلف.

وهذه الأمور والحالات التي ذكرناها من المطاعم والمشارب واللباس والحلي يفعلها أكثر السودان في جميع أرضهم لأنها بلاد حر ووهج شديد، وأهل المدن منها يزرعون البصل والقرع والبطيخ ويعظم عندهم كثيرا ولا حنطة عندهم أكثر من الذرة ومنها ينتبذون ويشربون، وجل لحومهم الحوت ولحوم الإبل المقددة ..

إن الذي تضمنه هذا الجزء الثاني من الإقليم الأول من المدن مدينة ملل وغانة وتيرقي ومداسة وسغمارة وغيارة وغربيل وسمقندة، فأما مدينة ملل التي هي من بلاد لملم فقد ذكرناها فيما تقدم وهي مدينة صغيرة كالقرية الجامعة لا سور لها، وهي على تل تراب أحمر منيع جانبه، وأهل ملل متحصنون فيه عمن يطرقهم من سائر السودان وشربهم من عين خرارة تخرج من الجبل الذي في جنوبها وماؤها زعاق ليس بصادق الحلاوة، وبغربي هذه المدينة على ماء العين الذي يشربون منه ومع نزوله إلى أن يقع في النيل أمم كثيرة سودان عراة لا يستترون بشيء، وهم يتناكحون بغير صدقات ولا حق وهم أكثر الناس نسلا ولهم إبل ومعز يعيشون من ألبانها ويأكلون الحيتان المصيدة ولحوم الإبل المقددة وأهل تلك البلاد المجاورة لهم يسبونهم في كل الأحايين بضروب من الحيل ويخرجونهم إلى بلادهم فيبيعونهم من التجار قطارا ويخرج منهم في كل عام إلى المغرب الأقصى أعداد كثيرة وجميع من يكون في بلاد لملم موسوم بالنار في وجهه وهي لهم علامة كما قدمنا ذكره.

ومن مدينة ملل إلى مدينة غانة الكبرى نحو من اثنتي عشرة مرحلة في رمال ودهاس لا ماء بها وغانة مدينتان على ضفتي البحر الحلو وهي أكبر بلاد السودان قطرا وأكثرها خلقا وأوسعها متجرا وإليها يقصد التجار المياسير من جميع البلاد المحيطة بها ومن سائر بلاد المغرب الأقصى وأهلها مسلمون وملكها فيما يوصف من ذرية صالح بن عبد الله بن الحسن ابن علي بن أبي طالب وهو يخطب لنفسه لكنه تحت طاعة أمير المؤمنين العباسي، وله قصر على ضفة النيل قد أوثق بنيانه وأحكم إتقانه وزينت مساكنه بضروب من النقوشات والأدهان وشمسيات الزجاج، وكان بنيان هذا القصر في عام عشرة وخمس مائة من سني الهجرة وتتصل مملكته وأرضه بأرض ونقارة وهي بلاد التبر المذكورة الموصوفة به كثرة وطيبا والذي يعلمه أهل المغرب الأقصى علما يقينا لا اختلاف فيه أن له في قصره لبنة من ذهب وزنها ثلاثون رطلا من ذهب تبرة واحدة خلقها الله خلقة تامة من غير أن تسبك في نار ولا تطرق بآلة، وقد نفذ فيها ثقبا وهي مربطة لفرس الملك، وهي من الأشياء المغربة التي ليست

عند غيره ولا صحت لأحد إلا له وهو يفخر بها على سائر ملوك السودان. وهو أعدل الناس فيما يحكى عنه ومن سيرته في قربه من الناس وعدله فيهم أن له جملة قواد يركبون إلى قصره في صباح كل يوم ولكل قائد منهم طبل يضرب على رأسه فإذا وصل إلى باب القصر سكت فإذا اجتمع إليه جميع قواده ركب وصار يقدمهم ويمشي في أزقة المدينة ودائر البلد، فمن كانت له مظلمة أو نابه أمر تصدى له فلا يزال حاضرا بين يديه حتى يقضي مظلمته ثم يرجع إلى قصره ويتفرق قواده فإذا كان بعد العصر، وسكن حر الشمس ركب مرة ثانية وخرج وحوله أجناده فلا يقدر أحد على قربه ولا على الوصول إليه وركوبه في كل يوم مرتين سيرة معلومة، وهذا مشهور من عدله ولباسه إزار حرير يتوشح به أو بردة يلتف بها،وسراويل في وسطه، ونعل شركي في قدمه، وركوبه الخيل، وله حلية حسنة وزي كامل يقدمه أمامه في أعياده، وله بنود كثيرة وراية واحدة، وتمشي أمامه الفيلة والزرائف وضروب من الوحوش التي في بلاد السودان ولهم في النيل زوارق وثيقة الإنشاء يتصيدون فيها ويتصرفون بين المدينتين بها، ولباس أهل غانة الأزر والفوط والأكسية كل أحد على قدر همته وأرض غانة تتصل من غربيها ببلاد مقزارة ومن شرقيها ببلاد ونقارة وبشمالها بالصحراء المتصلة التي بين أرض السودان وأرض البربر وتتصل بجنوبها بأرض الكفار من اللملمية وغيرها.

ومن مدينة غانة إلى أول بلاد ونقارة ثمانية أيام، وبلاد ونقارة هذه هي بلاد التبر المشهورة بالطيب والكثرة وهي جزيرة طولها ثلاث مائة ميل وعرضها مائة وخمسون ميلا، والنيل يحيط بها من كل جهة في سائر السنة فإذا كان في شهر أغست وحمي القيظ وخرج النيل وفاض غطى هذه الجزيرة أو أكثرها وأقام عليها مدته التي من عادته أن يقيم عليها ثم يأخذ في الرجوع فإذا أخذ النيل في الرجوع والجزر رجع كل من في بلاد السودان المنحشرين إلى تلك الجزيرة بحاثا يبحثون طول أيام رجوع النيل فيجد كل إنسان منهم في بحثه هناك ما أعطاه الله سبحانه كثيرا أو قليلا من التبر وما يخيب منهم أحد فإذا عاد النيل إلى حده باع الناس ما حصل بأيديهم من التبر وتاجر بعضهم بعضا واشترى أكثره أهل وارقلان وأهل

المغرب الأقصى وأخرجوه إلى دور السكك في بلادهم فيضربونه دنانير ويتصرفون بها في التجارات والبضائع هكذا في كل سنة، وهي أكبر غلة عند السودان وعليها يعولون صغيرهم وكبيرهم.

وأرض ونقارة فيها بلاد معمورة ومعاقل مشهورة، وأهلها أغنياء والتبر عندهم وبأيديهم كثير والخيرات مجلوبة إليهم من أطراف الأرض وأقاصيها، ولباسهم الأزر والأكسية والقداوير وهم سود جدا، فمن مدن ونقارة تيرقى وهي مدينة كبيرة وفيها خلق كثير لكن ليس لها سور ولا حظيرة، وهي في طاعة صاحب غانة وله يخطبون وإليه يتحاكمون، وبين غانة وتيرقى ستة أيام وطريقها مع النيل ومن مدينة تيرقى إلى مدينة مداسة ستة أيام ومدينة مداسة هذه مدينة متوسطة كثيرة العمارة صالحة العمالات وفي أهلها معرفة وهي على شمال النيل ومنه شربهم وهي بلد أرز وذرة كبيرة الحب طعمها صالح وأكثر معايشهم من الحوت وتصيده وتجارتهم بالتبر ومن مدينة مداسة إلى بلد سغمارة ستة مراحل، وبين مداسة وسغمارة إلى جهة الشمال ومع الصحراء قوم يقال لهم بغامة وهم بربر رحالة لا يقيمون في مكان يرعون أجمالهم على ساحل واد يأتي من ناحية المشرق فيصب في النيل واللبن عندهم كثير ومنه يعيشون.

ومن مدينة سغمارة إلى مدينة سمقندة ثمانية أيام، ومدينة سمقندة هذه مدينة لطيفة على ضفة البحر الحلو ومنها إلى مدينة غربيل تسعة أيام ومن مدينة سغمارة إلى مدينة غربيل جنوبا ستة أيام، ومدينة غربيل هذه على ضفة البحر الحلو وهي مدينة لطيفة القدر في سفح جبل يعلوها من جهة الجنوب، وشرب أهلها من النيل ولباسهم الصوف وأكلهم الذرة والحوت وألبان الإبل، وأهلها يتصرفون في تلك البلاد بضروب من التجارات التي تدور بين أيديهم ومن مدينة غربيل مع المغرب إلى مدينة غيارة إحدى عشرة مرحلة ومدينة غيارة هذه على ضفة النيل وعليها حفير دائر بها وبها خلق كثير وفي أهلها نجدة ومعرفة وهم يغيرون على بلاد لملم فيسبونهم ويأتون بهم ويبيعونهم من تجار غانة وبين غيارة وأرض لملم ثلاث عشرة مرحلة وهم يركبون النجب من الجمال ويتزودون الماء ويسرون بالليل

ويصلونه بالنهار إلى أن يغنموا ويرجعوا إلى بلدهم بما يفتح الله سبحانه عليهم من السبي من أهل لملم ومن مدينة غيارة إلى مدينة غانة إحدى عشرة مرحلة وماؤها قليل، وجملة هذه البلاد التي ذكرناها هي في طاعة صاحب غانة وإليه يؤدون لوازمهم وهو القائم بحمايتهم.

الجزء الثالث

إن الذي تضمنه هذا الجزء الثالث من الإقليم الأول من المدن المشهورة كوغة وكوكو وتملمة وزغاوة ومانان وأنجيمي ونوابية وتاجوة، فأما مدينة كوغة فإنها مدينة على ضفة البحر الحلو، وفي شماله ومنه شرب أهلها وهي من عمالة ونقارة ومن السودان من يجعلها من بلاد كانم، وهي مدينة عامرة لا سور لها وبها تجارات وأعمال وصنائع يصرفونها فيما يحتاجون إليه ،ونساء هذه المدينة ينسب إليهن السحر، ويقال إنهن به عارفات وبه مشهورات وعليه قادرات، ومن كوغة إلى سمقندة في جهة الغرب عشرة أيام ومن كوغة إلى غانة نحو من شهر ونصف، ومن كوغة إلى دمقلة شهر، ومن كوغة إلى شامة دون الشهر، ومن كوغة إلى مدينة كوكو في الشمال عشرون مرحلة بسير الجمال والطريق على أرض بغامة وأهل بغامة سودان برابر قد أحرقت الشمس جلودهم وغيرت ألوانهم ولسانهم لسان البربر، وهم قوم رحالة وشربهم من عيون يحفرونها في تلك الأرض عن علم لهم بها وتجربة في ذلك صحيحة.

ولقد أخبر بعض السفار الثقات وكان قد تجول في بلاد السودان نحوا من عشرين سنة، أنه دخل هذه الأرض أعني أرض بغامة وعاين فيها رجلا من هؤلاء البربر فكان يمشي معه في أرض خالية رملة ليس بها أثر للماء ولا لغيره فأخذ البربري غرفة من ترابها وقربه من أنفه ثم اشتمه وتبسم وقال لأهل القافلة: انزلوا فإن الماء معكم، فنزل أهل القافلة هناك ،وعرسوا متاعهم وقيدوا الجمال وتركوها ترعى ثم عمد البربري إلى موضع ،وقال: احفروا هاهنا فحفر الناس في ذاك الموضع أقل من نصف قامة فخرج الماء الكثير العذب، فعجب من ذلك أهل القافلة، وهذا مشهور معلوم يعلمه تجار أهل تلك البلاد ويحكونه عنهم .

وفي هذه الطريق التي ذكرناها من كوغة إلى كوكو على أرض بغامة مجابتان لا ماء فيهما

وكل مجابة منهما تقطع من خمسة أيام إلى ستة أيام، ومدينة كوكو مدينة مشهورة الذكر من بلاد السودان كبيرة وهي على ضفة نهر يخرج من ناحية الشمال فيمر بها ومنه شرب أهلها ويذكر كثير من السودان أن مدينة كوكو هذه على ضفة الخليج .وذكر قوم آخرون أنها على نهر يمد النيل والذي صح من القول أن هذا النهر يجري حتى يجوز كوكو بأيام كثيرة ثم يغوص في الصحراء في رمال ودهاس مثل ما يغوص نهر الفرات الذي ببلاد العراق وغوصه هناك في البطائح ثم إن ملك مدينة كوكو ملك قائم بذاته خاطب لنفسه وله حشم كثير ودخلة كبيرة وقواد وأجناد وزي كامل وحلية حسنة وهم يركبون الخيل والجمال ولهم بأس وقهر لمن جاورهم من الأمم المحيطة بأرضهم ولباس عامة أهل كوكو الجلود يسترون بها عوراتهم وتجارهم يلبسون القداوير والأكسية وعلى رؤوسهم الكرازي وحليهم الذهب وخواصهم وجلتهم يلبسون الأزر، وهم يداخلون التجار ويجالسونهم ويبضعونهم بالبضائع على جهة المقارضة.

وينبت في أرض كوكو العود المسمى بعود الحية، ومن خاصته أنه إذا وضع على جحر الحية خرجت إليه مسرعة، ثم إن ماسك هذا العود يأخذ من الحيات ما شاء بيده من غير أن يدركه شيء من الجزع ويجد في نفسه قوة عند أخذها والصحيح عند أهل المغرب الأقصى وأهل وارقلان أن ذلك العود إذا أمسكه ماسك بيده أو علقه في عنقه لم تقربه حية البتة وهذا مشهور وصفة هذا العود كصفة العاقر قرحا مفتولا لكنه أسود اللون.

ومن مدينة كوكو إلى مدينة غانة شهر ونصف شهر ومن مدينة كوكو إلى مدينة تملمة شرقا أربع عشرة مرحلة، وهي مدينة صغيرة من أرض كوار جامعة فيها بشر كثير ولا سور لها وفيها رجل ثائر بنفسه وهي على جبل صغير لكنه جبل منيع بأجراف قد أحاطت به من جميع جهاته ولها نخيل ومواش، وأهلها عراة شقاة، وشربهم من مياه الآبار وماؤها بعيد القعر عن وجه الأرض وبها معدن شب ليس بالكثير الجودة ويبيعونه في كوار ويخلطه التجار بالشب الطيب ويسافرون به إلى جميع الجهات.

ومن تملمة إلى مدينة مانان من أرض كانم اثنتا عشرة مرحلة، ومدينة مانان مدينة صغيرة

وليس بها شيء من الصناعات المستعملة وتجاراتهم قليلة ولهم جمال ومعز، ومن مدينة مانان إلى مدينة أنجيمى ثمانية أيام، وهي أيضا من كانم وأنجيمى مدينة صغيرة جدا وأهلها قليل وهم في أنفسهم أذلة وهم يجاورون النوبة من جهة المشرق، وبين مدينة انجيمى والنيل ثلاثة أيام في جهة الجنوب وشرب أهلها من الآبار، ومن أنجيمى إلى مدينة زغاوة ستة أيام ومدينة زغاوة مدينة مجتمعة الكور كثيرة البشر وحولها خلق من الزغاويين يشيلون بإبلهم ولهم تجارات يسيرة وصنائع يتعاملون بها بين أيديهم، وشربهم من الآبار وأكلهم الذرة ولحوم الجمال المقددة والحوت المصيد والألبان عندهم كثيرة ولباسهم الجلود المدبوغة يستترون بها، وهم أكثر السودان جربا، ومن مدينة زغاوة إلى مانان ثماني مراحل وفي مانان يسكن أميرها وعاملها وأكثر رجاله عراة رماة بالقسي، ومن مدينة مانان إلى مدينة تاجوة ثلاث عشرة مرحلة وهي قاعدة بلاد التاجوين وهم مجوس لا يعتقدون شيئا، وأرضهم متصلة بأرض النوبة ومن بلادهم سمنة ومدينة سمنة هذه مدينة صغيرة، وحكى بعض المسافرين إلى مدائن كوار أن صاحب بلاق توجه إلى سمنةوهو أمير من قبل ملك النوبة فحرقها وهدمها وبدد شملهم على الآفاق وهي الآن خراب ومن مدينة تاجوة إليها ست مراحل، ومن مدينة تاجوة إلى مدينة نوابة ثماني عشرة مرحلة، وإليها تنسب النوبة وبها عرفوا وهي مدينة صغيرة وأهلها مياسير ولباسهم الجلود المدبوغة وأزر الصوف.ومنها إلى النيل أربعة أيام وشرب أهلها من الآبار وطعامهم الذرة والشعير ويجلب إليهم التمر، والألبان عندهم كثيرة، وفي نسائهم جمال فائق، وهن مختتنات ولهن أعراق طيبة ليست من أعراق السودان في شيء وجميع بلاد أرض النوبة في نسائهم الجمال وكمال المحاسن وشفاههم رقاق وأفواههم صغار ومباسمهم بيض وشعورهم سبطة.

وليس في جميع أرض السودان من المقازرة ولا من الغانيين ولا من الكانميين ولا من البجاة ولا من الحبشة والزنج قبيل شعور نسائهم سبطة مرسلة إلا من كان منهن من نساء النوبة، ولا أحسن أيضا للجماع منهن وإن الجارية منهن ليبلغ ثمنها ثلاث مائة دينار وأقل من ذلك، ولهذه الخلال التي فيهن يرغب ملوك أرض مصر فيهن ويتنافسون في أثمانهن، ويتخذونهن

أمهات أولاد لطيب متعتهن ونفاسة حسنهن.

وذكر بعض الرواة أنه كان بالأندلس جارية من هؤلاء الجواري المتقدم ذكرهن عند الوزير أبي الحسن المعروف بالمصحفي فما أبصرت عيناه قط بأكمل منها قدا ولا أصبح خدا ولا أحسن مبسما ولا أملح أجفانا ولا أتم محاسن، وكان هذا الوزير المذكور مولعا بها بخيلا بمفارقتها، ويذكر أن شراءها عليه مائتان وخمسون ديناراً من الدنانير المرابطية، وكانت هذه الجارية المذكورة مع تمام محاسنها وبديع جمالها إذا تكلمت أسحرت سامعها لعذوبة ألفاظها وحلاوة منطقها لأنها ربيت بمصر فكانت بذلك تامة الصفات، ومن مدينة نوابة إلى مدينة كوشة نحومن ثماني مراحل خفاف.

الجزء الرابع

وفي هذا الرابع من الإقليم الأول بلاد النوبة وبعض بلاد الحبشة وبقية جنوب أرض التاجوين وقطعة من بلاد الواحات الداخلة، وفي بلاد النوبة من البلاد المشهورة والقواعد المذكورة كوشة وعلوة ودنقلة وبلاق وسوبة، وفي أرض الحبشة مركطة والنجاغة، ومن أرض الواحات الداخلة وأعلى ديار مصر مدينة أسوان وأتفو والرديني.

وفي هذا الجزء افتراق النيلين أعني نيل مصر الذي يشق أرضها وجريه من الجنوب إلى الشمال، وأكثر مدن مصر على ضفتيه معا وفي جزائره أيضا ،والقسم الثاني من النيل يمر من جهة المشرق إلى أقصى المغرب وعلى هذا القسم من النيل جميع بلاد السودان أو أكثرها. وهذان القسمان مخرجهما من جبل القمر الذي أوله فوق خط الاستواء بست عشرة درجة وذلك أن مبدأ النيل من هذا الجبل من عشر عيون فأما الخمسة الأنهار منها فإنها تصب وتجتمع في بطيحة كبيرة وكذلك الخمسة الأنهار الأخر تنزل من الجبل إلى بطيحة أخرى كبيرة ويخرج من كل واحدة من هاتين البطيحتين ثلاثة أنهار فتمر بأجمعها إلى أن تصب في بطيحة كبيرة جداً، وعلى هذه البطيحة مدينة تسمى طرمى وهي مدينة عامرة يزرع بها الأرز وعلى ضفة البطيحة المذكورة صنم رافع يديه إلى صدره يقال إنه مسخ وإنه كان رجلا ظالما ففعل ذلك به.

وفي هذه البحيرة سمك تشبه رؤوسه رؤوس الطير ولها مناقير، وفيها أيضا دواب هائلة، وهذه البحيرة المذكورة فوق خط الاستواء مماسة له، وفي أسفل هذه البحيرة التي بها تجتمع الأنهار جبل معترض يشق أكثر البطيحة ويمر منها إلى جهة الشمال مغربا فيخرج معه ذراع واحد من النيل فيمر في جهة المغرب وهو نيل بلاد السودان الذي عليه أكثر بلادها، ويخرج مع شق الجبل الشرقي الذراع الثاني فيمر أيضا إلى جهة الشمال فيشق بلاد النوبة وبلاد أرض مصر وينقسم في أسفل أرض مصر على أربعة أقسام: فثلاثة أقسام تنصب في البحر الشامي، وقسم واحد ينصب في البحيرة الملحة التي تنتهي إلى قرب الإسكندرية، وبين هذه البحيرة وبين الإسكندرية ستة أميال وهي لا تتصل بالبحر بل هي من فيض النيل..

ومن تحت جبل القمر فيما بين الأنهار العشرة والبطيحات مارا مع جهة الشمال إلى أن يتصل بالبطيحة الكبيرة مقدار عشر مراحل، وعرض ما بين البطيحتين الصغيرتين من المشرق إلى المغرب ست مراحل، وفي هذه الأرض الموصوفة ثلاثة جبال مارة من المشرق إلى المغرب، فأما الجبل الأول فهو مما يلي جبل القمر ويسميه كهنة مصر جبل هيكل الصور، وأما الجبل الثاني الذي يلي هذا الجبل مع الشمال فإنهم يسمونه جبل الذهب لأن فيه معادن الذهب، وأما الجبل الثالث الذي يلي الجبل الثاني مع الأرض فإنهم يسمون أيضا الأرض التي هو فيها أرض الحيات، ويزعم أهل تلك الأرض أن فيها حيات عظيمة تقتل بالنظر، وفي هذا الجبل الذي في هذه الأرض المذكورة عقارب على قدر العصافير سود الألوان تقتل في الحال.

وقد ذكر ذلك صاحب كتاب العجائب وذكر أيضا في كتاب الخزانة لقدامة أن جرية النيل من مبدئه إلى مصبه في البحر الشامي خمسة آلاف ميل وستمائة ميل وأربعة وثلاثون ميلا وعرض النيل في بلاد النوبة ميل واحد على ما حكاه صاحب كتاب العجائب أيضا وعرضه في قبالة مصر ثلث ميل.

وفي البطيحات الصغار وما بعدها من النيل الحيوان المسمى بالتمساح، وفيها أيضا الحوت المسمى بالخنزير وهو ذو خرطوم أكبر من الجاموس، يخرج إلى الجهات المجاورة إلى النيل فيأكل بها الزرع ويرجع إلى النيل، وفي النيل المذكور سمكة مدورة حمراء الذنب يقال لها

اللاش لا تظهر به إلا ندرة وهي كثيرة اللحم طيبة الطعم، وفيه أيضا سمك يسمى الأبرميس وهو حوت أبيض مدور أحمر الذنب، ويقال إنه ملك السمك وهو طيب الطعم لذيذ يؤكل طريا ومملوحا إلا أنه لطيف بقدر الفتر طولا ومثل نصفه عرضا وفيه الراي وهو سمك كبير لونه أحمر ومنه كبير وصغير وربما كان في وزن كبير ثلاثة أرطال وأقل، وهو طيب الطعم قريب من طيب السمك الذي يسمى الأبرميس، وفيه سمك يقال له البني وهو كبير عجيب الطعم والطيب وربما وجد في الواحد منه خمسة أرطال وعشرة أرطال وأكثر وأقل، وفيه أيضا من السمك قبيل يقال له البلطي وهو مدور في خلقة العفر الذي ببحيرة طبرية قليل الشوك طيب الطعم وقد يوجد منه الحوت الكبير الذي في وزنه خمسة أرطال وفيه سمك يقال له اللوطيس ويسميه أهل مصر بالفرخ، وهو حوت طيب الطعم كثير الشحم ويوجد منه في الندرة ما وزنه قنطار وأقل وأكثر، وفيه اللبيس وهو حوت طيب لذيذ شهي الطعم إذا طبخ لا يوجد فيه رائحة السمك ويصرف في جميع ما يصرف فيه اللحم من أنواع الطبيخ ولحمه شديد ويكون كبيرا وصغيرا فمنه ما يكون وزنه عشرة أرطال ودون ذلك ولهذا السمك كله قشر وفيه أسماك لا قشور لها، ومنه الحوت الذي يسمى السموس وهو سمك كبير الرأس كثير السمن وربما بلغ وزن الحوت منه قنطاراً وأكثر وأقل ويباع لحمه مقطعا.

وفيه سمك يسمى النيناريات وهو سمك مائل إلى الطول، طويل الفم كأنه منقار طائر، وفيه سمكة يقال لها أم عبيد تحيض ولا قشور لها، وفيه السمك الذي يقال له الحلبوة بغير قشر وربما كان في وزنه الرطل والأكثر والأقل وهو مسموم وفيه سمك يقال له الشال وله شوكة في ظهره يضرب بها فيقتل مسرعا وفيه أيضا سمك في صور الحيات يقال لها الإنكليس مسمومة، وفيه أيضا سمك أسود الظهر له شوارب كبير الرأس دقيق الذنب يسمى الجرى، وفيه سمك مدور خشن الجلد يقال له القافو تمشط النساء به الكتان وفيه أيضا السمكة المعروفة بالرعادة وهي مثل الكرة خشنة الجلد ذات سم إذا مسها الإنسان ارتعدت يده حتى تسقط منها وهذه الخاصة فيها موجودة ما دامت حية فإذا ماتت كانت

كسائر السمك.

وفيه كلاب الماء وهي في صور الكلاب ملونات وفيه فرس الماء وهو في خلقة الفرس لكنه لطيف وحوافره مثل أرجل البط تنضم إذا رفعتها وتنفتح إذا وضعتها وله ذنب طويل، وفيه أيضا السقنقور وهو صنف من التمساح لا يشاكل السمك من جهة يديه ورجليه ولا يشاكل التمساح لأن ذنبه أملس مستدير وذنب التمساح مسيف وشحمه يتعالج به للجماع وكذلك ملحه الذي يملح به، والسقنقور لا يكون بمكان إلا في النيل من حد أسوان والتمساح أيضاً لا يكون في نهر ولا بحر إلا ما كان منه في نيل مصر وهو مستطيل الرأس وطول رأسه نحو طول نصف جسده وذنبه ملوح، وله أسنان لا يقبض بها على شيء من السباع أو من الناس إلا ومر به في الماء، وهو بري ويجري لأنه يخرج إلى البر فيقيم به اليوم والليلة يدب على يديه ورجليه ويضر في البر لكن ضررا قليلا وأكثر ضرره في الماء، ثم إن الله سبحانه سلط عليه دابة من دواب النيل يقال لها اللشك وهي تتبعه وترتصده حتى يفتح فمه فإذا فتحه وثبت فيه فتمر في حلقة ولا تزال تأكل كبده ومعاه حتى تفنيه فيموت.

ويخرج أيضا إلى النيل من البحر الملح سمك يقال له البوري حسن اللون طيب الطعم في قدر الراي يكون وزن الحوت منه رطلين وثلاثة أرطال، ويدخل أيضا من البحر إلى النيل سمك يقال له الشابل وهو بقدر طول الذراع وأزيد على ذلك لذيد الطعم حسن اللحم سمين، ويدخل أيضا منه حوت يسمى الشبوط وهو ضرب من الشابل إلا أنه صغير في طول شبر ويدخله من البحر أنواع كثيرة ويوجد أيضا في أسفل النيل بناحية رشيد وفوه ضرب من السمك له صدف يتولد عند آخر النيل إذا خالط الماء الحلو الماء الملح وهذا الصدف يقال له الدلينس وهو صدفة صغيرة في جوفها لحمة فيها نقطة سوداء وهو رأسها، وأهل رشيد يملحونه ويرفعونه إلى جميع بلاد مصر وللنيل في جريه أخبار وعجائب.

وأما بلاد النوبة التي قدمنا ذكرها فمنها مدينة كوشة الواغلة، وبينها وبين مدينة نوابة ستة أيام، وهي تبعد عن النيل يسيرا وموضعها فوق خط الاستواء وأهلها قليلون وتجاراتها قليلة،

وأرضها حارة جافة كثيرة الجفوف جدا، وشرب أهلها من عيون تمد النيل هناك، وهي في طاعة ملك النوبة وملك النوبة يسمى كاسل وهو اسم يتوارثه ملوك النوبة وقرارته ودار ملكه في دنقلة.

ومدينة دنقلة في غربي النيل وعلى ضفته ومنه شرب أهلها، وأهلها سودان لكنهم أحسن السودان وجوها وأجملهم شكلا، وطعامهم الشعير والذرة والتمر يجلب إليهم من البلاد المجاورة لهم وشرابهم المزر المتخذ من الذرة واللحوم التي يستعملونها لحوم الإبل طرية ومقددة ومطحونة ويطبخونها بألبان النوق، وأما السمك فكثير عندهم جدا وفي بلادهم الزرائف والفيلة والغزلان. ومن بلاد النوبة مدينة علوة، وهي على ضفة النيل أسفل من مدينة دنقلة وبينهما مسير خمسة أيام في النيل، وماؤهم من النيل وشربهم منه وبه يزرعون الشعير والذرة وسائر بقولهم من السلجم والبصل والفجل والقثاء والبطيخ، وحال علوة في هيأتها ومبانيها ومراتب أهلها وتجاراتهم مثل ما هي عليه حالات مدينة دنقلة، وأهل علوة يسافرون إلى بلاد مصر وبين علوة وبلاق عشرة أيام في البر وفي النيل أقل من ذلك انحدارا، وطول بلاد النوبة على ساحل النيل مسير شهرين وأكثر وكذلك أهل علوة ودنقلة يسافرون في النيل بالمراكب وينزلون أيضا إلى مدينة بلاق في النيل.

ومدينة بلاق من مدن النوبة وهي بين ذراعين من النيل وأهلها متحضرون ومعايشهم حسنة، وربما وصلت إليهم الحنطة مجلوبة، والشعير والذرة عندهم ممكن كثير موجود وبمدينة بلاق يجتمع تجار النوبة والحبشة، وتجار أرض مصر يسافرون إليها إذا كانوا معهم في صلح وهدنة، ولباس أهلها الأزر والمآزر، وأرضها تسقى بالنيل وماء النهر الذي يأتي من بلاد الحبشة وهو واد كبير جدا يمد النيل وموقعه بمقربة من مدينة بلاق وفي الذراع المحيط بها وعليه مزارع أهل الحبشة وكثير من مدنها، وليس في مدينة بلاق مطر ولا يقع فيها غيث البتة وكذلك سائر بلاد السودان من النوبة والحبشة والكانميين والزغاويين وغيرهم من الأمم لا يمطرون ولا لهم من الله رحمة ولا غياث إلا فيض النيل وعليه يعولون في زراعة أرزاقهم ومعيشتهم الذرة والألبان والحيتان والبقول وجميع ذلك بمدينة بلاق كثير موجود.

ومن مدينة بلاق إلى جبل الجنادل ستة أيام في البر وفي النيل أربعة أيام انحدارا، وإلى جبل الجنادل تصل مراكب السودان ومنها ترجع لأنها لا تقدر على النفوذ في السير إلى مدينة مصر والعلة المانعة من ذلك أن الله جل اسمه خلق هذا الجبل وجعله قليل العلو من ناحية بلاد السودان وجعل وجهه الثاني مما يلي أرض مصر عاليا جداً، والنيل يمر من جهة أعلاه فيصب إلى أسفل صبا عظيما مهولا، وهناك حيث ينصب الماء أحجار مكدسة وصخور مضرسة والماء يقع بينها فإذا وصلت مراكب النوبيين وغيرها من مراكب السودان وجاءت إلى هذا المكان من النيل لم يمكنها عبوره لما فيه من العطف المهلك فإذا انتهت المراكب بما فيها من التجار وما معهم من التجارات تحولوا عن بطون المراكب إلى ظهور الجمال وساروا إلى مدينة أسوان في البرية وبين هذا الموضع أعني الجبل وأسوان نحو من اثنتي عشرة مرحلة بسير الجمال.

وأسوان هذه من ثغور النوبة إلا أنهم في أكثر الأوقات متهادنون وكذلك مراكب مصر لا تصعد في النيل إلا إلى مدينة أسوان فقط، وهي آخر الصعيد الأعلى، وهي مدينة صغيرة عامرة كثيرة الحنطة وسائر أنواع الحبوب والفواكه والدلاع وسائر البقول وبها اللحوم الكثيرة من البقر والحملان والمعز والخرفان وغيرها من صنوف اللحوم العجيبة البالغة في الطيب والسمن وأسعارها مع الأيام رخيصة وبها تجارات وبضائع تحمل منها إلى بلاد النوبة وربما أغار على أطرافها خيل السودان المسمين بالبليين ويزعمون أنهم روم وأنهم على دين النصرانية من أيام القبط وقبل الإسلام، غير أنهم خوارج في النصارى يعاقبة وهم منتقلون فيما بين أرض البجة وأرض الحبشة ويتصلون ببلاد النوبة، وهم رحالة ينتقلون ولا يقيمون بمكان مثل ما تفعله لمتونة الصحراء الذين هم بالمغرب الأقصى.

وليس يتصل بمدينة أسوان من جهة الشرق بلد للإسلام إلا جبل العلاقي، وهو جبل أسفله واد جاف لا ماء به لكن الماء إذا حفر عليه وجد قريبا معينا كثيرا، وبه معدن الذهب والفضة وإليه تجتمع طوائف من الطلاب لهذه المعادن، وعلى مقربة من أسوان جنوبا من النيل جبل في أسفله معدن الزمرد في برية منقطعة عن العمارة ولا يوجد الزمرد في شيء من

جميع الأرض إلا ما كان منه بذلك المعدن وبه طلاب كثيرة، ومن هذا المعدن يخرج ويتجهز به إلى سائر البلاد.

وأما معدن الذهب فمن أسوان إليه نحو خمسة عشر يوما بين شرق وشمال، وهو في أرض البجة و لا يتصل بأسوان من جهة المغرب إلا الواحات وهي الآن خالية لا ساكن فيها وكانت في زمان سلف معمورة والمياه تخترق أرضها، وبها الآن بقايا شجر وقرى متهدمة لا تعمر وكذلك من ظهرها إلى ديار كوار وكوكو لا تخلو تلك الأرضون من جزائر نخل وبقايا بناء. وحكى الحوقلي أن بها إلى يومنا هذا معز وغنم وقد توحشت فهي تتوارى من الناس وتصاد كما يصاد الحيوان البري وأكثر الواحات نازلة مع أرض مصر وفيها بقايا عمارة.

ومن مدينة بلاق إلى مدينة مركطة ثلاثون مرحلة، وهي مدينة صغيرة لا سور لها وهي مجتمعة الخلق متحضرة وبها شعير ويتعيشون به، والسمك والألبان عندهم كثير، وإليها يدخل التجار من مدينة زالغ التي على بحر القلزم.

الجزء الخامس

وهذا الجزء الخامس من الإقليم الأول تضمن من الأرضين أكثر أرض الحبشة وجملة من بلادها، وأكبر مدنها كلها جنبيتة وهي مدينة متحضرة لكنها في برية بعيدة من العمارات وتتصل عماراتها وبواديها إلى النهر الذي يمد النيل وهو يشق بلاد الحبشة ولها عليه مدينة مركطة ومدينة النجاغة، وهذا النهر منبعه من فوق خط الاستواء، وفي آخر نهاية المعمور من جهة الجنوب فيمر مغربا مع الشمال حتى يصل إلى أرض النوبة فيصب هناك في ذراع النيل الذي يحيط بمدينة بلاق كما قدمنا وصفه، وهو نهر كبير عريض كثير الماء بطيء الجري، وعليه عمارات للحبشة وقد وهم أكثر المسافرين في هذا النهر حين قالوا إنه النيل وذلك لأنهم يرون به ما يرون من النيل في خروجه ومده وفيضه في الوقت الذي جرت به عادة خروج النيل، وينقص فيض هذا النهر عند نقصان فيض النيل ولهذا السبب وهم فيه أكثر الناس وليس كذلك حتى إنهم ما فرقوا بينه وبين النيل لما رأوا فيه من الصفات النيلية التي قدمنا ذكرها وتصحيح ما قلناه من أنه ليس بالنيل ما جاءت به الكتب المؤلفة في هذا الفن.

وقد حكوا من صفات هذا النهر ومنبعه وجريه ومصبه في ذراع النيل عند مدينة بلاق وقد ذكر ذلك بطلميوس الأقلودي في كتابه المسمى بـ"الجغرافية" وذكره حسان بن المنذر في كتاب "العجائب "عند ذكره الأنهار ومنابعها ومواقعها وهذا مما لا يهم فيه نبيل، ولا يقع في جهله عالم ناظر في الكتب باحث عن غرضه، وعلى هذا النهر يزرع أهل بوادي الحبشة أكثر معايشهم مما تدخره لأقواتها من الشعير والذرة والدخن واللوبيا والعدس وهو نهر كبير جدا لا يعبر إلا بالمراكب وعليه كما قلناه قرى كثيرة وعمارات للحبشة ومن هذه القرى ميزة جنبيتة وقلجون وبطا وسائر القرى البرية فأما المدن الساحلية فإنها تمتار مما يجلب إليها من اليمن في البحر.

ومن مدن الحبشة الساحلية مدينة زالغ ومنقونة وأقنت وباقطي إلى ما اتصل بها من عمارات قرى بربرة، وكل هذه القرى ميرتها مما يتصيده أهلها من السمك ومن الألبان وسائر الحبوب التي يجلبونها من قراهم التي على ضفة النهر المذكور.

ومدينة النجاغة مدينة صغيرة على ضفة النهر وأهلها فلاحون يزرعون الذرة والشعير وبه يتجهزون، ومنه يتعيشون، ومتاجر هذه البلدة قليلة، وصنائعهم النافعة لأهلها قليلة، والسمك عندهم كثير ممكن، والألبان غزيرة وبين هذه المدينة ومدينة مركطة السابق ذكرها ستة أيام انحدارا في النهر وفي الصعود أزيد من عشرة أيام على قدر الإمكان وزوارقهم صغار وخشبهم معدوم وليس بعد هاتين المدينتين من جهة الجنوب شيء من العمارات ولا شيء يعول عليه.

وبين مدينة النجاغة ومدينة جنبيتة ثماني مراحل، وكذلك بين مركطة وجنبيتة مثلها وجنبيتة كما حكيناه في برية منقطعة من الأرض، وشرب أهلها من الآبار وماؤها يجف في أكثر الأوقات حتى لا يوجد، والغالب على أهل هذه البلدة أنهم طلاب معادن الفضة والذهب، وذلك جل طلبهم وأكثر معايشهم منه وهذه المعادن في جبل مورس وهو على أربعة أيام من مدينة جنبيتة، ومن هذا المعدن أيضا إلى أسوان نحو من خمسة عشر يوما.

ومن مدينة جنبيتة إلى مدينة زالغ التي على الساحل من أرض الحبشة نحو من أربع عشرة

مرحلة، ومدينة زالغ على ساحل البحر الملح المتصل بالقزم وقعر هذا البحر أقاصير كله متصلة إلى باب المندب لا تعبره المراكب الكبار وربما تجاسرت عليه المراكب الصغار فتتخطفها الرياح فتتلفها، ومن زالغ إلى ساحل اليمن ثلاثة مجار مقدرة الجري، ومدينة زالغ صغيرة القطر كثيرة الناس والمسافرون إليها كثير وأكثر مراكب القلزم تصل إلى هذه المدينة بأنواع من التجارات التي يتصرف بها في بلاد الحبشة ويخرج منها الرقيق والفضة، وأما الذهب فهو فيها قليل، وشرب أهلها من الآبار ولباسهم الأزر ومقندرات القطن.

ومن مدينة زالغ إلى مدينة منقونة خمسة أيام في البر، وأما في البحر فأقل من ذلك، ويقابلها في البرية بلدة اسمها قلجون وبينهما اثنا عشر يوما في البرية، ومن منقونة إلى أقنت أربعة أيام في البر وهي على الساحل في الجنوب ويسافر إليها في الزوارق الصغار التي لا تحمل الشيء الكثير من الوسق لأن هذا البحر كله من جهة أرض الحبشة تروش وأقاصير متصلة لا تجري به المراكب كما قلناه، ومدينة أقنت صغيرة ليست بكبيرة ولا بكثيرة الخلق، وأكثرها خراب وأهلها قليل وأكثر أكلهم الذرة والشعير وسمكهم موجود وصيدهم كثير، وأما عامة أهلها فإنهم يعيشون من لحوم الصدف المتكون في تلك الأقاصير من البحر يملحونه ويصيرونه إداما لهم.

ومن مدينة أقنت إلى باقطي خمسة أيام، وباقطي هذه مدينة صغيرة جدا كالقرية الجامعة ليست بمسورة لكنها على تل رمل، وبينها وبين البحر نحو من رمية سهم، وأهلها مقيمون بها قليل سفرهم منها وقليلا ما يدخل المسافرون إليها لضيق معايشها وكون متاجرها مجالبة وبواديها شاقة وجبالها جرد لا نبات فيها وليس فوقها مما يلي الجنوب عمارة ولا قرى إلا ما كان منها قريبا، ولهم إبل يتصرفون عليها ويتعيشون منها ويتجرون بها. ومنها على ثمانية أيام مدينة بطا وتتصل بها قرى بربرة وأولها جوة وهي منها قريبة.

وجملة الحبشة يتخذون الإبل ويكتسبونها ويشربون ألبانها ويستخدمون ظهورها وينتظرون لقاحها، وهي أجل بضاعة عندهم، ويسرق بعضهم أبناء بعض ويبيعونهم من التجار فيخرجونهم إلى أرض مصر في البر والبحر.

وتجاور أرض الحبشة في جهة الشمال أرض البجة، وهي بين الحبشة والنوبة وأرض الصعيد، وليس بأرض البجة قرى ولا خصب وإنما هي بادية جدبة ومجتمع أهلها ومقصد التجار منها إلى وادي العلاقي وإليه ينجلب أهل الصعيد وأهل البجة وهو واد فيه خلق كثير وجمع غزير. والعلاقي في ذاته كالقرية الجامعة والماء بها من آبار عذبة، ومعدن النوبة المشهور متوسط في أرضها في صحراء لا جبل حوله وإنما هي رمال لينة وسباسب سائلة، وإذا كان أول ليالي الشهر العربي وآخره خاض الطلاب في تلك الرمال بالليل فينظرون فيها كل واحد منهم ينظر فيما يليه من الأرض ،فإذا أبصر التبر يضيء بالليل علم على موضعه علامة يعرفها وبات هنالك فإذا أصبح عمد كل واحد منهم إلى علامته في كوم الرمل الذي علم عليه ،ثم يأخذه ويحمله معه على نجيبه فيمضي به إلى آبار هنالك ثم يقبل على غسله بالماء في جفنه عود فيستخرج التبر منه ثم يؤلفه بالزئبق ويسبكه بعد ذلك فما اجتمع لهم منه تبايعوه بينهم واشتراه بعضهم من بعض ثم يحمله التجار إلى سائر الأقطار، وهذا شغلهم دأبا لا يفترون عنه ومن ذلك معايشهم ومبادئ مكاسبهم وعليه يعولون.

ومن وادي العلاقي إلى عيذاب من أرض البجة اثنا عشر يوما، ومن بلاد البجة مدينة بختة وهي أيضاً قرية مسكونة وبها سوق لا يعول عليها، وحولها قوم ينتجون الجمال ومنها معايشهم وهي أكثر مكاسبهم وإلى هذه القرية تنسب البختية، وليس يوجد على وجه الأرض جمال أحسن منها ولا أصبر على السير ولا أسرع خطا وهي بديار مصر معروفة بذلك.

وبين أرض النوبة وأرض البجة قوم رحالة يقال لهم البليون، ولهم صرامة وعزم وكل من حولهم من الأمم يهادنونهم ويخافون ضرهم، وهم نصارى خوارج على مذهب اليعقوبية، وكذلك جميع أهل بلاد النوبة والحبشة، وأكثر أهل البجة نصارى خوارج على مذهب اليعاقبة.

ويتصل أيضا بأرض الحبشة على البحر بلاد بربرة وهم تحت طاعة الحبشة وهي قرى متصلة وأولها قرية جوة ومنها إلى ياقطي ستة أيام، ومنها أيضا إلى بطا البرية سبعة أيام، ومدينة

بطا المتقدم ذكرها فوق خط الاستواء في نهاية المعمور.)

تبدو ملاحظات الإدريسي منصرفة إلى المسافات وأسماء المدن وأحوال الناس، وفي المظاهر الطبيعية والاقتصادية، وهي تكشف طرز المعيشة ومصادرها ،ولكنها بسبب الطابع الشامل لكتاب (نزهة المشتاق في اختراق الآفاق) كما أشرنا من قبل، تتراوح بين الشمول والتسرّع،وتحتاج إلى نصوص أخرى تضيء بعض الجوانب فيها، وسيتكفّل المسعودي، في الفقرة اللاحقة بذلك.

(65)

ذكر السودان وأنسابهم وأجناسهم وأنواعهم وديارهم.
المسعودي(٣٤٦هجري=٩٥٧ميلادي)من كتاب (مروج الذهب)

(قال المسعودي: لما تفرق ولد نوح في الأرض سار ولد كوش بن كنعان نحو المغرب حتى قطعوا نيل مصر، ثم افترقوا فسارت منهم طائفة ميمنة بين المشرق والمغرب، وهم النوبة والبجة والزنج، وسار فريق منهم نحو المغرب، وهم أنواع كثيرة نحو الزغاوة والكانم ومركه وكوكو وغانة وغير ذلك من أنواع السودان والدمادم، ثم افترق الذين مضوا بين المشرق والمغرب، فصارت الزنج من المكير والمشكر وبربرا وغيرهم من أنواع الزنج .. وهؤلاء القوم أصحاب جلود النمور الحمر وهي لباسهم، ومن أرضهم تحمل إلى بلاد الإسلام، وهي أكبر ما يكون من جلود النمورة وأحسنها للسروج، وبحر الزنج والأحابش هو عن يمين بحر الهند، وإن كانت مياههما متصلة، ومن أرضهم يحمل الذبل من ظهور السلاحف، وهو الذي تتخذ منه الأمشاط كالقرون، وأكثر ما تكون الدابة المعروفة بالزرافة في أرضهم، وإن كانت عامة الوجود في أرض النوبة دون سائر بلاد الأحابش.

وقد تنوزع في نتاج هذا النوع من الدواب المعروفة بالزرافة؛ فمنهم من رأى أن بدء نتاجها من الإبل، ومنهم من رأى أن ذلك كان بجمع بين الإبل والنمورة وأن الزرافة ظهرت من

ذلك، ومنهم من زعم أنه نوع من الحيوان قائم بذاته كقيام الخيل والحمير والبقر، وأن ليس سبيلها كسبيل البغال المولّدة من الخيل والحمير، وتدعى الزرافة بالفارسية اشتركاو، وقد كانت تهدى إلى ملوكهم من أرض النوبة كما تحمل إلى ملوك العرب ومن مضى من خلفاء بني العباس وولاة مصر، وهي دابة طويلة اليدين والرقبة، قصيرة الرجلين، لا ركبتين لرجليها وإنما الركبتان ليديها.

وقد ذكر الجاحظ في كتاب الحيوان عند ذكر الزرافة كلاماً كثيراً في نتاجها، وأن في أعالي بلاد النوبة يجتمع سباع ووحوش ودواب كثيرة في حمارة القيظ إلى شرائع المياه، فتتسافد هنالك، فيلقح منها ما يلقح ويمتنع منها ما يمتنع، فيجيء من ذلك خلق كثير مختلفون في الصورة والأشكال؛ منها الزرافة ذات الأظلاف، وهي دابة منحنية إلى خلفها، منصوبة الظهر إلى مؤخرها، وذلك لقصر رجليها، وللناس في الزرافة كلام كثير على حسب ما قدمنا في بدء نتاجها، وأن النمور ببلاد النوبة عظيمة الخلق، وأن الإبل صغيرة الخلق قصيرة القوائم، وأن ذلك كاتساع أرحام القلاص العربية، لفوالج كرمان وغيرها من إبل خراسان، فيظهر بينهما ويتولد عنهما الجمال البخت والجمازات، ولا ينتج بين بختي وبختية، وإنما يصح هذا النوع من الإبل بين فوالج الإبل، وهي ذات السنامين، وبين قلاص الإبل، وهي النوق العربية، وكنتاج البخت بين البجاوية والمهرية، وللزرافة أخبار كثيرة قد ذكر ذلك صاحب المنطق في كتابه الكبير (في الحيوان) ومنافع أعضائها وغير ذلك من سائر أعضاء الحيوان .

والزرافة عجيبة الفعل في إلفها، وتوددها إلى أهلها، وهي كالفيلة: منها وحشية، ومنها مستأنسة أهلية، مع من قدمنا ذكره من الزنوج والأجناس من الأحابش الذين صاروا عن يمين النيل، ولحقوا بأسافل البحر الحبشي، وقطعت الزنج دون سائر الأحابش الخليج المنفصل من أعلى النيل الذي يصب إلى بحر الزنج، فسكنت الزنج في ذلك الصقع، واتصلت مساكنهم إلى بلاد سفالة، وهي أقاصي بلاد الزنج، وإليها تقصد مراكب العمانيين والسيرافيين، وهي غاية مقاصدهم في (أسافل) بحر الزنج كما أن أقاصي بحر الصين متصل ببلاد السيلى .. وكذلك أقاصي بحر الزنج هو بلاد سفالة، وأقاصيه بلاد الواق واق، وهي أرض كثيرة الذهب، كثيرة العجائب، خصبة حارة.

واتخذها الزنج دار مملكة، وملكوا عليهم ملكا سموه وقليمى، وهي سمة لسائر ملوكهم في سائر الأعصار على ما قدمنا آنفاً، ويركب وقليمى -وهو يملك ملوك سائر الزنوج- في ثلثمائة ألف فارس، ودوابهم البقر، وليس في أرضهم خيل ولا بغال ولا إبل، ولا يعرفونها، وكذلك لا يعرفون الثلج والبرد، ولا غيرهم من الأحابش، ومنهم أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً.

ومساكن الزنج من حد الخليج المتشعب من أعلى النيل إلى بلاد سفالة والواق واق، ومقدار مسافة مساكنهم واتصال مقاطنهم في الطول والعرض نحو سبعمائة فرسخ أودية وجبال ورمال.

والفيلة في بلاد الزنج في نهاية الكثرة، وحشية كلها غير مستأنسة، والزنج لا تستعمل منها شيئاً في حروب ولا غيرها، بل تقتلها، وذلك أنهم يطرحون لها نوعاً من ورق الشجر ولحائه وأغصانه يكون بأرضهم في الماء، ويختفي رجال الزنج، فترد الفيلة لشربها، فإذا وردت وشربت من ذلك الماء أسكرها، فتقع، ولا مفاصل لقوائمها ولا ركب على حسب ما قدمنا، فيخرجون إليها بأعظم ما يكون من الحراب فيقتلونها لأخذ أنيابها؛ فمن أرضهم تجهز أنياب الفيلة، في كل ناب منها خمسون ومائة من، بل أكثر من ذلك (والاثنان منها ثلاثمائة من، واكثر من ذلك) فيجهز الأكثر منها من بلاد عمان إلى أرض الصين والهند، وذلك أنها تحمل من بلاد الزنج إلى عمان، ومن عمان إلى حيث ذكرنا، ولولا ذلك لكان العاج بأرض الإسلام كثيراً، وأهل الصين يتخذ ملوكها وقوادها وأراكنتها الأعمدة من العاج، ولا يدخل قوادها ولا أحد من خواصها على ملوكها بشيء من الحديد، بل بتلك الأعمدة المتخذة من العاج، ورغبتهم فيما استقام من أنياب الفيلة ولم يتقوس؛ لاتخاذ الأعمدة منها على ما ذكرنا، ويستعمل العاج في دخن بيوت أصنامها وأبخرة هياكلها، كاستعمال النصارى في الكنائس الدخنة المعروفة بدخنة مريم وغيرها من الأبخرة، وأهل الصين لا يتخذون الفيلة في أرضهم، ويتطيرون من اقتنائها (عندهم) والحرب عليها؛ لخبر كان لهم في قديم الزمان في بعض حروبهم.

والهند كثيرة الاستعمال لما يجهز إليهم من العاج في نصب الخناجر، وهي الحراري، وأحدها حَرِّى، وفي قوائم سيوفها، وهي القراطل، وأحدها قرطل، وهي سيوف معوجة، والأغلب في استعمال الهند العاج اتخاذها منه الشطرنج والنرد، والشطرنج ذو صور وأشكال على صور الحيوان من الناطقين وغيرهم، كل قطعة من الشطرنج كالشبر في عرض ذلك بل أكثر، فإذا لعبوا بها فإنما يقوم الواحد (منهم) قائماً فينقلها في بيوتها، والأغلب عليهم القمار في لعبهم بالشطرنج والنرد على الثياب والجواهر، وربما أنفد الواحد منهم ما معه فيلعب في قطع عضو من أعضاء جسمه، وهو أن يجعلوا بحضرتهم قدراً من النحاس صغيرة على نار فحم فيها دهن لحم أحمر فيغلي ذلك الدهن المدمل للجراح والماسك لسيلان الدم، فإذا لعب في إصبع من أصابعه وقُمِرَ قطعها بذلك الخنجر، وهو مثل النار، ثم غمس يده في ذلك الدهن، فكواها، ثم عاد إلى لعبه، فإذا توجه عليه اللعب أبان إصبعاً ثانية، وربما توجه عليه اللعب في قطع الأصابع والكف ثم الذراع والزند وسائر الأطراف، وكل ذلك يستعمل فيه الكي بذلك الدهن، وهو دهن عجيب يعمل من أخلاط وعقاقير بأرض الهند عجيب المعنى، لما ذكرنا، وما ذكرناه عنهم فمستفيض من فعلهم.

والهند تتخذ الفيلة في بلادها وتتناتج في أرضها، ليس فيها وحشية، وإنما هي حربية ومستعملة كاستعمال البقر والإبل، وأكثرها يأوي إلى المروج والضياع والغياض كالجواميس في أرض الإسلام، والفيلة تهرب من المكان الذي يكون فيه الكركدن على حسب ما قدمنا، فلا ترعى في موضع تشم فيه رائحة الكركدن، ويعمر الفيل بأرض الزنج نحواً من أربعمائة سنة، كذلك يذكر الزنج؛ لأنها تعرف في ديارها ومفاوزها، والفيل العظيم مما لا يتأتى لهم قتله، ومنها الأسود والأبيض والأبلق والأغبر، وفي أرض الهند منها ما يعمر المائة سنة والمائتين، ويضع حمله في كل سبع سنين.

ولها بأرض الهند آفة عظيمة من نوع من الحيوان يعرف بالزبرق وهي دابة أصغر من الفهد أحمر ذو زغب وعينين براقتين عجيبة سريع الوثبة، يبلغ في وثبته الثلاثين والأربعين والخمسين ذراعاً وأكثر من ذلك، فإذا أشرف على الفيل رشش عليه بوله بذنبه فيحرقها.

وربما لحق الإنسان فأتى عليه، وفي الهند من إذا أشرفت عليه هذه الدابة تعلق بأكبر ما يكون من شجر الساج، وهي أكبر من النخل وأكبر من شجر الجوز، تُكِنُّ الشجرة منها الخلق الكثير من الناس وغيرهم من الحيوان على حسب ما يحمل إلى البصرة والعراق ومصر من خشب الساج في طوله، فإذا تعلق الإنسان بأعلى تلك الشجرة وعجز هذا الحيوان عن إدراكه لصق بالأرض ووثب إلى أعلى الشجرة، فإن لم يلحق الإنسان في وثبته رشش من بوله إلى أعلى الشجرة، وإلا وضع رأسه في الأرض وصاح صياحاً عجيباً، فيخرج من فيه قطع دم ويموت من ساعته، وأي موضع من الشجر سقط عليه بوله أحرقه، وإن أصاب الإنسان شيء من بوله أتلفه، وكذلك سائر الحيوان.

وملوك الهند تتخذ في خزائنها مرارة هذه الدابة، ومذا كيره، ومواضع من أعضائه، وهو السم القاتل من ساعته، ومنه ما يسقى به السلاح فيتلف من فوره، ومذا كير هذه الدابة كمذاكير كلب الماء الذي يخرج منه الجندبادستر، وهذا الكلب أمره مشهور عند الصيادلة وغيرهم، وهو اسم فارسي معرب، وإنما هو كند وتفسيره ذلك الخصية، فعرب فقيل جندبادستر.

والدابة المتقدم ذكرها المعروفة بالزبرق لاتأوي إلى موضع يكون فيه النوشان – وهو الكركدن – وتهرب منه كما يهرب منه الفيل أيضاً، والفيل يهرب من السنانير– وهي القطاط– ولا يقف لها البتة إذا أبصرها، وقد ذكر عن ملوك الفرس أنها كانت توقي الفيلة المقاتلة بالرجالة حولها ومراعاة حيل الأعداء عند الحرب بتخلية السنانير عليها، وكذلك أفعال ملوك السند والهند إلى هذه الغاية، وقد ذكر أن الخنازير ربما تهرب منها الفيلة.

وقد كان رجل بالمولتان من أرض السند يدعى هارون بن موسى مولى الأزد، وكان شاعراً شجاعاً ذا رياسة في قومه ومنعة بأرض السند مما يلي أرض المولتان، وكان في حصن له، فالتقى مع بعض ملوك الهند وقد قدمت الهند أمامها الفيلة فبرز هارون بن موسى أمام الصف، وقصد لعظيم من الفيلة وقد خبأ تحت ثوبه سنورا، فلما دنا في حملته من الفيل خَلّى القط عليه، فولى الفيل منهزما لما بصر بذلك الهر، وكان ذلك سبب هزيمة الجيش،

وقتل الملك، وغلبة المسلمين عليهم.

والفيلة لا تنتج ولا تتوالد إلا بأرض الزنج، والهند، ولا تعظم أنيابها بأرض السند والهند على ما تعظم بأرض الزنج، والزنج تتخذ من جلود الفيلة الدرق وكذلك الهند، ولا يلحق ذلك في المنعة شيء من الدرق الصيني والتبتي، واللمطي والبجاوي، ولا ما نقع في اللبن وغير ذلك من أنواع الدرق.

وخرطومه أنفه، وبه يوصل الطعام والشراب إلى جوفه، وهو شيء بين الغضروف واللحم والعصب، وبه يقاتل ويضرب، ومنه يصيح، وليس صوت الفيل على مقدار عظم جسمه وكبر خلقه.

قال المسعودي: فالزنج -مع كثرة اصطيادها لما ذكرنا من الفيلة وجمعها لعاجها- غير منتفعة بشيء من ذلك في آلاتها، وإنما تتحلى الزنج بالحديد بدلا من الذهب والفضة، وما ذكرنا من دوابهم أنها بقر، وأنهم عليها يتقاتلون بدلا من الإبل والخيل، وهي بقر تجري كالخيل بسروج ولجم، ورأيت بالري نوعاً من هذا البقر يبرك كما يبرك الجمل، ويثور بحمله كما تثور الإبل إذا استقلت بأحمالها، وهذا النوع من البقر يحمل عليه الميتة من الحيوان كالخيل والإبل والحمير والبغال، ومُلاكُّها نوع من المجوس مزدقية، ولهم خارج الري قرية لا يسكن معهم فيها غيرهم، فإذا مات بالري أو قزوين شيء مما ذكرنا من البهائم ورد الواحد منهم مع ثورة فأناخه وحمل عليه تلك الجيفة وسار بها إلى قريته، فأكلهم منها، وبنيانهم من عظامها، ويجففون من لحمها ما يدخرونه لشتائهم، فأكثر أكلهم وأكل بقرهم من تلك اللحمان رطباً ويابساً، وهذا النوع من البقر الغالب عليه حمرة الحدق، وسائر البقر تنفر وتهرب من هذا البقر، ورأيت بأصبهان وقم منها ما في أنوفها حلق الحديد والصفر، قد خزمت فيها الحبال، وخطمت بها كما يفعل بالجمال البخت، وكذلك بالري رأيت ثوراً منها قد عدا نحو ثور من غير هذا النوع، فلما رآه قصده قام فزعاً من هذا الجنس.

وليس في سائر أنواع البقر ما يأوي المياه والجزائر والبحيرات إلا البقر المعروف بالحبشية التي تكون ببلاد مصر وأعمالها وبحيرة تنيس ودمياط وما اتصل بتلك الديار، وأما الجواميس

فإنها بالثغر الشامي تجر أكبر ما يكون من العجل، في أنوفها حلق الحديد والصفر .. كذلك منها ببلاد أنطاكية، وأكثر ذلك ببلاد السند والهند وطبرستان، وقرون تلك البقر أكبر من قرون هذه الجواميس التي بأرض الإسلام، وطول القرن منها نحو الذراع والذراعين وكذلك الجواميس كثيرة بأرض العراق مما يلي طفوف الكوفة والبصرة والبطائح وما اتصل بهذه الديار، والناس يذكرون عنقاء مُغْرب ويصورون العنقاء في الحمامات وغيرها، ولم أجد أحداً في هذه الممالك ممن شاهدته أو نمى إليَّ خبره ذكر أنه رآها، ولست أدري كيف ذلك، ولعله اسم لا مسمى له! .

ولنرجع الآن إلى أخبار الزنج وأخبار ملوكها: فأما تفسير اسم ملك الزنج - الذي هو وقليمي- فمعنى ذلك ابن الرب الكبير؛ لأنه اختاره لملكهم والعدل فيهم، فمتى جار الملك عليهم في حكمه وحاد على الحق قتلوه وحرموا عقبه الملك، ويزعمون أنه إذا فعل ذلك فقد بطل أن يكون ابن الرب الذي هو ملك السموات والأرض، ويسمون الخالق عز وجل ملكنجلو، وتفسيره الرب الكبير، والزنج أولو فصاحة في ألسنتهم، وفيهم خطباء بلغتهم، يقف الرجل الزاهد منهم فيخطب على الخلق الكثير منهم، ويرغبهم في القرب من بارئهم، ويبعثهم على طاعته، ويرهبهم من عقابه وصولته، ويذكرهم من مضى من ملوكهم وأسلافهم، وليس لهم شريعة يرجعون إليها، بل رسوم لملوكهم، وأنواع من السياسات يسوسون بها رعيتهم. وأكلهم الموز، وهو ببلادهم كثير، وكذلك بأرض الهند، والغالب على أقوات الزنج الذرة، ونبت يقال له الكلاري يقلع من الأرض: كالكمأة، والراسن، ومنه كثير ببلاد عدن وما اتصل بها من أرض اليمن، ويشبه هذا الكلاري القلقاس الذي يكون بالشام ومصر، ومن غذائهم أيضاً العسل واللحم، ومن هوي منهم شيئاً من نبات أو حيوان أو جماد يجده، وجزائرهم في البحر لا تحصى كثرة، وفيها النارجيل يعم أكله سائر الزنج، ومن بعض تلك الجزائر جزيرة بينها وبين ساحل الزنج نحو من يوم أو يومين، فيها خلائق من المسلمين يتوارثها ملوك من المسلمين، يقال لها قنبلو.

وأما النوبة فافترقت فرقتين: فرقة في شرق النيل وغربيه، وأناخت على شطية، فاتصلت

ديارها بديار القبط من أرض مصر والصعيد من بلاد أسوان وغيرها، واتسعت مساكن النوبة على شاطئ النيل مصعدة ولحقوا بقريب من أعاليه، وبنوا دار مملكة، وهي مدينة عظيمة تدعى دنقلة، والفريق الآخر من النوبة يقال لهم علوة، وبنوا مدينة عظيمة وسموها سرية.

قال المسعودي: وانتهيت في تصنيفي إلى هذا الموضع من كتابنا هذا في شهر ربيع الآخر سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة، (وكنت بفسطاط مصر) فأخبرت أن الملك في مدينة دنقلة للنوبة "كابل" بن سرور، وهو ملك ابن ملك ابن ملك فصاعدا، وملكه يحتوي على ماقرة وعلوة، والبلد المتصل بمملكته بأرض أسوان يعرف بمريس، وإليه تضاف الريح المريسية، وعمل هذا الملك متصل بأعمال مصر من أرض الصعيد ومدينة أسوان.

وأما البجة فإنها نزلت بين بحر القلزم ونيل مصر، وتشعبوا فرقا، وملكوا عليهم ملكا، وفي أرضهم معادن الذهب، وهو التبر، ومعادن الزمرد، وتتصل سراياهم ومناسرهم على النجب إلى بلاد النوبة، فيغيرون ويسبون، وقد كانت النوبة قبل ذلك أشد من البجة، إلى أن قوي الإسلام وظهر، وسكن جماعة من المسلمين معدن الذهب وبلاد العلاقي وعيذاب، وسكن في تلك الديار خلق من العرب من ربيعة بن نزار بن معد بن عدنان، فاشتدت شوكتهم، وتزوجوا في البجة؛ فقويت البجة بمن صاهرها من ربيعة، وقويت ربيعة بالبجة على من ناوأها وجاورها من قحطان وغيرهم من مضر بن نزار ممن سكن تلك الديار، وصاحب المعدن في وقتنا هذا -وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة- أبو مروان بشر بن إسحاق، وهو من ربيعة، يركب في ثلاثة آلاف من ربيعة وأحلافها من مصر واليمن وثلاثين ألف حراب على النجب من البجة بالحجف البجاوية، وهم الحداربة، وهم المسلمون ممن بين سائر البجة، وباقي البجة كفار يعبدون صنما لهم.

وأما الحبشة فاسم مملكتهم كعبر، وهي مدينة عظيمة، وهي دار مملكة النجاشي، وللحبشة مدن كثيرة وعمائر واسعة، يتصل ملك النجاشي بالبحر الحبشي، ولهم ساحل لهم فيه مدن فيها كثيرة، وهو مقابل لبلاد اليمن؛ فمن مدن الحبشة على الساحل الزيلع والدهلك وناصع، وهذه مدن خلق من المسلمين إلا أنهم في ذمة الحبشة، وبين ساحل

الحبشة ومدينة غلافقة – وهي ساحل زبيد من أرض اليمن– ثلاثة أيام عرض البحر بين الساحلين، ومن هذا الموضع عبرت الحبشة البحر حين ملكت اليمن في أيام ذي نواس، وهو صاحب الأخدود المذكور في القرآن، وصاحب زبيد في وقتنا هذا إبراهيم بن زياد صاحب الحرملي ومراكبه تختلف إلى ساحل الحبشة، وتركب فيها التجار بالأمتعة، وبينهم مهادنة وهذا الموضع من البحر بين هذين الشطين – أعني ساحل اليمن، وساحل الحبشة– أقل المواضع فيه عرضاً، وهنالك جزائر بين هذين الساحلين: منها جزيرة العقل، يقال: إن فيها ماء يعرف بماء العقل، يستسقي منه أرباب المراكب، ويفعل في القرائح والذكاء فعلاً جميلاً، وقد ذكر بعض الفلاسفة المتقدمين ما يفعل هذا الماء وماله من الخواص، وذكر علة ذلك، وقد أتينا على الخبر في كتابنا "أخبار الزمان" عند ذكرنا لأخبار المتطببين في تجاربهم وما كان من قضاياهم في علاجاتهم ممن سلف قبل ظهور الإسلام وغيرهم ممن اتصل بالملوك والخلفاء بعد ظهور الشرع، وقد غلب ابن زياد على هذه الجزيرة، وله في هذا الوقت رجال مرتبون فيها من أصحابه.

وفي هذا البحر مما يلي بلاد عدن جزيرة تعرف بسقطرة، إليها يضاف الصبر السقطري، ولا يوجد إلا فيها، ولا يحمل إلا منها، وقد كان أرسطاطاليس بن نقوماخس كتب إلى الإسكندر بن فيلبس حين سار إلى الهند في أمر هذه الجزيرة يوصيه بها، وأن يبعث إليها جماعة من اليونانيين يسكنهم فيها من أجل الصبر السقطري الذي يقع في الأيارجات وغيرها، فصيَّر الإسكندر إلى هذه الجزيرة خلقاً من اليونانيين أكثرهم من مدينة أرسطاطاليس بن نقوماخس، وهي مدينة أسطاغر، في المراكب بأهليهم في بحر القلزم؛ فغلبوا على من كان بها من ملوك الهند، وملكوا الجزيرة، وكان للهند بها صنم عظيم، فنقل ذلك الصنم في أخبار يطول ذكرها، وتناسل من بالجزيرة من اليونانيين فيها، ومضى الإسكندر فظهر المسيح فتنصر من كان بها إلى هذا الوقت، وليس في الدنيا –والله أعلم– موضع فيه قوم من اليونانيين يحفظون أنسابهم لم يداخلهم في أنسابهم رومي ولا غيرهم غير أهل هذه الجزيرة، وهم في هذا الوقت تأوي إليهم بوارج الهند الذين يقطعون على

المسلمين في هذه البوارج، وهي المراكب، على من أراد الصين والهند وغيرها كما يقطع الروم في الشواني على المسلمين في البحر الرومي من ساحل الشام ومصر، ويحمل من جزيرة سقطرة الصبر السقطري وغيره من العقاقير، ولهذه الجزيرة أخبار عجيبة، ولما فيها من خواص النبات والعقاقير.

وأما غير هؤلاء من الحبشة الذين قدمنا ذكرهم ممن أمعن في المغرب -مثل الزغاوة والكوكو والقراقر ومديدة ومريس والمبرس والملانة والقوماطي ودويلة والقرمة - فلكل واحد من هؤلاء وغيرهم من أنواع الأحابش ملك، ودار مملكة فيه.

قال المسعودي: وقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه لما افتتح عمرو بن العاص مصر كتب إليه بمحاربة النوبة، فغزاهم المسلمون، فوجدوهم يرمون الحدق وأبى عمرو بن العاص أن يصالحهم، حتى صُرف عن مصر، ووليها عبد الله بن سعد، فصالحهم على رؤوس من السَبي معلومة، مما يسبي هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرهم من ممالك النوبة. .فصار ما قبض منه من السَّبيْ سُنَّة جارية في كل سنة إلى هذه الغاية يحمل إلى صاحب مصر ويدعى هذا السبي (في العربية) بأرض مصر والنوبة بالبقط، وعدد ذلك ثلثمائة رأس وخمس وستون رأساً، وأراه رسم على عدد أيام السنة، هذا لبيت مال المسلمين بشرط الهدنة بينهم وبين النوبة، وللأمير بمصر غير ما ذكرنا من عدد السبي أربعون رأساً، ولخليفته المقيم ببلاد أسوان المجاورة لأرض النوبة، وهو المتولي لقبض هذا البقط، وهو السبي، عشرون رأساً غير الأربعين، وللحاكم المقيم بأسوان الذي يحضر مع أمير أسوان قبض البقط خمسة رؤوس غير العشرين التي يقبضها الأمير، ولاثني عشر شاهداً عدولا من أهل أسوان يحضرون مع الحاكم حين قبض البقط اثنا عشر رأساً من السبي، حسب ما جرى به الرسم في صدر الإسلام في بدء إيقاع الهدنة بين المسلمين والنوبة.

والموضع الذي يتسلم فيه هذا البقط ويحضره من سميناه وغيرهم من النوبة من ثقات الملك يعرف بالقصر، وهو على ستة أميال من مدينة أسوان بالقرب من جزيرة بلاق، وبلاق هذه مدينة في الموضع المعروف بالجنادل من الجبال والأحجار، وهذه المدينة في هذه الجزيرة يحيط

بها ماء النيل كإحاطة ماء الفرات بالمدن التي في الجزائر الكائنة بين رحبة مالك بن طوق، وهيت، وهي ناوسة وعانة والحديثة، وفي مدينة بلاق خلق كثير من الناس ومنبر ونخل كثير في كلا الشطين، وهذه المدينة إليها تنتهي سفن النوبة وسفن المسلمين من بلاد مصر وأسوان، ومدينة أسوان يسكنها كثير من العرب من قحطان ونزار بن معد من ربيعة ومضر وخلق من قريش، وأكثرهم ناقلة من الحجاز وغيره، والبلد كثير النخل خصيب كثير الخير تودع النواة الأرض فتنبت نخلة، ويؤكل من ثمرها بعد سنتين، وليست تربتهم كتربة البصرة ولا الكوفة ولا غيرهما من أرض النخل؛ لأن النخل بالبصرة لا ينبت من النوى بل ينبت من الثال والفسيل، وهو النخل الصغير، وما يخرج من النواة فليس يثمر ولا يفلح، ولمن بأسوان من المسلمين ضياع كثيرة داخلة بأرض النوبة يؤدون خراجها إلى ملك النوبة.

وابتيعت هذه الضياع من النوبة في صدر الزمان في دولة بني أمية وبني العباس، وقد كان ملك النوبة استعدى المأمون حين دخل مصر على هؤلاء القوم بوفد أوفدهم إلى الفسطاط، ذكروا عنه أن ناساً من أهل مملكته وعبيده باعوا ضياعاً من ضياعهم ممن جاورهم من أهل أسوان، وأنها ضياعه والقوم عبيده و لا أملاك لهم، وإنما تملكهم على هذه الضياع تملك العبيد العاملين فيها، فرد المأمون أمرهم إلى الحاكم بمدينة أسوان ومن بها من أهل العلم والشيوخ، وعلم من ابتاع هذه الضياع من أهل أسوان أنها ستنزع من أيديهم، فاحتالوا على ملك النوبة بأن تقدموا إلى من ابتاع منهم من أهل النوبة أنهم إذا حضروا حضرة الحاكم أن لا يقروا لمليكهم بالعبودية، وأن يقولوا: سبيلنا معاشر المسلمين سبيلكم مع ملككم تجب علينا طاعته وترك مخالفته؛ فإن كنتم أنتم عبيداً لملككم وأموالكم له فنحن كذلك، فلما جمع الحاكم بينهم وبين صاحب الملك أتوا بهذا الكلام للحاكم أو نحوه مما وقفوا عليه من هذا المعنى، فمضى البيع لعدم إقرارهم بالرق لملكم إلى هذا الوقت، وتوارث الناس تلك الضياع بأرض النوبة من بلاد مريس، وصار النوبة أهل مملكة هذا الملك نوعين: نوع ممن وصفنا أحرار غير عبيد، والنوع الآخر من أهل مملكته عبيد، وهم من سكن النوبة في غير هذه البلاد المجاورة لأسوان، وهي بلاد مريس.

ومعدن الزمرد في عمل الصعيد الأعلى من أعمال مدينة قفط، ومنها يخرج معدن إلى هذا المعدن، والموضع الذي فيه الزمرد يعرف بالخربة مفاوز وجبال، والبجة تحمي هذا المكان المعروف بالخربة، وإليها يؤدي الخفارات من يرد إلى حفر الزمرد، والزمرد الذي يقتلع من هذا المكان يتنوع أربعة أنواع: النوع الأول منها يعرف بالمر، وهو أجودها وأغلاها ثمناً، وهو شديد الخضرة كثير الماء، تشبه خضرته بأشد ما يكون من السلق خضرة، وهذا اللون غير كدر ولا ضارب إلى السواد، والنوع الثاني يدعى بالبحري، ومعناهم في هذه التسمية هو أن ملوك البحر من السند والهند والزنج والصين ترغب في هذا النوع من الزمرد، وتباهي في استعماله ولباسه في تيجانها وأكاليلها وخواتيمها وأسورتها، فسمي البحري لما ذكرنا، وهو ثاني المر في الجودة وتشبه خضرته بالأول والماء كفراخ ورق الآس الذي يظهر في أوائل أغصان الآس وأطرافها، والنوع الثالث يعرف بالمغربي، ومعناهم في هذه التسمية وإضافتهم إياه إلى المغرب هو أن ملوك المغرب من الإفرنجة والنوكرد والأندلس والجلالقة والوشكند والصقالبة والروس، وإن كان أكثر هؤلاء الأمم متصلين بالجدي وهو ما بين المشرق والمغرب على حسب ما ذكرنا من ديار ولد يافث بن نوح يتنافسون في هذا النوع من الزمرد كتنافس من ذكرنا من ملوك الهند والصين في النوع المعروف بالبحري، والنوع الرابع هو المسمى بالأصم، وهو أدنى الأنواع وأقلها ثمناً؛ لقلة مائه وخضرته، وهذا النوع يتفاوت في اللون من الخضرة في القلة والكثرة، وجملة الوصف لهذه الأنواع الأربعة في الجودة والمبالغة في الثمن هو أكثرها ماء وأصفاها وأكثرها خضرة وأنقاها من السواد والصفرة، وغير ذلك من الألوان مع تعري هذا الجوهر من النموشة، فإذا سلم مما ذكرنا كان في نوعه غاية في الجودة ونهاية في الوصف، وفي حجارته ما يبلغ الخمسة المثاقيل في الوزن، إلى أن ينتهي إلى حد العدسة في المقدار، فيدخل ذلك في النظم من المخانق وغيرها.

وآفات هذا الجوهر كثيرة، منها الريم، والحجارة، والعروق البيض التي تشوب هذا الجوهر وتوجد فيه، ولا تناكر بين ذوي الدراية بهذا الجوهر ومن عني بمعرفته أن الحيات والأفاعي وسائر أنواع الحيات من الثعابين وغيرها إذا أبصرت الزمرد الخالص سالت أحداقها، وأن

الملسوع إذا سقي من الزمرد الخالص، وزن دانقين على الفور أمن على نفسه من أن يسري السم في جسده، ولا يوجد شيء من أنواع الحيات يقرب من معدنه وأرضه، وهو حجر لين رخو، يتكلس إذا ورد على النار.

وقد كانت ملوك اليونانيين ومن تلاهم من ملوك الروم تعظم شأن هذا الجوهر، وتفضله على غيره من سائر الجواهر؛ لما اجتمع فيه من الخواص العجيبة، والمنافع الكثيرة، ولخفته في الوزن دون سائر الجواهر المعدنية.

وأكثر ما يوجد من هذه الأنواع الأربعة العروق في الأرض، وهو المتنافس فيه، إذا سلم من الاعوجاج والثقب، واستقام سلكه، واستطال ما استدار، وأدناه ما ينحل في معدنه من التراب ويلتقط من الطين، وقد يوجد على ظهر الأرض في هذا المعدن في وهاده وجباله وما انخفض وارتفع من أرضه نوعان منه وهما المغربي والأصم ..

وقد يحمل من أرض الهند من بلاد سندان، ونحو كنباية من مملكة البلهرا صاحب المانكير .. نوع من الزمرد يلحق بما وصفناه من النور والخضرة والشعاع، إلا أنه حجر صلب أصلب .. ولا يفرق بين هذا النوع المحمول من أرض الهند وبين الأنواع الأربعة .. إلا ذو دراية فطن أو ماهر فيه، وهذا النوع الهندي يعرفه أصحاب الجوهر بالمكي؛ لأنه يحمل من أرض الهند إلى بلاد عدن وغيرها من سواحل اليمن، ويؤتى به مكة، فاشتهر بهذا الاسم ..

ووجدت جماعة بصعيد مصر، من ذوى الدراية- ممن اتصلت معرفته بهذا المعدن، وعرف هذا النوع من الجوهر الذي هو الزمرد- يخبرون أن هذا الزمرد يكثر ويقل في فصول من السنة، وفي قوة من مواد الهواء، وهبوب نوع من الرياح الأربع، وتقوى الخضرة فيه والشعاع النوري في أوائل الشهر والزيادة في نور القمر، وكذلك وجدت في أخبار من عني بمعرفة أكثر المعادن من الجوهرية وغيرها أن الكبريت الأبيض والأصفر وغيرها من أنواع الكبريت يكثر في معدنه في السنة التي يكثر برقها، وتشتد صواعقها، بلاد منصورة وغيرها من أرض الهند أنه يكثر في السنة التي تكثر فيها الصواعق والرعود والبروق

وبين هذا الموضع المعروف بالخربة الذي فيه معدن هذا النوع من الجوهر، وهو الزمرد، وبين

به ما اتصل به من العمارة وقرب منه الديار، مسيرة سبعة أيام وهي قفط وقوص وغيرهما من صعيد مصر، وقوص راكبة للنيل، وبين النيل وقفط نحو من ميلين، ولمدينتي قفط وقوص أخبار عجيبة في بدء عمرانهما وما كان في أيام الأقباط من أخبارهما إلا أن مدينة قفط في هذا الوقت متداعية للخراب، وقوص أعمر، والناس فيها أكثر.

وبوادي البجة المالكة لهذا المعدن تتصل ديارها بالعلاقي، وهي معدن الذهب، وبين العلاقي والنيل خمس عشرة مرحلة وماء أهل العلاقي ما انهلَّ من السماء، ولهم ماء من عين يسيل في وسط العلاقي، وأقرب العمارة إليه مدينة أسوان، ومنها يسمى العلاقي، والنوبة متصلة بتجارتها وقوافلها بمدينة أسوان، وأهل أسوان مختلطون بالنوبة.

قال المسعودي: وأما بلاد الواحات –وهي بين بلاد مصر والإسكندرية وصعيد مصر والمغرب وأرض الأحابش من النوبة وغيرهم، بها أرض شبية وزاجية وعيون حامضة وغير ذلك من الطعوم، وصاحب الواحات في وقتنا هذا –وهو سنة اثنتين وثلاثين وثلثمائة– عبد الملك بن مروان، وهو رجل من لواتة، إلا أنه مرواني المذهب، ويركب في ألوف من الناس خيلا ورجلا ونجبا، وبينه وبين الأحابش نحو من ستة أيام، وكذلك بينه وبين سائر ما ذكرنا من العمائر هذا المقدار من المسافة، وفي أرضه خواص وعجائب، وهو بلد قائم بنفسه، غير متصل بغيره، ولا مفتقر إليه، ويحمل من أرضه التمر والزبيب والأعناب، وقد رأيت صاحب هذا الرجل المقيم بالواحات بباب الإخشيد محمد بن طغج، وذلك سنة ثلاثين وثلثمائة، وسألته عن كثير من أخبار بلدهم، وما احتجت أن أعلمه من خواص أرضهم، وكذلك كان فعلي مع غيره في سائر الأوقات ممن لم أصل إلى بلادهم، وأخبرني هذا الرجل عما بأرضهم من الشب وأنواع الزاج، وما يحمل من بلادهم، وما بأرضهم من أنواع العيون الحامضة، وغير ذلك من المياه المختلفة الطعوم.

وقد ذُكر أن ببعض المواضع عيونا حامضة يستعمل ماؤها، كاستعمال الخل، وذكر المواضع التي تنبع منها العيون المرة، وأن قوة مائها في المرارة لا يخالط شيئاً إلا مَرَّره، وأن العلة في اختلاف هذه الطعوم في المياه أن الارضين مختلفة مثل مواضع الشب والمواضع النارية

والرمادية، وذكر الأطعمة التي ببلاد صقلية . . إذا خالطت الماء أفادته طعوما مختلفة على قدر اختلافها وأعداد طعومها.

وأعداد الطعوم ثمانية: فأولها العذب، والملح، والدسم، والحلو، والحامض، والمر، والقابض، والحريف، وقد تنازع الناس فيما ذكرنا؛ فمنهم من رأى أن أعدادها سبعة، ومنهم من ذهب إلى أنها ستة، وأكثر من قال في أعدادها هو ما ذكرنا آنفاً من أنها ثمانية، وقد قال من سلف في قوى المياه أقاويل مختلفة: فمن ذلك أن العذب مغذ وإن كان سخناً؛ فإن استعمل من داخل أو من خارج بقدر الحاجة إليه فإنه ينقي الجسد، وإن استعمل أكثر مما يحتاج إليه فإنه يرخي الأعضاء ويضعفها، وأن الماء البارد يشد الأعضاء، ويقطع العطش، وأن الزيادة منه تخدر الجسد وتميته، وأن الماء الأجاج ينفع من سدد الكبد والطحال، وأن الماء الكبريتي ينفع الجراح والقروح العتيقة والحكة، والبورقي نافع للحكة والجرب، وأما القاري فإنه نافع من أوجاع الصلب والعصب، وماء الحديد نافع من الاسترخاء في الأحشاء وما بطن من الأوعية، وماء النحاس نافع من الرطوبة والبلة الكائنة في الجسد والرأس، وماء الجص يشنج المعدة ويقبضها ويكرشها، وماء الزاج يحبس الدم، وماء البحر نافع من البرص.

وقد ذكر جماعة أنه ينفع من الأخلاط الفاسدة إذا شرب منه اليسير من دهن اللوز، وله في البصر إتعاب فظيع، وأن أصح المياه للأجساد الأبيض البراق الذي يخرج من جبال الطين من مشرق الشمس نحو مغربها، القابل بسرعة ما يرد إليه من الحر والبرد، وللناس فيما ذكرنا كلام كثير في أنواع المياه وأوصافها ومنافعها ومضارها . .

وكل ما ذكرنا من بلاد الأحابش ما كان من غربي اليمن وجدة والحجاز مما يلي بحر القلزم، فبلاد قشفة لا خير في أرضها، ولا شيء يحمل من ساحلها إلا ما وصفنا من الذبل والنمور وغيرهما، وكذلك ما عليه من ساحل الشحر وبلاد الأحقاف من ساحل حضرموت إلى عدن، فبلد لا خصب لأهله فيه، ولا يحمل من أرضهم ،في وقتنا ،إلا اللبان ويسمى الكندر، وهذا البحر اتصاله بالقلزم وهو عن يمين بحر الهند وإن كان الماء متصلا، وليس في البحار، وما ذكرنا من الخلجان مما احتوى عليه البحر الحبشي، أصعب ولا أكثر حيالا، ولا

أسهك رائحة، ولا أقحط، ولا أقل خيراً في بطنه وظهره من بحر القلزم، وسائر البحر الحبشي تقطعه المراكب في إبان سيرها فيه بالليل والنهار، إلا بحر القلزم؛ فإن المركب تسير فيه بالنهار، فإذا جن الليل أرست في مواضع معروفة كالمراحل المشهورة، والمنازل المعروفة؛ لكثرة جباله وظلمته ووحشته، وليس هذا البحر مما اتصل به من بحر الهند والصين وغيره في شيء، وهو بالضد من ذلك؛ لأن بحر الهند والصين في قعره اللؤلؤ، وفي جباله الجواهر، ومعادن الذهب والفضة والرصاص القلعي، وفي أفواه دوابه العاج، وفي منابته الآبنوس، والخيزران، والقنا، والبقم، والساج، والعود، وأشجار الكافور، والجوز، والقرنفل، والصندل، والأفاويه، والطيب، والعنبر، وطيور الببغاي البيض والخضر، واحدها ببغة، ثم الطواويس وأنواعها في صورها واختلافها في الصغر والكبر ومنها ما يكون كالنعامة كبراً، وحشرات أرض الهند الزباد كالسنانير بأرض الإسلام كثيرة متخذة كالسنور، وأكثر ما يخرج من ضروعها الطيب المعروف بلبن الزباد، وهو نوع من الطيب عجيب.)

و من المفيد أن نردف نص المسعودي بآخر للبكري يؤدي الوظيفة نفسها في التعريف بالأبعاد التاريخية والاجتماعية لإفريقية والأحكام، ويلاحظ أن المسعودي سرعان ماأصبح مصدرا معتمدا يأخذ عنه الجغرافيون ومثال ذلك البكري في (المسالك والممالك) الذي نسج على منواله، ونقل أقواله ، الأمر الذي دعانا إلى حذف الفقرات المكررة من نص البكري

(66)

بلاد السـودان

البكري(توفي٤٨٧هجري=١٠٩٤ميلادي) من كتاب (المسالك والممالك)

(زعموا أن بلاد السودان مسيرة سبع سنين وأن أرض (مصر) كلها جزء واحد من ستين جزءا منها. ويتصل بالسوس الأقصى وبينه وبين السوس الأدنى عشرون يوماً رمال ومفاوز

فيها المدينة المعروفة بمدينة النحاس وقباب الرصاص التي صار إليها موسى بن نصير في مدة الوليد بن عبد الملك وما رأى فيها من العجائب. وفيها قوم من الأسبان عمّروا تلك الديار. والوصول إليها ممتنع، بل لا سبيل إليها.. والزنج أطيب الأمم أفواها لرطوبة أفواههم وكثرة الريق فيها، ومن دخل بلاد الزنج فلا بدّ له أن يجرب.

وقال يزيد بن أبي حبيب :إن النوبة ليس بينهم وبين المسلمين عهد ولا ميثاق، وإنما هو أمان لبعضهم من بعض على أن يؤدوا كذا وكذا رأسا، وذكر بعض المصريين أنه قرأ في بعض الدواوين بالفسطاط قبل أن تحرق عهودهم على ما يؤدونه الآن.وبدء اتصال مملكتهم بأرض أسوان موضع بمريس، ولما افتتحت مصر أمر عمر أن تغزى النوبة، فوجدهم المسلمون يرمون الحدق، فذهبوا إلى المصالحة فأبى عمرو بن العاص من مصالحتهم حتى صرف عن مصر ووليها عبد الله بن أبي سرح سنة إحدى وثلاثين، فقاتلوه قتالاً شديداً فأصيبت عين معاوية بن حديج وعين أبي شمر بن أبرهة وأعين جماعة من المسلمين، فحينئذ سموا رماة الحدق. وقال الشاعر: (رجز):

لم تر عيني مثل يوم دنقلةْ والخيل تعدو بالدروع مثقلةْ

ومنهم تعلم الرمي أهل الحجاز واليمن، فصالحهم عبد الله بن أبي سرح على رؤوس من السبي معلومة مما يسبيه هذا الملك المجاور للمسلمين من غيرها من الممالك المجاورة له، وعدد ذلك ثلاثمائة وخمسة وستون رأساً، وإنما أرادوا عدد أيام السنة، وهي جارية إلى الآن، وللأمير بمصر عدد ولعامله بأسوان عدد وللحاكم بها عدد يبلغ نحو الثمانين رأساً..

بلد أسوان أهله العرب من قحطان وربيعة ومضر وقريش ناقلة من الحجاز، وهو بلد خصيب كثير النخل، توضع النواة في تربته فتنبت نخلة تثمر لسنتين تمراً، وبلاد البصرة وغيرها لا تغرس النخل فيها إلا في الفسيل وما يخرج من النواة فليس يثمر. ولأهل أسوان في بلاد مريس من أرض النوبة ضياع كثيرة ابتاعوها منهم في زمن بني أمية يؤدون خراجها إلى ملك النوبة..

وقال مجاهد: كان لقمان عبداً أسود ذا مشافر. ومن النوبة النساء المعروفات بالمقوّرات لا

يقدر أحد على افتضاض أبكارهن ولا مباشرتهن حتى تفتق القوابل عن قبلهن بقدر ما يحتاج الوطء، وهن أطيب النساء خلوة، فإذا حملت المرأة منهن وقرب الوضع زادت القوابل (في شق) ذلك المكان، فإذا وضعت عادت تلك الزيادة بالأدوية حتى تلتئم. أخبرني بذلك جماعة من الثقات عن جماعة من النساء المجاورات لمكة، أنهن رأين ذلك وشاهدنه. ومملكة الزغاوة تحاذي مملكة النوبة على ضفة النيل الثانية.)

والدمشقي يتابع أسلافه في المسار ذاته، فيكشف عن جوانب أخرى تضيء الأقوام الزنجية ومواطنها.

(67)

أخبار أولاد حام من السودان وغيرهم. الدمشقي(٧٢٧هجري=١٣٢٧ميلادية) من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

(ذكر أهل الآثار أن السبب في سواد أولاد حام أنه أصاب امرأة في السفينة فدعا عليه نوح عليه السلام أن يغير الله نطفه فجاءت بالسودان. وقيل إنه أتاه فوجده نائما وكشفت الريح عورته وذكر ذلك لأخويه سام ويافث فنهضا وستراه وهما مدبران وجوههما حتى لا يريا سوءته ،فلما علم نوح عليه السلام بذلك قال :ملعون حام ومبارك سام ويكثر الله يافث، وأما الحق فإن طبيعة بلادهم اقتضت أن يكونوا على ما هم عليه من الأوصاف المخالفة للبياض فإن غالبهم في جهة الجنوب والمغرب من الأرض..

وأما القبط فيقال إنهم من ولد قفط بن مصر بن نيصر بن حام ولد له أشمون وقفط وصا وأتريب فلم يعقب منهم قفط وولده صيفان فمن سكن منهما صعيد مصر يسمى المريس ومن سكن أسفلها يسمى البيما، ويقال في سبب وقوع مصر بن نيصر إلى الأرض التي عرفت به ما تقدم لنا من وقوع الصرح ببابل، ويقال إن حاما ولد له ثلاثة أولاد قفط وكنعان وكوش فقفط أبو القبط وكوش أبو السودان وكنعان أبو البربر...وأما السودان فطوائف

كثيرة، ونبدأ منهم بمكان مساكنهم الواغلة في الجنوب، ويطلق عليهم التكرور. وليس هذا الاسم مما يعّم طوائفهم وإنما يطلق على طائفة منهم يسكنون بلدا يسمى بهذا الاسم وكلهم يرجعون إلى مغراوة وسفارة، وينقسمون إلى كفار ومسلمين فالمسلمون يسكنون المدن ويلبسون المخيط، والكفار طوائف وهم لملم وتميم ودمدم فمن قارب المسلمين يسترون فروجهم بجلود ومن بُعد منهم يأكلون من وقع إليهم من الناس من غير جنسهم لشدة توحشهم من الناس وهم دمدم، والذهب في بلادهم كثير لكنهم لا يستعملونه وإنما يستعملون النحاس يحمل إليهم فيترك على أطراف أرضهم فإذا رأوه اشتغلوا بنهبه والقتال عليه فيأخذ جالبوه ما قدروا عليه من الذهب ويهربون، ومن طوائف المسلمين الخدمين غانم وغانة وكوكو وكوار وفزاّن وزغوا وكل هؤلاء منسوبون إلى الأماكن التي يسكنون فيها.

ومن طوائف السودان الحبوش المقاربة لزغاوة، ويقال إنهم الحبشة العليا وهم كفار عراة ودينهم المجوسية، يعبدون الأوثان ويسمونها الدكاكير، ومن سنتهم التي ينقادون إليها ويعتمدون في الحكومة عليها أنهم إذا مات أحد دفنوا معه أقرب الناس إليه وأشد حبا له وثيابه وسلاحه.. ومن طوائف السودان كناور وصورا وحجامى وقلجور وكلهم حبوش نصارى، وأما حبش فهو حبش بن كوش بن حام بن نوح عليه السلام وهم ستة أصناف أمحره ويقال أن النجاشي منهم والملك في عقبه وسحرت وجزل وهم حسان الصور وخومد وداموت، وهذه الأجناس أصول تتفرع منها شعوب وقبائل لا تحصى كثرة.

ومن طوائف السودان النوبة ويقال إنهم منسوبون إلى نوبى بن قفط بن مصر بن نيصر بن حام بن نوح، وهم أصناف على ما حكاه بعض تجار أسوان أنج وأزكرسا والتبان وأندا وكنكا، فأنج وأندا يسكنون بجزيرة عظيمة من جزائر النيل تسمى أندا وهم بها لا يستترون بشيء البتة ،وأزكرسا بعيدون من النيل والتبان في أرضهم معادن الحديد، ولا يعيش بأرضهم حيوان لشدة حرها . . .ومن طوائف السودان أيضا البجاة ببحر القلزم وإلى مجرى النيل وهم صنفان حذارية وملكهم يسكن مدينة هجر والزنافخة وملكهم يسكن مدينة نقلين، وكلهم ينتفون لحاهم ويدعون شعرات يسيرة، وهم عرايا من المخيط ملتحفون بثياب

مصبغة ولهم مدائن أوتل وعدل وجزيرة دهلك وجزيرة سواكن ومدينة عيذاب فرضة التجار من اليمن ومصر ويتصل بهم طائفة من السودان تسمى خاسة السفلى كفار وخاسة العليا مسلمون وهم أقل الناس غيرة ونخوة على النساء وغالب هؤلاء لا يلبسون المخيط ولا يسكنون المدن.

ومن طوائف السودان الزنج وهم الزاغوان والزغو من ولد قفط بن مصر بن حام، وهم صنفان قبلية وكنجوية، فقبلية اسم للنمل وكنجوية اسم للكلاب ومدينتهم العظمى مقدشو يأتونها التجار من سائر الأمصار ولها ساحل يسمى الزنجبار ولهم ممالك وهم قبائل وأكثرهم عراة وهم سباع بني آدم، ويقال أن مسافة أرضهم في الطول والعرض سبعمائة فرسخ وهي أودية وجبال وديس ورمال وهي متصلة ببلاد دغوطة وساحل بحر جزيرة القمر المسمى البحر الجامد وفيه قبة أرين التي هي وسط الوسط من خط الاستواء والزنوج الواغلون منهم في هذه النواحي محددّو الأسنان يأكلون الناس لشدة توحشهم وليس للكفار منهم ملة ولا نحلة وإنما لهم رسوم تصنعها لهم ملوكهم، واسم ملكهم الكبير توقليم ومعنى الاسم ابن الرب وهذه التسمية لملكهم في سائر الأمصار والزنج الشماليون منهم من لهم في لسانهم فصاحة وبلاغة حتى إنهم يصنعون الخطب يضمنونها المواعظ المبكية يخطبون بها في المحافل أيام أعيادهم ومشاهدهم.

وأما باقي طوائف السودان الذين ببحر الهند وسواحله والهند والسند والمند فيقال إنهم أخوة،وأبوهم نوفير بن قفط ويقال بل كوش بن حام.)

فصّل الدمشقي في طوائف (السودان) حسب التوزيع الجغرافي للمناطق التي يستوطنونها، مستفيدا من المدونات التي سبقته، وبخاصة المسعودي ،وكما يلاحظ فإن أسلوب الاستطراد كان شائعا بين الرحالة والجغرافيين، وتوزع اهتماماتهم بين ملاحظات خاصة بطبائع البشر، وأخرى خاصة بالطبيعة الجغرافية، وثالثة متصلة بالحياة اليومية.ويوسع الغرناطي هذا الاتجاه في الوصف.

(68)

السـودان: طبائع وأحوال

أبو حامد الغرناطي (٥٦٥هجري=١١٧٠ميلادي) من كتاب

(تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)

(السودان وبلادهم مما يلي المغرب الأعلى المتصل بطنجة ممتدة على بحر الظلمات، وقد أسلم من ملوكهم فيما يقال ملوك خمسة قبائل، أقربهم غانة، ينبت في رمالهم التبر الغاية وهو كثير عندهم، يحمل التجار إليهم حجارة الملح على الجمال من الملح المعدني، فيخرجون من بلدة يقال لها سجلماسة، آخر بلاد المغرب الأعلى، فيمشون في رمال كالبحار، ويكون معهم الأدلاء يهتدون بالنجوم وبالجبال في القفار، ويحملون معهم الزاد لستة شهور. فإذا وصلوا إلى غانة باعوا الملح وزنا بوزن الذهب، وربما باعوه وزنا بوزنين، أو أكثر على قدر كثرة التجار وقلتهم.

وأهل غانة أحسن السودان سيرة وأجملهم صوراً ،سبط الشعور فيهم عقول وفهم، ويحجون إلى مكة، وأما قناوة وقوقو وملي وتكرور وغدامس، فقوم لهم بأس، وليس بأراضيهم بركة ولا خير في أرضهم، ولا دين لهم ولا عقل، وأشرهم قوقو، قصار الأعناق فطس الأنوف، حمر العيون، كأن شعورهم حب الفلفل، وروائحهم كريهة كالقرون المحرقة، يرمون بنبل مسموم بدماء حيات صفر لا تلبث ساعة واحدة حتى يسقط لحم من أصابه ذلك السهم عن عظمه، ولو كان فيلا أو غيره من الحيوانات والأفاعي، وجميع أصناف الحيات عندهم كالسمك يأكلونها، لا يبالون بسموم الأفاعي ولا الثعابين إلا بالحية الصفراء التي في بلدهم، فإنهم يتقونها ويأخذون دمها لسهامهم. وقسيهم صغار قصار، رأيتهم في بلاد المغرب، ورأيت قسيهم، وأوتارهم من لحاء الشجر الذي في بلادهم، ونبلهم قصار، كل سهم شبر، ونصالهم شوك شجر كالحديد في القوة قد شدوه بلحاء شجرة، ويصيبون الحدق وهم شر نوع في السودان ينتفع بهم في الخدمة والعمل إلا قوقو، فلا خير فيهم إلا في

الحرب، ولهم ألواح صغار مثقبة بثقب غير نافذة يصفرون في تلك الثقب، فيصوتون بأصوات عجيبة فيخرج إلى ذلك الصوت جميع أنواع الحيات والأفاعي والثعابين فيأخذونها ويأكلونها، وفيهم من يشدها على وسطه، كما يشد الحزام، ومنهم من يتعمم بالثعبان الطويل ويدخل السوق على غفلة فيكشف ثوبه ويرمي على الناس أنواع الثعابين والحيات، فيعطونه شيئا حتى يخرج، وإن لم يعطوه، ألقى في دكاكينهم من تلك الحيات.

ويجيء من بلاد السودان أنواع من جلود الماعز المدبوغة دباغة عجيبة، الجلد الواحد يكون غليظا كبيراً لينا محببا في لون البنفسج إلى السودان، يكون الجلد الواحد عشرين منا يتخذ منه الخفاف للملوك، ولا يبل بالماء ولا يفي مع لينه ونعومته وطيب رائحته، يباع الجلد الواحد بعشرة دنانير، تبلى خيوط الخف ولا يبلى هو ولا يتقطع، فيغسلونه في الحمام بالماء الحار، فيعود كأنه جديد يتوارثه الحفيد عن أبيه عن جده، وهذا من عجائب الدنيا.

وعندهم حيوان يقال له اللمط، مثل الثور الكبير، له قرنان كالرماح، تطول بطول بدنه، ممدودة على ظهره ، إذا طعن بها الحيوان أهلكه في الحال، عريض العنق، يتخذ من جلده تراس يقال لها الدرق اللمطية مضافة إلى ذلك الحيوان يكون ثلاثة أذرع، وهي خفيفة لينة لا ينفذها النشاب، ولا يؤثر فيها السيف، تكون بيضاء كالقراطيس، وهي من أحسن الترس، مبسوطة كالرغيف تستر الفارس وفرسه.

ومن أنواع السودان زيلع وهم أعف أهل السودان، مسلمون يصومون ويصلون ويحجون إلى مكة كل سنة مشاة. ومن بلاد السودان الزنج والبجة مسيرة أربع عشرة سنة، يأكلون الكلاب ويفضلونها على الغنم ويأكلون الفار. وفي السودان أمة لا رؤوس لهم ذكرهم الشعبي في كتاب "سير الملوك")

يعود الدمشقي مرة أخرى لوصف السودان، بعد أن وقف على جوانب في نصه السابق

(69)

الأحوال الاقتصادية لبلاد السودان

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر)

(وأقربها من صحارى البربر مدينة كوكو، وهي في سفح جبل يشقها نهر يسمى بها يأتي من بحيرة كورى الجامعة ويصب في نهر غانة، وجريه شديد وله وقت يزيد فيه ،ويزرع عليه القمح وغالب الحبوب، والقطن هناك يصير شجرا كبارا تحمل شجرته خمسة رجال ويستظل بظلها نحو عشر أنفس، وعلى شاطئ هذا النهر مجالات وسيعة وقرى عامرة ومن بلاد السودان بلد غانة وقصبته أوكار، وغانة اسم علم على كل من يملك هذا السقع كما يطلق البغبور على من يملك الصين، وقاقان على من يملك الترك، ولها من البلاد صنغانة وهي جانبان ومدينة سمقندة وأهلها أرمى الناس بالنبل في حيزها شجر يشبه شجر الأراك يحمل ثمرا في قدر البطيخ في داخله شيء يشبه القند حلاوة يشوبها حموضة يسيرة وشجر يسمى ريكان، وينبت هذا الشجر أيضا بأرض السوس الأقصى وثمره كالتمر ينفرك عنه قشره فيكون قلوبا في غاية الدهانة والحلاوة، يستخرجون دهنه ويأكلونه عوضا عن السيرج والسمن ويفضلونه عليهما ومدينة غياروا ومدينة يرسنه ومدينة تيرقي ومدينة أوليل ومدينة قذهم ،وكلها على البحر ولها أعمال.

وبلد كانم عمل متسع ممتد على جانبي نهر غانة المسمى بحر الحبشة، وهو في زيادته ونقصانه وإفلاحه للأرض مثل نيل مصر لكنه أكبر منه وأغزر وأوسع، فيه جزائر كثيرة معمورة بطوائف السودان وفيه التمساح كثير مؤذٍ، وقصبته مدينة كانم، ومدينة جيمي، ومدينة تكرور ومدينة سمغارة، وكل هذه المدن يشقها نهر غانة وبعضها يحيط بها، ومدينة جاجه كثيرة الخصب وبها الطواويس والببغات والدجاج الأرقط الحبشي وخشب الأبنوس ومدينة مغزا ومدينة ماتان ومدينة تاجوا ،وأهلها فيهم حسن وجمال وملاحة كما في الزغوا من السودان سماجة ووحاشة، وبلد كانم متصل ببلد الحبشة إلى مدينة صورة وكناور من الحبشة العليا، وفي بلد كانم أيضا بلد كولد ،وهم في واد فيه نخل ولا فيه ماء

يجري، وأنكلاووس وهم طائفة أيضا في واد كوادي كوار، وطائفة أيضا تسمى بلملمة، وأبزن مدينة بذلك الوادي وفي غربيها بحيرة طولها اثنا عشر ميلا مالحة يصاد منها السمك البوري، وعليها مدينة فزّان ومدينة جرمة، وطائفة زويلة، ومدينة تساوة، ومدينة وان ومجالات لملم جنوب نهر غانة، ومجالات كوغة جنوبه في المغرب ،ومجالات بجات، ومجالات تميم ومجالات دمدم وراءهم في الجنوب خط الاستواء وإلى ما وراءه ،وفي جهة المغرب من مجالات تميم مجالات سفاقس وهؤلاء أكثرهم متوحشون لا يدينون بدين ولا يكادون يفقهون قولا وهم بالحيوان أشبه منهم بالناس فهذه البلاد بلغها الإسلام وجاسوا خلالها .)

يعتبر البكري أحد أهم الجغرافيين المسلمين الذين اهتموا بـ (المسالك والممالك) وهو يستند إلى تراث من الكتب التي تعنى بوصف البلدان والطرق والمسافات، ووصفه للبلاد الإفريقية على غاية من الأهمية، والنص الآتي يعنى بتتبع الطريق الصحراوي إلى بلاد السودان .

(70)

الطريق الصحراوي إلى بلاد السودان

البكري: من كتاب(المسالك والممالك)

أول الصحراء

(تمشي في الصحراء فتجد الماء على اليومين والثلاثة حتى تصل إلى رأس المجابة إلى البئر المسماة تزامت بئر معينة غير عذبة، وهي إلى الملوحة أقرب قد انبطت في حجر صلد من عمل الأُول، ويزعم قوم أن بني أمية صنعتها. وفي الشرق منها بئر تسمى بئر الجمالين، وعلى مقربة منها أيضا بئر تسمى نالليي كلها غير عذبة، وبين هذه الآبار الثلاث وبلاد الإسلام مسيرة أربعة أيام. ومنها إلى جبل يسمى بالبربرية "أدراران وزّال" تفسيره "جبل الحديد" مثل ذلك. ومن هذا الجبل مجابة ماؤها على ثمانية أيام، وهي المجابة الكبرى، وذلك الماء في بني ينتسر من صنهاجة، ومن بني ينتسر إلى قرية تسمى مدوكن لصنهاجة

أيضا. ومنها إلى مدينة غانة أربعة أيام.

ومن الآبار الثلاثة المذكورة مجابة ماؤها على أربعة أيام إلى إيزل، وهو جبل في الصحراء، إلى قبيل من صنهاجة يعرفون ببني لمتونة ظواعن رحالة في الصحراء، مراحلهم فيه مسيرة شهرين في شهرين ما بين بلاد السودان وبلاد الإسلام، ويصيفون في موضع يسمى أمطلوس، وآخر يسمى تاليوين، وهم إلى بلاد السودان أقرب. وبينهم وبين بلاد السودان نحو عشر مراحل، وليس يعرفون حرثا ولا يزرعون زرعا ولا يعرفون خبزاً، إنما أموالهم الأنعام وعيشهم من اللحم واللبن ينفد عمر أحدهم ولا رأى خبزاً ولا أكله إلا أن يمر بهم التجار من بلاد الإسلام أو بلاد السودان فيطعمونهم الخبز ويتحفونهم بالدقيق، وهم على السنة مجاهدون للسودان.

وكان رئيسهم محمد المعروف بتارشني من أهل الفضل والخير والدين والحج والجهاد، وهلك بموضع يقال له قنقارة - وقيل كنكارة - من بلاد السودان، وهم قبيل من السودان بغربي مدينة بنكلابين، وهي مدينة يسكنها جماعة من المسلمين يعرفون ببني وارث من صنهاجة. وخلف بني لمتونة قبيلة من صنهاجة تسمى بني جدالة وهم يجاورون البحر وليس بينهم وبينه أحد.

وهذه القبائل هي التي قامت بعد الأربعين وأربعمائة بدعوة الحق ورد المظالم وقطع جميع المغارم، وهم على السنة ومتمسكون بمذهب مالك بن أنس رضي الله عنه، وكان الذي نهج ذلك فيهم ودعا الناس إلى الرباط ودعوة الحق عبد الله بن ياسين. وذلك أن رئيسهم كان يحيى بن إبراهيم من بني جدالة وحج في بعض السنين ولقي في صدره عن حجة الفقيه أبا عمران الفاسي، فسأله أبو عمران عن بلده وسيرته وما ينتحلونه من المذاهب، فلم يجد عنده علماً بشيء إلا أنه رآه حريصاً على التعلم صحيح النية واليقين، فقال له: ما يمنعكم من تعلم الشرع على وجهه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر؟ قال له: لا يصل إلينا إلا معلمون لا ورع لهم ولا علم بالسنة عندهم. ورغب إلى أبي عمران أن يرسل معه من تلاميذه من يثق بعلمه ودينه ليعلمهم ويقيم أحكام الشريعة عندهم. فلم يجد أبو عمران

فيمن رضيه من يجيبه إلى السير معه. فقال له أبو عمران: إني قد عدمت بالقيروان بغيتكم وإن بملكوس فقيها حاذقا ورعا قد لقيني وعرفت ذلك منه يقال له وجاج بن زلوي، فمر به فربما ظفرت عنده ببغيتك .فجعل ذلك يحيى بن إبراهيم أوكد همه فنزل به وعلمه ما جرى له مع أبي عمران. فاختار له وجاج من أصحابه رجلاً يقال له عبد الله بن ياسين واسم أمه تين يزامارن من أهل جزولة من قرية تسمى تماماناوت في طرف صحراء مدينة غانة، فوصل به إلى موضعه واجتمعوا للتعلم منه والانقياد له في سبعين رجلاً.

فغزوا بني لمتونة وحاصروهم في جبل لهم فهزموهم و رجعوا ما تخذوا من أموالهم مغنماً، فلم يزل أمرهم يقوى واستعملوا على أنفسهم يحيى بن عمر بن تلاجاجين وعبد الله بن ياسين مقيم فيهم متورعاً عن أكل لحمانهم وشرب ألبانهم لما كانت أموالهم غير طيبة وإنما كان عيشه من صيد البرية. ثم أمرهم ببناء مدينة سموها أرتني وأمرهم أن لا يشف بناء بعضهم على بناء بعض، فامتثلوا ذلك وهم يسمعون له ويطيعون إلى أن نقموا عليه أشياء يطول ذكرها، وكأنهم وجدوا في أحكامه بعض التناقض. فقام عليه فقيه منهم كان اسمه (الجوهر بن سكم) مع رجلين من كبرائهم يقال لأحدهما أيار وللآخر اينتكوا، فعزلوه عن الرأي والمشورة وقبضوا منه بيت مالهم وطردوه وهدموا داره وانتهبوا ما كان فيها من أثاث وخرثى. فخرج مستخفياً من قبائل صنهاجة إلى أن أتى وجاج بن زلوي فقيه ملكوس. فعاتبهم وجاج على ما كان منهم إلى عبد الله وأعلمهم أن من خالف أمر عبد الله فقد فارق الجماعة وأن دمه هدر، وأمر عبد الله بالرجوع إليهم فرجع وقتل الذين قاموا عليه وقتل خلقاً كثيراً ممن استوجب القتل عنده لجراية أو فسق واستولى على الصحراء كلها. وأجابه جميع تلك القبائل ودخلوا في دعوته والتزموا السنة به. ثم نهضوا إلى لمطة وسألوهم ثلث أموالهم ليطيب لهم بذلك الثلثان، وهكذا رسم لهم عبد الله في الأموال المختلطة، فأجابوهم إلى ذلك ودخلوا معهم في دعوتهم.

وأول ما أخذوا من البلاد المخالفة لهم درعة، ولهم في قتالهم شدة وجلد ليس لغيرهم، وهم يختارون الموت على الانهزام ولا يحفظ لهم فرار من زحف، وهم يقاتلون على الخيل

والنجب وأكثر قتالهم رجالة صفوفاً بأيدي الصف الأول القنى الطوال للمداعسة والطعان، وما يليه من الصفوف بأيديهم المزاريق يحمل الرجل الواحد منها عدة يزرقها فلا يكاد يخطئ ولا يشوى. ولهم رجل قد قدموه أمام الصف بيده الراية، فهم يقفون ما وقفت منتصبة، وإن أمالها إلى الأرض جلسوا جميعا فكانوا أثبت من الهضاب، ومن فر أمامهم لم يتبعوه. وهم يقتلون الكلاب لا يستصحبون منها شيئاً.

وكان يحيى بن عمر أشد الناس انقياداً لعبد الله بن ياسين وامتثالاً لما يأمره به، ولقد حدّث جماعة أن عبد الله قال له في بعض تلك الحروب: أيها الأمير إن عليك حقاً أدباً. فقال له يحيى: فما الذي أوجبه علي؟ قال له عبد الله: إني لا أخبرك به حتى أؤدبك وآخذ حق الله منك. فطاع له الأمير بذلك وحكمه في بشرته فضربه الفقيه ضربات بالسوط، ثم قال له: الأمير لا يدخل القتال بنفسه لأن حياته حياة عسكره وهلاكه هلاكهم.

وغزا المريطون مدينة سجلماسة بعد أن خاطبوا أهلها ورئيسهم مسعود بن وانودين المغراوي، فلم يجيبوهم إلى ما أرادوا، فغزوهم في جيش عدته ثلاثون ألف جمل سرج، فقتلوا مسعوداً واستولوا على مدينة سجلماسة وتخلفوا فيها جماعة منهم، ثم عادوا إلى بلادهم. فغدر أهل سجلماسة بالمرابطين بالمسجد فقتلوا منهم عدداً كثيراً، وذلك سنة ست وأربعين وأربعمائة. وندم أهل سجلماسة على ما فعلوا وتواترت رسلهم على عبد الله بن ياسين أن يرجع إليهم العساكر ويذكرون أن زناتة زحفت إليهم، فندب عبد الله المرابطين إلى غزو زناته ثانية، فأبوا عليه وخالف عليه بنو جدالة وذهبوا إلى ساحل البحر. فأمر عبد الله الأمير يحيى أن يتحصن بجبل لمتونة، وهو جبل منيع كثير الماء والكلأ في طوله مسافة ستة أيام وفي عرضه مسافة يوم، وهناك حصن يسمى أركى حوله نحو عشرين ألف نخلة كان بناه يانو بن عمر الحاج أخو يحيى بن عمر. فصار يحيى في جبل لمتونة، (وذهب عبد الله بن ياسين إلى مدينة سجلماسة في مائتي رجل من قبائل صنهاجة ونزل موضعاً يقال له تامدولت حصن) فيه مياه ونخل كثير، ويشرف عليه جبل فيه معدن فضة معلوم هناك. فاجتمع لعبد الله جيش كثيف من سرطة وترجة ولهم هناك حصون. وكان أبو بكر بن عمر بدرعة مع أحمد بن أمدجنو، فأمره عبد الله مكان أخيه يحيى المتخلف بجبل لمتونة. ثم

رجعت جيوش بني جدالة إلى يحيى بن عمر فحاصروه في الجبل، وذلك سنة ثمان وأربعين، وهم في نحو ثلاثين ألفا. وكان مع يحيى أيضاً عدد كثير، وكان معه لبّي بن ورجاي رئيس تكرور، وكان التقاؤهم هناك بموضع يسمى تيفريلي بين تاليوين وجبل لمتونة. فقتل يحيى بن عمر رحمه الله وقتل معه بشر كثير، وهم يذكرون أنهم يسمعون في هذا الموضع أصوات المؤذنين عند أوقات الصلوات، وهم يتحامونه ولا يدخله أحد ولا أخذ منه سيف ولا درقة ولا شيء من أسلحتهم ولا ثيابهم. ولم يكن للمرابطين بعد كرة إلى بني جدالة.

وفي سنة ست وأربعين غزا عبد الله بن ياسين أودغست، وهو بلد قائم العمارة مدينة كبيرة فيها أسواق ونخل كثير وأشجار الحناء، وهي في العظم كشجر الزيتون، وهي كانت منزل ملك السودان المسمى بغانة قبل أن يدخل العرب غانة، وهي متقنة المباني حسنة المنازل، ومسافة ما بينها وبين سجلماسة مسيرة شهرين وبينها وبين مدينة غانة خمسة عشر يوماً. وكان يسكن هذه المدينة زناتة مع العرب وكانوا متباغضين متدابرين، وكانت لهم أموال عظيمة ورقيق كثير كان للرجل منهم ألف خادم وأكثر. فاستباح المرابطون حريمها وجعلوا جميع ما أصابوا فيها فيئاً، وقتل فيها عبد الله بن ياسين رجلاً من العرب المولدين من أهل القيروان معلوماً بالورع والصلاح وتلاوة القرآن وحج البيت يسمى زباقرة، وإنما نقموا عليهم أنهم كانوا تحت طاعة صاحب غانة وحكمه.

وغزا عبد الله بن ياسين أغمات سنة تسع وأربعين، واستولى على بلاد المصامدة (سنة خمسين، وقتل ببرغواطة) سنة إحدى وخمسين بموضع يسمى كريفلت، وعلى قبره اليوم مشهد مقصود ورابطة معمورة. ولم يقتل عبد الله بن ياسين حتى استولى على سجلماسة وأعمالها والسوس كله وأغمات ونول والصحراء.

ومما يذكرونه ولا يشكون فيه من براهين صلاح عبد الله أنه ذهب في بعض أسفاره فعطشوا فشكوا ذلك إليه، فقال: عسى الله أن يجعل لنا من أمرنا فرجاً. ثم سار بهم ساعة وقال لهم: احفروا بين يدي. فحفروا فوجدوا الماء بأدنى حفر، فشربوا وسقوا واستقوا أعذب ماء وأطيبه. ويذكرون أنه نزل منزلاً تقرب منه بركة ماء وكانت كثيرة الضفادع لا يسكن

نقيقها، فإذا وقف عبد الله على البركة لا يسمع لها ركز. وهم الآن لا تقدم طائفة منهم أحداً للصلاة بها إلا من صلى وراء عبد الله وإن كان في تلك الطائفة أقرأ منه وأورع ممن لم يصل وراءه. وكان عبد الله نكاحاً للنساء يتزوج في الشهر عدداً منهن ويطلقهن، لا يسمع بامرأة حسناء إلا خطبها، ولا يتجاوز بصدقاتهن أربعة مثاقيل.

من ذلك أخذه الثلث من الأموال المختلطة، وزعم أن ذلك يطيب باقيها ويحله، وقد تقدم ذكرها. هذا وأن الرجل إذا دخل في دعوتهم وتاب عن سالف ذنوبه قالوا له: قد أذنبت ذنوباً كثيرة في شبابك، فيجب أن تقام عليك حدودها وتطهر من إثمها، فيضرب حد الزاني مائة سوط وحد المفتري ثمانين سوطاً وحد الشارب مثلها، وربما زيد على ذلك. وهكذا يفعلون بمن تغلبوا عليه وأدخلوه في رباطهم، وإن علموا أنه قتل قتلوه سواء أتاهم تائباً طائعاً أو غلبوا عليه مجاهراً عاصياً لا تنفعه توبته ولا تغني عنه رجعته. ومن تخلف عن مشاهدة الصلاة مع الجماعة ضرب عشرين سوطاً، ومن فاتته ركعة ضرب خمسة أسواط. ويأخذون الناس بصلاة ظهر أربعاً قبل صلاة الظهر في الجماعة، وكذلك في سائر الصلوات، ويقولون: إنك لا بد قد فرطت في سالف عمرك فاقض ذلك. وأكثر عوامهم يصلون بغير وضوء إذا أعجلهم الأمر جزعاً من الضرب. ومن رفع صوته في المسجد ضرب على قدر ما يراه الضارب له صلاحا. وزكاة الفطر يأخذونها وينفقونها على أنفسهم.

ومما يحفظ من جهل عبد الله بن ياسين أن رجلاً اختصم إليه مع تاجر غريب عندهم، فقال التاجر في بعض مراجعته لخصمه: حاشى لله أن يكون ذلك. فأمر عبد الله بضربه وقال: لقد قال كلاماً فظيعاً وقولاً شنيعاً يوجب عليه أشد الأدب. وكان بالحضرة رجل قيرواني فقال لعبد الله: وما تنكر من مقالته؟ والله عز وجل قد ذكر ذلك في كتابه فقال حكاية عن النسوة اللائي قطعن أيديهن في قصة يوسف: حاش لله ما هذا بشرا إن هذا إلا ملك كريم. فرفع الضرب عن ذلك الرجل.

وأمير المرابطين إلى اليوم -وذلك سنة ستين وأربعمائة- أبو بكر بن عمر، وأمرهم منتشر غير ملتئم ومقامهم بالصحراء، وجميع قبائل الصحراء(= الطوارق) يلتزمون النقاب وهو

فوق اللثام حتى لا يبدو منه إلا محاجر عينيه، ولا يفارقون ذلك في حال من الأحوال ولا يميز رجل منهم وليه ولا حميمه إلا إذا تنقب، وكذلك في المعارك إذا قتل منهم القتيل وزال قناعة لم يعلم من هو حتى يعاد عليه القناع، وصار ذلك لهم ألزم من جلودهم وهم يسمون من خالف زيهم هذا من جميع الناس أفواه الذبان بلغتهم. وطعامهم صفيف اللحم الجاف مطحونا يصب عليه الشحم المذاب أو السمن، وشرابهم اللبن قد غنوا به عن الماء، يبقى الرجل منهم الأشهر لا يشرب ماء،وقوتهم مع ذلك مكينة وأبدانهم صحيحة.

ومن سير أهل الصحراء في المتهم بالسرقة أن يعمدوا إلى عود فيشق باثنين ويشد على صدغيه في مقدم رأسه ومؤخره فلا يتمالك أن يقر ولا يصبر على ذلك الضغط لحظة لشدته. ومما في هذه الصحراء من الحيوان اللمط، وهو دابة دون البقر لها قرون دقاق حادة لذكرانها وإناثها، وكلما كبر منها الواحد طال قرناه حتى يكون أكبر من أربعة أشبار. وأجود الدرق وأغلاها ثمناً ما صنع من جلود العواتق منها، وهي التي طال قرناها لكبر سنها فمنع الفحل علوها. ودواب الفنك أكثر شيء في هذه الصحراء ومنها يحمل إلى جميع البلاد. وعندهم الكباش الدمانية خلقها خلق الضأن إلا أنها أجمل وشعرها شعر الماعز لا أصواف لها، وهي أحسن الغنم خلقاً وألواناً. ولا تنبت هذه الصحراء ولا بلاد أغمات ولا السوس شجر المرسين، وهو شجر الآس وهو عندهم عزيز يجلب إليهم من سائر البلاد.

ومن غرائب تلك الصحراء معدن ملح على يومين من المجابة الكبرى وبينه وبين سجلماسة مسيرة عشرين يوماً، تحفر عنه الأرض كما تحفر عن سائر المعادن والجواهر، ويوجد تحت قامتين أو دونها من وجه الأرض وتقطع كما تقطع الحجارة، ويسمى هذا المعدن تاتنتال وعليه حصن مبني بحجارة الملح، وكذلك بيوته ومشارفه وغرفه كل ذلك ملح، ومن هذا المعدن يتجهز بالملح إلى سجلماسة وغانة وسائر السودان، والعمل فيه متصل والتجار إليه متسايرون وله غلة عظيمة. ومعدن للملح آخر عند بني جدالة بموضع يسمى أوليل على شاطئ البحر، ومن هناك تتحمله الرفاق أيضاً إلى ما جاوره.

وبقرب أوليل في البحر جزيرة تسمى أيونى، وهي عند المد جزيرة لا يوصل إليها من البر

وعند الجزر يوصل إليها على القدم، ويوجد فيها العنبر، وأكثر معاش أهلها من لحوم السلاحف وهي أكثر شيء عندهم في ذلك البحر وهي مفرطة العظم؛ وربما دخل الرجل منهم في محار ظهورها فيتصيد فيها كالقارب. ولهم أغنام ومواش، وهذه الجزيرة مرسى من المراسي، والطريق منها إلى نول على ساحل البحر لا يفارقه مسيرة شهرين مشي العير في أرض أكثرها صفا ينبو عنه الحديد وتكل فيه المعاول. وإنما يشربون في طريقهم من قلات يحتفرونها عند جزر البحر فتبض ماء عذباً. وإذا مات لهم ميت في طريقهم هذا لم يمكنهم مواراته لصلابة الأرض وامتناعها على الحفر، فيسترونه بالحطام والحشيش أو يقذفونه بالبحر.

المصاقبون لبلاد السودان بنو جدالة، هم آخر الإسلام خطة. وأقرب بلاد السودان منهم صنغانة بين آخر بلادهم وبينها مسيرة ستة أيام، ومدينة صنغانة مدينتان على ضفتي النيل وعمارتها متصلة إلى البحر المحيط. ويلي مدينة صنغانة ما بين الغرب والقبلة على النيل مدينة تكرور أهلها سودان، وكانوا على ما كان سائر السودان عليه من المجوسية وعبادة الدكاكير، والدكور عندهم الصنم، حتى وليهم وارجابي بن رابيس فأسلم وأقام عندهم شرائع الإسلام وحملهم عليها وحقق بصائرهم فيها وتوفي وارجابي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة، فأهل تكرور اليوم مسلمون.

وتسير من مدينة تكرور إلى مدينة سلى، وهي مدينتان على شاطئ النيل أيضا وأهلها مسلمون أسلموا على يدي وارجابي رحمه الله. وبين سلى ومدينة غانة مسيرة عشرين يوماً في عمارة السودان القبيلة بعد القبيلة. وملك سلى يحارب كفارهم وليس بينه وبين أولهم إلا مسيرة يوم واحد، وهم أهل مدينة قلنبو، وهو واسع المملكة كثير العدد يكاد يقاوم ملك غانة. وتبايع أهل سلى بالذرة والملح وحلق النحاس وأزر لطاف من قطن يسمونها الشكيات. والبقر عندهم كثير وليس عندهم ضأن ولا معز، وأكثر نبات أرضهم الأبنوس ومنه يحتطبون. وفيما يتصل ببلادهم من النيل في موضع يقال له صحابي حيوان في الماء يشبه الفيل في عظم خلقته وفنطيسته وأنيابه يسمونه قفوا، وهو يرعى في البراري ويأوي إلى النيل، وهم يميزون موضعه من النيل بتحرك الماء على ظهره فيقصدونه بمزاريق حديد،

قصار في أسافلها حلق قد شدت فيها الحبال المديدة، فيرمونه بالعدد الكثير منها فيغوص ويضطرب في أسفل النيل، فإذا مات طفا على الماء، فجذبوه وأكلوا لحمه وصنعوا من جلده هذه الأسواط التي تسمى السريافات، ومن هناك تحمل إلى الآفاق.

ويلي هذا البلد مدينة قلنبو بينهما مسيرة يوم على ما تقدم، وهي على النيل وأهلها مشركون. وتتصل بمدينة قلنبو مدينة ترنقة، وهو بلد عريض، وعندهم تصنع الأزر المسماة بالشكيات .. وهي أربعة أشبار في مثلها. وليس في بلدهم كثير قطن غير أنهم لا تكاد تخلو دار أحدهم من شجرة قطن.وحكم أهل هذه البلاد والمذكور قبلها من بلاد السودان أن يخير صاحب السرقة في بيع السارق أو قتله، وحكمهم في الزاني أن يسلخ من جلده.

ومن ترنقة تصل العمارة بالسودان إلى بلد زافقو، وهم صنف من السودان يعبدون حية كالثعبان العظيم ذا عرف وذنب رأسه كرأس البختي وهو في مغارة بالمفازة وعلى فم المغارة عريش وأحجار ومسكن قوم منهم متعبدين معظمين لتلك الحية، ويعلقون نفيس الثياب وجر المتاع على ذلك العريش ويضعون له جفان الطعام وعساس اللبن والشراب. وهم إذا أرادوا إخراجه إلى العريش تكلموا كلاماً وصفروا صفيراً معلوماً فيبرز إليهم. وإذا هلك والي من ولاتهم جمعوا كل من يصلح للمملكة وقربوهم إليها وتكلموا بكلام يعلمونه، فتدنو الحية منهم فلا تزال تشمهم رجلاً رجلاً حتى تنكز أحدهم بأنفها فإذا نكزته إلى المغارة فيتبعها ذلك المنكوز بأجد ما يقدر عليه من السير، فيجذب من ذنبها أو من عرفها بأشد ما يقدر عليه من شعرات، فتكون مدة ملكه لهم بعدد تلك الشعرات لكل شعرة سنة، لا يخطيهم ذلك بزعمهم.

وتليهم بلاد الفرويين، وهي مملكة الفرويين على حدتها، ومن غريب ما فيها بركة يجتمع فيها الماء ينبت فيها نبات أصوله أبلغ شيء في تقوية الباهة والعون عليها، والملك يمنع منها ولا يصل منها شيء إلى غيره، وله من النساء عدد عظيم، فإذا أراد أن يطوف عليهن أنذرهن قبل ذلك بيوم، ثم استعمل ذلك الدواء فيطوف عليهن كلهن ولا يكاد ينكسر. وقد أهدى إليه بعض ملوك المسلمين المجاورين له هدية نفيسة واستهداه شيئاً من هذا

النبات. فعارضه على هديته وكتب إليه يقول: إن المسلمين لا يحل لهم من النساء إلا قليل، وقد خفت عليك إن بعثت إليك الدواء أن لا تقدر على إمساك نفسك فتأتي بما لا يحل لك في دينك، ولكني قد بعثت إليك نباتا يأكله الرجل العقيم فيولد له. وبلاد الفرويين يبدل الملح فيها بالذهب.

وغانة سمة لملوكهم، واسم البلد أوكار واسم ملكهم اليوم – وهي سنة ستين وأربعمائة– تنكامنين، وولي سنة خمس وخمسين. وكان اسم ملكهم قبله بسي، ووليهم وهو ابن خمس وثمانين سنة، وكان محمود السيرة محباً للعدل مؤثراً للمسلمين، وعمي في آخر عمره، فكان يكتم ذلك عن أهل مملكته ويريهم أنه يبصر وتوضع بين يديه أشياء فيقول: هذا حسن وهذا قبيح وكان وزراؤه يلبسون ذلك على الناس ويلغزون للملك بما يقول، فلا تفهمه العامة. وبسي هذا خال تنكامنين، وتلك سيرتهم ومذهبهم أن الملك لا يكون إلا في ابن أخت الملك لأنه لا يشك فيه أنه ابن أخته وهو يشك في ابنه ولا يقطع على صحة اتصاله به.

وتنكامنين هذا شديد الشوكة عظيم المملكة مهيب السلطان. ومدينة غانة مدينتان سهليتان إحداهما المدينة التي يسكنها المسلمون، وهي مدينة كبيرة فيها اثنا عشر مسجداً أحدها يجمعون فيه، ولها الأئمة والمؤذنون والراتبون، وفيها فقهاء وحملة علم. وحواليها آبار عذبة منها يشربون وعليها يعتملون الخضراوات. ومدينة الملك على ستة أميال من هذه ،وتسمى بالغابة والمساكن بينهما متصلة، ومبانيهم بالحجارة وخشب السنط. وللملك قصر وقباب، وقد أحاط بذلك كله حائط كالسور. وفي مدينة الملك مسجد يصلي فيه من يفد عليه من المسلمين على مقربة من مجلس حكم الملك. وحول مدينة الملك قباب وغابات وشعراء يسكن فيها سحرتهم، وهم الذين يقيمون دينهم. وفيها دكاكيرهم وقبور ملوكهم، ولتلك الغابات حرس ولا يمكن احداً دخولها ولا معرفة ما فيها، وهناك سجون الملك، فإذا سجن أحد فيها انقطع عن الناس خبره.

وتراجمة الملك من المسلمين، وكذلك صاحب بيت ماله وأكثر وزرائه، ولا يلبس المخيط

من أهل دين الملك غيره وغير ولي عهده، وهو ابن أخته، ويلبس سائر الناس ملاحف القطن والحرير والديباج على قدر أحوالهم. وهم أجمع يحلقون لحاهم ونساؤهم يحلقن رؤوسهن، وملكهم يتحلى بحلي النساء في العنق والذراعين ويجعل على رأسه الطراطير المذهبة عليها عمائم القطن الرفيعة.

وهو يجلس للناس والمظالم في قبة ويكون حوالي القبة عشرة أفراس بثياب مذهبة ووراء الملك عشرة من الغلمان يحملون الحجف والسيوف المحلاة بالذهب، وعن يمينه أولاد ملوك بلده قد ضفروا رؤوسهم بأنواع الذهب وعليهم الثياب الرفيعة، ووالي المدينة بين يدي الملك جالس في الأرض وحواليه الوزراء جلوساً على الأرض. وعلى باب القبة كلاب منسوبة لا تكاد تفارق موضع الملك تحرسه، في أعناقها سواجير الذهب والفضة يكون في الساجور عدد رمانات ذهب وفضة. وهم ينذرون بجلوسه بطبل يسمونه دبا، وهو خشبة طويلة منقورة، فيجتمع الناس، فإذا دنا أهل دينه جثوا على ركبهم ونثروا التراب على رؤوسهم، فتلك تحيتهم له. وأما المسلمون فإنما سلامهم عليه تصفيقاً باليدين.

وديانتهم المجوسية وعبادة الدكاكير. وإذا مات ملكهم عقدوا له قبة عظيمة من خشب الساج ووضعوها في موضع قبره، ثم أتوا به على سرير قليل الفرش والوطاء فأدخلوه في تلك القبة ووضعوا معه حليته وسلاحه وآنيته التي كان يأكل فيها ويشرب، وأدخلوا فيها الأطعمة والأشربة وأدخلوا معه رجالاً ممن كان يخدم طعامه وشرابه وأغلقوا عليهم باب القبة وجعلوا فوق القبة الحصر والأمتعة، ثم اجتمع الناس فردموا فوقها بالتراب حتى تأتي كالجبل الضخم، ثم يخندقون حولها حتى لا يوصل إلى ذلك الكوم إلا من موضع واحد. وهم يذبحون لموتاهم الذبائح ويقربون لهم الخمور.

ولملكهم على حمار الملح دينار ذهب في إدخاله البلد وديناران في إخراجه، وله على حمل النحاس خمسة مثاقيل وعلى حمل المتاع عشرة مثاقيل. وأفضل الذهب في بلاده ما كان بمدينة غيارو، وبينها وبين مدينة الملك مسيرة ثمانية عشر يوماً في بلاد معمورة بقبائل السودان مساكن متصلة. وإذا وجد في جميع معادن بلاده الندرة من الذهب استصفاها

الملك، وإنما يترك منها للناس هذا التبر الرقيق، ولولا ذلك لكثر الذهب بأيدي الناس حتى يهون. والندرة تكون من أوقية إلى رطل، ويذكر أن عنده منه ندرة كالحجر الضخم. وبين مدينة غيارو والنيل اثنا عشر ميلاً وفيها من المسلمين كثير. وغانة بلدة مستوبية غير آهلة لا يكاد يسلم الداخل فيها من المرض عند امتلاء زرعهم، ويقع الموتان في غربانها عند استحصاد الزرع.

فأما الطريق من غانة إلى غيارو فإلى مدينة سامقندي أربعة أيام، وأهل سامقندي أرمى السودان بالنشاب. ومنها إلى بلد يسمى طاقة يومان، وأكثر شجر طاقة شجر يسمى تادموت، وهو شجر الأراك إلا أن له ثمراً كالبطيخ داخله شيء يشبه القند تشوب حلاوته بحموضة نافع للمحمومين. ومن هناك إلى خليج من النيل يقال له زوغو مسيرة يوم تخوضه الجمال، ولا يعبره الناس إلا في القوارب. ومنه إلى بلد يقال له غرنتل، وهو بلد كبير ومملكة جليلة لا يسكنه مسلمون ولكنهم يكرمونهم ويخرجون لهم عن الطريق إذا دخلوا بلادهم، وتلد عندهم الفيلة والزرافات. ومن غرنتل إلى غيارو.

وملك غانة إذا احتفل ينتهي جيشه مائتي ألف، منهم رماة أزيد من أربعين ألفا، وخيل غانة قصار جداً. وعندهم الأبنوس الجيد المجزع. وهم يزدرعون مرتين في العام مرة على ثرى النيل إذا خرج عندهم وأخرى على ثرى؟ أيضاً.

وبغربي غيارو على النيل مدينة يرسني يسكنها المسلمون وما حولها مشركون. وفي يرسني معز قصار، فإذا وضعت الماعزة ذبحوا الذكور وأبقوا الإناث، وعندهم شجر تحتك بها هذه المعزة فتحمل من ذلك العود تلد من غير ذكر! وهذا معلوم عندهم غير منكر، وحدث به جماعة من المسلمين الثقات. ومن يرسني يجلب السودان العجم المعروفون ببني نغمرانة وهم تجار التبر إلى البلاد. وما وازاها من ضفة النيل الثانية مملكة كبيرة أزيد من مسيرة ثمانية أيام سمة ملكهم دو، وهم يقاتلون بالنشاب.

ومن أعمال غانة المنضافة إليها بلد يسمى سامة ويعرف أهله بالبكم، بينه وبين غانة مسيرة أربعة أيام، وهم يمشون عراة إلا أن المرأة تستر فرجها بسيور تضفرها، وهن يوفرن شعر

العانة ويحلقن شعر الرأس.

وحدث أبو عبدالله المكي أنه رأى منهن إمرأة وقفت على رجل من العرب طويل اللحية، فتكلمت بكلام لم يفهمه، فسأل الترجمان عن مقالتها فذكر أنها تمنت أن يكون شعر لحيته في عانتها. فامتلأ العربي غضبا وأوسعها سبا. والبكم لهم حذق بالرماية وهم يرمون بالسهام المسمومة. ويورثون الابن الأكبر مال الأب كله.

وبغربي مدينة غانة مدينة أنبارة، وملكها اسمه تارم وهو معاند لملك غانة. وعلى تسع مراحل من مدينة أنبارة مدينة كوغة وبينها وبين غانة مسيرة خمس عشرة مرحلة، وأهلها مسلمون وحواليها المشركون. وأكثر ما يتجهز إليها بالملح والودع والنحاس والفربيون، والودع والفربيون أنفق شيء عندهم. وحواليها من معادن التبر كثير، وهي أكثر بلاد السودان ذهبا. وهناك مدينة ألكن وملكها يسمى قنمر بن بسي ويقال إنه مسلم يخفي إسلامه.

وببلاد غانة قوم يسمون بالهنيهين من ذرية الجيش الذي كان بنو أمية أنفذوه الى غانة في صدر الإسلام، وهم على دين أهل غانة إلا أنهم لا ينكحون في السودان ولا ينكحونهم، فهم بيض الألوان حسان الوجوه. وبسلي أيضا قوم منهم يعرفون بالفامان.

وببلاد غانة حكم الماء، وذلك أنه من ادعي عليه بمال أو دم أو غير ذلك عمد أمينهم الى عود فيه حرافة ومرارة ورقة وصب عليه من الماء قدرا معلوما، وسقاه المدعى عليه، فإن رماه من جوفه علم أنه بريء وهنئ بذلك، وإن لم يرمه وبقي في جوفه صحت الدعوة عليه.

ومن الغرائب ببلاد السودان شجرة طويلة الساق دقيقة تسمى تورزي تنبت في الرمال ولها ثمر كبير منتفخ داخله صوف أبيض تصنع منه الثياب والأكسية ولا تؤثر النار فيما صنع من ذلك الصوف من الثياب لو أوقدت عليه الدهر كله لم يحترق. وأخبر الفقيه عبدالملك أن أهل اللامس بلد هناك ليس لهم لبس إلا من هذا الصنف. ومن هذا الجنس حجارة بوادي درغة تسمى بالبربرية تامطغست تحك باليد فتلين إلى أن تأتي في قوام الكتان فتصنع منها الأمرة والقيود للدواب، فلا تؤثر النار في شيء من ذلك. وقد صنع منها كساء

لبعض ملوك زناتة بسلجماسة، وأخبرني الثقة أنه شهد تاجرا قد جلب منه منديلا إلى فردلند صاحب الجلالقة ،وذكر أنه منديل لبعض الحواريين وأن النار لا تؤثر فيه، وأراه ذلك عيانا فعظم موقعه من فردلند وبذل له فيه غناه، وبعث به فردلند إلى صاحب قسطنطينة ليوضع في كنيستهم العظمى، فعند ذلك بعث إليه صاحب قسطنطينة التاج وأمره بالتتويج. وقد حدث جماعة أنهم رأوا منه هداب منديل عند أبي فضل البغدادي تحمى عليه النار فيزداد بياضا ويكون له النار غسلا، وهو كثوب الكتان

وإذا سرت من غانة تريد مطلع الشمس فإنك تسير في طريق معمورة بالسودان الى موضع يقال له أوغام يحرثون الذرة وهو عيشهم، ثم تسير من هناك أربعة أيام الى موضع يقال له رأس الماء، وهناك تلقى النيل خارجا من بلاد السودان، وعليه قبائل من البربر مسلمون يسمون مداسة، وبإزائهم من الشط الثاني مشركو السودان. ثم تسير من هناك ست مراحل على النيل الى مدينة تيرقي، ويجتمع في سوق هذه المدينة أهل غانة وأهل تادمكة. وتعظم السلاحف بتيرقي وتتخذ في الأرض أسرابا ويمشي فيها الإنسان ولا يطيقون استخراج واحدة منها إلا بعد شد الحبال فيها وإجماع العدد الكثير عليها.

وأخبرني الفقيه أبو محمد عبدالملك بن نخاس الغرقة أن قوماً عرّسوا في طريق تيرقي، والأرضة هناك تأتي على ما تجده، وتفسد ما وصلت إليه ،وتخرج من التراب أكواما كالروابي، ومن الغرائب أن ذلك التراب ثرّ ندِ، والماء هناك غير موجود على أبعد حفر. فلا توضع الأمتعة إلا على الحجارة المجموعة أو الخشب الموضوعة ، فارتاد كل واحد من القوم لمتاعه حرزا من الأرضة، وبدر أحدهم فيما ظن إلى صخرة كبيرة فأنزل عليها وقر بعيرين كانا معه. فلما هب من نومه سحرا لم يجد الصخرة ولا ما كان عليها، فارتاع ونادى بالويل والحرب. فاجتمعوا إليه يسألونه عن خطبه فأخبرهم فقالوا: لو طرقك لصوص لأخذوا المتاع وبقيت الصخرة. فنظروا فإذا أثر سلحفاة ذاهبة من الموضع، فاقتفوه أميالا حتى ادركوها، وحملا المتاع على ظهرها، وهي التي حسبها صخرة.

ومن تيرقي يرجع النيل نحو الجنوب في بلاد السودان، فتسير عليه نحو ثلاث مراحل

فتدخل بلاد سغمارة، وهم قبيل من البربر في عمل تادمكة، ويحاذيهم من الشط الثاني مدينة كوكو للسودان. فأما الجادة من غانة إلى تامكة وبينهما مسيرة خمسين يوما، فمن غانة إلى سفنقو ثلاث مراحل، وهي على النيل وهي آخر عمل غانة. إلى تادمركة، وبينهما مسيرة عشرين يوما. ثم تصحب النيل إلى بوغرات فيه قبيل من صنهاجة يعرفون بمداسة.

وأخبر الفقيه (أبو محمد) عبدالملك أنه رأى في بوغرات طائرا يشبه الخطاف يفهم من صوته كل سامع إفهاما لا يشوبه لبس: قتل الحسين قتل الحسين يكرر مرارا، ثم يقول: بكربلا مرة واحدة. قال عبدالملك: سمعته أنا ومن حضر من المسلمين معي. ومن بوغرات إلى تيرقي. ثم تسير منها في الصحراء الى تاد مكة، وتادمكة أشبه بلاد الدنيا بمكة شرفها الله وزادها تشريفا وتعظيماً. (ومعنى تاد عندهم هيئة إذ أنها على هيئة مكة)، وهي مدينة كبيرة بين جبال وشعاب، وهي أحسن بناء من مدينة غانة ومدينة كوكو. وأهل تادمكة بربر مسلمون وهم يتنقبون كما يتنقب بربر الصحراء، وعيشهم من اللحم واللبن ومن حب تنبته الأرض من غير اعتمال، ويجلب إليهم الذرة وسائر الحبوب من بلاد السودان، ويلبسون الثياب المصبغة بالحمرة من القطن والنولي وغير ذلك، وملكهم يلبس عمامة حمراء وقميصا أصفر وسراويل زرقاء. ودنانيرهم تسمى الصلع لأنها ذهب محض غير مختومة. ونساؤهم فائقات الجمال لا تعدل بهن أهل بلد حسنا، والزنا عندهم مباح، وهن يبادرن التجار أيّتهن تحمله إلى منزلها.

فإن أردت من تادمكة إلى القيروان فإنك تسير في الصحراء خمسين يوما إلى وارجلان، وهي سبعة حصون للبربر أكبرها يسمى أغرم أن يكامن، أي حصن العهود. ومنها قسطنطينة أربعة عشر يوما، ومن قسطنطينة إلى القيروان سبعة أيام على ما تقدم. وبين وراجلان وقلعة أبي طويل مسيرة ثلاثة عشر يوما.ومن تادمكة إلى غدامس أربعون مرحلة في الصحراء، والماء فيها على مسيرة اليومين والثلاثة أحساء. وغدامس مدينة لطيفة كثيرة النخل والمياه وأهلها بربر مسلمون. وبغدامس دواميس كانت سجنا للكاهنة التي كانت بإفريقية. وأكثر طعام أهل غدامس التمر، والكمأة تعظم عندهم حتى تتخذ فيها الأرانب

جحرة. وبين غدامس وجبل نفوسة سبعة أيام في الصحراء، وبين نفوسة ومدينة طرابلس ثلاثة أيام . .

وطريق آخر من تادمكة إلى غدامس: تسير من تادمكة ستة أيام في عمارة سغمارة، ثم في مجابة أربعة أيام إلى الماء، ثم في مجابة ثانية أربعة أيام، وفي هذه المجابة معدن لحجارة تسمى تاسي أنسمت، وهي حجارة تشبه العقيق وربما كان في الحجر الواحد ألوان من الحمرة والصفرة والبياض وربما وجد فيها في النادر الحجر الجليل الكبير، فإذا وصل به إلى أهل غانة غالوا فيه وبذلوا فيه الرغائب، وهو أجل عندهم من كل علق يقتنى، وهو يجلى ويثقب بحجر آخر يسمى تنتواس كما يجلى الياقوت ويقب بالسنباذج، لا يعمل فيه الحديد شيئا إلا بالتنتواس ولا يوصل إليه ولا يعلم موضعه حتى ينحر الإبل على معدنه وينضج دمه، فحينئذ يظهر ويلقط. وفي بونو معدن للتاسي أنسمت أيضا، ومعدن هذه المجابة أفضل.

وتسير من هذه المجابة الثانية الى مجابة ثالثة، وفي هذه المجابة معدن الشب ومنه يحمل إلى البلاد. وتسير من هذه المجابة إلى مجابة رابعة أحد عشر يوما في رمال جرد لا ماء فيها ولا نبت، يتزود الرفاق الماء والحطب فيها كما يتزود الطعام والعلق، وعلى يسار السائر في هذه المجابة جبل الرمل الأحمر الذي يتصل بسجلماسة، وهو الذي يكون فيه الفنك والثعلب الدهي، وهو آخر حد إفريقية. وإذا سار السائر من بلاد كوكو على شاطيء البحر غربا انتهى إلى مملكة يقال لها الدمدم يأكلون من وقع إليهم، ولهم ملك كبير وملوك تحت يده، وفي بلدهم قلعة عظيمة عليها صنم في صورة امرأة يتألهون له ويحجونه.

وبين تادمكة ومدينة كوكو تسع مراحل، والعرب تسمي أهلها البزركانين. وهي مدينتان مدينة للملك ومدينة للمسلمين، وملكهم يسمى قندا. وزيهم كزي السودان من الملاحف وثياب الجلود وغير ذلك بقدر جدة الإنسان منهم، وهم يعبدون الدكاكير كما يفعل السودان. ويضرب لجلوس الملك الطبل وترقص النساء السودانيات بالشعور الجثلة المسترسلة، ولا يتصرف أحد منهم في مدينته حتى يفرغ من طعامه ويقذف باقيه في النيل،

فيجلبون عند ذلك ويصيحون فيعلم الناس أنه قد فرغ من طعامه. وإذا ولي منهم ملك دفع إليه خاتم وسيف ومصحف يزعمون أن أمير المؤمنين بعث بذلك إليهم. وملكهم مسلم لا يملكون غير المسلمين، ويزعمون أنهم إنما سلموا كوكو لأن الذي يفهم من نغمة طبلهم ذاك، وكذلك أزور وهير وزيويلة يفهم من نغمة طبلهم زويلة زويلة. وتجارة أهل بلد كوكو بالملح وهو نقدهم، والملك يحمل من بلاد البربر يقال لها توتك من معادن تحت الأرض إلى تادمكة، ومن تادمكة إلى كوكو. وبين توتك وتادمكة ست مراحل.)

لم يقتصر الأمر على وصف البر الإفريقي، إنما ترك لنا الجغرافيون والرحالة وصفا للبحار المحيطة بالقارة، قدمنا بعضها في الكتاب الأُول عند الحديث عن البحار،ونورد هنا ماكتبه الدمشقي عن جزائر بحر الزنج .ونردفه بنص عن جزر القمر.

(71)

وصف جزائر بحر الزنج وعجائبه

الدمشقي: من كتاب(نخبة الدهرفي عجائب البر والبحر)

(قال أهل العلم بذلك سمى بحر الزنج ومتاخمة بلادهم بحر بربرا لما على سواحله من طوائف السودان أهل البربرة وهو الكلام السريع المسموع من غضب من قائله، والبحر الأحمر لشدة لجوجه وحرارة هوائه وظهور النار فيه بالليل.

وبلاد الزنج في أقصى الجنوب تحت سهيل والبحر المتصل من هذا البحر الجامد يظلم بظلمته ، ومن رأى هذا البحر من جنوبه وهو على ظهره في لجته رأى القطبين الشمالي والجنوبي معا وإن توغل فيه إلى جهة الجنوب اختفى عنه القطب الشمالي مع بنات نعش وظهر له من كواكب القطب الجنوبي ما لا يعرفه أحد غير من رأى رؤيته وفيه من الجزائر جزيرة قنبلو من جزائر الزنج عامرة بهم وبها الأبنوس والبهار ومعادن الذهب.

وجزيرة طيسان بها بركان عظيم اللهب مهول الأصوات والهدات لا يستطيع أحد سكناها

لاستيلاء الحريق عليها من هذا البركان وجزيرة بربرا معمورة بالسودان المسلمين ومذهبهم زيدية وشافعية.

وجزيرة القطربية يحيط بها ثلاثمائة ميل بها مدينتان للزنج وبها في ناحية منها جبل عالي الشروع وهو الغول ،ويسمى القطرب تشبيها بتوحشه، وجزيرة زنجا قال بطليموس إن في حدود بحر الزنج حيث الطول خمس وتسعون درجة وحيث لا عرض هناك سوى درجتين سبعمائة جزيرة متقاربات متصل بعضها ببعض تسمى جزيرات زنجا مسكونة بالزنج كلها ، وعيش أهل الجزيرات الحمص والذرة، وببعض هذه الجزائر مغاص اللؤلؤ الجيد .واتفق أن التجار أرسوا إليها وكان مع تاجر منهم نحو نصف صاع حمص فأخذ منه قليلا وعرضه فشراه منه شخص بالعدد كل حمصة بلؤلؤة ثم أحضر التجار باقي ما معه من الحمص وأخذ بعدده لؤلؤا، ففعلوا ذلك باقي التجار بما معهم من الحمص ما أمكنهم وسافروا غانمين أي غنيمة ،ثم إنهم عادوا إلى الجزيرة ومعهم من الحمص ما أمكنهم حمله ،فلما عرضوه على أهل الجزيرة أبوا شراءه وعرفوهم أنهم زرعوه في أول مرة وأنجب معهم نجابة عجيبة ،وهو كثير عندهم ولونه أسود والجزيرة المحترقة واغلة في الجنوب وقل أن يوصل إليها ،وسميت محترقة لأنها في كل ثلاثين سنة يطلع على أفقها كوكب ذو ذنب ولا يزال يرتفع حتى يتوسط السماء بالجزيرة في مدة نصف سنة فتبرز منه نار إلى الجزيرة تحرق ما بها، فإذا طلع رحلوا أهلها وهاجروها مدة ثم يعودون إليها، وجزيرة جانا مأهولة وبها حيات قتالة وجلودها بالخاصية تبرئ من علة الدق والسل لمن يجلس عليها إذا اتخذها مفرشا، وهذه الحيات تصاد بدخان حصى اللبان وهو أن الصيادين لها يجمعون ما أمكنهم من حصى اللبان ما يجلبونه التجار إليهم ،ثم إذا كان وقت مهب الريح الأزيب أو الشمال العاصف دخنوا بالقرب من بقاع تلك الحيات فيحمل الهواء ذلك الدخان ويمر به إلى الحيات فيسكرون منه ،والصيادون يتتبعونهن بالقتل والجمع حتى ينفذ اللبان أو يسكن الريح .

ذكر ذلك أحد الوراق في كتاب "المباهج "وجزيرة العور بها قوم صغار الجثث سودان يسكنونها ويزرعون زرعهم فإذا كان أوان إدراكه يأتيهم الطير الذي يقال له الغرنوق يرعاه

ويقاتلهم فيصيب أعينهم فيقلعها. وقال أرسطو في كتاب" الحيوان" إن الغرانيق تنتقل من خراسان إلى مصر حيث يجري النيل إلى أماكن على شاطئ النيل تقاتل هناك أقواما على زرعهم قدر قاماتهم ذراع).

(72)

وصف جزر القمر.

الدمشقي: من كتاب (نخبة الدهر في عجائب البر والبحر)

(فأما جزيرة القمر فتسمى جزيرة ملاي، وطولها أربعة أشهر وعرض الواسع منها نحو شهر، وهي تحاذي جزيرة سرنديب من جنوبها فتكون سرنديب شمالا منها، وفيها بلاد كثيرة أجلها لقمرانه وملاي ودهما وخافور وبليق ودغلي وقمرية، وإليها ينسب الطير القمري وهو نوع من الحمام وبهذه الجزيرة من الخشب الغليظ الجافي الطويل ما تبلغ الشجرة مائتي ذراع وتبلغ سعة الساق دور مائة وعشرين ذراعا وبها من جنوبها مما يلي بحر الظلمات صحارى وقفار وبها طوائف من السودان زنوج الزنج عرايا الأبدان يلتحفون بورق الشجر المعروف بورق الكتابة ، وهو شبيه بورق الموز وأعرض وأسمك وأنعم وألين وأبقى يتخذونه الناس هناك دروجا يكتبون فيها حساباتهم كالدفاتر.

ولما ضاقت هذه الجزيرة بأهلها بنوا على الساحل بنيانا سكنوه في سفح جبل يعرف بهم ممتد متصل إلى أقصى بلاد السودان ومنابع النيل، ولهذه الجزيرة بجبال أولئك الزنوج معادن الذهب والياقوت وبها الأفيلة البيض والبلق وبأطرافها من جهة المحيط وحوش كالسباع لهم قرون لا يطاقون لشدة جرأتهم على سائر الحيوان وسباع مستديرات الوجوه قريبات الشبه من وجوه بني آدم ولهم آذان دقاق طوال وجلودهم مخطوطة قضبان شبيه بنسج العنابي حمر وبيض لا يطاقون شراً. ويقال إن الطائر الذي يقال له الرخ بها يرى طائرا في الجو الأعلى ويجدون في شرق الجزيرة من ريشه تسقط فيخذ منها أوعية للماء يكون سعة القصبة أكثر من شبر ونصف وطولها نحو القامة سوداء وسمك جوفها غليظ بغلظ إصبع ويصل هذا

الريش إلى عدن عند التجار يسمونه ريش الرخ ويزعم من دخلها وأقام بها أنه يرى للرخ بيضة من بيضه شبيهة بالقبة.

وذكر التجار المسموعون القول أنهم في بعض أسفارهم في البحر عطشوا فنزلوا إلى الجزيرة يقصدون طلب الماء فوجدوا قبة فأتوا إليها طلباً للماء فلما أتوا إليها قال لهم بعض التجار: هذه بيضة الرخ فثقبوها كما تثقب البنائية ، ففتحوها وأخذوا منها شيئا كثيراً وسدوها وطلبوا النجاة في المركب، فما كان إلا قليل حتى أقبل الرخ فوجد البيضة مكسورة فاحتمل الرخ في رجليه حجراً كبيراً وطلب المركب فوازنهم في السماء ثم أرمى عليهم الصخرة التي حملها في رجليه فعملوا بالمقاذيف والريح فسقط الحجر في الماء فكاد الحجر موجه أن يغرق المركب فلا زال هذا دأبه إلى أن حال الليل بينهم والله أعلم.)

وقد استأثر نهر النيل باهتمام معظم الذين وصفوا إفريقية، ويقدّم ياقوت الحموي في هذا النص أخبارا طريفة حول منابع النيل، تشوبها لمسة عجائبية، يقرّ ياقوت نفسه بأنها أشبه بالخرافة، لكن هذا الأمر كان شائعا فكثير من المعلومات كانت في العصور الوسطى تقدّم في إطار يمزج بين الواقعي والخرافي.

(73)

منابــع النيل

ياقوت الحموي(٦٢٥ هجري=١٢٢٩ ميلادية)من كتاب (معجم البلدان)

(زعموا أن رجلاً من ولد العيص يقال له حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، عليهما السلام خرج هارباً من ملك من ملوكهم إلى أرض مصر فأقام بها سنين، فلما رأى عجائب نيلها وما يأتي به جعل الله نذراً أن لا يفارق ساحله حتى يرى منتهاه أو ينظر من أين مخرجه أو يموت قبل ذلك، فسار عليه ثلاثين سنة في العمران ومثلها في غير العمران، وبعضهم يقول خمس عشرة كذا وخمس عشرة كذا، حتى انتهى إلى بحر أخضر فنظر إلى

النيل يشقه مقبلاً فوقف ينظر إلى ذلك فإذا هو برجل قائم يصلي تحت شجرة تفاح، فلما رآه استأنس به فسلم عليه فسأله صاحب الشجرة عن اسمه وخبره وما يطلب، فقال له: أنا حائذ بن شالوم بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، فمن أنت؟ قال: أنا عمران بن العيص بن إسحاق بن إبراهيم، فما الذي جاء بك إلى ههنا يا حائذ؟ قال: أردت علم أمر النيل، فما الذي جاء بك أنت؟ قال: جاء بي الذي جاء بك، فلما انتهيت إلى هذا الموضع أوحى الله تعالى إلي أن قف بمكانك حتى يأتيك أمري.

قال: فأخبرني يا عمران أي شيء انتهى إليك من أمر هذا النيل ؟وهل بلغك أن أحداً من بني آدم يبلغه؟ قال: نعم بلغني أن رجلاً من بني العيص يبلغه ولا أظنه غيرك يا حائذ، فقال له: يا عمران كيف الطريق إليه؟ قال له عمران: لست أخبرك بشيء حتى تجعل بيننا ما أسألك، قال: وما ذاك؟ قال: إذا رجعت وأنا حي أقمت عندي حتى يأتي ما أوحى الله لي أن يتوفاني فتدفنني وتمضي، قال: لك ذلك علي، قال: سر كما أنت سائر فإنه ستأتي دابة ترى أولها ولا ترى آخرها فلا يهولنّك أمرها فإنها دابة معادية للشمس إذا طلعت أهوت إليها لتلقمها فاركبها فإنها تذهب بك إلى ذلك الجانب من البحر فسرْ عليه فإنك ستبلغ أرضاً من حديد جبالها وشجرها وجميع ما فيها حديد، فإذا جزتها وقعت في أرض من فضة جبالها وشجرها وجميع ما فيها فضة، فإذا تجاوزتها وقعت في أرض من ذهب جميع ما فيها ذهب ففيها ينتهي إليك علم النيل، قال: فودعه ومضى وجرى الأمر على ما ذكر له حتى انتهى إلى أرض الذهب، فسار فيها حتى انتهى إلى سور من ذهب وعليه قبة لها أربعة أبواب ،وإذا ماء كالفضة ينحدر من فوق ذلك السور حتى يستقر في القبة ثم يتفرق في الأبواب وينصب إلى الأرض، فأما ثلثاه فيغيض وأما واحد فيجري على وجه الأرض وهو النيل، فشرب منه واستراح ثم حاول أن يصعد السور فأتاه ملك ،وقال: يا حائذ قف مكانك فقد انتهى إليك علم ما أردته من علم النيل، وهذا الماء الذي تراه ينزل من الجنة، وهذه القبة بابها، فقال: أريد أن أنظر إلى ما في الجنة، فقال: إنك لن تستطيع دخولها اليوم يا حائذ، قال: فأي شيء هذا الذي أرى؟ قال: هذا الفلك الذي تدور فيه الشمس والقمر

وهو شبه الرحا، قال: أريد أن أركبه فأدور فيه، فقال له الملك: إنك لن تستطيع اليوم ذلك، ثم قال: إنه سيأتيك رزق من الجنة فلا تؤثر عليه من شيئاً من الدنيا فإنه لا ينبغي لشيء من الجنة أن يؤثر عليه شيء من الدنيا، فبينما هو واقف إذ أنزل عليه عنقود من عنب فيه ثلاثة أصناف: صنف كالزبرجد الأخضر وصنف كالياقوت الأحمر وصنف كاللؤلؤ الأبيض، ثم قال: يا حائذ هذا من حصرم الجنة ليس من يانع عنبها فارجع فقد انتهى إليك علم النيل. فرجع حتى انتهى إلى الدابة فركبها فلما أهْوت الشمس إلى الغروب أهوت إليها لتلقمها فقذفت به إلى جانب البحر الآخر فأقبل حتى انتهى إلى عمران، فوجده قد مات في يومه ذلك، فدفنه وأقام على قبره، فلما كان في اليوم الثالث أقبل شيخ كبير كأنه بعض العبّاد فبكى على عمران طويلاً وصلى على قبره وترحم عليه،ثم قال: يا حائذ ما الذي انتهى إليك من علم النيل؟ فأخبره، فقال: هكذا نجده في الكتاب، ثم التفت إلى شجرة تفاح هناك فأقبل يحدثه ويطري تفاحها في عينيه، فقال له: يا حائذ ألا تأكل؟ قال: معي رزقي من الجنة ونهيت أن أوثر عليه شيئاً من الدنيا، فقال الشيخ: هل رأيت في الدنيا شيئاً مثل هذا التفاح؟ إنما هذه شجرة أنزلها الله لعمران من الجنة ليأكل منها وما تركها إلا لك ،ولو أكلت منها وانصرفت لرفعت، فلم يزل يحسنها في عينه ويصفها له حتى أخذ منها تفاحة فعضها ليأكل منها فلما عضها عض يده ونودي: هل تعرف الشيخ؟ قال: لا، قيل: هذا الذي أخرج أباك آدم من الجنة، أما إنك لو سلمت بهذا الذي معك لأكل منه أهل الدنيا فلم ينفذ، فلما وقف حائذ على ذلك وعلم أنه إبليس أقبل حتى دخل مصر فأخبرهم بخبر النيل، ومات بعد ذلك بمصر.

قال عبيد الله الفقير إليه مؤلف الكتاب: هذا خبر شبيه بالخرافة وهو مستفيض ووجوده في كتب الناس كثير، والله أعلم بصحته، وإنما كتبت ما وجدت.)

يعتبر وصف الحسن الوزان لإفريقية الوسطى أشهر الأوصاف لتلك المناطق على مستوى العالم خلال القرون الوسطى، وذلك قبل معرفة المدونات العربية، وكثيرا مااعتمد بوصفه مرجعا أساسيا في المعلومات التي جاءت بعده، لكن الملاحظ أنه يستفيد من الجغرافيين

والرحالة الذين سبقوه ممن وصفوا الأجزاء المحاذية لخط الاستواء. على أن الحسن الوزّان يبدي براعة وتدقيقا لاينكران وهو يخص إفريقية السوداء بجزء من كتابه المشهور(وصف إفريقيا).

(74)

وصف إفريقيةالسوداء

الحسن الوزان(توفي٩٥٦هجري=١٥٤٨ميلادي) من كتاب (وصف إفريقيا)

لم يكتب الجغرافيون القدماء مثل البكري والمسعودي شيئاً عن بلاد السودان باستثناء الواحات وغانة، إذ لم يكن يعرف شيء عن غيرهما من بلاد الزنوج في ذلك العصر؛ ولكنها اكتشفت بعد سنة ٣٨٠ هـ، لأن لمتونة وجميع سكان ليبيا أسلموا على يد داعية حملهم بالإضافة إلى ذلك على فتح بلاد البربر كلها. فبدأ الناس، منذ ذلك الوقت يختلفون إلى هذه البلاد ويتعرفون عليها.

(يسكن هذه البلاد كلها قوم يعيشون كالبهائم، لا ملوك لهم ولا أمراء ولا جمهوريات ولا حكومات ولا عادات، يكادون لا يعرفون زرع الحبوب، ويلبسون جلود الغنم. وليس لأحد منهم امرأة خاصة به، وإنما يرعون الماشية في النهار أو يخدمون الأرض، ثم يجتمعون في الليل، عشرة إلى اثني عشر رجلا وامرأة في كوخ، ويضاجع كل واحد من تعجبه أكثر من غيرها، مرتاحين نائمين على جلود النعاج.

لا يحارب هؤلاء القوم أحداً، ولا يخرجون من بلادهم، بعضهم يعبدون الشمس ويسجدون لها بمجرد ما يرونها تبرز في الأفق، وبعضهم يعبدون النار كأهل ولاتة، والبعض الآخر مسيحيون على طريقة المصريين، وهم سكان كاوكاو. وقد حكم هؤلاء الزنوج يوسف (بن تاشفين) ملك مراكش ومؤسسها، ومعه شعوب ليبيا الخمسة، فعلموهم الشريعة الإسلامية والمبادئ الضرورية لسلوكهم في الحياة. فاعتنق الكثير منهم الإسلام، وبدأ تجار

بلاد البربر حينئذ يذهبون إلى هذه البلاد ليتجروا فيها حتى تعملوا لغاتهم. واقتسمت شعوب ليبيا الخمسة هذه البلدان خمس عشرة قسمة، فنال كل شعب ثلاث قسم منها. والحقيقة أن ملك تمبكتو الحالي، وهو أبو بكر أسكيا من الجنس الأسود، كان قد عين قائداً أعلى من قبل ملك تنبكتو وكاغو سني علي الذي هو من أصل ليبي(= حكمت هذه السلالة خلال المدة ٧٣٥-٨٩٨هجرية=١٣٣٥-١٤٩٣ميلادية). وبعد موت سني علي ثار أبو بكر على أبنائه وقتلهم، ثم خلص جميع الشعوب السود من ربقة رؤساء قبائل ليبيا، بحيث إنه استولى على عدة ممالك في ظرف ست سنوات. ولما فرغ من نشر السلام والهدوء في مملكته رغب في الحج إلى مكة، وأنفق في هذا الحج كل ماله، واقترض خمسين ألف مثقال.

تمتد هذه الممالك الخمس عشرة المعروفة كلها لدينا على طول ضفتي النيجر وروافده، وتقع بين قفرين عظيمين يبتدئ أحدهما عند نوميديا وينتهي في هذه البلاد، والآخر في الجنوب يمتد إلى البحر المحيط. وهناك مناطق كثيرة جداً، لكن معظمها غير معروفة لدينا، سواء بسبب طول السفر وصعوبته، أو بسبب تنوع اللهجات والمعتقدات؛ وذلك ما يمنعها من إقامة علاقات مع البلدان المعروفة عندنا، ويمنع هذه البلدان كذلك من إقامة علاقات معها. ومع ذلك فإن هناك بعض العلاقات مع الزنوج الذين يعيشون على ساحل المحيط.

مملكة ولاتة (= إيولاتن)

مملكة صغيرة خاملة بالنسبة لسائر ممالك السودان. فليس لها من الأماكن المسكونة سوى ثلاث قرى كبيرة وأكواخ متفرقة بين حدائق النخل. وتبعد هذه القرى بنحو ثلاثمائة ميل جنوب نون، وخمسمائة ميل شمال تنبكتو، ومائة ميل من المحيط(= دُققتْ هذه المسافات وصوابها هو: ١٩٠٠كم جنوب نون ،و٤٥٠كم غرب تمبكتو، ٩٠٠كم من المحيط الأطلسي) ولما كانت شعوب ليبيا، تسيطر على هذه الناحية، جعلوها مقر البلاد الملكي، فأدى ذلك بالكثير من تجار بلاد البربر إلى الوفود عليها؛ لكن التجار تركوا ولاتة شيئاً فشيئاً منذ عهد سني علي الذي كان رجلاً عظيماً وذهبوا إلى تنبكتو وكاغو، بحيث إن أمير ولاتة

أصبح فقيراً لا سلطة عليها.

يتكلم أهل هذه البلاد لغة تسمى سنغاي (= نسبة إلى قبيلة سنغاي قدمت في القرن السابع الميلادي من الغابات الاستوائية) وهم أناس في غاية السواد والخسة، لكنهم ظرفاء جداً لا سيما مع الأجانب. يؤدي الأمير الذي يحكمهم الخراج إلى ملك تمبكتو، لأن هذا الملك جاء مرة إلى البلاد بجيشه ففر أمير ولاتة في الحين راجعاً إلى أهله في القفار. ورأى ملك تمبكتو أنه لا يستطيع ضبط البلاد كما يجب، لأن هذا الأمير سيخلق له متاعب بمساعدة أهله الصحراويين، فاتفق معه على أن يؤدي إليه خراجاً معيناً، ورجع الأمير إلى ولاتة، كما عاد الملك إلى تنبكتو.

ونمط معيشة أهل ولاتة وعاداتهم كنمط وعادات جيرانهم القاطنين بالصحراء. لا تنبت هذه البلاد إلا القليل من الحبوب، كالدخن، وحب آخر مستدير أبيض يشبه الحمص ولا يوجد بأوربا، واللحم نادر الوجود جداً. ومن عادة النساء والرجال أن يتلثموا ويغطوا وجوههم. ولا يوجد في هذه الناحية أي تنظيم متحضر، فلا حاشية ولا قضاة، ويعيش القوم في البؤس الشديد.

مملكة غينيا

مملكة يسميها التجار الأفارقة كناوة، والأهليون جيني، ويطلق عليها البرتغاليون ومن لهم خبرة بهذه المناطق في أوربا غينيا. تتاخم المملكة السابقة مع وجود مسافة نحو خمسمائة ميل بينهما عبر الصحراء. تقع ولاتة في الشمال، وتنبكتو في الشرق، ومالي في الجنوب. وتمتد طول النيجر على مسافة نحو مائتين وخمسين ميلاً، ولها جزء على المحيط حيث يصب النيجر في البحر.

أما الشعير والرز والماشية والسمك والقطن فتوجد بكثرة كاثرة. ويحقق أهل البلاد أرباحاً هائلة في تجارة قماش القطن مع تجار بلاد البربر الذين يحملون إليهم الكثير من الثياب الأوربية والنحاس والصفر والسلاح مثل الخناجر. والعملة الرائجة عند هؤلاء السودانيين هي الذهب غير المسكوك، وكذلك قطع الحديد لشراء أشياء تافهة كاللبن والخبز

والعسل. وتزن هذه القطع رطلاً أو نصف رطل أو ربعه.

ولا تنبت في هذه الناحية أية شجرة مثمرة، فلا وجود لأية فاكهة غير التمر المستورد من ولاتة أو نوميديا. ولا مدينة فيها ولا قصر ما عدا قرية واحدة كبيرة يسكنها الملك والأئمة والفقهاء والتجار والأعيان، وجميع الدور التي يسكنونها كالأكواخ، مملوطة الحيطان بالطين ومغطاة بالتبن. يرتدي أهل هذه القرية لباساً حسناً، ويتلثمون بلثام كبير من قطن أسود وأزرق يغطون به حتى رأسهم، لكن الأئمة والفقهاء يتلثمون بلثام أبيض. وأخيراً فإن هذه القرية تشكل شبه جزيرة خلال ثلاثة أشهر في العام، في يوليوز وغشت وشتمبر (= تموز وآب وأيلول)، لأن النيجر يفيض في هذه المدة تماماً كما يفيض النيل.

ويأتي تجار تنبكتو في هذه الفترة حاملين بضائعهم في زوارق صغيرة ضيقة جداً مصنوعة من نصف جذع شجرة مجوفة، تجري بهم نهاراً، ويربطونها ليلاً في الضفة ليناموا على الأرض.

كانت هذه المملكة في القديم خاضعة لأسرة من أصل ليبي، لكن في عهد الملك سني علي أصبح صاحب هذه المملكة خاضعاً له. ولما فقد سني علي مملكته على يد خلفه أسكيا، أخذ وسجن في كاغو حتى مات، وصار يحكم هذه المملكة أحد نواب أسكيا.

مملكة مالي

تمتد هذه المملكة على طول أحد فروع النيجر في مسافة نحو ثلاثمائة ميل متاخمة المملكة السابقة من جهة الشمال، والقفر مع جبال وعرة من جهة الجنوب. وتحدها غرباً غابات مهجورة تمتد إلى المحيط، وشرقاً إقليم كاغو. وفي هذه البلاد قرية عظيمة تضم نحو ستة آلاف كانون وتسمى مالي أطلق اسمها على سائر المملكة. يسكنها الملك وحاشيته، ويكثر في البلاد الحب واللحم والقطن. ويوجد في هذه القرية عدد كثير من الصناع والتجار المقيمين، والطارئين الذين يعيرهم الملك عناية أكثر من غيرهم. والسكان أغنياء بفضل تجارتهم، إذ يزودون غينيا وتمبكتو بكثير من المنتجات. ولهم مساجد كثيرة وأئمة، وأساتذة يدرسون في المساجد لعدم وجود المدارس. وهم أكثر تحضراً وذكاء واعتباراً من بين

جميع السود، لأنهم كانوا من السابقين إلى اعتناق الإسلام، فحكمهم عند إسلامهم أكبر أمراء ليبيا وهو عم ليوسف (بن تاشفين) ملك مراكش. ودام الحكم في عقبه إلى عهد أسكيا،فأصبح آخرهما خاضعاً له ومثقلاً بالضرائب إلى حد أنه لا يستطيع إطعام أسرته.

تنبكتو

اسم هذه المملكة حديث، وتنبكتو اسم مدينة بناها ملك يدعى منسا سليمان عام ٦١٠ للهجرة، على بعد نحو اثني عشر ميلاً من أحد فروع النيجر.ودور تنبكتو عبارة عن أكواخ مبنية بأوتاد مملوطة بالطين ومسقوفة بالتبن. وفي وسط المدينة مسجد مبني بالحجر المركب بالطين والجير على يد مهندس أندلسي من مدينة المانا، وقصر كبير من بناء نفس المعلم(= المهندس) يسكنه الملك، ودكاكين كثيرة للصناع والتجار، لاسيما دكاكين نساجي أقمشة القطن. وتصل أيضاً إلى تنبكتو أقمشة أوربا يحملها تجار بلاد البربر.

ما زالت نساء المدينة محتجبات باستثناء الجواري اللائي يبعن كل المطعومات. والسكان أغنياء مترفون، لا سيما الأجانب المقيمين في البلاد، حتى إن الملك الحالي زوج اثنتين من بناته من أخوين تاجرين لغناهما. وتوجد بتنبكتو عدة آبار ماؤها عذب، بالإضافة إلى ما يصل إلى المدينة من ماء في قنوات عند فيضان النيجر؛ والحبوب والمواشي كثيرة جداً، بحيث إن اللبن والسمن يستهلكان فيها بكيفية مفرطة؛ لكن الملح قليل جداً، لأنه يستورد من تغزة البعيدة عن تنبكتو بنحو خمسمائة ميل.

كنت في هذه المدينة عندما كان الملح يساوي هناك ثمانين مثقالاً. ويملك الملك خزينة كبيرة من النقود والسبائك الذهبية، تزن الواحدة منها ألفاً وثلاثمائة رطل. والبلاد الملكي على قدر كبير من النظام والأبهة. فإذا ذهب الملك من مدينة إلى أخرى مع حاشيته ركب جملاً، وسيقت الخيل أمامه بأيدي السيافين، وفي الحرب يعقل السيافون الإبل ويمتطي جميع الجنود الجياد. وكلما أراد شخص أن يخاطب الملك جثا بين يديه وأخذ التراب وحثاه على رأسه وكتفيه، وهذه طريقة الإجلال عندهم، لكنها لا تفرض إلا على من لم يسبق لهم أن خاطبوا الملك قط، أو على السفراء. وللمملكة قرابة ثلاث آلاف فارس، وعدد لا يحصى

من الراجلين الحاملين لقسي مصنوعة من خشب (الفُنوي) البرية، تمرق منها سهام مسمومة. وإنما يحارب هذا الملك الأعداء من جيرانه، ومن يمتنعون من أداء الخراج إليه. وإذا انتصر باع في تنبكتو كل من أسره في القتال حتى الأطفال.

لا يولد في هذه البلاد من الخيل غير بعض البراذين الصغيرة التي يستعملها التجار في أسفارهم، وأرباب الحاشية في تجوالهم في المدينة. أما الجياد فتأتي من بلاد البربر، تصل مع القافلة ثم تعرض بعد عشرة أيام أو اثني عشر يوماً على الملك ليأخذ منها العدد الذي يريده ويدفع فيه ثمناً مناسباً.

هذا الملك عدو لدود لليهود، لا يريد أن يقطن أحد منهم في المدينة. وإذا علم أن تاجراً من بلاد البربر يخالطهم أو يتجر معهم صادر أمواله. وفي تنبكتو عدد كثير من القضاة والفقهاء والأئمة، يدفع الملك إليهم جميعاً مرتباً حسناً، ويعظم الأدباء كثيراً. وتباع أيضاً مخطوطات كثيرة تأتي من بلاد البربر، وتدر أرباحاً تفوق أرباح سائر البضائع.

تستعمل قطع الذهب الخالص بدلاً من العملة المسكوكة، والودع لشراء الأشياء التافهة، وهو صدف مستورد من بلاد فارس، تساوي أربعمائة منه مثقالاً واحداً، وتساوي الأوقية الرومانية من الذهب عندهم ستة مثاقيل وثلثي مثقال.

وقد فُطر أهل تنبكتو على المرح، وتعودوا على التجول في المدينة بين الساعة العاشرة ليلاً والواحدة صباحاً، وهم يعزفون على آلات الطرب ويرقصون. ولأهل المدينة عدد كثير من الرقيق ذكوراً وإناثاً يعملون في خدمتهم. وكثيراً ما تتعرض تنبكتو لخطر الحريق، فقد احترق نصفها في ظرف خمس ساعات أثناء إقامتي بها في رحلتي الثانية. كانت الريح عاتية، وبدأ سكان النصف الآخر للمدينة ينقلون أثاثهم خشية أن يحترق النصف الآخر. ولا يحيط بتنبكتو أي بستان أو حديقة.

مدينة كبرة

كبرة مدينة كبيرة على شكل قرية مسورة، بعيدة بنحو اثني عشر ميلاً من تنبكتو على النيجر. ومنها تنقل البضائع في السفن إلى غينيا ومالي. ولا تختلف دورها وسكانها عن

الدور والسكان الذين ذكرناهم آنفاً. والسود بها من مختلف الأجناس، لأنها الميناء الذي يقصدونه بزوارقهم من مختلف الجهات .وقد أرسل إليها ملك تنبكتو نائباً عنه ليسهل على السكان الاستقبالات الملكية، ويعفيهم من عناء قطع مسافة اثني عشر ميلاً .كان هذا النائب عندما كنت في كبرة(= نحو ٩١٨=١٥١٢) أحد أقارب الملك، يدعى أبا بكر ويلقب بركما. وكان شديد السواد إلا أنه جليل القدر بذكائه وكثرة إنصافه.

والشيء الذي تتضرر منه هذه المدينة كثيراً هو الأمراض المنتشرة الناتجة عن حالة الأطعمة المتناولة فيها، كالسمك واللبن والزبد واللحم الممزوج بعضها ببعض. ونصف المواد الغذائية الموجودة بتنبكتو مستورد تقريباً من كبرة.

كاغو وممتلكاتها

كاغو مدينة عظيمة كسابقتها، أي غير مسورة، بعيدة بنحو أربعمائة ميل عن تنبكتو إلى جهة الجنوب الشرقي. دورها قبيحة على العموم، إلا أن البعض منها جميل جداً حيث يسكن الملك وحاشيته، وسكانها تجار أغنياء يتجولون دائماً في المنطقة بسلعهم. ويأتي إليها عدد لا يحصى من السود حاملين معهم كمية وافرة من الذهب ليشتروا بها أشياء مستوردة من بلاد البربر وأوربا، لكنهم لا يجدون أبداً ما يكفي منها لإنفاق ذهبهم، فيعودون دائماً إلى بلادهم بنصفه أو ثلثه. والمدينة متحضرة جداً بالنسبة لتنبكتو. الخبز واللحم فيها كثيران جداً، لكن الخمر والفواكه منعدمان.

حقاً إن البطيخ والخيار والقرع الجيد والأرز توجد فيها بكميات ضخمة، وآبار الماء العذب عديدة. وهناك ساحة يباع فيها أيام السوق عدد لا يحصى من الرقيق ذكوراً وإناثاً، تساوي الفتاة بنت خمس عشرة سنة نحو ستة مثاقيل، وكذلك الفتى تقريباً؛ ولا يساوي الأطفال الصغار إلا نصف هذا الثمن بالتقريب، وكذلك العبيد المسنون. وللملك قصر خاص معد لعدد عظيم من النساء والجواري والعبيد، والخصيان المكلفين بحراسة هؤلاء النساء. وله أيضاً حرس كثر مؤلف من الفرسان والراجلين المسلحين بالقسي. وبين الباب العام والباب الخاص ساحة كبيرة مسورة، في كل جانب من جوانبها رواق مخصص للاستقبالات. ورغم

أن الملك يفصل بنفسه في جميع قضاياه فإن له عدداً من المساعدين الموظفين، كالكتاب والمستشارين والقواد والأمناء.

إن موارد المملكة عظيمة لكن مصارفها أعظم، فالحصان الذي يساوي عشرة مثاقيل بأوربا يباع هناك بأربعين إلى خمسين مثقالاً، وأبسط قماش أوربي يباع بأربعة مثاقيل للكنة(=نحو مترين) والقماش الرفيع مثل "المنتشينو" و "المينمو" يباع بخمسة عشر مثقالا، أما القماش البندقي الرفيع كالقرمزي والبنفسجي والأزرق فيصل إلى ثلاثين مثقالاً. وأقبح سيف أوربي لا يزيد ثمنه على ثلث مثقال، يساوي هناك أربعة مثاقيل أو ثلاثة على الأقل، وكذلك المهاميز والأعنة، وجميع أدوات الخياطة والعطارة باهظة الأثمنة، تساوي "دسيمة"(= عشرة أرطال) الملح مثقالاً محلياً.

ويتكون باقي المملكة من مداشر وقرى يعيش فيها الفلاحون والرعاة مرتدين جلود النعام في الشتاء. أما في الصيف فيمشون عراة حفاة، غير أنهم يسترون عوراتهم بمئزر صغير، وينتعلون أحياناً بنعال جلد البعير. يعيش هؤلاء القوم في جهالة جهلاء، حتى لا تكاد تعثر في مسافة مائة ميل على واحد منهم يعرف القراءة والكتابة، لكن الملك يعاملهم بما يستحقون، فلا يترك لهم إلا ما يسدون به رمقهم لكثرة ما يثقل به كاهلهم من الضرائب.

مملكة كوبر

تقع هذه المملكة (=جوار النيجر)على بعد نحو ثلاثمائة ميل شرق مملكة كاغو(=الصواب ١٠٠٠كم) ويقطع المار بين هاتين المملكتين مفازة لا يوجد فيه إلا القليل من الماء لبعدها عن النيجر بنحو أربعين ميلاً. وتوجد هذه المملكة بين جبال شاهقة تضم عدداً كبيراً من قرى يسكنها رعاة الغنم والبقر، لأن فيها كمية وافرة من هذه الأنعام لكنها قصيرة القامة. والناس متحضرون جداً على العموم، فيهم عدد كبير من نساجي القماش، ولا سيما الإسكافين الذين يصنعون أحذية كالتي كان ينتعلها الرومان في القديم؛ وتصدر هذه الأحذية إلى تنبكتو وكاغو. ويكثر فيها العسل والارز، ونوع من الحب لم أره قط في إيطاليا، وأظن أنه موجود بإسبانيا. وعندما يفيض النيجر يغمر جميع السهول ويحيط بهذه

الأماكن المسكونة، فيزرعون حسب عادتهم الحب على الماء. ومن بين هذه الأماكن قرية عظيمة تضم ستة آلاف كانون، ويسكنها التجار الكوبريون أو الأجانب، كانت من قبل دار مقام الملك وحاشيته، ذلك الملك الذي أسره وقتله في أيامنا هذه أسكيا تنبكتو، كما أنه خصى أحفاده وجعلهم خدمة في قصره. فاستولى على هذه المملكة وعين والياً عليها من قبله وأثقل كاهل السكان بالضرائب، وكانوا قديماً يحققون أرباحاً تجارية طائلة، فأصبحوا الآن فقراء، ونقص عددهم أكثر من النصف؛ لأن أسكيا أخذ من البلاد عدداً كثيراً من الناس، احتفظ ببعضهم أسرى واستخدم البعض الآخر كعبيد له.

أغدس ومملكتها

أغدس مدينة مدرة مسورة بناها الملوك المحدثون في تخوم ليبيا. وهي مدينة السود التي تكاد تكون أبهى من مدن البيض باستثناء ولاتة. دورها متقنة البناء جداً على نمط دور بلاد البربر، لأن جميع سكانها تقريباً من التجار الأجانب. وأهل البلاد فيها قليلون جداً، يعملون صناعاً أو جنوداً لملك المدينة. ولكل تاجر عدد كبير من العبيد يخدمونه كحراس له في الطريق المؤدية من كانو إلى بورنو التي تعيث فيها فساداً قبائل لا تحصى ضاربة في الصحراء. وهو قوم يشبهون أفقر البوهيميين ويهاجموا التجار على الدوام ويفتكون بهم، لذلك يأخذ التجار معهم عبيداً مسلحين كما يجب بالرماح والسيوف والقسي، وبدؤوا اليوم يستعملون الأسلحة النارية(=طبقا لهذه الإشارة تكون الأسلحة النارية قد دخلت حدود بداية القرن السادس عشر الميلادي) وبذلك لا يتمكن هؤلاء اللصوص من عمل أي شيء ضدهم. وبمجرد ما يصل تاجر إلى المدينة يستعمل هؤلاء العبيد في مختلف الأشغال ليكسبوا معاشهم، ويحتفظ بعشرة أو اثني عشر منهم لخدمته الخاصة وحراسة بضائعه.

ينفق ملك أغدس على حرس مهم، ويعيش في قصر بوسط المدينة، لكن جيشه مؤلف من البدويين والصحراويين، لكونه في الحقيقة من هذه الشعوب الليبية، وقد يخلعه هؤلاء أحياناً ويعوضونه بأحد أقربائه، إلا أنهم لا يقتلونه. ويعين ملكاً لأغدس من يرضي أهل الصحراء أكثر من غيره. وفي باقي المملكة، أي سائر المنطقة الجنوبية، يقبل الناس على تربية

الماعز والبقر، ويعيشون في أكواخ من أغصان الأشجار ومن حصر يحملونها على الثيران عند ارتحالهم لينصبوها في مراعي ماشيتهم كما يفعل الأعراب. ويحصل الملك على مورد هام من الإتاوات التي تؤدى على البضائع الأجنبية ومنتجات البلاد، لكنه يؤدي نحو مائة وخمسين ألف مثقال كخراج لملك تنبكتو.

كانو

كانو إقليم كبير على بعد نحو خمسمائة ميل شرقي النيجر، يضم عدة شعوب يسكنون القرى ويعيشون من تربية الغنم والبقر أو من فلاحة الأراضي التي تنبت كثيراً من الحب والأرز والقطن. وفيه جبال خالية من السكان مكسوة بالغابات مليئة بالعيون. وفي هذه الغابات كثير من شجر البرتقال والليمون البري، ينتج فواكه لا يختلف مذاقها عن مذاق الشجر المغروس.

وفي وسط الإقليم مدينة استمد الإقليم منها اسمه، يحدق بها سور مبني بالركائز والطين، والدور مبنية بنفس المواد. والسكان صناع متحضرون وتجار أغنياء. كان ملكهم في القديم ذا شوكة قوية له حاشية هامة وعدة فرسان، بحيث إنه أخضع لسلطته ملك زكزك وملك كاتسينا، إلا أن أسكيا ملك تنبكتو تظاهر بإنجاد هذين الملكين وأمر بقتلهما غيلة واستولى على مملكتهما. ثم بعد ثلاث سنوات أعلن الحرب على ملك كانو وأرغمه بعد حصار طويل على أن يتزوج إحدى بناته ويؤدي له ثلث مورده كل سنة، ويترك في المملكة عدداً من الأمناء والجباة لاستيفاء حقه من الضرائب.

كاتسينا ومملكتها

كاتسينا مملكة مجاورة للسابقة من جهة الشرق مشتملة على عدة جبال، وأراضيها وعرة لكنها جيدة للشعير والدخن. والسكان شديدو سواد البشرة، أنوفهم كبيرة شنيعة، وشفاههم غليظة. وجميع الأماكن المسكونة في هذه البلاد قرى من أخصاص قبيحة المنظر، لا يتعدى سكان أي واحد منها ثلاثمائة كانون، وهنا يجتمع الفقر والدناءة. وكان لهؤلاء القوم في القديم ملك يحكمهم، لكن أسكيا قتله وأفنى نصف الشعب، وتمكن من المملكة كما قلناه آنفاً.

زكزك ومملكتها

هذه بلاد تتاخم كانو من جهة الجنوب الشرقي، لكنها تقع على بعد نحو خمسين ميلاً من كاتسينا. سكانها أغنياء يتعاطون التجارة في المنطقة كلها. قسم من هذا الإقليم شديد الحر، والقسم الآخر شديد البرد إلى حد أن السكان لا يطيقون تحمل الشتاء. فيتخذون في أرض أكواخهم مواقد كبيرة يوقدون فيها كثيراً من الجمر يضعونها تحت أسرتهم المرتفعة فينامون عليها. ومع ذلك فإن الأرض تنتج الثمار، وتكثر فيها المياه والحبوب. وتشبه الدور والقرى مثيلاتها المذكورة آنفاً. وكان في هذه البلاد ملك مستقل إلا أن أسكيا قتله واستولى على ملكه هو الآخر.

زنفرى

هذه ناحية متاخمة لسابقتها من جهة الشرق، تسكنها عدة شعوب حقيرة بدائية، ويكثر في البلاد الحب والأرز والدخن والقطن. وأهل زنفرى طوال القامة لكنهم سود البشرة لدرجة لا توصف، وجوههم وحشية طويلة، وهم إلى البهائم أقرب منهم إلى الإنسان، وقد سم أسكيا ملكهم، وأباد قسماً منهم.

مملكة وانكرة

وانكرة إقليم متاخم للإقليم السابق من جهة الجنوب الشرقي، يسكنه شعب كبير يحكمه ملك يستطيع أن يعبئ سبعة آلاف رجل مسلح بالقسي وحوالي خمسمائة فارس من الغرباء، ويستخرج مورداً كبيراً من رسوم السلع والضرائب التجارية. وجميع الأماكن المسكونة قرى من أخصاص، باستثناء واحد هو أكبر وأجمل من الأخرى. والسكان أغنياء جداً لأنهم يذهبون بسلعهم إلى البلدان النائية، ويجاورون من الجنوب البلاد التي يوجد فيها الذهب بكمية وافرة. أما الآن فلا يستطيعون القيام بتجارة خارجية لوجود عدوين قويين شرسين، هما أسكيا في الغرب، وملك بورنو في الشرق. ولما كنت في بورنو حشد ملكها إبراهيم جيشه كله لمهاجمة ملك وانكرة، لكنه لما اقترب من هذه المملكة علم أن عمر أمير كاوكا يستعد للزحف على بورنو، فعدل حيناً عن مشروعه وقفل راجعاً إلى

مملكته. وكان ذلك من حسن حظ ملك ونكرى. ويضطر تجار ونكرى عندما يتوجهون إلى بلاد الذهب إلى اجتياز جبال عالية وعرة لا تستطيع الدواب أن تمر بها. فيتخذون الطريقة الآتية، وهي أن يحمل الخدم على رؤوسهم البضائع وما يحتاجون إليه في قشور قرع عريضة عميقة، ويستطيع كل خادم أن يقطع عشرة أميال وأكثر حاملاً على رأسه مائة رطل. ورأيت منهم من يقطع هذه المسافة مرتين في نفس اليوم، ولم يبق على رأسهم شعر بسبب الوزن الثقيل الذي تعودوا على حمله، وينقلون زيادة على البضائع المؤن لسادتهم ولجميع العبيد المسلحين لحراسة التجار.

بورنو ومملكته

بورنو إقليم كبير (=حاليا في نيجيريا) يتاخم ونكرى غرباً، ويمتد شرقاً على مسافة نحو خمسمائة ميل، ويبعد بنحو مائة وخمسين ميلاً عن منبع النيجر؛ كما يتاخم جنوباً صحراء سات وشمالاً الفلوات المقابلة لبرقة. ولهذا الإقليم مواقع متنوعة، فبعض النواحي جبلية، والأخرى مؤلفة من سهول حيث توجد قرى عديدة يسكنها قوم متحضرون وتجار أجانب من السود والبيض. أما الملك فيسكن أعظم هذه القرى مع جنوده.

يسكن الجبل رعاة يرعون الماعز والبقر. ويزرع فيه أيضاً الدخن وبعض الحبوب الأخرى المجهولة عندنا. يسير أهل البلاد عراة في الصيف بمآزر من جلد، ويتدثرون في الشتاء بجلود الغنم، ويفترشونها كذلك. وهم بشر لا ديانة لهم لا نصرانية ولا يهودية ولا إسلامية، بل لا إيمان لهم كالبهائم، يشتركون في النساء والأولاد. وحسب ما سمعته من أحد التجار الذي كان يعيش في هذه البلاد ويفهم لغتهم، ليس لهم أسماء خاصة كما لغيرهم. فإذا كان شخص طويل القامة دعي بالطويل، وإذا كان قصير القامة دعي بالقصير، وإذا كان منحرف البصر دعي بالأحول، وهكذا دواليك حسب الأعراض والخاصيات.

يحكم هذا الإقليم أمير شديد البأس من برداوة الشعب الليبي، له زهاء ثلاثة آلاف فارس وما يشاء من الراجلين، لأن الشعب كله في خدمته، يقوده حيثما شاء، ولا يفرض عليه أي خراج ما عدا عشر ما تنتجه الأرض. ولا مورد لهذا الملك غير ما يحصل عليه من نهب وقتل

الأعداء من جيرانه القاطنين فيما وراء قفر ساو، وعددهم لا يحصى. وكانوا قديماً يقطعون هذا القفر مشياً على الأقدام ويجتاحون مملكة بورنو بأسرها، لكن الملك الحالي لهذه البلاد جاء بتجار من بلاد البربر ليأتوه بخيل يستبدلونها بعبيد، يأخذون مقابل كل فرس خمسة عشر أو عشرين عبداً، فكان يشن الغارة على العدو بهذه الخيل، ويترك التجار ينتظرون إلى عودته. وربما مكثوا في انتظاره شهرين أو ثلاثة أشهر، وهم على نفقة في هذه المدن وعند عودته يجلب معه أحيانا من العبيد ما يكفي لأداء المبلغ الواجب للتجار، وأحياناً يضطر التجار إلى انتظار السنة الموالية لأن الملك لم يكن له من العبيد ما يفي بالثمن، فهذه الغارة لا يمكن القيام بها دون خطر إلا مرة في السنة.

ولما ذهبت إلى هذه المملكة وجدت فيها عدة تجار مستائين راغبين في ترك هذه التجارة وعدم الرجوع إلى هذه البلاد أبداً لأنهم كانوا ينتظرون قبض الثمن منذ سنة. ورغم ذلك فإن الملك يتباهى بثروته وبالخزينة العظيمة التي يملكها. وقد رأيت كل ما يجهز به خيله من ركابات ومهامز وأعنّة وشكيمات كلها من الذهب، وكذلك القصع والأواني التي يستعملها للأكل والشرب معظمها كذلك من الذهب. والسلاسل، حتى سلاسل كلاب الملك، كلها من الذهب الخالص، ومع ذلك فإن هذا الرجل -كما قلنا- شديد البخل يفضل دفع الثمن رقيقاً على دفعه ذهبا.

يسيطر على ممالك عديدة، لكن البيض يسمون جميع البلدان التي يحكمها بورنو، وذلك لقلة الخبرة الكافية التي تمكن من معرفة خاصة بهذه البلاد، وذلك ما حدث لي بالأخص، لأنني لم أقض في هذا الإقليم أكثر من شهر تقريباً.

كاوكا ومملكتها

يتاخم هذا الإقليم بورنو غرباً، ويمتد شرقاً إلى حدود مملكة نوبيا الواقعة على النيل، وينتهي جنوبا بصحراء تتاخم أيضاً منعرجاً للنيل، ويسير شمالا إلى صحراء سرت وتخوم مصر، ثم يمتد من الغرب إلى الشرق على طول نحو خمسمائة ميل، وعلى نفس المسافة عرضاً بالتقريب.

لا توجد هناك حضارة ولا معرفة بالآداب ولا حكومة، والسكان أغنياء لا سيما الجبليين منهم، يسيرون حفاة في الصيف ولا يرتدون أي لباس غير شبه سروال من الجلد يستر عورتهم. دورهم أكواخ من أغصان الشجر، كثيراً ما تحترق عند هبوب أدنى ريح خفيفة، ولهم عدد وافر من الغنم والبقر يقومون على تربيتها.

وقد عاش هؤلاء القوم أحراراً مدة طويلة، إلا أن عبداً زنجياً من هذه البلاد سلبهم حريتهم منذ مائة سنة، كان قد جاء به سيده إلى هناك، وهو أحد التجار الأغنياء. فلما وجد العبد نفسه قريباً من منزله قتل سيده بينما كان نائماً مطمئناً، واستولى على أمواله المؤلفة من أحمال عدة جمال وثياب وأسلحة، وعاد إلى بيته وقسم كل ذلك بين أهله وأصدقائه. وبعد أن اشترى بعض الخيل من تجار بيض، أخذ يقوم بشن الغارات على بلد أعدائه، وكان ينتصر عليهم دائماً لأن رجاله كانوا مسلحين بأسلحة حديثة، بينما لم يكن لأعدائه غير قسي رديئة من الخشب. فجمع عبيداً كثيرين استبدلهم بخيل مجلوبة من مصر، وتضاعف عدد جنوده. فأطاعوه جميعاً وعدوه رئيساً وأميراً لهم.

وخلفه ابنه بعد موته، ولم يكن أقل منه شجاعة وإقداماً. ثم جاء بعده أحد إخوته المسمى موسى، وخلفه أحد أحفاده المدعو عمر، وهو الأمير الحالي، فوسع كثيراً رقعة أملاكه، ونال صداقة سلطان القاهرة ورعايته بفضل هداياه ومجاملاته، وحصل منه على الأسلحة والأقمشة والخيل التي كان يدفع فيها ضعف ثمنها متظاهراً بالسخاء، حتى جعل تجار مصر لا يقصدون غير بلاطه. ويفد عليه عدد كثير من فقراء القاهرة حاملين بعض الهدايا الجميلة النادرة فيدفع إليهم ضعف ثمنها، وكان لا يخرج من عنده أحد إلا وهو به مغتبط جذلان؛ ويعامل المثقفين، لاسيما آل البيت، بكثير من الاعتبار والإعزاز. وكنت حاضراً عندما وفد عليه رجل من دمياط وأهدى إليه فرساً في غاية الجمال وسيفاً تركيا، وزردا وبندقية، وبعض المرايا الجميلة، وسبحات من المرجان وبعض السكاكين، يقدر ثمنها كلها في القاهرة بخمسين مثقالاً. فأعطاه الملك في مقابل ذلك خمسة عبيد وخمسة جمال وخمسمائة مثقال من سكة البلاد، بالإضافة إلى نحو مائة من أنياب الفيل العظيمة.

النوبة ومملكتها

تتاخم مملكة النوبة (=مملكة مسيحية في أعالي مصر) المملكة السابقة، أي مفازاتها نحو الغرب. وتمتد على طول النيل متاخمة قفر القرعان جنوباً وأراضي مصر شمالاً. لا يمكن الذهاب في السفن من النوبة إلى مصر، لأن ماء النيل ينتشر في السهول وهو قليل العمق بحيث يعبره الناس والبهائم خوضاً بالأقدام.

في هذه المملكة مدينة رئيسية تدعى دمقلة(= دنقلة) وهي كثيرة السكان، يبلغ عدد كوانينها قرابة عشرة آلاف. لكن دورها كلها قبيحة مبنية بأعمدة طويلة وبالطين. والسكان أغنياء متحضرون، لأنهم يزاولون في القاهرة وسائر مدن مصر تجارة القماش والسلاح وغير ذلك من البضائع المختلفة. وفي باقي المملكة قرى على ضفتي النيل يسكنها الفلاحون. وتكثر الحبوب في بلاد النوبة كلها، وكذلك السكر، إلا أنهم لا يحسنون طبخة فيعود أسود كريهاً. ويكثر في دمقلة قطاط الزباد وخشب سانغو، وكذلك العاج، لأنهم يصطادون كثيراً من الفيلة. ويوجد بها أيضاً كثير من السم الزعاف، حتى إن مقدار حبة واحدة منه إذا اقتسم على عشرة أشخاص قتلهم في ظرف ربع ساعة، وإذا تناول الإنسان حبة واحدة مات بعدما ينطق بالشهادة. ويساوي هذا السم مائة مثقال للأوقية، ولا يباع للأجانب إلا بالضامن، وحتى باليمين أنهم لن يستعملوه في النوبة. ويؤدي المشتري إلى الملك مبلغاً يعادل ثمن السم، لذلك لا يستطيع أحد بيعه سراً خشية عقوبة الإعدام.

وملك النوبة في حرب دائمة، تارة ضد القرعان الذين هم من جنس شبيه بجنس البوهيميين الذين يعيشون عيشة ضنكاً في الصحراء ولا يفهم أحد لغتهم، وتارة ضد نوع آخر من قوم يعيشون أيضاً في الصحراء لكن في القسم الشرقي مما وراء النيل. ويمتد القفر حتى البحر الأحمر نحو تخوم السواكن. ويتكلم هؤلاء القوم لغة أظن أنها ممزوجة بالكلدانية وقريبة جداً من اللغة التي يتكلم بها في السواكن وأثيوبيا العليا حيث يوجد مقام الراهب يوحنا. وهذا الجنس يدعى البجة، وهم رعاع يرتدون لباساً رديئاً، وفقراء يعيشون من ألبان إبلهم ولحومها، ومن الصيد الوحشي. ويتقاضون أحياناً بعض الإعانات

المالية من أمير السواكن أو أمير دمقلة.

وكان لهم في القديم على البحر الأحمر مدينة عظيمة اسمها زبيد لها ميناء يقابل مباشرة ميناء جدة الواقعة على بعد أربعين ميلاً من مكة. لكن هؤلاء القوم منذ مائة سنة مضت نهبوا قافلة كانت تحمل سلعاً ومؤناً لمكة، فاغتاظ ملك مصر وبعث في البحر الأحمر أسطولاً استولى على مدينة زبيد وميناها ودمرهما. وكانت المدينة وميناؤها تعطيانه دخلاً قدره مائتا ألف (دينار) أشرفي. ففر البجة والتجأوا إلى دمقلة والسواكن حيث حصلوا على بعض معاشهم؛ إلا أن ملك السواكن بعد ذلك هزمهم هزيمة شنعاء، بمعونة أتراك مسلحين بالبنادق والقسي، بحيث إنه قتل من هؤلاء الرعاع الذين كانوا يعيشون عراة أكثر من أربعة آلاف في معركة واحدة. وسيق ألف منهم إلى السواكن حيث قتلهم النساء والأطفال.

هذا كل ما استطعت أن أكتبه ملخصاً عن بلاد السودان، ولا يمكن إعطاء تفاصيل أكثر عنها، لأن كل واحدة من هذه الممالك الخمس عشرة تشبه الأخرى من حيث طبيعة البلاد والحضارة والعادات وأسلوب العيش، ويحكمها أربعة ملوك.)

ينتهي الوصف الجغرافي والتاريخي والبشري لإفريقية ليحلّ مكانه الارتحال المباشر إليها، وعلى نقيض الرحلات إلى الشرق والشمال، تلاحظ ندرة الارتحال إلى العمق الإفريقي، ولعلّ رحلة سليّم الأسواني تعد من الرحلات المبكرة إلى تلك الأصقاع، ومايؤسف له أن النص مازال مفقودا، وفيما يلي النبذ المتبقية منه كما وردت في (الخطط المقريزية) للمقريزي.

(75)

رحلة سُلَيِّم الأسواني إلى بلاد النوبة وأعالي النيل

(قام بالرحلة مبعوثا من جوهر الصقلّي

في نحو ٣٥١-٣٥٥هجري=٩٦٩-٩٧٣ميلادي)

أوردها المقريزي (توفي ٨٤٥هجري=١٤٤١ميلادي) في كتاب(الخطط المقريزية)

(قال عبد الله بن أحمد بن سلّيم الأسواني في كتاب" أخبار النوبة والمقرة وعلوة والبجة والنيل" : وأول بلد النوبة قرية تعرف بالقصر من أسوان إليها خمسة أميال وآخر حصن للمسلمين جزيرة تعرف ببلاق بينها وبين قرية النوبة ميل، وهو ساحل بلد النوبة ،ومن أسوان إلى هذا الموضع جنادل كثيرة الحجر لا تسلكها المراكب إلا بالحيلة ودلالة من يخبر بذلك من الصيادين الذين يصيدون هناك لأن هذه الجنادل متقطعة وشعاب معترضة في النيل، ولانصبابه فيها خرير عظيم ودوي يسمع من بعد ،وبهذه القرية مساحة وباب إلى بلد النوبة ،ومنها إلى الجنادل الأولى من بلد النوبة عشر مراحل وهي الناحية التي يتصرف فيها المسلمون ولهم فيما قرب أملاك ويتجرون في أعلاها ،وفيها جماعة من المسلمين قاطنون لا يفصح أحدهم بالعربية ،وشجرها كثير وهي ناحية ضيقة شظفة كثيرة الجبال وما تخرج عن النيل وقراها متسطرة على شاطئه وشجرها النخل والمقل وأعلاها أوسع من أدناها، وفي أعلاها الكروم ،والنيل لا يروي مزارعها لارتفاع أرضها، وزرعها الفدان والفدانان والثلاثة على أعناق البقر بالدواليب والقمح عندهم قليل والشعير أكثر والسلت ويعتقبون الأرض لضيقها فيزرعونها في الصيف بعد تطريتها بالزبل والتراب الدخن والذرة والجاورس والسمسم واللوبيا.

وفي هذه الناحية نجراش مدينة المريس، وقلعة أبريم، وقلعة أخرى دونها وبها مينا تعرف بأدواء ينسب إليها لقمان الحكيم وذو النون ،وبها بربا عجيب ،ولهذه الناحية وال من قبل عظيم النوبة يعرف بصاحب الجبل من أجل ولاتهم لقربه من أرض الإسلام ،ومن يخرج إلى

بلد النوبة من المسلمين فمعاملته معه في تجارة أو هدية إليه أو إلى مولاه يقبل الجميع ويكافئ عليه بالرقيق ولا يطلق لأحد الصعود إلى مولاه لا لمسلم ولا لغيره.

وأول الجنادل من بلد النوبة قرية تعرف بتقوى هي ساحل وإليها تنتهي مراكب النوبة المصعدة من القصر أول بلدهم ولا تتجاوزها المراكب ولا يطلق لأحد من المسلمين ولا من غيرهم الصعود منها إلا بإذن من صاحب جبلهم، ومنها إلى المقس على ست مراحل ، وهي جنادل كلها وشرّ ناحية رأيتها لهم لصعوبتها وضيقها ومشقة مسالكها، أما بحرها فجنادل وجبال معترضة فيه حتى إن النيل ينصب من شعاب ويضيق في مواضع حتى يكون سعة ما بين الجانبين خمسين ذراعاً، وبرّها مجاوب ضيقة وجبال شاهقة وطرقات ضيقة حتى لا يمكن الراكب أن يصعد منها، والراجل الضعيف يعجز عن سلوكها ورمال في غربها وشرقها، وهذه الجبال حصنهم وإليها يفزع أهل الناحية التي قبلها المتصلة بأرض الإسلام وفي جزائرها نخل يسير وزرع حقير وأكثر أكلهم السمك ،ويدهنون بشحمه وهي من أرض مريس.

وصاحب الجبل واليهم والمسلحة بالمقس إلا على صاحبها من قبل كبيرهم شديد الضبط لها حتى إن عظيمهم إذا صار بها وقف به المسلحي وأوهم أنه يفتش عليه حتى يجد الطريق إلى ولده ووزيره فمن دونهما ولا يجوزها دينار ولا درهم إذ كانوا لا يتبايعون بذلك إلا دون الجنادل مع المسلمين وما فوق ذلك لا بيع بينهم ولا شراء وإنما هي معاوضة بالرقيق والمواشي والجبال والحديد والحبوب ولا يطلق لأحد أن يجوزها إلا بإذن الملك ومن خالف كان جزاؤه القتل كائناً من كان وبهذا الاحتياط تنكتم أخبارهم حتى إن العسكر منهم يهجم على البلد إلى البادية وغيرهم فلا يعلمون به والسنباد الذي يخرط به الجوهر يخرج من النيل في هذه المواضع يغطس عليه فيوجد جسمه بارداً مخالفاً للحجارة فإذا أشكل عليه نفخ فيه بالفم فيعرق ،ومن هذه المسلحة إلى قرية تعرف بساي جنادل أيضاً وهي آخر كرسيهم ولهم فيها أسقف وفيها بربا، ثم ناحية سقلودا وتفسيرها السبع ولاة وهي أشبه الأرض بالأرض المتاخمة لأرض الإسلام في السعة والضيق في مواضع والنخل والكرم والزرع وشجر المقل ،

وفيها شيء من شجر القطن، ويعمل منه ثياب وخشة ،وبها شجر الزيتون.

وواليها من قبل كبيرهم وتحت يده ولاة يتصرفون وفيها قلعة تعرف بأصطنون وهي أول الجنادل الثلاثة وهي أشد الجنادل صعوبة لأن فيها جبلا معترضاً من الشرق إلى الغرب في النيل والماء ينصب من ثلاث أبواب وربما رجع إلى بابين عند انحساره شديد الخرير عجيب المنظر يتحدر الماء عليه من علو الجبل، وقبليه فرش حجارة في النيل نحو ثلاثة برد إلى قرية تعرف بيستو وهي آخر قرى مريس و أول بلد مقره. ومن هذا الموضوع إلى أحد المسلمين لسانهم مريس وهي آخر عمل متملكهم ،ثم ناحية بقون وتفسيرها العجب وهي عند اسمها لحسنها.

وما رأيت على النيل أوسع منها وقدرت أن سعة النيل فيها من الشرق إلى الغرب مسيرة خمس مراحل، الجزائر تقطعه والأنهار منه تجري بينها على أرض منخفضة، وقرى متصلة وعمارة حسنة بأبرجة حمام ومواش وأنعام وأكثر ميرة مدينتهم منها وطيورها النقيط والنوبي والببغا وغير ذلك من الطيور الحسان ،وأكثر نزهة كبيرهم في هذه الناحية.

قال: وكنت معه في بعض الأوقات فكان سيرنا في ظل شجر من الحافتين في الخلجان الضيقة، وقيل إن التمساح لا يضر هناك ،ورأيتهم يعبرون أكثر هذه الأنهار سباحة، ثم "سفدبقل" وهي ناحية ضيقة شبيهة بأول بلادهم إلا أن فيها جزائر حسانا وفيها دون المرحلتين نحو ثلاثين قرية بالأبنية الحسان والكنائس والأديار والنخل الكثير والكروم والبساتين والزرع ومروج كبار فيها إبل وجمال صهب مؤبلة للنتاج وكبيرهم يكثر الدخول إليها لأن طرفها القبلي يحاذي دنقلة مدينتهم. ومن مدينة دنقلة دار المملكة إلى أسوان خمسون مرحلة وذكر صفتها ثم قال إنهم يسقفون مجالسهم بخشب السنط وبخشب الساج الذي يأتي به النيل في وقت الزيادة سقالات منحوتة لا يدرى من أين تأتي.

ولقد رأيت على بعضها علامة غريبة ومسافة ما بين دنقلة إلى أول بلد علوة أكثر مما بينها وبين أسوان وفي ذلك من القرى والضياع والجزائر والمواشي والنخل والشجر والمقل والزرع والكرم أضعاف ما في الجانب الذي يلي أرض الإسلام، وفي هذه الأماكن جزائر عظام مسيرة

أيام فيها الجبال والوحش والسباع ومفاوز يخاف فيها العطش والنيل ينعطف من هذه النواحي إلى مطلع الشمس وإلى مغربها مسيرة أيام حتى يصير المصعد كالمنحدر، وهي الناحية التي تبلغ العطوف من النيل إلى المعدن المعروف بالشلة، وهو بلد يعرف بشنقير ، ومنه خرج العمري وتغلب على هذه الناحية إلى أن كان من أمره ما كان .

وفرس البحر يكثر في هذه المواضع ومن هذا الموضع طرق إلى سواكن وباصع ودهلك وجزائر البحر ومنها عبر من نجا من بني أمية عند هربهم إلى النوبة وفها خلق من البجة يعرفون بالرنافج انتقلوا إلى النوبة قديماً وقطنوا هناك ،وهم على حدتهم في الرعي واللغة لا يخالطون النوبة ولا يسكنون قراهم وعليهم وال من قبل النوبة.

اعلم أن النوبة والمقرة جنسان بلسانين كلاهما على النيل فالنوبة هم المريس المجاورون لأرض الإسلام، وبين أول بلدهم وبن أسوان خمسة أميال ويقال إن سلها جد النوبة، ومقرى جد المقرة من اليمن ،وقيل النوبة ومقرى من حمير. وأكثر أهل الأنساب على أنهم جميعا من ولد حام بن نوح ،وكان بين النوبة والمقرة حروب قبل النصرانية ،وأول أرض المقرة قرية تعرف بنافة على مرحلة من أسوان ومدينة ملكهم يقال لها نجراش على أقل من عشر مراحل من أسوان، ويقال إن موسى صلوات الله عليه غزاهم قبل مبعثه في أيام فرعون فأخرب نافة ،وكانوا صائبة يعبدون الكواكب وينصبون التماثيل لها ثم تنصروا جمعياً النوبة والمقرة ومدينة دنقلة هي دار مملكتهم وأول بلاد علوة قرى في الشرق على شاطئ النيل تعرف بالأبواب ،ولهذه الناحية وال من قبل صاحب علوة يعرف بالرحراح.

والنيل يتشعب من هذه الناحية على سبعة أنهار فمنها نهر يأتي من ناحية المشرق كدر الماء يجف في الصيف حتى يسكن بطنه فإذا كان وقت زيادة النيل نبع فيه الماء وزادت البرك التي فيه ،وأقبل المطر والسيول في سائر البلد فوقعت الزيادة في النيل، وقيل إن آخر هذا النهر عين عظيمة تأتي من جبل.

قال مؤرخ النوبة، وحدثني سميون صاحب عهد بلد علوة أنه يوجد في بطن هذا النهر حوت لا قشر له ليس هو من جنس ما في النيل يحفر عليه قامة وأكثر حتى يخرج، وهو

كبير وعليه جنس مولد بين العلوة والبجة يقال لهم الديجيون وجنس يقال لهم بازة يأتي من عندهم طير يعرف بحمام بازين، وبعد هؤلاء أول بلاد الحبشة ثم النيل الأبيض، وهو نهر يأتي من ناحية الغرب شديد البياض مثل اللبن.

قال: وقد سألت من طرق بلاد السودان من المغاربة عن النيل الذين عندهم وعن لونه فذكر أنه يخرج من جبال الرمل أو جبل الرمل وأنه يجتمع في بلد السودان في برك عظام ثم ينصب إلى ما لا يعرف، وأنه ليس بأبيض فإما أن يكون اكتسب ذلك اللون بما يمر عليه أو من نهر آخر ينصب إليه وعليه أجناس من جانبيه ثم النيل الأخضر ،وهو نهر يأتي من القبلة مما يلي الشرق شديد الخضرة صافي اللون جداً يرى ما في ثغره من السمك وطعمه مخالف لطعم النيل يعطش الشارب منه بسرعة وحيتان الجميع واحدة غير أن الطعم مختلف ويأتي فيه وقت الزيادة خشب الساج والبقم والغثاء وخشب له رائحة كرائحة اللبان وخشب غليظ ينحت ويعمل منه مقدام وعلى شاطئه ينبت هذا الخشب أيضاً.

وقيل إنه وجد فيه عود البخور .قال وقد رأيت على بعض سقالات الساج المنحوتة التي تأتي فيه وقت الزيادة علامة غريبة ويجتمع النهران الأبيض والأخضر عند مدينة متملك بلد علوة ويبقيان على ألوانهما قريباً من مرحلة ثم يختلطان بعد ذلك وبينهما أمواج كبار عظيمة بتلاطمهما. قال :وأخبرني من نقل النيل الأبيض وصبه في النيل الأخضر فبقي فيه مثل اللبن ساعة قبل أن يختلطا وبين هذين النهرين جزيرة لا يعرف لها غاية وكذلك لا يعرف لهذين النهرين نهاية ،فأولهما يعرف عرضه ثم يتسع فيصير مسافة شهر ثم لا تدرك سعتهما لخوف من يسكنهما بعضهم من بعض لأن فيهما أجناساً كثيرة وخلقاً عظيماً.

قال : وبلغني إن بعض متملكي بلد علوة سار فيها يريد أقصاها فلم يأت عليه بعد سنين وإن في طرفها القبلي جنساً يسكنون ودوابهم في بيوت تحت الأرض مثل السراديب بالنهار من شدة حر الشمس ويسرحون في الليل وفيهم قوم عراة والأنهار الأربعة الباقية تأتي أيضا من القبلة مما يلي الشرق أيضا في وقت واحد ولا يعرف لها نهاية أيضا وهي دون النهرين الأبيض والأخضر في العرض وكثرة الخلجان والجزائر وجميع الأنهار الأربعة تنصب في

الأخضر وكذلك الأول الذي قدمت ذكره ثم يجتمع مع الأبيض وكلها مسكونة عامرة مسلوك فيها بالسفن وغيرها وأحد هذه الأربعة يأتي مرة من بلاد الحبشة.

قال: ولقد أكثرت السؤال عنها واستكشفتها من قوم عن قوم فما وجدت مخبرا يقول إنه وقف على نهاية جميع هذه الأنهار والذي انتهى إليه علم من عرفني عن آخرين إلى خراب وأنه يأتي في وقت الزيادة في هذه الأنهار آلة مراكب وأبواب وغير ذلك ،فيدل على عمارة بعد الخراب، فأما الزيادة فيجمعون أنها من الأمطار مع مادة تأتي من ذاتها والدليل على ذلك النهر الذي يجف ويسكن بطنه ثم ينبع وقت الزيادة ومن عجائبه أن زيادته في أنهار مجتمعة وسائر النواحي والبلدان في مصر وما يليها والصعيد وأسوان وبلد النوبة وعلوة وما وراء ذلك في زمان واحد، وأكثر ما وقف عليه من هذه الزيادة أنه ربما وجدت مثلا بأسوان ولا توجد بقوص ،ثم تأتي بعد فإذا كثرت الأمطار عندهم واتصلت السيول علم أنها سنة ري وإذا قصرت الأمطار علم أنها سنة ظمأ.

قال: وأما من طرق بلاد الزنج فإنهم أخبروني عن مسيرتهم في بحر الصين إلى بلاد الزنج بالريح الشمالي ساحلين للجانب الشرقي من جزيرة مصر حتى ينتهوا إلى موضع يعرف برأس حفري ،وهو عندهم آخر جزيرة مصر فينظرون كوكبا يهتدون به فيقصدون الغرب ثم يعودون إلى البحري وتصير الشمال في وجوههم حتى يأتوا إلى قبيلة من بلاد الزنج ،وهي مدينة ملكهم ونصير قبلتهم للصلاة إلى جدة .

قال: وبعض الأنهار الأربعة يأتي من بلاد الزنج لأنه يأتي فيه الخشب الزنجي وسويه مدينة العلوي شرقي الجزيرة الكبرى التي بين البحرين الأبيض والأخضر في الطرف الشمالي منها عند مجتمعهما وشرقيها النهر الذي يجف ويسكن بطنه، وفيها أبنية حسان ودور واسعة وكنائس كثيرة الذهب وبساتين ولها رباط فيه جماعة من المسلمين ومتملك علوة أكثر مالا من متملك المقرة ، وأعظم جيشا وعنده من الخيل ما ليس عند المقري ،وبلده أخصب وأوسع والنخل والكرم عندهم يسير وأكثر حبوبهم الذرة البيضاء التي مثل الأرز منها خبزهم ومزرهم ، واللحم عندهم كثير لكثرة المواشي والمروج الواسعة العظيمة السعة حتى إنه لا يوصل إلى الجبل إلا في أيام ،وعندهم خيل عتاق وجمال صهب عراب ،ودينهم

النصرانية يعاقبة وأساقفتهم من قبل صاحب الإسكندرية كالنوبة، وكتبهم بالرومية يفسرونها بلسانهم، وهم أقل فهما من النوبة وملكهم يسترق من شاء من رعيته بجرم وبغير جرم ولا ينكرون ذلك عليه بل يسجدون له ولا يعصون أمره على المكروه الواقع بهم وينادون الملك يعيش، فليكن أمره وهو يتتوج بالذهب والذهب كثير في بلده.

ومما في بلده من العجائب أن بالجزيرة الكبرى التي بين البحرين جنسا يعرف بالكرنينا لهم أرض واسعة مزروعة من النيل والمطر فإذا كان وقت الزرع خرج كل واحد منهم بما عنده من البذر واختط على مقدار ما معه وزرع في أربعة أركان الخطة يسيرا وجعل البذر في وسط الخطة وشيئاً من المزر وانصرف عنه فإذا أصبح وجد ما اختط قد زرع وشرب المزر فإذا كان وقت الحصاد حصد يسيرا منه ووضعه في موضع أراده ومعه مزر وينصرف فيجد الزرع قد حصد بأسره وجرن فإذا أراد دراسه وتذريته فعل به كذلك وربما أراد أحدهم أن ينقي زرعه من الحشيش فيلفظ: يقلع شيء من الزرع فيصبح وقد قلع جميع الزرع ،وهذه الناحية التي فيها ما ذكرته بلدان واسعة مسيرة شهرين في شهرين يزرع جميعها في وقت واحد وميرة بلد علوة ومتملكهم من هذه الناحية فيوجهون المراكب فتوسق وربما وقع بينهم حرب.

قال: وهذه الحكاية صحيحة معروفة مشهورة عند جميع النوبة والعلوة وكل من يطرق ذلك البلد من تجار المسلمين لا يشكون فيه ولا يرتابون به ولولا أن اشتهاره وانتشاره مما لا يجوز التواطؤ على مثله لما ذكرت شيئا منه لشناعته ،فأما أهل الناحية فيزعمون أن الجن تفعل ذلك وأنها تظهر لبعضهم وتخدمهم بحجارة ينطاعون لهم بها وتعمل لهم عجائب وأن السحاب يطيعهم.

قال: ومن عجائب ما حدثني به متملك المقرة للنوبة أنهم يمطرون في الجبال ويلتقطون منه للوقت سمكا على وجه الأرض، وسألتهم عن جنسه فذكروا أنه صغير القدر بأذناب حمر، قال: وقد رأيت جماعة وأجناسا ممن تقدم ذكر أكثرهم يعترفون بالباري سبحانه وتعالى ويتقربون إليه بالشمس والقمر والكواكب، ومنهم من لا يعرف الباري، ويعبد الشمس والنار، ومنهم من يعبد كل ما استحسنه من شجرة أو بهيمة، وذكر أنه رأى رجلاً في مجلس عظيم المقرة سأله عن بلده فقال: مسافته إلى النيل ثلاثة أهلّه، وسأله عن دينه

فقال: ربي وربك الله ورب الملك ورب الناس كلهم واحد ،وأنه قال له :فأين يكون؟ قال في السماء وحده ،وقال: إنه إذا أبطأ عنهم المطر أو أصابهم الوباء أو وقع بدوابهم آفة صعدوا الجبل، ودعوا الله فيجابون للوقت، وتقضى حاجاتهم قبل أن ينزلوا. وسأله: هل أرسل فيكم رسول؟ قال :لا، فذكر له بعثة موسى وعيسى ومحمد صلوات الله عليهم وسلامه، وما أيدوا به من المعجزات، فقال: إذا كانوا فعلوا هذا فقد صدقوا ،ثم قال صدّقتهم إن كانوا فعلوا.

قال مؤلفه رحمه الله :وقد غلب أولاد كنز الدولة على النوبة وملكوها من سنة، وبني بدنقلة جامع يأوي إليه الغرباء، واعلم أن على ضفة النيل أيضا الكاتم، وملكها مسلم وبينه وبين بلاد مالي مسافة بعيدة جداً وقاعدة ملكه بلدة اسمها جيمي، وأول ننلكته من جهة مصر بلد اسمها زولا وآخرها طولا بلدة يقال لها كاكا وبينهما نحو ثلاثة أشهر وهم يتلثمون وملكهم متحجب لا يرى إلا يومي العيدين بكرة وعند العصر وطول السنة لا يكلمه أحد إلا من وراء حجاب، وغالب عيشهم الأرز وهو ينبت من غير بذر وعندهم القمح والذرة والتين والليمون والباذنجان واللفت والرطب ويتعاملون بقماش ينسج عندهم اسمه دندي طول كل ثوب عشرة أذرع يشترون به من ربع ذراع فأكثر، ويتعاملون أيضا بالودع والخرز والنحاس المكسر والورق وجميع ذلك بسعر ذلك القماش وفي جنوبها شعارى وصحارى فيها أشخاص متوحشة كالفيول قريبة من شكل الآدمي، لا يلحقها الفارس تؤذي الناس ويظهر في الليل أيضا شبه نار تضيء فإذا مشى أحد ليلحقها بعدت عنه ،ولو جرى إليها لا يصل إليها بل لا تزال أمامه فإذا رماها بحجر فأصابها تشظى منها شرر، وتعظم عندهم اليقطينة حتى تصنع منها مراكب يعبر فيها في النيل.)

تأتي رحلة ابن بطوطة إلى وسط إفريقية لتكشف عن مدى مصداقية بعض المعلومات التي دونها الرحالة والجغرافيون السابقون، وهي تدعم بعض تلك المعلومات وتتقاطع مع بعضها الآخر، لأنها تقوم على المعاينة المباشرة، وتأخذ هذه الرحلة التي اختتم بها ابن بطوطة حياته كرحالة، منحى تفصيليا في استقصاء العادات والطبائع، وهو الأمر الذي برع فيه ابن بطوطة.

(76)

رحلة ابن بطوطة إلى أواسط إفريقية

ابن بطوطة (توفي ٧٧٩هجري=١٣٧٧ ميلادي) من نص الرحلة المسمّاة (تحفة النظّار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار)

من سبته إلى أيوالاتن

(فوصلت إلى سبتة وكان قائدها إذ ذاك الشيخ أبو المهدي عيسى بن سليمان بن منصور وقاضيها الفقيه أبو محمد الزجندري . ثم سافرت منها إلى أصيلا وأقمت بها شهورا . ثم سافرت منها إلى مدينة سلا . ثم سافرت من سلا فوصلت إلى مدينة مراكش وهي من أجمل المدن فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة صعدتها وظهر لي جميع البلد منها ،وقد استولى عليه الخراب فما شهدته إلا ببغداد الا أن أسواق بغداد أحسن،وبمراكش المدارس العجيبة التي تميزت بحسن الوضع وإتقان الصنعة، وهي من بناء الإمام مولانا أمير المسلمين أبي الحسن رضوان الله عليه. ثم سافرت من مراكش صحبة الركاب العلي ركاب مولانا أيده الله فوصلنا إلى مدينة سلا ثم إلى مدينة مكناسة العجيبة الخضرة النضرة ذات البساتين والجنات المحيطة بها بحائر الزيتون من جميع نواحيها .

ثم وصلنا إلى حضرة فاس حرسها الله تعالى فوادعت بها مولانا أيده الله وتوجهت برسم السفر إلى بلاد السودان (= يرجّح أن الرحلة تمت بتكليف من السلطان أبي عنان) . فوصلت إلى مدينة سجلماسة (= بنيت في ١٤٠هـ=٧٥٧م) وهي من أحسن المدن وبها التمر الكثيرالطيب وتشبهها مدينة البصرة في كثرة التمر؛ لكن تمر سجلماسة أطيب وصنف إيرار(=نوع من التمر) منه لا نظير له في البلاد .ونزلت منها عند الفقيه أبي محمد البشري وهو الذي لقيت أخاه بمدينة قنجنفو من بلاد الصين فياشد ما تباعدا! فاكرمني غاية الإكرام واشتريت بها الجمال وعلفتها أربعة أشهر.

ثم سافرت في غرة شهر الله المحرم سنة ثلاث وخمسين(= وسبعمائة= ١٨ شباط / فبراير ١٣٥٢) في رفقة مقدمها أبي محمد يندكان المسُّوفي رحمه الله تعالى، وفيها جماعة من تجار سجلماسة وغيرهم . فوصلنا بعد خمسة وعشرين يوما إلى تغازي(= مملكة تغازي في عمق الصحراء) وهي قرية لا خير فيها، ومن عجائبها أن بناء بيوتها ومسجدها من حجارة الملح وسقفها من جلود الجمال ولا شجر بها إنما هي رمل فيه معدن الملح يحفر عليه في الأرض فيوجد منه ألواح ضخام متراكبة كأنها قد نحتت ووضعت تحت الأرض، يحمل الجمل منها لوحين ولا يسكنها إلا عبيد مسّوفة(= قبيلة من صنهاجة) الذين يحفرون على الملح ويتعيشون بما يجلب إليهم من تمر درعة(= وادي درعة) وسجلماسة، ومن لحوم الجمال ومن أنلي المجلوب من السودان ،ويصل السودان من بلادهم فيحملون منها الملح ويباع الحمل منه بأيوالاتن بعشرة مثاقيل إلى ثمانية، وبمدينة مالي بثلاثين مثقالا إلى عشرين وربما انتهى إلى أربعين مثقالا .

وبالملح يتصارف السودان كما يتصارف بالذهب والفضة يقطعونه قطعا ويتبايعون به وقرية تغازي على حقارتها يتعامل فيها بالقناطير المقنطرة من التبر، وأقمنا بها عشرة أيام في جهد لأن ماءها زعاق وهي أكثر المواضع ذبابا. ومنها يرفع الماء لدخول الصحراء التي بعدها وهي مسيرة عشرة لا ماء فيها إلا في النادر، ووجدنا نحن بها ماء كثيرا في غدران أبقاها المطر، ولقد وجدنا في بعض الأيام غديرا بين تلين من حجارة ماؤه عذب فتروينا منه وغسلنا ثيابنا، والكمأة بتلك الصحراء كثير، ويكثر القمل بها حتى يجعل الناس في أعناقهم خيوطا فيها الزئبق فيقتلها .

وكنا في تلك الأيام نتقدم أمام القافلة فإذا وجدنا مكانا يصلح للرعي رعينا الدواب به ، ولم نزل كذلك حتى ضاع في الصحراء رجل يعرف بابن زيري ؛فلم أتقدم بعد ذلك ولا تأخرت . وكان ابن زيري وقعت بينه وبين ابن خاله ويعرف بابن عدي منازعة ومشاتمة فتأخر عن الرفقة فضل ، فلما نزل الناس لم يظهر له خبر، فأشرت على ابن خاله بأن يكتري من مسوفة من يقص أثره لعله يجده فأبى، وانتُدب في اليوم الثاني رجل من مسوفة دون أجرة

لطلبه فوجد أثره وهو يسلك الجادة طورا ويخرج عنها تارة ولم يقع له على خبر ،ولقد لقينا قافلة في طريقنا فأخبرونا أن بعض رجال انقطعوا عنهم فوجدنا أحدهم ميتا تحت شجيرة من أشجار الرمل، وعليه ثيابه ،وفي يده سوط وكان الماء على نحو ميل منه .

ثم وصلنا إلى تاسرهلا، وهي أحساء ماء تنزل القوافل عليها ويقيمون ثلاثة أيام فيستريحون ويصلحون أسقيتهم ويملؤونها بالماء ويخيطون عليها التلاليس خوف الريح، ومن هنالك يبعث التكشيف. والتكشيف اسم لكل رجل من مسوفة يكتريه أهل القافلة فيتقدم إلى أيوالاتن بكتب الناس إلى أصحابهم بها ليكتروا لهم الدور ويخرجون للقائم بالماء مسيرة أربع ،ومَن لم يكن له صاحب بأيوالاتن كتب إلى من شُهر بالفضل من التجار بها فيشاركه في ذلك ،وربما هلك التكشيف في هذه الصحراء فلا يعلم أهل أيوالاتن بالقافلة فيهلك أهلها أو الكثير منهم، وتلك الصحراء كثيرة الشياطين فإن كان التكشيف منفردا لعبت به واستهوته حتى يضل عن قصده فيهلك إذ لا طريق يظهر بها ولا أثر إنما هي رمال تسفيها الريح فترى جبالا من الرمل في مكان ثم تراها قد انتقلت إلى سواه، والدليل هنالك من كثر تردده وكان له قلب ذكي .

ورأيت من العجائب أن الدليل الذي كان لنا هو أعور العين الواحدة مريض الثانية ،وهو أعرف الناس بالطريق، واكترينا التكشيف في هذه السفرة بمائة مثقال من الذهب وهو من مسوفة وفي ليلة اليوم السابع رأينا نيران الذين خرجوا للقائنا فاستبشرنا بذلك، وهذه الصحراء منيرة مشرقة ينشرح الصدر فيها وتطيب النفس وهي آمنة من السراق، والبقر الوحشية بها كثير يأتي القطيع منها حتى يقرب من الناس فيصطادونه بالكلاب والنشاب لكن لحمها يولِّد أكله العطش؛ فيتحاماه كثير من الناس لذلك .ومن العجائب أن هذه البقر إذا قتلت وجد في كروشها الماء .ولقد رأيت أهل مسوفة يعصرون الكرش منها ويشربون الماء الذي فيه. والحيات أيضا بهذه الصحراء كثيرة. وكان في القافلة تاجر تلمساني يعرف بالحاج زيان ومن عادته أن يقبض على الحيات ويعبث بها ،وكنت أنهاه عن ذلك فلا ينتهي، فلما كان ذات يوم أدخل يده في حجر ضب ليخرجه فوجد مكانه حية فأخذها

بيده وأراد الركوب فلسعته في سبابته اليمنى وأصابه وجع شديد فكويت يده وزاد ألمه عشي النهار فنحر جملا وأدخل يده في كرشه وتركها كذلك ليلة ثم تناثر لحم أصبعه فقطعها من الأصل. وأخبرنا أهل مسوفة أن تلك الحية كانت قد شربت الماء قبل لسعه .ولو لم تكن شربت لقتلته .

ولما وصل إلينا الين استقبلونا بالماء فشربت خيلنا ودخلنا صحراء شديدة الحر ليست كالتي عهدنا ، وكنا نرحل بعد صلاة العصر ونسري الليل كله وننزل عند الصباح وتأتي الرجال من مسوفة وبردامة وغيرهم بأحمال الماء للبيع .

من أيوالاتن إلى مالي

ثم وصلنا إلى مدينة أيوالاتن (= شمال مالي) في غرة شهر ربيع الأول (= نيسان/أبريل ١٣٥٢) بعد سفر شهرين كاملين من سجلماسة، وهي أول عمالة السودان ونائب السلطان بها فربا حسين، وفربا معناه النائب ،ولما وصلنا جعل التجار أمتعتهم في رحبة، وتكفل السودان بحفظها وتوجهوا إلى الفربا ،وهو جالس على بساط في سقيف وأعوانه بين يديه بأيديهم الرماح والقسي، وكبراء مسوفة من ورائه، ووقف التجار بين يديه، وهو يكلمهم بترجمان على قربهم منه احتقارا لهم؛ فعند ذلك ندمت على قدومي بلادهم لسوء أدبهم واحتقارهم للأبيض، وقصدت دار ابن بداء وهو رجل فاضل من أهل سلا كنت كتبت له أن يكتري لي دارا ففعل ذلك.

ثم إن مشرف أيوالاتن ،ويسمى منشاجو استدعى من جاء في القافلة إلى ضيافته فأبيت من حضور ذلك ،فعزم الأصحاب علي أشد العزم فتوجهت فيمن توجه ،ثم أتي بالضيافة وهي جريش أنلي مخلوطا بيسير عسل ولبن قد وضعوه في نصف قرعة صيّروه شبه الجفنة فشرب الحاضرون وانصرفوا، فقلت لهم: ألهذا دعانا الأسود، قالوا: نعم ،وهو الضيافة الكبيرة عندهم .فأيقنت حينئذ أن لا خير يرتجى منهم ،وأردت أن أسافر مع حجاج أيوالاتن، ثم ظهر لي أن أتوجه لمشاهدة حضرة ملكهم، وكانت إقامتي بأيوالاتن نحو خمسين يوما ،وأكرمني أهلها وأضافوني: منهم قاضيها محمد بن عبد الله بن ينومر، وأخوه الفقيه المدرس يحيى، وبلدة أيوالاتن شديدة الحر وفيها يسير نخيلات يزرعون في

ظلالها البطيخ وماؤهم من أحساء بها ،ولحم الضأن كثير بها وثياب أهلها حسان مصرية وأكثر السكان بها من مسوفة ولنسائها الجمال الفائق وهن أعظم شأنا من الرجال.

وشأن هؤلاء القوم عجيب وأمرهم غريب فأما رجالهم فلا غيرة لديهم ولا ينتسب أحدهم إلى أبيه بل ينتسب لخاله ولا يرث الرجل إلا أبناء أخته دون بنيه؛ وذلك شيء ما رأيته في الدنيا إلا عند كفار بلاد المليبار من الهنود. وأما هؤلاء فهم مسلمون محافظون على الصلوات وتعلم الفقه وحفظ القرآن ،وأما نساؤهم فلا يحتشمن من الرجال ولا يحتجبن مع مواظبتهن على الصلوات ،ومن أراد التزوج منهن تزوج لكنهن لا يسافرن مع الزوج ولو أرادت إحداهن ذلك لمنعها أهلها. والنساء هنالك يكون لهن الأصدقاء والأصحاب من الرجال الأجانب ،وكذلك للرجال صواحب من النساء الأجنبيات، ويدخل أحدهم داره فيجد امرأته ومعها صاحبها فلا ينكر ذلك.

دخلت يوما على القاضي بأيوالاتن بعد إذنه في الدخول فوجدت عنده امرأة صغيرة السن بديعة الحسن ؛فلما رأيتها ارتبت وأردت الرجوع، فضحكت مني، ولم يدركها خجل ، وقال لي القاضي: لِمَ ترجع ؟إنها صاحبتي .فعجبت من شأنهما فإنه من الفقهاء الحُجّاج، وأخبرت أنه استأذن السلطان في الحج في ذلك العام مع صاحبته، لا أدري أهي هذه أم لا فلم يأذن له .

دخلت يوما على أبي محمد بن يندكان المسوفي الذي قدمنا في صحبته فوجدته قاعدا على بساط وفي وسط داره سرير مظلل عليه امرأة معها رجل قاعد ،وهما يتحدثان فقلت له: ما هذه المرأة ؟فقال: هي زوجتي، فقلت: وما الرجل الذي معها؟ فقال :هو صاحبها، فقلت له: أترضى بهذا وأنت قد سكنت بلادنا وعرفت أمور الشرع؟ فقال لي: مصاحبة النساء للرجال عندنا على خير وحسن طريقة لا تهمة فيها ولسن كنساء بلادكم .فعجبت من رعونته ،وانصرفت عنه فلم أعد إليه بعدها، واستدعاني مرات فلم أجبه.

ولما عزمت على السفر إلى مالي وبينها وبين أيوالاتن مسيرة أربعة وعشرين يوما للمُجدّ اكتريت دليلا من مسوفة إذ لا حاجة إلى السفر في رفقة لأمن تلك الطريق ،وخرجت في ثلاثة من أصحابي. وتلك الطريق كثيرة الأشجار وأشجارها عادية ضخمة تستظل القافلة

بظل الشجرة منها (=شجر الباوبا الاستوائي) وبعضها لا أغصان لها ولا ورق ولكن ظل جسدها بحيث يستظل به الإنسان وبعض تلك الأشجار قد استأسن داخلها واستنقع فيه ماء المطر فكأنها بئر ويشرب الناس من الماء الذي فيها ويكون في بعض النخل العسل فيشتاره الناس منها، ولقد مررت بشجرة منها فوجدت في داخلها رجلا حائكا قد نصب بها مرمته وهو ينسج فعجبت منه .

وفي أشجار هذه الغابة التي بين أيوالاتن ومالي ما يشبه شجرة الإجاص والتفاح والخوخ والمشمش وليست بها، وفيها أشجار تثمر شبه الفقوص فإذا طاب انفلق عن شيء شبه الدقيق فيطبخونه ويأكلونه ويباع بالأسواق ويستخرجون من هذه الأرض حبات كالفول فيقلونها ويأكلونها ،وطعمها كطعم الحمص المقلو، وربما طحنوها وصنعوا منها شبه الإسفنج ،وقلوه بالغرتي والغرتي هو ثمر كالإجاص شديد الحلاوة مضر بالبيضان إذا أكلوه،ويدق عظمه فيستخرج منه زيت لهم فيه منافع فمنها أنهم يطبخون به ويسرجون السرج ويقلون به هذا الإسفنج، ويدهنون به ويخلطونه بتراب عندهم ويسطحون به الدور كما تسطح بالجير ،وهو عندهم كثير متيسر ويحمل من بلد إلى بلد في قرع كبار تسع القرعة منها قدر ما تسعه القلة ببلادنا ، والقرع ببلاد السودان يعظم ومنه يصنعون الجفان يقطعون القرعة نصفين فيصنعون منها جفنتين وينقشونها نقشا حسنا .

وإذا سافر أحدهم يتبعه عبيده وجواريه يحملون فرشه وأوانيه التي يأكل ويشرب فيها وهي من القرع، و المسافر في هذه البلاد لا يحمل زادا ولا إداما ولا دينارا ولا درهما إنما يحمل قطع الملح وحلي الزجاج الذي يسميه الناس النظم ،وبعض السلع العطرية وأكثر ما يعجبهم منها القرنفل والمصطكى وتاسرغنت(=جذور عطرية) وهو بخورهم فإذا وصل قرية جاء نساء السودان بالأنلي واللبن والدجاج ودقيق النبق والأرز والفوني وهو كحب الخردل يصنع منه الكسكسو والعصيدة ودقيق اللوبيا فيشتري منهن ما أحب من ذلك إلا أن الأرز يضر أكله بالبيضان والفوني خير منه .

وبعد مسيرة عشرة أيام من إيوالاتن وصلنا إلى قرية زاغري وهي قرية كبيرة يسكنها تجار السودان ويسمون ونجراته ،ويسكن معهم جماعة من البيضان يذهبون مذهب الإباضية من

الخوارج ويسمون صغنغو، والسنيون المالكيون من البيض يسمون عندهم توري، ومن هذه القرية يجلب الأنلي إلى إيوالاتن .

ثم سرنا من زاغري فوصلنا إلى النهر الأعظم وهو النيل(= وادي النيجر، كثير من الأنهار الإفريقية في ذلك العصر كانت تسمّى بالنيل) وعليه بلدة كارسخو، والنيل ينحدر منها إلى كابرة ، ثم إلى زاغة ،ولكابرة وزاغة سلطانان يؤديان الطاعة لملك مالي، وأهل زاغة قدماء في الإسلام لهم ديانة وطلب للعلم ،ثم ينحدر النيل من زاغة إلى تنبكتو، ثم إلى كوكو وسنذكرها، ثم إلى بلدة مولي من بلاد الليمين ،وهي آخر عمالة مالي ،ثم إلى يوفي ،وهي من أكبر بلاد السودان وسلطانها من أعظم سلاطينهم ،ولا يدخلها الأبيض من الناس لأنهم يقتلونه قبل الوصول إليها ،ثم ينحدر منها إلى بلاد النوبة وهم على دين النصرانية ثم إلى دنقلة ،وهي أكبر بلادهم وسلطانها يدعى بابن كنز الدين أسلم على أيام الملك الناصر، ثم ينحدر إلى جنادل ،وهي آخر عمالة السودان وأول عمالة أسوان من صعيد مصر، ورأيت التمساح بهذا الموضع من النيل بالقرب من الساحل كأنه قارب صغير ،ولقد نزلت يوما إلى النيل لقضاء حاجة فإذا بأحد السودان قد جاء ووقف فيما بيني وبين النهر فعجبت من سوء أدبه وقلة حيائه، وذكرت ذلك لبعض الناس فقال: إنما فعل ذلك خوفا عليك من التمساح، فحال بينك وبينه .

ثم سرنا من كارسخو فوصلنا إلى نهر صنصرة وهو على نحو عشرة أميال من مالي وعادتهم أن يمنع الناس من دخولها إلا بإذن، وكنت كتبت قبل ذلك لجماعة البيضان، وكبيرهم محمد بن الفقيه الجزولي وشمس الدين بن النقويش المصري ليكتروا لي درا ،فلما وصلت إلى النهر المذكور جزت في المعدية ولم يمنعني أحد .

مدينة مالي وسلطانها

فوصلت إلى مدينة مالي حضرة ملك السودان فنزلت عند مقبرتها ،ووصلت إلى محلة البيضان، وقصدت محمد بن الفقيه فوجدته قد اكترى لي داراً إزاء داره، فتوجهت إليها ، وجاء صهره الفقيه المقريء عبد الواحد بشمعة وطعام ،ثم جاء ابن الفقيه إلي من الغد، وشمس الدين بن النقويش، وعلي الزودي المراكشي ، وهو من الطلبة ،ولقيت القاضي بمالي

عبد الرحمن جاءني وهو من السودان حاج فاضل له مكارم أخلاق بعث إلي بقرة في ضيافته، ولقيت الترجمان دوغا وهو من أفاضل السودان وكبارهم وبعث إلي بثور، وبعث إلي الفقيه عبد الواحد غرارتين من الفوني وقرعة من الغرتي وبعث إلي ابن الفقيه الأرز الفوني، وبعث إلي شمس الدين ضيافة ،وقاموا بحقي أتم قيام، شكر الله لهم حسن أفعالهم.

وكان الفقيه متزوجا ببنت عم السلطان فكانت تتفقدنا بالطعام وغيره، وأكلنا بعد عشرة أيام من وصولنا عصيدة تصنع من شيء شبه القلقاس، يسمى القافي وهي عندهم مفضلة على سائر الطعام فأصبحنا جميعا مرضى، وكنا ستة فمات أحدنا وذهبت أنا لصلاة الصبح فغشي علي فيها، وطلبت من بعض المصريين دواء مسهلا فأتى بشيء يسمى بيدر، وهو عروق نبات وخلطه بالأنيسون والسكر ولتّه بالماء فشربته وتقيأت ما أكلته مع صفراء كثيرة، وعافاني الله من الهلاك ،ولكنني مرضت شهرين.

وسلطان مالي هو السلطان منسي سليمان(=حكم للفترة ٧٤١-٧٦١=١٣٤١-١٣٦٠) ومنسي معناه السلطان وسليمان اسمه ،وهو ملك بخيل لا يرجى منه كبير عطاء. اتفق أني أقمت هذه المدة ولم أره بسبب مرضي، ثم إنه صنع طعاما برسم عزاء مولانا أبي الحسن (=المريني) رضي الله عنه واستدعى الأمراء والفقهاء والقاضي والخطيب، وحضرت معهم فأتوا بالربعات وختم القرآن، ودعوا لمولانا أبي الحسن رحمه الله، ودعوا لمنسي سليمان ،ولما فرغ من ذلك تقدمت فسلمت على منسي سليمان ،وأعلمه القاضي والخطيب وابن الفقيه بحالي فأجابهم بلسانهم ،فقالوا لي: يقول لك السلطان أشكر الله، فقلت :الحمد لله والشكر على كل حال. ولما انصرفت بعث إلي الضيافة، فوجهت إلى دار السلطان القاضي، وبعث القاضي بها مع رجاله إلى دار ابن الفقيه فخرج ابن الفقيه من داره مسرعا حافي القدمين فدخل علي، وقال :قم قد جاءك قماش السلطان ،وهديته. فقمت، وظننت أنها الخلع والأموال فإذا هي ثلاثة أقراص من الخبز وقطعة لحم بقري مقلو بالغرتي ،وقرعة فيها لبن رائب، فعندما رأيتها ضحكت، وطال تعجبي من ضعف عقولهم وتعظيمهم لهذا الشيء الحقير.

وأقمت بعد بعث هذه الضيافة شهرين لم يصل إلي فيهما شيء من قبل السلطان ، ودخل شهر رمضان(= بداية من ١١ تشرين الأول/أكتوبر ١٣٥٢) وكنت خلال ذلك أتردد إلى المشور وأسلم عليه وأقعد مع القاضي والخطيب فتكلمت مع دوغا الترجمان ، فقال: تكلم عنده وأنا أعبر عنك ما يجب، فجلس في أوائل رمضان، وقمت بين يديه وقلت له: إني سافرت بلاد الدنيا ،ولقيت ملوكها ،ولي ببلادك أربعة أشهر، ولم تضفني ولا أعطيتني شيئا فماذا أقول عنك عند السلاطين، فقال: إني لم أرك ولا علمت بك،فقام القاضي وابن الفقيه فردا عليه ،وقالا :إنه قد سلم عليك ،وبعثت إليه الطعام ،فأمر لي عند ذلك بدار أنزل بها، ونفقة تجري علي ،ثم فرق على القاضي والخطيب والفقهاء مالا ليلة سبع وعشرين من رمضان يسمونه الزكاة، وأعطاني ثلاثة وثلاثين مثقالا وثلثا، وأحسن إلي عند سفري بمائة مثقال ذهبا. وله قبة مرتفعة بابها بداخل داره يقعد فيها أكثر الأوقات ، ولها من جهة المشور طيقان ثلاثة من الخشب مغطاة بصفائح الفضة وتحتها ثلاثة مغشاة بصفائح الذهب أو هي فضة مذهبة وعليها ستور ملف، فإذا كان يوم جلوسه بالقبة رفعت الستور فعلم أنه يجلس فإذا جلس أخرج من شباك إحدى الطاقات شرابة حرير قد ربط فيها منديل مصري مرقوم، فإذا رأى الناس المنديل ضربت الأطبال والأبواق، ثم خرج من باب القصر نحو ثلاثمائة من العبيد في أيدي بعضهم القسي، وفي أيدي بعضهم الرماح الصغار والدرق فيقف أصحاب الرماح منهم ميمنة وميسرة ويجلس أصحاب القسي كذلك ثم يؤتى بفرسين مسرجين ملجمين ومعهما كبشان يذكرون أنهما ينفعان من العين، وعند جلوسه يخرج ثلاثة من عبيده مسرعين فيدعون نائبه قنجا موسى، وتأتي الفرارية وهم الأمراء(= في الجيش)، ويأتي الخطيب والفقهاء فيقعدون أمام السلحدارية يمنه ويسرة المشور، ويقف دوغا الترجمان على باب المشور وعليه الثياب الفاخرة من الزردخانة (=مطرّزة بالحرير) وغيرها، وعلى رأسه عمامة ذات حواشي لهم في تعميمها صنعة بديعة، وهو متقلد سيفا غمده من الذهب وفي رجليه الخف والمهاميز، ولا يلبس أحد ذلك اليوم خفا غيره ويكون في يده رمحان صغيران أحدهما من ذهب والآخر من فضة وأسنتهما من الحديد، ويجلس الأجناد والولاة والفتيان ومسوفة وغيرهم خارج المشور، وفي شارع هنالك

متسع فيه أشجار، وكل فراري بين يديه أصحابه بالرماح والقسي والأطبال والأبواق وبوقاتهم من أنياب الفيلة وآلات الطرب المصنوعة من القصب والقرع وتضرب بالسطّاعة ولها صوت عجيب ،وكل فراري له كنانة قد علقها بين كتفيه وقوسه بيده، وهو راكب فرسه وأصحابه بين مشاة وركبان ويكون بداخل المشور تحت الطيقان رجل واقف فمن أراد أن يكلم السلطان كلم دوغا ويكلم دوغا لذلك الواقف ويكلم الواقف السلطان.

ويجلس السلطان أيضا في بعض الأيام بالمشور وهنالك مصطبة تحت شجرة لها ثلاث درجات يسمونها البنبي (=منصّة)وتفرش بالحرير وتجعل المخاد عليها ويرفع الشطر وهو شبه قبة من الحرير وعليه طائر من ذهب على قدر البازي، ويخرج السلطان من باب في ركن القصر وقوسه بيده وكنانته بين كتفيه وعلى رأسه شاشية ذهب مشدودة بعصابة ذهب لها أطراف مثل السكاكين رقاق طولها أزيد من شبر ،وأكثر لباسه جبة حمراء موبّرة من الثياب الرومية التي تسمى المطنفس، ويخرج بين يديه المغنون بأيديهم قنابر(=آلات وترية) الذهب والفضة وخلفه نحو ثلاثمائة من العبيد أصحاب السلاح ،ويمشي مشيا رويدا ويكثر التأني ،وربما وقف فإذا وصل إلى البنبي وقف ينظر في الناس ثم يصعد برفق كما يصعد الخطيب المنبر وعند جلوسه تضرب الطبول والأبواق والأنفار، ويخرج ثلاثة من العبيد مسرعين فيدعون النائب والفرارية فيدخلون ويجلسون ،ويؤتى بالفرسين والكبشين معهما ويقف دوغا على الباب وسائر الناس في الشارع تحت الأشجار .

والسودان أعظم الناس تواضعا لملكهم وأشدهم تذللا له ويحلفون باسمه فيقولون: منسي سليمان كي (=الأمر للملك سليمان) فإذا دعا بأحدهم عند جلوسه بالقبة التي ذكرناها ،نزع المدعو ثيابه ولبس ثيابا خلقة، ونزع عمامته وجعل شاشية وسخة ودخل رافعا ثيابه وسراويله إلى نصف ساقه ،وتقدم بذلة ومسكنة وضرب الأرض بمرفقيه ضربا شديدا ووقف كالراكع يسمع كلامه ،وإذا كلم أحدهم السلطان فرد عليه جوابه كشف ثيابه عن ظهره ورمى بالتراب على رأسه وظهره كما يفعل المغتسل بالماء، وكنت أعجب منهم كيف لا تعمى أعينهم، وإذا تكلم السلطان في مجلسه بكلام وضع الحاضرون عمائهم عن رؤوسهم وأنصتوا للكلام وربما قام أحدهم بين يديه فيذكر أفعاله في خدمته ،ويقول :فعلت

كذا يوم كذا ،وقتلت كذا يوم كذا فيصدقه من علم ذلك، وتصديقهم أن ينزع أحدهم وتر قوسه ثم يرسلها كما يفعل إذا رمى فإذا قال له السلطان صدقت أو شكره نزع ثيابه وترّب. وذلك عندهم من الأدب.

وحضرت بمالي عيدي الأضحى والفطر (= ١٠ تشرين الثاني/ نوفمبر ١٣٥٢ – ١٧ كانون الأول / يناير ١٣٥٣)فخرج الناس إلى المصلى وهو بمقربة من قصر السلطان وعليهم الثياب الحسان وركب السلطان وعلى رأسه الطيلسان ،والسودان لا يلبسون الطيلسان إلا في العيد ما عدا القاضي والخطيب والفقهاء فإنهم يلبسونه في سائر الأيام ،وكانوا يوم العيد بين يدي السلطان وهم يهللون ويكبرون وبين يديه العلامات الحمر من الحرير ونصب عند المصلى خباء فدخل السلطان إليها وأصلح من شأنه ثم خرج إلى المصلى ،فقضيت الصلاة والخطبة ثم نزل الخطيب وقعد بين يدي السلطان، وتكلم بكلام كثير ،وهنالك رجل بيده رمح يبين للناس بلسانهم كلام الخطيب وذلك وعظ وتذكير وثناء على السلطان وتحريض على لزوم طاعته وأداء حقه، ويجلس السلطان في أيام العيدين بعد العصر على البنبي ويأتي السلحدارية بالسلاح العجيب من تراكش الذهب والفضة والسيوف المحلاة بالذهب وأغمادها منه ورماح الذهب والفضة ودبابيس البلور ،ويقف على رأسه أربعة من الأمراء يشردون الذباب، وفي أيديهم حلية من الفضة تشبه ركاب السرج ،ويجلس الفرارية والقاضي والخطيب على العادة ،ويأتي دوغا الترجمان بنسائه الأربع وجواريه وهن نحو مائة عليهن الملابس الحسان وعلى رؤوسهن عصائب الذهب والفضة فيها تفافيح ذهب وفضة ،وينصب لدوغا كرسي يجلس عليه، ويضرب الآلة التي هي من قصب وتحتها قريعات ويغني بشعر بمدح السلطان فيه، ويذكر غزواته وأفعاله ويغني النساء والجواري معه ،ويلعبن بالقسي، ويكون معهن نحو ثلاثين من غلمانه عليهم جباب الملف والحمر وفي رؤوسهم الشواشي البيض، وكل واحد منهم متقلد طبله يضربه ،ثم يأتي أصحابه من الصبيان فيلعبون ويتقلبون في الهواء كما يفعل السندي، ولهم في ذلك رشاقة وخفة بديعة ،ويلعبون بالسيوف أجمل لعب ،ويلعب دوغا بالسيف لعبا بديعا، وعند ذلك يأمر السلطان له بالإحسان، فيوتى بصُرَّة فيها مائتا مثقال من التبر، وينثر ما فيها على رؤوس

الناس، وتقوم الفرارية فينزعون في قسيهم شكرا للسلطان، وبالغد يعطى كل واحد منهم لدوغا عطاء على قدره ،وفي كل يوم جمعة بعدالعصر يفعل دوغا مثل هذا الترتيب الذي ذكرناه .

وإذا كان يوم العيد وأتم دوغا لعبه جاء الشعراء ويسمون الجُلا ،واحدهم جالي(= المنشد) ،وقد دخل كل واحد منهم في جوف صورة مصنوعة من الريش تشبه الشقشاق، وجعل لها رأس من الخشب له منقار أحمر كأنه رأس الشقشاق ،ويقفون بين يدي السلطان بتلك الهيئة المضحكة فينشدون أشعارهم، وذكر لي أن شعرهم نوع من الوعظ ،يقولون فيه للسطان : إن هذا البنبي الذي عليه، جلس فوقه من الملوك فلان، وكان من أحسن أفعاله كذا، وفلان وكان من أفعاله كذا، فافعل أنت من الخير ما يذكر بعدك ،ثم يصعد كبير الشعراء على درج البنبي، ويضع رأسه في حجر السلطان ،ثم يصعد إلى أعلى البنبي فيضع رأسه على كتف السلطان الأيمن ،ثم على كتفه الأيسر، وهو يتكلم بلسانهم ،ثم ينزل. وأخبرت أن هذا الفعل لم يزل قديما عندهم قبل الإسلام فاستمروا عليه .

وحضرت مجلس السلطان في بعض الأيام فأتى أحد فقهائهم ،وكان قدم من بلاد بعيدة، وقام بين يدي السلطان ،وتكلم كلاما كثيرا ،فقام القاضي فصدقه ،ثم صدقهما السلطان فوضع كل واحد منهما عمامته عن رأسه وترب بين يديه ،وكان إلى جانبي رجل من البيضان فقال : أتعرف ما قالوه؟ فقلت :لا أعرف، فقال: إن الفقيه أخبر أن الجراد وقع ببلادهم ،فخرج أحد صلحائهم إلى موضع الجراد فهاله أمرها ،فقال هذا جراد كثير، فأجابته جرادة منها، وقالت: إن البلاد التي يكثر فيها الظلم يبعثنا الله لفساد زرعها ،فصدقه القاضي والسلطان، وقال عند ذلك للأمراء :إني بريء من الظلم، ومَن ظلم منكم عاقبته، ومن علم بظالم ولم يعلمني به فذنوب ذلك الظالم في عنقه ،والله حسيبه وسائله، ولما قال هذا الكلام وضع الفرارية عمائمهم عن رؤوسهم وتبرّؤوا من الظلم .

وحضرت الجمعة يوما فقام أحد التجار من طلبة مسوفة ويسمى بأبي حفص، فقال :يا أهل المسجد أشهدكم أن منسي سليمان في دعوتي إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فلما قال ذلك خرج إليه جماعة رجال من مقصورة السلطان فقالوا له :من ظلمك ؟ من أخذ لك

شيئا؟ فقال: منشاجو إيوالاتن، يعني مشرفها أخذ مني ما قيمته ستمائة مثقال، وأراد أن يعطيني في مقابلته مائة مثقال خاصة .فبعث السلطان عنه للحين فحضر بعد أيام ، وصرفهما للقاضي فثبت للتاجر حقه، فأخذه، وبعد ذلك عزل المشرف عن عمله .

واتفق في يوم إقامتي بمالي أن السلطان غضب على زوجته الكبرى بنت عمه المدعوة بقاسا ،ومعنى قاسا عندهم الملكة ،وهي شريكته في الملك على عادة السودان، ويذكر اسمها مع اسمه على المنبر وسجنها عند بعض الفرارية وولى في مكانها زوجته الأخرى بنجو، ولم تكن من بنات الملوك ،فأكثر الناس الكلام في ذلك وأنكروا فعله ودخل بنات عمه على بنجو يهنئنها بالمملكة فجعلن الرماد على أذرعهن ولم يتربن رؤوسهن ،ثم إن السلطان سرح قاسا من ثقافها ،فدخل عليها بنات عمه يهنئنها بالسراح، فَتربّن على العادة فشكت بنجوا إلى السلطان بذلك فغضب على بنات عمه فخفن منه، واستجرن بالجامع فعفا عنهن واستدعاهن وعادتهن إذا دخلن على السلطان أن يتجردن عن ثيابهن، ويدخلن عرايا ففعل ذلك ورضي عنهن ،وصرن يأتين باب السلطان غدوا وعشيا مدة سبعة أيام ، وكذلك يفعل كل من عفا عنه السلطان ،وسارت قاسا تركب كل يوم في جواريها وعبيدها وعلى رؤوسهم التراب، وتقف عند المشور متنقبة لا يرى وجهها، وأكثر الأمراء الكلام في شأنها ،فجمعهم السلطان في المشور ، وقال لهم دوغا على لسانه :إنكم قد أكثرتم الكلام في أمر قاسا ،وإنها أذنبت ذنبا كبيرا، ثم أتي بجارية من جواريها مقيدة مغلولة ،فقيل لها تكلمي بما عندك فأخبرت أن قاسا بعثتها إلى جاطل ابن عم السلطان الهارب عنه إلى كنبرني ،واستدعته ليخلع السلطان عن ملكه ،وقالت له: أنا وجميع العساكر طوع أمرك فلما سمع الأمراء ذلك، قالوا :إن هذا ذنب كبير، وهي تستحق القتل عليه فخافت قاسا من ذلك واستجارت بدار الخطيب ،وعادتهم أن يستجيروا هنالك بالمسجد، وإن لم يتمكن فبدار الخطيب ،وكان السودان يكرهون منسي سليمان لبخله وكان قبله منسي مغا وقبل منسي مغا منسي موسى ،وكان كريما فاضلا يحب البيضان، ويحسن إليهم وهو الذي أعطى لأبي إسحاق الساحلي في يوم واحد أربعة آلاف مثقال .وأخبرني بعض الثقات أنه أعطى لمدرك بن فقوص ثلاثة آلاف مثقال في يوم واحد ،وكان جده سارق جاطه أسلم على

يدي مدرك هذا .

وأخبرني الفقيه مدرك هذا أن رجلا من أهل تلمسان يعرف بابن شيخ اللبن كان قد أحسن إلى السلطان منسي موسى في صغره بسبعة مثاقيل وثلث وهو يومئذ صبي غير معتبر ،ثم اتفق أن جاء إليه في خصومة وهو سلطان فعرفه وادعاه وأدناه منه حتى جلس معه على البنبي ثم قرره على فعله معه ،وقال للأمراء: ما جزاء من فعل ما فعله من الخير؟ فقالوا له الحسنة بعشر أمثالها فأعطه سبعين مثقالا، فأعطاه عند ذلك سبعمائة مثقال وكسوة وعبيدا وخدما ،وأمره أن لا ينقطع عنه .وأخبرني بهذه الحكاية أيضا ولد ابن شيخ اللبن المذكور وهو من الطلبة يعلم القرآن بمالي .

فمن أفعال السودان الحسنة قلة الظلم فهم أبعد الناس عنه وسلطانهم لا يسامح أحدا في شيء منه ،ومنها شمول الأمن في بلادهم فلا يخاف المسافر فيها ولا المقيم من سارق ولا غاضب ،ومنها عدم تعرضهم لمال من يموت ببلادهم من البيضان ولو كان القناطير المقنطرة إنما يتركونه بيد ثقة من البيضان حتى يأخذه مستحقه، ومنها مواظبتهم للصلوات والتزامهم لها في الجماعات وضربهم أولادهم عليها ،وإذا كان يوم الجمعة ولم يبكر الإنسان إلى المسجد لم يجد أين يصلي لكثرة الزحام ،ومن عادتهم أن يبعث كل إنسان غلامه بسجادته فيبسطها له بموضع يستحقه بها حتى يذهب إلى المسجد وسجاداتهم من سعف شجر يشبه النخل ولا ثمر له، ومنها لباسهم الثياب البيض الحسان يوم الجمعة، ولو لم يكن لأحدهم إلا قميص خلق غسله ونظفه وشهد به الجمعة، ومنها عنايتهم بحفظ القرآن العظيم وهم يجعلون لأولادهم القيود إذا ظهر في حقهم التقصير في حفظه فلا تفك عنهم حتى يحفظوه .ولقد دخلت على القاضي يوم العيد وأولاده مقيدون، فقلت له: ألا تسرحهم ؟ فقال: لا أفعل حتى يحفظوا القرآن. ومررت يوما بشاب منهم حسن الصورة عليه ثياب فاخرة وفي رجله قيد ثقيل .فقلت لمن كان معي : ما فعل هذا ؟أقتل؟ ففهم عني الشاب وضحك وقيل لي: إنما قيد حتى يحفظ القرآن . ومن مساوئ أفعالهم كون الخدم الجواري والبنات الصغار يظهرن للناس عرايا باديات العورات، ولقد كنت أرى في رمضان كثيرا منهن على تلك الصورة ؛فإن عادة الفرارية أن يفطروا بدار السلطان ،ويأتي كل واحد منهم

بطعامه تحمله العشرون فما فوقهن من جواريه ، وهن عرايا ،ومنها دخول النساء على السلطان عرايا غير مستترات وتعري بناته، ولقد رأيت في ليلة سبع وعشرين من رمضان نحو مائة جارية خرجن بالطعام من قصره عرايا ومعهن بنتان له ناهدان ليس عليهما ستر ، ومنها جعلهم التراب والرماد على رؤوسهم تأدبا، ومنها ما ذكرته من الأضحوكة في إنشاد الشعراء، ومنها أن كثيرا منهم يأكلون الجيف والكلاب والحمير

وكان دخولي إلى مالي في الرابع عشر لجمادى الأولى سنة ثلاثة وخمسين وخروجي عنها في الثاني والعشرين لمحرم سنة أربع وخمسين(= من ٢٩ حزيران / يونيو١٣٥٢ لغاية ٢٨ شباط / فبراير ١٣٥٣)

من مالي إلى ميمة

ورافقني تاجر يعرف بأبي بكر بن يعقوب وقصدنا طريق ميمة(= قرب نامبالا) وكان لي جمل أركبه لأن الخيل غالية الأثمان يساوي أحدها مائة مثقال ،فوصلنا إلى خليج كبير يخرج من النيل لا يجاز إلا في المراكب ،وذلك الموضع كثير البعوض فلا يمر أحد به إلا بالليل ووصلنا الخليج ثلث الليل، والليل مقمر ولما وصلنا الخليج رأيت على ضفته ست عشرة دابة ضخمة الخلقة فعجبت منها وظننتها فيلة لكثرتها هنالك، ثم إني رأيتها دخلت في النهر، فقلت لأبي بكر بن يعقوب: ما هذه الدواب؟ فقال :هي خيل البحر خرجت ترعى في البر، وهي أغلظ من الخيل، ولها أعراف وأذناب ورؤوسها كرؤوس الخيل وأرجلها كأرجل الفيلة ،ورأيت هذه الخيل مرة أخرى لما ركبنا النيل من تنبكتو إلى كوكو ،وهي تعوم في الماء وترفع رؤوسها وتنفخ ،وخاف منها أهل المركب فقربوا من البر لئلا تغرقهم ، ولهم حيلة في صيدها حسنة، وذلك أن لهم رماحا مثقوبة قد جعل في ثقبها شرائط وثيقة فيضربون الفرس منها فإن صادفت الضربة رجله أو عنقه أنفذته وجذبوه بالحبل حتى يصل إلى الساحل فيقتلونه ويأكلون لحمه ،ومن عظامها بالساحل كثير وكان نزولنا عند هذا الخليج بقرية كبيرة عليها حاكم من السودان حاج فاضل يسمى فربامغا وهو ممن حج مع السلطان منسي موسى لما حج.

أخبرني فربامغا أن منسي موسى لما وصل إلى هذا الخليج كان معه قاض من البيضان يكنى

بأبي العباس ويعرف بالدكالي فأحسن إليه بأربعة آلاف مثقال لنفقته ،فلما وصلوا إلى ميمة شكا إلى السلطان بأن الأربعة آلاف مثقال سرقت له من داره فاستحضر السلطان أمير ميمة وتوعده بالقتل إن لم يحضر من سرقها، وطلب الأمير السارق فلم يجد أحدا ولا سارق يكون بتلك البلاد فدخل دار القاضي واشتد على خدامه ،وهددهم، فقالت له إحدى جواريه: ما ضاع له شيء وإنما دفنها بيده في ذلك الموضع ،وأشارت له إلى الموضع فأخرجها الأمير ،وأتى بها السلطان وعرفه الخبر، فغضب على القاضي ونفاه إلى بلاد الكفار الذين يأكلون بني آدم ،فأقام عندهم أربع سنين ثم رده إلى بلده ،وإنما لم يأكله الكفار لبياضه لأنهم يقولون إن أكل الأبيض مضرّ لأنه لم ينضج، والأسود هو النضج بزعمهم .

قدمت على السلطان منسي سليمان جماعة من هؤلاء السودان الذين يأكلون بني آدم معهم أمير لهم وعادتهم أن يجعلوا في آذانهم أقراطا كبارا وتكون فتحة القرط نصف شبر،ويلتحفون في ملاحف الحرير ،وفي بلادهم يكون معدن الذهب فأكرمهم السلطان وأعطاهم في الضيافة خادما فذبحوها وأكلوها ولطخوا وجوههم وأيديهم بدمها ،وأتوا السلطان شاكرين. وأخبرت أن عادتهم متى ما وفدوا عليه أن يفعلوا ذلك ،وذكر لي عنهم أنهم يقولون أن أطيب ما في لحوم الآدميات الكف والثدي .

ثم رحلنا من هذه القرية التي عند الخليج فوصلنا إلى بلدة قري منسى، ومات لي بها الجمل الذي كنت أركبه فأخبرني راعيه بذلك فخرجت لأنظر إليه فوجدت السودان قد أكلوه كعادتهم في أكل الجيف، فبعثت غلامين كنت استأجرتهما على خدمتي ليشتريا لي جملا بزاغري وهي على مسيرة يومين ،وأقام معي بعض أصحاب أبي بكر بن يعقوب وتوجه هو لينتظرنا بميمة، فأقمت سبعة أيام أضافني فيها بعض الحجاج بهذه البلدة حتى وصل الغلامان بالجمل، وفي أيام إقامتي بهذه البلدة رأيت ليلة فيما يرى النائم كأن إنسانا يقول لي :يا محمد بن بطوطة لماذا لا تقرأ سورة يس في كل يوم، فمن يومئذ ما تركت قراءتها كل يوم في سفر ولا حضر. ثم رحلت إلى بلدة ميمة فنزلنا على آبار بخارجها

من تنبكتو إلى برادمة

ثم سافرنا منها إلى مدينة تنبكتو، وبينها وبين النيل أربعة أميال وأكثر سكانها مسوفة

أهل اللثام ،وحاكمها يسمى فربا موسى، حضرت عنده يوما وقد قدم أحدالمسوفة أميرا على جماعة فجعل عليه ثوبا وعمامة وسروالا كلها مصبوغة وأجلسه على درقة ورفعه كبراء قبيلته على رؤوسهم ،وبهذه البلدة قبر الشاعر المفلق أبي إسحاق الساحلي الغرناطي المعروف ببلده بالطويجن ،وبها قبر سراج الدين بن الكويك أحد كبار التجار من أهل الإسكندرية كان السلطان منسي موسى لما حج نزل بروض لسراج الدين هذا ببركة الحبش خارج مصر، وبها ينزل السلطان واحتاج إلى مال فتسلفه من سراج الدين وتسلف منه أمراؤه أيضا، وبعث معهم سراج الدين وكيله يقتضي المال، فأقام بمالي فتوجه سراج الدين بنفسه لاقتضاء ماله، ومعه ابن له فلما وصل تنبكتو أضافه أبو إسحاق الساحلي فكان من القدر موته تلك الليلة فتكلم الناس في ذلك، واتهموا أنه سمّ، فقال لهم ولده: إني أكلت معه ذلك الطعام بعينه فلو كان فيه سمٌّ لقتلنا جميعا لكنه انقضى أجله، ووصل الولد إلى مالي، واقتضى ماله وانصرف إلى ديار مصر .

ومن تنبكتو ركبت النيل في مركب صغير منحوت من خشبة واحدة ،وكنا ننزل كل ليلة بالقرى، فنشتري ما نحتاج إليه من الطعام والسمن بالملح وبالعطريات، و بحلي الزجاج ثم وصلت إلى بلد انسيت اسمه له أمير فاضل حاج يسمى فربا سليمان مشهور بالشجاعة والشدة، لا يتعاطى أحد النزع في قوسه ،ولم أر في السودان أطول منه ولا أضخم جسما ،واحتجت بهذه البلدة إلى شيء من الذرة فجئت إليه ،وذلك يوم مولد رسول الله صلى الله عليه وسلم ،فسلمت عليه، وسألني عن مقدمي وكان معه فقيه يكتب له، فأخذت لوحا كان بين يديه وكتبت فيه: يا فقيه قل لهذا الأمير إنا نحتاج إلى شيء من الذرة للزاد والسلام. وناولت الفقيه اللوح يقرأ ما فيه سرا ،ويكلم الأمير في ذلك بلسانه، فقرأه جهرا وفهمه الأمير، فأخذ بيدي وأدخلني إلى مشوره وبه سلاح كثير من الدرق والقسي والرماح، ووجدت عنده كتاب "المدهش" لابن الجوزي فجعلت أقرأ فيه، ثم أتي بمشروب لهم يسمّى الدقنو، وهو ماء فيه جريش الذرة مخلوط بيسير عسل أو لبن وهم يشربونه عوض الماء لأنهم إن شربوا الماء خالصا أضرّ بهم، وإن لم يجدوا الذرة خلطوه بالعسل أو اللبن ثم أتي ببطيخ أخضر، فأكلنا منه ودخل غلام خماسي فدعاه ،وقال لي :هذا ضيافتك، واحفظه لئلا يفر،

فأخذته، وأردت الانصراف، فقال :أقم حتى يأتي الطعام ،وجاءت إلينا جارية له دمشقية عربية، فكلمتني بالعربي، فبينما نحن في ذلك سمعنا صراخا بداره، فوجه الجارية لتعرف خبر ذلك، فعادت إليه فأعلمته أن بنتا له قد توفيت، فقال: إني لا أحب البكاء، فتعال نمش إلى البحر يعني النيل، وله على ساحله ديار، فأتى بالفرس فقال لي: اركب، فقلت :لا اركبه وأنت ماش فمشينا جميعا، ووصلنا إلى دياره على النيل، وأتي الطعام فأكلنا ، وودعته وانصرفت، ولم أر في السودان أكرم منه ،ولا أفضل والغلام الذي أعطانيه باق عندي إلى الآن .

ثم سرت إلى مدينة كوكو(= على نهر النيجر شرقي تنبكتو) وهي مدينة كبيرة على النيل من أحسن مدن السودان وأكبرها وأخصبها فيها الأرز الكثير واللبن والدجاج والسمك، وبها الفقوص العناني الذي لا نظير له وتعامل أهلها في البيع والشراء بالودع ، وكذلك أهل مالي، وأقمت بها نحو شهر، وأضافني بها محمد بن عمر من أهل مكناسة وكان ظريفا مزاحا فاضلا ،وتوفي بها بعد خروجي عنها ،وأضافني بها الحاج محمد الوجدي التازي ، وهو ممن دخل اليمن والفقيه محمد الفيلالي إمام مسجد البيضان.

ثم سافرت منها برسم تكدا في البر مع قافلة كبيرة للغدامسيين دليلهم ومقدمهم الحاج وجين ،ومعناه الذئب بلسان السودان، وكان لي جمل لركوبي وناقة لحمل الزاد ،فلما رحلنا أول مرحلة وقفت الناقة فأخذ الحاج وجين ما كان عليها وقسمه على أصحابه فتوزعوا حمله، وكان في الرفقة مغربي من أهل تادلي فأبى أن يرفع من ذلك شيئا كما فعل غيره ، وعطش غلامي يوما فطلبت منه الماء فلم يسمح به.

من برادمة إلى فاس

ثم وصلنا إلى بلاد بردامة، وهي قبيلة من البربر ولا تسير القوافل إلا في خفارتهم والمرأة عندهم في ذلك شأنا أعظم من الرجل ،وهم رحالة لا يقيمون وبيوتهم غريبة الشكل ويقيمون أعوادا من الخشب ويضعون عليها الحصر وفوق ذلك أعوادا مشتبكة ،وفوقها الجلود أو ثياب القطن، ونساؤهم أتم النساء جمالا وأبدعهن صورا مع البياض الناصع والسمن، ولم أر في البلاد من يبلغ مبلغهن في السمن ،وطعامهن حليب البقر وجريش

الذرة يشربنه مخلوطا بالماء غير مطبوخ عند المساء والصباح، ومن أراد التزوج منهن سكن بهن في أقرب البلاد إليهن ولا يتجاوز بهن كوكو ولا إيوالاتن، وأصابني المرض في هذه البلاد لاشتداد الحر وغلبة الصفراء .

واجتهدنا في السير إلى أن وصلنا إلى مدينة تكدا، ونزلت بها في جوار شيخ المغاربة سعيد بن علي الجزول، وأضافني قاضيها أبو إبراهيم إسحاق الجاناتي وهو من الأفاضل ،وأضافني جعفر بن محمد المسوفي. وديار تكدا مبنية بالحجارة الحمر وماؤها يجري على معادن النحاس فيتغير لونه وطعمه بذلك، ولا زرع بها إلا يسير من القمح يأكله التجار والغرباء ويباع بحساب عشرين مدا من أمدادهم بمثقال ذهب ومدهم ثلث المد ببلادنا ،وتباع الذرة عندهم بحساب تسعين مدا بمثقال ذهب ،وهي كثيرة العقارب وعقاربها تقتل من كان صبيا لم يبلغ، و أما الرجال فقلما تقتلهم ،ولقد لدغت يوما وأنا بها ولداً للشيخ سعيد بن علي عند الصبح فمات لحينه وحضرت جنازته، ولا شغل لأهل تكدا غير التجارة يسافرون كل عام إلى مصر، ويجلبون كل ما بها من حسان الثياب وسواها. ولأهلها رفاهية وسعة حال ويتفاخرون بكثرة العبيد والخدم وكذلك أهل مالي وإيوالاتن ،ولا يبيعون المعلمات منهن إلانادرا وبالثمن الكثير .

أردت لما دخلت تكدا شراء خادم معلِّمة فلم أجدها ،ثم بعث إلي القاضي أبو إبراهيم بخادم لبعض أصحابه فاشتريتها بخمسة وعشرين مثقالا ،ثم إن صاحبها ندم ورغب في الإقالة ،فقلت له :إن دللتني على سواها أقلتُك، فدلني على خادم لعليّ أغيول ،وهو المغربي التادلي الذي أبى أن يرفع شيئا من أسبابي حين وقعت ناقتي، وأبى أن يستقي غلامي الماء حين عطش ،فاشتريتها منه، وكانت خيرا من الأولى، وأقلتُ صاحبي الأول، ثم ندم هذا المغربي على بيع الخادم ،ورغب في الإقالة وألح في ذلك فأبيت إلا أن أجازيه بسوء فعله ، فكاد أن يجن أو يهلك أسفا ثم أقلته بعد

ومعدن النحاس بخارج تكدا يحفرون عليه في الأرض ويأتون به إلى البلد فيسكبونه في دورهم يفعل ذلك عبيدهم وخدمهم ،فإذا سكبوه نحاسا أحمر صنعوا منه قضبانا في طول شبر ونصف بعضها رقاق وبعضها غلاظ فتباع الغلاظ منها بحساب أربعمائه قضيب بمثقال

ذهب ،وتباع الرقاق بحساب ستمائة وسبعمائة بمثقال ذهب ،وهي صرفهم يشترون برقاقها اللحم والحطب ويشترون بغلاظها العبيد والخدم والذرة والسمن والقمح، ويحمل النحاس منها إلى مدينة كوبر من بلاد الكفار وإلى زغاري وإلى بلاد برنو ،وهي على مسيرة أربعين يوما من تكدا وأهلها مسلمون لهم ملك اسمه إدريس لا يظهر للناس ولا يكلمهم إلا من وراء حجاب، ومن هذه البلاد يؤتى بالجواري الحسان والفتيان والثياب الجيدة ،ويحمل النحاس أيضا منها إلى جْوجرة وبلاد المورتبين وسواها .

وفي أيام إقامتي بها توجه القاضي أبو إبراهيم والخطيب محمد والمدرس أبو حفص والشيخ سعيد بن علي إلى سلطان تكدا ،وهو بربري يسمى إزار ،وكان على مسيرة يوم منها ووقعت بينه وبين التكركري ،وهو من سلاطين البربر أيضا منازعة، فذهبوا إلى الإصلاح بينهما. فأردت أن ألقاه فاكتريت دليلا وتوجهت إليه ،وأعلمه المذكورون بقدومي فجاء إلي راكبا فرسا دون سرج وتلك عادتهم ،وقد جعل عوض السرج طنفسة حمراء بديعة وعليه ملحفة وسراويل وعمامة كلها زرق ،ومعه أولاد أخته ،وهم الذين يرثون ملكه فقمنا إليه وصافحناه ،وسأل عن حالي ومقدمي ، فأعلم بذلك وأنزلني ببيت من بيوت اليناطبين، وهم كالوصفاء عندنا، وبعث برأس غنم مشوي في السفود وقعب من حليب البقر وكان في جوارنا بيت أمه وأخته فجاءتا ،إلينا وسلمتا علينا، وكانت أمه تبعث لنا الحليب بعدالعتمة وهو وقت حلتهم ويشربونه ذلك الوقت بالغدو، وأما الطعام فلا يأكلونه ولا يعرفونه وأقمت عندهم ستة أيام، وفي كل يوم يبعث بكبشين مشويين عند الصباح والمساء، وأحسن إلي بناقة وعشرة مثاقيل من الذهب ،وانصرفت عنه وعدت إلى تكدا.

ولما عدت إلى تكدا وصل غلام الحاج محمد بن سعيد السجلماسي بأمر مولانا أمير المؤمنين وناصر الدين المتوكل على رب العالمين آمرا لي الوصول إلى حضرته العلية ،فقبلته وامتثلته على الفور ،واشتريت جملين لركوبي بسبعة وثلاثين مثقالا وثلث ،وقصدت السفر إلى توات، ورفعت زاد سبعين ليلة إذ لا يوجد الطعام فيما بين تكدا وتوات، إنما يوجد اللحم واللبن والسمن يشترى بالأثواب .

وخرجت من تكدا يوم الخميس الحادي عشر لشعبان سنة أربع وخمسين

(وسبعمائة=١٢ سبتمبر/أيلول ١٣٥٣) في رفقة كبيرة فيهم جعفر التواتي وهو من الفضلاء ومعنا الفقيه محمد بن عبدالله قاضي تكدا ،وفي الرفقة نحو ستمائة خادم فوصلنا إلى كاهر من بلاد السلطان الكركري وهي كثيرة الأعشاب يشتري بها الناس من برابربها الغنم ويقددون لحمها، ويحمله أهل توات إلى بلادهم. ودخلنا منها إلى برية لا عمارة بها ولا ماء وهي مسيرة ثلاثة أيام .

ثم سرنا بعد ذلك خمسة عشر يوما في برية لا عمارة بها إلا أن بها الماء . ووصلنا إلى الموضع الذي يفترق به طريق غات الآخذ إلى ديار مصر وطريق توات وهنالك أحساء ماء يجري على الحديد فإذا غسل به الثوب الأبيض اسود لونه .

وسرنا من هنالك عشرة أيام ووصلنا إلى بلاد هكار(=الطوارق) وهم طائفة من البربر ملثمون لا خير عندهم ولقينا أحد كبرائهم فحبس القافلة حتى غرموا له أثوابا وسواها وكان وصولنا إلى بلادهم في شهر رمضان، وهم لا يغيرون فيه ولا يعترضون القوافل، وإذا وجد سرّاقها المتاع بالطريق في رمضان لم يعرضوا له، وكذلك جميع من بهذه الطريق من البرابر، وسرنا في بلاد هكار شهرا وهي قليلة النبات كثيرة الحجارة، طريقها وعر ،ووصلنا يوم عيد الفطر إلى بلاد برابر أهل لثام كهؤلاء، فأخبرونا بأخبار بلادنا ، وأعلمونا أن أولاد خراج وابن يغمور خالفوا وسكنوا تسابيت ،من توات فخاف أهل القافلة من ذلك .

ثم وصلنا إلى بودا، وهي من أكبر قرى توات وأرضها رمال وسباخ وتمرها كثير ليس بطيب لكن أهلها يفضلونه على تمر سجلماسة ولا زرع بها ولا سمن ولا زيت وإنما يجلب لها ذلك من بلاد المغرب وأكل أهلها التمر والجراد وهو كثير عندهم يختزنونه كما يختزن التمر، ويقتاتون به ويخرجون إلى صيده قبل طلوع الشمس فإنه لا يطير إذ ذاك لأجل البرد وأقمنا ببودا أياما .

ثم سافرنا في قافلة ووصلنا في أوسط ذي القعدة إلى مدينة سجلماسة . وخرجت منها في ثاني ذي الحجة ،وذلك أوان البرد الشديد ونزل بالطريق ثلج كثير ،ولقد رأيت الطرق الصعبة والثلج الكثير ببخارى وسمرقند وخراسان وبلاد الأتراك فلم أر أصعب من طريق أم جنيبة، ووصلنا ليلة عيد الأضحى إلى دار الطمع، فأقمت هنالك يوم عيد الأضحى .

لضيافة الطلبة، فأخذ القاضي بيدي، وجئنا إلى تلك الدار، وهي بمقربة من دار الشيخ مفروشة مرتبة بما تحتاج إليه، ثم أتى بالطعام من دار الشيخ ومعه أحد وزرائه ،وهو الموكل بالضيوف، فقال: مولانا يسلم عليكم، ويقول لكم قدمتم خير مقدم .ثم وضع الطعام فأكلنا .وطعامهم الأرز المطبوخ بالسمن يجعلونه في صحفة خشب كبيرة ويجعلون فوقه صحاف الكوشان، وهو الإدام من الدجاج واللحم والحوت والبقول، ويطبخون الموز قبل نضجه في اللبن والحليب ويجعلونه في صحفة ويجعلون اللبن المريب في صحفة ويجعلون عليه الليمون المصبر وعناقيد الفلفل المصبر المخلل والمملوح والزنجبيل الأخضر والعنبا وهي مثل التفاح ولكن لها نواة وهي إذا نضجت شديدة الحلاوة وتؤكل كالفاكهة وقبل نضجها حامضة كالليمون يصبرونها في الخل، وهم إذا أكلوا لقمة من الأرز أكلوا بعدها من هذه الموالح والمخللات والواحد من أهل مقدشو يأكل قدر ما تأكله الجماعة منا عادة ،وهم في نهاية من ضخامة الأجسام وسمنها ثم لما أطعمنا انصرف عنا القاضي.

وأقمنا ثلاثة أيام يؤتى إلينا بالطعام ثلاث مرات في اليوم وتلك عادتهم فلما كان اليوم الرابع وهو يوم الجمعة ،جاءني القاضي والطلبة وأحد وزراء الشيخ وأتوني بكسوة، وكسوتهم فوطة خز يشدها الإنسان في وسطه عوض السراويل فإنهم لايعرفونها ،ودراعة من المقطع المصري معلمة ،وفرجية من المقدسي مبطنة ،وعمامة مصرية معلمة ،وأتوا لأصحابي بكسى تناسبهم ،وأتينا الجامع فصلينا خلف المقصورة، فلما خرج الشيخ من باب المقصورة، سلمت عليه مع القاضي فرحب وتكلم بلسانه مع القاضي، ثم قال باللسان العربي: قدمت خير مقدم وشرفت بلادنا وآنستنا. وخرج إلى صحن المسجد فوقف على قبر والده وهو مدفون هناك فقرأ ودعا ،ثم جاء الأمراء والوزراء ووجوه الأجناد فسلموا ،وعادتهم في السلام كعادة أهل اليمن يضع سبابته في الأرض ثم يجعلها على رأسه ،ويقول: أدام الله عزك .

ثم خرج الشيخ من باب المسجد فلبس نعليه وأمر القاضي أن ينتعل ،وأمرني أن أنتعل وتوجه إلى منزله ماشيا، وهو بالقرب من المسجد ومشى الناس كلهم حفاة، ورفعت فوق رأسه أربع قباب من الحرير الملون ،وعلى أعلى كل قبة صورة طائر من ذهب ،وكان لباسه في

ذلك اليوم فرجية قدسي أخضر وتحتها من ثياب مصر وطروحاتها الحسان ،وهو متقلد بفوطة حرير معتم بعمامة كبيرة، وضربت بين يديه الطبول والأبواق والأنفار وأمراء الأجناد أمامه وخلفه والقاضي والفقهاء والشرفاء معه ،ودخل إلى مشورة على تلك الهيئة ،وقعد الوزراء والأمراء ووجوه الأجناد في سقيفة هنالك ،وفرش للقاضي بساط لا يجلس معه غيره عليه والفقهاء والشرفاء معه ،ولم يزالوا كذلك إلى صلاة العصر فلما صلوا العصر مع الشيخ أتى جميع الأجناد ووقفوا صفوفا على قدر مراتبهم ،ثم ضربت الأطبال والأنفار والأبواق والصرنايات وعند ضربها لا يتحرك أحد ولا يتزحزح من مقامه ،ومن كان ماشيا وقف فلم يتحرك إلى خلف ولا إلى أمام فإذا فرغ من ضرب الطبللخانة سلموا بأصابعهم كما ذكرناه، وانصرفوا ،وتلك عادة لهم في كل يوم جمعة .وإذا كان يوم السبت يأتي الناس إلى باب الشيخ فيقعدون في سقائف خارج الدار ويدخل القاضي والفقهاء والشرفاء والصالحون والمشايخ والحجاج إلى المشور الثاني فيقعدون على دكاكين خشب معدة لذلك، ويكون القاضي على دكانة وحده وكل صنف على دكانة تخصهم لا يشاركهم فيها سواهم ثم يجلس الشيخ بمجلسه ويبعث إلى القاضي فيجلس عن يساره ثم يدخل الفقهاء فيقعد كبراؤهم بين يديه ويسلم سائرهم وينصرفون، وإن كانوا ضيوفا جلسوا عن يمينه ثم يدخل المشايخ والحجاج فيجلس كبراؤهم ويسلم سائرهم وينصرفون ،ثم يدخل الوزراء ثم الأمراء ثم وجوه الأجناد طائفة بعد طائفة أخرى فيسلمون وينصرفون ويؤتى بالطعام فيأكل بين يدي الشيخ القاضي والشرفاء ومن كان قاعدا بالمجلس ويأكل الشيخ معهم وإن أراد تشريف أحد من كبار أمرائه بعث إليه فأكل معهم ،ويأكل سائر الناس بدار الطعام ،وأكلهم على ترتيب مثل ترتيبهم في الدخول على الشيخ ثم يدخل الشيخ إلى داره ويقصد القاضي والوزراء، وكاتب السر وأربعة من كبار الأمراء للفصل بين الناس وأهل الشكايات فما كان متعلقا بالأحكام الشرعية حكم فيه القاضي ،وما كان من سوى ذلك حكم فيه أهل الشورى وهم الوزراء والأمراء وما كان مفتقرا إلى مشاورة السلطان كتبوا إليه فيخرج لهم الجواب من حينه على ظهر البطاقة بما يقتضيه نظره وتلك عادتهم

ثم ركبت من مدينة مقدشو متوجها إلى بلاد السواحل قاصدا مدينة كلوا(=بلاد

السواحل الشرقية جنوب الصومال) من بلاد الزنوج فوصلنا إلى جزيرة منبسى(جنوب خط الاستواء) وهي كبيرة بينها وبين أرض السواحل مسيرة يومين في البحر ولا بر لها وأشجارها الموز والليمون والأترج، ولهم فاكهة يسمونها الجمون وهي شبه الزيتون ولها نواة كنواه إلا أنها شديدة الحلاوة، ولا زرع عند أهل هذه الجزيرة، وإنما يجلب إليهم من السواحل وأكثر طعامهم الموز والسمك وهم شافعية المذهب أهل دين وعفاف وصلاح، ومساجدهم من الخشب محكمة الإتقان وعلى كل باب من أبواب المساجد البئر والثنتان، وعمق آبارهم ذراع أو ذراعان فيسقون منها الماء بقدح خشب قد غرز فيه عود رقيق في طول الذراع،والأرض حول البئر والمسجد مسطحة فمن أراد دخول المسجد غسل رجليه ودخل ويكون على بابه قطعة حصير غليظ يمسح بها رجليه ومن أراد الوضوء أمسك القدح بين فخذيه وصب على يديه ويتوضأ وجميع الناس يمشون حفاة الأقدام ،وبتنا بهذه الجزيرة ليلة وركبنا البحر إلى مدينة كلوا(=كيلوا كيزواني في تنزانيا) وهي مدينة عظيمة ساحلية أكثر أهلها الزنوج المستحكمو السواد ولهم شرطات في وجوههم ،كما هي في وجوه الليميين من جناوة(= غينيا) . وذكر لي بعض التجار أن مدينة سفالة(= مدينة يشار إليها كثيرا في المؤلفات الجغرافية تقع على الخط١٠،°٢٠ جنوبا والخط٤٢°،٣٤ شرقا)على مسيرة نصف شهر من مدينة كلوا ،وأن بين سفالة ويوفي(مقر مملكة النوبة في إفريقية الغربية) من بلاد الليميين مسيرة شهر، ومن يوفي يؤتى بالتبر إلى سفالة .ومدينة كلوا من أحسن المدن وأتقنها عمارة وكلها خشب وسقف بيوتها الديس. والأمطار بها كثيرة وهم أهل جهاد لأنهم في بر واحد مع كفار الزنوج والغالب عليهم الدين والصلاح ، وهم شافعية المذهب، وكان سلطان كلوا في عهد دخولي إليها أبو المظفر حسن، ويكنى أيضا أبو المواهب لكثرة مواهبه ومكارمه، وكان كثير الغزو إلى أرض الزنوج يغير عليهم ويأخذ الغنائم ،فيخرج خمسها ويصرفه في مصارفه المعينة في كتاب الله تعالى، ويجعل نصيب ذوي القربى في خزانة على حدة ،فإذا جاء الشرفاء دفعه إليهم .

وكان الشرفاء يقصدونه من العراق والحجاز وسواها، ورأيت عنده من شرفاء الحجاز جماعة منهم محمد بن جماز ومنصور بن لبيد بن أبي نمي ومحمد بن شميلة بن أبي نمي،

ولقيت بمقدشو أتيل بن كبش بن جماز، وهو يريد القدوم عليه، وهذا السلطان له تواضع شديد ،ويجلس مع الفقراء ويأكل معهم، ويعظم أهل الدين والشرف.

حضرته يوم جمعة وقد خرج إلى الصلاة قاصدا إلى داره فتعرض له أحد الفقراء اليمنيين فقال له: أبا المواهب، فقال له: لبيك يا فقير ما حاجتك؟ قال: أعطني هذه الثياب التي عليك، فقال له: نعم أعطيكها، فقال: الساعة، قال: نعم الساعة ،فرجع إلى المسجد ، ودخل بيت الخطيب فلبس ثيابا سواها ،وخلع تلك الثياب، وقال للفقير : ادخل فخذها ، فدخل الفقير وأخذها وربطها في منديل وجعلها فوق رأسه، وانصرف فعظم شكر الناس للسلطان على ما ظهر من تواضعه وكرمه ،وأخذ ابنه ولي عهده تلك الكسوة من الفقير وعوضه عنا بعشرة من العبيد ،وبلغ السلطان ما كان من شكر الناس له على ذلك ،فأمر للفقير أيضا بعشرة رؤوس من الرقيق ، وحملين من العاج، ومعظم عطاياهم من العاج، وقلما يعطون الذهب ،ولما توفي هذا السلطان الفاضل الكريم رحمة الله عليه ،ولي أخوه داود فكان على الضد إذا أتاه سائل يقول له: مات الذي كان يعطي ولم يترك من بعده ما يعطى. ويقيم الوفود عنده الشهور الكثيرة ،وحينئذ يعطيهم القليل حتى انقطع الوافدون عن بابه.

وركبنا البحر من كلوا إلى مدينة ظفار الحموض(=في عمان)، وهي آخر بلاد اليمن على ساحل البحر الهندي، ومنها تحمل الخيل العتاق إلى الهند، ويقطع البحر فيما بينها وبين الهند مع مساعدة الريح في شهر كامل قد قطعته مرة من قالقوط في بلاد الهند إلى ظفار في ثمانية وعشرين يوما بالريح ،ولم ينقطع لنا جري بالليل ولا بالنهار.)

مصادر كتاب إفريقية السوداء

الإدريسي، محمد بن محمد الصقلّي (٥٦٠=١١٦٥)

- نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، بيروت ، عالم الكتب ، ١٩٨٩

ابن بطوطة، أبو عبدالله محمد بن عبدالله (٧٧٩=١٣٧٧)

- رحلة ابن بطوطة المسمّاة : تحفة النظّار في غرائب الأمصار، تحقيق عبدالهادي التازي، المغرب، أكاديمية المملكة المغربية،١٩٩٧

البكري ، أبو عبيد عبدالله بن عبدالعزيز بن محمد (٤٨٧=١٠٩٤)

-المسالك والممالك، تحقيق أدريان فان ليوفن، أندري فيري ، تونس، الدار العربية للكتاب – بيت الحكمة، ١٩٩٢

أبو حامد الغرناطي ، محمد بن عبد الرحيم الأندلسي(٥٦٥=١١٧٠)

- تحفة الألباب ونخبة الإعجاب، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت، دار الجيل–المغرب دار الآفاق الجديدة

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى الأندلسي(٦٨٥=١٢٨٦)

- كتاب الجغرافيا، تحقيق إسماعيل العربي، بيروت ، المكتب التجاري للطباعة والنشر.

الدمشقي (= شيخ الربوة) محمد بن أبي طالب الأنصاري (٧٢٧=١٣٢٧)

- نخبة الدهر في عجائب البر والبحر، بغداد، مكتبة المثنى.

المسعودي، علي بن الحسين بن علي (٣٤٦=٩٥٧)

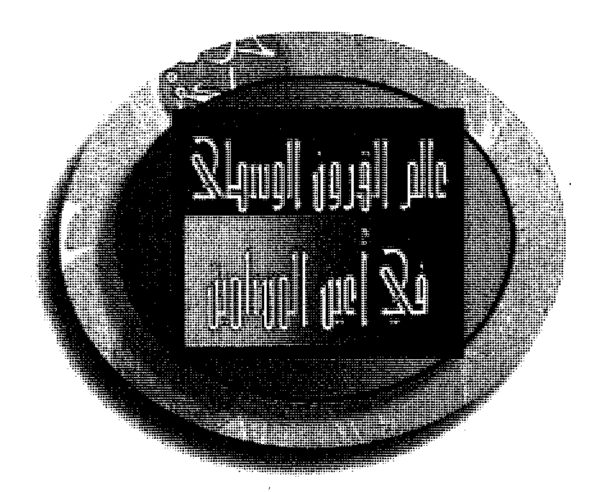
- مروج الذهب ومعادن الجوهر، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، القاهرة ، المكتبة التجارية ، ١٩٦٤

المقريزي ، أحمد بن علي الحسيني (٨٤٥=١٤٤١)

- الخطط المقريزية :المسمّاة بالمواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار، بيروت ، مكتبة إحياء العلوم، ١٩٥٩

الوزّان، الحسن بن محمد الفاسي (المعروف بـ"ليون الإفريقي") ، (٩٥٦=١٥٤٨)
- وصف إفريقيا، ترجمة محمد حجّي ومحمد الأخضر ، الرباط، الجمعية المغربية للتأليف والنشر، ١٩٨٠-١٩٨٢

ياقوت الحموي ،أبو عبدالله شهاب الدين ياقوت بن عبدالله الرومي (٦٢٦=١٢٢٩)
- معجم البلدان ، بيروت ، دار صادر.



هذا الكتاب

حفلت العصور الإسلامية بكتابات الجغرافيين والرحالة عن أقاليم المعمورة التي زاروها أو وصلت أخبارها إلى أسماعهم، ولم يكونوا ناقلين أو واصفين ما يشاهدونه بشكل سطحي، بل كانوا ينظرون إلى العالم المحيط بهم نظرة عملية استدعت منهم تسجيل تفاصيل هذه المشاهدات بكل حذافيرها، ومحاولة تعليل بعض ظواهرها الغامضة، وإيضاح مواقفهم من بعض مشاهداتهم التي لم تناسب معتقدهم الديني وعاداتهم الاجتماعية، لذلك اجتهد الدكتور عبد الله إبراهيم في لم شتات هذه المادة المتناثرة وتبويبها وتحليل عناصرها وظواهرها.




منشورات المجمع الثقافي

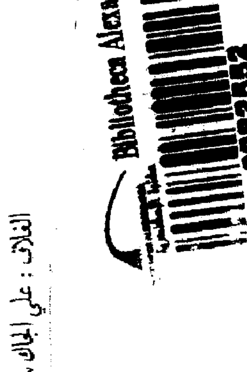
Cultural Foundation Publications

ابوظبي ـ الإمارات العربية المتحدة ـ ص. ب 2380 ـ هاتف : 6215300

ABU DHABI - U. A. E. - P.O. BOX : 2380 - TEL. 6215300 Cultural Foundation

Email:nlibrary@ns1.cultural.org.ae

http://WWW.Cultural.org.ae



الغلاف : علي الجلال سعيد

السعر 14 درهما